مختصر الميزان

في تفسير القرآن

السيد كمال الحيدري

المجلد الثاني

مختصر الميزان

في تفسير القرآن

مختصر الميزان

في تفسير القرآن

المجلد الثاني

الياس كلانتري

دار الأسوة للطباعة والنشر
ايران

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

طباطبایی، محمد حسین، ۱۲۸۱-۱۳۶۰.
[المیزان فی تفسیر القرآن. برگزیده]
مختصر المیزان فی تفسیر القرآن / [محمدحسین الطباطبایی]؛ تألیف الیاس کلانتری. ـ تهران: سازمان اوقاف و امور خیریه، انتشارات اُسوه، ۱۳۷۹.
۶ ج.

	ISBN 964-6066-02-x (دوره)
(ج. ۲) ISBN 964-6066-04-6	(ج. ۱) ISBN 964-6066-03-8
(ج. ۴) ISBN 964-6066-06-2	(ج. ۳) ISBN 964-6066-05-4
(ج. ۶) ISBN 964-6066-08-9	(ج. ۵) ISBN 964-6066-07-0

فهرستنویسی بر اساس اطلاعات فیپا.
عربی.
تفاسیر شیعه ـ قرن ۱۴. الف. کلانتری، الیاس، ۱۳۳۰ ـ، خلاصه کننده. ب. سازمان اوقاف و امور خیریه. انتشارات اُسوه. ج. عنوان. د. عنوان: المیزان فی تفسیر القرآن. برگزیده.
BP۹۸/ط۲۵م ۹۰۱۶ ۲۹۷/۱۷۲۶
کتابخانه ملی ایران م۷۹-۵۸۷۹

دار الأسوة للطباعة والنشر
ايران

مختصر الميزان في تفسير القرآن

إعداد: الياس كلانتري

الناشر: دار الأسوة للطباعة والنشر (التابعة لمنظّمة الأوقاف والشؤون الخيرية)

الطبعة: الأولى

سنة النشر: ۱۴۲۱ هـ.ق.

عدد المطبوع: ۵۰۰۰ دورة

ثمن الدورة: ۱۵۰،۰۰۰ ريال

شابک ج۲: ISBN 964-6066-04-6 | شابک دوره: ISBN 964-6066-02-x

جميع الحقوق محفوظة للناشر

طهران: ص.ب. ۶۸۴/ ۱۳۱۴۵، هاتف ۶۴۱۸۲۹۹ و ۶۴۱۸۰۹۹، تكس ۶۴۱۸۰۲۲
قم: ص.ب. ۳۹۹۹/ ۳۷۱۸۵، هاتف ۵۰۸۰ ۵۵ و ۵۲۲۱۲، تكس ۶۱۷۷۵۷

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المائدة مدنية وهي مائة وعشرون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ❁ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعامِ
إِلّا ما يُتْلىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّٰهَ
يَحْكُمُ ما يُرِيد.

٢ ❁ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللّٰهِ وَلا الشَّهْرَ الحَرامَ
وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً
مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْواناً وَإِذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ
شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا
وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوىٰ وَلا تَعاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوانِ
وَاتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ شَدِيدُ الْعِقابِ.

٣ ❁ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّٰهِ
بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَما أَكَلَ السَّبُعُ

إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ العقود جمع عقد وهو شدّ أحد شيئين بالآخر نوع شدّ يصعب معه انفصال أحدهما عن الآخر، كعقد الحبل والخيط بآخر من مثله، ولازمه التزام أحدهما الآخر، وعدم انفكاكه عنه، وقد كان معتبراً عندهم في الامور المحسوسة أولاً ثم استعير فعمّم للامور المعنوية كعقود المعاملات الدائرة بينهم من بيع أو إجارة أو غير ذلك، وكجميع العهود والمواثيق فاطلقت عليها الكلمة لثبوت أثر المعنى الذي عرفت أنه اللزوم والالتزام فيها.

ولما كان العقد ـ وهو العهد ـ يقع على جميع المواثيق الدينية التي أخذها الله من عباده من أركان وأجزاء كالتوحيد وسائر المعارف الأصلية والاعمال العبادية والأحكام المشروعة تأسيساً أو امضاء، ومنها عقود المعاملات وغير ذلك، وكان لفظ العقود أيضاً جمعاً محلى باللام لا جرم كان الأوجه حمل العقود في الآية على ما يعمّ كل ما يصدق عليه أنّه عقد[1].

قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ الخ: الإحلال هو الإباحة والبهيمة اسم لكل ذي اربع من دواب البر والبحر على ما في المجمع، وعلى هذا

---

(١) المائدة ١ ـ ٣: كلام في معنى العقد. ٥٤٢

فإضافة البهيمة الى الأنعام من قبيل إضافة النوع الى أصنافه كقولنا: نوع الإنسان وجنس الحيوان. وقيل: البهيمة جنين الأنعام، وعليه فالإضافة لاميّة. وكيف كان فقوله: «أُحلت لكم بهيمة الأنعام» أي الأزواج الثمانية أي أكل لحومها، وقوله: «إلا ما يتلى عليكم» إشارة الى ما سيأتي من قوله: «حرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهل لغير الله به» الآية.

وقوله: «غير محلي الصيد وأنتم حرم» حال من ضمير الخطاب في قوله: «أُحلت لكم» ومفاده حرمة هذا الذي أُحل اذا كان اصطياده في حال الإحرام، كالوحشي من الظباء والبقر والحمر اذا صيدت، وربما قيل: إنه حال من قوله: «أوفوا» أو حال من ضمير الخطاب في قوله: «يتلى عليكم» والصيد مصدر بمعنى المفعول، كما أن الحرم بضمتين جمع الحرام بمعنى المحرم اسم فاعل.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ خطاب مجدد للمؤمنين يفيد شدة العناية بحرمات الله تعالى.

والإحلال هو الإباحة الملازمة لعدم المبالاة بالحرمة والمنزلة، ويتعين معناه بحسب ما أُضيف إليه: فإحلال شعائر الله عدم احترامها وتركها، وإحلال الشهر الحرام عدم حفظ حرمته والقتال فيه، وهكذا.

والشعائر جمع شعيرة وهي العلامة، وكأن المراد بها أعلام الحج ومناسكه. والشهر الحرام ما حرمه الله من شهور السنة القمرية وهي: المحرّم ورجب وذو القعدة وذو الحجة. والهدي ما يساق للحج من الغنم والبقر والإبل. والقلائد جمع قلادة، وهي ما يقلد به الهدي في عنقه من نعل ونحوه ليعلم أنه هدي للحج فلا يتعرض له. والآمّين جمع آم اسم فاعل من أمَّ اذا قصد، والمراد به القاصدون لزيارة البيت الحرام. وقوله: «يبتغون فضلاً»، حال من «آمّين»

والفضل هو المال أو الربح المالي، فقد أُطلق عليه في قوله تعالى: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾ (آل عمران / ١٧٤) وغير ذلك أو هو الأجر الاخروي أو الأعم من المال والأجر.

وقد اختلفوا في تفسير الشعائر والقلائد وغيرهما من مفردات الآية على أقوال شتى، والذي آثرنا ذكره هو الأنسب لسياق الآية، ولا جدوى في التعرض لتفاصيل الأقوال.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أمر واقع بعد الحظر لا يدل على أزيد من الاباحة بمعنى عدم المنع، والحل والإحلال ـ مجرداً ومزيداً فيه ـ بمعنى وهو الخروج من الإحرام.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ يقال: جرمه يجرمه أي حمله، ومنه الجريمة للمعصية لأنها محمولة من حيث وبالها، وللعقوبة المالية وغيرها لأنها محمولة على المجرم. وذكر الراغب أن الأصل في معناها القطع. والشنآن العداوة والبغض. وقوله: «أن صدُّوكم» أي منعوكم بدل أو عطف بيان من الشنآن، ومحصل معنى الآية: ولا يحملنكم عداوة قوم وهو أن منعوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا عليهم بعدما أظهركم الله عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ المعنى واضح، وهذا أساس السنة الإسلامية، وقد فسر الله سبحانه البر في كلامه بالايمان والاحسان في العبادات والمعاملات، كما مر في قوله تعالى: ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر الآية﴾ (البقرة / ١٧٧) وقد تقدم الكلام فيه. والتقوى مراقبة أمر الله ونهيه، فيعود معنى التعاون على البر والتقوى الى الاجتماع على الايمان والعمل الصالح على أساس تقوى الله، وهو الصلاح والتقوى الاجتماعيان، ويقابله التعاون على الاثم الذي هو العمل السيِّىء المستتبع للتأخر في امور الحياة السعيدة، وعلى العدوان وهو التعدي على

حقوق الناس الحقة بسلب الأمن من نفوسهم أو أعراضهم أو أموالهم وقد مر شطر من الكلام في هذا المعنى في ذيل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا﴾ الآية. (آل عمران / ٢٠٠)؛ في الجزء الرابع من هذا الكتاب.

ثم أكد سبحانه نهيه عن الاجتماع على الإثم والعدوان بقوله: «واتقوا الله إن الله شديد العقاب» وهو في الحقيقة تأكيد على تأكيد.

قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ هذه الأربعة مذكورة فيما نزل من القرآن قبل هذه السورة كسورتي الأنعام والنحل وهما مكّيتان، وسورة البقرة وهي أول سورة مفصلة نازلة بالمدينة قال تعالى: ﴿قل لا أجد فيما أُوحي إلي محرّماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أُهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم﴾ (الأنعام / ١٤٥) وقال تعالى: ﴿إنما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾ (البقرة / ١٧٣).

والآيات جميعاً ـ كما ترى ـ تحرّم هذه الأربعة المذكورة في صدر هذه الآية وتماثل الآية أيضاً في الاستثناء الواقع في ذيلها بقوله: «فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم» فآية المائدة بالنسبة الى هذه المعاني المشتركة بينها وبين تلك مؤكدة لتلك الآيات.

بل النهى عنها وخاصة عن الثلاثة الاول أعني الميتة والدم ولحم الخنزير أسبق تشريعاً من نزول سورتي الأنعام والنحل المكيتين، فإن آية الأنعام تعلل تحريم الثلاثة أو خصوص لحم الخنزير بأنه رجس، فتدل على تحريم أكل الرجز، وقد قال تعالى في سورة المدثر ـ وهي من السور النازلة في أول البعثة ـ: ﴿والرجز فاهجر﴾ (المدثر / ٥).

وكذلك ما عدّه تعالى بقوله: «والمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنطيحة وما أكل السبع»

جميعاً من مصاديق الميتة بدليل قوله: «إلا ما ذكيتم» فإنما ذكرت في الآية لنوع عناية بتوضيح أفراد الميتة ومزيد بيان للمحرمات من الأطعمة من غير أن تتضمن الآية فيها على تشريع حديث.

وكذلك ما عدّه الله تعالى بقوله: «وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذالكم فسق» فإنها وإن كانا أول ما ذكرا ذكرا في هذه السورة لكنه تعالى علل تحريمها أو تحريم الثاني منها ـ على احتمال ضعيف ـ بالفسق، وقد حرم الفسق في آية الأنعام، وكذا قوله: «غير متجانف لإثم» يدل على تحريم ما ذكر في الآية لكونه إثماً، وقد دلت آية البقرة على تحريم الاثم، وقال تعالى أيضاً: ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾ (الأنعام / ١٢٠)، وقال تعالى: ﴿قل إنما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم﴾ (الأعراف / ٣٣).

فقد اتضح وبان أن الآية لا تشتمل فيما عدّته من المحرمات على أمر جديد غير مسبوق بالتحريم فيما تقدم عليها من الآيات المكية أو المدنية المتضمنة تعداد محرمات الأطعمة من اللحوم ونحوها.

قوله تعالى: ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ المنخقة هي البهيمة التي تموت بالخنق، وهو أعم من أن يكون عن اتفاق أو بعمل عامل اختياراً، ومن أن يكون بأي آلة ووسيلة كانت كحبل يشدّ على عنقها ويسد بضغطه مجرى تنفسها، أو بإدخال رأسها بين خشبتين، كما كانت هذه الطريقة وأمثالها دائرة بينهم في الجاهلية.

والموقوذة هي التي تضرب حتى تموت، والمتردية هي التي تردت أي سقطت من مكان عال كشاهق جبل أو بئر ونحوهما.

والنطيحة هي التي ماتت عن نطح نطحها به غيرها، وما أكل السبع هي التي أكلها أي أكل من لحمها السبع فإن الأكل يتعلق بالمأكول سواء أفني جميعه أو بعضه والسبع هو الوحش

الضاري كالأسد والذئب والنمر ونحوها.

وقوله: «إلا ما ذكيتم» استثناء لما يقبل التذكية بمعنى فري الأوداج الاربعة منها كما اذا كانت فيها بقية من الحياة يدل عليها مثل حركة ذنب أو أثر تنفس ونحو ذلك، والاستثناء كما ذكرنا آنفاً متعلق بجميع ما يقبله من المعدودات من دون أن يتقيد بالتعلق بالأخير من غير دليل عليه.

وهذه الامور الخمسة أعني المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع كل ذلك من أفراد الميتة ومصاديقها، بمعنى أن المتردية أو النطيحة مثلاً إنما تحرمان اذا ماتتا بالتردي والنطح. والدليل على ذلك قوله: «إلا ما ذكيتم» فإن من البديهي أنهما لا تؤكلان ما دامت الروح في جثمانهما، وإنما تؤكلان بعد زهوقها وحينئذ فإما أن تذكيا أولا، وقد استثنى الله سبحانه التذكية فلم يبق للحرمة إلا اذا ماتتا عن ترد أو نطح من غير تذكية. وأما لو تردت شاة ـ مثلاً ـ في بئر ثم أُخرجت سليمة مستقيمة الحال فعاشت قليلاً أو كثيراً ثم ماتت حتف أنفها أو ذكيت بذبح فلا تطلق عليها المتردية، يدل على ذلك السياق فإن المذكورات فيها ما اذا هلكت، واستند هلاكها الى الوصف الذي ذكر لها كالانخناق والوقذ والتردي والنطح.

والوجه في تخصيص هذه المصاديق من الميتة بالذكر رفع ما ربما يسبق الى الوهم أنها ليست ميتة بناء على أنها أفراد نادرة منها، والذهن يسبق غالباً الى الفرد الشائع، وهو ما اذا ماتت بمرض ونحوه من غير أن يكون لمفاجأة سبب من خارج، فصرح تعالى بهذه الأفراد والمصاديق النادرة بأسمائها حتى يرتفع اللبس وتتضح الحرمة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ قال الراغب في المفردات: نصب الشيء وضعه وضعاً ناتئاً كنصب الرمح والبناء والحجر. والنصيب الحجارة تنصب على الشيء، وجمعه نصائب ونصب، وكان للعرب حجارة تعبدها وتذبح عليها قال: **﴿كأنهم الى نصب يوفضون﴾** (المعارج / ٤٣)، قال: «وما ذبح على النصب» وقد يقال في جمعه: أنصاب قال:

﴿ والأنصاب والأزلام ﴾ والنُصب والنَصب: التعب.

فالمراد من النهي عن أكل لحوم ما ذبح على النصب أن يستنّ بسنن الجاهلية في ذلك، فإنهم كانوا نصبوا حول الكعبة أحجاراً يقدسونها ويذبحون عليها، وكان من سنن الوثنية.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ﴾ والأزلام هي القداح، والاستقسام بالقداح أن يؤخذ جزور ـ أو بهيمة اخرى ـ على سهام ثم يضرب بالقداح في تشخيص من له سهم ممن لا سهم له، وفي تشخيص نفس السهام المختلفة وهو الميسر. وقد مر شرحه عند قوله تعالى: ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ الآية (البقرة / ٢١٩)؛ في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

قال الراغب: القسم إفراز النصيب يقال: قسمت كذا قسماً وقسمة، وقسمة الميراث وقسمة الغنيمة تفريقها على أربابها، قال: ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ (الحجر / ٤٤) «ونبئهم أن الماء قسمة بينهم» واستقسمته سألته أن يقسم، ثم قد يستعمل في معنى قسم قال: «وأن تستقسموا بالازلام»، وما ذكره من كون استقسم بمعنى قسم إنما هو بحسب الانطباق مصداقاً، والمعنى بالحقيقة طلب القسمة بالأزلام التي هي آلات هذا الفعل، فاستعمال الآلة طلب لحصول الفعل المترتب عليها فيصدق الاستفعال. فالمراد بالاستقسام بالازلام المنهي عنه على ظاهر السياق هو ضرب القداح على الجزور ونحوه للذهاب بما في لحمه من النصيب.

وقوله: «ذلكم فسق» يحتمل الاشارة الى جميع المذكورات، والاشارة الى الأخيرين المذكورين بعد قوله: «إلا ما ذكيتم» لحيلولة الاستثناء، والاشارة الى الأخير ولعل الأوسط خير الثلاثة.

قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ﴾ أمر الآية في حلولها محلها ثم في دلالتها عجيب، فإنك اذا تأملت صدر الآية أعني قوله تعالى:

«حرّمت عليكم الميتة والدم ـ الى قوله ـ: ذٰلكم فسق» وأضفت إليه ذيلها أعني قوله: «فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم» وجدته كلاماً تاماً غير متوقف في تمام معناه وإفادته المراد منه الى شيء من قوله: «اليوم يئس الذين كفروا من دينكم» الخ؛ أصلاً، وألفيته آية كاملة مماثلة لما تقدم عليها في النزول من الآيات الواقعة في سور الأنعام والنحل والبقرة المبيّنة لمحرمات الطعام، ففي سورة البقرة: ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾ ويماثله ما في سورتي الأنعام والنحل.

وينتج ذلك أن قوله: «اليوم يئس الذين كفروا» الخ؛ كلام معترض موضوع في وسط هذه الآية غير متوقف عليه لفظ الآية في دلالتها وبيانها، سواء قلنا: إن الآية نازلة في وسط الآية فتخللت بينها من أول ما نزلت، أو قلنا: إن النبي ﷺ هو الذي أمر كتّاب الوحي بوضع الآية في هذا الموضع مع انفصال الآيتين واختلافهما نزولاً. أو قلنا: إنها موضوعة في موضعها الذي هي فيه عند التأليف من غير أن تصاحبها نزولاً، فإن شيئاً من هذه الاحتمالات لا يؤثر أثراً فيما ذكرناه من كون هذا الكلام المتخلل متعرضاً اذا قيس الى صدر الآية وذيلها.

ويؤيد ذلك أن جل الروايات الواردة في سبب النزول ـ لو لم يكن كلها، وهي أخبار جمّة ـ يخص قوله: «اليوم يئس الذين كفروا» الخ؛ بالذكر من غير أن يتعرض لأصل الآية أعني قوله: «حرّمت عليكم الميتة»، أصلاً، وهذا يؤيد أيضاً نزول قوله: «اليوم يئس» الخ؛ نزولاً مستقلاً منفصلاً عن الصدر والذيل، وأن وقوع الآية في وسط الآية مستند الى تأليف النبي ﷺ أو الى تأليف المؤلفين بعده.

ويؤيده ما رواه في الدر المنثور عن عبد بن حميد عن الشعبي قال: نزل على النبي ﷺ هذه الآيه ـ وهو بعرفة ـ «اليوم أكملت لكم دينكم» وكان اذا أعجبته آيات جعلهن صدر السورة، قال: وكان جبرئيل يعلمه كيف ينسك.

ثم إن هاتين الجملتين أعني قوله: «اليوم يئس الذين كفروا من دينكم» وقوله: «اليوم أكلمت لكم دينكم» متقاربتان مضموناً، مرتبطتان مفهوماً بلا ريب، لظهور ما بين يأس الكفار من دين المسلمين وبين إكمال دين المسلمين من الارتباط القريب، وقبول المضمونين لأن يمتزجا فيتركّبا مضموناً واحداً مرتبط الأجزاء، متصل الأطراف بعضها ببعض، مضافاً الى ما بين الجملتين من الاتحاد في السياق.

ويؤيد ذلك ما نرى أن السلف والخلف من مفسري الصحابة والتابعين والمتأخرين الى يومنا هذا أخذوا الجملتين متصلتين يتم بعضها بعضاً. وليس ذلك إلا لأنهم فهموا من هاتين الجملتين ذلك، وبنوا على نزولها معاً، واجتماعها من حيث الدلالة على مدلول واحد.

وينتج ذلك أن هذه الآية المعترضة أعني قوله: «اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ـ الى قوله ـ: ورضيت لكم الاسلام ديناً» كلام واحد متصل بعض أجزائه ببعض مسوق لغرض واحد قائم بمجموع الجملتين من غير تشتت سواء قلنا بارتباطه بالآية المحيطة بها أو لم نقل، فإن ذلك لا يؤثر ألبتّة في كون هذا المجموع كلاماً واحداً معترضاً لا كلامين ذوي غرضين، وأن اليوم المتكرر في قوله: «اليوم يئس الذين كفروا»، وفي قوله: «اليوم أكملت لكم دينكم»، أُريد به يوم واحد يئس فيه الكفار وأُكمل فيه الدين.

ثم ما المراد بهذا اليوم الواقع في قوله تعالى: «اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم»؟ فهل المراد به زمان ظهور الاسلام ببعثة النبي ﷺ ودعوته فيكون المراد أن الله أنزل إليكم الإسلام، وأكمل لكم الدين وأتم عليكم النعمة وأيأس منكم الكفار؟

لا سبيل الى ذلك لأن ظاهر السياق أنه كان لهم دين كان الكفار يطمعون في إبطاله أو تغييره، وكان المسلمون يخشونهم على دينهم فأيأس الله الكافرين مما طمعوا فيه وآمن المسلمين وأنه كان ناقصاً فأكمله الله وأتم نعمته عليهم. ولم يكن لهم قبل الاسلام دين حتى يطمع فيه الكفار أو يكمله الله ويتم نعمته عليهم.

على أن لازم ما ذكر من المعنى أن يتقدم قوله : « اليوم أكملت » ، على قوله : « اليوم يئس الذين كفروا » ، حتى يستقيم الكلام في نظمه .

أو أن المراد باليوم هو ما بعد فتح مكة حيث أبطل الله فيه كيد مشركي قريش وأذهب شوكتهم ، وهدم فيه بنيان دينهم ، وكسر أصنامهم ، فانقطع رجاؤهم أن يقوموا على ساق ، ويضادوا الاسلام ويمانعوا نفوذ أمره وانتشار صيته ؟

لا سبيل الى ذلك أيضاً فإن الآية تدل على إكمال الدين وإتمام النعمة ولما يكمل الدين بفتح مكة ـ وكان في السنة الثامنة من الهجرة ـ فكم من فريضة نزلت بعد ذلك ، وكم من حلال أو حرام شرّع فيما بينه وبين رحلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

على أن قوله : « الذين كفروا » يعم جميع مشركي العرب ولم يكونوا جميعاً آئسين من دين المسلمين ، ومن الدليل عليه أن كثيراً من المعارضات والمواثيق على عدم التعرض كانت باقية بعد على اعتبارها واحترامها ، وكانوا يحجون حجة الجاهلية على سنن المشركين ، وكانت النساء يحججن عاريات مكشوفات العورة حتى بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام بآيات البراءة فأبطل بقايا رسوم الجاهلية .

أو أن المراد باليوم ما بعد نزول البراءة من الزمان حيث انبسط الاسلام على جزيرة العرب تقريباً ، وعفت آثار الشرك ، وماتت سنن الجاهلية فما كان المسلمون يرون في معاهد الدين ومناسك الحج أحداً من المشركين ، وصفا لهم الأمر ، وأبدلهم الله بعد خوفهم أمناً يعبدونه ولا يشركون به شيئاً ؟

لا سبيل الى ذلك فإن مشركي العرب وإن أيسوا من دين المسلمين بعد نزول آيات البراءة وطي بساط الشرك من الجزيرة وإعفاء رسوم الجاهلية إلا أن الدين لم يكمل بعد ، وقد نزلت فرائض وأحكام بعد ذلك ، ومنها ما في هذه السورة : (سورة المائدة) ، وقد اتفقوا على نزولها في آخر عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وفيها شيء كثير من أحكام الحلال والحرام والحدود

والقصاص.

فتحصّل أنه لا سبيل الى احتمال أن يكون المراد باليوم في الآية معناه الوسيع مما يناسب مفاد الآية بحسب بادىء النظر كزمان ظهور الدعوة الاسلامية أو ما بعد فتح مكة من الزمان، أو ما بعد نزول آيات البراءة فلا سبيل إلا أن يقال: ان المراد باليوم يوم نزول الآية نفسها، وهو يوم نزول السورة إن كان قوله: «اليوم يئس الذين كفروا»، معترضاً مرتبطاً بحسب المعنى بالآية المحيطة بها، أو بعد نزول سورة المائدة في أواخر عهد النبي ﷺ، وذلك لمكان قوله تعالى: «اليوم أكملت».

فهل المراد باليوم يوم فتح مكة بعينه؟ أو يوم نزول البراءة بعينه؟ يكفي في فساده ما تقدم من الإشكالات الواردة على الاحتمال الثاني والثالث المتقدمين.

أو أن المراد باليوم هو يوم عرفة من حجة الوداع كما ذكره كثير من المفسرين وبه ورد بعض الروايات؟ فما المراد من يأس الذين كفروا يومئذ من دين المسلمين فإن كان المراد باليأس من الدين يأس مشركي قريش من الظهور على دين المسلمين فقد كان ذلك يوم الفتح عام ثمانية لا يوم عرفة من السنة العاشرة. وإن كان المراد يأس مشركي العرب من ذلك فقد كان ذلك عند نزول البراءة وهو في السنة التاسعة من الهجرة، وإن كان المراد به يأس جميع الكفار الشامل لليهود والنصارى والمجوس وغيرهم ـ وذلك الذي يقتضيه إطلاق قوله: «الذين كفروا» ـ فهؤلاء لم يكونوا آئسين من الظهور على المسلمين بعد، ولما يظهر للإسلام قوة وشوكة وغلبة في خارج جزيرة العرب اليوم.

ومن جهة أُخرى يجب أن نتأمل فيما لهذا اليوم ـ وهو يوم عرفة تاسع ذي الحجة سنة عشر من الهجرة ـ من الشأن الذي يناسب قوله: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي» في الآية.

فربما أمكن أن يقال: إن المراد به إكمال أمر الحج بحضور النبي ﷺ بنفسه فيه، وتعليمه

الناس تعلياً عملياً مشفوعاً بالقول.

لكن فيه أن مجرد تعليمه الناس مناسك حجهم ـ وقد أمرهم بحج التمتع ولم يلبث دون أن صار مهجوراً. وقد تقدمه تشريع أركان الدين من صلاة وصوم وحج وزكاة وجهاد وغير ذلك ـ لا يصح أن يسمى إكمالاً للدين، وكيف يصح أن يسمى تعليم شيء من واجبات الدين إكمالاً لذلك الواجب فضلاً عن أن يسمى تعليم واجب من واجبات الدين لمجموع الدين؟

على أن هذا الاحتمال يوجب انقطاع رابطة الفقرة الاولى أعني قوله: «اليوم يئس الذين كفروا من دينكم» بهذه الفقرة أعني قوله: «اليوم أكملت لكم دينكم» وأي ربط ليأس الكفار عن الدين بتعليم رسول الله ﷺ حج التمتع للناس؟

وربما أمكن أن يقال: إن المراد به إكمال الدين بنزول بقايا الحلال والحرام في هذا اليوم في سورة المائدة، فلا حلال بعده ولا حرام، وبإكمال الدين استولى اليأس على قلوب الكفار، ولاحت آثاره على وجوههم.

لكن يجب أن نتبصّر في تمييز هؤلاء الكفار الذين عبر عنهم في الآية بقوله: «الذين كفروا» على هذا التقدير وأنهم مَن هم؟ فإن أُريد بهم كفار العرب فقد كان الإسلام عمّهم يومئذ ولم يكن فيهم من يتظاهر بغير الإسلام وهو الاسلام حقيقة، فمن هم الكفار الآئسون؟

وإن أُريد بهم الكفار من غيرهم كسائر العرب من الامم والأجيال فقد عرفت آنفاً أنهم لم يكونوا آئسين يومئذ من الظهور على المسلمين.

ثم نتبصر في أمر انسداد باب التشريع بنزول سورة المائدة وانقضاء يوم عرفة فقد وردت روايات كثيرة لا يستهان بها عدداً بنزول أحكام وفرائض بعد اليوم كما في آية الصيف[1] وآيات الربا، حتى أنه روي عن عمر أنه قال في خطبة خطبها: من آخر القرآن نزولاً آية

---

١. وهي آية الكلالة المذكورة في آخر سورة النساء.

الربا . وإنه مات رسول الله ولم يبينه لنا ، فدعوا ما يريبكم الى ما لا يريبكم . الحديث . وروى البخاري في الصحيح عن ابن عباس قال : آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا ، الى غير ذلك من الروايات .

وليس للباحث أن يضعّف الروايات فيقدم الآية عليها ، لأن الآية ليست بصريحة ولا ظاهرة في كون المراد باليوم فيها هذا اليوم بعينه وإنما هو وجه محتمل يتوقف في تعينه على انتفاء كل احتمال ينافيه ، وهذه الاخبار لا تقصر عن الاحتمال المجرد عن السند .

أو يقال : ان المراد بإكمال الدين خلوص البيت الحرام لهم ، وإجلاء المشركين عنه حتى حجه المسلمون وهم لا يخاطلهم المشركون .

وفيه : أنه قد كان صفا الأمر للمسلمين فيما ذكر قبل ذلك بسنة ، فما معنى تقييده باليوم في قوله : «اليوم أكملت لكم دينكم» ؟ على أنه لو سلّم كون هذا الخلوص إتماماً للنعمة لم يسلّم كونه إكمالاً للدين ، وأي معنى لتسمية خلوص البيت إكمالاً للدين ، وليس الدين إلا مجموعة من عقائد وأحكام ، وليس إكماله إلا أن يضاف الى عدد أجزائها وأبعاضها عدد ؟ وأما صفاء الجو لإجرائها ، وارتفاع الموانع والمزاحمات عن العمل بها فليس يسمى إكمالاً للدين البتة . على أن إشكال يأس الكفار عن الدين على حاله .

ويمكن أن يقال : إن المراد من إكمال الدين بيان هذه المحرمات بياناً تفصيلياً ليأخذ به المسلمون ، ويجتنبوها ولا يخشوا الكفار في ذلك لأنهم قد يئسوا من دينهم بإعزاز الله المسلمين ، وإظهار دينهم وتغليبهم على الكفار .

توضيح ذلك أن حكمة الاكتفاء في صدر الإسلام بذكر المحرمات الاربعة أعني الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهل لغير الله به الواقعة في بعض السور المكية وترك تفصيل ما يندرج فيها مما كرهه الاسلام للمسلمين من سائر ما ذكر في هذه الآية الى ما بعد فتح مكة إنما هي التدرج في تحريم هذه الخبائث والتشديد فيها كما كان التدريج في تحريم الخمر لئلا ينفر

العرب من الاسلام، ولا يروا فيه حرجاً يرجون به رجوع من آمن فقرائهم وهم أكثر السابقين الأولين.

جاء هذا التفصيل للمحرمات بعد قوة الاسلام، وتوسعة الله على أهله وإعزازهم، وبعد أن يئس المشركون بذلك من نفور أهله منه، وزال طمعهم في الظهور عليهم، وإزالة دينهم بالقوة القاهرة، فكان المؤمنون أجدر بهم لا يبالوهم بالمداراة، ولا يخافوهم على دينهم وعلى أنفسهم.

فالمراد باليوم يوم عرفة من عام حجة الوداع، وهو اليوم الذي نزلت فيه هذه الآية المبينة لما بقي من الاحكام التي أبطل بها الاسلام بقايا مهانة الجاهلية وخبائثها وأوهامها، والمبشرة بظهور المسلمين على المشركين ظهوراً تاماً لا مطمع لهم في زواله، ولا حاجة معه الى شيء من مداراتهم أو الخوف من عاقبة أمرهم.

فالله سبحانه يخبرهم في الآية أن الكفار أنفسهم قد يئسوا من زوال دينهم وأنه ينبغي لهم ـ وقد بدّلهم بضعفهم قوة، وبخوفهم أمناً، وبفقرهم غنى ـ أن لا يخشوا غيره تعالى، وينتهوا عن تفاصيل ما نهى الله عنه في الآية ففيها كمال دينهم. كذا ذكره بعضهم بتلخيص ما في النقل.

وفيه: أن هذا القائل أراد الجمع بين عدة من الاحتمالات المذكورة ليدفع بكل احتمال ما يتوجه الى الاحتمال الآخر من الإشكال فتورّط بين المحاذير برمّتها وأفسد لفظ الآية ومعناها جميعاً.

فذهل عن أن المراد باليأس إن كان هو اليأس المستند الى ظهور الاسلام وقوته وهو ما كان بفتح مكة أو بنزول آيات البراءة لم يصح أن يقال يوم عرفة من السنة العاشرة: «اليوم يئس الذين كفروا من دينكم» وقد كانوا يئسوا قبل ذلك بسنة أو سنتين، وإنما اللفظ الوافي له أن يقال: قد يئسوا كما عبر به القائل نفسه في كلامه في توضيح المعنى أو يقال: إنهم آئسون.

وذهل عن أن هذا التدرج الذي ذكره في محرمات الطعام، وقاس تحريمها بتحريم الخمر إن

أُريد به التدرج من حيث تحريم بعض الافراد بعد بعض فقد عرفت أن الآية لا تشتمل على أزيد مما تشتمل عليه آيات التحريم السابقة نزولاً على هذه الآية أعني آيات البقرة والانعام والنحل، وأن المنخنقة والموقوذة، الخ: من افراد ما ذكر فيها.

وإن أُريد به التدرج من حيث البيان الإجمالي والتفصيلي خوفاً من امتناع الناس من القبول ففي غير محله، فإن ما ذكر بالتصريح في السور السابقة على المائدة أعني الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهل لغير الله به أغلب مصداقاً، وأكثر ابتلاءً، وأوقع في قلوب الناس من أمثال المنخنقة والموقوذة وغيرها، وهي أُمور نادرة التحقق وشاذة الوجود، فما بال تلك الاربعة وهي أهم وأوقع وأكثر يصرح بتحريمها من غير خوف من دلك ثم يتقى من ذكرها ما لا يعبأ بأمره بالاضافة إليها فيتدرج في بيان حرمتها، ويخاف من التصريح بها؟

على أن ذلك لو سلّم لم يكن إكمالاً للدين، وهل يصح ان يسمى تشريع الاحكام ديناً؟ وابلاغها وبيانها إكمالاً للدين؟ ولو سلّم فإنما ذلك إكمال لبعض الدين وإتمام لبعض النعمة لا للكل والجميع، وقد قال تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي» فأطلق القوم من غير تقييد.

على أنه تعالى قد بيّن أحكاماً كثيرة في ايام كثيرة، فما بال هذا الحكم في هذا اليوم خص بالمزية فسماه الله أو سمّى بيانه تفصيلاً بإشمال الدين وإتمام النعمة؟

أو أن المراد بإكمال الدين إكماله بسد باب التشريع بعد هذه الآية المبيّنة لتفصيل محرمات الطعام، فما شأن الاحكام النازلة ما بين نزول المائدة ورحلة النبي ﷺ؟ بل ما شأن سائر الاحكام النازلة بعد هذه الآية في سورة المائدة؟ تأمّل فيه.

وبعد ذلك كله ما معنى قوله تعالى: «ورضيت لكم الإسلام ديناً» ـ وتقديره: اليوم رضيت، الخ؛ ـ لو كان المراد بالكلام الامتنان بما ذكر في الآية من المحرمات يوم عرفة من السنة العاشرة؟ وما وجه اختصاص هذا اليوم بأن الله سبحانه رضي فيه الاسلام ديناً، ولا أمر

يختص به اليوم مما يناسب هذا الرضى؟.

وبعد ذلك كله يرد على هذا الوجه أكثر الاشكالات الواردة على الوجوه السابقة أو ما يقرب منها مما تقدم بيانه، ولا نطيل بالإعادة.

أو أن المراد باليوم واحد من الايام التي بين عرفة وبين ورود النبي ﷺ المدينة على بعض الوجوه المذكورة في معنى يأس الكفار ومعنى إكمال الدين.

وفيه من الإشكال ما يرد على غيره على التفصيل المتقدّم.

فهذا شطر من البحث عن الآية بحسب السير فيما قيل أو يمكن ان يقال في توجيه معناها، ولنبحث عنها من طريق آخر يناسب طريق البحث الخاص بهذا الكتاب.

قوله: «اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم» ـ واليأس يقابل الرجاء، والدين إنما نزل من عند الله تدريجاً ـ يدل على ان الكفار قد كان لهم مطمع في دين المسلمين وهو الاسلام، وكانوا يرجون زواله بنحو منذ عهد وزمان، وأن أمرهم ذلك كان يهدد الاسلام حيناً بعد حين، وكان الدين منهم على خطر يوماً بعد يوم، وأن ذلك كان من حقه ان يحذر منه ويخشاه المؤمنون.

فقوله: «فلا تخشوهم»، تأمين منه سبحانه للمؤمنين مما كانوا منه على خطر، ومن تسرّ به على خشية، قال تعالى: ﴿ودّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلّونكم﴾ (آل عمران / ٦٩)، وقال تعالى: ﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند انفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير﴾ (البقرة / ١٠٩).

والكفار لم يكونوا يتربصون الدوائر بالمسلمين إلا لدينهم، ولم يكن يضيق صدورهم وينصدع قلوبهم إلا من جهة ان الدين كان يذهب بسوددهم وشرفهم واسترسالهم في اقتراف كل ما تهواه طباعهم، وتألفه وتعتاد به نفوسهم، ويختم على تمتعهم بكل ما يشتهون بلا قيد

وشرط.

فقد كان الدين هو المبغوض عندهم دون اهل الدين الا من جهة دينهم الحق فلم يكن في قصدهم إبادة المسلمين وإفناء جمعهم بل إطفاء نور الله وتحكيم اركان الشرك المتزلزلة المضطربة به. وردّ المؤمنين كفاراً كما مر في قوله: «لو يردونكم كفاراً» الآية؛ قال تعالى: ﴿ يريدون ليطفؤوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ (الصف / ٩).

وقد قال تعالى ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ﴾ (المؤمن / ١٤).

ولذلك لم يكن لهم همّ إلا ان يقطعوا هذه الشجرة الطيبة من أصلها، ويهدموا هذا البنيان الرفيع من أُسّه بتفتين المؤمنين وتسرية النفاق في جماعتهم وبث الشبه والخرافات بينهم لإفساد دينهم.

وقد كانوا يأخذون بادىء الامر يفتّرون عزيمة النبي ﷺ ويستمحقون همّته في الدعوة الدينية بالمال والجاه، كما يشير اليه قوله تعالى: ﴿ وانطلق الملأ منهم ان امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ﴾ (ص / ٦) أو بمخالطة أو مداهنة، كما يشير اليه قوله: ﴿ ودّوا لو تدهن فيدهنون ﴾ (القلم / ٩)، وقوله: ﴿ ولولا أن ثبّتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً ﴾ (الإسراء / ٧٤)، وقوله: ﴿ يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ (الكافرون / ٣) على ما ورد في اسباب النزول.

وكان آخر ما يرجونه في زوال الدين، وموت الدعوة المحقة، أنه سيموت بموت هذا القائم بأمره ولا عقب له، فإنهم كانوا يرون أنه ملك في صورة النبوّة، وسلطنة في لباس الدعوة والرسالة، فلو مات أو قتل لانقطع أثره ومات ذكره وذكر دينه على ما هو المشهود عادة من حال السلاطين والجبابرة أنهم مهما بلغ أمرهم من التعالي والتجبر وركوب رقاب الناس فإن ذكرهم يموت بموتهم، وسننهم وقوانينهم الحاكمة بين الناس وعليهم تدفن معهم في قبورهم،

يشير الى رجائهم هذا قوله تعالى: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ (الكوثر / ٣) على ما ورد في أسباب النزول.

فقد كان هذه وأمثالها أماني تمكّن الرجاء من نفوسهم، وتطمعهم في إطفاء نور الدين، وتزيّن لأوهامهم ان هذه الدعوة الطاهرة ليست الا أُحدوثة ستكذبه المقادير ويقضي عليها ويعفو أثرها مرور الايام والليالي، لكن ظهور الاسلام تدريجاً على كل ما نازله من دين وأهله، وانتشار صيته، واعتلاء كلمته بالشوكة والقوة قضى على هذه الأماني فيئسوا من إفساد عزيمة النبي ﷺ، وإيقاف همّته عند بعض ما كان يريده، وتطميعه بمال أو جاه.

قوة الاسلام وشوكته أيأستهم من جميع تلك الاسباب: ـ أسباب الرجاء ـ إلا واحداً، وهو أنه ﷺ مقطوع العقب لا ولد له تخلفه في أمره، ويقوم على ما قام عليه من الدعوة الدينية فسيموت دينه بموته، وذلك أن من البديهي ان كمال الدين من جهة أحكامه ومعارفه ـ وإن بلغ ما بلغ ـ لا يقوى بنفسه على حفظ نفسه، وأن سنة من السنن المحدثة والأديان المتبعة لا تبقى على نضارتها وصفائها لا بنفسها ولا بانتشار صيتها ولا بكثرة المنتحلين بها، كما أنها لا تنمحي ولا تنطمس بقهر أو جبر أو تهديد أو فتنة أو عذاب أو غير ذلك إلا بموت حملتها وحفظتها والقائمين بتدبير أمرها.

ومن جميع ما تقدم يظهر ان تمام يأس الكفار إنما كان يتحقق عند الاعتبار الصحيح بأن ينصب الله لهذا الدين من يقوم مقام النبي ﷺ في حفظه وتدبير أمره، وإرشاد الامة القائمة به فيتعقب ذلك يأس الذين كفروا من دين المسلمين لما شاهدوا خروج الدين عن مرحلة القيام بالحامل الشخصي الى مرحلة القيام بالحامل النوعي، ويكون ذلك إكمالاً للدين بتحويله من صفة الحدوث الى صفة البقاء، وإتماماً لهذه النعمة، وليس يبعد ان يكون قوله تعالى: ﴿ودّ كثير من اهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ان الله على كل شيء قدير﴾

(البقرة / ١٠٩) باشتماله على قوله: «حتى يأتي»، اشارة الى هذا المعنى.

وهذا يؤيد ما ورد من الروايات ان الآية نزلت يوم غدير خم، وهو اليوم الثامن عشر من ذي الحجة سنة عشر من الهجرة في أمر ولاية علي ﷺ، وعلى هذا فيرتبط الفقرتان أوضح الارتباط، ولا يرد عليه شيء من الإشكالات المتقدمة.

ثم إنك بعدما عرفت معنى اليأس في الآية تعرف أن اليوم في قوله: «اليوم يئس الذين كفروا من دينكم» ظرف متعلق بقوله: «يئس» وأن التقديم للدلالة على تفخيم أمر اليوم، وتعظيم شأنه، لما فيه من خروج الدين من مرحلة القيام بالقيّم الشخصي الى مرحلة القيام بالقيّم النوعي، ومن صفة الظهور والحدوث الى صفة البقاء والدوام.

ولا يقاس الآية بما سيأتي من قوله: «اليوم أُحل لكم الطيبات» الآية؛ فإن سياق الآيتين مختلف فقوله: «اليوم يئس»، في سياق الاعتراض، وقوله: «اليوم أُحلّ»، في سياق الاستيناف، والحكمان مختلفان: فحكم الآية الاولى تكويني مشتمل على البشرى من وجه والتحذير من وجه آخر، وحكم الثانية تشريعي منبيء عن الامتنان. فقوله: «اليوم يئس»، يدل على تعظيم أمر اليوم لاشتماله على خير عظيم الجدوى وهو يأس الذي كفروا من دين المؤمنين، والمراد بالذين كفروا ـ كما تقدمت الإشارة اليه ـ مطلق الكفار من الوثنيين واليهود والنصارى وغيرهم لمكان الإطلاق.

وأما قوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ فالنهي إرشادى لا مولوي، معناه أن لا موجب للخشية بعد يأس الذين كنتم في معرض الخطر من قبلهم – ومن المعلوم ان الانسان لا يهم بأمر بعد تمام اليأس من الحصول عليه ولا يسعى الى ما يعلم ضلال سعيه فيه ـ فأنتم في أمن من ناحية الكفار، ولا ينبغي لكم مع ذلك الخشية منهم على دينكم فلا تخشوهم واخشوني.

ومن هنا يظهر أن المراد بقوله: «واخشون» بمقتضى السياق أن اخشوني فيما كان عليكم ان

تخشوهم فيه لولا يأسهم وهو الدين ونزعه من أيديكم . وهذا نوع تهديد للمسلمين كما هو ظاهر ، ولهذا لم نحمل الآية على الامتنان .

ويؤيد ما ذكرنا ان الخشية من الله سبحانه واجب على أي تقدير من غير ان يتعلق بوضع دون وضع ، وشرط دون شرط ، فلا وجه للإضراب من قوله : « فلا تخشوهم » الى قوله : « واخشون » لولا أنها خشية خاصة في مورد خاص .

ولا تقاس الآية بقوله تعالى : ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ (آل عمران / ١٧٥) لأن الامر بالخوف من الله في تلك الآية مشروط بالايمان ، والخطاب مولوي ، ومفاده انه لا يجوز للمؤمنين ان يخافوا الكفار على أنفسهم بل يجب ان يخافوا الله سبحانه وحده .

فالآية تنهاهم عما ليس لهم بحق وهو الخوف منهم على أنفسهم سواء أُمروا بالخوف من الله ام لا ، ولذلك يعلل ثانياً الامر بالخوف من الله بقيد مشعر بالتعليل ، وهو قوله : « إن كنتم مؤمنين » وهذا بخلاف قوله : « فلا تخشوهم واخشون » فإن خشيتهم هذه خشية منهم على دينهم ، وليست بمبغوضة لله سبحانه لرجوعها الى ابتغاء مرضاته بالحقيقة ، بل إنما النهي عنها لكون السبب الداعي اليها ـ وهو عدم يأس الكفار منه ـ قد ارتفع وسقط أثره فالنهي عنه إرشادي ، فكذا الامر بخشية الله نفسه ، ومفاد الكلام ان من الواجب أن تخشوا في امر الدين ، لكن سبب الخشية كان الى اليوم مع الكفار فكنتم تخشونهم لرجائهم في دينكم وقد يئسوا اليوم وانتقل السبب الى ما عند الله فاخشوه وحده . فافهم ذلك .

فالآية لمكان قوله : « فلا تخشوهم واخشون » لا تخلو عن تهديد وتحذير ، لأن فيه أمراً بخشية خاصة دون الخشية العامة التي تجب على المؤمن على كل تقدير وفي جميع الاحوال ، فلننظر في خصوصية هذه الخشية ، وأنه ما هو السبب الموجب لوجوبها والامر بها ؟ .

لا إشكال في ان الفقرتين أعني قوله : « اليوم يئس » ، وقوله : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي » ، في الآية مرتبطتان مسوقتان لغرض واحد ، وقد تقدم بيانه ، فالدين

الذي أكمله الله اليوم، والنعمة التي أتمها اليوم ـ وهما أمر واحد بحسب الحقيقة ـ هو الذي كان يطمع فيه الكفار ويخشاهم فيه المؤمنون فأيأسهم الله منه وأكمله وأتمه، ونهاهم عن أن يخشوهم فيه. فالذي أمرهم بالخشية من نفسه فيه هو ذاك بعينه وهو أن ينزع الله الدين من ايديهم، ويسلبهم هذه النعمة الموهوبة.

وقد بيّن الله سبحانه ان لا سبب لسلب النعمة إلا الكفر بها، وهدد الكفور أشد التهديد، قال تعالى: ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم﴾ (الأنفال / ٥٣) وقال تعالى: ﴿ومن يبدّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾ (البقرة / ٢١١) وضرب مثلاً كلياً لنعمه وما يؤول اليه أمر الكفر بها فقال ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ (النحل / ١١٢).

فالآية أعني قوله: «اليوم يئس ـ الى قوله ـ ديناً» تؤذن بأن دين المسلمين في أمن من جهة الكفار، مصون من الخطر المتوجه من قبلهم، وأنه لا يتسرب اليه شيء من طوارق الفساد والهلاك إلا من قبل المسلمين أنفسهم، وأن ذلك إنما يكون بكفرهم بهذه النعمة التامة، ورفضهم هذا الدين الكامل المرضي، ويومئذ يسلبهم الله نعمته ويغيرها الى النقمة، ويذيقهم لباس الجوع والخوف، وقد فعلوا وفعل.

ومن أراد الوقوف على مبلغ صدق هذه الآية في ملحمتها المستفادة من قوله: «فلا تخشوهم واخشون» فعليه ان يتأمل فيما استقر عليه حال العالم الاسلامي اليوم ثم يرجع القهقري بتحليل الحوادث التاريخية حتى يحصل على أُصول القضايا وأعراقها.

ولآيات الولاية في القرآن ارتباط تام بما في هذه الآية، من التحذير والإيعاد، ولم يحذّر الله العباد عن نفسه في كتابه إلا في باب الولاية، فقال فيها مرة بعد مرة ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ (آل عمران / ٢٨ و ٣٠) وتعقيب هذا البحث أزيد من هذا خروج عن طور الكتاب.

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾ الإكمال والإتمام متقاربا المعنى. قال الراغب: كمال الشيء حصول ما هو الغرض منه. وقال: تمام الشيء انتهاؤه الى حد لا يحتاج الى شيء خارج عنه، والناقص ما يحتاج الى شيء خارج عنه.

ولك ان تحصل على تشخيص معنى اللفظين من طريق آخر، وهو ان آثار الاشياء التي لها آثار على ضربين. فضرب منها ما يترتب على الشيء عند وجود جميع اجزائه ـ إن كان له اجزاء ـ بحيث لو فقد شيئاً من أجزائه أو شرائطه لم يترتب عليه ذلك الامر كالصوم فإنه يفسد اذا أُخل بالإمساك في بعض النهار، ويسمى كون الشيء على هذا الوصف بالتمام. قال تعالى: ﴿ثم أتموا الصيام الى الليل﴾ (البقرة / ١٨٧)، وقال: ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ (الأنعام / ١١٥).

وضرب آخر: الأثر الذي يترتب على الشيء من غير توقف على حصول جميع أجزائه، بل أثر المجموع كمجموع آثار الاجزاء، فكلما وجد جزء ترتب عليه من الاثر ما هو بحسبه، ولو وجد الجميع ترتب عليه كل الاثر المطلوب منه. قال تعالى: ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة﴾ (البقرة / ١٩٦) وقال: ﴿ولتكملوا العدة﴾ (البقرة / ١٨٥) فإن هذا العدد يترتب الأثر على بعضه كما يترتب على كله، ويقال: تم لفلان امره وكمل عقله، ولا يقال: تمّ عقله وكمل امره.

وأما الفرق بين الإكمال والتكميل، وكذا بين الاتمام والتتميم فإنما هو الفرق بين بابي الإفعال والتفعيل، وهو ان الإفعال بحسب الاصل يدل الدفعة والتفعيل على التدريج، وإن كان التوسع الكلامي أو التطور اللغوي ربما يتصرف في البابين بتحويلهما الى ما يبعد من مجرى المجرد أو من أصلهما كالإحسان والتحسين، والإصداق والتصديق، والامداد والتمديد والافراط والتفريط، وغير ذلك. فإنما هي معان طرأت بحسب خصوصيات الموارد ثم تمكنت

في اللفظ بالاستعمال.

وينتج ما تقدم ان قوله: «أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي» يفيد أن المراد بالدين هو مجموع المعارف والاحكام المشرّعة وقد أُضيف الى عددها اليوم شيء وأن النعمة أياماً كانت امر معنوي واحد كأنه كان ناقصاً غير ذي اثر فتمم وترتب عليه الأثر المتوقع منه.

والنعمة بناء نوع وهي ما يلائم طبع الشيء من غير امتناعه منه. والاشياء وإن كانت بحسب وقوعها في نظام التدبير متصلة مرتبطة متلائماً بعضها مع بعض. وأكثرها أو جميعها نعمٌ اذا أُضيفت الى بعض آخر مفروض كما قال تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ (إبراهيم / ٣٤) وقال: ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ (لقمان / ٢٠).

إلا انه تعالى وصف بعضها بالشر والخسة واللعب واللهو وأوصاف أُخر غير ممدوحة كما قال: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾ (آل عمران / ١٧٨)، وقال: ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾ (العنكبوت / ٦٤)، وقال: ﴿لا يغرّنك تقلّب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ (آل عمران / ١٩٧) الى غير ذلك.

والآيات تدل على ان هذه الاشياء المعدودة نعماً إنما تكون نعمة اذا وافقت الغرض الالهي من خلقتها لأجل الانسان. فإنها إنما خلقت لتكون إمداداً إلهياً للانسان يتصرف فيها في سبيل سعادة الحقيقية، وهي القرب منه سبحانه بالعبودية والخضوع للربوبية. قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾ (الذاريات / ٥٦).

فكل ما تصرَّف فيه الانسان للسلوك به الى حضرة القرب من الله وابتغاء مرضاته فهو نعمة، وإن انعكس الأمر عاد نقمة في حقه. فالاشياء في نفسها عُزل. وإنما هي نعمة لاشتمالها على روح العبودية، ودخولها من حيث التصرف المذكور تحت ولاية الله التي هي تدبير

الربوبية لشؤون العبد. ولازمه أن النعمة بالحقيقة هي الولاية الإلهية. وأن الشيء إنما يصير نعمة اذا كان مشتملاً على شيء منها. قال تعالى: ﴿الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور﴾ (البقرة / ٢٥٧). وقال تعالى: ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ (محمد / ١١) وقال في حق رسوله: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً﴾ (النساء / ٦٥) الى غير ذلك.

فالاسلام وهو مجموع ما نزل من عند الله سبحانه ليعبده به عباده دين. وهو من جهة اشتماله ـ من حيث العمل به ـ على ولاية الله وولاية رسوله وأولياء الأمر بعده نعمة.

ولا يتم ولاية الله سبحانه أي تدبيره بالدين لامور عباده إلا بولاية رسوله. ولا ولاية رسوله إلا بولاية أُولي الأمر من بعده. وهي تدبيرهم لامور الامة الدينية بإذن من الله. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ (النساء / ٥٩) وقد مر الكلام في معنى الآية. وقال: ﴿إنما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ (المائدة / ٥٥) وسيجيء الكلام في معنى الآية إن شاء الله تعالى.

فمحصّل معنى الآية: اليوم ـ وهو اليوم الذي يئس فيه الذين كفروا من دينكم ـ أكملت لكم مجموع المعارف الدينية التي أنزلتها إليكم بفرض الولاية. وأتممت عليكم نعمتي وهي الولاية التي هي إدارة أُمور الدين وتدبيرها تدبيراً إلهياً. فإنها كانت الى اليوم ولاية الله ورسوله. وهي إنما تكفي ما دام الوحي ينزل. ولا تكفي لما بعد ذلك من زمان انقطاع الوحي. ولا رسول بين الناس يحمي دين الله ويذب عنه بل من الواجب أن ينصب من يقوم بذلك. وهو ولي الأمر بعد رسول الله ﷺ القيّم على أُمور الدين والامة.

فالولاية مشروعة واحدة. كانت ناقصة غير تامة حتى اذا تمت بنصب ولي الأمر بعد

النبي.

واذا كمل الدين في تشريعه، وتمت نعمة الولاية فقد رضيت لكم من حيث الدين الاسلام الذي هو دين التوحيد الذي لا يعبد فيه إلا الله ولا يطاع فيه ـ والطاعة عبادة ـ إلا الله ومن أمر بطاعته من رسول أو ولي.

فالآية تنبيء عن أن المؤمنين اليوم في أمن بعد خوفهم، وأن الله رضي لهم أن يتديّنوا بالاسلام الذي هو دين التوحيد فعليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً بطاعة غير الله أو من أمر بطاعته. واذا تدبرت قوله تعالى: **﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكّنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون﴾** (النور / ٥٥) ثم طبقت فقرات الآية على فقرات قوله تعالى: «اليوم يئس الذين كفروا من دينكم» الخ؛ وجدت آية سورة المائدة من مصاديق إنجاز الوعد الذي يشتمل عليه آية سورة النور على أن يكون قوله: «يعبدونني لا يشركون بي شيئاً» مسوقاً سوق الغاية كما ربما يشعر به قوله: «ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون».

وسورة النور قبل المائدة نزولاً كما يدل عليه اشتمالها على قصة الإفك وآية الجلد وآية الحجاب وغير ذلك.

قوله تعالى: **﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** المخمصة هي المجاعة، والتجانف هو التمايل من الجنف بالجيم وهو ميل القدمين الى الخارج مقابل الحنف بالحاء الذي هو ميلها الى الداخل.

وفي سياق الآية دلالة اولاً على أن الحكم حكم ثانوي اضطراري، وثانياً على أن التجويز والإباحة مقدر بمقدار يرتفع به الاضطرار ويسكن به ألم الجوع، وثالثاً على أن صفة المغفرة ومثلها الرحمة كما تتعلق بالمعاصي المستوجبة للعقاب كذلك يصح أن تتعلق بمنشأها، وهو

الحكم الذي يستتبع مخالفته تحقُّق عنوان المعصية الذي يستتبع العقاب[١][٢].

بحث روائي آخر:

في غاية المرام: عن أبي المؤيد موفق بن احمد في كتاب فضائل علي. قال: أخبرني سيد الحفّاظ شهردار بن شيرويه بن شهردار الديلمي فيما كتب إلي من همدان. أخبرنا ابوالفتح عبدوس بن عبدالله بن عبدوس الهمداني كتابة، حدثنا عبدالله بن إسحاق البغوي، حدثنا الحسين بن عليل الغنوي، حدثنا محمد بن عبدالرحمان الزراع، حدثنا قيس بن حفص، حدثنا علي بن الحسين، حدثنا ابوهريرة عن ابي سعيد الخدري: إن النبي ﷺ يوم دعا الناس الى غدير خم أمر بما تحت الشجرة من شوك فقم، وذلك يوم الخميس يوم دعا الناس الى عليٍّ وأخذ بضبعه ثم رفعها حتى نظر الناس الى بياض إبطيه ثم لم يفترقا حتى نزلت هذه الآية: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً﴾ فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضا الرب برسالتي والولاية لعلي، ثم قال: اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله.

وقال حسّان بن ثابت: أتأذن لي يا رسول الله أن أقول أبياتاً؟ قال: قل ينزله الله تعالى، فقال حسان بن ثابت:

يناديهم يوم الغدير نبيهم # بخمّ وأسمع بالنبي مناديا
بأني مولاكم نعم ووليكم # فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا
إلهك مولانا وأنت ولينا # ولا تجدن في الخلق للأمر عاصيا

---

١. المائدة ١ ـ ٣: بحث علمي في فصول ثلاثة (العقائد في اكل اللحم. كيف امر بقتل الحيوان والرحمة تأباه. لماذا بنى الاسلام على التذكية.

٢. المائدة ١ ـ ٣: بحث روائي حول «يا ايها الذين آمنوا»: شعائر الله آمين البيت الحرام: الحيوانات التي حرّم اكلها.

فقال له قم يا علي فإنني رضيتك من بعدي إماما وهاديا

وعن كتاب نزول القرآن في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب للحافظ أبي نعيم رفعه إلى قيس بن الربيع، عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري مثله، وقال في آخر الأبيات:

فمن كنت مولاه فهذا وليه فكونوا له أنصار صدق مواليا

هناك دعا اللهم وال وليه وكن للذي عادى علياً معاديا

وعن نزول القرآن أيضاً يرفعه إلى علي بن عامر عن أبي الحجاف عن الأعمش عن عضة قال: نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ في علي بن ابي طالب: ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل إليك**﴾ وقد قال الله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً**﴾.

وعن إبراهيم بن محمد الحمويني قال: أنبأني الشيخ تاج الدين أبو طالب علي بن الحسين ابن عثمان بن عبدالله الخازن، قال: أنبأنا الإمام برهان الدين ناصر بن ابي المكارم المطرزي إجازة، قال: أنبأنا الإمام اخطب خوارزم ابو المؤيد موفق بن احمد المكي الخوارزمي، قال: انبأني سيد الحفاظ في ما كتب إلي من همدان، انبأنا الرئيس ابو الفتح كتابة، حدثنا عبدالله بن إسحاق البغوي، نبأنا الحسن بن عقيل الغنوي، نبأنا محمد بن عبدالله الزّراع، نبأنا قيس بن حفص قال: حدثني علي بن الحسين العبدي عن ابي هارون العبدي عن ابي سعيد الخدري، وذكر مثل الحديث الأول.

وعن الحمويني أيضا عن الحفاظ وأبو منصور شهردار بن شيرويه بن شهردار الديلمي، قال: أخبرنا الحسن بن أحمد بن الحسن الحداد المقريء الحافظ عن أحمد بن عبدالله بن احمد، قال: نبأنا محمد بن احمد بن علي، قال: نبأنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، قال: نبأنا يحيى الحماني، قال: حدثنا قيس بن الربيع عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري، وذكر مثل الحديث الاول.

قال: قال الحمويني عقيب هذا الحديث: هذا حديث له طرق كثيرة إلى أبي سعيد سعد بن مالك الخدري الأنصاري.

وعن المناقب الفاخرة للسيد الرضي ﷺ عن محمد بن إسحاق، عن أبي جعفر، عن أبيه عن جده قال: لما انصرف رسول الله ﷺ من حجة الوداع نزل أرضاً يقال له: ضوجان، فنزلت هذه الآية: ﴿ يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ فلما نزلت عصمته من الناس نادى: الصلاة جامعة فاجتمع الناس إليه. وقال: من أولى منكم بأنفسكم: فضجوا بأجمعهم فقالوا: الله ورسوله فأخذ بيد علي بن أبي طالب، وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه. وأنصر من نصره، واخذل من خذله لانه مني وأنا منه، وهو مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي. وكانت آخر فريضة فرضها الله تعالى على أُمة محمد ثم أنزل الله تعالى على نبيه: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً ﴾.

قال ابو جعفر: فقبلوا من رسول الله ﷺ كل ما امرهم الله من الفرائض في الصلاة والصوم والزكاة والحج، وصدقوه على ذلك.

قال ابن إسحاق: قلت لأبي جعفر: ما كان ذلك؟ قال لتسع[1] عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة عشرة عند منصرفه من حجة الوداع، وكان بين ذلك وبين النبي ﷺ مائة يوم وكان سمع[2] رسول الله بغدير خم اثنا عشر.

وعن المناقب لابن المغازلي يرفعه إلى ابي هريرة قال: من صام يوم ثمانية عشر من ذي

---

١. سبع في نسخة البرهان.

٢. سمي رسول الله بغدير خم اثنا عشر رجلا. نسخة البرهان.

الحجة كتب الله له صيامه ستين شهراً، وهو يوم غدير خم، بها اخذ النبي بيعة علي ابن ابي طالب، وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، فقال له عمر بن الخطاب: بخٍ بخٍ لك يابن ابي طالب اصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، فأنزل الله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت﴾.

وعن المناقب لابن مردويه وكتاب سرقات الشعر للمرزباني عن ابي سعيد الخدري مثل ما تقدم عن الخطيب.

اقول: وروى الحديثين في الدر المنثور عن أبي سعيد وابي هريرة ووصف سنديهما بالضعف. وقد روى بطرق كثيرة تنتهي من الصحابة (لو دقق فيها) إلى عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ومعاوية وسمرة: ان الآية نزلت يوم عرفة من حجة الوداع وكان يوم الجمعة، والمعتمد منها ما روي عن عمر فقد رواه عن الحميدي وعبد بن حميد واحمد البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن حبان والبيهقي في سننه عن طارق ابن شهاب عن عمر، وعن ابن راهويه في مسنده وعبد بن حميد عن ابي العالية عن عمر، وعن ابن جرير عن قبيضة بن ابي ذؤيب عن عمر، وعن البزاز عن ابن عباس، والظاهر أنه يروي عن عمر.

ثم أقول: أما ما ذكره من ضعف سندي الحديثين فلا يجديه في ضعف المتن شيئاً فقد أوضحنا في البيان المتقدم أن مفاد الآية الكريمة لا يلائم غير ذلك من جميع الاحتمالات والمعاني المذكورة فيها، فهاتان الروايتان وما في معناهما هي الموافقة للكتاب من بين جميع الروايات فهي المتعينة للأخذ.

على أن الأحاديث الدالة على نزول الآية في مسألة الولاية ـ وهي تزيد على عشرين حديثا من طرق أهل السنة والشيعة ـ مرتبطة بما ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما انزل إليك من ربك﴾ الآية، (المائدة / ٦٧)؛ وهي تربو على خمسة عشر

حديثاً رواها الفريقان ، والجميع مرتبط بحديث الغدير : « من كنت مولاه فعلي مولاه » وهو حديث متواتر مروي عن جم غفير من الصحابة ، اعترف بتواتره جمع كثير من علماء الفريقين .

ومن المتفق عليه أن ذلك كان في منصرف رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة . وهذه الولاية (لو لم تحمل على الهزل والتهكم) فريضة من الفرائض كالتولي والتبري اللذين نص عليهما القرآن في آيات كثيرة ، وإذا كان كذلك لم يجز أن يتأخر جعلها عن نزول الآية أعني قوله : ﴿ اليوم أكملت ﴾ ، فالآية إنما نزلت بعد فرضها من الله سبحانه ، ولا اعتماد على ما ينافي ذلك من الروايات لو كانت منافية .

وأما ما رواه من الرواية فقد عرفت ما ينبغي أن يقال فيها غير أن ههنا أمرا يجب التنبه له ، وهو أن التدبر في الآيتين الكريمتين : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما انزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ الآية ؛ على ما سيجيء من بيان معناه ، وقوله : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ الآية ؛ والأحاديث الواردة من طرق الفريقين فيهما وروايات الغدير المتواترة ، وكذا دراسة أوضاع المجتمع الاسلامي الداخلية في أواخر عهد رسول الله ﷺ والبحث العميق فيها يفيد القطع بأن أمر الولاية كان نازلاً قبل يوم الغدير بأيام ، وكان النبي ﷺ يتقي الناس في إظهاره ، ويخاف أن لا يتلقوه بالقبول أو يسيؤوا القصد إليه فيختل أمر الدعوة ، فكان لا يزال يؤخر تبليغه الناس من يوم إلى غد حتى نزل قوله : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ﴾ الآية ؛ فلم يمهل في ذلك .

وعلى هذا فمن الجائز أن ينزل الله سبحانه معظم السورة وفيه قوله : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ الآية ؛ وينزل معه أمر الولاية كل ذلك يوم عرفة فأخر النبي ﷺ بيان الولاية إلى غدير خم ، وقد كان تلا آيتها يوم عرفة ، وأما اشتمال بعض الروايات على نزولها يوم الغدير فليس من المستبعد أن يكون ذلك لتلاوته ﷺ الآية مقارنة لتبليغ أمر الولاية لكونها في

شأنها.

وعلى هذا فلا تنافي بين الروايات أعني ما دل على نزول الآية في امر الولاية، وما دل على نزولها يوم عرفة كما روي عن عمر وعلي ومعاوية وسمرة. فإن التنافي إنما كان يتحقق لو دل أحد القبيلين على النزول يوم غدير خم، والآخر على النزول على يوم عرفة.

واما ما في القبيل الثاني من الروايات أن الآية تدل على كمال الدين بالحج وما أشبهه فهو من فهم الراوي لا ينطبق به الكتاب و لا بيان من النبي ﷺ يعتمد عليه.

وربما استفيد هذا الذي ذكرناه مما رواه العياشي في تفسيره عن جعفر بن محمد بن محمد الخزاعي عن ابيه قال: سمعت ابا عبدالله عليه السلام يقول لما نزل رسول الله ﷺ عرفات يوم الجمعة أتاه جبرئيل فقال له: إن الله يقرئك السلام، ويقول لك: قل لامتك: اليوم أكملت دينكم بولاية علي بن ابي طالب واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً ولست أُنزل عليكم بعد هذا. قد انزلت عليكم الصلاة والزكاة والصوم والحج. وهي الخامسة. ولست اقبل عليكم بعد هذه الأربعة إلا بها.

على ان فيما نقل عن عمر من نزول الآية يوم عرفة إشكالاً آخر. وهو أنها جميعاً تذكر ان بعض اهل الكتاب ـ وفي بعضها انه كعب ـ قال لعمر: إن في القرآن آية لو نزلت مثلها علينا معشر اليهود لاتخذنا اليوم الذي نزلت فيه عيدا، وهي قوله: ﴿**اليوم اكملت لكم دينكم**﴾ الآية؛ فقال له عمر: والله اني لأعلم اليوم وهو يوم عرفة من حجة الوداع.

ولفظ ما رواه ابن راهويه وعبد بن حميد عن أبي العالية هكذا: قال: كانوا عند عمر فذكروا هذه الآية، فقال رجل من اهل الكتاب: لو علمنا اي يوم نزلت هذه الآية لاتخذناه عيدا، فقال عمر الحمد لله الذي جعله لنا عيداً واليوم الثاني. نزلت يوم عرفة واليوم الثاني يوم النحر فأكمل لنا الأمر فعلمنا أن الامر بعد ذلك في انتقاص.

وما يتضمنه آخر الرواية مروي بشكل آخر ففي الدر المنثور: عن ابي ابي شيبة وابن جرير

عن عنترة قال: لما نزلت ﴿اليوم اكملت لكم دينكم﴾ وذلك يوم الحج الأكبر بكى عمر فقال له النبي ﷺ ما يبكيك؟ قال: ابكاني أنّا كنا في زيادة من ديننا فأما إذ كمل فإنه لم يكمل شيء قط إلا نقص، فقال: صدقت.

ونظيرة الرواية بوجه رواية أُخرى رواها أيضاً في الدر المنثور عن أحمد عن علقمة ابن عبدالله المزي قال: حدثني رجل قال: كنت في مجلس عمر بن الخطاب فقال عمر لرجل من القوم: كيف سمعت رسول الله ﷺ ينعت الاسلام؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الاسلام بدىء جذعا ثم ثنيا ثم رباعيا ثم سدسيا ثم بازلا. قال عمر: فما بعد البزول إلا النقصان.

فهذه الروايات ـ كما ترى ـ تروم بيان أن معنى نزول الآية يوم عرفة إلفات نظر الناس إلى ما كانوا يشاهدونه من ظهور أمر الدين واستقلاله بمكة في الموسم، وتفسير إكمال الدين وإتمام النعمة بصفاء جو مكة ومحوضة الأمر للمسلمين يومئذ فلا دين يعبد به يومئذ هناك إلا دينهم من غير أن يخشوا أعداءهم ويتحذروا منهم.

وبعبارة أُخرى المراد بكمال الدين وتمام النعمة كمال ما بأيديهم يعملون به من غير أن يختلط بهم أعداؤهم أو يكلفوا بالتحذر منهم دون الدين بمعنى الشريعة المجعولة عند الله من المعارف والاحكام، وكذا المراد بالإسلام ظاهر الاسلام الموجود بأيديهم في مقام العمل. وإن شئت فقل: المراد بالدين صورة الدين المشهودة من أعمالهم، وكذا في الاسلام، فان هذا المعنى هو الذي يقبل الانتقاص بعد الازدياد.

وأما كليات المعارف والاحكام المشرعة من الله فلا يقبل الانتقاص بعد الازدياد الذي يشير اليه قوله في الرواية: «إنه لم يكمل شيء قط إلا نقص» فإن ذلك سنة كونية تجري أيضا في التاريخ والاجتماع بتبع الكون، وأما الدين فإنه غير محكوم بأمثال هذه السنن والنواميس إلا عند من قال: إن الدين سنة اجتماعية متطورة متغيرة كسائر السنن الاجتماعية.

إذ عرفت ذلك علمت أنه يرد عليه أولاً: أن ما ذكر من معنى كمال الدين لا يصدق عليه قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ وقد مر بيانه.

وثانياً: أنه كيف يمكن ان يعد الله سبحانه الدين بصورته التي كان يتراءى عليها كاملاً وينسبه إلى نفسه امتناناً بمجرد خلوّ الأرض من ظاهر المشركين، وكون المجتمع على ظاهر الاسلام فارغاً من أعدائهم المشركين، وفيهم من هو أشد من المشركين إضراراً وإفساداً، وهم المنافقون على ما كانوا عليه من المجتمعات السرية والتسرب في داخل المسلمين، وإفساد الحال، وتقليب الامور، والدس في الدين، وإلقاء الشبه، فقد كان لهم نبأ عظيم تعرّض لذلك آيات جمّة من القرآن كسورة المنافقين وما في سورة البقرة والنساء والمائدة والأنفال والبراءة والأحزاب وغيرها.

فليت شعري أين صار جمعهم؟ وكيف خمدت أنفاسهم؟ وعلى أي طريق بطل كيدهم وزهق باطلهم؟ وكيف يصح مع وجودهم أن يمتن الله يومئذ على المسلمين بإكمال ظاهر دينهم، وإتمام ظاهر النعمة عليهم، والرضا بظاهر الاسلام بمجرد أن دفع من مكة أعداءهم من المسلمين، والمنافقون أعدى منهم وأعظم خطراً وأمرّ أثراً! وتصديق ذلك قوله تعالى يخاطب نبيه فيهم: ﴿هم العدو فاحذرهم﴾ (المنافقون / ٤).

وكيف يمتن الله سبحانه ويصف بالكمال ظاهر دين هذا باطنه، أو يذكر نعمه بالتمام وهي مشوبة بالنقمة، أو يخبر برضاه صورة إسلام هذا معناه! وقد قال تعالى ﴿وما كنت متخذ المضلّين عضداً﴾ (الكهف / ٥١). وقال في المنافقين: ـ ولم يرد إلا دينهم ـ ﴿فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ (البراءة / ٩٦). والآية بعد هذا كله مطلقة لم تقيّد شيئاً من الإكمال والاتمام والرضا ولا الدين والاسلام والنعمة بجهة دون جهة.

فإن قلت: الآية ـ كما تقدمت الاشارة إليه ـ إنجاز للوعد الذي يشتمل عليه قوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين

من قبلهم وليمكّنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدّلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾ الآية. (النور / ٥٥).

فالآية كما ترى ـ تعدهم بتمكين دينهم المرضي لهم، ويحاذي ذلك من هذه الآية قوله: ﴿أكملت لكم دينكم﴾ وقوله: ﴿ورضيت لكم الاسلام ديناً﴾ فالمراد بإكمال دينهم المرضي تمكينه لهم أي تخليصه من مزاحمة المشركين، وأما المنافقون فشأنهم شأن آخر غير المزاحمة، وهذا هو المعنى الذي تشير إليه روايات نزولها يوم عرفة، ويذكر القوم ان المراد به تخليص الأعمال الدينية والعاملين بها من المسلمين من مزاحمة المشركين.

قلت: كون آية: ﴿اليوم أكملت﴾، من مصاديق إنجاز ما وعد في قوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا﴾ الآية؛ وكذا كون قوله في هذه الآية: ﴿أكملت لكم دينكم﴾، محاذياً لقوله: ﴿وليمكّننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم﴾، في تلك الآية ومفيداً معناه كل ذلك لا ريب فيه.

إلا أن آية سورة النور تبدء بقوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات﴾ وهم طائفة خاصة من المسلمين ظاهر أعمالهم يوافق باطنها، وما في مرتبة أعمالهم من الدين يحاذي وينطبق على ما عند الله سبحانه من الدين المشرّع، فتمكين دينهم المرضي لله سبحانه لهم إكمال ما في علم الله وإرادته من الدين المرضي بإفراغه في قالب التشريع، وجمع اجزائه عندهم بالانزال ليعبدوه بذلك بعد إياس الذين كفروا من دينهم.

وهذا ما ذكرناه: أن معنى إكماله الدين إكماله من حيث تشريع الفرائض فلا فريضة مشرّعة بعد نزول الآية لا تخليص أعمالهم وخاصة حجّهم من اعمال المشركين وحجهم، بحيث لا تختلط أعمالهم بأعمالهم. وبعبارة أُخرى يكون معنى إكمال الدين رفعه إلى أعلى مدارج الترقي حتى لا يقبل الانتقاص بعد الازدياد.

وفي تفسير القمي قال: حدثني ابي، عن صفوان بن يحيى، عن العلاء، عن محمد بن مسلم عن ابي جعفر عليه السلام قال: آخر فريضة أنزلها الولاية ثم لم ينزل بعدها فريضة ثم أنزل: ﴿اليوم

أكملت لكم دينكم﴾ بكراع الغميم، فأقامها رسول الله صلى الله عليه وآله بالجحفة فلم ينزل بعدها فريضة.

اقول: وروى هذا المعنى الطبرسي في المجمع عن الإمامين: الباقر والصادق عليهما السلام ورواه العياشي في تفسيره عن زرارة عن الباقر عليه السلام.

وفي أمالي الشيخ بإسناده، عن محمد، عن أبيه أبي عبدالله عليه السلام، عن علي أمير المؤمنين عليه السلام قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: بناء الإسلام على خمس خصال: على الشهادتين، والقرينتين. قيل له: أما الشهادتان فقد عرفنا فما القرينتان؟ قال: الصلاة والزكاة فإنه لا تقبل إحداهما إلا بالاخرى. والصيام وحج بيت الله من استطاع إليه سبيلاً. وختم ذلك بالولاية فأنزل الله عزوجل: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾**.

وفي روضة الواعظين للفتال، ابن الفارسي عن أبي جعفر عليه السلام وذكر قصة خروج النبي صلى الله عليه وآله للحج ثم نصبه علياً للولاية عند منصرفه إلى المدينة ونزول الآية. وفيه خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الغدير وهي خطبة طويلة جداً.

أقول: روى مثله الطبرسي في الاحتجاج بإسناد متصل عن الحضرمي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، وروى نزول الآية في الولاية أيضاً الكليني في الكافي والصدوق في العيون جميعاً مسنداً عن عبدالعزيز بن مسلم عن الرضا عليه السلام، وروى نزولها فيها أيضاً الشيخ في أماليه بإسناده عن ابن أبي عمير عن المفضل بن عمر عن الصادق عن جده أمير المؤمنين عليه السلام، وروى ذلك أيضاً الطبرسي في المجمع بإسناده عن أبي هارون العبدي عن ابي سعيد الخدري، وروى ذلك الشيخ في أماليه بإسناده عن إسحاق بن إسماعيل النيسابوري عن الصادق عن آبائه عن الحسن بن علي عليهما السلام وقد تركنا إيراد الروايات على طولها إيثاراً للاختصار فمن أراد فليراجع محالها والله الهادي.

٤ ﴿ يَسْئَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ.

٥ ﴿ أَلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ سؤال مطلق أُوجب عنه بجواب عام مطلق فيه إعطاء الضابط الكلي الذي يميز الحلال من الحرام. وهو أن يكون ما يقصد التصرف فيه بما يعهد في مثله من التصرفات أمراً طيباً. وإطلاق الطيب أيضاً من غير تقييده بشيء يوجب أن يكون المعتبر في تشخيص طيبه استطابة الأفهام المتعارفة ذلك فما يستطاب عند الأفهام العادية فهو طيب، وجميع ما هو طيب حلال.

وإنما نزلنا الحلية والطيب على المتعارف المعهود لمكان أن الإطلاق لا يشمل غيره على ما بين في فن الاصول.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قيل: إن الكلام معطوف على موضع الطيبات أي وأُحل لكم ما علمتم من الجوارح أي صيد ما علمتم من الجوارح، فالكلام بتقدير مضاف محذوف اختصاراً لدلالة السياق عليه.

والظاهر أن الجملة معطوفة على موضع الجملة الاولى. و«ما» في قوله: «وما علمتم» شرطية وجزاؤها قوله: «فكلوا مما أمسكن عليكم» من غير حاجة الى تكلف التقدير.

والجوارح جمع جارحة وهي التي تكسب الصيد من الطير والسباع كالصقر والبازي والكلاب والفهود، وقوله: «مكلبين» حال، وأصل التكليب تعليم الكلاب وتربيتها للصيد أو اتخاذ كلاب الصيد وإرسالها لذلك، وتقييد الجملة بالتكليب لا يخلو من دلالة على كون الحكم مختصاً بكلب الصيد لا يعدوه الى غيره من الجوارح.

وقوله: «مما أمسكن عليكم» التقييد بالظرف للدلالة على أن الحل محدود بصورة صيدها لصاحبها لا لنفسها.

وقوله: «واذكروا اسم الله عليه» تتميم لشرائط الحل وأن يكون الصيد مع كونه مصطاداً بالجوارح ومن طريق التكليب والإمساك على الصائد مذكوراً عليه اسم الله تعالى.

ومحصل المعنى أن الجوارح المعلمة بالتكليب ـ أي كلاب الصيد ـ اذا كانت معلمة واصطادت لكم شيئاً من الوحش الذي يحل أكله بالتذكية وقد سميتم عليه فكلوا منه اذا قتلته دون أن تصلوا إليه فذلك تذكية له، وأما دون القتل فالتذكية بالذبح والإهلال به لله يغني عن هذا الحكم.

ثم ذيل الكلام بقوله: «واتقوا الله إن الله سريع الحساب» إشعاراً بلزوم اتقاء الله فيه حتى لا يكون الاصطياد إسرافاً في القتل، ولا عن تله وتجبر كما في صيد اللهو ونحوه فإن الله سريع الحساب يجازي سيئة الظلم والعدوان في الدنيا قبل الآخرة، ولا يسلك أمثال هذه المظالم

والعدوانات بالاغتيال والفتك بالحيوان العجم إلا الى عاقبة سوآى على ما شاهدنا كثيراً.

قوله تعالى: ﴿أَلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ إعادة ذكر حل الطيبات مع ذكره في الآية السابقة، وتصديره بقوله: «اليوم» للدلالة على الامتنان منه تعالى على المؤمنين بإحلال طعام أهل الكتاب والمحصنات من نسائهم للمؤمنين.

وكأن ضم قوله: «أُحل لكم الطيبات» الى قوله: «وطعام الذين أُوتوا الكتاب» الخ؛ من قبيل ضم المقطوع به الى المشكوك فيه لإيجاد الطمأنينة في نفس المخاطب وإزالة ما فيه من القلق والاضطراب كقول السيد لخادمه: لك جميع ما ملكتكه وزيادة هي كذا وكذا فإنه اذا ارتاب في تحقق ما يعده سيده من الاعطاء شفع ما يشك فيه بما يقطع به ليزول عن نفسه أذى الريب الى راحة العلم، ومن هذا الباب بوجه قوله تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ (يونس / ٢٦) وقوله تعالى: ﴿لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد﴾ (ق / ٣٥).

فكان نفوس المؤمنين لا تسكن عن اضطراب الريب في أمر حل طعام أهل الكتاب لهم بعدما ما كانوا يشاهدون التشديد التام في معاشرتهم ومخالطتهم ومساسهم وولايتهم حتى ضم الى حديث حل طعامهم أمر حل الطيبات بقول مطلق، ففهموا منه أن طعامهم من سنخ سائر الطيبات المحللة فسكن بذلك طيش نفوسهم، واطمأنت قلوبهم وكذلك القول في قوله: «والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم».

وأما قوله: «وطعام الذين أُوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم» فالظاهر أنه كلام واحد ذو مفاد واحد، اذ من المعلوم أن قوله: «وطعامكم حل لهم» ليس في مقام تشريع حكم الحل لأهل الكتاب، وتوجيه التكليف إليهم وإن قلنا بكون الكفار مكلفين بالفروع الدينية كالأصول، فإنهم غير مؤمنين بالله ورسوله وبما جاء به رسوله ولا هم يسمعون ولا هم يقبلون، وليس من دأب القرآن أن يوجه خطاباً أو يذكر حكماً اذا استظهر من المقام أن

الخطاب معه يكون لغواً والتكليم معه يذهب سدى. اللهم إلا اذا أصلح ذلك بشيء من فنون التكليم كالالتفات من خطاب الناس الى خطاب النبي ونحو ذلك كقوله: ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم** ﴾ (آل عمران / ٦٤) وقوله: ﴿ **قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً** ﴾ (الإسراء / ٩٣) الى غير ذلك من الآيات.

وبالجملة ليس المراد بقوله: «وطعام الذين»، بيان حل طعام أهل الكتاب للمسلمين حكماً مستقلاً وحل طعام المسلمين لأهل الكتاب حكماً مستقلاً آخر، بل بيان حكم واحد وهو ثبوت الحل وارتفاع الحرمة عن الطعام، فلا منع في البين حتى يتعلق بأحد الطرفين نظير قوله تعالى: ﴿ **فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن** ﴾ (الممتحنة / ١٠) أي لا حل في البين حتى يتعلق بأحد الطرفين.

ثم إن الطعام بحسب أصل اللغة كل ما يقتات به ويطعم لكن قيل: إن المراد به البر وسائر الحبوب ففي لسان العرب: وأهل الحجاز اذا أطلقوا اللفظ بالطعام عنوا به البر خاصة. قال: وقال الخليل: العالي في كلام العرب أن الطعام هو البر خاصة، انتهى. وهو الذي يظهر من كلام ابن الأثير في النهاية، ولهذا ورد في أكثر الروايات المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام: أن المراد بالطعام في الآية هو البر وسائر الحبوب إلا ما في بعض الروايات مما يظهر به معنى آخر وسيجيء الكلام فيه في البحث الروائي الآتي.

وعلى أي حال لا يشمل هذا الحل ما لا يقبل التذكية من طعامهم كلحم الخنزير، أو يقبلها من ذبائحهم لكنهم لم يذكوها كالذي لم يهل به لله، ولم يذك تذكية إسلامية فإن الله سبحانه عد هذه المحرمات المذكورة في آيات التحريم ـ وهي الآي الأربع التي في سور البقرة والمائدة والأنعام والنحل ـ رجساً وفسقاً وإثماً كما بيناه فيما مر، وحاشاه سبحانه أن يحل ما سماه رجساً أو فسقاً أو إثماً امتناناً بمثل قوله: «اليوم أحل لكم الطيبات».

على أن هذه المحرمات بعينها واقعة قبيل هذه الآية في نفس السورة، وليس لأحد أن يقول

في مثل المورد بالنسخ وهو ظاهر، وخاصة في مثل سورة المائدة التي ورد فيها أنها ناسخة غير منسوخة.

قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، الإتيان في متعلق الحكم بالوصف أعني ما في قوله: «الذين أُوتوا الكتاب» من غير أن يقال: من اليهود والنصارى مثلاً أو يقال: من أهل الكتاب، لا يخلو من إشعار بالعلية، واللسان لسان الامتنان، والمقام مقام التخفيف والتسهيل، فالمعنى: إنما نمتن عليكم بالتخفيف والتسهيل في رفع حرمة الازدواج بين رجالكم والمحصنات من نساء أهل الكتاب لكونهم أقرب إليكم من سائر الطوائف غير المسلمة، وهم أُوتوا الكتاب وأذعنوا بالتوحيد والرسالة بخلاف المشركين والوثنيين المنكرين للنبوة، ويشعر بما ذكرنا أيضاً تقييد قوله: «أُوتوا الكتاب» بقوله: «من قبلكم» فإن فيه إشعاراً واضحاً بالخلط والمزج والتشريك.

وكيف كان لما كانت الآية واقعة موقع الامتنان والتخفيف لم تقبل النسخ بمثل قوله تعالى: **﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾** (البقرة / ٢٢١) وقوله تعالى: **﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾** (الممتحنة / ١٠) وهو ظاهر.

على أن الآية الاولى واقعة في سورة البقرة، وهي أول سورة مفصّلة نزلت بالمدينة قبل المائدة: وكذا الآية الثانية واقعة في سورة الممتحنة، وقد نزلت بالمدينة قبل الفتح، فهي أيضاً قبل المائدة نزولاً، ولا وجه لنسخ السابق للاحق مضافاً الى ما ورد: أن المائدة آخر ما نزلت على النبي ﷺ فنسخت ما قبلها، ولم ينسخها شيء.

على أن قد عرفت في الكلام على قوله تعالى: **﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ﴾** الآية (البقرة / ٢٢١)؛ في الجزء الثاني من الكتاب أن الآيتين أعني آية البقرة وآية الممتحنة أجنبيتان من الدلالة على حرمة نكاح الكتابية.

ولو قيل بدلالة آية الممتحنة بوجه على التحريم كما يدل على سبق المنع الشرعي وورود آية المائدة في مقام الامتنان والتخفيف ـ ولا امتنان ولا تخفيف لو لم يسبق منع ـ كانت آية المائدة هي الناسخة لآية الممتحنة لا بالعكس لأن النسخ شأن المتأخر. وسيأتي في البحث الروائي كلام في الآية الثانية.

ثم المراد بالمحصنات في الآية: العفائف وهو أحد معاني الإحصان. وذلك أن قوله «والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أُوتوا الكتاب». يدل على أن المراد بالمحصنات غير ذوات الأزواج وهو ظاهر. ثم الجمع بين المحصنات من أهل الكتاب والمؤمنات على ما مر من توضيح معناها يقضي بأن المراد بالمحصنات في الموضعين معنى واحد. وليس هو الإحصان بمعنى الاسلام لمكان قوله: والمحصنات من الذين أُوتوا الكتاب. وليس المراد بالمحصنات الحرائر فإن الامتنان المفهوم من الآية لا يلائم تخصيص الحل بالحرائر دون الإماء. فلم يبق من معاني الإحصان إلا العفّة فتعيّن أن المراد بالمحصنات العفائف.

وبعد ذلك كله إنما تصرّح الآية بتشريع حل المحصنات من أهل الكتاب للمؤمنين من غير تقييد بدوام أو انقطاع إلا ما ذكره من اشتراط الأجر وكون التمتع بنحو الإحصان لا بنحو المسافحة واتخاذ الأخذان. فينتج أن الذي أُحل للمؤمنين منهن أن يكون على طريق النكاح عن مهر وأجر دون السفاح. من غير شرط آخر من نكاح دوام أو انقطاع. وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿فما استمتعتم به منهن فآتوهن﴾ الآية (النساء / ٢٤) في الجزء الرابع من الكتاب أن المتعة نكاح كالنكاح الدائم. وللبحث بقايا تطلب من علم الفقه.

قوله تعالى: ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ الآية في مساق قوله تعالى في آيات محرّمات النكاح: ﴿وأُحلّ لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين﴾ (النساء / ٢٤). والجملة قرينة على

كون المراد بالآية بيان حلّيّة التزوّج بالمحصنات من أهل الكتاب من غير شمول منها لملك اليمين.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الكفر في الأصل هو الستر فتحقق مفهومه يتوقف على أمر ثابت يقع عليه الستر كما أن الحجاب لا يكون حجاباً إلا اذا كان هناك محجوب فالكفر يستدعي مكفوراً به ثابتاً كالكفر بنعمة الله والكفر بآيات الله والكفر بالله ورسوله واليوم الآخر.

فالكفر بالإيمان يقتضي وجود إيمان ثابت، وليس المراد به المعنى المصدري من الإيمان بل معنى اسم المصدر وهو الأثر الحاصل والصفة الثابتة في قلب المؤمن أعني الاعتقادات الحقة التي هي منشأ الأعمال الصالحة، فيؤل معنى الكفر بالإيمان الى ترك العمل بما يعلم أنه حق كتولي المشركين، والاختلاط بهم، والشركة في أعمالهم مع العلم بحقية الإسلام، وترك الأركان الدينية من الصلاة والزكاة والصوم والحج مع العلم بثبوتها أركاناً للدين.

فهذا هو المراد من الكفر بالإيمان لكن ههنا نكتة وهي أن الكفر لما كان ستراً وستر الامور الثابتة لا يصدق بحسب ما يسبق الى الذهن إلا مع المداومة والمزاولة فالكفر بالإيمان إنما يصدق اذا ترك الانسان العمل بما يقتضيه إيمانه، ويتعلق به علمه، ودام عليه، وأما اذا ستر مرّة أو مرتين من غير أن يدوم عليه فلا يصدق عليه الكفر وإنما هو فسق أتى به.

ومن هنا يظهر أن المراد بقوله: «ومن يكفر بالإيمان» هو المداومة والاستمرار عليه وإن كان عبّر بالفعل دون الوصف. فتارك الاتباع لما حق عنده من الحق، وثبت عنده من أركان الدين كافر بالإيمان، حابط العمل كما قال تعالى: «فقد حبط عمله».

فالآية تنطبق على قوله تعالى: ﴿وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين والذين كذّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ (الأعراف / ١٤٧) فوصفهم باتخاذ

سبيل الغي وترك سبيل الرشد بعد رؤيتها وهي العلم بها ثم بدّل ذلك بتوصيفهم بتكذيب الآيات، والآية إنما تكون آية بعد العلم بدلالتها، ثم فسّره بتكذيب الآخرة لما أن الآخرة لو لم تكذّب منع العلم بها عن ترك الحق، ثم أخبر بحبط أعمالهم.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿**قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً أُولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً**﴾ (الكهف / ١٠٥) وانطباق الآيات على مورد الكفر بالإيمان بالمعنى الذي تقدّم بيانه ظاهر.

وبالتأمل فيما ذكرنا يظهر وجه اتصال الجملة أعني قوله: «ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله»، بما قبله فالجملة متممة للبيان السابق، وهي في مقام التحذير عن الخطر الذي يمكن ان يتوجه الى المؤمنين بالتساهل في أمر الله، والاسترسال مع الكفار فإن الله سبحانه إنما أحل طعام أهل الكتاب والمحصنات من نسائهم للمؤمنين ليكون ذلك تسهيلاً وتخفيفاً منه لهم، وذريعة الى انتشار كلمة التقوى، وسراية الأخلاق الطاهرة الاسلامية من المسلمين المتخلقين بها الى غيرهم، فيكون داعية الى العلم النافع، وباعثة نحو العمل الصالح.

فهذا هو الغرض من التشريع لا لأن يتخذ ذلك وسيلة الى السقوط في مهابط الهوى، والإصعاد في أودية الهوسات، والاسترسال في حبهن والغرام بهن، والتولّه في جمالهن، فيكن قدوة تتسلط بذلك أخلاقهن وأخلاق قومهن على أخلاق المسلمين، ويغلب فسادهن على صلاحهم، ثم يكون البلوى ويرجع المؤمنون الى أعقابهم القهقرى، ومآل ذلك عود هذه المنّة الالهية فتنة ومحنة مهلكة، وصيرورة هذا التخفيف الذي هو نعمة نقمة.

فحذّر الله المؤمنين بعد بيان حلّيّة طعامهم والمحصنات من نسائهم أن لا يسترسلوا في التنعم بهذه النعمة استرسالاً يؤدي الى الكفر بالايمان، وترك أركان الدين، والإعراض عن

الحق فإن ذلك يوجب حبط العمل، وينجر الى خسران السعي في الآخرة[1].

٦ ● يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ
وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى
الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ
سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ
تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ
وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ
يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.
٧ ● وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ﴾ القيام اذا عدي بإلى ربما كني به عن إرادة الشيء المذكور للملازمة والقران بينهما، فإن إرادة الشيء لا تنفك عن الحركة إليه. واذ فرض الإنسان مثلاً قاعداً لأنه حال سكونه ولازم سباته عادته، وفرض الشيء المراد فعلاً متعارفاً يتحرك إليه عادة كان مما يحتاج في اتيانه الى القيام غالباً، فأخذ نسان في ترك السكون والانتصاب لإدراك العمل هو القيام الى الفعل، وهو يلازم الإرادة.

١. المائدة ٤ ـ ٥: بحث روائي في صيد الكلاب: التعليم: الاطعمة المحللة والمحرمة. طعام أهل الكتاب، نكاح الكتابية.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ﴾ (النساء / ١٠٢) أي أردت أن تقيم لهم الصلاة. وعكسه من وجه قوله تعالى: ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ﴾ (النساء / ٢٠) أي اذا طلقتم زوجاً تزوجتم باخرى، فوضعت إرادة الفعل وطلبه مقام القيام به.

وبالجملة الآية تدل على اشتراط الصلاة بما تذكره من الغسل والمسح أعني الوضوء، ولو تم لها إطلاق لدل على اشتراط كل صلاة بوضوء مع الغض عن قوله: «وإن كنتم جنباً فاطهروا» لكن الآيات المشرعة قلما يتم لها الإطلاق من جميع الجهات. على أنه يمكن أن يكون قوله الآتي: «ولكن يريد ليطهركم» مفسرا لهذا الاشتراط على ما سيجيء من الكلام. هذا هو المقدار الذي يمكن أن يبحث عنه في تفسير الآية، والزائد عليه مما أطنب فيه المفسرون بحث فقهي خارج عن صناعة التفسير.

قوله تعالى: ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ الغسل بفتح الغين إمرار الماء على الشيء، ويكون غالباً لغرض التنظيف وإزالة الوسخ والدرن والوجه ما يستقبلك من الشيء، وغلب في الجانب المقبل من رأس الإنسان مثلاً، وهو الجانب الذي فيه العين والأنف والفم، ويعين بالظهور عند المشافهة، وقد فسر في الروايات المنقولة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام بما بين قصاص الشعر من الناصية وآخر الذقن طولاً، وما دارت عليه الابهام والوسطى والسبابة، وهناك تحديدات أُخر ذكرها المفسرون والفقهاء.

والأيدي جمع يد وهي العضو الخاص الذي به القبض والبسط والبطش وغير ذلك، وهو ما بين المنكب وأطراف الأصابع، واذ كانت العناية في الأعضاء بالمقاصد التي يقصدها الإنسان منها كالقبض والبسط في اليد مثلاً، وكان المعظم من مقاصد اليد تحصل بما دون المرفق الى أطراف الأصابع سمي أيضاً باليد، ولذلك بعينه ما سمي ما دون الزند الى أطراف الأصابع فصار اللفظ بذلك مشركاً أو كالمشترك بين الكل والأبعاض.

وهذا الاشتراك هو الموجب لذكر القرينة المعينة اذا أُريد بـه أحـد المـعاني ، ولذلك قـيد تعالى قوله : « وأيديكم » بقوله : « الى المرافق » ليتعين أن المـراد غسـل اليـد التي تـنتهي الى المرافق ، ثم القرينة أفادت أن المراد به القطعة من العـضو التي فـيها الكـف ، وكـذا فـسرتها السنة . والذي يفيده الاستعمال في لفظة « الى » أنها لانتهاء الفعل الذي لا يخـلو مـن امـتداد الحركة ، وأما دخول مدخول « الى » في حكم ما قبله أو عدم دخوله فأمر خارج عن مـعنى الحرف ، فشمول حكم الغسل للمرافق لا يستند الى لفظة « الى » بل الى ما بـينه الـسنة مـن الحكم .

وأما قوله تعالى : « لا تأكلوا أموالهم الى أموالكم » فهو من قبيل تضمين الاكل معنى الضم ونحوه مما يتعدى بإلى لا أن لفظة « الى » هنالك بمعنى مع .

وقد تبين بما مر أن قوله : « الى المرافق » قيد لقوله : « أيديكم » فيكون الغسل المتعلق بها مطلقاً غير مقيد بالغاية يمكن أن يبدء فيه من المرفق الى أطراف الاصابع وهو الذي يأتي به الإنسان طبعاً اذا غسـل يده في غيرحال الوضوء من سائر الاحـوال أو يـبدء مـن أطـراف الاصابع ويختم بالمرفق ، لكن الاخبار الواردة من طرق أئمة أهل البـيت عليهم السلام تـفتي بـالنحو الأول دون الثاني .

قوله تعالى : ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ المسح : إمرار اليد أو كل عضو لامس على الشيء بالمباشرة ، يقال . مسحت الشيء ومسـحت بـالشيء ، فـإذا عدى بنفسه أفاد الاستيعاب ، واذا عدي بالباء دل على المسح بـبعضه مـن غـير اسـتيعاب وإحاطة .

فقوله : « وامسحوا برؤسكم » يدل على مسح بعض الرأس في الجملة ، وأما أنه أي بعض من الرأس فما هو خارج من مدلول الآية ، والمتكفل لبيانه السنة ، وقد صح أنه جانب الناصية من الرأس .

وأما قوله: «وأرجلكم» فقد قرء بالجر، وهو لا محالة بالعطف على رؤسكم. وربما قال القائل: إن الجر للاتباع، كقوله: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ (الأنبياء / ٣٠) وهو خطأ فإن الاتباع على ما ذكروه لغة رديئة لا يحمل عليها كلام الله تعالى. وأما قوله: «كل شيء حي» فإنما الجعل هناك بمعنى الخلق، وليس من الإتباع في شيء.

على أن الإتباع ـ كما قيل ـ إنما ثبت فيما ثبت في صوره اتصال التابع والمتبوع كما قيل في قولهم: جُحر ضب خرب، بجر الخرب إتباعاً لا في مثل المورد مما يفصل العاطف بين الكلمتين.

وقرء: وأرجلكم ـ بالنصب وأنت اذا تلقيت الكلام مخلى الذهن غير مشوب الفهم لم يلبث دون أن تقضي أن «أرجلكم» معطوف على موضع «رؤسكم» وهو النصب، وفهمت من الكلام وجوب غسل الوجه واليدين، ومسح الرأس والرجلين، ولم يخطر ببالك أن ترد «وأرجلكم» الى «وجوهكم» في أول الآية مع انقطاع الحكم في قوله: «فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق» بحكم آخر وهو قوله: «وامسحوا بوجوهكم»، فان الطبع السليم يأبى عن حمل الكلام البليغ على ذلك، وكيف يرضى طبع متكلم بليغ أن يقول مثلاً: قبلت وجه زيد ورأسه ومسحت بكتفه ويده بنصب يد عطفاً على «وجه زيد» مع انقطاع الكلام الأول، وصلاحية قوله: «يده» لأن يعطف على محل المجرور المتصل به، وهو أمر جائز دائر كثير الورود في كلامهم.

وعلى ذلك وردت الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وأما الروايات من طرق أهل السّنة فإنها وإن كانت غير ناظرة الى تفسير لفظ الآية، وإنما تحكي عمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفتوى بعض الصحابة، لكنها مختلفة: منها ما يوجب مسح الرجلين، ومنها ما يوجب غسلهما.

وقد رجح الجمهور منهم أخبار الغسل على أخبار المسح، ولا كلام لنا معهم فهذا المقام لأنه بحث فقهي راجع الى علم الفقه، خارج عن صناعة التفسير.

لكنهم مع ذلك حاولوا تطبيق الآية على ما ذهبوا إليه من الحكم الفقهي بتوجيهات مختلفة ذكروها في المقام، والآية لا تحتمل شيئاً منها إلا مع ردها من أوج بلاغتها الى مهبط الرداءة.

وأما قوله تعالى: «الى الكعبين» فالكعب هو العظم الناتىء في ظهر القدم. وربما قيل: إن الكعب هو العظم الناتىء في مفصل الساق والقدم، وهما كعبان في كل قدم في المفصل.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا﴾ الجنب في الأصل مصدر غلب عليه الاستعمال بمعنى اسم الفاعل، ولذلك يستوى فيه المذكر والمؤنث والمفرد وغيره، يقال: رجل جنب وامرأة جنب ورجلان أو امرأتان جنب، ورجال أو نساء جنب، واختص الاستعمال بمعنى المصدر للجنابة.

والجملة أعني قوله: «وإن كنتم جنباً فاطهروا» معطوفة على قوله: «فاغسلوا وجوهكم» لأن الآية مسوقة لبيان اشتراط الصلاة بالطهارة فالتقدير: وتطهروا إن كنتم جنباً، فيؤول الى تقدير شرط الخلاف في جانب الوضوء وتقدير الكلام: فاغسلوا وجوهكم وأيديكم وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إن لم تكونوا جنباً وإن كنتم جنباً فاطّهروا ويستفاد من ذلك أن تشريع الوضوء إنما هو في حال عدم الجنابة، وأما عند الجنابة فالغسل فحسب كما دلت عليه الأخبار.

وقد بين الحكم بعينه في آية النساء بقوله: «ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا» فهذه الآية تزيد على تلك الآية بياناً بتسمية الاغتسال تطهرا، وهذا غير الطهارة الحاصلة بالغسل، فانها أثر مترتب، وهذا نفس الفعل الذي هو الاغتسال وقد سمي تطهرا كما يسمى غسل أوساخ البدن بالماء تنظفاً.

ويستفاد من ذلك ما ورد في بعض الأخبار من قوله ﷺ: «ما جرى عليه الماء فقد طهر».

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضىٰ أَوْ عَلىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لٰمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ شروع في بيان حكم من لا يقدر على الماء

حتى يغسل أو يغتسل.

والذي ذكر من الموارد وعدّ بالترديد ليس بعضها يقابل بعضاً مقابلة حقيقية، فان المرض والسفر ليسا بنفسهما يوجبان حدثاً مستدعياً للطهارة بالوضوء أو الغسل بل إنما يوجبانه اذا أحدث المكلف معهما حدثاً صغيراً أو كبيراً، فالشقان الأخيران لا يقابلان الأولين بل كل من الأولين كالمنقسم الى الاخيرين، ولذلك احتمل بعضهم أن يكون «أو» في قوله: «أو جاء أحد منكم»، بمعنى الواو كما سيجيء، على أن العذر لا ينحصر في المرض والسفر بل له مصاديق أُخر.

لكن الله سبحانه ذكر المرض والسفر وهما مظنة عدم التمكن من الماء غالباً، وذكر المجيء من الغائط وملامسة النساء وفقدان الماء معهما اتفاقي، ومن جهة أُخرى ـ وهي عكس الجهة الاولى ـ عروض المرض والسفر للإنسان بالنظر الى بنيته الطبيعية أمر اتفاقي بخلاف التردد الى الغائط وملامسة النساء فإنهما من حاجة الطبيعة: أحدهما يوجب الحدث الاصغر الذي يرتفع بالوضوء، والآخر الحدث الاكبر الذي يرتفع بالغسل.

فهذه الموارد الاربع موارد يبتلى الإنسان ببعضها اتفاقاً وببعضها طبعاً. وهي تصاحب فقدان الماء غالباً كالمرض والسفر أو اتفاقاً كالتخلي والمباشرة اذا انضم اليها عدم وجدان الماء فالحكم هو التيمم.

وعلى هذا يكون عدم وجدان الماء كناية عن عدم القدرة على الاستعمال. كنّي به عنه لان الغالب هو استناد عدم القدرة الى عدم الوجدان، ولازم ذلك أن يكون عدم الوجدان قيداً لجميع الامور الاربعة المذكورة حتى المرض.

وقد تبين بما قدمناه اولا: أن المراد بالمرض في قوله: «كنتم مرضى» هو المرض الذي يتحرج معه الإنسان من استعمال الماء ويتضرر به على ما يعطيه التقييد بقوله: «فلم تجدوا ماءً» ويفيده أيضاً سياق الكلام في الآية.

وثانياً: أن قوله: «أو على سفر» شق برأسه يبتلي به الانسان اتفاقاً، ويغلب عليه فيه فقدان الماء، فليس بمقيد بقوله: «أو جاء أحد منكم» الخ؛ بل هو معطوف على قوله: «فاغسلوا» والتقدير: اذا قمتم الى الصلاة وكنتم على سفر ولم تجدوا ماء فتيمموا، فحال هذا الفرض في إطلاقه وعدم تقيده بوقوع أحد الحدثين حال المعطوف عليه أعني قوله: «اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا» الخ؛ فكما لم يحتج الى التقييد ابتداءً لم يحتج اليه ثانياً عند العطف.

وثالثاً: أن قوله: «أو جاء أحد منكم من الغائط» شق آخر مستقلاً وليس كما قيل: إن «أو» فيه بمعنى الواو كقوله تعالى: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ (الصافات / ١٤٧) لما عرفت من عدم الحاجة الى ذلك. على أن «أو» في الآية المستشهد بها ليس إلا بمعناها الحقيقي، وإنما الترديد راجع الى كون المقام مقاماً يتردد فيه بالطبع لا لجهل في المتكلم كما يقال بمثله في الترجي والتمني الواقعين في القرآن كقوله: ﴿لعلكم تتقون﴾ (البقرة / ٢١)، وقوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ (البقرة / ١٠٢).

وحكم هذه الجملة في العطف حكم سابقتها، والتقدير: اذا قمتم الى الصلاة وكان جاء أحد منكم من الغائط ولم تجدوا ماءً فتيمموا.

وليس من البعيد أن يستفاد من ذلك عدم وجوب اعادة التيمم أو الوضوء لمن لم تنتقض طهارته بالحدث الأصغر إن كان على طهارة بناء على مفهوم الشرط فيتأيد به من الروايات ما يدل على عدم وجوب التطهر لمن كان على طهارة.

وفي قوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ من الأدب البارع ما لا يخفى للمتدبر حيث كني عن المراد بالمجيء من الغائط، والغائط هو المكان المنخفض من الأرض وكانوا يقصدونه لقضاء الحاجة ليتستروا به من الناس تأدّباً، واستعمال الغائط في معناه المعروف اليوم استعمال مستحدث من قبيل الكنايات المبتذلة كما أن لفظ العذرة كذلك، والأصل في معناها عتبة الباب سميت بها لأنهم كانوا يخلون ما اجتمع في كنيف البيت فيها على

ما ذكره الجوهري في الصحاح .

ولم يقل : أو جئتم من الغائط لما فيه من تعيين المنسوب إليه ، وكذا لم يقل : أو جاء أحدكم من الغائط لما فيه من الإضافة التي فيها شوب التعيين بل بالغ في الإبهام فقال : « أو جاء أحد منكم من الغائط » رعاية لجانب الأدب .

ورابعاً : أن قوله : ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ كسابقه شق من الشقوق المفروضة مستقل وحكمه في العطف والمعنى حكم سابقه . وهو كناية عن الجماع أدباً صوناً للسان من التصريح بما تأبى الطباع عن التصريح به .

فإن قلت : لو كان كذلك كان التعبير بمثل ما عبر به عنه سابقاً بقوله : « وإن كنتم جنباً » أولى لكونه أبلغ في رعاية الأدب .

قلت : نعم لكنه كان يفوت نكتة مرعية في الكلام ، وهي الدلالة على كون الامر مما يقتضيه الطبيعة كما تقدّم بيانه ، والتعبير بالجنابة فاقد للإشعار بهذه النكتة .

وظهر أيضاً فسا ما نسب الى بعضهم : أن المراد بملامسة النساء هو الملامسة حقيقة بنحو التصريح من غير أن تكون كناية عن الجماع . وجه فساده أن سياق الآية لا يلائمه ، وإنما يلائم الكنايه فإن الله سبحانه ابتدأ في كلامه ببيان حكم الحدث الاصغر بالوضوء وحكم الجنابة بالغسل في الحال العادي ، وهو حال وجدان الماء ، ثم انتقل الكلام الى بيان الحكم في الحال غير العادي ، وهو حال فقدان الماء فبين فيه حال بدل الوضوء وهو التيمم فكان الاحرى والانسب بالطبع أن يذكر حال بدل الغسل أيضاً ، وهو قرين الوضوء ، وقد ذكر ما يمكن أن ينطبق عليه ، وهو قوله : « أو لامتسم النساء » على سبيل الكناية ، فالمراد به ذلك لا محالة ، ولا وجه لتخصيص الكلام ببيان حكم بدل الوضوء وهو أحد القرينين ، وإهمال حكم بدل القرين الآخر وهو الغسل رأساً .

وخامساً : يظهر بما تقدم فساد ما أورد على الآية من الإشكالات : فمنها أن ذكر المرض

والسفر مستدرك. فانهما انما يوجبان التيمم بانضمام احد الشقين الأخيرين وهو الحدث والملامسة، مع أنهما يوجبانه ولو لم يكن معهما مرض أو سفر فذكر الأخيرين يغني عن ذكر الأولين. والجواب أن ذكر الشّقين الأخيرين ليس لغرض انضمامهما الى أحد الأولين بل كل من الأربعة شق مستقل مذكور لغرض خاص به يفوت بحذفه من الكلام على ما تقدم بيانه.

ومنها: أن الشق الثاني وهو قوله: «أو على سفر» مستدرك وذلك بمثل ما وجّه به الإشكال السابق غير أ المرض لما كان عذره الموجب للانتقال الى البدل هو عدم التمكن من استعمال الماء الموجود لا عدم وجدان الماء كان من اللازم أن يقدر له ذلك في الكلام. ولا يغني عن ذكره ذكر الشقين الأخيرين مع عدم وجدان الماء، ونتيجة هذا الوجه كون السفر مستدركاً فقط.
والجواب أن عدم الوجدان في الآية كناية عن عدم التمكن من استعمال الماء أعم من صورة وجدانه أو فقدانه كما تقدم.

ومنها: أن قوله: «فلم تجدوا ماء» يغني عن ذكر جميع الشقوق، ولو قيل مكان قوله: «وان كنتم مرضى» الخ: «وان لم تجدوا ماء» لكان أوجز وأبين. والجواب: أن فيه اضاعة لما تقدم من النكات.

ومنها: أن لو قيل: وان لم تقدروا على الماء أو ما يفيد معناه كان أولى. لشموله عذر المرض مضافاً الى عذر غيره. والجواب: انه افيد بالكناية، وهي ابلغ.

قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾

التيمم هو القصد، والصعيد هو وجه الأرض، وتوصيفه بالطيب ـ والطيب في الشيء كونه على حال يقتضيه طبعه ـ للإشارة الى اشتراط كونه على حاله الأصلي كالتراب والأحجار العادية دون ما خرج من الأرضية بطبخ أو نضج أو غير ذلك من عوامل التغيير كالجص والنورة والخزف والمواد المعدنية، قال تعالى: ﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكداً﴾ (الأعراف / ٥٨) ومن ذلك يستفاد الشروط التي اخذت السنّة في

الصعيد الذي يتيمم به.

وربما يقال: ان المراد بالطيب الطهارة، فيدل على اشتراط الطهارة في الصعيد.

وقوله: «فامسحوا بوجوهكم وايديكم منه» ينطبق ما ذكره في التيمم للمسح على ما ذكره في الوضوء للغسل، فالتيمم في الحقيقة وضوء اسطقت فيه المسحتان: مسح الرأس ومسح الرجلين، وابدلت فيه الغسلتان: غسلة الوجه واليدين الى المرفقين بالمسحتين، وابدل الماء بالتراب تخفيفاً.

وهذا يشعر بأن العضوين في التيمم هما العضوان في الوضوء، ولما عبّر تعالى بالمسح المتعدي بالباء دل ذلك على أن المعتبر في التيمم هو مسح بعض عضوي الغسل في الوضوء أعني بعض الوجه، وبعض اليد الى المرفق، وينطبق على ما ورد من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام من تحديد الممسوح من الوجه بما بين الجبينين والممسوح من اليد بما دون الزند منها.

وبذلك يظهر فساد ما ذكره بعضهم من تحديد اليد بما دون الإبطين. وما ذكره آخرون أن المعتبر من اليد في التيمم عين ما اعتبر في الوضوء وهو ما دون المرفق، وذلك أنه لا يلائم المسح المتعدي بالباء الدال على مرور الماسح ببعض الممسوح.

و«من» في قوله: «منه» كأنها ابتدائية والمراد ان يكون المسح بالوجه واليدين مبتدء من الصعيد، وقد بينته السنّة بأنه بضرب اليدين على الصعيد ومسحهما بالوجه واليدين.

ويظهر من بعضهم: أن «من» ههنا تبعيضية فتفيد أن يكون في اليدين بعد الضرب بقية من الصعيد كغبار ونحوه بمسح الوجه واليدين واستنتج منه وجوب كون الصعيد المضروب عليه مشتملاً على شيء من الغبار يمسح منه بالوجه واليدين فلا يصح التيمم على حجر املس لم يتعلق به غبار، والظاهر ما قدمناه ـ والله أعلم ـ وما استنتجه من الحكم لا يختص بما احتمله.

وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ دخول «من» على مفعول «ما يريد» لتأكيد النفي، فلا حكم يراد به الحرج بين الأحكام الدينية أصلاً، ولذلك علق النفي على إرادة الجعل دون نفس الحرج.

والحرج حرجان: حرج يعرض ملاك الحكم ومصلحته المطلوبة، ويصدر الحكم حينئذ حرجياً بذاته لتبعية ملاكه كما لو حرم الالتذاذ من الغذاء لغرض حصول ملكة الزهد، فالحكم حرجي من رأس، وحرج يعرض الحكم من خارج عن أسباب اتفاقية فيكون بعض أفراده حرجياً ويسقط الحكم حينئذ في تلك الأفراد الحرجية لا في غيرها مما لا حرج فيه، كمن يتحرج عن القيام في الصلاة لمرض يضره معه ذلك، ويسقط حينئذ وجوب القيام عنه لا عن غيره ممن يستطيعه.

وإضرابه تعالى بقوله: «ولكن يريد ليطهركم»، عن قوله: «ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج» يدل على أن المراد بالآية نفي الحرج الذي في الملاك أي إن الأحكام التي يجعلها عليكم ليست بحرجية شرعت لغرض الحرج، وذلك لأن معنى الكلام أن مرادنا بهذه الأحكام المجعولة تطهيركم وإتمام النعمة وهو الملاك، لا أن نشق عليكم ونحرّجكم، ولذلك لما وجدنا الوضوء والغسل حرجيين عليكم عند فقدان الماء انتقلنا من إيجاب الوضوء والغسل الى إيجاب التيمم الذي هو في وسعكم، ولم يبطل حكم الطهارة من رأس لإرادة تطهيركم وإتمام النعمة عليكم لعلكم تشكرون.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لازم ما تقدم من معنى نفي إرادة الحرج أن يكون المراد بقوله: «يريد ليطهركم» أن تشريع الوضوء والغسل والتيمم إنما هو حصول الطهارة فيكم لكونها أسباباً لذلك، وهذه الطهارة اياما كانت ليست بطهارة عن الخبث بل هي طهارة معنوية حاصلة بأحد هذه الأعمال الثلاثة، وهي التي تشترط بها الصلاة في الحقيقة.

ومن الممكن أن يستفاد من ذلك عدم وجوب الإتيان بعمل الطهارة عند القيام إلى كل صلاة اذا كان المصلي على طهارة غير منقوضة. ولا ينافي ذلك ظهور صدر الآية في الإطلاق لأن التشريع أعم مما يكون على سبيل الوجوب.

وأما قوله: «وليتم نعمته عليكم». فقد مر معنى النعمة وإتمامها في الكلام على قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾ (المائدة / ٣) ومعنى الشكر في الكلام على قوله تعالى: ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ (آل عمران / ١٤٤) في الجزء الرابع من الكتاب فالمراد بالنعمة في الآية هو الدين لا من حيث أجزائه من المعارف والاحكام، بل من حيث كونه إسلام الوجه لله في جميع الشؤون، وهو ولاية الله على العباد بما يحكم فيهم، وإنما يتم ذلك باستيفاء التشريع جميع الاحكام الدينية التي منها حكم الطهارات الثلاث.

ومن هنا يظهر أن بين الغايتين أعني قوله: «ليطهركم» وقوله: «ليتم نعمته» فرقاً، وهو أن الطهارة غاية لتشريع الطهارات الثلاث بخلاف إتمام النعمة، فإنه غاية لتشريع جميع الاحكام. وليس الطهارات الثلاث منها إلا سهمها. فالغايتان خاصة وعامة.

وعلى هذا فالمعنى: ولكن نريد بجعل الطهارات الثلاث حصول الطهارة بها خاصة لكم، ولأنها بعض الدين الذي يتم بتشريع جميعها نعمة الله عليكم لعلكم تشركون الله على نعمته فيخلصكم لنفسه، فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، هذا هو الميثاق الذي كان مأخوذاً منهم على الإسلام كما تشهد به تذكرته لهم بقوله: «اذ قلتم سمعنا وأطعنا» فإنه السمع المطلق. والطاعة المطلقة، وهو الإسلام لله فالمعنى بالنعمة في قوله: «واذكروا نعمة الله عليكم» هو المواهب الجميلة التي وهبهم الله سبحانه إياها في شعاع الإسلام، وهو التفاضل الذي بين حالهم في جاهليتهم وحالهم في إسلامهم من الأمن والعافية والثروة وصفاء القلوب وطهارة الأعمال كما قال تعالى: ﴿واذكروا

نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾ (آل عمران / ١٠٣).

أو أن الإسلام بحقيقته هو المراد بالنعمة، فإنه أم النعم ترتضع منها كل نعمة كما تقدم بيانه. وغير مخفي عليك ان المراد بكون النعمة هي الإسلام بحقيقته أو الولاية إنما هو تعيين المصداق دون تشخيص مفهوم اللفظ، فإن المفهوم هو الذي يشخصه اللغة، ولا كلام لنا فيه.

ثم ذكرهم نفسه وأنه عالم بخفايا زوايا القلوب، فأمرهم بالتقوى بقوله: «واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور»[1].

٨ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ.

٩ ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ.

١٠ ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ.

١١ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ.

---

١. المائدة ٦ـ٧: بحث روائي في الوضوء.

١٢ ● وَلَقَدْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثٰاقَ بَنِى إِسْرائِيلَ وَبَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَىْ عَشَرَ نَقِيباً وَقٰالَ اللّٰهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلوٰةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكوٰةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّآتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنّٰاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوٰاءَ السَّبِيلِ.

١٣ ● فَبِمٰا نَقْضِهِمْ مِيثٰاقَهُمْ لَعَنّٰاهُمْ وَجَعَلْنٰا قُلُوبَهُمْ قٰاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوٰاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمّٰا ذُكِّرُوا بِهِ وَلٰا تَزٰالُ تَطَّلِعُ عَلىٰ خٰائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلّٰا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

١٤ ● وَمِنَ الَّذِينَ قٰالُوا إِنّٰا نَصٰارىٰ أَخَذْنٰا مِيثٰاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمّٰا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنٰا بَيْنَهُمُ الْعَدٰاوَةَ وَالْبَغْضٰاءَ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّٰهُ بِمٰا كٰانُوا يَصْنَعُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّٰامِينَ لِلّٰهِ شُهَدٰاءَ بِالْقِسْطِ وَلٰا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلىٰ أَلّٰا تَعْدِلُوا﴾ الآية نظيرة الآية التي في سورة النساء ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ (النساء / ١٣٥).

وإنما الفرق بين الآيتين ان آية النساء في مقام النهي عن الانحراف عن العدل في الشهادة لاتباع الهوى بأن يهوى الشاهد المشهود له لقرابة ونحوها، فيشهد له بما ينتفع به على خلاف الحق، وهذه الآية ـ أعني آية المائدة ـ في مقام الردع عن الانحراف عن العدل في الشهادة لشنآن وبغض من الشاهد للمشهود عليه، فيقيم الشهادة عليه يريد بها نوع انتقام منه ودحض لحقه.

وهذا الاختلاف في غرض البيان هو الذي أوجب اختلاف القيود في الآيتين: فقال في آية النساء: «كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله» وفي آية المائدة: «كونوا قوامين لله شهداء بالقسط».

وذلك أن الغرض في آية المائدة لما كان هو الردع عن الظلم في الشهادة لسابق عداوة من الشاهد للمشهود عليه قيّد الشهادة بالقسط، فأمر بالعدل في الشهادة وأن لا يشتمل على ظلم حتى على العدو بخلاف الشهادة لأحد بغير الحق لسابق حب وهوى، فإنها لا تعد ظلماً في الشهادة وانحرافاً عن العدل وإن كانت في الحقيقة لا تخلو عن ظلم وحيف، ولذلك أمر في آية المائدة بالشهادة بالقسط، وفرّعه على الأمر بالقيام لله، وأمر في آية النساء بالشهادة لله أي أن لا يتبع فيها الهوى، وفرّعه على الامر بالقيام بالقسط.

ولذلك أيضاً فرّع في آية المائدة على الامر بالشهادة بالقسط قوله: «اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقو الله» فدعا الى العدل، وعدّه ذريعة الى حصول التقوى، وعكس الامر في آية النساء ففرّع على الأمر بالشهادة لله قوله: «فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا» فنهى عن اتباع الهوى وترك التقوى، وعدّه وسيلة سيئة الى ترك العدل.

ثم حذر في الآيتين جميعاً في ترك التقوى تحذيراً واحداً فقال في آية النساء: «وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً» أي إن لم تتقوا، وقال في آية المائدة: «واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون» وأما معنى القوّامين لله شهداء بالقسط، الخ؛ فقد ظهر في الكلام على الآيات

السابقة.

قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ﴾، الضمير راجع الى العدل المدلول عليه بقوله: «اعدلوا» والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ الجملة الثانية أعني قوله: «لهم مغفرة»، إنشاء للوعد الذي أخبر عنه بقوله: «وعد الله»، وهذا كما قيل: آكد بياناً من قوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾ (الفتح / ٢٩) لا لما قيل: إنه لكونه خبراً بعد خبر، فإن ذلك خطأ، بل لكونه تصريحاً بإنشاء الوعد من غير أن يدل عليه ضمناً، كآية سورة الفتح.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ قال الرغب: الجحمة شدة تأجج النار ومنه الجحيم. والآية تشتمل على نفس الوعيد، وتقابل قوله تعالى في الآية السابقة: «لهم مغفرة وأجر عظيم».

وتقييد الكفر بتكذيب الآيات للاحتراز عن الكفر الذي لا يقارن تكذيب الآيات الدالة، ولا ينتهي الى إنكار الحق مع العلم بكونه حقاً كما في صورة الاستضعاف، فإن أمره الى الله إن يشأ يغفره وإن يشأ يعذب عليه فهاتان الآيتان وعد جميل للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإيعاد شديد للذين كفروا وكذّبوا بآيات الله، وبين المرحلتين مراحل متوسطة ومنازل متخللة أبهم الله سبحانه أمرها وعقباها.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا﴾ الخ: هذا المضمون يقبل الانطباق على وقائع متعددة مختلفة وقعت بين الكفار والمسلمين كغزوات بدر وأُحد والأحزاب وغير ذلك، فالظاهر أن المراد به مطلق ما هم به المشركون من قتل المؤمنين وإمحاء أثر الاسلام ودين التوحيد.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ امر بالتقوى والتوكل

على الله . والمراد بالحقيقة النهي والتحذير الشديد عن ترك التقوى وترك التوكل على الله سبحانه . والدليل على ذلك ما سرده تعالى من قصة اخذ الميثاق من بني اسرائيل ومن الذين قالوا انا نصارى . ثم نقض الطائفتين الميثاق الإلهي وابتلاء الله اياهم باللعن وتقسية القلوب . ونسيان حظ من دينهم . واغراء العداوة والبغضاء بينهم الى يوم القيامة .

ولم يذكر القصة إلا ليستشهد بها على المؤمنين ، ويجعلها نصب أعينهم ليعتبروا بها وينتبهوا بأن اليهود والنصارى إنما ابتلوا بما ابتلوا به لنسيانهم ميثاق الله سبحانه ولم يكن إلا ميثاقاً بالاسلام لله ، واثقوه بالسمع والطاعة . وكان لازم ذلك أن يتقوا مخالفة ربهم وأن يتوكلوا عليه في أُمور دينهم أي يتخذوه وكيلاً فيها يختارون ما يختاره لهم ، ويتركون ما يكرهه لهم ، وطريقه طاعة رسلهم بالايمان بهم ، وترك متابعة غير الله ورسله ، ممن يدعو الى نفسه والخضوع لأمره من الجبابرة والطغاة وغيرهم حتى الاحبار والرهبان فلا طاعة إلا لله أو من امر بطاعته .

لكنهم نبذوه وراءهم ظهرياً فابعدوا من رحمة الله وحرّفوا الكلم عن مواضعه وفسروها بغير ما أُريد بها فأوجب ذلك أن نسوا حظاً من الدين ولم يكن إلا حظاً وسهماً يرتحل بارتحاله عنهم كل خير وسعادة وأفسد ذلك ما بقي بأيديهم من الدين . فإن الدين مجموع من معارف وأحكام مرتبط بعضها ببعض يفسد بعضه بعض آخر سيما الأركان والاصول . وذلك كمن يصلي لكن لا لوجه الله ، أو ينفق لا لمرضاة الله ، أو يقاتل لا لإعلاء كلمة الحق . فلا ما بقي في أيديهم نفعهم ، اذ كان محرّفاً فاسداً ، ولا ما نسوه من الدين أمكنهم أن يستغنوا عنه ، ولا غنى عن الدين ولاسيما اصوله وأركانه .

فمن هنا يعلم ان المقام يقتضي أن يحذّر المؤمنون عن مخالفة التقوى وترك التوكل على الله بذكر هذه القصة ودعوتهم الى الاعتبار بها .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَىْ عَشَرَ

نَقِيباً ﴾ الآية؛ قال الراغب: النقب في الحائط والجلد كالثقب في الخشب. قال: والنقيب الباحث عن القوم وعن أحوالهم، وجمعه نقباء.

والله سبحانه يقص على المؤمنين من هذه الامة ما جرى على بني إسرائيل من إحكام دينهم وتثبيت أمرهم بأخذ الميثاق، وبعث النقباء، وإبلاغ البيان، وإتمام الحجة ثم ما قابلوه به من نقض الميثاق، وما قابلهم به الله سبحانه من اللعن وتقسية القلوب، الخ؛ فقال: «ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل» وهو الذي يذكره كثيراً كثيراً في سورة البقرة وغيرها: «وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً» والظاهر أنهم رؤساء الأسباط الاثني عشر، كانوا كالولاة عليهم يتولون امورهم فنسبتهم الى أسباطهم بوجه كنسبة أولي الأمر الى الأفراد في هذه الامة لهم المرجعية في امور الدين والدنيا غير أنهم لا يلتقون وحياً، ولا يشرّعون شريعة، وإنما ذلك الى الله ورسوله «وقال الله إني معكم» إيذان بالحفظ والمراقبة فيتفرع عليه أن ينصرهم إن أطاعوه ويخذلهم إن عصوه ولذلك ذكر الأمرين جميعاً فقال: «لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم» والتعزيز هو النصرة مع التعظيم، والمراد بالرسل ما سيستقبلهم ببعثته ودعوته كعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسائر من بعثه الله بين موسى ومحمد صلى الله عليه وآله «وأقرضتم الله قرضاً حسناً» وهو الإنفاق المندوب دون الزكاة الواجبة «لأكفّرنّ عنكم سيئاتكم ولادخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار» فهذا ما يرجع الى جميل الوعد. ثم قال: «فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل».

قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾، ذكر تعالى جزاء الكفر بالميثاق المذكور ضلال سواء السبيل، وهو ذكر إجمالي يفصله ما في هذه الآية من أنواع النقم التي نسب الله سبحانه بعضها الى نفسه كاللّعن وتقسية القلوب مما تستقيم فيه النسبة، وبعضها الى أنفسهم مما وقع باختيارهم كالذي يعني بقوله: «ولا تزال تطلع على خائنة منهم» فهذا كله جزاؤهم بما كفروا بآيات الله التي على رأسها الميثاق المأخوذ منهم، أو

جزاء كفرهم بالميثاق خاصة فإن سواء السبيل الذي ضلوه هو سبيل السعادة التي بها عمارة دنياهم وأُخراهم.

فقوله: «فبما نقضهم ميثاقهم» الظاهر أنه هو الكفر الذي توعد الله عليه في الآية السابقة، ولفظة «ما» في قوله: «فبما» للتأكيد. ويفيد الإبهام لغرض التعظيم أو التحقير أو غيرهما. والمعنى: فبنقض ما منهم لميثاقهم «لعناهم» واللعن هو الإبعاد من الرحمة «وجعلنا قلوبهم قاسية» وقسوة القلب مأخوذ من قسوة الحجارة وهي صلابتها والقسي من القلوب ما لا يخشع لحق ولا يتأثر برحمة. قال تعالى: **﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أُوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾** (الحديد / ١٦).

وبالجملة عقبت قسوة قلوبهم أنهم عادوا «يحرفون الكلم عن مواضعه» بتفسيرها بما لا يرضى به الله سبحانه وبإسقاط أو زيادة أو تغيير. فكل ذلك من التحريف. وأفضاهم ذلك أن فاتهم حقائق ناصعة من الدين «ونسوا حظاً مما ذكروا به» ولم يكن إلا حظاً من الاصول التي تدور على مدارها السعادة. ولا يقوم مقامها إلا ما يسجل عليهم الشقوة اللازمة كقولهم بالتشبيه، وخاتمية نبوة موسى، ودوام شريعة التوراة، وبطلان النسخ والبداء الى غير ذلك.

«ولا تزال تطلع على خائنة منهم» أي على طائفة خائنة منهم، أو على خيانة منهم «الا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين» وقد تقدم مراراً ان استثناء القليل منهم لا ينافي ثبوت اللعن والعذاب للجماعة التي هي الشعب والامة.

قوله تعالى: **﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا﴾**. قال الرغب: غرى بكذا أي لهج به ولصق، وأصل ذلك من الغراء وهو ما يلصق به. وأغريت فلاناً بكذا نحو ألهجت به.

وقد كان المسيح عيسى بن مريم نبي رحمة يدعو الناس الى الصلح والسلم، ويندبهم الى

الإشراف على الآخرة، والإعراض عن ملاذّ الدنيا وزخارفها. وينهاهم عن التكالب لأجل هذا العرض الأدنى فلما نسوا حظاً مما ذكروا به أثبت الله سبحانه في قلوبهم مكان السلم والصلح حرباً. وبدل المؤاخاة والموادة التي ندبوا اليها معادة ومباغضة كما يقول «فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة».

وهذه العداوة والبغضاء اللتان ذكرهما الله تعالى صارتا من الملكات الراسخة المرتكزة بين هؤلاء الامم المسيحية وكالنار الآخرة التي لا مناص لهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أُعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق.

ولم يزل منذ رفع عيسى بن مريم عليه السلام، واختلف حواريوه والدعاة السائحون من تلامذتهم فيما بينهم نشب الاختلاف فيما بينهم، ولم يزل ينمو ويكثر حتى تبدل الى الحروب والمقاتلات والغارات وأنواع الشرد والطرد وغير ذلك حتى انتهى الى حروب عالمية كبرى تهدد الأرض بالخراب والإنسانية بالفناء والانقراض.

كل ذلك من تبدل النعمة نقمة، وإنتاج السعي ضلالاً «وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون».

١٥ • يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ.

١٦ • يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

١٧ • لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ

يَمْلِكُ مِنَ اللّٰهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَاللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

١٨ • وَقالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصارىٰ نَحْنُ أَبْناءُ اللّٰهِ وَأَحِبّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَلِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ.

١٩ • يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ أما بيانه كثيراً كانوا يخفون من الكتاب فكبيانه آيات النبوة وبشاراتها كما يشير اليه قوله تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل﴾ الآية (الأعراف / ١٥٧)؛ وقوله تعالى: ﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ الآية (البقرة / ١٤٦) وقوله: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ـ الى قوله ـ ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل﴾ الآية (الفتح / ٢٩) وكبيانه ﷺ حكم الرجل الذي كتموه وكابروا فيه الحق على ما يشير اليه قوله تعالى فيما سيأتي: ﴿لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ الآيات (المائدة / ٤١)؛ وهذا

الحكم أعني حكم الرجم موجود الآن في الإصحاح الثاني والعشرين من سفر التثنية من التوراة الدائرة بينهم.

وأما عفوه عن كثير فهو تركه كثيراً مما كانوا يخفونه من الكتاب، ويشهد بذلك الاختلاف الموجود في الكتابين، كاشتمال التوراة على امور في التوحيد والنبوة لا يصح استنادها اليه تعالى كالتجسم والحلول في المكان ونحو ذلك، وما لا يجوز العقل نسبته الى الأنبياء الكرام من أنواع الكفر والفجور والزلات، وكفقدان التوراة ذكر المعاد من رأس ولا يقوم دين على ساق إلا بمعاد، وكاشتمال ما عندهم من الأناجيل ولاسيما إنجيل يوحنا على عقائد الوثنية.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر قوله: «قد جاءكم من الله» كون هذا الجائي قائماً به تعالى نحو قيام كقيام البيان أو الكلام بالمبين والمتكلم وهذا يؤيد كون المراد بالنور هو القرآن، وعلى هذا فيكون قوله: «وكتاب مبين» معطوفا عليه عطف تفسير، والمراد بالنور والكتاب المبين جميعا القرآن، وقد سمى الله تعالى القرآن نوراً في موارد من كلامه كقوله تعالى: ﴿واتبعوا النور الذي أُنزل معه﴾ (الأعراف / ١٥٧) وقوله: ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾ (التغابن / ٨) وقوله: ﴿وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً﴾ (النساء / ١٧٤).

ومن المحتمل أن يكون المراد بالنور النبي ﷺ على ما ربما أفاده صدر الكلام في الآية، وقد عده الله تعالى نوراً في قوله: ﴿وسراجاً منيراً﴾ (الأحزاب / ٤٦).

قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ الباء في قوله: «به» للآلة والضمير عائد الى الكتاب أو الى النور سواء أُريد به النبي ﷺ أو القرآن فمآل الجميع واحد فإن النبي ﷺ أحد الأسباب الظاهرية في مرحلة الهداية، وكذا القرآن وحقيقة الهداية قائمة به قال تعالى: ﴿انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ (القصص / ٥٦)، وقال: ﴿وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب

ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا الى الله تصير الامور ﴾ (الشورى / ٥٣) والآيات كما ترى تنسب الهداية الى القرآن والى الرسول ﷺ في عين أنها ترجعها الى الله سبحانه فهو الهادي حقيقة وغيره سبب ظاهري مسخر لإحياء أمر الهداية .

وقد قيد تعالى قوله : « يهدي به الله » بقوله : « من اتبع رضوانه » ويؤول الى اشتراط فعلية الهداية الإلهية باتباع رضوانه ، فالمراد بالهداية هو الإيصال الى المطلوب ، وهو أن يورده الله تعالى سبيلاً من سبل السلام أو جميع السبل أو أكثرها واحداً بعد آخر .

وقد أطلق تعالى السلام فهو السلامة والتخلص من كل شقاء يختل به أمر سعادة الحياة في دنيا أو آخرة ، فيوافق ما وصف القرآن الإسلام لله والإيمان والتقوى بالفلاح والفوز والأمن ونحو ذلك ، وقد تقدم في الكلام على قوله تعالى : **﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾** (الحمد / ٦) في الجزء الأول من الكتاب أن الله سبحانه بحسب اختلاف حال السائرين من عباده سبلاً كثيرة تتحد الجميع في طريق واحد منسوب اليه تعالى يسميه في كلامه بالصراط المستقيم قال تعالى : **﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾** (العنكبوت / ٦٩) ، وقال تعالى : **﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾** (الأنعام / ١٥٣) . فدل على أن له سبلاً كثيرة لكن الجميع تتحد في الإيصال الى كرامته تعالى من غير أن تفرق سالكيها ويبين كل سبيل سالكيه عن سالكي غيره من السبل كما هو شأن غير صراطه تعالى من السبل .

فمعنى الآية ـ والله تعالى ـ : يهدي الله سبحانه ويورد بسبب كتابه أو بسبب نبيه من اتبع رضاه سبلاً من شأنها أنه يسلم من سار فيها من شقاء الحياة الدنيا والآخرة ، وكل ما تتكدر به العيشة السعيدة .

فأمر الهداية الى السلام والسعادة يدور مدار اتباع رضوان الله . وقد قال تعالى : **﴿ ولا**

يرضى لعباده الكفر﴾ (الزمر / ٧)، وقال: ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ (التوبة / ٩٦) ويتوقف بالأخرة على اجتناب سبيل الظلم والانخراط في سلك الظالمين، وقد نفى الله سبحانه عنهم هدايته وآيسهم من نيل هذه الكرامة الإلهية بقوله: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ (الجمعة / ٥) فالآية أعني قوله: «يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام» تجري بوجه مجرى قوله: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أُولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ (الأنعام / ٨٢).

قوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ في جمع الظلمات وإفراد النور إشارة الى أن طريق الحق لا اختلاف فيه ولا تفرق وإن تعددت بحسب المقامات والمواقف بخلاف طريق الباطل.

والإخراج من الظلمات الى النور اذا نسب الى غيره تعالى كنبي أو كتاب فعنى إذنه تعالى فيه إجازته ورضاه كما قال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم﴾ (إبراهيم / ١) فقيّد إخراجه إياهم من الظلمات الى النور بإذن ربهم ليخرج بذلك عن الاستقلال في السببية فإن السبب الحقيقي لذلك هو الله سبحانه وقال: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات الى النور﴾ (إبراهيم / ٥) فلم يقيده بالإذن لاشتمال الأمر على معناه.

واذا نسب ذلك الى الله تعالى فعنى إخراجهم بإذنه إخراجهم بعلمه وقد جاء الاذن بمعنى العلم يقال: أذن به أي علم به، ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وأذان من الله ورسوله﴾ (التوبة / ٣) ﴿فقل آذنتكم على سواء﴾ (الأنبياء / ١٠٩)، وقوله: ﴿وأذن في الناس بالحج﴾ (الحج / ٢٧) الى غيرها من الآيات.

وأما قوله تعالى: «ويهديهم الى صراط مستقيم» فقد أُعيد فيه لفظ الهداية لحيلولة قوله: «ويخرجهم»، بين قوله: «يهدي به الله»، وبين هذه الجملة، ولأن الصراط المستقيم كما تقدم

بيانه في سورة الفاتحة طريق مهيمن على الطرق كلها فالهداية اليه أيضاً هداية مهيمنة على سائر أقسام الهداية التي تتعلق بالسبل الجزئية .

ولا ينافي تنكير قوله : « صراط مستقيم » كون المراد به هو الصراط المستقيم الوحيد الذي نسبه الله تعالى في كلامه الى نفسه ـ إلا في سورة الفاتحة ـ لأن قرينة المقام تدل على ذلك ، وإنما التنكير لتعظيم شأنه وتفخيم أمره .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ هؤلاء إحدى الطوائف الثلاثة التي تقدم نقل أقوالهم في سورة آل عمران ، وهي القائلة باتحاد الله سبحانه بالمسيح فهو إله بشر بعينه . ويمكن تطبيق الجملة أعني قولهم : « إن الله المسيح ابن مريم » على القول بالبنوة وعلى القول بثالث ثلاثة أيضاً غير أن ظاهر الجملة هو حصول العينية بالاتحاد .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ الآية ؛ هذا برهان على إبطال قولهم : من جهة مناقضة بعضه بعضاً لأنهم لما وضعوا أن المسيح مع كونه إلهاً بشر كما وصفوه بأنه ابن مريم جوزوا له ما يجوز على أي بشر مفروض من سكان هذه الارض ، وهم جميعاً كسائر أجزاء السماوات والارض وما بينهما مملوكون لله تعالى مسخرون تحت ملكه وسلطانه . فله تعالى أن يتصرف فيهم بما أراد ، وأن يحكم لهم أو عليهم كيفما شاء ، فله أن يهلك المسيح كماله أن يهلك أُمه ومن في الأرض على حد سواء من غير مزية للمسيح على غيره ، وكيف يجوز الهلاك على الله سبحانه ؟! فوضعهم أن المسيح بشر يبطل وضعهم أنه هو الله سبحانه للمناقضة .

فقوله : « فمن يملك من الله شيئاً » كناية عن نفي المانع مطلقاً فملك شيء من الله هو السلطنة عليه تعالى في بعض ما يرجع اليه . ولازمها انقطاع سلطنته عن ذلك الشيء ، وهو أن يكون سبب من الأسباب يستقل في التأثير في شيء بحيث يمانع تأثيره تعالى أو يغلب عليه فيه ، ولا

ملك إلا لله وحده لا شريك له إلا ما ملك غيره تمليكاً لا يبطل ملكه وسلطانه.

وقوله: «إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً» إنما قيد المسيح بقوله: «ابن مريم» للدلالة على كونه بشراً تاماً واقعاً تحت التأثير الربوبي كسائر البشر، ولذلك بعينه عطف عليه «امه» لكونه مسانخة له من دون ريب، وعطف عليه «من في الأرض جميعاً» لكون الحكم في الجميع على حد سواء.

ومن هنا يظهر أن في هذا التقييد والعطف تلويحاً الى برهان الإمكان، ومحصلة أن المسيح يماثل غيره من أفراد البشر كامه وسائر من في الأرض فيجوز عليه ما يجوز عليهم لأن حكم الامثال فيما يجوز فيما لا يجوز واحد، ويجوز على غيره أن يقع تحت حكم الهلاك فيجوز عليه ذلك ولا مانع هناك يمنع، ولو كان هو الله سبحانه لما جاز عليه ذلك.

وقوله: «ولله ملك السماوات والارض وما بينهما» في مقام التعليل للجملة السابقة، والتصريح بقوله: «وما بينهما» مع أن القرآن كثيراً ما يعبر عن عالم الخلقة بالسماوات والارض فقط إنما هو ليكون الكلام أقرب من التصريح، وأسلم من ورود التوهمات والشبهات فليس لمتوهم أن يتوهم أنه إنما ذكر السماوات والارض ولم يذكر ما بينهما، ومورد الكلام مما بينهما.

وتقديم الخبر أعني قوله «ولله» للدلالة على الحصر، وبذلك يتم البيان، والمعنى: كيف يمكن أن يمنع مانع من إرادته تعالى إهلاك المسيح وغيره ووقوع ما أراده من ذلك، والملك والسلطنة المطلقة في السماوات والأرض وما بينهما لله تعالى لا ملك لأحد سواه؟ فلا مانع من نفوذ حكمه ومضي أمره.

وقوله: «يخلق ما يشاء وهو على كل شيء قدير» في مقام التعليل للجملة السابقة عليه أعني قوله: «ولله ملك السماوات والارض وما بينهما» فإن الملك ـ بضم الميم ـ وهو نوع سلطنة ومالكية على سلطنة الناس وما يملكونه إنما يتقوّم بشمول القدرة ونفوذ المشيئة، ولله سبحانه ذلك في جميع السماوات والارض وما بينهما، فله القدرة على كل شيء وهو يخلق ما يشاء من

الأشياء فله الملك المطلق في السماوات والارض وما بينهما فخلقه ما يشاء وقدرته على كل شيء هو البرهان على ملكه كما أن ملكه هو البرهان على أن له أن يريد إهلاك الجميع ثم يمضي إرادته لو أراد، وهو البرهان على أنه لا يشاركه أحد منهم في أُولوهيته.

وأما البرهان على نفوذ مشيّته وشمول قدرته فهو أنه الله عز اسمه، ولعله لذلك كرر لفظ الجلالة في الآية مرات فقد آل فرض الالوهية في شيء الى أنه لا شريك له في أُولوهيته.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ لا ريب أنهم لم يكونوا يدّعون البنوة الحقيقية كما يدّعيه معظم النصارى للمسيح عليه السلام فلا اليهود كانت تدّعي ذلك حقيقة ولا النصارى، وإنما كانوا يطلقونها على أنفسهم إطلاقاً تشريفياً بنوع من التجوّز، وقد ورد في كتبهم المقدسة هذا الاطلاق كثيراً كما في حق آدم(١) ويعقوب(٢) وداود(٣) واقوام(٤) عيسى(٥) واطلق(٦) أيضاً على صلحاء المؤمنين.

وكيف كان فإنما اريد بالابناء أنهم من الله سبحانه بمنزلة الابناء من الاب، فهم بمنزلة أبناء الملك بالنسبة إليه المنحازين عن الرعية المخصوصين بخصيصة القرب المقتضية أن لا يعامل معهم معاملة الرعية كأنهم مستثنون عن إجراء القوانين والاحكام المجراة بين الناس لأن تعلقهم بعرش الملك لا يلائم مجازاتهم بما يجازي به غيرهم ولا إيقافهم موقفاً توقف فيه سائر الرعية، فلا يستهان بهم كما يستهان بغيرهم فكل ذلك لما تتعقبه علقة النسب من علقة الحب

---

١. آية ٣٨ من الاصحاح الثالث من انجيل لوقا.

٢. آية ٢٢ من الاصحاح الرابع من سفر الخروج من التوراة.

٣. آية ٧ من المزمور ٢ من مزامير داود.

٤. آية ٩ من الاصحاح ٣١ من نبوة أرميا.

٥. آية ٩ من الاصحاح ٥ إنجيل متى، وفي غيره من الاناجيل.

٦. موارد كثيرة من الاناجيل وملحقاتها.

والكرامة.

فالمراد بهذه البنوة الاختصاص والتقرب. ويكون عطف قوله: «وأحباؤه» على قوله «أبناء الله» كعطف التفسير وليس به حقيقة. وغرضهم من دعوى هذا الاختصاص والمحبوبية إثبات لازمه وهو أنه لا سبيل الى تعذيبهم وعقوبتهم فلن يصيروا إلا الى النعمة والكرامة لأن تعذيبه تعالى إياهم يناقض ما خصهم به من المزية، وحباهم به من الكرامة.

والدليل عليه ما ورد في الرد عليهم من قوله تعالى: «يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء»، اذ لولا أنهم كانوا يريدون بقولهم: «نحن أبناء الله وأحباؤه» أنه لا سبيل الى عذابهم وإن لم يستجيبوا الدعوة الحقة لم يكن وجه لذكر هذه الجملة: «يغفر». رداً عليهم ولا لقوله له: «بل أنتم بشر ممن خلق» موقع حسن مناسب لمعنى قولهم: «نحن أبناء الله وأحباؤه» أنّا خاصة الله ومحبوبوه لا سبيل له تعالى الى تعذيبنا وإن فعلنا ما فعلنا، وتركنا ما تركنا لأن انتفاء السبيل وقوع الا من التام من كل مكروه ومحذور هو لازم معنى الاختصاص والحب.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أمر نبيه بالاحتجاج عليهم ورد دعواهم بالحجة، وتلك حجتان: إحداهما: النقض عليهم بالتعذيب الواقع عليهم، وثانيتها: معارضتهم بحجة تنتج نقيض دعواهم.

ومحصّل الحجة الاولى التي يشتمل عليها قوله: «فلم يعذبكم بذنوبكم» أنه لو صحت دعواكم أنكم أبناء الله وأحباؤه مأمونون من التعذيب الالهي لا سبيل إليه فيكم لكنتم مأمونين من كل عذاب اخروي أو دنيوي فما هذا العذاب الواقع عليكم المستمر فيكم بسبب ذنوبكم؟ فأما اليهود فلم تزل تذنب ذنوباً كقتلهم أنبياءهم والصالحين من شعبهم وتفجر بنقض المواثيق الالهية المأخوذة منهم، وتحريف الكلم عن مواضعه وكتمان آيات الله والكفر بها وكل طغيان واعتداء، وتذوق وبال أمرها نكالاً عليها من مسخ بعضهم وضرب الذلة والمسكنة على آخرين، وتسلط الظالمين عليهم يقتلون أنفسهم ويهتكون أعراضهم

ويخرّبون بلادهم. وما لهم من العيش إلا عيشة الحرض الذي لا هو حي فيرجى ولا ميت فينسى[١].

وفي الآية أعني قوله: «قل فلم يعذبكم بذنوبكم» وجه آخر وهو أن يكون المراد بالعذاب الاخروي، والمضارع (يعذبكم» بمعنى الاستقبال دون الاستمرار كما في الوجه السابق فإن أهل الكتاب معترفون بالعذاب بحذاء ذنوبهم في الجملة: أما اليهود فقد نقل القرآن عنهم قولهم: ﴿لن تمسنا إلا أياماً معدودة﴾ (البقرة / ٨٠) وأما النصارى فإنهم وإن قالوا بالفداء لمغفرة الذنوب لكنه إثبات في نفسه للذنوب والعذاب الذي أصاب المسيح بالصلب والأناجيل مع ذلك تثبت ذنوباً كالزنا ونحوه. والكنيسة كانت تثبته عملاً بما كانت تصدره من صكوك المغفرة. هذا. لكن الوجه هو الاول.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَلِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ حجة ثانية مسوقة على نحو المعارضة محصّلها: أن النظر في حقيقتكم يؤدي الى بطلان دعواكم أنكم أبناء الله وأحباؤه. فإنكم بشر من جملة من خلقه الله من بشر أو غيره لا تمتازون عن سائر من خلقه الله منهم، ولا يزيد أحد من الخليقة من السماوات والارض وما بينهما على أنه مخلوق لله الذي هو المليك الحاكم فيه وفي غيره بما شاء وكيفما شاء ويصير الى ربه المليك الحاكم فيه وفي غيره. واذا كان كذلك كان لله سبحانه أن يغفر لمن شاء منهم، ويعذب من شاء منهم من غير أن تمانعه مزية أو كرامة أو غير ذلك من ان يريد في شيء ما يريده من مغفرة أو عذاب أو يقطع سبيله قاطع أو يضرب دونه حجاب يحجبه عن نفوذ المشيئة ومضي الحكم.

فقوله: «بل أنتم بشر ممن خلق» بمنزلة إحدى مقدمات الحجة. وقوله: «ولله ملك

---

١. المائدة ١٥ ـ ١٩: كلام في الابتلاءات والعذاب النازل على أهل الكتاب.

السماوات والارض وما بينهما » مقدمة أُخرى وقوله : « وإليه المصير » مقدمة ثالثة ، وقوله : « يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » بمنزلة نتيجة البيان التي تناقض دعواهم : أنه لا سبيل الى تعذيبهم .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ قال الراغب : الفتور سكون بعد حدّة ، ولين بعد شدّة ، وضعف بعد قوة قال تعالى : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل » أي سكون خال عن مجيء رسول الله .

والآية خطاب ثان لأهل الكتاب متمم للخطاب السابق فإن الآية الاولى بينت لهم أن الله ارسل اليهم رسولاً ايده بكتاب مبين يهدي بإذن الله الى كل خير وسعادة ، وهذه الآية تبين ان ذلك البيان الإلهي إنما هو لإتمام الحجة عليهم ان يقولوا : ما جاءنا من بشير ولا نذير .

وبهذا البيان يتأيد ان يكون متعلق الفعل (يبين لكم) في هذه الآية هو الذي في الآية السابقة ، والتقدير : يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب اي ان هذا الدين الذي تدعون اليه هو بعينه دينكم الذي كنتم تدينون به مصدقاً لما معكم والذي يرى فيه من موارد الاختلاف فإنما هو بيان لما أخفيتموه من معارف الدين التي بينته الكتب الالهية ، ولازم هذا الوجه ان يكون قوله : يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم من قبيل إعادة عين الخطاب السابق لضم بعض الكلام المفصول عن الخطاب السابق المتعلق به وهو قوله : « ان تقولوا ما جاءنا » الخ ؛ اليه وانما جوّز ذلك وقوع الفصل الطويل بين المتعلق والمتعلق به وهو شائع في اللسان .

ويمكن ان يكون خطاباً مستأنفاً والفعل (يبين لكم) انما حذف متعلقه .

للدلالة على العموم أي يبين لكم جميع ما يحتاج الى البيان . أو لتفخيم أمره أي يبين لكم

أمراً عظيماً تحتاجون الى بيانه، وقوله: «على فترة من الرسل» لا يخلو عن إشعار أو دلالة على هذه الحاجة فإن المعنى: يبين لكم ما مست حاجتكم الى بيانه والزمان خال من الرسل حتى يبينوا لكم ذلك.

وقوله: «أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير»، متعلق بقوله: «قد جاءكم» بتقدير: حذر أن تقولوا، أو لئلا تقولوا.

وقوله: «والله على كل شيء قدير» كأنه لدفع الدخل فإن اليهود كانت لا ترى جواز تشريع شريعة بعد شريعة التوراة لذهابهم الى امتناع النسخ والبداء فرد الله سبحانه مزعمتهم بأنها تنافي عموم القدرة، وقد تقدم الكلام في النسخ في تفسير قوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية﴾ الآية (البقرة / ١٠٦)؛ في الجزء الأول من الكتاب[١][٢][٣].

٢٠ • وَإِذْ قالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ.

٢١ • يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّٰهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلىٰ أَدْبارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ.

٢٢ • قالُوا يا مُوسىٰ إِنَّ فِيها قَوْماً جَبّارِينَ وَإِنّا لَنْ نَدْخُلَها حَتّىٰ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنّا داخِلُونَ.

---

١. المائدة ١٥ـ١٩: كلامه في طريق التفكر الذي يهدي اليه القرآن وهو بحث مختلف.

٢. المائدة ١٥ـ١٩: بحث في تاريخ التفكر الاسلامي والطريق الذي سلكته الامة الاسلامية.

٣. المائدة ١٥ـ١٩: بحث روائي في: كتمان اليهود حكم الرجم في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

٢٣ • قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا
عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ
فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.
٢٤ • قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ
وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ.

٢٥ • قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ
الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ.
٢٦ • قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا
تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ الى آخر الآية: الآيات النازلة في قصص موسى تدل على أن هذه القصة ـ دعوة موسى إياهم الى دخول الأرض المقدسة ـ إنما كانت بعد خروجهم من مصر، كما أن قوله في هذه الآية «وجعلكم ملوكاً» يدل على ذلك أيضاً.

ويدل قوله: «وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين» على سبق عدة من الآيات النازلة عليهم كالمن والسلوى وانفجار العيون من الحجارة وإظلال الغمام.

ويدل قوله: «القوم الفاسقين» المتكرر مرتين على تحقق المخالفة ومعصية الرسول منهم قبل القصة مرة بعد مرة حتى عادوا بذلك متلبسين بصفة الفسق.

فهذه قرائن تدل على وقوع القصة أعني قصة التيه في الشطر الأخير من زمان مكث موسى عليه السلام فيهم بعد أن بعثه الله تعالى إليهم وأن غالب القصص المقتصة في القرآن عنهم إنما وقعت قبل ذلك.

فقول موسى لهم: «اذكروا نعمة الله عليكم» أُريد به مجموع النعم التي أنعم الله بها عليهم وحباهم بها، وإنما بدء بذلك مقدمة لما سيندبهم إليه من دخول الأرض المقدسة فذكرهم نعم ربهم لينشطوا بذلك لاستزادة النعمة واستتمامها فإن الله قد كان أنعم عليهم ببعثه موسى وهذه يتهم الى دينه، ونجاتهم من آل فرعون، وإنزال التوراة، وتشريع الشريعة فلم يبق لهم من تمام النعمة إلا أن يمتلكوا أرضاً مقدسة يستقلون فيها بالقطون والسؤدد.

وقد قسم النعمة التي ذكرهم بها ثلاثة أقسام حين التفصيل فقال: «اذ جعل فيكم أنبياء» وهم الأنبياء الذين في عمود نسبهم كإبراهيم وإسحاق ويعقوب ومن بعدهم من الأنبياء، أو خصوص الأنبياء من بني إسرائيل كيوسف او الاسباط وموسى وهارون، والنبوة نعمة أُخرى.

ثم قال: «وجعلكم ملوكاً» أي مستقلين بأنفسكم خارجين من ذل استرقاق الفراعنة وتحكم الجبابرة، وليس الملك إلا من استقل في أمر نفسه وأهله وماله، وقد كان بنو إسرائيل في زمن موسى يسيرون بسنة اجتماعية هي أحسن السنن وهي سنة التوحيد التي تأمرهم بطاعة الله ورسوله، والعدل التام في مجتمعهم، وعدم الاعتداء على غيرهم من الامم من غير ان يتأمر عليهم بعضهم أو يختلف طبقاتهم اختلافاً يختل به امر المجتمع. وما عليهم إلا موسى وهو نبي غير سائر سيرة ملك أو رئيس عشيرة يستعلي عليهم بغير الحق.

ويمكن أن يكون المراد بالمُلك مجرد ركوز الحكم عند بعض الجماعة فيشمل سنة الشيخوخة. ويكون على هذا موسى عليه السلام ملكاً وبعده يوشع النبي وقد كان يوسف ملكاً من قبل، وينتهي الى الملوك المعروفين طالوت وداود وسليمان وغيرهم. هذا، ويرد على هذا الوجه

أيضاً ما يرد على سابقه.

ثم قال: «وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين» وهي العنايات والألطاف الإلهية التي اقترنت بآيات باهرة قيّمة بتعديل حياتهم لو استقاموا على ما قالوا، وداموا على ما واثقوا، وهي الآيات البينات التي أحاطت بهم من كل جانب أيام كانوا بمصر. وبعد اذ نجاهم الله من فرعون وقومه. فلم يتوافر ويتواتر من الآيات المعجزات والبراهين الساطعات والنعم التي يتنعم بها في الحياة على امة من الامم الماضية المتقدمة على عهد موسى ما توافرت وتواترت على بني اسرائيل.

قوله تعالى: ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ أمرهم بدخول الأرض المقدسة، وكان يستنبط من حالهم التمرد والتأبّي عن القبول. ولذلك أكد أمره بالنهي عن الارتداد وذكر استتباعه الخسران. والدليل على أنه كان يستنبط منهم الرد توصيفه اياهم بالفاسقين بعد ردهم. فإن الردّ وهو فسق واحد لا يصحح اطلاق «الفاسقين» عليهم الدالّ على نوع من الاستمرار والتكرّر.

وقد وصف الأرض بالمقدسة، وقد فسروه بالمطهرة من الشرك لسكون الأنبياء والمؤمنين فيها، ولم يرد في القرآن الكريم ما يفسر هذه الكلمة. والذي يمكن أن يستفاد منه ما يقرب من هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله ﴾ (الإسراء / ١) وقوله: ﴿ وأورثنا القوم الذي كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها ﴾ (الأعراف / ١٣٧) وليست المباركة في الارض الا جعل الخير الكثير فيها، ومن الخير الكثير اقامة الدين واذهاب قذارة الشرك.

وقوله: «كتب الله لكم» ظاهر الآيات أن المراد به قضاء توطنهم فيها، ولا ينافيه قوله في آخرها: «فإنها محرمة عليهم أربعين سنة» بل يؤكده فإن قوله: «كتب الله لكم» كلام مجمل

أُبهم فيه ذكر الوقت وحتى الاشخاص . فإن الخطاب للامة من غير تعرض لحال الافراد والاشخاص . كما قيل : ان السامعين لهذا الخطاب الحاضرين المكلفين به ماتوا وفنوا عن آخرهم في التيه ، ولم يدخل الارض المقدسة الا أبناءهم وأبناء أبنائهم مع يوشع بن نون ، وبالجملة لا يخلو قوله : « فإنها محرمة عليهم أربعين سنة » عن اشعار بأنها مكتوبة لهم بعد ذلك .

وهذه الكتابة هي التي يدل عليها قوله تعالى : ﴿ **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض** ﴾ (القصص / ٦) وقد كان موسى ﷺ يرجو لهم ذلك بشرط الاستعانة بالله والصبر حيث يقول ﴿ **قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين قالوا اوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون** ﴾ (الأعراف / ١٢٩) .

وهذا هو الذي يخبر تعالى عن انجازه بقوله : ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا** ﴾ (الأعراف / ١٣٧) فدلت الآية على أن استيلاءهم على الارض المقدسة وتوطنهم فيها كانت كلمة الهية وكتاباً وقضاءً مقضياً مشترطاً بالصبر على الطاعة وعن المعصية ، وفي مُرّ الحوادث .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ قال الرغب : أصل الجبر إصلاح الشيء بضرب من القهر يقال : جبرته فانجبر واجتبر . قال : وقد يقال الجبر تارة في الإصلاح المجرد نحو قول علي ﷺ : يا جابر كل كسير ويا مسهل كل عسير . ومنه قولهم للخبز : جابر بن حبة . وتارة في القهر المجرد نحو قوله ﷺ : لا جبر ولا تفويض . قال : والإجبار في الاصل حمل

الغير على أن يجبر الآخر لكن تعورف في الإكراه المجرد فقيل: أجبرته على كذا كقولك: أكرهته. قال: والجبّار في صفة الإنسان يقال لمن يجبر نقيصة بادعاء منزلة من التعالي لا يستحقها، وهذا لا يقال إلا على طريق الذم كقوله عز وجل ﴿وخاب كل جبار عنيد﴾ وقوله تعالى: ﴿ولم يجعلني جبّاراً شقيّاً﴾ وقوله عز وجل «إن فيها قوماً جبارين» قال: ولتصوّر القهر بالعلوّ على الاقران قيل: نخلة جبارة وناقة جبارة انتهى موضع الحاجة.

فظهر أن المراد بالجبارين هم أُولوا السطوة والقوة من الذين يجبرون الناس على ما يريدون.

وقوله: «وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها» اشتراط منهم خروج القوم الجبارين في دخول الارض، وحقيقته الرد لأمر موسى وإن وعدوه ثانياً الدخول على الشرط بقولهم «فإن يخرجوا منها فإنا داخلون».

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ الى آخر الآية: ظاهر السياق أن المراد بالمخافة مخافة الله سبحانه وأن هناك رجالاً كانوا يخافون الله أن يعصوا أمره وأمر نبيه، ومنهم هذا الرجلان اللذان قالا ما قالا، وأنهما كانا يختصان من بين اولئك الذين يخافون بأن الله أنعم عليهما، وقد مر في موارد تقدمت من الكتاب أن النعمة اذا اطلقت في عرف القرآن يراد بها الولاية الالهية فهما كانا من أولياء الله تعالى، وهذا في نفسه قرينة على أن المراد بالمخافة مخافة الله سبحانه فإن أولياء الله لا يخشون غيره قال تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (يونس / ٦٢).

ويمكن أن يكون متعلق «أنعم» المحذوف أعني المنعم به هو الخوف، فيكون المراد أن الله أنعم عليهما بمخافته. ويكون حذف مفعول «يخافون» للاكتفاء بذكره في قوله: «أنعم الله عليهما» اذ من المعلوم أن مخافتهما لم يكن من اولئك القوم الجبارين والالم يدعوا بني اسرائيل الى الدخول بقولهما «ادخلوا عليهم الباب».

وقوله: «ادخلوا عليهم الباب» لعل المراد به أول بلد من بلاد أُولئك الجبابرة يلي بني إسرائيل، وقد كان على ما يقال: أريحاء، وهذا استعمال شائع أو المراد باب البلدة.

وقوله: «فإذا دخلتموه فإنكم غالبون» وعدٌ منهما لهم بالفتح والظفر على العدوّ، وإنما أخبرا إخباراً بتّياً اتكالاً منهما بما ذكره موسى عليه السلام أن الله كتب لهم تلك الأرض لايمانهما بصدق أخباره، أو أنهما عرفا ذلك بنور الولاية الالهية. وقد ذكر المعظم من مفسري الفريقين: أن الرجلين هما يوشع بن نون وكالب بن يوفنا وهما من نقباء بني إسرائيل الاثنى عشر.

ثم دعواهم الى التوكل على ربهم بقولهما «وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين» لأن الله سبحانه كافي من توكل عليه، وفيه تطييب لنفوسهم وتشجيع لهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا﴾ الآية: تكرارهم قولهم «إنا لن ندخلها» ثانياً لايئاس موسى عليه السلام من أن يصر على دعوته فيعود الى الدعوة بعد الدعوة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ السياق يدل على أن قوله: «اني لا أملك الا نفسي وأخي» كناية عن نفي القدرة على حمل غير نفسه وأخيه على ما أتاهم به من الدعوة. فإنه انما كان في مقدرته حمل نفسه على امضاء ما دعا اليه وحمل أخيه هارون وقد كان نبياً مرسلاً وخليفة له في حياته لا يتمرد عن أمر الله سبحانه. أو أن المراد أنه ليس له قدرة الا على نفسه ولا لأخيه قدرة الا كذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ الضمير في قوله «فإنها» راجعة الى الارض المقدسة، والمراد بالتحريم التحريم التكويني وهو القضاء، والتيه التحير، واللام في «الارض» للعهد، وقوله «فلا تأس» نهي من الاسى وهو الحزن، وقد أمضى الله تعالى قول موسى عليه السلام حيث

وصفهم في دعائه بالفاسقين.

والمعنى: أن الارض المقدسة أي دخولها وتملكها محرمة عليهم، أي قضينا أن لا يوفقوا لدخولها أربعين سنة يسيرون فيها في الارض متحيرين لا هم مدنيون يستحريحون الى بلد من البلاد، ولا هم بدويون يعيشون عيشة القبائل والبدويين، فلا تحزن على القوم الفاسقين من نزول هذه النقمة عليهم لانهم فاسقون لا ينبغي أن يحزن عليهم اذا أُذيقوا وبال أمرهم[١].

٢٧ ● وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ.

٢٨ ● لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ.

٢٩ ● إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ.

٣٠ ● فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

٣١ ● فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ.

---

١. المائدة ٢٠ ـ ٢٦: بحث روائي في: بني اسرائيل والارض المقدسة. موت موسى عليه السلام في التيه.

٣٢ ● مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ
نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ
أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا
بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ .

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ الآية: التلاوة من التلو وهي القراءة سميت بها لان القارىء للنبأ يأتي ببعض اجزائه في تلو بعض آخر. والنبأ هو الخبر اذا كان ذا جدوى ونفع. والقربان ما يتقرب به الى الله سبحانه أو الى غيره، وهو في الاصل مصدر لا يثنى ولا يجمع. والتقبل هو القبول بزيادة عناية واهتمام بالمقبول والضمير في قوله «عليهم» لأهل الكتاب لما مر من كونهم هم المقصودين في سرد الكلام والمراد بهذا المسمى بآدم هو آدم الذي يذكر القرآن أنه ابو البشر.

وقوله: «اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر» ظاهر السياق أن كل واحد منهما قدّم الى الربّ تعالى شيئاً يتقرب به «وإنما لم يثنّ لفظ القربان لكونه في الأصل مصدراً لا يثنى ولا يجمع.

وقوله: «قال لأقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين» القائل الأول هو القاتل والثاني هو المقتول، وسياق الكلام يدل على أنهما علما تقبل قربان أحدهما وعدم تقبله من الآخر، وأما أنهما من أين علما ذلك؟ أو بأي طريق استدلوا عليه؟ فالآية ساكتة عن ذلك.

فقوله «انما يتقبل الله من المتقين» مسوق لقصر الافراد للدلالة على ان التقبل لا يشمل قربان التقيّ وغير التقيّ جميعاً، أو لقصر القلب كأن القاتل كان يزعم انه سيتقبل قربانه دون

قربان المقتول زعماً منه ان الأمر لا يدور مدار التقوى أو أن الله سبحانه غير عالم بحقيقة الحال، يمكن أن يشتبه عليه الامر كما ربما يشتبه على الانسان.

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ﴾ الخ؛ اللام للقسم، وبسط اليد اليه كناية عن الاخذ بمقدمات القتل واعمال اسبابه، وقد اتى في جواب الشرط بالنفي الوارد على الجملة الاسمية، وبالصفة (بباسط) دون الفعل واكد النفي بالباء ثم الكلام بالقسم، كل ذلك للدلالة على انه بمراحل من البعد من ارادة قتل اخيه، لا يهم به ولا يخطر بباله.

واكد ذلك كله بتعليل ما ادعاه من قوله: «ما انا بباسط يدي» الخ؛ بقوله: «اني اخاف الله رب العالمين» فإن ذكر المتقين لربهم وهو الله رب العالمين الذي يجازي في كل اثم بما يتعقبه من العذاب ينبه في نفوسهم غريزة الخوف من الله تعالى، ولا يخليهم وان يرتكبوا ظلماً يوردهم مورد الهلكة.

ثم ذكر تأويل قوله: «لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي» الخ؛ بمعنى حقيقة هذا الذي أخبر به، ومحصّله أن الامر على هذا التقدير يدور بين أن يقتل هو أخاه فيكون هو الظالم الحامل للإثم الداخل في النار، أو يقتله أخوه فيكون هو كذلك، وليس يختار قتل أخيه الظالم على سعادة نفسه وليس بظالم، بل يختار أن يشقى أخوه الظالم بقتله ويسعد هو وليس بظالم، وهذا هو المراد بقوله: «إني أُريد» الخ؛ كنّى بالإرادة عن الاختيار على تقدير دوران الأمر.

فالآية في كونها تأويلاً لقوله «لئن بسطت إلي يدك» الخ؛ كالذي وقع في قصة موسى وصاحبه حين قتل غلاماً لقياه فاعترض عليه موسى بقوله: ﴿أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً﴾ فنبأه صاحبه بتأويل ما فعل بقوله: ﴿وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً﴾

(الكهف / ٨١).

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾. أي ترجع بإثمي وإثمك كما فسره بعضهم، وقال الراغب في مفرداته: أصل البواء مساواة الاجزاء في المكان خلاف النبوة الذي هو منافاة الاجزاء يقال: مكان بواء اذا لم يكن نابئاً بنازله، وبوّأت له مكاناً: سوّيته فتبوأ ـ الى أن قال ـ وقوله: إني اريد أن تبوء بإثمي وإثمك أي تقيم بهذه الحالة[1].

قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ قال الراغب في مفرداته: الطوع الانقياد ويضادّه الكره. والطاعة مثله لكن أكثر ما يقال في الايتمار لما أُمر والارتسام فيما رسم، وقوله: فطوّعت له نفسه نحو أسمحت له قرينته وانقادت له وسوّلت، وطوّعت أبلغ من أطاعت وطوعت له نفسه بإزاء قولهم: تأبت عن كذا نفسه. انتهى ملخصاً. وليس مراده أن طوعت مضمّن معنى انقادت أو سولت بل يريد ان التطويع يدل على التدريج كالإطاعة على الدفعة، كما هو الغالب في بابي الإفعال والتفعيل فالتطويع في الآية اقتراب تدريجي للنفس من الفعل بوسوسة بعد وسوسة وهمامة بعد همامة تنقاد لها حتى تتم لها الطاعة الكاملة فالمعنى: انقادت له نفسه وأطاعت امره إياها بقتل أخيه طاعة تدريجية، فقوله «قتل أخيه» من وضع المأمور به موضع الأمر كقولهم: أطاع كذا في موضع: أطاع الأمر بكذا.

وربما قيل: إن قوله: طوعت بمعنى زينت فقوله «قتل أخيه» مفعول به، وقيل: بمعنى طاوعت أي طاوعت له نفسه في قتل أخيه، فالقتل منصوب بنزع الخافض، ومعنى الآية ظاهر.

---

١. المائدة ٢٧ ـ ٣٢: كلام في معنى قول ابن آدم لاخيه «اني اريد ان تبوء باثمي واثمك».

وربما استفيد من قوله: «فأصبح من الخاسرين» أنه إنما قتله ليلاً، وفيه كما قيل: أن أصبح ـ وهو مقابل أمسى ـ وإن كان بحسب أصل معناه يفيد ذلك لكن عرف العرب يستعمله بمعنى صار من غير رعاية أصل اشتقاقه، وفي القرآن شيء كثير من هذا القبيل كقوله ﴿ **فأصبحتم بنعمته إخواناً** ﴾ (آل عمران / ١٠٣) وقوله: ﴿ **فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين** ﴾ (المائدة / ٥٢) فلا سبيل إلى إثبات إرادة المعنى الأصلي في المقام.

قوله تعالى: ﴿ **فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ** ﴾ البحث طلب الشيء في التراب ثم يقال: بحثت عن الأمر بحثاً كذا في المجمع. والموارة: الستر، ومنه التواري للتستر، والوراء لما خلف الشيء. والسوأة ما يتكرهه الإنسان. والويل الهلاك. ويا ويلتا كلمة تقال عند الهلكة، والعجز مقابل الاستطاعة.

والآية بسياقها تدل على أن القاتل قد كان بقي زماناً على تحير من أمره، وكان يحذر أن يعلم به غيره، ولا يدري كيف الحيلة الى أن لا يظفروا بجسده حتى بعث الله الغراب، ولو كان بعث الغراب وبحثه وقتله أخاره متقاربين لم يكن وجه لقوله «يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب»[(١)(٢)].

قوله تعالى: ﴿ **مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً** ﴾ في المجمع: الاجل في اللغة الجناية، انتهى. وقال الراغب في المفردات: الاجل الجناية التي يخاف منها آجلاً، فكل أجل جناية وليس كل جناية أجلاً. يقال: فعلت ذلك من أجله، انتهى. ثم استعمل للتعليل، يقال: فعلته من أجل كذا أي إن كذا

---

١. المائدة ٢٧ ـ ٣٢: كلام في ان ابن آدم تعلم من الغراب كيف يواري سوأة اخيه.

٢. المائدة ٢٧ ـ ٣٢: كلام في معنى الاحساس والتفكير.

سبب فعلي ، ولعل استعمال الكلمة في التعليل إبتداء أولاً في مورد الجناية والجريرة كقولنا : أساء فلان ومن أجل ذلك أدبته بالضرب أي إن ضربي ناش من جنايته وجريرته التي هي إساءته أو من جناية هي اسائته . ثم أُرسلت كلمة تعليل فقيل : أزورك من أجل حبي لك ولاجل حبي لك .

وظاهر السياق أن الاشارة بقوله : « من اجل ذلك » الى نبأ آدم المذكور في الآيات السابقة اي إن وقوع تلك الحادثة الفجيعة كان سبباً لكتابتنا على بني إسرائيل كذا وكذا . وربما قيل : إن قوله : « من أجل ذلك » متعلق بقوله في الآية السابقة : « فأصبح من النادمين » أي كان ذلك سبباً لندامته . وهذا القول وإن كان في نفسه غير بعيد كما في قوله تعالى : ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة ويسألونك عن اليتامى﴾ الآية (البقرة / ٢٢٠) ؛ إلا أن لازم ذلك كون قوله : « كتبنا على بني إسرائيل » الخ ؛ مفتتح الكلام والمعهود من السياقات القرآنية أن يؤتى في مثل ذلك بواو الاستيناف كما في آية البقرة المذكورة آنفاً وغيرها .

وأما وجه الإشارة في قوله : « من أجل ذلك » الى قصة ابني آدم فهو أن القصة تدل على أن من طباع هذا النوع الانساني أن يحمله اتباع الهوى والحسد الذي هو الخنق للناس بما ليس في اختيارهم أن يحمله أو هن شيء على منازعة الربوبية وإبطال غرض الخلقة بقتل أحدهم أخاه من نوعه وحتى شقيقه لأبيه وامه .

وأما قوله : « أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً » استثنى سبحانه قتل النفس بالنفس وهو القود والقصاص وهو قوله تعالى : ﴿كتب عليكم القصاص في القتلى﴾ (البقرة / ١٧٨) وقتل النفس بالفساد في الارض . وذلك قوله في الآية التالية « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً » الآية .

وأما المنزلة التي يدل عليها قوله « فكأنما » الخ ؛ فقد تقدم بيانه أن الفرد من الانسان من حيث حقيقته المحمولة له التي تحيا وتموت انما يحمل الانسانية التي هي حقيقة واحدة في جميع

الافراد والبعض والكل، والفرد الواحد والافراد الكثيرون فيه واحد، ولازم هذا المعنى أن يكون قتل النفس الواحدة بمنزلة قتل نوع الانسان وبالعكس احياء النفس الواحدة بمنزلة احياء الناس جميعاً، وهو الذي تفيده الآية الشريفة.

وأما قوله تعالى: «ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً» فالكلام فيه كالكلام في الجملة السابقة، والمراد بالاحياء ما يعد في عرف العقلاء إحياء كإنقاذ الغريق وإطلاق الأسير، وقد عد الله تعالى في كلامه الهداية الى الحق إحياء قال تعالى: **﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾** (الأنعام / ١٢٢) فمن دل نفساً الى الايمان فقد أحياها.

وأما قوله تعالى: «ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات» فهو معطوف على صدر الآية أي ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات يحذرونهم القتل وكل ما يلحق به من وجوه الفساد في الارض.

وأما قوله تعالى: «ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الارض لمسرفون» فهو متمم للكلام، بانضمامه إليه يستنتج الغرض المطلوب من البيان، وهو ظهور أنهم قوم مفسدون مصرون على استكبارهم وعتوهم فلقد بينا لهم منزلة القتل وجاءتهم رسلنا فيها وفي غيرها بالبينات، وبينوا لهم وحذروهم مع ذلك لم ينتهوا عن إصرارهم على العتو والاستكبار فأسرفوا في الارض قديماً ولا يزالون يسرفون.

والإسراف الخرج عن القصد وتجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان يغلب عليه الاستعمال في مورد الإنفاق كقوله تعالى: **﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾** (الفرقان / ٦٧) على ما ذكره الراغب في المفردات[(١)(٢)].

---

١. المائدة ٢٧ ـ ٣٢: بحث روائي في: ابني آدم وقتل احدهما الآخر: مجازات القاتل في الآخرة: قتل الانسان واحياؤه.

٢. المائدة ٢٧ ـ ٣٢، بحث علمي وتطبيق بين القرآن والتوراة حول ابني آدم.

٣٣ ❁ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ.

٣٤ ❁ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

٣٥ ❁ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

٣٦ ❁ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

٣٧ ❁ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ.

٣٨ ❁ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

٣٩ ❁ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

٤٠ ❁ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ

وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً﴾. «فساداً» مصدر وضع موضع الحال. ومحاربة الله وإن كانت بعد استحالة معناها الحقيقي وتعين إرادة المعنى المجازي منها ذات معنى وسيع يصدق على مخالفة كل حكم من الأحكام الشرعية وكل ظلم وإسراف لكن ضم الرسول إليه يهدي الى ان المراد بها بعض ما للرسول فيه دخل. فيكون كالمتعين ان يراد بها ما يرجع الى إبطال اثر ما للرسول عليه ولاية من جانب الله سبحانه كمحاربة الكفار مع النبي ﷺ واخلال قطاع الطريق بالأمن العام الذي بسطه بولايته على الارض. وتعقب الجملة بقوله: «ويسعون في الارض فساداً» يشخص المعنى المراد وهو الافساد في الأرض بالاخلال بالأمن وقطع الطريق دون مطلق المحاربة مع المسلمين. على ان الضرورة قاضية بأن النبي ﷺ لم يعامل المحاربين من الكفار بعد الظهور عليهم والظفر بهم هذه المعاملة من القتل والصلب والمثلة والنفي.

على ان الاستثناء في الآية التالية قرينة على كون المراد بالمحاربة هو الافساد المذكور فانه ظاهر في ان التوبة انما هي من المحاربة دون الشرك ونحوه.

فالمراد بالمحاربة والافساد على ما هو الظاهر هو الاخلال بالامن العام. والامن العام انما يختل بايجاد الخوف العام وحلوله محله. ولا يكون بحسب الطبع والعادة إلا باستعمال السلاح المهدد بالقتل طبعاً ولهذا ورد فيما ورد من السنة تفسير الفساد في الارض بشهر السيف ونحوه. وسيجيء في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ الخ: التقتيل والتصليب والتقطيع تفعيل من القتل والصلب والقطع يفيد شدة في معنى المجرد أو زيادة فيه. ولفظة «أو» إنما تدل على

الترديد المقابل للجمع، واما الترتيب أو التخيير بين أطراف الترديد فإنما يستفاد احدهما من قرينة خارجية حالية أو مقالية فالآية غير خالية عن الاجمال من هذه الجهة. وإنما تبينها السنة وسيجيء ان المروي عن ائمة اهل البيت عليهم السلام ان الحدود الاربعة مترتبة بحسب درجات الافساد كمن شهر سيفاً فقتل النفس وأخذ المال أو قتل فقط أو أخذ المال فقط أو شهر سيفاً فقط على ما سيأتي في البحث الروائي التالي ان شاء الله.

وأما قوله: ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ فالمراد بكونه من خلاف أن يأخذ القطع كلاً من اليد والرجل من جانب مخالف لجانب الاخرى كاليد اليمنى والرجل اليسرى، وهذا هو القرينة على كون المراد بقطع الأيدي والأرجل قطع بعضها دون الجميع أي إحدى اليدين وإحدى الرجلين مع مراعاة مخالفة الجانب.

وأما قوله: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ فالنفي هو الطرد والتغييب وفسر في السنة بطرده من بلد الى بلد.

وفي الآية أبحاث أُخر فقهية تطلب من كتب الفقه.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الخزي هو الفضيحة، والمعنى ظاهر. وقد استدل بالآية على أن جريان الحد على المجرم لا يستلزم ارتفاع عذاب الآخرة، وهو حق في الجملة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ الخ؛ وأما بعد القبض عليهم وقيام البينة فإن الحد غير ساقط، وأما قوله تعالى: «فاعلموا أن الله غفور رحيم» فهو كناية عن رفع الحد عنهم، والآية من موارد تعلق المغفرة بغير الأمر الاخروي.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ الخ؛ قال الراغب في المفردات: الوسيلة التوصل الى الشيء برغبة، وهي أخص من الوسيلة لتضمنها لمعنى الرغبة، قال تعالى: وابتغوا اليه الوسيلة، وحقيقة الوسيلة الى الله تعالى مراعاة سبيله

بالعلم والعبادة، وتحري مكارم الشريعة، وهي كالقربة، واذ كانت نوعاً من التوصل وليس إلا توصلاً واتصالاً معنوياً بما يوصل بين العبد وربه ويربط هذا بذاك، ولا رابط يربط العبد بربه إلا ذلة العبودية، فالوسيلة هي التحقق بحقيقة العبودية وتوجيه وجه المسكنة والفقر الى جنابه تعالى. فهذه هي الوسيلة الرابطة، وأما العلم والعمل فإنما هما من لوازمها وأدواتها كما هو ظاهر إلا أن يطلق العلم والعمل على نفس هذه الحالة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ﴾ الى آخر الآيتين؛ ظاهره ـ كما تقدمت الاشارة اليه ـ أن يكون تعليلاً لمضمون الآية السابقة، والمحصل أنه يجب عليكم أن تتقوا الله وتبتغوا اليه الوسيلة وتجاهدوا في سبيله فإن ذلك أمر يهمكم في صرف عذاب أليم مقيم عن انفسكم، ولا بدل له يحل محله فإن الذين كفروا فلم يتقوا الله ولم يبتغوا اليه الوسيلة ولم يجاهدوا في سبيله لو انهم ملكوا ما في الارض جميعاً ـ وهو اقصى ما يتمناه ابن آدم من الملك الدنيوي عادة ـ ثم زيد عليه مثله ليكون لهم ضعفا ما في الارض ثم ارادوا ان يفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب اليم يريدون ان يخرجوا من النار وهي العذاب وما هم بخارجين منها لانه عذاب خالد مقيم عليهم لا يفارقهم ابداً.

وفي الآية إشارة اولاً الى ان العذاب هو الاصل القريب من الإنسان وانما يصرف عنه الايمان والتقوى كما يشير اليه قوله تعالى: ﴿**وان منكم الا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً**﴾ (مريم / ٧٢) وكذا قوله: ﴿**ان الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ (العصر / ٣).

وثانياً: أن الفطرة الأصلية الإنسانية وهي التي تتألم من النار غير باطلة فيهم ولا منتفية عنهم وإلا لم يتألموا ولم يتعذبوا بها ولم يريدوا الخروج منها.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ الآية؛ الواو للاستيناف والكلام في مقام التفصيل فهو في معنى «وأما السارق والسارقة» الخ: ولذلك دخل الفاء في

الخبر أعني قوله : « فاقطعوا أيديهما » لأنه في معنى جواب أما ، كذا قيل .

وأما استعمال الجمع في قوله « أيديهما » مع أن المراد هو المثنى فقد قيل : إنه استعمال شائع ، والوجه فيه : أن بعض الأعضاء أو أكثرها في الإنسان مزدوجة كالقرنين والعينين والاذنين واليدين والرجلين والقدمين ، واذا أُضيفت هذه الى المثنى صارت أربعاً ولها لفظ الجمع كأعينهما وأيديهما وأرجلهما ونحو ذلك ثم اطرد الجمع في الكلام اذا أُضيف عضو الى المثنى وإن لم يكن العضو من المزدوجات كقولهم : ملأت ظهورهما وبطونهما ضرباً ، قال تعالى : ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ﴾ (التحريم / ٤) واليد ما دون المنكب والمراد بها في الآية اليمين بتفسير السنة ، ويصدق قطع اليد بفصل بعض أجزائها أو جميعها عن البدن بآلة قطاعة .

قوله : « جزاءً بما كسبا نكالاً من الله » الظاهر أنه في موضع الحال من القطع المفهوم من قوله « فاقطعوا » أي حال كون القطع جزاء بما كسبا نكالاً من الله ، والنكال هو العقوبة التي يعاقب بها المجرم لينتهي عن إجرامه ، ويعتبر بها غيره من الناس .

وهذا المعنى أعني كون القطع نكالاً هو المصحح لأن يتفرع عليه قوله : « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه ، الخ » أي لما كان القطع نكالاً يراد به رجوع المنكول به عن معصيته فمن تاب من بعد ظلمه توبة ثم أصلح ولم يحم حول السرقة ـ وهذا أمر يستثبت به معنى التوبة ـ فإن الله يتوب عليه ويرجع اليه بالمغفرة والرحمة لأن الله غفور رحيم ، قال تعالى : ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً ﴾ (النساء / ١٤٧) .

وفي الآية أبحاث أُخر كثيرة فقهية للطالب أن يراجع فيها كتب الفقه .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الآية في موضع التعليل لما ذكر في الآية السابقة من قبول توبة السارق والسارقة اذا تابا وأصلحا من بعد ظلمهما فإن الله سبحانه لما كان له ملك السموات والأرض ، وللملك أن يحكم في مملكته ورعيته بما أحبّ وأراد من عذاب أو رحمة كان له تعالى أن يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء

على حسب الحكمة والمصلحة فيعذب السارق والسارقة إن لم يتوبا، ويغفر لهما إن تابا.

وقوله: «والله على كل شيء قدير» في موضع التعليل لقوله «له ملك السماوات والأرض» فإن الملك (بضم الميم) من شؤون القدرة كما أن الملك (بكسر الميم) من فروع الخلق والإيجاد اعني القيمومة الالهية.

بيان ذلك: ان الله تعالى خالق الأشياء وموجدها فما من شيء إلا وما له من نفسه وآثار نفسه لله سبحانه، هو المعطي لما اعطي والمانع لما منع، فله ان يتصرف في كل شيء، وهذا هو الملك (بكسر الميم) قال تعالى: ﴿قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار﴾ (الرعد / ١٦)، وقال: ﴿الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الارض﴾ (البقرة / ٢٥٥) وهو تعالى مع ذلك قادر على اي تصرف شاء واراد اذ كلما فرض من شيء فهو منه فله مضي الحكم ونفوذ الارادة وهو الملك (بضم الميم) والسلطنة على كل شيء فهو تعالى مالك لانه قيوم على كل شيء، وملك لانه قادر غير عاجز ولا ممنوع من نفوذ مشيئته وإرادته[1].

٤١ ● يا أَيُّها الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هٰذا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ.

---

١. المائدة ٣٣ ـ ٤٠: بحث روائي في جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً: قطع يد السارق.

٤٢ ● سَمّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ
بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً
وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ.
٤٣ ● وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرٰيةُ فِيهٰا حُكْمُ اللّٰهِ ثُمَّ
يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَمٰا أُولٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ.
٤٤ ● إِنّٰا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰيةَ فِيهٰا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ
أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هٰادُوا وَالرَّبّٰانِيُّونَ وَالْأَحْبٰارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ
كِتٰابِ اللّٰهِ وَكٰانُوا عَلَيْهِ شُهَدٰاءَ فَلا تَخْشَوُا النّٰاسَ وَاخْشَوْنِ
وَلا تَشْتَرُوا بِآيٰاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ
فَأُولٰئِكَ هُمُ الْكٰافِرُونَ.
٤٥ ● وَكَتَبْنٰا عَلَيْهِمْ فِيهٰا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ
بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصٰاصٌ
فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفّٰارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ
فَأُولٰئِكَ هُمُ الظّٰالِمُونَ.
٤٦ ● وَقَفَّيْنٰا عَلىٰ آثٰارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ
مِنَ التَّوْرٰيةِ وَآتَيْنٰاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمٰا
بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرٰيةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ.
٤٧ ● وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمٰا
أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ.

٤٨ ● وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلٰكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيما آتيكُمْ فَاسْتَبِقُوا الخَيْراتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ.

٤٩ ● وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النّاسِ لَفاسِقُونَ.

٥٠ ● أَفَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ.

بيان:

﴿يا أَيُّها الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾، تسلية للنبي ﷺ وتطييب لنفسه مما لقي من هؤلاء المذكورين في الآية، وهم الذين يسارعون في الكفر أي يمشون فيه المشية السريعة، ويسيرون فيه السير الحثيث، تظهر من افعالهم واقوالهم موجبات الكفر واحدة بعد أُخرى فهم كافرون مسارعون في كفرهم، والمسارعة في الكفر غير المسارعة الى الكفر.

وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنّا بِأَفْواهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ بيان لهؤلاء الذين

يسارعون في الكفر أي من المنافقين ، وفي وضع هذا الوصف موضع الموصوف إشارة الى علة النهي كما ان الأخذ بالوصف السابق اعني قوله : « الذين يسارعون في الكفر » للاشارة الى علة المنهي عنه ، والمعنى ـ والله أعلم ـ : لا يحزنك هؤلاء بسبب مسارعتهم في الكفر فانهم انما آمنوا بألسنتهم لا بقلوبهم وما أُولئك بالمؤمنين ، وكذلك اليهود الذين جاؤك وقالوا ما قولوا .

وقوله : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ عطف على قوله : « من الذين قالوا آمنا » الخ : على ما يفيده السياق ، وليس من الاستيناف في شيء ، وعلى هذا فقوله « سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك » خبر لمبتدأ محذوف أي هم سماعون ، الخ .

وهذه الجمل المتسقة بيان حال الذين هادوا ، وأما المنافقون المذكورون في صدر الآية فحالهم لا يوافق هذه الأوصاف كما هو ظاهر .

فهؤلاء المذكورون من اليهود هم سمّاعون للكذب أي يكثرون من سماع الكذب مع العلم بأنه كذب ، وإلا لم يكن صفة ذم ، وهم كثير السمع لقوم آخرين لم يأتوك ، يقبلون منهم كل ما ألقوه اليهم ويطيعونهم في كل ما أرادوه منهم ، واختلاف معنى السمع هو الذي أوجب تكرار قوله : « سماعون » فإن الأول يفيد معنى الإصغاء والثانية معنى القبول .

وقوله : « يحرفون الكلم من بعد مواضعه » أي من بعد استقرارها في مستقرها والجملة صفة لقوله « لقوم آخرين » وكذا قوله : « يقولون إن أُوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا » .

ويتحصل من المجموع أن عدة من اليهود ابتلوا بواقعة دينية فيما بينهم ، لها حكم إلهي عندهم لكن علماءهم غيروا الحكم بعد ثبوته ثم بعثوا طائفة منهم الى النبي ﷺ وأمروهم أن يحكّموه في الواقعة فإن حكم بما أنبأهم علماؤهم من الحكم المحرف فليأخذوه وإن حكم بغير ذلك فليحذروا .

وقوله : « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً » الظاهر أنه معترضة يبين بها أنهم في

أمرهم هذا مفتونون بفتنة إلهية ، فلتطب نفس النبي ﷺ بأن الأمر من الله واليه وليس يملك منه تعالى شيء في دلك ، ولا موجب للتحزن فيما لا سبيل الى التخلص منه .

وقوله : « أُولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم » فقلوبهم باقية على قذارتها الأولية لما تكرر منهم من الفسق بعد الفسق فأضلهم الله به ، وما يضل به إلا الفاسقين .

وقوله : « لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم » إيعاد لهم بالخزي في الدنيا وقد فعل بهم ، وبالعذاب العظيم في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ قال الراغب في المفردات : السحت القشر الذي يستأصل ، قال تعالى : « فيسحتكم بعذاب » وقرىء : فيسحتكم (أي بفتح الياء) يقال : سحته وأسحته ، ومنه السحت للمحظور الذي يلزم صاحبه العار كأنه يسحت دينه ومروءته ، قال تعالى : « أكالون للسحت » أي لما يسحت دينهم ، وقال ﷺ كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به ، وسمي الرشوة سحتاً . انتهى .

فكل مال اكتسب من حرام فهو سحت ، والسياق يدل على أن المراد بالسحت في الآية هو الرشا ويتبين من إيراد هذا الوصف في المقام أن علماءهم الذين بعثوا طائفة منهم الى النبي ﷺ كانوا قد أخذوا في الواقعة رشوة لتحريف حكم الله فقد كان الحكم مما يمكن أن يتضرر به بعضه فسد الباب بالرشوة ، فأخذوا الرشوة وغيروا حكم الله تعالى .

ومن هنا يظهر أن قوله تعالى : « سماعون للكذب أكالون للسحت » باعتبار المجموع وصف لمجموع القو ، وأما بحسب التوزيع فقوله « سماعون للكذب » وصف لقوله « الذين هادوا » وهم المبعوثون الى النبي ﷺ ومن في حكمهم من التابعين ، وقوله : « أكالون للسحت » وصف لقوم آخرين ، والمحصل أن اليهود منهم علماء يأكلون الرشى ، وعامة مقلدون سماعون لأكاذيبهم .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ الى آخر الآية :

تخيير للنبي ﷺ بين أن يحكم بينهم اذا حكّموه أو يعرض عنهم ، ومن المعلوم أن اختيار أحد الأمرين لم يكن يصدر منه ﷺ إلا لمصلحة داعية فيؤول الى إرجاع الأمر الى نظر النبي ﷺ ورأيه .

ثم قرر تعالى هذا التخيير بأنه ليس عليه ﷺ ضرر لو ترك الحكم فيهم وأعرض عنهم ، وبين له أنه لو حكم بينهم فليس له أن يحكم إلا بالقسط والعدل .

فيعود المضمون بالأخرة الى أن الله سبحانه لا يرضى أن يجري بينهم إلا حكمه فإما أن يجري فيهم ذلك أو يهمل أمرهم فلا يجري من قبله ﷺ حكم آخر .

قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرٰيةُ فِيهٰا حُكْمُ اللّٰهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَمٰا أُولٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ تعجيب من فعالهم أنهم أُمة ذات كتاب وشريعة وهم منكرون لنبوتك وكتابك وشريعتك ثم يبتلون بواقعة في كتابهم حكم الله فيها ، ثم يتولون بعد ما عندهم التوراة فيها حكم الله والحال أن أُولئك المبتعدين من الكتاب وحكمه ليسوا بالذين يؤمنون بذلك .

وعلى هذا المعنى فقوله « ثم يتولون من بعد ذلك » أي عن حكم الواقعة مع كون التوراة عندهم وفيها حكم الله ، وقوله : « وما أُولئك بالمؤمنين » أي بالذين يؤمنون بالتوراة وحكمها ، فهم تحولوا من الايمان بها وبحكمها الى الكفر .

ويمكن أن يفهم من قوله : « ثم يتولون » ، التولي عما حكم به النبي ﷺ ومن قوله : « وما أُولئك بالمؤمنين » نفي الايمان بالنبي ﷺ على ما كان يظهر من رجوعهم اليه وتحكيمهم إياه ، أو نفي الايمان بالتوراة وبالنبي ﷺ جميعاً ، لكن ما تقدم من المعنى أنسب السياق الآيات .

وفي الآية تصديق ما للتوراة التي عند اليهود اليوم ، وهي التي جمعها لهم عزراء بإذن « كورش » ملك إيران بعد ما فتح بابل ، وأطلق بني اسرائيل من أسر البابليين وأذن لهم في

الرجوع الى فلسطين وتعمير الهيكل، وهي التي كانت بيدهم في زمن النبي ﷺ، وهي التي بيدهم اليوم. فالقرآن يصدق أن فيها حكم الله، وهو أيضاً يذكر أن فيها تحريفاً وتغييراً.

ويستنتج من الجميع: أن التوراة الموجودة الدائرة بينهم اليوم فيها شيء من التوراة الأصلية النازلة على موسى ﷺ وأمور حرفت وغيرت اما بزيادة أو نقصان أو تغيير لفظ أو محل أو غير ذلك، وهذا هو الذي يراه القرآن في أمر التوراة، والبحث الوافي عنها أيضاً يهدي الى ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰيةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ الخ؛ بمنزلة التعليل لما ذكر في الآية السابقة، وهي وما بعدها من الآيات تبين أن الله سبحانه شرع لهذه الامم على اختلاف عهودهم شرائع، وأودعها في كتب انزلها اليهم ليهتدوا بها ويتبصروا بسببها، ويرجعوا اليها فيما اختلفوا فيه، وامر الأنبياء والعلماء منهم ان يحكموا بها، ويتحفظوا عليها ويقوها من التغيير والتحريف، ولا يطلبوا في الحكم ثمناً ليس الا قليلاً، ولا يخافوا فيها الا الله سبحانه ولا يخشوا غيره.

وأكد ذلك عليهم وحذرهم اتباع الهوى، وتفتين أبناء الدنيا، وإنما شرع من الأحكام مختلفاً باختلاف الامم والأزمان ليتم الامتحان الإلهي فإن استعداد الأزمان مختلف بمرور الدهور، ولا يستكمل المختلفان في الاستعداد شدة وضعفاً بمكمل واحد من التربية العلمية والعملية على وتيرة واحدة.

فقوله ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰيةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ﴾ أي شيء من الهداية يهتدي بها، وشيء من النور يتبصر به من المعارف والأحكام على حسب حال بني إسرائيل، ومبلغ استعدادهم، وقد بين الله سبحانه في كتابه عامة أخلاقهم، وخصوصيات أحوال شعبهم ومبلغ فهمهم، فلم ينزل اليهم من الهداية إلا بعضها ومن النور إلا بعضه لسبق عهدهم وقدمة أُمتهم، وقلة استعدادهم، قال تعالى: ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل

شيء﴾ (الأعراف / ١٤٥).

وقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ إنما وصف النبيين بالإسلام وهو التسليم لله، الذي هو الدين عند الله سبحانه للإشارة الى أن الدين واحد، وهو الإسلام لله وعدم الاستنكاف عن عبادته. ليس لمؤمن بالله ـ وهو مسلم له ـ أن يستكبر عن قبول شيء من أحكامه وشرائعه.

وقوله: «والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء» أي ويحكم بها الربانيون وهم العلماء المنقطعون الى الله علماً وعملاً، أو الذين اليهم تربية الناس بعلومهم بناء على اشتقاق اللفظ من الرب أو التربية، والأحبار وهم الخبراء من علمائهم يحكمون بما أمرهم الله به وأراده منهم أن يحفظوه من كتاب الله، وكانوا من جهة حفظهم له وتحملهم إياه شهدأت عليه لا يتطرق اليه تغيير وتحريف لحفظهم له في قلوبهم، فقوله «وكانوا عليه شهداء» بمنزلة النتيجة لقوله «بما استحفظوا» الخ؛ أي أُمروا بحفظه فكانوا حافظين له بشهادتهم عليه.

وأما قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فهو متفرع على قوله: «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها»، أي لما كانت التوراة منزلة من عندنا مشتملة على شريعة يقضي بها النبيون والربانيون والأحبار بينكم فلا تكتموا شيئاً منها ولا تغيروها خوفاً أو طمعاً، أما خوفاً فبأن تخشوا الناس وتنسوا ربكم بل الله فاخشوا حتى لا تخشوا الناس، وأما طمعاً فبأن تشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً هو مال أو جاه دنيوي زائل باطل.

ويمكن أن يكون متفرعاً على قوله: «بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء» بحسب المعنى لأنه في معنى أخذ الميثاق على الحفظ أي أخذنا منهم الميثاق على حفظ الكتاب وأشهدناهم عليه أن لا يغيروه ولا يخشوا في إظهاره غيري، ولا يشتروا بآياتي ثمناً قليلاً، قال

تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أُوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً﴾ (آل عمران / ١٨٧) وقال تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾ (الأعراف / ١٧٠).

وهذا المعنى الثاني لعله أنسب وأوفق لما يتلوه من التأكيد والتشديد بقوله «ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون».

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ - الى قوله - وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ السياق وخاصة بالنظر الى قوله: «والجروح قصاص» يدل على أن المراد به بيان حكم القصاص في أقسام الجنايات من القتل والقطع والجرح. فالمقابلة الواقعة في قوله: «النفس بالنفس» وغيره إنما وقعت بين المقتص له والمقتص به والمراد به أن النفس تعادل النفس في باب القصاص، والعين تقابل العين والأنف الأنف وهكذا والباء للمقابلة كما في قولك: بعت هذا بهذا.

فيؤول معنى الجمل المتسقة الى ان النفس تقتل بالنفس، والعين تفقأ بالعين والانف تجدع بالانف، والاذن تصلم بالاذن، والسن تقطع بالسن والجروح ذوات قصاص، وبالجملة إن كلاً من النفس واعضاء الانسان مقتص بمثله.

ولعل هذا هو مراد من قدر في قوله: «النفس بالنفس» ان النفس مقتصة أو مقتولة بالنفس وهكذا وإلا فالتقدير بمعزل عن الحاجة، والجمل تامة من دونه والظرف لغو.

والآية لا تخلو من إشعار بأن هذا الحكم غير الحكم الذي حكموا فيه النبي ﷺ وتذكره الآيات السابقة فإن السياق قد تجدد بقوله «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور».

والحكم موجود في التوراة الدائرة على ما سيجيء نقله في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ أي فمن عفى من أولياء القصاص كولي المقتول أو نفس المجني عليه والمجروح عن الجاني، ووهبه ما يملكه من القصاص فهو أي العفو كفارة لذنوب المتصدق أو كفارة عن الجاني في جنايته.

والظاهر من السياق ان الكلام في تقدير قولنا: فإن تصدق به من له القصاص فهو كفارة له، وان لم يتصدق فليحكم صاحب الحكم بما انزله الله من القصاص. ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون.

قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَيةِ﴾ التقفية جعل الشيء خلف الشيء وهو مأخوذ من القفا. والآثار جمع أثر وهو ما يحصل من الشيء مما يدل عليه، ويغلب استعماله في الشكل الحاصل من القدم ممن يضرب في الأرض، والضمير في «آثارهم» للأنبياء.

فقوله: «وقفّينا على آثارهم بعيسى بن مريم» استعارة بالكناية أُريد بها الدلالة على أنه سلك به عليه السلام المسلك الذي سلكه من قبله من الأنبياء، وهو طريق الدعوة الى التوحيد والإسلام لله.

وقوله: «مصدقاً لما بين يديه من التوراة» تبيين لما تقدمه من الجملة وإشارة الى أن دعوة عيسى هي دعوة موسى عليه السلام من غير بينونة بينهما أصلاً.

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدَىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَيةِ﴾ الخ: سياق الآيات من جهة تعرضها لحال شريعة موسى وعيسى ومحمد صلى الله

عليه وآله وعليهما ونزولها في حق كتبهم يقضي بانطباق بعضها على بعض[١].

وقوله تعالى: ﴿وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ قد مر توضيحه، والآية تدل على أن في الانجيل النازل على المسيح عناية خاصة بالتقوى في الدين مضافاً الى ما يشتمل عليه التوراة من المعارف الاعتقادية والاحكام العملية، والتوراة الدائرة بينهم اليوم وإن لم يصدقها القرآن كل التصديق، وكذا الأناجيل الاربعة المنسوبة الى متى ومرقس ولوقا ويوحنا وإن كانت غير ما يذكره القرآن من الانجيل النازل على المسيح نفسه لكنها مع ذلك كله تصدق هذا المعنى كما سيجيء إن شاء الله الاشارة إليه.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ الخ؛ وقد أنزل فيه تصديق التوراة في شرائعها إلا ما استثني من الاحكام المنسوخة التي ذكرت في الانجيل النازل على عيسى عليه السلام، فان الانجيل لمّا صدّق التوراة فيما شرّعته، وأحل بعض ما حرم فيها كان العمل بما في التوراة في غير ما أحلها الانجيل من المحرمات عملاً بما أنزل الله في الانجيل، وهو ظاهر.

وأما قوله: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الفاسقون» فهو تشديد في الامر المدلول عليه بقوله «وليحكم»، وقد كرر الله سبحانه هذه الكلمة للتشديد ثلاث مرات: مرتين في أمر اليهود ومرة في أمر النصارى باختلاف يسير فقال «ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون، فاولئك هم الظالمون، فاولئك هم الفاسقون» فسجل عليهم الكفر والظلم والفسق.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ هيمنه الشيء على الشيء ـ على ما يتحصل من معناها ـ كون الشيء ذا

---

١. المائدة ٤١ ـ ٥٠: بحث في الانجيل ونزوله على عيسى عليه السلام.

سلطة على الشيء في حفظه ومراقبته وانواع التصرف فيه. وهذا حال القرآن الذي وصفه الله تعالى بأنه تبيان كل شيء بالنسبة الى ما بين يديه من الكتب السماوية: يحفظ منها الاصول الثابتة غير المتغيرة وينسخ منهاما ينبغي ان ينسخ من الفروع التي يمكن أن يتطرق اليها التغير والتبدل حتى يناسب حال الانسان بحسب سلوكه صراط الترقي والتكامل بمرور الزمان قال تعالى: ﴿ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ (الإسراء / ٩) وقال ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ (البقرة / ١٠٦) وقال ﴿الذين يتبعون النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه أُولئك هم المفلحون﴾ (الأعراف / ١٥٧).

فهذه الجملة أعني قوله: «ومهيمناً عليه» متممة لقول «ومصدقاً لما بين يديه من الكتاب» تتميم إيضاح اذ لولاها لأمكن ان يتوهم من تصديق القرآن للتوراة والانجيل أنه يصدق ما فيها من الشرائع والاحكام تصديق إبقاء من غير تغيير وتبديل لكن توصيفه بالهيمنة يبين ان تصديقه لها تصديق أنها معارف وشرائع حقة من عند الله ولله ان يتصرف منها فيما يشاء بالنسخ والتكميل كما يشير إليه قوله ذيلاً: «ولو شاء الله لجعلكم أُمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم».

فقول «مصدقاً لما بين يديه» معناه تقرير ما فيها من المعارف والأحكام بما يناسب حال هذه الامة فلا ينافيه ما تطرق إليها من النسخ والتكميل والزيادة كما كان المسيح عليه السلام أو انجيله مصدقاً للتوراة مع إحلاله بعض ما فيها من المحرمات كما حكاه الله عنه في قوله: ﴿ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولا حل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾ (آل عمران / ٥٠).

قوله تعالى: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ وَلاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ عَمّٰا جٰاءَكَ مِنَ

الْحَقِّ ﴾ أي اذا كانت الشريعة النازلة إليك المودعة في الكتاب حقاً وهو حق فيما وافق ما بين يديه من الكتب وحق فيما خالفه لكونه مهيمناً عليه فليس لك الا أن تحكم بين أهل الكتاب ـ كما يؤيده ظاهر الآيات السابقة ـ أو بين الناس ـ كما تؤيده الآيات اللاحقة ـ بما أنـزل الله إليك ولا تتبع أهواءهم بالاعراض والعدول عما جاءك من الحق.

ومن هنا يظهر جواز أن يراد بقوله «فاحكم بينهم» الحكم بين أهل الكتاب أو الحكم بين الناس، لكن تبعد المعنى الاول حاجته الى تقدير كقولنا فاحكم بينهم ان حكمت. فـان الله سبحانه لم يوجب عليه ﷺ الحكم بينهم بل خيره بين الحكم والاعراض بقوله «فان جاؤك فاحكم بينهم أو اعرض عنهم» الآية؛ على ان الله سبحانه ذكر المنافقين مع اليهود في اول الآيات فلا موجب لاختصاص اليهود برجوع الضمير إليهم لسبق الذكر وقد ذكر معهم غيرهم، فالأنسب أن يرجع الضمير الى الناس لدلالة المقام.

ويظهر ايضاً ان قوله: «عما جاءك» متعلق بقوله «ولا تتبع» بإشرابه معنى العدول أو الاعراض.

قوله تعالى: **﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾** قال الراغب في المفردات: الشرع نهج الطريق الواضح يقال: شرعت له طريقاً والشرع مصدر ثم جعل اسماً للطريق النهج فقيل له: شِرع وشَرع وشريعة، واستعير ذلك للطريقة الالهية قال «شرعة ومنهاجاً» ـ الى ان قال ـ قال بعضهم: سميت الشريعة شريعة تشبيهاً بشريعة الماء انتهى.

ولعل الشريعة بالمعنى الثاني مأخوذ من المعنى الاول لوضوح طريق الماء عندهم بكثرة الورود والصدور وقال: النهج (بالفتح فالسكون): الطريق الواضح، ونهج الأمر وأنهج وضح، ومنهج الطريق ومنهاجه[1].

---

١. المائدة: ٤١ ـ ٥٠: كلام في معنى الشريعة والفرق بينها وبين الدين والملة في عرف القرآن.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلٰكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيما آتيكُمْ ﴾ بيان لسبب اختلاف الشرائع. وليس المراد بجعلهم أُمة واحدة الجعل التكويني بمعنى النوعية الواحدة فإن الناس أفراد نوع واحد يعيشون على نسق واحد كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ ولولا ان يكون الناس أُمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ﴾ (الزخرف / ٣٣).

فمعنى الآيه ـ والله أعلم ـ: لكل أُمة جعلنا منكم (جعلاً تشريعياً) شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لأخذكم أُمة واحدة وشرع لكم شريعة واحدة، ولكن جعل لكم شرائع مختلفة ليمتحنكم فيما آتاكم من النعم المختلفة، واختلاف النعم كان يستدعي اختلاف الامتحان الذي هو عنوان التكاليف والاحكام المجعولة فلا محالة ألقى الاختلاف بين الشرائع.

وهذه الامم المختلفة هي أُمم نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وعليهم كما يدل عليه ما يمتنّ الله به على هذه الامة بقوله ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ﴾ (الشورى / ١٣).

قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَبِقُوا الخَيْراتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾ الخ: الاستباق أخذ السبق، والمرجع مصدر ميميّ من الرجوع، والكلام متفرع على قوله: «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً» بما له من لازم المعنى أي وجعلنا هذه الشريعة الحقة المهيمنة على سائر الشرائع شريعة لكم، وفيه خيركم وصلاحكم لا محالة فاستبقوا الخيرات وهي الأحكام والتكاليف، ولا تشتغلوا بأمر هذه الاختلافات التي بينكم وبين غيركم فإن مرجعكم جميعاً الى ربكم تعالى فينبؤكم بما كنتم فيه تختلفون، ويحكم بينكم حكماً فصلاً، ويقضي قضاء عدلاً.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ ﴾، هذا الصدر يتحد مع ما في الآية السابقة من قوله: «فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم»، ثم يختلفان فيما

فرع على كل منها، ويعلم منه أن التكرار لحيازة هذه الفائدة فالآية الاولى تأمر بالحكم بما أنزل الله وتحذر اتباع أهواء الناس لان هذا الذي أنزله الله هي الشريعة المجعوله للنبي ﷺ ولامته فالواجب عليهم أن يستبقوا هذه الخيرات، والآية الثانية تأمر بالحكم بما أنزل الله، وتحذر اتباع أهواء الناس وتبين أن توليهم ان تولوا عما أنزل الله كاشف عن اضلال الهي لهم لفسقهم وقد قال الله تعالى ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به الا الفاسقين ﴾ (البقرة / ٢٦).

وقوله: «واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك» امره تعالى نبيه بالحذر عن فتنتهم مع كونه ﷺ معصوماً بعصمة الله انما هو من جهة ان قوة العصمة لا توجب بطلان الاختيار وسقوط التكاليف المبنية عليه فإنها من سنخ الملكات العلمية، والعلوم والادراكات لا تخرج القوى العاملة والمحركة في الاعضاء والاعضاء الحاملة لها عن استواء نسبة الفعل والترك اليها.

وقوله: «فإن تولوا فاعلم انما يريد الله ان يصيبهم ببعض ذنوبهم» بيان لامر اضلالهم اثر فسقهم كما تقدم، وفيه رجوع الى بدء الكلام في هذه الآيات «يا ايها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر» الخ؛ ففيه تسلية للنبي ﷺ، وتطييب لنفسه، وتعليم له ما لا يدب معه الحزن في قلبه، وهكذا فعل الله سبحانه في جل الموارد التي نهى فيها النبي ﷺ عن ان يحزن عن توليهم عن الدعوة الحقة واستنكافهم عن قبول ما يرشدهم الى سبيل الرشاد والفلاح فبين له ﷺ انهم ليسوا بمعجزين لله في ملكه ولا غالبين عليه بل الله غالب على امره، وهو الذي يضلهم بسبب فسقهم، ويزيغ قلوبهم عن زيغ منهم، ويجعل الرجس عليهم بسلب توفيقه عنهم واستدراجه إياهم، قال تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون﴾ (الأنفال / ٥٩) واذا كان الأمر الى الله سبحانه، وهو الذي يذبّ عن ساحة دينه الطاهرة كل رجس نجس فلم يفته شيء مما أراده ولا وجه للحزن اذا لم يكن فائت.

وقوله: «وإن كثيراً من الناس لفاسقون» في محل التعليل لقوله «إنما يريد الله أن يصيبهم» الخ؛ على ما تقدم بيانه.

قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ تفريع بنحو الاستفهام على ما بين في الآية السابقة من توليهم مع كون ما يتولون عنه هو حكم الله النازل اليهم والحق الذي علموا أنه حق، ويمكن أن يكون في مقام النتيجة اللازمة لما بيّن في جميع الآيات السابقة.

والمعنى: واذا كانت هذه الأحكام والشرائع حقة نازلة من عند الله ولم يكن وراءها حكم حق لا يكون دونها الا حكم الجاهلية الناشئة عن اتباع الهوى فهؤلاء الذين يتولون عن الحكم الحق ماذا يريدون بتوليهم وليس هناك الا حكم الجاهلية؟ أفحكم الجاهلية يبغون والحال أنه ليس أحد أحسن حكماً من الله لهؤلاء المدّعين للإيمان؟

فقوله «أفحكم الجاهلية يبغون» استفهام توبيخي، وقوله: «ومن أحسن من الله حكماً» استفهام انكاري أي لا أحد أحسن حكماً من الله، وانما يتبع الحكم لحسنه، وقوله: «لقوم يوقنون» في أخذ وصف اليقين تعريض لهم بأنهم ان صدقوا في دعواهم الايمان بالله فهم يوقنون بآياته، والذين يوقنون بآيات الله ينكرون أن يكون أحد أحسن حكماً من الله سبحانه[1].

٥١ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.

---

١. المائدة ٤١ ـ ٥٠: بحث روائي في حكم الرجم في التوراة: مباحثة ابن صوريا اليهودي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واسلامه؛ القصاص والدية في التوراة والقرآن؛ الربانيون: حكم الله وحكم الجاهلية.

٥٢ ● فَتَرى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشىٰ أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلىٰ ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ.

٥٣ ● وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهٰؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ.

٥٤ ● يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذٰلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارىٰ أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾ قال في المجمع: الاتخاذ هو الاعتماد على الشيء لإعداده لأمر، وهو افتعال من الأخذ، وأصله الائتخاذ فأبدلت الهمزة تاء، وأدغمتها في التاء التي بعدها ومثله الاتعاد من الوعد، والأخذ يكون على وجوه تقول: أخذ الكتاب اذا تناوله، وأخذ القربان اذا تقبله، وأخذه الله من مأمنه اذا أهلكه، وأصله جواز الشيء من جهة الى جهة من الجهات. انتهى.

وقال الراغب في المفردات: الولاء والتوالي أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد (انتهى موضع الحاجة) وسيأتي استيفاء البحث في

معنى الولاية.

وبالجملة الولاية نوع اقتراب من الشيء يوجب ارتفاع الموانع والحجب بينهما من حيث ما اقترب منه لاجله فإن كان من جهة التقوى والانتصار فالولي هو الناصر الذي لا يمنعه عن نصرة من اقترب منه شيء، وإن كان من جهة الالتيام في المعاشرة والمحبة التي هي الانجذاب الروحي فالولي هو المحبوب الذي لا يملك الانسان نفسه دون أن ينفعل عن إرادته، ويعطيه فيما يهواه، وان كان من جهة النسب فالولي هو الذي يرثه مثلاً من غير مانع يمنعه، وإن كان من جهة الطاعة فالولي هو الذي يحكم في أمره بما يشاء.

ولم يقيد الله سبحانه في قوله: «لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء» الولاية بشيء من الخصوصيات والقيود فهي مطلقة غير أن قوله تعالى في الآية التالية: «فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة»، يدل على أن المراد بالولاية نوع من القرب والاتصال يناسب هذا الذي اعتذروا به بقولهم «نخشى أن تصيبنا دائرة» وهي الدولة تدور عليهم، وكما أن الدائرة من الجائز أن تصيبهم من غير اليهود والنصارى فيتأيدوا بنصره الطائفتين بأخذهما أولياء النصرة كذلك يجوز أن تصيبهم من نفس اليهود والنصارى فينجوا منها باتخاذهما أولياء المحبة والخلطة.

والولاية بمعنى قرب المحبة والخلطة تجمع الفائدتين جميعاً أعني فائدة النصرة والامتزاج الروحي فهو المراد بالآية، وسيجيء ما في القيود والصفات المأخوذة في الآية الاخيرة «يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه». من الدلالة على أن المراد بالولاية هاهنا ولاية المحبة لا غير[1].

وربما أمكن أن يستفاد من قوله: «بعضهم أولياء بعض» معنى آخر، وهو أن لا تتخذوهم

---

١. المائدة ٥١-٥٤: بحث في معنى الولاية في الآية «يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء ...».

أولياء لأنكم إنما تتخذونهم أولياء لتنتصروا ببعضهم الذي هم أولياؤكم على البعض الآخر، ولا ينفعكم ذلك فإن بعضهم أولياء بعض فليسوا ينصرونكم على أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ التولي اتخاذ الولي، و«من» تبعيضية والمعنى أن من يتخذهم منكم أولياء فإنه بعضهم، وهذا إلحاق تنزيلي يصير به بعض المؤمنين بعضاً من اليهود والنصارى، ويؤل الأمر الى أن الايمان حقيقة ذات مراتب مختلفة من حيث الشوب والخلوص، والكدورة والصفاء كما يستفاد ذلك من الآيات القرآنية قال تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ (يوسف / ١٠٦) وهذا الشوب والكدر هو الذي يعبر تعالى عنه بمرض القلوب فيما سياتي من قوله: «فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم».

فهؤلاء الموالون لاولئك أقوام عدهم الله تعالى من اليهود والنصارى وإن كانوا من المؤمنين ظاهراً، وأقل ما في ذلك أنهم غير سالكين سبيل الهداية الذي هو الإيمان بل سالكوا سبيل اتخذه اولئك سبيلاً يسوقه الى حيث يسوقهم وينتهي به الى حيث ينتهي بهم.

ولذلك علل الله سبحانه لحوقه بهم بقوله «إن الله لا يهدي القوم الظالمين» فالكلام في معنى: أن هذا الذي يتولاهم منكم هو منهم غير سالك سبيلكم لان سبيل الايمان هو سبيل الهداية الإلهية، وهذا المتولي لهم ظالم مثلهم، والله لا يهدي القوم الظالمين.

والآية ـ كما ترى ـ تشتمل على أصل التنزيل أعني تنزيل من تولاهم من المؤمنين منزلتهم من غير تعرض لشيء من آثاره الفرعية، واللفظ وإن لم يتقيد بقيد لكنه لما كان من قبيل بيان الملاك ـ نظير قوله: ﴿وإن تصوموا خير لكم﴾ (البقرة / ١٨٤) وقوله: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر﴾ (العنكبوت / ٤٥) الى غير ذلك ـ لم يكن إلا مهملاً يحتاج التمسك به في اثبات حكم فرعي الى بيان السنة، والمرجع في البحث عن ذلك فن الفقه.

قوله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ تفريع على قوله في الآية السابقة: «ان الله لا يهدي القوم الظالمين» فمن عدم شمول الهداية الالهية لحالهم ـ وهو الضلال ـ مسارعتهم فيهم واعتذارهم في ذلك بما لا يسمع من القول. وقد قال تعالى: «يسارعون فيهم» ولم يقل: يسارعون اليهم، فهم منهم وحالون في الضلال محلهم. فهؤلاء يسارعون فيهم لا لخشية اصابة دائرة عليهم فليسوا يخافون ذلك، وانما هي معذرة يختلقونها لانفسهم لدفع ما يتوجه اليهم من ناحية النبي ﷺ والمؤمنين من اللوم والتوبيخ بل انما يحملهم على تلك المسارعة توليهم أُولئك (اليهود والنصارى).

ولما كان من شأن كل ظلم وباطل أن يزهق يوماً ويظهر للملأ فضيحته، وينقطع رجاء من توسل الى أغراض باطلة بوسائل صورتها صورة الحق كما قال تعالى: «ان الله لا يهدي القوم الظالمين» كان من المرجو قطعاً أن يأتي الله بفتح أو أمر من عنده فيندموا على فعالهم، ويظهر للمؤمنين كذبهم فيما كانوا يظهرونه.

قوله تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ لفظة «عسى» وإن كان في كلامه تعالى للترجّي كسائر الكلام ـ على ما قدمنا أنه للترجي العائد الى السامع أو الى المقام ـ لكن القرينة قائمة على أنه مما سيقع قطعاً فإن الكلام مسوق لتقرير ما ذكره بقوله «إن الله لا يهدي القوم الظالمين» وتثبيت صدقه، فما يشتمل عليه واقع لا محالة.

والذي ذكره الله تعالى من الفتح ـ وقد ردد بينه وبين أمر من عنده غير بيّن المصداق بل الترديد بينه وبين أمر مجهول لنا ـ لعله يؤيد كون اللام في «الفتح» للجنس لا للعهد حتى يكون المراد به فتح مكة المعهود بوعد وقوعه في مثل قوله تعالى: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾ (القصص / ٨٥) وقوله: ﴿لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله﴾ (الفتح / ٢٧) وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الى آخر الآية: وقرء «يقول» بالنصب عطفاً على قوله: «يصبحوا» وهي أرجح لكونها أوفق بالسياق فإن ندامتهم على ما أسروه في أنفسهم وقول المؤمنين «أهؤلاء» الخ: جميعاً تقريع لهم بعاقبة توليهم ومسارعتهم في اليهود والنصارى. وقوله: «هؤلاء» إشارة الى اليهود والنصارى. وقوله: «معكم» خطاب للذين في قلوبهم مرض ويمكن العكس. وكذا الضمير في قوله: «حبطت أعمالهم فأصبحوا». يمكن رجوعه الى اليهود والنصارى. والى الذين في قلوبهم مرض.

لكن الظاهر من السياق أن الخطاب للذين في قلوبهم مرض. والإشارة الى اليهود والنصارى. وقوله: «حبطت أعمالهم». كالجواب لسؤال مقدر. والمعنى: وعسى أن يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده فيقول الذين آمنوا لهؤلاء الضعفاء الايمان عند حلول السخط الالهي بهم: أهؤلاء اليهود والنصارى هم الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أي أيمانهم التي بالغوا وجهدوا فيها جهداً أنهم لمعكم فلماذا لا ينفعونكم؟! ثم كأنه سئل فقيل: فالىمَ انتهى أمر هؤلاء الموالين؟ فقيل في جوابه: حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين[1].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ ارتد عن دينه رجع عنه. وهو في اصطلاح أهل الدين الرجوع من الايمان الى الكفر سواء كان إيمانه مسبوقاً بكفر آخر كالكافر يؤمن ثم يرتد أو لم يكن. وهما المسميان بالارتداد الملي والفطري (حقيقة شرعية أو متشرعية).

ربما يسبق الى الذهن أن المراد بالارتداد في الآية هو ما اصطلح عليه أهل الدين، ويكون الآية على هذا غير متصلة بما قبلها، وإنما هي آية مستقلة تحكي عن نحو استغناء من الله سبحانه عن إيمان طائفة من المؤمنين بإيمان آخرين.

---

١. المائدة ٥١ ـ ٥٤: كلام في معنى مرض القلب.

لكن التدبر في الآية وما تقدم عليها من الآيات يدفع هذا الاحتمال فإن الآية على هذا تذكّر المؤمنين بقدرة الله سبحانه على أن يعبد في أرضه، وأنه سوف يأتي بأقوام لا يرتدون عن دينه بل يلازمونه كقوله تعالى: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾ (الأنعام / ٨٩) أو كقوله تعالى: ﴿ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ (آل عمران / ٩٧) وقوله تعالى: ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾ (إبراهيم / ٨)[١].

قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الاذلة والاعزة جمعا الذليل والعزيز، وهما كنايتان عن خفضهم الجناح للمؤمنين تعظيماً لله الذي هو وليهم وهم أولياؤه، وعن ترفّعهم من الاعتناء بما عند الكافرين من العزة الكاذبة التي لا يعبأ بأمرها الدين كما أدّب بذلك نبيه في قوله: ﴿لا تمدّن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين﴾ (الحجر / ٨٨). ولعل تعدية «أذلّة» بعلى لتضمينه معنى الحنان أو الحنو كما قيل.

قوله تعالى: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ أما قوله: «يجاهدون في سبيل الله» فقد اختص بالذكر من بين مناقبهم الجمة لكون الحاجة تمس إليه في المقام لبيان أن الله ينتصر لدينه بهم، وأما قوله: «ولا يخافون لومة لائم» فالظاهر أنه حال متعلق بالجمل المتقدمة لا بالجملة الأخيرة فقط ـ وإن كانت هي المتيقنة في أمثال هذه التركيبات ـ وذلك لان نصرة الدين بالجهاد في سبيل الله كما يزاحمها لومة اللائمين الذين يحذرونهم تضييع الاموال وإتلاف النفوس وتحمل الشدائد والمكاره كذلك التذلل للمؤمنين والتعزز على الكافرين وعندهم من زخارف الدنيا ومبتغيات الشهوة، وأمتعة الحياة ما ليس

---

١. المائدة ٥١ ـ ٥٤: بحث في الارتداد؛ اوصاف المؤمنين الحقيقين الذين ينصر الله دينه بهم.

عند المؤمنين مما يمانعه لومة اللائم، وفي الآية ملحمة غيبية سنبحث عنها في كلام مختلط من القرآن والحديث ان شاء الله تعالى[١][٢].

٥٥ ● إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ.

٥٦ ● وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ.

بيان:

الآيتان ـ كما ترى ـ موضوعتان بين آيات تنهى عن ولاية أهل الكتاب والكفار، ولذلك رام جماعة من مفسّري القوم إشراكهما مع ما قبلهما وما بعدهما من حيث السياق، وجعل الجميع ذات سياق واحد يقصد به بيان وظيفة المؤمنين في أمر ولاية الأشخاص ولاية النصرة، والنهي عن ولاية اليهود والنصارى والكفّار، وقصر الولاية في الله سبحانه ورسوله والمؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، وهؤلاء هم المؤمنون حقاً فيخرج بذلك المنافقون والذين في قلوبهم مرض، ويبقى على وجوب الولاية المؤمنون حقاً، وتكون الآية دالّة على مثل ما يدل عليه مجموع قوله تعالى: ﴿والله وليّ المؤمنين﴾ (آل عمران / ٦٨)، وقوله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ (الأحزاب / ٦)،

---

١. المائدة ٥١ ـ ٥٤: بحث روائي حول الآية «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء ...» والآية «انما وليكم الله ...»: ولاية علي عليه السلام.

٢. المائدة ٥١ ـ ٥٤: كلام وبحث مختلط من القرآن والحديث حول الخطابات القرآنية: نتايج التمرد على اوامر القرآن: سبب تغيير النعم الالهية: اشراط الساعة: ملاحم آخر الزمان.

وقوله تعالى في المؤمنين: ﴿اولئك بعضهم أولياء بعض﴾ (الأنفال / ٧٢)، وقوله تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ الآية (التوبة / ٧١)؛ فحصّل الآية جعل ولاية النصرة لله ولرسوله والمؤمنين على المؤمنين.

نعم يبق هناك إشكال الجملة الحالية التي يتعقّبها قوله: «ويؤتون الزكاة» وهي قوله: «وهم راكعون» ويرتفع الإشكال بحمل الركوع على معناه المجازي وهو مطلق الخضوع لله سبحانه أو انحطاط الحال لفقر ونحوه، ويعود معنى الآية الى أنه ليس أولياؤكم اليهود والنصارى والمنافقين بل أولياؤكم لله ورسوله والمؤمنون الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، وهم في جميع هذه الأحوال خاضعون لساحة الربوبية بالسمع والطاعة، أو أنهم يؤتون الزكاة وهم فقراء معسرون هذا.

لكن التدبّر واستيفاء النظر في الآيتين وما يحفّهما من آيات ثم في أمر السورة يعطي خلاف ما ذكروه، وأول ما يفسد من كلامهم ما ذكروه من أمر وحدة سياق الآيات، وان غرض الآيات التعرّض لأمر ولاية النصرة، وتمييز الحق منها من غير الحق فإن السورة وإن كان من المسلّم نزولها في آخر عهد رسول الله ﷺ في حجة الوداع لكن من المسلّم أيضاً أن جميع آياتها لم تنزل دفعة واحدة ففي خلالها آيات لا شبهة في نزولها قبل ذلك، ومضامينها تشهد بذلك، وما ورد فيها من أسباب النزول يؤيده فليس مجرّد وقوع الآية بعد الآية أو قبل الآية يدل على وحدة السياق، ولا أن بعض المناسبة بين آية وآية يدل على نزولهما معاً دفعة واحدة أو اتحادهما في السياق.

على أن الآيات السابقة أعني قوله: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض» الخ؛ تنهى المؤمنين عن ولاية اليهود والنصارى، وتعيرّ المنافقين والذين في قلوبهم مرض بالمسارعة اليهم ورعاية جانبهم من غير أن يرتبط الكلام بمخاطبة اليهود والنصارى وإسماعهم الحديث بوجه بخلاف الآيات التالية أعني قوله: «يا أيها الذين

آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء. الخ؛ فإنها تنهى عن ولايتهم وتتعرض لحالهم بالأمر بمخاطبتهم ثم يعيّرهم بالنفاق والفسق فالغرض في القبيلين من الآيات السابقة واللاحقة مختلف، ومعه كيف يتحد السياق؟!

على أنك قد عرفت في البحث عن الآيات السابقة أعني قوله: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء» الآيات؛ أن ولاية النصرة لا تلائم سياقها، وأن خصوصيات الآيات والعقود المأخوذة فيها وخاصة قوله: «بعضهم أولياء بعض» وقوله: «ومن يتولهم منكم فإنه منهم» لا تناسبها فإن عقد ولاية النصرة واشتراطها بين قومين لا يوجب صيرورة أحدهما الآخر ولحوقه به، ولا أنه يصح تعليل النهي عن هذا العقد بأن القوم الفلاني بعضهم أولياء بعض بخلاف عقد ولاية المودة التي توجب الامتزاج النفسي والروحي بين الطرفين، وتبيح لأحدهما التصرف الروحي والجسمي في شؤون الآخر الحيوية وتقارب الجماعتين في الأخلاق والأعمال الذي يذهب بالخصائص القومية.

على أنه ليس من الجائز أن يعدّ النبي ﷺ ولياً للمؤمنين بمعنى ولاية النصرة بخلاف العكس فإن هذه النصرة التي يعتني بأمرها الله سبحانه، ويذكرها القرآن الكريم في كثير من آياته هي النصرة في الدين وحينئذ يصح أن يقال: إن الدين لله بمعنى أنه جاعله وشارع شرائعه فيندب النبي ﷺ أو المؤمنون أو هما جميعاً الى نصرته أو يدعوا أنصاراً لله في ما شرّعه من الدين كقوله تعالى: ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله﴾ (الصف / ١٤)، وقوله تعالى: ﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾ (محمد / ٧)، وقوله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ـ الى أن قال ـ لتؤمنن به ولتنصرنه﴾ (آل عمران / ٨١)، الى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

ويصح أن يقال: إن الدين للنبي ﷺ بمعنى أنه الداعي اليه والمبلّغ له مثلا، أو إن الدين لله ولرسوله بمعنى التشريع والهداية فيدعى الناس الى النصرة، أو يمدح المؤمنون بالنصرة كقوله

تعالى: ﴿وعزروه ونصروه﴾ (الأعراف / ١٥٧)، وقوله تعالى: ﴿وينصرون الله ورسوله﴾ (الحشر / ٨)، وقوله تعالى: ﴿والذين آووا ونصروا﴾ (الأنفال / ٧٢)، الى غير ذلك من الآيات.

ويصح أن يقال: إن الدين للنبي ﷺ وللمؤمنين جميعاً، بمعنى أنهم المكلفون بشرائعه العاملون به فيذكر أن الله سبحانه وليهم وناصرهم كقوله تعالى: ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ (الحج / ٤٠)، وقوله تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ (غافر / ٥١)، وقوله تعالى: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ (الروم / ٤٧)، الى غير ذلك من الآيات.

لكن لا يصح أن يفرد الدين بوجه للمؤمنين خاصة، ويجعلوا أصلاً فيه والنبي ﷺ بمعزل عن ذلك، ثم يعدّ ﷺ ناصراً لهم فيما لهم، اذ ما من كرامة دينية إلا هو مشاركهم فيها أحسن مشاركة، ومساهمهم أفضل سهام؛ ولذلك لا نجد القرآن يعد النبي ﷺ ناصراً للمؤمنين ولا في آية واحدة، وحاشا ساحة الكلام الإلهي أن يساهل في رعاية أدبه البارع.

وهذا من أقوى الدليل على أن المراد بما نسب الى النبي ﷺ من الولاية في القرآن هو ولاية التصرف أو الحب والمودة كقوله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ (الأحزاب / ٦)، وقوله تعالى: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ الآية؛ فإن الخطاب للمؤمنين، ولا معنى لعد النبي ﷺ ولياً لهم ولاية النصرة كما عرفت.

فقد ظهر أن الآيتين أعني قوله تعالى: «إنما وليكم الله ورسوله» الى آخر الآيتين لا تشاركان السياق السابق عليهما لو فرض أنه متعرض لحال ولاية النصرة، ولا يغرنك قوله تعالى في آخر الآية الثانية: «فإن حزب الله هم الغالبون»، فإن الغلبة كما تناسب الولاية بمعنى النصرة، كذلك تناسب ولاية التصرف وكذا ولاية المحبة والمودة، والغلبة الدينية التي هي آخر بغية أهل الدين تتحصل باتصال المؤمنين بالله ورسوله بأي وسيلة تمت وحصلت، وقد

قرع الله سبحانه أسماعهم ذلك بصريح وعده حيث قال ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ (المجادلة / ٢١)، وقال ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون﴾ (الصافات / ١٧٣).

على أن الروايات متكاثرة من طرق الشيعة وأهل السنة على أن الآيتين نازلتان في أمير المؤمنين علي عليه السلام لما تصدق بخاتمه وهو في الصلاة، فالآيتان خاصتان غير عامتين، وسيجيء نقل جل ما ورد من الروايات في ذلك في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

ولو صح الإعراض في تفسير آية بالأسباب المأثورة عن مثل هذه الروايات على تكاثرها وتراكمها لم يصح الركون الى شيء من أسباب النزول المأثورة في شيء من آيات القرآن وهو ظاهر، فلا وجل لحمل الآيتين على إرادة ولاية المؤمنين بعضهم لبعض يجعلها عامة.

نعم استشكلوا في الروايات ـ ولم يكن ينبغي أن يستشكل فيها مع ما فيها من الكثرة البالغة ـ أولا: بأنها تنافي سياق الآيات الظاهر في ولاية النصرة كما تقدمت الإشارة اليه؛ وثانياً: أن لازمها إطلاق الجمع وإرادة الواحد فإن المراد بالذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة، الخ؛ على هذا التقدير هو علي ولا يساعده اللغة، وثالثاً: أن لازمها كون المراد بالزكاة هو التصدق بالخاتم، ولا يسمى ذلك زكاة.

قالوا: فالمتعين أن تؤخذ الآية عامة، وتكون مسوقة لمثل قصر القلب أو الإفراد فقد كان المنافقون يسارعون الى ولاية أهل الكتاب ويؤكدونها، فنهى الله عن ذلك وذكر أن أولياءهم إنما هم الله ورسوله والمؤمنون حقاً دون أهل الكتاب والمنافقين.

ولا يبقى إلا مخالفة هذا المعنى لظاهر قوله: «وهم راكعون» ويندفع بحمل الركوع على معناه المجازي، وهو الخضوع لله أو الفقر ورثاثة الحال، هذا ما استشكلوه.

لكن التدبر في الآية وما يناظرها من الآيات يوجب سقوط الوجوه المذكورة جميعاً:

أما وقوع الآية في سياق ولاية النصرة، ولزوم حملها على إرادة ذلك فقد عرفت أن الآيات غير مسوقة لهذا الغرض أصلاً، ولو فرض سرد الآيات السابقة على هذه الآية لبيان أمر ولاية النصرة لم تشاركها الآية في هذا الغرض.

وأما حديث لزوم إطلاق الجمع وإرادة الواحد في قوله: «والذين آمنوا» الخ؛ فقد عرفت في الكلام على آية المباهلة في الجزء الثالث من هذا الكتاب تفصيل الجواب عنه، وأنه فرق بين إطلاق لفظ الجمع وإرادة الواحد واستعماله فيه، وبين إعطاء حكم كلي أو الإخبار بمعرف جمعي في لفظ الجمع لينطبق على من يصح أن ينطبق عليه، ثم لا يكون المصداق الذي يصح أن ينطبق عليه إلا واحداً فرداً واللغة تأبى عن قبول الأول دون الثاني على شيوعه في الاستعمالات.

وليت شعري ماذا يقولون في مثل قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة ـ الى أن قال ـ تسرون اليهم بالمودة ﴾ الآية (الممتحنة / ١)، وقد صح أن المراد به خاطب بن أبي بلتعة في مكاتبته قريشاً؟ وقوله تعالى: ﴿ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ (المنافقون / ٨)، وقد صح أن القائل به عبدالله بن أُبي بن سلول؟ وقوله تعالى: ﴿ يسألونك ماذا ينفقون ﴾ (البقرة / ٢١٥) والسائل عنه واحد؟ وقوله تعالى: ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية ﴾ (البقرة / ٢٧٤) وقد ورد أن المنفق كان علياً أو أبا بكر؟ الى غير ذلك من الموارد الكثيرة.

وأعجب من الجميع قوله تعالى: «يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة» والقائل هو عبدالله بن أُبي، على ما رووا في سبب نزوله وتلقوه بالقبول، والآية واقعة بين الآيات المبحوث عنها نفسها.

فإن قيل: إن هذه الموارد لا تخلو عن اناس كانوا يرون رأيهم أو يرضون بفعالهم فعبر الله تعالى عنهم وعمن يلحق بهم بصيغة الجمع. قيل: إن محصله جواز ذلك في اللغة لنكتة مجوزة

فليجر الآية أعني قوله: «والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون» هذا المجرى، ولتكن النكتة هي الإشارة الى أن أنواع الكرامات الدينية ـ ومنها الولاية المذكورة في الآية ـ ليست موقوفة على بعض المؤمنين دون بعض وقفاً جزافياً، وإنما يتبع التقدم في الإخلاص والعمل لا غير.

على أن جل الناقلين لهذه الأخبار هم صحابة النبي ﷺ والتابعون المتصلون بهم زماناً وهم من زمرة العرب العرباء الذين لم تفسد لغتهم ولم تختلط ألسنتهم، ولو كان هذا النحو من الاستعمال لا تبيحه اللغة ولا يعهده أهلها لم تقبله طباعهم، ولكانوا أحق باستشكاله والاعتراض عليه، ولم يؤثر من أحد منهم ذلك.

وأما قولهم: إن الصدقة بالخاتم لا تسمى زكاة، فيدفعه أن تعين لفظ الزكاة في معناها المصطلح إنما تحقق في عرف المتشرعة بعد نزول القرآن بوجوبها وتشريعها في الدين، وأما الذي تعطيه اللغة فهو أعم من الزكاة المصطلحة في عرف المتشرعة ويساوق عند الإطلاق أو عند مقابلة الصلاة إنفاق المال لوجه الله كما يظهر مما وقع فيما حكاه الله عن الأنبياء السالفين كقوله تعالى في إبراهيم وإسحاق ويعقوب: ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ (الأنبياء / ٧٣)، وقوله تعالى في إسماعيل: ﴿وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً﴾ (مريم / ٥٥) وقوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام في المهد: ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ (مريم / ٣١) ومن المعلوم أن ليس في شرائعهم الزكاة المالية بالمعنى الذي اصطلح عليه في الإسلام.

وكذا قوله تعالى: ﴿قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى﴾ (الأعلى / ١٥) وقوله تعالى: ﴿الذي يؤتي ماله يتزكى﴾ (الليل / ١٨) وقوله تعالى: ﴿الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون﴾ (السجدة / ٧) وقوله تعالى: ﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ (المؤمنون / ٤) وغير ذلك من الآيات الواقعة في السور المكية وخاصة السور النازلة في أوائل

البعثة كسورة حم السجدة وغيرها، ولم تكن شرعت الزكاة المصطلحة بعد؛ فليت شعري ماذا كان يفهمه المسلمون من هذه الآيات في لفظ الزكاة.

بل آية الزكاة أعني قوله تعالى: ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم** ﴾ (التوبة / ١٠٣) تدل على أن الزكاة من أفراد الصدقة، وإنما سميت زكاة لكون الصدقة مطهرة مزكية مطلقاً، وقد غلب استعمالها في الصدقة المصطلحة.

فتبين من جميع ما ذكرنا أنه لا مانع من تسمية مطلق الصدقة والإنفاق في سبيل الله زكاة، وتبين أيضاً أن لا موجب لارتكاب خلاف الظاهر بحمل الركوع على معناه المجازي، وكذا ارتكاب التوجيه في قوله: «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا» حيث أتى باسم إن (وليكم) مفرداً وبقوله «الذين آمنوا» وهو خبر بالعطف بصيغة الجمع، هذا.

قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ قال الراغب في المفردات: الولاء (بفتح الواو) والتوالي أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان ومن حيث النسبة ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد، والولاية النصرة، والولاية تولي الأمر، وقيل: الولاية والولاية (بالفتح والكسر) واحدة نحو الدلالة والدلالة وحقيقته تولي الأمر، والولي والمولى يستعملان في ذلك، كل واحد منهما يقال في معنى الفاعل أي الموالي (بكسر اللام) ومعنى المفعول أي الموالى (بفتح اللام) يقال للمؤمن: هو ولي الله عز وجل ولم يرد مولاه، وقد يقال: الله ولي المؤمنين ومولاهم.

قال: وقولهم: تولى اذا عدي بنفسه اقتضى معنى الولاية وحصوله في أقرب المواضع منه يقال: وليت سمعي كذا، ووليت عيني كذا، ووليت وجهي كذا أقبلت به عليه قال الله عز وجل ﴿ **فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره** ﴾ وإذا عدي بعن لفظاً أو تقديراً اقتضى معنى الإعراض وترك قربه. انتهى.

والظاهر أن القر الكذائي المعبر عنه بالولاية ، أول ما اعتبره الإنسان إنما اعتبره في الأجسام وأمكنتها وأزمنتها ثم استعير لأقسام القرب المعنوية بالعكس مما ذكره لأن هذا هو المحصل من البحث في حالات الإنسان الأولية فالنظر في أمر المحسوسات والاشتغال بأمرها أقدم في عيشة الإنسان من التفكر في المعقولات والمعاني وأنحاء اعتبارها والتصرف فيها.

واذا فرضت الولاية ـ وهي القرب الخاص ـ في الامور المعنوية كان لازمها أن للولي ممن وليه ما ليس لغيره إلا بواسطته فكل ما كان من التصرف في شؤون من وليه مما يجوز أن يخلفه فيه غيره فإنما يخلفه الولي لا غيره كولي الميت ، فإن التركة التي كان للميت أن يتصرف فيها بالملك فإن لوارثه الولي أن يتصرف فيها بولاية الوراثة ، وولي الصغير يتصرف بولايته في شؤون الصغير المالية بتدبير أمره ، وولي النصرة له أن يتصرف في أمر المنصور من حيث تقويته في الدفاع ، والله سبحانه ولي عباده يدبر أمرهم في الدنيا والآخرة لا ولي غيره ، وهو ولي المؤمنين في تدبير أمر دينهم بالهداية والدعوة والتوفيق والنصرة وغير ذلك ، والنبي ولي المؤمنين من حيث إن له أن يحكم فيهم ولهم وعليهم بالتشريع والقضاء ، والحاكم ولي الناس بالحكم فيهم على مقدار سعة حكومته ، وعلى هذا القياس سائر موارد الولاية كولاية العتق والحلف والجوار والطلاق وابن العم ، وولاية الحب وولاية العهد وهكذا ، وقوله : « يولون الأدبار » أي يجعلون أدبارهم تلي جهة الحرب وتدبر أمرها ، وقوله : « توليتم » أي توليتم عن قبوله أي اتخذتم أنفسكم تلي جهة خلاف جهته بالإعراض عنه أو اتخذتم وجوهكم تلي خلاف جهته بالإعراض عنه ؛ فالمحصل من معنى الولاية في موارد استعمالها هو نحو من القرب يوجب نوعاً من حق التصرف ومالكية التدبير.

وقد اشتمل قوله تعالى : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » إلخ ؛ من السياق على ما يدل على وحدة ما في معنى الولاية المذكورة فيه حيث تضمن العد في قوله : « الله ورسوله والذين آمنوا » وأسند الجميع الى قوله : « وليكم » وظاهره كون الولاية في الجميع بمعنى واحد.

ويؤيد ذلك أيضاً قوله في الآية التالية: «فإن حزب الله هم الغالبون» حيث يشعر أو يدل على كون المتولين جميعاً حزباً لله لكونهم تحت ولايته: فولاية الرسول والذين آمنوا إنما هو من سنخ ولاية الله.

وقد ذكر الله سبحانه لنفسه من الولاية، الولاية التكوينية التي تصحح له التصرف في كل شيء وتدبير أمر الخلق بما شاء وكيف شاء، قال تعالى: ﴿أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي﴾ (الشورى / ٩) وقال ﴿ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون﴾ (السجدة / ٤) وقال ﴿أنت وليي في الدنيا والآخرة﴾ (يوسف / ١٠١) وقال ﴿فما له من ولي من بعده﴾ (الشورى / ٤٤) وفي معنى هذه الآيات قوله: ﴿ونحن أقرب اليه من حبل الوريد﴾ (ق / ١٦)، وقوله: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ (الأنفال / ٢٤).

وربما لحق بهذا الباب ولاية النصرة التي ذكرها لنفسه في قوله: ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ (محمد / ١١) وقوله: ﴿فإن الله هو مولاه﴾ (التحريم / ٤)، وفي معنى ذلك قوله: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ (الروم /٤٧).

وذكر تعالى أيضاً لنفسه الولاية على المؤمنين فيما يرجع الى أمر دينهم من تشريع الشريعة والهداية والإرشاد والتوفيق ونحو ذلك كقوله تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ (البقرة / ٢٥٧)، وقوله: ﴿والله ولي المؤمنين﴾ (آل عمران / ٦٨)، وقوله: ﴿والله ولي المتقين﴾ (الجاثية / ١٩)، وفي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً﴾ (الأحزاب / ٣٦).

فهذا ما ذكره الله تعالى من ولاية نفسه في كلامه، ويرجع محصلها الى ولاية التكوين وولاية التشريع، وإن شئت سميتها بالولاية الحقيقية والولاية الاعتبارية.

وقد ذكر الله سبحانه لنبيه ﷺ من الولاية التي تخصه الولاية التشريعية وهي القيام

بالتشريع والدعوة وتربية الامة والحكم فيهم والقضاء في أمرهم، قال تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ (الأحزاب / ٦)، وفي معناه قوله تعالى: ﴿إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ (النساء / ١٠٥)، وقوله: ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ (الشورى / ٥٢)، وقوله: ﴿رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ (الجمعة /٢)، وقوله: ﴿لتبين للناس ما نزل اليهم﴾ (النحل / ٤٤)، وقوله: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ (النساء / ٥٩)، وقوله: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ (الأحزاب / ٣٦)، وقوله: ﴿وان احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك﴾ (المائدة / ٤٩)، وقد تقدم أن الله لم يذكر ولاية النصرة عليه للامة.

ويجمع الجميع أن له ﷺ الولاية على الامة في سوقهم الى الله والحكم فيهم والقضاء عليهم في جميع شؤونهم فله عليهم الإطاعة المطلقة فترجع ولايته ﷺ الى ولاية الله سبحانه بالولاية التشريعية، ونعني بذلك أن له ﷺ التقدم عليهم بافتراض الطاعة لأن طاعته طاعة الله، فولايته ولاية الله كما يدل عليه بعض الآيات السابقة كقوله ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ الآية؛ وقوله: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً﴾ الآية؛ وغير ذلك.

وهذا المعنى من الولاية لله ورسوله هو الذي تذكره الآية للذين آمنوا بعطفه على الله ورسوله في قوله: «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا» على ما عرفت من دلالة السياق على كون هذه الولاية ولاية واحدة هي لله سبحانه بالاصالة ولرسوله والذين آمنوا بالتبع وبإذن منه تعالى.

ولو كانت الولاية المنسوبة الى الله تعالى في الآية غير المنسوبة الى الذين آمنوا ـ والمقام مقام الالتباس ـ كان الأنسب أن تفرد ولاية اخرى للمؤمنين بالذكر رفعاً للالتباس كما وقع

نظيره في نظيرها . قال تعالى : ﴿ قل اذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ﴾ (التوبة / ٦١) . فكرر لفظ الايمان لما كان في كل من الموضعين لمعنى غير الآخر . وقد تقدم نظيره في قوله تعالى : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ (النساء / ٥٩) . في الجزء السابق على هذا الجزء من الكتاب .

على أن لفظ « وليكم » أُتي به مفرداً وقد نسب الى الذين آمنوا وهو جمع . وقد وجهه المفسرون بكون الولاية ذات معنى واحد هو لله سبحانه على الاصالة ولغيره بالتبع .

وقد تبين من جميع ما مر أن القصر في قوله : « إنما وليكم الله » الخ ؛ لقصر الإفراد كأن المخاطبين يظنون أن الولاية عامة للمذكورين في الآية وغيرهم فافرد المذكورون للقصر . ويمكن بوجه أن يحمل على قصر القلب .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ بيان للذين آمنوا المذكور سابقاً . وقوله : « وهم راكعون » حال من فاعل « يؤتون » وهو العامل فيه .

والركوع هو الهيئة المخصوصة في الانسان . ومنه الشيخ الراكع . ويطلق في عرف الشرع على الهيئة المخصوصة في العبادة . قال تعالى : ﴿ الراكعون الساجدون ﴾ (التوبة / ١١٢) . وهو ممثل للخضوع والتذلل لله . غير أنه لم يشرع في الإسلام في غير حال الصلاة بخلاف السجدة .

ولكونه مشتملاً على الخضوع والتذلل ربما استعير لمطلق التذلل والخضوع أو الفقر والإعسار الذي لا يخلو عادة عن التذلل للغير .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ . التولي هو الأخذ ولياً . و« الذين آمنوا » مفيد للعهد والمراد به المذكور في الآية السابقة « والذين آمنوا الذين » الخ ؛ وقوله : « فإن حزب الله هم الغالبون » واقع موقع الجزاء وليس به بل هو من قبيل وضع الكبرى موضع النتيجة للدلالة على علة الحكم . والتقدير :

ومن يتول فهو غالب لأنه من حزب الله وحزب الله هم الغالبون، فهو من قبيل الكناية عن أنهم حزب الله.

والحزب على ما ذكره الراغب جماعة فيها غلظ. وقد ذكر الله سبحانه حزبه في موضع آخر من كلامه قريب المضمون من هذا الموضع، ووسمهم بالفلاح فقال ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم اولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ـ الى أن قال ـ اولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ (المجادلة / ٢٢).

والفلاح الظفر وإدراك البغية التي هي الغلبة والاستيلاء على المراد. وهذه الغلبة والفلاح هي التي وعدها الله المؤمنين في أحسن ما وعدهم به وبشرهم بنيله. قال تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ (المؤمنون / ١)، والآيات في ذلك كثيرة. وقد اطلق اللفظ في جميعها. فالمراد الغلبة المطلقة والفلاح المطلق أي الظفر بالسعادة والفوز بالحق والغلبة على الشقاء، وإدحاض الباطل في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فبالحياة الطيبة التي توجد في مجتمع صالح من أولياء الله في أرض مطهرة من أولياء الشيطان على تقوى وورع. وأما في الآخرة ففي جوار رب العالمين.

بحث روائي:

في الكافي عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عمر بن اذينة، عن زرارة؛ والفضيل بن يسار، وبكير بن أعين، ومحمد بن مسلم، وبريد بن معاوية، وأبي الجارود، جميعاً عن أبي جعفر عليه السلام قال: أمر الله عز وجل رسوله بولاية علي وأنزل عليه «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون» وفرض من ولاية اولي الأمر فلم يدروا ما هي؟ فأمر الله محمداً صلى الله عليه وآله أن يفسر لهم الولاية كما فسر الصلاة

والزكاة والصوم والحج.

فلما أتاه ذلك من الله ضاق بذلك صدر رسول الله ﷺ، وتخوف أن يرتدوا عن دينهم وأن يكذبوه، فضاق صدره وراجع ربه عز وجل فأوحى الله عز وجل إليه **﴿يا أيها الرسول بلغ ما انزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾**، فصدع بأمر الله عز ذكره، فقام بولاية علي عليه السلام يوم غدير خم فنادى: الصلاة جامعة، وأمر الناس أن يبلغ الشاهد الغائب.

قال عمر بن اذينة: قالوا جميعاً غير أبي الجارود: قال أبو جعفر عليه السلام: وكانت الفريضة الاخرى، وكانت الولاية آخر الفرائض فأنزل الله عز وجل **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾**، قال أبو جعفر عليه السلام: يقول الله عز وجل: لا انزل عليكم بعد هذه فريضة قد أكملت لكم الفرائض.

وفي البرهان وغاية المرام عن الصدوق بإسناده عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزوجل «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا»، قال: إن رهطاً من اليهود أسلموا منهم عبدالله بن سلام وأسد وثعلبة وابن يامين وابن صوريا فأتوا النبي ﷺ فقالوا: يا نبي الله إن موسى أوصى الى يوشع بن نون، فمن وصيك يا رسول الله؟ ومن ولينا بعدك؟ فنزلت هذه الآية «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون».

قال رسول الله ﷺ: قوموا فقاموا وأتوا المسجد فإذا سائل خارج فقال ﷺ: يا سائل هل أعطاك أحد شيئاً؟ قال: نعم هذا الخاتم قال: من أعطاكه؟ قال: أعطانيه ذلك الرجل الذي يصلي؛ قال على أي حال أعطاك؟ قال: كان راكعاً فكبر النبي ﷺ وكبر أهل المسجد.

فقال النبي ﷺ: علي وليكم بعدي قالوا: رضينا بالله رباً، وبمحمد نبياً، وبعلي ابن أبي

طالب ولياً فأنزل الله عز وجل «ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون» الحديث.

وفي تفسير القمي قال: حدثني أبي، عن صفوان، عن أبان بن عثمان، عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر عليه السلام: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله جالس وعنده قوم من اليهود فيهم عبدالله بن سلام اذ نزلت عليه هذه الآية فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله الى المسجد فاستقبله سائل فقال صلى الله عليه وآله: هل أعطاك أحد شيئاً؟ قال: نعم ذلك المصلي، فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله فإذا هو علي عليه السلام.

أقول: ورواه العياشي في تفسيره عنه عليه السلام.

وفي أمالي الشيخ قال: حدثنا محمد بن محمد ـ يعني المفيد ـ قال: حدثني أبوالحسن علي بن محمد الكاتب، قال: حدثني الحسن بن علي الزعفراني، قال: حدثنا أبوإسحاق إبراهيم بن محمد الثقفي، قال: حدثنا محمد بن علي، قال: حدثنا العباس ابن عبدالله العنبري، عن عبدالرحمن بن الأسود الكندي اليشكري، عن عون بن عبيدالله، عن أبيه عن جده أبي رافع قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً وهو نائم وحية في جانب البيت فكرهت أن أقتلها واوقظ النبي صلى الله عليه وآله فظننت أنه يوحى اليه فاضطجعت بينه وبين الحية فقلت: إن كان منها سوء كان إلي دونه.

فكنت هنيئة فاستيقظ النبي صلى الله عليه وآله وهو يقرأ «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا» ـ حتى أتى على آخر الآية ـ ثم قال: الحمد لله الذي أتم لعلي نعمته، وهنيئاً له بفضل الله الذي آتاه، ثم قال لي: مالك ههنا؟ فأخبرته بخبر الحية فقال لي: اقتلها ففعلت ثم قال لي: يا (أبا، ظ) رافع كيف أنت وقوم يقاتلون علياً وهو على الحق وهم على الباطل؟ جهادهم حقاً لله عز اسمه فمن لم يستطع بقلبه، ليس وراءه شيء فقلت: يا رسول الله ادع الله لي إن أدركتهم أن يقويني على قتالهم قال: فدعا النبي صلى الله عليه وآله وقال: إن لكل نبي أميناً، وإن أميني أبورافع.

قال: فلما بايع الناس علياً بعد عثمان، وسار طلحة والزبير ذكرت قول النبي صلى الله عليه وآله فبعت

داري بالمدينة وأرضاً لي بخيبر وخرجت بنفسي وولدي مع أمير المؤمنين عليه السلام لأستشهد بين يديه فلم أُدرك معه حتى عاد من البصرة، وخرجت معه الى صفين فقلت (فقاتلت ، ظ) بين يديه بها وبالنهر وان أيضاً، ولم أزل معه حتى استشهد علي عليه السلام ، فرجعت الى المدينة وليس لي بها دار ولا أرض فأعطاني الحسن بن علي عليه السلام أرضاً بينبع، وقسم لي شطر دار أمير المؤمنين عليه السلام فنزلتها وعيالي.

وفي تفسير العياشي بإسناده عن الحسن بن زيد، عن أبيه زيد بن الحسن، عن جده قال: سمعت عمار بن ياسر يقول: وقف لعلي بن أبي طالب سائل وهو راكع في صلاة تطوّع فنزع خاتمه فأعطاه السائل فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله فأعلم بذلك فنزل على النبي صلى الله عليه وآله هذه الآية «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون» الى آخر الآية؛ فقرأها رسول الله صلى الله عليه وآله علينا ثم قال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه.

وفي تفسير العياشي، عن المفضل بن صالح، عن بعض أصحابه، عن أحدهما عليهما السلام قال: قال: إنه لما نزلت هذه الآية «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا» شق ذلك على النبي صلى الله عليه وآله وخشي أن تكذبه قريش فأنزل الله ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل اليك من ربك ﴾ الآية؛ فقام بذلك يوم غدير خم.

وفيه عن أبي جميلة عن بعض أصحابه عن أحدهما عليهما السلام قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إن الله أوحى إلي أن أُحب أربعة: علياً وأبا ذر وسلمان والمقداد، فقلت: ألا فما كان من كثرة الناس أما كان أحد يعرف هذا الأمر؟ فقال: بلى ثلاثة قلت: هذه الآيات التي أُنزلت «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا» وقوله: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الأمر منكم» ما كان أحد يسأل فيمن نزلت؟ فقال: من ثمّ أتاهم لم يكونوا يسألون.

وفي غاية المرام عن الصدوق بإسناده عن أبي سعيد الوراق عن أبيه عن جعفر بن محمد

عن أبيه عن جده في حديث مناشدة علي عليه السلام لأبي بكر حين ولي أبو بكر الخلافة، وذكر عليه السلام فضائله لأبي بكر والنصوص عليه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكان فيما قال له: فانشدك بالله ألي الولاية من الله مع ولاية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في آية زكاة الخاتم أم لك؟ قال: بل لك.

وفي مجالس الشيخ بإسناده الى أبي ذر في حديث مناشدة أمير المؤمنين عليه السلام عثمان والزبير وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص يوم الشورى واحتجاجه عليهم بما فيه من النصوص من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والكل منهم يصدقه عليه السلام فيما يقوله فكان مما ذكره عليه السلام: فهل فيكم أحد آتى الزكاة وهو راكع فنزلت فيه «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون» غيري؟ قالوا: لا.

وفي الاحتجاج في رسالة أبي الحسن الثالث علي بن محمد الهادي عليه السلام الى أهل الأهواز حين سألوه عن الجبر والتفويض:

قال عليه السلام: اجتمعت الامة قاطبة لا اختلاف بينهم في ذلك: أن القرآن حق لا ريب فيه عند جميع فرقها فهم في حالة الاجتماع عليه مصيبون، وعلى تصديق ما أنزل الله مهتدون لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم «لا تجتمع امتي على ضلالة». فأخبر عليه السلام: أن ما اجتمعت عليه الامة ولم يخالف بعضها بعضاً هو الحق، فهذا معنى الحديث لا ما تأوله الجاهلون، ولا ما قاله المعاندون من إبطال حكم الكتاب، واتباع أحكام الأحاديث المزورة، والروايات المزخرفة، واتباع الأهواء المردئة المهلكة التي تخالف نص الكتاب، وتحقيق الآيات الواضحات النيرات، ونحن نسأل الله أن يوفقنا للصلاة، ويهدينا الى الرشاد.

ثم قال عليه السلام: فإذا شهد الكتاب بصدق خبر وتحقيقه فأنكرته طائفة من الامة عارضته بحديث من هذه الأحاديث المزورة، فصارت بإنكارها ودفعها الكتاب ضلالاً، وأصح خبر مما عرف تحقيقه من الكتاب مثل الخبر المجمع عليه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال «إني مستخلف فيكم خليفتين كتاب الله وعترتي. ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي وإنهما لن يفترقا حتى يردا

علي الحوض» واللفظة الاخرى عنه في هذا المعنى بعينه قوله ﷺ «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا».

وجدنا شواهد هذا الحديث نصاً في كتاب الله مثل قوله: «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون». ثم اتفقت روايات العلماء في ذلك لأمير المؤمنين عليه السلام: أنه تصدق بخاتمه وهو راكع فشكر الله ذلك له، وأنزل الآية فيه. ثم وجدنا رسول الله ﷺ قد أبانه من أصحابه بهذه اللفظة «من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» وقوله ﷺ «علي يقضي ديني، وينجز موعدي، وهو خليفتي عليكم بعدي» وقوله ﷺ حين استخلفه على المدينة فقال: يا رسول الله: أتخلفني على النساء والصبيان؟ فقال ﷺ: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي؟

فعلمنا أن الكتاب شهد بتصديق هذه الأخبار، وتحقيق هذه الشواهد فيلزم الامة الإقراربها اذا كانت هذه الأخبار وافقت القرآن فلما وجدنا ذلك موافقاً لكتاب الله، ووجدنا كتاب الله موافقاً لهذه الأخبار، وعليها دليلاً كان الإقتداء فرضاً لا يتعداه إلا أهل العناد والفساد.

وفي الاحتجاج في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: قال المنافقون لرسول الله ﷺ: هل بقي لربك علينا بعد الذي فرض علينا شيء آخر يفترضه فتذكر فتسكن أنفسنا الى أنه لم يبق غيره؟ فأنزل الله في ذلك ﴿قل إنما أعظكم بواحدة﴾ يعني الولاية فانزل الله «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون»، وليس بين الامة خلاف أنه لم يؤت الزكاة يومئذ وهو راكع غير رجل واحد، الحديث.

وفي الاختصاص للمفيد عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن القاسم بن محمد الجوهري، عن

الحسن بن أبي العلاء قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: الأوصياء طاعتهم مفترضة؟ فقال: نعم، هم الذين قال الله «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الأمر منكم» وهم الذين قال الله «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون».

اقول: ورواه في الكافي عن الحسين بن أبي العلاء عنه عليه السلام، وروى ما في معناه عن أحمد بن عيسى عنه عليه السلام.

وإسناد نزول ما نزل في علي عليه السلام الى جميع الأئمة عليهم السلام لكونهم أهل بيت واحد، وأمرهم واحد.

وعن تفسير الثعلبي أخبرنا أبو الحسن محمد بن القاسم الفقيه قال: حدثنا عبدالله ابن أحمد الشعراني قال: أخبرنا أبو علي أحمد بن علي بن رزين قال: حدثنا المظفر بن الحسن الأنصاري قال: حدثنا السري بن علي الوراق قال: حدثنا يحيى بن عبدالحميد الجماني عن قيس بن الربيع عن الأعمش، عن عباية بن الربعي قال: حدثنا عبدالله بن عباس رضي الله عنه وهو جالس بشفير زمزم يقول: قال رسول الله: اذ أقبل رجل معتم بعمامة فجعل ابن عباس لا يقول «قال رسول الله» إلا وقال الرجل: قال رسول الله.

فقال له ابن عباس: سألتك بالله من أنت؟ قال: فكشف العمامة عن وجهه وقال: يا أيها الناس من عرفيني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا جندب بن جنادة البدري أبو ذر الغفاري سمعت رسول الله بهاتين وإلا فصمتا، ورأيته بهاتين وإلا فعميتا يقول: علي قائد البررة وقاتل الكفرة، منصور من نصره، مخذول من خذله.

أما إني صليت مع رسول الله يوماً من الأيام صلاة الظهر فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد فرفع السائل يده الى السماء وقال: اللهم اشهد أني سألت في مسجد رسول الله فلم يعطني أحد شيئاً، وكان علي راكعاً فأومأ اليه بخنصره اليمنى، وكان يتختم فيها فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره، وذلك بعين النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلما فرغ من صلاته رفع رأسه الى السماء

وقال: اللهم موسى سألك فقال: رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي، واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي، اشدد بـه أزري، وأشركـه في أمري. فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً: سنشد عضدك بأخيك، ونجعل لكما سلطاناً فـلا يـصلون إليكما بآياتنا.

اللهم وأنا محمد نبيك وصفيك، اللهم واشرح لي صدري ويـسر لي أمـري، واجـعل لي وزيراً من أهلي علياً اشدد به ظهري.

قال أبو ذر: فما استتم رسول الله ﷺ الكلمة حتى نزل عليه جبرئيل من عند الله تعالى فقال: يا محمد اقرأ قال: وما أقرأ قال: قال: اقرأ: إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون.

وعن الجمع بين الصحاح الستة لزرين من الجزء الثالث في تفسير سورة المائدة قوله تعالى: «إنما وليكم الله ورسوله» الآية؛ من صحيح النسائي عـن ابـن سـلام: قـال أتـيت رسـول الله ﷺ فقلنا: إن قومنا حادونا لما صدقنا الله ورسوله، وأقسموا أن لا يكلمونا فأنزل الله تعالى «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يـقيمون الصـلاة ويـؤتون الزكـاة وهـم راكعون» الآية.

ثم أذن بلال لصلاة الظهر فقام الناس يصلون فمن بين ساجد وراكع وسائل اذ سائل يسأل، وأعطى علي خاتمه وهو راكع فاخبر السائل رسول الله ﷺ فقرأ علينا رسول الله ﷺ «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ۞ ومـن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون».

وعن مناقب ابن المغازلي الشافعي في تفسير قوله تعالى: «إنما وليكم الله ورسوله» الآية؛ قال: أخبرنا محمد بن أحمد بن عثمان قال: أخبرنا أبوبكر أحمد بن ابراهيم بن شاذان البزاز إذناً قال: حدثنا الحسن بن علي العدوي قال: حدثنا سلمة ابن شبيب قال: حدثنا عـبدالرزاق

قال: أخبرنا مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى: «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون» قال: نزلت في علي.

وعنه قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن طاوان قال: أخبرنا أبو أحمد عمر بن عبدالله بن شوذب قال: حدثنا محمد بن أحمد العسكري الدقائق قال: حدّثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة قال: حدثنا عبادة قال: حدثنا عمر بن ثابت عن محمد بن السائب عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: كان علي راكعاً فجاءه مسكين فأعطاه خاتمه فقال رسول الله: من أعطاك هذا؟ فقال: أعطاني هذا الراكع فأنزل الله هذه الآية «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا» الى آخر الآية.

وعنه قال: حدثنا أحمد بن محمد بن طاوان إذناً: أن أبا أحمد عمر بن عبدالله بن شوذب أخبرهم قال: حدثنا محمد بن جعفر بن محمد العسكري قال: حدثنا محمد بن عثمان قال: حدثنا إبراهيم بن محمد بن ميمون قال: حدثنا علي بن عابس قال: دخلت أنا وأبو مريم على عبدالله بن عطاء، قال أبو مريم: حدث علياً بالحديث الذي حدثتني عن أبي جعفر، قال: كنت عند أبي جعفر جالساً اذ مر عليه ابن عبدالله بن سلام قلت: جعلني الله فداك، هذا ابن الذي عنده علم الكتاب؟ قال: لا ولكنه صاحبكم علي بن أبي طالب الذي أُنزلت فيه آيات من كتاب الله عز وجل «ومن عنده علم الكتاب، أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه، إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا» الآية.

وعن الخطيب الخوارزمي في جواب مكاتبة معاوية الى عمرو بن العاص قال عمرو بن العاص: لقد علمت يا معاوية ما أُنزل في كتابه من الآيات المتلوات في فضائله التي لا يشركه فيها أحد كقوله تعالى: «يوفون بالنذر، إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله»، وقد قال الله تعالى: ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله﴾ وقد قال الله تعالى لرسوله ﴿قل لا

أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾.

وعنه بإسناده الى أبي صالح عن ابن عباس قال: أقبل عبدالله بن سلام ومعه نفر من قومه ممن قد آمن بالنبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله إن منازلنا بعيدة، وليس لنا مجلس ولا متحدث دون هذا المجلس، وإن قومنا لما رأونا قد آمنا بالله ورسوله وقد صدقناه رفضونا، وآلوا على أنفسهم أن لا يجالسونا ولا يناكحونا ولا يكلمونا، وقد شق ذلك علينا فقال لهم النبي ﷺ «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون».

ثم إن النبي ﷺ خرج الى المسجد والناس بين قائم وراكع، وبصر بسائل، فقال له النبي ﷺ: هل أعطاك أحد شيئاً؟ قال: نعم خاتم من ذهب، فقال له النبي ﷺ: من أعطاكه؟ فقال: ذلك القائم ـ وأومأ بيده الى علي بن أبي طالب ـ فقال النبي ﷺ: على أي حال أعطاك؟ قال: أعطاني وهو راكع، فكبر النبي ﷺ ثم قرأ «ومن يتول الله ورسوله فإن حزب الله هم الغالبون» فأنشأ حسان بن ثابت يقول:

أبا حسن تفديك نفسي ومهجتي وكل بطيء في الهدى ومسارع
أيذهب مدحي والمحبين ضائعاً وما المدح في ذات الإله بضائع؟
فأنت الذي أعطيت اذ كنت راكعاً فدتك نفوس القوم يا خير راكع
بخاتمك الميمون يا خير سيد ويا خير شار ثم يا خير بائع
فأنزل فيك الله خير ولاية وبيّنها في محكمات الشرائع

وعن الحمويني بإسناده الى أبي هدبة إبراهيم بن هدبة قال: نبأنا أنس بن مالك: أن سائلاً أتى المسجد وهو يقول: من يقرض الملي الوفي؟ وعلي راكع يقول بيده خلفه للسائل: أن اخلع الخاتم من يدي، قال: فقال النبي ﷺ: يا عمر وجبت، قال: بأبي وامي يا رسول الله ما وجبت؟ قال ﷺ: وجبت له الجنة، والله ما خلعه من يده حتى خلعه من كل ذنب ومن كل خطيئة.

وعنه بإسناده عن زيد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جده قال: سمعت عمار بن ياسر ـ رضي الله عنه ـ يقول: وقف لعلي بن أبي طالب سائل وهو راكع في صلوة التطوع فنزع خاتمه وأعطاه السائل، فأتى رسول الله ﷺ فأعلمه ذلك. فنزلت على النبي ﷺ هذه الآية «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون» فقرأها رسول الله ﷺ. ثم قال ﷺ: من كنت مولاه فعلي مولاه.

وعن الحافظ أبي نعيم عن أبي الزبير عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء عبدالله بن سلام وأتى معه قوم يشكون مجانبة الناس إياهم منذ أسلموا فقال رسول الله ﷺ: ابغوا إلي سائلاً فدخلنا المسجد فدنا سائل اليه فقال له: أعطاك أحد شيئاً؟ قال: نعم مررت برجل راكع فأعطاني خاتمه. قال: فاذهب فأرني قال: فذهبنا فإذا علي قائم. فقال: هذا؛ فنزلت «إنما وليكم الله ورسوله».

وعنه عن موسى بن قيس الحضرمي عن سلمة بن كهيل قال: تصدق علي بخاتمه وهو راكع فنزلت! «إنما وليكم الله ورسوله» الآية.

وعنه عن عوف بن عبيد بن أبي رافع عن أبيه عن جده قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو نائم اذ يوحي اليه واذا حية في جنب البيت فكرهت أن أدخلها واوقظه فاضطجعت بينه وبين الحية فإن كان شيء كان في دونه، فاستيقظ وهو يتلو هذه الآية «إنما وليكم الله ورسوله» قال: الحمد لله فأتى الى جانبي فقال: ما اضطجعت ههنا؟ قلت: لمكان هذه الحية قال: قم اليها فاقتلها فقتلتها.

ثم أخذ بيدي فقال: يا أبا رافع سيكون بعدي قوم يقاتلون علياً حق على الله جهادهم، فمن لم يستطع جهادهم بيده فبلسانه، فمن لم يستطع بلسانه فبقلبه ليس وراء ذلك.

أقول: والروايات في نزول الآيتين في قصة التصدق بالخاتم كثيرة أخرجنا عدة منها من كتاب غاية المرام للبحراني، وهي موجودة في الكتب المنقول عنها. وقد اقتصرنا على ما نقل

عليه من اختلاف اللحن في سرد القصة .

وقد اشترك في نقلها عدة من الصحابة كأبي ذر وابن عباس وانس بن مالك وعمار وجابر وسلمة بن كهيل وأبي رافع وعمرو بن العاص ، وعلي والحسين وكذا السجاد والباقر والصادق والهادي وغيرهم من أئمة أهل البيت عليهم السلام .

وقد اتفق على نقلها من غير رد أئمة التفسير المأثور كأحمد والنسائي والطبري والطبراني وعبد بن حميد وغيرهم من الحفاظ وأئمة الحديث وقد تسلم ورود الرواية المتكلمون ، وأوردها الفقهاء في مسألة الفعل الكثير من بحث الصلاة ، وفي مسألة « هل تسمى صدقة التطوع زكاة » ولم يناقش في صحة انطباق الآية على الرواية فحول الأدب من المفسرين كالزمخشري في الكشاف وأبي حيان في تفسيره ، ولا الرواة النقلة وهم أهل اللسان .

فلا يعبأ بما ذكره بعضهم : أن حديث نزول الآية في قصة الخاتم موضوع مختلق . وقد أفرط بعضهم كشيخ الإسلام ابن تيمية فادعى إجماع العلماء على كون الرواية موضوع ؟ وهي من عجيب الدعاوي ، وقد عرفت ما هو الحق في المقام في البيان المتقدم .

٥٧ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

٥٨ ۞ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلٰوةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ .

٥٩ ۞ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ .

٦٠ ● قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللّٰهِ مَنْ لَعَنَهُ اللّٰهُ
وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالخَنٰازِيرَ وَعَبَدَ الطّٰاغُوتَ
أُولٰئِكَ شَرٌّ مَكٰاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوٰآءِ السَّبِيلِ.
٦١ ● وَإِذٰا جٰاءُوكُمْ قٰالُوا آمَنّٰا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا
بِهِ وَاللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا كٰانُوا يَكْتُمُونَ.
٦٢ ● وَتَرىٰ كَثِيراً مِنْهُمْ يُسٰارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالعُدْوٰانِ وَأَكْلِهِمُ
السُّحْتَ لَبِئْسَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ.
٦٣ ● لَوْلاٰ يَنْهٰاهُمُ الرَّبّٰانِيُّونَ وَالْأَحْبٰارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ
السُّحْتَ لَبِئْسَ مٰا كٰانُوا يَصْنَعُونَ.
٦٤ ● وَقٰالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّٰهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمٰا قٰالُوا
بَلْ يَدٰاهُ مَبْسُوطَتٰانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشٰاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مٰا
أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيٰاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنٰا بَيْنَهُمُ الْعَدٰاوَةَ
وَالْبَغْضٰاءَ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰمَةِ كُلَّمٰا أَوْقَدُوا نٰاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا
اللّٰهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسٰاداً وَاللّٰهُ لاٰ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ.
٦٥ ● وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتٰابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنٰا عَنْهُمْ سَيِّآتِهِمْ
وَلَأَدْخَلْنٰاهُمْ جَنّٰاتِ النَّعِيمِ.
٦٦ ● وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقٰامُوا التَّوْرٰيةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ
لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ
وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سٰاءَ مٰا يَعْمَلُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ﴾ الخ: قال الراغب: الهزؤ مزح في خفية، وقد يقال لما هو كالمزح (انتهى). وقال: ولعب فلان اذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً، يلعب لعباً. (انتهى). وإنما يتخذ الشيء هزؤاً ويستهزء به اذا اتخذ على وصف لا يعتني بأمره اعتنا جد لإظهار أنه مما لا ينبغي أن يلتفت اليه. وكذا الشيء يلعب به اذا كان مما لا يتخذ لواحد من الأغراض الصحيحة العقلائية إلا أن يتخذ لبعض الشؤون غير الحقيقة فالهزؤ بالدين واللعب به إنما هما لإظهار انه لا يعدل إلا بعض الأغراض الباطلة غير الصحيحة وغير الجدية، ولو قدروه ديناً حقاً أو قدروا أن مشرّعه والداعي اليه والمؤمنين به ذووأقدام جد وصدق، واحترموا له ولهم مكانهم لما وضعوه ذاك الموضع فاتخاذهم الدين هزؤاً ولعباً قضاءً منهم بأن ليس له من الواقعية والمكانة الحقيقية شيء إلا أن يؤخذ به ليمزح به أو ليلعب به لعباً.

ومن هنا يظهر اولاً: أن ذكر اتخاذهم الدين هزؤاً ولعباً في وصف من نهى عن ولايتهم إنما هو للإشارة الى علة النهي فإن الولاية التي من لوازمها الامتزاج الروحي والتصرف في الشؤون النفسية والاجتماعية لا يلائم استهزاء الولي ولعبه بما يقدسه وليه ويحترمه ويراه أعز من كل شيء حتى من نفسه فمن الواجب أن لا يتخذ من هذا شأنه ولياً، ولا يلقي أزمة التصرف في الروح والجسم اليه.

وثانياً: ما في اتخاذ وصف الايمان في الخطاب في قوله: «يا أيها الذين آمنوا» من المناسبة لمقابلته بقوله «الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً» وكذلك ما في إضافة الدين اليهم في قوله: «دينكم».

وثالثاً: أن قوله: «واتقوا الله إن كنتم مؤمنين» بمنزلة التأكيد لقوله: لا تتخذوا الذين اتخذوا

دينكم هزواً ولعباً » الخ : بتكراره بلفظ أعم وأشمل فإن المؤمن وهو الآخذ بعروة الإيمان لا معنى لأن يرضى بالهزء واللعب بما آمن به فهؤلاء إن كانوا متلبسين بالإيمان ـ أي كان الدين لهم ديناً ـ لم يكن لهم بد من تقوى الله في أمرهم أي عدم اتخاذهم أولياء .

ومن المحتمل أن يكون قوله : « واتقوا الله إن كنتم مؤمنين » إشارة الى ما ذكره تعالى من نحو قوله قبيل آيات : « ومن يتولهم منكم فإنه منهم » والمعنى : واتقوا الله في اتخاذهم أولياء إن لم تكونوا منهم ، والمعنى الأول لعله أظهر .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ﴾ الخ : تحقيق لما ذكر أنهم يتخذون دين الذين آمنوا هزواً ولعباً ، والمراد بالنداء الى الصلاة الأذان المشروع في الإسلام قبل الصلوات المفروضة اليومية ، ولم يذكر الأذان في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع ـ كما قيل ـ .

والضمير في قوله : « اتخذوها » راجع الى الصلاة أو الى المصدر المفهوم من قوله : « اذا ناديتم » أعني المناداة ، ويجوز في الضمير العائد الى المصدر التذكير والتأنيث ، وقوله : « ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » تذييل يجري مجرى الجواب عن فعلهم وبيان أن صدور هذا الفعل أعني اتخاذ الصلاة أو الأذان هزواً ولعباً منهم إنما هو لكونهم قوماً لا يعقلون فلا يسعهم أن يتحققوا ما في هذه الأركان والأعمال العبادية الدينية من حقيقة العبودية وفوائد القرب من الله ، وجماع سعادة الحياة في الدنيا والعقبى .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ الى آخر الآية : قال الراغب في مفردات القرآن : نقمت الشيء (بالكسر) ونقمته (بالفتح) اذا أنكرته إما باللسان وإما بالعقوبة ، قال تعالى : « وما نقموا إلا أن أغناهم الله ، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله ، هل تنقمون منا » الآية : والنقمة : العقوبة قال تعالى : « فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم » ، انتهى .

فمعنى قوله: «هل تنقمون منا إلا أن آمنا» الخ: هل تنكرون أو تكروهون منا إلا هذا الذي تشاهدونه وهو أنا آمنا بالله وما أنزله وأنكم فاسقون؟ نظير قول القائل: هل تكره مني الا أني عفيف وأنك فاجر. وهل تنكر مني إلا أني غني وأنك فقير؟ الى غير ذلك من موارد المقابلة والازدواج فالمعنى: هل تنكرون منا إلا أنا مؤمنون وأن أكثركم فاسقون.

وربما قيل: إن قوله: «وأن أكثركم فاسقون» بتقدير لام التعليل والمعنى: هل تنقمون منا إلا لأن أكثركم فاسقون؟

وقوله: ﴿أَنْ آمَنَّا بِاللّٰهِ وَمٰا أُنْزِلَ إِلَيْنٰا وَمٰا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ في معنى ما انزل الينا واليكم، ولم ينسبه اليهم تعريضاً بهم كأنهم اذا لم يفوا بما عاهدوا الله عليه ولم يعملوا بما تأمرهم به كتبهم فكتبهم لم تنزل اليهم وليسوا بأهلها.

ومحصل المعنى: أنا لا نفرق بين كتاب وكتاب مما أنزله الله على رسله فلا نفرق بين رسله، وفيه تعريض لهم أنهم يفرقون بين رسل الله ويقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما كانوا يقولون: آمنوا بما أُنزل على المؤمنين وجه النهار واكفروا آخره، قال تعالى: ﴿**إن الذين يكفرون بالله ورسوله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً * اولئك هم الكافرون حقاً واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً**﴾ (النساء / ١٥١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللّٰهِ مَنْ لَعَنَهُ اللّٰهُ﴾ الى آخر الآية: ذكروا أن هذا أمر منه تعالى لنبيه ﷺ أن يخاطب اولئك المستهزئين اللاعبين بالدين على طريق التسليم أخذاً بالنصفة في التكليم ليلزمهم أنهم إن نقموا من المؤمنين إيمانهم بالله وما أنزله على رسله فعليهم أن ينقموا أنفسهم لأنهم شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل لابتلائهم باللعن الالهي والمسخ بالقردة والخنازير وعبادة الطاغوت فإذا لم ينقموا أنفسهم على ما فيهم من أسباب النقمة فليس لهم أن ينقموا من لم يبتل إلا بما هو دونه في الشر، وهم

المؤمنون في ايمانهم على تقدير تسليم أن يكون إيمانهم على تقدير تسليم أن يكون إيمانهم بالله وكتبه شراً، ولن يكون شراً.

فالمراد بالمثوبة مطلق الجزاء، ولعلها استعيرت للعاقبة والصفة اللازمة كما يستفاد من تقييد قوله: «بشر من ذلك مثوبة» بقوله «عند الله» فإن الذي عند الله هو أمر ثابت غير متغير وقد حكم به الله وأمر به، قال تعالى: ﴿ وما عند الله باق ﴾ (النحل / ٩٦)، وقال تعالى: ﴿ لا معقب لحكمه ﴾ (الرعد / ٤١)، فهذه المثوبة مثوبة لازمة لكونه عند الله سبحانه.

وفي الكلام شبه قلب. فإن مقتضى استواء الكلام أن يقال: إن اللعن والمسخ وعبادة الطاغوت شر من الايمان بالله وكتبه وأشد ضلالاً، دون ان يقال: إن من لعنه الله وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت شر مكاناً وأضل إلا بوضع الموصوف مكان الوصف، وهو شائع في القرآن الكريم كقوله تعالى: «ولكن البر من آمن بالله» الآية.

وبالجملة فحصل المعنى أن إيماننا بالله وما أنزله على رسله إن كان شراً عندكم فأنا اخبركم بشر من ذلك يجب عليكم أن تنقموه وهو النعت الذي فيكم.

وربما قيل: إن الإشارة بقوله «ذلك» الى جمع المؤمنين المدلول عليه بقوله «هل تنقمون منا» وعلى هذا فالكلام على استوائه من غير قلب، والمعنى هل انبئكم بمن هو شر من المؤمنين لتنقموهم؟ وهم أنتم أنفسكم، وقد ابتليتم باللعن والمسخ وعبادة الطاغوت.

وربما قيل: إن قوله: «من ذلك» إشارة الى المصدر المدلول عليه بقوله «هل تنقمون منا» أي هل أُنبئكم بشر من نقمتكم هذه مثوبة وجزاء؟ هو ما ابتليتم به من اللعن والمسخ وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ﴾ الى آخر الآية: يشير تعالى الى نفاق قلوبهم وإضمارهم ما لا يرتضيه الله سبحانه في لقائهم المؤمنين فقال: واذا جاؤكم قالوا آمنا أي أظهروا الايمان والحال أنهم قد دخلوا عليكم

مع الكفر وقد خرجوا من عندكم بالكفر أي هم على حالة واحدة عند الدخول والخروج وهو الكفر لم يتغير عنه وإنما يظهرون الايمان إظهاراً. والحال أن الله يعلم ما كانوا يكتمونه سابقاً من الغدر والمكر.

فقوله «وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به» في معنى قولنا: لم يتغير حالهم في الكفر. والضمير في قوله: «هم قد جرجوا» جيء به للتأكيد، وإفادة تميزهم في الأمر وتثبيت الكفر فيهم.

وربما قيل: إن المعنى أنهم متحولون في أحوال الكفر المختلفة.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ الى آخر الآية: الظاهر أن المراد بالإثم هو الخوض في آيات الدين النازلة على المؤمنين والقول في معارف الدين بما يوجب الكفر والفسوق على ما يشهد به ما في الآية التالية من قوله: «عن قولهم الإثم وأكلهم السحت».

وعلى هذا فالامور الثلاثة أعني الإثم والعدوان وأكل السحت تستوعب نماذج من فسوقهم في القول والفعل، فهم يقترفون الذنب في القول وهو الإثم القولي، والذنب في الفعل وهو إما فيما بينهم وبين المؤمنين وهو التعدي عليهم، وإما عند أنفسهم كأكلهم السحت، وهو الربا والرشوة ونحو ذلك ثم ذم ذلك منهم بقوله «لبئس ما كانوا يعملون» ثم أتبعه بتوبيخ الربانيين والأحبار في سكوتهم عنهم وعدم نهيهم عن ارتكاب هذه الموبقات من الآثام والمعاصي وهم عالمون بأنها معاص وذنوب فقال «لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون».

وربما أمكن أن يستفاد من قوله: «عن قولهم الإثم وأكلهم السحت» عند تطبيقه على ما في الآية السابقة «يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت» حيث ترك العدوان في الآية الثانية أن الإثم والعدوان شيء واحد، وهو تعدي حدود الله سبحانه قولاً تجاه المعصية الفعلية

التي انموذجها أكلهم السحت.

فيكون المراد بقوله «يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت» إراءة سيئة قولية منهم وهي الإثم والعدوان، وسيئة اخرى فعلية منهم وهي أكلهم السحت.

والمسارعة مبالغة في معنى السرعة وهي ضد البطيء، والفرق بين السرعة والعجلة على ما يستفاد من موارد استعمال الكلمتين أن السرعة أمس بعمل الأعضاء والعجلة بعمل القلب، نظير الفرق بين الخضوع والخشوع، والخوف والخشية، قال الراغب في المفردات: السرعة ضد البطيء، ويستعمل في الأجسام والأفعال، يقال: سرع (بضم الراء) فهو سريع وأسرع فهو مسرع، وأسرعوا صارت إليهم سراعاً نحو أبلدوا، وسارعوا وتسارعوا، انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ كانت اليهود لا ترى جواز النسخ في الأحكام الدينية، ولذا كانت لا تقبل بنسخ التوراة وتعير المسلمين بنسخ الأحكام، وكذا كانت لا ترى جواز البداء في القضايا التكوينية على ما يتراءى من خلال الآيات القرآنية كما تقدم الكلام فيه في تفسير قوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ الآية (البقرة / ١٠٦) في الجزء الأول من هذا الكتاب وفي موارد أُخر.

والآية أعني قوله تعالى: «وقالت اليهود يد الله مغلولة» تقبل الانطباق على قولهم هذا غير أن ظاهر قوله تعالى جواباً عنهم: «بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء» يأبى عن ذلك، ويدل على أنهم إنما تكلموا بهذه الكلمة الأثيمة في شيء من أمر الرزق إما في خصوص المؤمنين لما في عامتهم من الفقر الشامل والعسرة وضيق المعيشة، وأنهم إنما قالوا هذا القول استهزاء بالله سبحانه إيماء الى أنه لا يقدر على إغناء عباده المؤمنين به وإنجائهم من الفقر والمذلة، لكن هذا الوجه لا يناسب وقوع الآية في سورة المائدة إن كانت نازلة في مطاوي سائر آياتها فإن المسلمين كانوا يوم نزولها على خصب من العيش وسعة من الرزق ورفاهية من

الحال .

وإما أنهم إنما تفوهوا بذلك لما سمعوا أمثال قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ (البقرة / ٢٤٥)، وقوله تعالى: ﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ (المزمل / ٢٠)، فقالوا: يد الله مغلولة لا يقدر على تحصيل ما ينفق في حوائجه لترويج دينه وإحياء دعوته. وقد قالوا ذلك سخرية واستهزاء على ما يظهر من بعض آخر مما ورد في أسباب النزول، وهذا الوجه أقرب الى النظر.

وكيف كان فهذه النسبة أعني نسبة غل اليد والمغلوبية عند بعض الحوادث مما لا يأباه تعليمهم الديني والآراء الموجدة في التوراة؛ فالتوراة تجوز أن يكون الامور معجزاً لله سبحانه وصاداً مانعاً له من إنفاذ بعض ما يريده من مقاصده كالأقوياء من الانسان. يشهد بذلك ما تقصه من قصص الأنبياء كآدم وغيره.

فعندهم من وجوه الاعتقاد ما يبيح لهم أن ينسبوا إليه تعالى ما لا يناسب ساحة قدسه وكبرياء ذاته جلت عظمته وإن كانت الكلمة إنما صدرت منهم استهزاء فإن لكل فعل مبادىء في الاعتقاد ينبعث إليه الانسان منا ويتجرء بها.

وأما قوله: «غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا» فهو دعاء عليهم بعذاب مشابه لما نسبوا اليه تعالى من النقص غير المناسب لساحة قدسه، وهو مغلولية اليد وانسلاب القدرة على ما يحبه ويشاؤه، وعلى هذا فقوله «ولعنوا بما قالوا» عطف تفسير على قوله: «غلبت أيديهم» فإن مغلولية أيديهم مصداق لعنة الله عليهم اذ القول من الله سبحانه فعل. ولعنه تعالى أحداً إنما هو تعذيبه بعذاب إما دنيوي أو أخروي فاللعن هو العذاب المساوي لغل أيديهم أو الأعم منه ومن غيره.

وأما قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ فهو جواب عن قولهم «يد الله مغلولة» مضروب في قالب الإضراب.

والجملة أعني قوله: «يداه مبسوطتان» كناية عن ثبوت القدرة. وهو شائع في الاستعمال.

وإنما قيل «يداه» بصيغة التثنية مع كون اليهود إنما أتوا في قولهم «يد الله مغلولة» بصيغة الإفراد ليدل على كمال القدرة كما ربما يستفاد من نحو قوله تعالى: ﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالمين﴾ (ص / ٧٥) لما فيه من الإشعار أو الدلالة على إعمال كمال القدرة، ونحو قولهم «لا يدين بهالك» فإن ذلك مبالغة في نفي كل قدرة ونعمة.

وربما ذكروا لليد معاني مختلفة في اللغة غير الجارحة كالقدرة والقوة والنعمة والملك وغير ذلك، لكن الحق أن اللفظة موضوعة في الأصل للجارحة، وإنما استعملت في غيرها من المعاني على نحو الاستعارة لكونها من الشؤون المنتسبة الى الجارحة نوعاً من الانتساب كانتساب الإنفاق والجود الى اليد من حيث بسطها، وانتساب الملك اليها من حيث التصرف والوضع والرفع وغير ذلك.

فما يثبته الكتاب والسنة لله سبحانه من اليد يختلف معناه باختلاف الموارد كقوله تعالى: «بل يداه مبسوطتان» الآية؛ وقوله: ﴿أن تسجد لما خلقت بيدي﴾ (ص / ٧٥) يراد به القدرة وكمالها، وقوله: ﴿بيدك الخير﴾ (آل عمران / ٢٦)، وقوله: ﴿فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء﴾ (يس / ٨٣)، وقوله: ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ (الملك / ١)، الى غير ذلك يراد بها الملك والسلطة. وقوله: ﴿لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ (الحجرات / ١) يراد بها الحضور ونحوه.

وأما قوله: «ينفق كيف يشاء» فهو بيان لقوله «يده مبسوطتان».

قوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾ هذه الجملة وما يتلوها الى آخر الآية كلام مسرود لتوضيح قوله: «وقالت اليهود يد الله مغلولة

غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا» على ما يعطيه السياق.

فأما قوله: «وليزيدن كثيراً منهم» الخ: فيشير الى أن اجتراءهم على الله العظيم وتفوههم بمثل قولهم «يد الله مغلولة» ليس من المستبعد منهم فإن القوم متلبسون بالاعتداء والكفر من قديم أيامهم، وقد أورثهم ذلك البغي والحسد، ولا يؤمن من هذه سجيته اذا رأى أن الله فضل غيره عليه بما لا يقدر قدره من النعمة أن يزداد طغياناً وكفراً[1].

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ضمير بينهم راجع الى اليهود على ما هو ظاهر وقوع الجملة في سياق الكلام على اليهود خاصة وإن كانت الآيات بدأت الكلام في أهل الكتاب عامة، وعلى هذا فالمراد بالعداوة والبغضاء بينهم ما يرجع الى الاختلاف في المذاهب والآراء. وقد أشار الله سبحانه اليه في مواضع من كلامه كقوله ﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ـ الى أن قال ـ فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ (الجاثية / ١٧) وغير ذلك من الآيات.

والعداوة كأن المراد بها البغض الذي يتصحب التعدي في العمل، والبغضاء هو مطلق ما في القلب من حالة النفار وإن لم يستعقب التعدي في العمل فيفيد اجتماعهما معنى البغض الذي يوجب الظلم على الغير والبغض الذي يقصر عنه.

وفي قوله تعالى: «الى يوم القيامة» ما لا يخفى من الدلالة على بقاء امتهم الى آخر الدنيا.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ إيقاد النار إشعالها، وإطفاؤها إخمادها، والمعنى واضح. ومن المحتمل أن يكون قوله: «كلما أوقدوا» الخ: بياناً لقوله «وألقينا بينهم العدواة» الخ: فيعود المعنى الى أنه كلما أثاروا حرباً على النبي ﷺ والمؤمنين

---

١. المائدة ٥٧ ـ ٦٦: كلام في عناد اليهود وكفرهم وفساد اخلاقهم.

أطفأها الله بإلقاء الاختلاف بينهم.

والآية على ما يدل عليه السياق تسجل عليهم خيبة المسعى في إيقاد النيران التي يوقدونها على دين الله سبحانه، وعلى المسلمين بما أنهم مؤمنون بالله وآياته. وأما الحروب التي ربما أمكن أن يوقدوا نارها لا لأمر الدين الحق بل لسياسة أو تغلب جنسي أو ملي فهي خارجة عن مساق الآية.

قوله تعالى: ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ السعي هو السير السريع، وقوله: «فساداً» مفعول له أي يجتهدون لإفساد الأرض، والله لا يحب المفسدين فلا يخليهم وأن ينالوا ما أرادوه من فساد الأرض فيخيب سعيهم، والله أعلم.

فهذه كله بيان لكونهم غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا، حيث إنهم غير نائلين ما قصدوه من إثارة الحروب على النبي ﷺ والمسلمين، وما اجتهدوا لأجله من فساد الأرض.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّآتِهِمْ ﴾ الخ؛ عود الى حال أهل الكتاب عامة كما كان بدأ الكلام فيهم عامة، وختم الكلام بتخليص القول في ما فاتهم من نعمة السعادة في الآخرة والدنيا، وهي جنة النعيم ونعمة الحياة السعيدة.

والمراد بالتقوى بعد الإيمان التورع عن محارم الله واتقاء الذنوب التي تحتم السخط الإلهي وعذاب النار، وهي الشرك بالله وسائر الكبائر الموبقة التي أوعد الله عليها النار، فيكون المراد بالسيئات التي وعد الله سبحانه تكفيرها الصغائر من الذنوب، وينطبق على قوله سبحانه: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً﴾ (النساء / ٣١).

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ المراد بالتوراة والإنجيل الكتابان السماويان اللذان يذكر القرآن أن الله أنزلهما على موسى وعيسى عليهما السلام دون ما بأيدي القوم من الكتب التي

يذكر أنه لعبت بها يد التحريف .

والظاهر أن المراد بما أُنزل اليهم من ربهم سائر الكتب المنسوبة الى الأنبياء الموجودة عندهم كمزامير داود الذي يسميه القرآن بالزبور ، وغيره من الكتب .

فالظاهر أن المراد بما أُنزل إليهم من ربهم بعد التوراة والانجيل سائر الكتب وأقسام الوحي المنزلة على أنبياء بني إسرائيل كزبور داود وغيره . والمراد بإقامة هذه الكتب حفظ العمل العام بما فيها من شرائع الله تعالى ، والاعتقاد بما بين الله تعالى فيها من معارف المبدء والمعاد من غير أن يضرب عليها بحجب التحريف والكتمان والترك الصريح ، فلو أقاموها هذه الإقامة لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم .

وأما قوله تعالى : « لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » فالمراد بالأكل التنعم مطلقاً سواء كان بالأكل كما في مورد الأغذية أو بغيره كما في غيره ، واستعمال الأكل في مطلق التصرف والتنعم من غير مزاحم شائع في اللغة .

والمراد من فوقهم هو السماء ، ومن تحت أرجلهم هو الأرض ، فالجملة كناية عن تنعمهم بنعم السماء والأرض وإحاطة بركاتها عليهم نظير ما وقع في قوله تعالى : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون** ﴾ (الأعراف / ٩٦) .

والآية من الدليل على أن الايمان هذا النوع أعني نوع الإنسان وأعماله الصالحة تأثيراً في صلاح النظام الكوني من حيث ارتباطه بالنوع الإنساني فلو صلح هذا النوع صلح نظام الدنيا من حيث إيفائه باللازم لحياة الإنسان السعيدة من اندفاع النقم ووفور النعم .

قوله تعالى : ﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ الاقتصاد أخذ القصد وهو التوسط في الامور ، فالامة المقتصدة هي المعتدلة في أمر الدين والتسليم لأمر الله .

والكلام مستأنف اريد به بيان حال جميع ما نسب إليهم من التعدي عن حدود الله والكفر بآيات الله ونزول السخط واللعن على جماعتهم أن ذلك كله إنما تلبس به أكثرهم، وهو المصحح لنسبة هذه الفظائع إليهم، وأن منهم امة معتدلة ليست على هذا النعت، وهذا من نصفة الكلام الإلهي حيث لا يضيع حقاً من الحقوق، ويراقب إحياء أمر الحق وإن كان قليلاً[1].

٦٧ ﴿ يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ إِنَّ اللّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ.

بيان:

معنى الآية في نفسها ظاهر فإنها تتضمن أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالتبليغ في صورة التهديد، ووعده صلى الله عليه وآله وسلم بالعصمة من الناس. غير أن التدبر في الآية من حيث وقوعها موقعها الذي وقعت فيه، وقد حففتها الآيات المتعرضة لحال أهل الكتاب وذمهم وتوبيخهم بما كانوا يتعاورونه من أقسام التعدي الى محارم الله والكفر بآياته. وقد اتصلت بها من جانبيها الآيتان، أعني قوله: «ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما انزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم» الآية؛ وقوله تعالى: «قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما انزل إليكم من ربكم» الآية.

ثم الإمعان في التدبر في نفس الآية وارتباط الجمل المنضودة فيها يزيد الإنسان عجباً على

---

١. المائدة ٥٧ ـ ٦٦: بحث روائي في اهل الكتاب.

عجب .

فلو كانت الآية متصلة بما قبلها وما بعدها في سياق واحد في أمر أهل الكتاب لكان محصلها أمر النبي ﷺ أشد الأمر بتبليغ ما أنزله الله سبحانه في أمر أهل الكتاب . وتعين بحسب السياق أن المراد بما انزل إليه من ربه هو ما يأمره بتبليغه في قوله : « قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما انزل إليكم من ربكم » الآية .

وسياق الآية يأباه فإن قوله : « والله يعصمك من الناس » يدل على أن هذا الحكم المنزل المأمور بتبليغه أمر مهم فيه مخافة الخطر على نفس النبي ﷺ أو على دين الله تعالى من حيث نجاح تبليغه ، ولم يكن من شأن اليهود ولا النصارى في عهد النبي ﷺ أن يتوجه اليه من ناحيتهم خطر يسوّغ له ﷺ أن يمسك عن التبليغ أو يؤخره الى حين فيبلغ الأمر الى حيث يحتاج الى أن يعده الله بالعصمة منهم إن بلّغ ما امر به فيهم حتى في أوائل هجرته ﷺ الى المدينة وعنده حدة اليهود وشدتهم حتى انتهى الى وقائع خيبر وغيرها .

على أن الآية لا تتضمن أمراً شديداً ولا قولاً حاداً ، وقد تقدم عليه تبليغ ما هو أشدّ وأحدّ وأمرّ من ذلك على اليهود . وقد أُمر النبي ﷺ بتبليغ ما هو أشد من ذلك كتبليغ التوحيد ونفي الوثنية الى كفار قريش ومشركي العرب وهم أغلظ جانباً وأشد بطشاً وأسفك للدماء ، وأفتك من اليهود وسائر أهل الكتاب . ولم يهدده الله في أمر تبليغهم ولا آمنه بالعصمة منهم .

على أن الآيات المتعرضة لحال أهل الكتاب معظم أجزاء سورة المائدة فهي نازلة فيها قطعاً ، واليهود كانت عند نزول هذه السورة قد كسرت سورتهم ، وخمدت نيرانهم ، وشملتهم السخطة واللعنة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله فلا معنى لخوف رسول الله ﷺ منهم في دين الله . وقد دخلوا يومئذ في السلم في حظيرة الإسلام وقبلوا هم والنصارى الجزية . ولا معنى لتقريره تعالى له خوفه منهم واضطرابه في تبليغ أمر الله اليهم . وهو أمر قد بلّغ اليهم ما هو أعظم منه . وقد وقف قبل هذا الموقف فيما هو أهول منه وأوحش .

فلا ينبغي الارتياب في أن الآية لا تشارك الآيات السابقة عليها واللاحقة لها في سياقها، ولا تتصل بها في سردها، وإنما هي آية مفردة نزلت وحدها.

والآية تكشف عن أمر قد انزل على النبي ﷺ (إما مجموع الدين أو بعض أجزائه) وكان النبي ﷺ يخاف الناس من تبليغه ويؤخره الى حين يناسبه، ولولا مخافته وإمساكه لم يحتج الى تهديده بقوله «وإن لم تفعل فما بلغت رسالته» كما وقع في آيات أول البعثة الخالية عن التهديد كقوله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ الى آخر سورة العلق، وقوله: ﴿يا أيها المدثر * قم فأنذر﴾ (المدثر / ٢)، وقوله: ﴿فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين﴾ (حم السجدة / ٦) الى غير ذلك.

فهو ﷺ كان يخافهم ولم يكن مخافته من نفسه في جنب الله سبحانه فهو أجل من أن يستنكف عن تفدية نفسه أو يبخل في شيء من أمر الله بمهجته فهذا شيء تكذبه سيرته الشريفة ومظاهر حياته، على أن الله شهد في رسله على خلاف ذلك كما قال تعالى: ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً * الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً﴾ (الأحزاب / ٣٩)، وقد قال تعالى في أمثال هذه الفروض: ﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ (آل عمران / ١٧٥)، وقد مدح الله سبحانه طائفة من عباده بأنهم لم يخشوا الناس في عين أن الناس خوفوهم فقال: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ (آل عمران / ١٧٣).

وليس من الجائز أن يقال: إنه ﷺ كان يخاف على نفسه أن يقتلوه فيبطل بذلك أثر الدعوة وينقطع دابرها فكان يعوقه الى حين ليس فيه هذه المفسدة فإن الله سبحانه يقول له ﷺ ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ (آل عمران / ١٢٨)، لم يكن الله سبحانه يعجزه لو قتلوا النبي ﷺ أن يحيي دعوته بأي وسيلة من الوسائل شاء، وبأي سبب أراد.

نعم من الممكن أن يقدر لمعنى قوله : « والله يعصمك من الناس » أن يكون النبي ﷺ يخاف الناس في أمر تبليغه أن يتهموه بما يفسد به الدعوة فساداً لا تنجح معه أبداً فقد كان أمثال هذا الرأي والاجتهاد جائزاً له مأذوناً فيه من دون أن يرجع معنى الخوف الى نفسه بشيء.

ومن هنا يظهر أن الآية لم تنزل في بدء البعثة كما يراه بعض المفسرين إذ لا معنى حينئذ لقوله تعالى : « والله يعصمك من الناس » إلا أن يكون النبي ﷺ يماطل في إنجاز التبليغ خوفاً من الناس على نفسه أن يقتلوه فيحرم الحياة أو أن يقتلوه ويذهب التبليغ باطلاً لا أثر له فإن ذلك كله لا سبيل الى احتماله.

على أن المراد بما أُنزل اليه من ربه لو كان أصل الدين أو مجموعه في الآية عاد معنى قوله : « وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » الى نحو قولنا : يا أيها الرسول بلغ الدين وإن لم تبلغ الدين فما بلغت الدين.

وأما جعله من قبيل قول أبي النجم :

أنا أبو النجم وشعري شعري

كما ذكره بعضهم أن معنى الآية : وإن لم تبلّغ الرسالة فقد لزمك شناعة القصور في التبليغ والإهمال في المسارعة الى ايثار ما أمرك به الله سبحانه. وأكده عليك كما أن معنى قول أبي النجم : أني أنا أبو النجم وشعري شعري المعروف بالبلاغة المشهور بالبراعة.

فإن ذلك فاسد لأن هذه الصناعة الكلامية إنما تصح في موارد العام والخاص والمطلق والمقيد ونظائر ذلك فيفاد بهذا السياق اتحادهما كقول أبي النجم : شعري شعري أي لا ينبغي أن يتوهم علي متوهم أن قريحتي كلّت أو أن الحوادث أعيتني أن أقول من الشعر ما كنت أقوله فشعري الذي أقوله اليوم هو شعري الذي كنت أقوله بالأمس.

وأما قوله تعالى : « وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » فليس يجري فيه مثل هذه العناية فإن

الرسالة التي هي مجموع الدين أو أصله على تقدير نزول الآية في أول البعثة أمر واحد غير مختلف ولا متغير حتى يصح أن يقال: إن لم تبلغ هذه الرسالة فما بلغت تلك الرسالة أو لم تبلغ أصل الرسالة فإن المفروض أنه أصل الرسالة التي هي مجموع المعارف الدينية.

فقد تبين أن الآية بسياقها لا تصلح أن تكون نازلة في بدء البعثة ويكون المراد فيها بما أُنزل الى الرسول ﷺ مجموع الدين أو أصله، ويتبين بذلك أنها لا تصلح أن تكون نازلة في خصوص تبليغ مجموع الدين أو أصله في أي وقت آخر غير بدء البعثة فإن الإشكال إنما ينشأ من جهة لزوم اللغو في قوله تعالى: «وإن لم تفعل فما بلغت رسالته» كما مر.

على أن قوله: «يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل اليك من ربك» لا يلائم النزول في أي وقت آخر غير بدء البعثة على تقدير إرادة الرسالة بمجموع الدين أو أصله، وهو ظاهر.

على أن محذور دلالة قوله: «والله يعصمك من الناس» على أن النبي ﷺ كان يخاف الناس في تبليغه على حاله.

فظهر أن ليس هذا الأمر الذي أُنزل على النبي ﷺ وأكدت الآية تبليغه هو مجموع الدين أو أصله على جميع تقاديره المفروضة، فلنضع أنه بعض الدين، والمعنى: بلغ الحكم الذي أُنزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، الخ؛ ولازم هذا التقدير أن يكون المراد بالرسالة مجموع ما حمله رسول الله ﷺ من الدين ورسالته، وإلا فالمحذور السابق وهو لزوم اللغو في الكلام على حاله اذ لو كان المراد بقوله «رسالته» الرسالة الخاصة بهذا الحكم كان المعنى: بلغ هذا الحكم وإن لم تبلغه فما بلغته، وهو لغو ظاهر.

فالمراد أن بلغ هذا الحكم وإن لم تبلغه فما بلغت أصل رسالته أو مجموعها، وهو معنى صحيح معقول، وحينئذ يرد الكلام نظير المورد الذي ورده قول أبي النجم «أنا أبو النجم وشعري شعري».

وأما كون هذا الحكم بحيث لو لم يبلغ فكأنما لم تبلغ الرسالة فإنما ذلك لكون المعارف

والأحكام الدينية مرتبطة بعضها ببعض بحيث لو أُخل بأمر واحد منها أُخل بجميعها وخاصة في التبليغ لكمال الارتباط . وهذا التقدير وإن كان في نفسه مما لا بأس به لكن ذيل الآية وهو قوله : « والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين » لا يلائمه فإن هذا الذيل يكشف عن أن قوماً كافرين من الناس هموا بمخالفة هذا الحكم النازل أو كان المترقب من حالهم أنهم سيخالفونه مخالفة شديدة . ويتخذون أي تدبير يستطيعونه لإبطال هذه الدعوة وتركه سدى لا يؤثر أثراً ولا ينفع شيئاً وقد وعد الله رسوله أن يعصمه منهم . ويبطل مكرهم . ولا يهديهم في كيدهم .

ولا يستقم هذا المعنى مع أي حكم نازل فرض فإن المعارف والأحكام الدينية في الإسلام ليست جميعاً في درجة واحدة ففيها التي هي عمود الدين ، وفيها الدعاء عند رؤية الهلال ، وفيها زنى المحصن وفيها النظر الى الأجنبية ، ولا يصح فرض هذه المخافة من النبي ﷺ والوعد بالعصمة من الله مع كل حكم حكم منها كيفما كان بل في بعض الأحكام .

فليس استلزام عدم تبليغ هذا الحكم لعدم تبليغ غيره من الأحكام إلا لمكان أهميته ووقوعه من الأحكام في موقع لو اهمل أمره كان ذلك في الحقيقة إهمالاً لأمر سائر الأحكام . وصيرورتها كالجسد العادم للروح التي بها الحياة الباقية والحس والحركة . وتكون الآية حينئذ كاشفة عن أن الله سبحانه كان قد أمر رسوله ﷺ بحكم يتم به أمر الدين ويستوي به على عريشة القرار . وكان من المترقب أن يخالفه الناس ويقلبوا الأمر على النبي ﷺ بحيث تنهدم أركان ما بناه من بنيان الدين وتتلاشى أجزاؤه . وكان النبي ﷺ يتفرس ذلك ويخافهم على دعوته فيؤخر تبليغه الى حين بعد حين ليجد له ظرفاً صالحاً وجواً آمناً عسى أن تنجح فيه دعوته ، ولا يخيب مسعاه فأمره الله تعالى بتبليغ عاجل . وبين له أهمية الحكم ، ووعده أن يعصمه من الناس . ولا يهديهم في كيدهم . ولا يدعهم يقلبوا له أمر الدعوة .

وإنما يتصور تقليب أمر الدعوة على النبي ﷺ وإبطال عمله بعد انتشار الدعوة

الإسلامية لا من جانب المشركين ووثنية العرب أو غيرهم كأن تكون الآية نازلة في مكة قبل الهجرة، وتكون مخافة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الناس من جهة افترائهم عليه واتهامهم إياه في أمره كما حكاه الله سبحانه من قولهم ﴿ معلم مجنون ﴾ (الدخان / ١٤) وقولهم ﴿ شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ (الطور / ٣٠)، وقولهم ﴿ ساحر أو مجنون ﴾ (الذاريات / ٥٢) وقولهم: ﴿ إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ (الإسراء / ٤٧) وقولهم ﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾ (المدثر / ٢٤) وقولهم ﴿ أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾ (الفرقان / ٥) وقولهم ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ (النحل / ١٠٣) وقولهم: ﴿ أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ﴾ (ص / ٦) الى غير ذلك من أقاويلهم فيه صلى الله عليه وآله وسلم.

فهذه كلها ليست مما يوجب وهن قاعدة الدين، وإنما تدل ـ اذا دلت ـ على اضطراب القوم في أمرهم، وعدم استقامتهم فيه على أن هذه الافترآت والمرامي لا تختص بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى يضطرب عند تفرسها ويخاف وقوعها فسائر الأنبياء والرسل يشاركونه في الابتلاء بهذه البلايا والمحن، ومواجهة هذه المكاره من جملة اممهم كما حكاه الله تعالى عن نوح ومن بعده من الأنبياء المذكورين في القرآن.

بل إن كان شيء ـ ولابد ـ فإنما يتصور بعد الهجرة واستقرار أمر الدين في المجتمع الإسلامي والمسلمون كالمعجون الخليط من صلحاء مؤمنين وقوم منافقين اولي قوة لا يستهان بأمرهم، وآخرين في قلوبهم مرض وهم سماعون ـ كما نص عليه الكتاب العزيز ـ وهؤلاء كانوا يعاملون مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ في عين أنهم آمنوا به واقعاً أو ظاهراً ـ معاملة الملوك، ومع دين الله معاملة القوانين الوضعية القومية كما يشعر بذلك طوائف من آيات الكتاب قد تقدم تفسير بعضها في الأجزاء السابقة من هذا الكتاب[1].

---

١. كآيات قصة احد في سورة آل عمران، والآيات ١٠٥ ـ ١٢٦ من سورة النساء.

فكان من الممكن أن يكون تبليغ بعض الأحكام مما يوقع في الوهم انتفاع النبي ﷺ بتشريعه وإجرائه يستوجب أن يقع في قلوبهم أنه ملك في صورة النبوة وقانون ملكي في هيئة الدين كما ربما وجد بعض شواهد ذلك في مطاوي كلمات بعضهم[١].

وهذه شبهة لو كانت وقعت هي أو ما يماثلها في قلوبهم ألقت الى الدين من الفساد والضيعة ما لا يدفعه أي قوة دافعة. ولا يصلحه أي تدبير مصلح فليس هذا الحكم النازل المأمور بتبليغه إلا حكماً فيه توهم انتفاع للنبي ﷺ. واختصاص له بمزية من المزايا الحيوية لا يشاركه فيها غيره من سائر المسلمين، نظير ما في قصة زيد وتعدد الأزواج والاختصاص بخمس الغنائم ونظائر ذلك.

غير أن الخصائص اذا كانت مما لا تمس فيه عامة المسلمين لم يكن من طبعها إثارة الشبهة في القلوب فإن الازدواج بزوجة المدعو ابناً مثلا لم يكن يختص به والازدواج بأكثر من أربع نسوة لو كان تجويزه لنفسه عن هوى بغير إذن الله سبحانه لم يكن يمنعه أن يجوّز مثل ذلك لسائر المسلمين، وسيرته في إيثار المسلمين على نفسه في ما كان يأخذه لله ولنفسه من الأموال ونظائر هذه الامور لا تدع ريباً لمرتاب ولا يشتبه أمرها لمشتبه دون أن تزول الشبهة.

فقد ظهر من جميع ما تقدم أن الآية تكشف عن حكم نازل فيه شوب انتفاع للنبي ﷺ، واختصاصه بمزية حيوية مطلوبة لغيره أيضاً يوجب تبليغه والعمل به حرمان الناس عنه فكان النبي ﷺ يخاف إظهاره فأمره الله بتبليغه وشدد فيه. ووعده العصمة من الناس وعدم هدايتهم في كيدهم إن كادوا فيه.

وهذا يؤيد ما وردت به النصوص من طرق الفريقين أن الآية نزلت في أمر ولاية علي عليه السلام، وان الله أمر بتبليغها وكان النبي ﷺ يخاف أن يتهموه في ابن عمه، ويؤخر تبليغها وقتاً الى

---

١. كما يذكر عن أبي سفيان في كلمات قالها في مجلس عثمان حينما تم له أمر الخلافة.

وقت حتى نزلت الآية فبلغها بغدير خم، وقال فيه: من كنت مولاه فهذا علي مولاه.

وكون ولاية امر الامة مما لا غنى للدين عنه ظاهر لا ستر عليه، وكيف يسوغ لمتوهم أن يتوهم أن الدين الذي يقرر بسعته لعامة البشر في عامة الأعصار والأقطار جميع ما يتعلق بالمعارف الأصلية، والاصول الخلقية، والأحكام الفرعية العامة لجميع حركات الانسان وسكناته، فرادى ومجتمعين على خلاف جميع القوانين العامة لا يحتاج الى حافظ يحفظه حق الحفظ؟ أو ان الامة الإسلامية والمجتمع الديني مستثنى من بين جميع المجتمعات الإنسانية مستغنية عن وال يتولى أمرها ومدبر يدبرها ومجر يجريها؟ وبأي عذر يمكن أن يعتذر الى الباحث عن سيرة النبي الاجتماعية؟ حيث يرى أنه ﷺ كان اذا خرج الى غزوة خلف مكانه رجلاً يدير رحى المجتمع، وقد خلف علياً مكانه على المدينة عند مسيره الى تبوك فقال: يا رسول الله أتخلفني على النساء والصبيان؟ فقال ﷺ: اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا انه لا نبي بعدي؟

وكان ﷺ ينصب الولاة الحكام في ما بيد المسلمين من البلاد كمكة والطائف واليمن وغيرها، ويؤمّر رجالاً على السرايا والجيوش التي يبعثها الى الأطراف، وأي فرق بين زمان حياته وما بعد مماته دون أن الحاجة الى ذلك بعد غيبته بالموت أشد، والضرورة اليه أمسّ ثم أمسّ.

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل اليك من ربك ﴾ خاطبه ﷺ بالرسالة لكونها أنسب الصفات الى ما تتضمنه الآية من الأمر بالتبليغ لحكم الله النازل فهو كالبرهان على وجوب التبليغ الذي تظهره الآية وتقرعه سمع رسول الله ﷺ فإن الرسول لا شأن له إلا تبليغ ما حمل من الرسالة فتحمل الرسالة يفرض عليه القيام بالتبليغ.

ولم يصرح باسم هذا الذي أُنزل اليه من ربه بل عبر عنه بالنعت وأنه شيء أُنزل اليه، إشعاراً بتعظيمه ودلالة على أنه أمر ليس فيه لرسول الله ﷺ صنع، ولا له من أمره شيء

ليكون كبرهان آخر على عدم خيرة منه ﷺ في كتمانه وتأخيره تبليغه، ويكون له عذراً في إظهاره على الناس، وتلويحاً الى أنه ﷺ مصيب في ما تفرسه منهم وتخوف عليه، وإيماء الى أنه مما يجب أن يظهر من ناحيته ﷺ وبلسانه وبيانه.

قوله تعالى: ﴿ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ المراد بقوله «رسالته» وقرىء «رسالاته» كما تقدم مجموع رسالات الله سبحانه التي حملها رسوله ﷺ، وقد تقدم أن الكلام يفيد أهمية هذا الحكم المرموز اليه، وأن له من المكانة ما لو يبلغه كان كأن لم يبلغ شيئاً من الرسالات التي حملها.

فالكلام موضوع في صورة التهديد، وحقيقته بيان أهمية الحكم، وأنه بحيث لو لم يصل الى الناس، ولم يراع حقه كان كأن لم يراع حق شيء من أجزاء الدين فقوله «وإن لم تفعل فما بلغت» جملة شرطية سيقت لبيان أهمية الشرط وجوداً وعدماً لترتب الجزاء الأهم عليه وجوداً وعدماً.

وليست شرطية مسوقة على طبع الشرطيات الدائرة عندنا فإنا نستعمل «إن» الشرطية طبعاً فيما نجهل تحقق الجزاء للجهل بتحقق الشرط، وحاشا ساحة النبي ﷺ من أن يقدر القرآن في حقه احتمال ان يبلغ الحكم النازل عليه من ربه وأن لا يبلغ، وقد قال تعالى: ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ (الأنعام / ١٢٤).

فالجملة أعني قوله: «وإن لم تفعل فما بلغت» الخ؛ إنما تفيد التهديد بظاهرها وتفيد إعلامه ﷺ وإعلام غيره ما لهذا الحكم من الأهمية، وأن الرسول معذور في تبليغه.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ قال الراغب: العصم (بالفتح فالسكون) الإمساك والاعتصام الاستمساك ـ الى أن قال ـ والعصام (بالكسر) ما يعتصم به أي يشد، وعصمة الأنبياء حفظه إياهم أولاً بما خصهم به من صفاء الجوهر، ثم بما أولاهم من الفضائل الجسمية والنفسية، ثم بالنصرة وبتثبيت أقدامهم، ثم

بإنزال السكينة عليهم وبحفظ قلوبهم وبالتوفيق قال تعالى: « والله يعصمك من الناس ».

والعصمة شبه السوار، والمعصم موضعها من اليد، وقيل للبياض بالرسغ عصمة تشبيهاً، وذلك كتسمية البياض بالرجل تحجيلاً، وعلى هذا قيل: غراب أعصم، انتهى.

وما ذكره من معنى عصمة الأنبياء حسن لا بأس به غير أنه لا ينطبق على الآية « والله يعصمك من الناس » بل لو انطبق فإنما ينطبق على مثل قوله: ﴿ وما يغرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ (النساء / ١١٣).

وأما قوله: « والله يعصمك من الناس » فإن ظاهره أنها عصمة بمعنى الحفظ والوقاية من شر الناس المتوجه الى نفس النبي الشريفة أو مقاصده الدينية أو نجاح تبليغه وفلاح سعيه، وبالجملة المعنى المناسب لساحته المقدسة.

وكيف كان فالمتحصل من موارد استعمال الكلمة أنها بمعنى الإمساك والقبض فاستعماله في معنى الحفظ من قبيل استعارة اللازم لملزومه فإن الحفظ يلزمه القبض.

وكان تعليق العصمة بالناس من دون بيان أن العصمة من أي شأن من شؤون الناس كتعدياتهم بالايذاء في الجسم من قتل أو سم أو أي اغتيال، أو بالقول كالسب والافتراء، أو بغير ذلك كتقليب الامور بنوع من المكر والخديعة والمكيدة وبالجملة السكوت عن تشخيص ما يعصم منه لإفادة نوع من التعميم، ولكن الذي لا يعدو عنه السياق هو شرهم الذي يوجب انقلاب الأمر على النبي ﷺ بحيث يسقط بذلك ما رفعه من أعلام الدين.

والناس مطلق من وجد فيه معنى الإنسانية من دون أن يعتبر شيء من خصوصياته الطبيعية التكوينية كالذكورة والإنوثة أو غير الطبيعية كالعلم والفضل والغنى وغير ذلك. ولذلك قل ما ينطبق على غير الجماعة، ولذلك أيضاً ربما دل على الفضلاء من الإنسان اذا كان الفضل روعي فيه وجود معنى الانسانية كقوله تعالى: « اذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس » أي

الذين وجد فيهم معنى الإنسانية ، وهو ملاك درك الحق وتمييزه من الباطل .

وربما كان دالاً على نوع من الخسة وسقوط الحال ، وذلك اذا كان الأمر الذي يتكلم فيه مما يحتاج الى اعتبار شيء من الفضائل الانسانية التي اعتبرت زائدة على أصل معنى النوع كقوله ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (الروم / ٣٠) وكقولك : لا تثق بمواعيد الناس ، ولا تستظهر بسوادهم نظراً منك الى أن الوثوق والاستظهار يجب أن يتعلقا بالفضلاء من الانسان ذوي ملكة الوفاء بالعهد والثبات على العزيمة لا على من ليس له إلا مجرد صدق اسم الانسانية ، وربما لم يفد شيئاً من مدح أو ذم اذا تعلق الغرض بما لا يزيد على أصل معنى الإنسانية كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (الحجرات / ١٣) .

ولعل قوله : « والله يعصمك من الناس » أُخذ فيه لفظ الناس اعتباراً بسواد الأفراد الذي فيه المؤمن والمنافق والذي في قلبه مرض ، وقد اختلطوا من دون تمايز ، فاذا خيف خيف من عامته ، وربما أشعر به قول « إن الله لا يهدي القوم الكافرين » فإن الجملة في مقام التعليل لقوله « والله يعصمك من الناس » وقد تقدم أيضاً أن الآية نزلت بعد الهجرة وظهور شوكة الاسلام ، وكان السواد الأعظم من الناس مسلمين بحسب الظاهر وإن كان فيهم المنافقون وغيرهم .

فالمراد بالقوم الكافرين قوم هم في الناس مذكوري النعت ممحوي الاسم وعد الله سبحانه أن يبطل كيدهم ويعصم رسوله ﷺ من شرهم .

والظاهر أيضاً أن يكون المراد بالكفر الكفر بآية من آيات الله وهو الحكم المراد بقوله « ما أُنزل اليك من ربك » ، كما في قوله في آية الحج : ﴿ ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ (آل عمران / ٩٧) ، وأما الكفر بمعنى الاستكبار عن أصل الشهادتين فإنه مما لا يناسب مورد الآية البتة إلا على القول بكون المراد بقوله « أُنزل اليك من ربك » مجموع رسالات الدين ، وقد عرفت عدم استقامته .

والمراد بعدم هدايته تعالى هؤلاء القوم الكافرين عدم هدايته إياهم في كيدهم ومكرهم، ومنعه الأسباب الجارية أن تنقاد لهم في سلوكهم الى ما يرومونه من الشر والفساد نظير قوله تعالى: ﴿إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (المنافقون / ٦)، وقوله تعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ (البقرة / ٢٥٨)، وقد تقدم البحث عنه في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

وأما كون المراد بعدم الهداية هو عدم الهداية الى الايمان فغير صحيح البتة لمنافاته أصل التبليغ والدعوة فلا يستقيم أن يقال: ادعهم الى الله أو الى حكم الله وأنا لا أهديهم اليه إلا في مورد إتمام الحجة محضاً.

على أن الله سبحانه قد هدى ولا يزال يهدي كثيرين من الكفار بدليل العيان، وقد قال أيضاً ﴿والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم﴾ (البقرة / ٢١٣).

فتبين أن المراد بعدم هداية الكافرين عدم تخليتهم لينالوا ما يهمون به من إبطال كلمة الحق وإطفاء نور الحكم المنزل فإن الكافرين وكذا الظالمين والفاسقين يريدون بشآمة أنفسهم وضلال رأيهم أن يبدلوا سنة الله الجارية في الخلقة وسياقة الأسباب السالكة الى مسبباتها ويغيروا مجاري الأسباب الحقة الظاهرة عن سمة عصيان رب العالمين الى غايتهم الفاسدة مقاصدهم الباطلة الله رب العالمين لن يعجزه قواهم الصورية التي لم يودعها فيهم ولم يقدرها في بناهم إلا هو.

فهم ربما تقدموا في مساعيهم أحياناً، ونالوا ما راموه أُوينات واستعلوا واستقام أمرهم برهة لكنه لا يلبث دون أن يبطل أخيراً وينقلب عليهم مكرهم ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله. وكذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الباطل فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

وعلى هذا فقوله «إن الله لا يهدي القوم الكافرين» تفسير قوله: «والله يعصمك من الناس» بالتصرف في سعة إطلاقه. ويكون المراد بالعصمة عصمته ﷺ من أن يناله الناس

بسوء دون أن ينال بغيته في تبليغ هذا الحكم وتقريره بين الامة كأن يقتلوه دون أن يبلغه أو يثوروا عليه ويقلبوا عليه الامور أو يتهموه بما يرتد به المؤمنون عن دينه، أو يكيدوا كيداً يميت هذا الحكم ويقبره بل الله يظهر كلمة الحق ويقيم الدين على ما شاء وأينما شاء ومتى ما شاء وفيمن شاء، قال تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً﴾ (النساء / ١٣٣).

وأما أخذ الآية أعني قوله: «والله يعصمك من الناس» بإطلاقه على ما فيه من السعة والشمول فمما ينافيه القرآن والمأثور من الحديث والتاريخ القطعي، وقد نال ﷺ من امته أعم من كفارهم ومؤمنيهم ومنافقيهم من المصائب والمحن وأنواع الزجر والأذى ما ليس في وسع أحد أن يتحمله إلا نفسه الشريفة، وقد قال ﷺ ـ كما في الحديث المشهور ـ ما اوذي نبي مثل ما اوذيت قط.

بحث روائي:

في تفسير العياشي عن أبي صالح، عن ابن عباس وجابر بن عبدالله قالا: أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن ينصب علياً علماً في الناس ليخبرهم بولايته فتخوف رسول الله ﷺ أن يقولوا: حابى[1] ابن عمه وأن يطعنوا[2] في ذلك عليه. قال: فأوحى الله اليه هذه الآية «يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس» فقام رسول الله ﷺ بولايته يوم غدير خم.

وفيه عن حنان بن سدير، عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما نزل جبرئيل على عهد رسول

---

١. جاءنا. خ ل.

٢. يطغوا. خ ل.

الله ﷺ في حجة الوداع بإعلان أمر علي بن أبي طالب عليه السلام « يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل اليك من ربك » الى آخر الآية . قال : فمكث النبي ﷺ ثلاثاً حتى أتى الجحفة فلم يأخذ بيده فرقاً من الناس .

فلما نزل الجحفة يوم غدير في مكان يقال له « مهيعة » فنادى : الصلاة جامعة ، فـاجتمع الناس فقال النبي ﷺ : من أولى بكم من أنفسكم ؟ فجهروا فقالوا : الله ورسوله ثم قال لهم الثانية ، فقالوا : الله ورسوله ، ثم قال لهم الثالثة ، فقالوا : الله ورسوله .

فأخذ بيد علي عليه السلام فقال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله فإنه مني وأنا منه ، وهو مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي .

وفيه عن أبي الجارود ، عن أبي جعفر عليه السلام قال : لما أنزل الله على نبيه ﷺ « يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين » قال : فأخذ رسول الله ﷺ بيد علي عليه السلام فقال : يا أيها الناس إنه لم يكن نبي من الأنبياء ممن كان قبلي إلا وقد عمر ثم دعاه فأجابه ، وأوشك أن أُدعى فاجيب ، وأنا مسؤل وأنتم مسؤولون فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت ونصحت وأديت ما عليك فجزاك الله أفضل ما جزى المرسلين ، فقال : اللهم اشهد .

ثم قال : يا معشر المسلمين ليبلغ الشاهد الغائب أُوصي من آمن بي وصدقني بولاية علي ، ألا إن ولاية علي ولايتي عهداً عهده إلي ربي وأمرني أن ابلغكوه ، ثم قال : هل سمعتم ؟ ـ ثلاث مرات يقولها ـ فقال قائل : قد سمعنا يا رسول الله .

وفي البصائر بإسناده عن الفضيل بن يسار عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » قال : هي الولاية .

أقول : وروى نزول الآية في أمر الولاية وقصة الغدير معه الكليني في الكافي بإسناده ، عن

أبي الجارود ، عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل . وروى هـذا المعنى الصـدوق في المعاني بإسناده عن محمد بن الفيض بن المختار ، عن أبيه عن ابي جعفر عليه السلام في حديث طويل ، ورواه العياشي أيضاً عن أبي الجارود في حديث طويل ، وبإسناده عـن عـمرو بـن يـزيد عـن أبي عبدالله عليه السلام مختصراً .

وعن تفسير الثعلبي قال : قال جعفر بن محمد : معنى قوله : « يا أيها الرسول بلغ ما أُنـزل عليك من ربك » في فضل علي . فلما نزلت هذه أخذ النبي صلى الله عليه وآله بيد علي فقال : من كنت مولاه فعلي مولاه .

وعنه بإسناده عن الكلبي عن ابي صالح عن ابن عباس في هذه الآية قال : نزلت في علي بن أبي طالب ، أمر الله النبي صلى الله عليه وآله أن يبلغ فيه فأخذ بيد علي فقال : من كنت مولاه فعلي مـولاه اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه .

وفي تفسير البرهان ، عن إبراهيم الثقفي بإسناده عن الخدري ، وبريدة الأسلمي ومحمد بن علي : نزلت يوم الغدير في علي .

ومن تفسير الثعلبي في معنى الآية قال : قال أبو جعفر محمد بن علي : معناه بلغ ما أُنزل اليك من ربك في علي .

وفي تفسير المنار عن تفسير الثعلبي : أن هذا القول من النبي صلى الله عليه وآله في موالاة عـلي شـاع وطار في البلاد فبلغ الحارث بن النعمان الفهري فأتى النبي صلى الله عليه وآله على ناقته ، وكان بـالأبطح فنزل وعقل ناقته ، وقال للنبي صلى الله عليه وآله ـ وهو في ملأ من أصحابه ـ : يا محمد أمرتنا مـن الله أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ؛ فقبلنا منك ـ ثم ذكر سائر أركان الاسلام ـ ثم لم ترض بهذا حتى مددت بضبعي ابن عمك ، وفضلته علينا ، وقلت : « من كنت مولاه فعلي مـولاه » فهذا منك أم من الله ؟ فقال صلى الله عليه وآله : والله الذي لا إله إلا هو هو أمر الله ، فولى الحـارث يـريد راحلته ، وهو يقول : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو

ائتنا بعذاب اليم.

فما وصل الى راحلته حتى رماه الله بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره. وأنزل الله تعالى: ﴿سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع﴾ الحديث.

أقول: قال في المنار بعد نقل هذا الحديث ما لفظه: وهذه الرواية موضوعة، وسورة المعارج هذه مكية، وما حكاه الله من قول بعض كفار قريش (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك) كان تذكيراً بقول قالوه قبل الهجرة. وهذا التذكير في سورة الأنفال، وقد نزلت بعد غزوة بدر قبل نزول المائدة ببضع سنين، وظاهر الرواية أن الحارث بن النعمان هذا كان مسلماً فارتد ولم يعرف في الصحابة. والأبطح بمكة والنبي ﷺ لم يرجع من غدير خم الى مكة بل نزل فيه منصرفه من حجة الوداع الى المدينة. انتهى.

وأنت ترى ما في كلامه من التحكم: أما قوله: [إن الرواية موضوعة، وسورة المعارج هذه مكية] فيعول في ذلك على ما في بعض الروايات عن ابن عباس وابن الزبير أن سورة المعارج نزلت بمكة. وليت شعري ما هو المرجح لهذه الرواية على تلك الرواية، والجميع آحاد؟ سلمنا أن سورة المعارج مكية كما ربما تؤيده مضامين معظم آياته فما هو الدليل على أن جميع آياتها مكية؟ فلتكن السورة مكية، والآيتان خاصة غير مكيتين كما أن سورتنا هذه أعني سورة المائدة مدنية نازلة في آخر عهد رسول الله ﷺ، وقد وضعت فيها الآية المبحوث عنها أعني قوله تعالى: «يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل اليك من ربك» الآية؛ وهو كعدة من المفسرين مصرون على أنها نزلت بمكة في أول البعثة. فاذا جاز وضع آية مكية (آية: يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل اليك) في سورة مدنية (المائدة) فليجز وضع آية مدنية (آية: سأل سائل) في سورة مكية (سورة المعارج).

وأما قوله: [وما حكاه الله من قول بعض كفار قريش] الى آخره، فهو في التحكم كسابقه؛ فهب إن سورة الأنفال نزلت قبل المائدة ببضع سنين فهل يمنع ذلك أن يوضع عند التأليف بعض

الآيات النازلة بعدها فيها كما وضعت آيات الربا وآية ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله ﴾ (البقرة / ٢٨١)، وهي آخر ما نزل على النبي ﷺ عندهم في سورة البقرة النازلة في أوائل الهجرة وقد نزلت قبلها ببضع سنين.

ثم قوله: [إن آية ﴿ وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق ﴾ الآية؛ تذكير لما قالوه قبل الهجرة] تحكم آخر من غير حجة لو لم يكن سياق الآية حجة على خلافه فإن العارف بأساليب الكلام لا يكاد يرتاب في أن هذا أعني قوله: ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ لاشتماله على قوله: ﴿ إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ بما فيه من اسم الإشارة وضمير الفصل والحق المحلى باللام وقوله: ﴿ من عندك ﴾ ليس كلام وثني مشرك يستهزىء بالحق ويسخر منه، وإنما هو كلام من أذعن بمقام الربوبية، ويرى أن الامور الحقة تتعين من لدنه، وأن الشرائع مثلاً تنزل من عنده. ثم إنه يتوقف في أمر منسوب الى الله تعالى يدّعي مدع أنه الحق لا غيره، وهو لا يتحمل ذلك ويتحرج منه فيدعو على نفسه دعاء منزجر ملول سئم الحياة.

وأما قوله: [وظاهر الرواية أن الحارث بن النعمان هذا كان مسلماً فارتد ولم يعرف في الصحابة] تحكم آخر؛ فهل يسع أحداً أن يدعي أنهم ضبطوا أسماء كل من رأى النبي ﷺ وآمن به أو آمن به فارتد؟ وإن يكن شيء من ذلك فليكن هذا الخبر من ذلك القبيل.

وأما قوله: [والأبطح بمكة والنبي ﷺ لم يرجع من غدير خم الى مكة] فهو يشهد على أنه أخذ لفظ الأبطح اسماً للمكان الخاص بمكة ولم يحمله على معناه العام وهو كل مكان ذي رمل. ولا دليل على ما حمله عليه بل الدليل على خلافه وهو القصة المسرودة في الرواية وغيرها. وربما استفيد من مثل قوله:

نجوت وقد بل المرادي سيفه   من ابن أبي شيخ الأباطح طالب

أن مكة وما والاها كانت تسمى الأباطح.

قال في مراصد الاطلاع: أبطح بالفتح ثم السكون وفتح الطاء والحاء المهملة كل مسيل فيه رقاق الحصى فهو أبطح، وقال ابن دريد: الأبطح والبطحاء السهل المنبسط على وجه الأرض، وقال أبو زيد: الأبطح أثر المسيل ضيقاً كان أو واسعاً، والأبطح يضاف الى مكة والى منى لأن مسافته منهما واحدة، وربما كان الى منى أقرب وهو المحصب، وهي خيف بني كنانة، وقد قيل: إنه ذو طوى، وليس به، انتهى.

على أن الرواية بعينها رواها غير الثعلبي وليس فيه ذكر من الأبطح وهي ما يأتي من رواية المجمع من طريق الجمهور وغيرها.

وبعد هذا كله فالرواية من الآحاد، وليست من المتواترات ولا مما قامت على صحتها قرينة قطعية، وقد عرفت من أبحاثنا المتقدمة أنا لا نعول على الآحاد في غير الأحكام الفرعية على طبق الميزان العام العقلائي الذي عليه بناء الإنسان في حياته، وإنما المراد بالبحث الآنف بيان فساد ما استظهر به من الوجوه التي استنتج منها أنها موضوعة.

وفي المجمع: أخبرنا السيد أبو الحمد قال: حدثنا الحاكم أبو القاسم الحسكاني قال: أخبرنا أبو عبدالله الشيرازي قال: أخبرنا أبو بكر الجرجاني قال: أخبرنا أبو أحمد البصري قال: حدثنا محمد بن سهل قال: حدثنا زيد بن إسماعيل مولى الأنصار قال: حدثنا محمد بن أيوب الواسطي قال: حدثنا سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد الصادق عن آبائه قال: لما نصب رسول الله ﷺ علياً يوم غدير خم قال: من كنت مولاه فهذا علي مولاه، فقال (فطار، ظ) ذلك في البلاد فقدم على النبي النعمان بن الحارث الفهري فقال: أمرتنا من الله أن نشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وأمرتنا بالجهاد وبالحج وبالصوم والصلاة والزكاة فقبلنا، ثم لم ترض حتى نصبت هذا الغلام فقلت: من كنت مولاه فعلي مولاه فهذا شيء منك أو أمر من الله تعالى؟ فقال: بلى والله الذي لا إله إلا هو إن هذا من الله.

فولى النعمان بن الحارث وهو يقول: اللهم إن كانت هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا

حجارة من السماء فرماه الله بحجر على رأسه فقتله، فأنزل الله ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾.

أقول: وهذا المعنى مروي في الكافي أيضاً.

وعن كتاب نزول القرآن للحافظ أبي نعيم يرفعه الى علي بن عامر، عن أبي الحجاف، عن الأعمش، عن عطية قال: نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ في علي بن أبي طالب «يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل اليك من ربك» وقد قال الله تعالى ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾.

وعن الفصول المهمة للمالكي قال: روى الإمام أبو الحسن الواحدي في كتابه المسمى بأسباب النزول رفعه بسنده الى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية «يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل اليك من ربك» يوم غدير خم في علي ابن أبي طالب.

أقول: ورواه في فتح القدير عن ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن أبي سعيد الخدري وكذلك في الدر المنثور.

وقوله: «بغدير خم» هو بضم الخاء المعجمة وتشديد الميم مع التنوين اسم لغيطة على ثلاثة أميال من الجحفة عندها غدير مشهور يضاف الى الغيطة، هكذا ذكره الشيخ محيي الدين النووي.

وفي فتح القدير أخرج ابن مردويه عن ابن معسود قال: كنا نقرؤ على عهد رسول ﷺ: يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل اليك من ربك» إن علياً مولى المؤمنين وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس.

أقول: وهذه نبذة من الأخبار الدالة على نزوله قوله تعالى: «يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل اليك من ربك» الخ؛ في حق علي عليه السلام يوم غدير خم، وأما حديث الغدير أعني قوله ﷺ «من كنت مولاه فعلي مولاه» فهو حديث متواتر منقول من طرق الشيعة وأهل السنة بما يزيد على مائة طريق.

وقد روي عن جمع كثير من الصحابة منهم البراء بن عازب، وزيد بن أرقم، وأبو أيوب الأنصاري، وعمر بن الخطاب، وعلي بن ابي طالب، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، وبريدة، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن عباس، وأبو هريرة، وجابر بن عبدالله، وأبو سعيد الخدري، وأنس بن مالك، وعمران بن الحصين، وابن أبي أوفى، وسعدانة، وامرأة زيد بن أرقم.

وقد أجمع عليه أئمة أهل البيت ﷺ، وقد ناشد علي ﷺ الناس بالرحبة في الحديث فقام جماعة من الصحابة حضروا المجلس، فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله ﷺ يقوله يوم الغدير.

وفي كثير من هذه الروايات أن رسول الله ﷺ قال: أيها الناس ألستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى، قال: من كنت مولاه فعلي مولاه كما في عدة من الأخبار التي رواها أحمد بن حنبل في مسنده أو رواها غيره، وقد افردت لإحصاء طرقها والبحث في متنها تآليف من أهل السنة والشيعة بحثوا فيها بما لا مزيد عليه.

وعن كتاب السمطين للحمويني بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ليلة اسري بي الى السماء السابعة سمعت نداء من تحت العرش: إن علياً آية الهدى، وحبيب من يؤمن بي، بلغ علياً ﷺ، فلما نزل النبي ﷺ من السماء أُنسي ذلك فأنزل الله عز وجل «يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك فإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين».

وفي فتح القدير: أخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبدالله قال: لما غزا رسول الله ﷺ بني أنمار نزل ذات الرقيع بأعلى نخل فبينما هو جالس على رأس بئر قد دلى رجليه فقال الوارث من بني النجار: لأقتلن محمداً، فقال له أصحابه: كيف تقتله؟ قال: أقول له: أعطني سيفك فاذا أعطانيه قتلته به. فأتاه فقال: يا محمد أعطني سيفك أشمه فأعطاه إياه فرعدت يده حتى سقط السيف من يده فقال رسول الله ﷺ: حال الله بينك وبين ما تريد. فأنزل الله سبحانه «يا أيها

الرسول بلغ ما انزل إليك » الآية .

أقول: ثم ذكر في فتح القدير أن ابن حبان أخرجه في صحيحه وأخرجه أيضاً ابن مردويه عن أبي هريرة نحو هذه القصة ولم يسم الرجل، وأخرج ابن جرير من حديث محمد بن كعب القرظي نحوه، وقصة غورث بن الحارث ثابتة في اصحيح، وهي معروفة مشهورة (انتهى)، ولكن الشأن تطبيق القصة على المحصل من معنى الآية، ولن تنطبق أبداً.

وفي الدر المنثور وفتح القدير وغيرهما عن ابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ سئل: أي آية انزلت من السماء أشد عليك؟ فقال: كنت بمنى أيام موسم فاجتمع مشركوا العرب وأفناء الناس في الموسم فانزل علي جبريل فقال «يا أيها الرسول بلغ ما انزل إليك» الآية.

قال: فقمت عند العقبة فناديت: يا أيها الناس من ينصرني على أن ابلغ رسالة ربي وله الجنة؟ أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله وأنا رسول الله إليكم تفلحوا وتنجحوا ولكم الجنة.

قال: فما بقي رجل ولا امرأة ولا صبي إلا يرمون بالتراب والحجارة، ويبزقون في وجهي ويقولون: كذاب صابىء فعرض علي عارض فقال: يا محمد إن كنت رسول الله فقد آن لك أن تدعو عليهم كما دعا نوح على قومه بالهلاك. فقال النبي ﷺ: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون.

فجاء العباس عمه فأنقذهم منه وجردهم عنه.

أقول: الآية بتمامها لا ينطبق على هذه القصة على ما عرفت تفصيل القول فيه.

اللهم إلا أن تحمل الرواية على نزول قطعة من الآية ـ وهي قوله: «يا أيها الرسول بلغ ما انزل إليك من ربك» ـ في ذلك اليوم، وظاهر الرواية يأباه، ونظيرها ما يأتي.

وفي الدر المنثور وفتح القدير: أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال: لما نزلت «بلغ ما انزل اليك من ربك» قال: يا رب إنما أنا واحد كيف أصنع؟

يجتمع علي اناس فنزلت «وإن لم تفعل فما بلغت رسالته».

وفيها عن الحسن: أن رسول الله ﷺ قال: إن الله بعثني برسالته فضقت بها ذرعاً، وعرفت أن الناس مكذبي فوعدني لابلغن أو ليعذبني فأنزل «يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك».

أقول: الروايتان على ما فيها من القطع والإرسال فيهما ما في سابقتهما. ونظيرتهما في هذا التشويش بعض ما ورد في أن رسول الله ﷺ كان يحترس برجال فلما نزلت الآية فرقهم وقال ﷺ: إن ربي وعدني أن يعصمني.

وفي تفسير المنار: روى أهل التفسير المأثور والترمذي وأبو الشيخ والحاكم وأبو نعيم والبيهقي والطبراني عن بضعة رجال من الصحابة: أن النبي ﷺ كان يحرس في مكة قبل نزول هذه الآية فلما نزلت ترك الحرس، وكان أبوطالب أول الناس اهتماماً بحراسته، وحرسه العباس أيضاً.

وفيه: ومما روي في ذلك عن جابر وابن عباس أن النبي ﷺ كان يحرس، وكان يرسل معه عمه أبوطالب كل يوم رجالاً من بني هاشم حتى نزلت الآية فقال: يا عم إن الله قد عصمني لا حاجة لي الى من يبعث.

اقول: والروايتان ـ كما ترى ـ تدلان على ان الآية نزلت في أواسط إقامة النبي ﷺ بمكة وانه ﷺ بلغ رسالته زماناً واشتد عليه أمر إيذاء الناس وتكذيبهم حتى خاف على نفسه منهم فترك التبليغ والدعوة فامر ثانياً بالتبليغ، وهدّد من جانب الله سبحانه، ووعد بالعصمة، فاشتغل ثانياً بما كان يشتغل به اولاً، وهذا شيء يجل عنه ساحة النبي ﷺ.

وفي الدر المنثور وفتح القدير: أخرج عبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن عائشة قالت: كان رسول الله يحرس حتى نزلت «والله يعصمك من الناس» فأخرج رأسه من القبة

فقال: أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله.

اقول: والرواية - كما ترى - ظاهرة في نزولها بالمدينة.

وفي تفسير الطبري عن ابن عباس في قوله: «وإن لم تفعل فما بلغت رسالته» يعني إن كتمت آية انزل اليك لم تبلغ رسالته.

اقول: إن كان المراد به آية معينة أي حكم معين مما أُنزل الى النبي ﷺ فله وجه صحة، وإن كان المراد به التهديد في أي آية فرضت أو حكم قدر فقد عرفت فيما تقدم أن الآية لا تلائمه بمضمونها.

٦٨ ● قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلىٰ شَيْءٍ حَتّىٰ تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ.

٦٩ ● إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصّابِئُونَ وَالنَّصارىٰ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ.

٧٠ ● لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَأَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ.

٧١ ● وَحَسِبُوا أَلّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تابَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللّٰهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ.

٧٢ ❁ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ.

٧٣ ❁ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

٧٤ ❁ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

٧٥ ❁ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ.

٧٦ ❁ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

٧٧ ❁ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ.

٧٨ ❁ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ.

٧٩ ❁ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ.

٨٠ ● تَرىٰ كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مٰا قَدَّمَتْ لَهُمْ
أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذٰابِ هُمْ خٰالِدُونَ.
٨١ ● وَلَوْ كٰانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَالنَّبِيِّ وَمٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مٰا اتَّخَذُوهُمْ
أَوْلِيٰاءَ وَلٰكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فٰاسِقُونَ.
٨٢ ● لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النّٰاسِ عَدٰاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ
أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قٰالُوا إِنّٰا
نَصٰارىٰ ذٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبٰاناً وَأَنَّهُمْ لاٰ
يَسْتَكْبِرُونَ.
٨٣ ● وَإِذٰا سَمِعُوا مٰا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ
الدَّمْعِ مِمّٰا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنٰا آمَنّٰا فَاكْتُبْنٰا مَعَ
الشّٰاهِدِينَ.
٨٤ ● وَمٰا لَنٰا لاٰ نُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَمٰا جٰاءَنٰا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنٰا
رَبُّنٰا مَعَ الْقَوْمِ الصّٰالِحِينَ.
٨٥ ● فَأَثٰابَهُمُ اللّٰهُ بِمٰا قٰالُوا جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ
خٰالِدِينَ فِيهٰا وَذٰلِكَ جَزٰاءُ الْمُحْسِنِينَ.
٨٦ ● وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ الْجَحِيمِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قُلْ يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ لَسْتُمْ عَلىٰ شَيْءٍ حَتّٰى تُقِيمُوا التَّوْرٰاةَ

وَالْإِنْجِيلَ ﴾ الى آخر الآية: الإنسان يجد من نفسه خلال أعماله أنه اذا أراد إعمال قوة وشدة فيما يحتاج الى ذلك، وجب أن يعتمد على مستوى يستوي عليه أو يتصل به كمن أرد أن يجذب أو يدفع أو يحمل أو يقيم شيئاً ثقيلاً فإنه يثبت قدميه على الأرض أولاً ثم يصنع ما شاء لما يعلم أن لولا ذلك لم يتيسر له ما يريد. وقد بحث عنه في العلوم المربوطة به.

واذا أجرينا هذا المعنى في الامور المعنوية كأفعال الانسان الروحية أو ما يتعلق من أفعال الجوارح بالامور النفسية كان ذلك منتجاً أن صدور مهام الأفعال وعظائم الأعمال يتوقف على أُس معنوي ومبنى قوي نفسي كتوقف جلائل الامور على الصبر والثبات وعلو الهمة وقوة العزيمة وتوقف النجاح في العبودية على حق التقوى والورع عن محارم الله.

ومن هنا يظهر أن قوله تعالى: «لستم على شيء» كناية عن عدم اعتمادهم على شيء يثبت عليه أقدامهم فيقدروا بذلك على إقامة التوراة والإنجيل وما أُنزل اليهم من ربهم تلويحاً الى أن دين الله وحكمه لها من الثقل ما لا يتيسر حمله للإنسان حتى يعتمد على أساس ثابت ولا يمكنه إقامته بمجرد هوى من نفسه كما يشير تعالى الى ذلك بالنسبة الى القرآن الكريم بقوله ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ (المزمل / ٥)، وقوله: ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ (الحشر / ٢١)، وقوله: ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ﴾ الآية (الأحزاب / ٧٢).

وقال في أمر التوراة خطاباً لموسى عليه السلام ﴿ فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ (الأعراف / ١٤٥)، وقال خطاباً لبني إسرائيل ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ (البقرة / ٦٣) وقال خطاباً ليحيى عليه السلام ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ (مريم / ١٢).

فيعود المعنى الى أنكم فاقدوا العماد الذي يجب عليكم أن تعتمدوا عليه في إقامة دين الله الذي أنزله اليكم في كتبه وهو التقوى والإنابة الى الله بالرجوع اليه مرة بعد اخرى والاتصال

به والإيواء الى ركنه بل مستكبرون عن طاعته ومتعدون حدوده.

ويظهر هذا المعنى من قوله تعالى خطاباً لنبيه والمؤمنين: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى﴾ فجمع الدين كله فيما ذكره، ثم قال: ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ فبين أن ذلك كله يرجع الى إقامة الدين كلمة واحدة من غير تفرق ثم قال: ﴿كبر على المشركين ما تدعوهم اليه﴾ وذلك لكبر الاتفاق والاستقامة في اتباع الدين عليهم، ثم قال: ﴿الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي الية من ينيب﴾ فأنبأ أن إقامة الدين لا يتيسر إلا بهداية من الله، ولا يصلح لها إلا المتصف بالإنابة التي هي الاتصال بالله وعدم الانقطاع عنه بالرجوع اليه مرة بعد اخرى، ثم قال: ﴿وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ فذكر أن السبب في تفرقهم وعدم إقامتهم للدين هو بغيهم وتعديهم عن الوسط العدل المضروب لهم (الشورى / ١٤).

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾ فقد تقدم البحث عن معناه، وقوله: «فلا تأس على القوم الكافرين» تسلية منه تعالى لنبيه ﷺ في صورة النهي عن الأسى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ﴾ الآية ظاهرها أن الصابئون عطف على «الذين آمنوا» بحسب موضعه وجماعة من النحويين يمنعون العطف على اسم إن بالرفع قبل مضي الخبر، والآية حجة عليهم.

والآية في مقام بيان أن لا عبرة في باب السعادة بالأسماء والألقاب كتسمي جمع بالمؤمنين وفرقة بالذين هادوا، وطائفة بالصابئين وآخرين بالنصارى، وإنما العبرة بالايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، وقد تقدم البحث عن معنى الآية في تفسير سورة البقرة الآية الـ ٦٢ في الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً﴾ الى آخر

الآية: هذه الآية وما بعدها الى عدة آيات تتعرض لحال أهل الكتاب كالحجة على ما يشتمل عليه قوله تعالى: «قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل» الخ: فإن هذه الجرائم والآثام لا تدع للانسان اتصالاً بربه حتى يقيم كتب الله معتمداً عليه.

ويمكن أن يكون هذه الآيات كالمبينة لقوله «إن الذين آمنوا والذين هادوا» الخ: وهو كالمبين لقوله: «يا أهل الكتاب لستم على شيء» الآية؛ والمعنى ظاهر.

وقوله: «فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون» الظاهر أن كلمتي «فريقاً» في الموضعين مفعولان للفعلين بعدهما قدما عليهما للعناية بأمرهما. والتقدير: كذبوا فريقاً ويقتلون فريقاً. والمجموع جواب قوله: «كلما جاءهم» الخ: والمعنى نحو من قولنا: كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم أساؤوا مواجهته وإجابته وجعلوا الرسل الآيتين فريقين: فريقاً كذبوا وفريقاً تقتلون.

قال في المجمع: فإن قيل: لم عطف المستقبل على الماضي يعني في قوله: «ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون»؟ فجوابه: ليدل على أن ذلك من شأنهم ففيه معنى كذبوا وقتلوا ويكذبون ويقتلون مع أن قوله: «يقتلون» فاصلة يجب أن يكون موافقاً لرؤس الآي. انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوا أَنْ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ الخ: متمم للكلام في الآية السابقة. والحسبان هو الظن. والفتنة هي المحنة التي تغرّ الإنسان أو هي أعم من كل شر وبلية. والعمى هو عدم إبصار الحق وعدم تمييز الخير من الشر. والصمم عدم سماع العظة وعدم الإعباء بالنصيحة. وهذا العمى والصمم معلولاً حسبانهم أن لا تكون فتنة. والظاهر أن حسبانهم ذلك معلول ما قدروا لأنفسهم من الكرامة بكونهم من شعب إسرائيل وأنهم أبناء الله وأحباؤه فلا يمسهم السوء وإن فعلوا ما فعلوا وارتكبوا ما ارتكبوا.

فمعنى الآية ـ والله أعلم ـ أنهم لمكان ما اعتقدوا لأنفسهم من كرامة التهود ظنوا أن لا يصيبهم سوء أو لا يفتنون بما فعلوا فأعمى ذلك الظن والحسبان أبصارهم عن إبصار الحق، وأصم ذلك آذانهم عن سماع ما ينفعهم من دعوة أنبيائهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ التوبة من الله على عباده رجوعه تعالى بالرحمة اليهم، وهذا يدل على أن الله سبحانه قد كان بعدهم من رحمته وعنايته ولذلك أخذهم الحسبان المذكور ولزمهم العمى والصمم. لكن الله سبحانه رجع اليهم ثانية بالتوبة فرفع هذا الحسبان عن قلوبهم، والعمى والصمم عن أبصارهم وآذانهم، فعرفوا أنفسهم بأنهم عباد لا كرامة لهم على الله إلا بالتقوى، وأبصروا الحق وسمعوا عظة الله لهم بلسان أنبيائه فتبين لهم أن التسمي لا ينفع شيئاً.

ثم عموا وصموا كثير منهم، وإسناد العمي والصمم الى جمعهم أولاً ثم الى كثير منهم ـ بإتيان كثير منهم بدلاً من واو الجمع ـ أخذٌ بالنصفة في الكلام بالدلالة على أن إسناد العمى والصمم الى جمعهم من قبيل إسناد حكم البعض الى الكل، والواقع أن المتصف بهاتين الصفتين كثير منهم لا كلهم أولاً، وإيماء الى أن العمي والصمم المذكورين أولاً شملا جميعهم على ما يدل عليه المقابلة ثانياً، وأن التوبة الإلهية لم يبطل أثرها ولم تذهب سدى بالمرة بل نجا بالتوبة بعضهم فلم يأخذهم العمى والصمم اللاحقان أخيراً ثالثاً.

ثم ختم تعالى الآية بقوله «والله بصير بما يعملون» للدلالة على أن الله تعالى لا يغفله شيء، فغيره تعالى اذا أكرم قوماً بكرامة ضرب ذلك على بصره بحجاب يمنعه أن يرى منهم السوء والمكروه، وليس الله سبحانه على هذا النعت بل هو البصير لا يحجبه شيء عن شيء.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ﴾ وهذا كالبيان لكون النصارى لم تنفعهم النصرانية والانتساب الى المسيح عليه السلام عن تعلق الكفر بهم اذا أشركوا بالله ولم يؤمنوا به حق إيمانه حيث قالوا: إن الله هو المسيح بن مريم.

والنصارى وإن اختلفوا في كيفية اشتمال المسيح بن مريم على جوهرة الالوهية بين قائل باشتقاق اقنوم المسيح وهو العلم من اقنوم الرب (تعالى) وهو الحياة، وذلك الابوة والبنوة،

وقائل بأنه تعالى صار هو المسيح على نحو الانقلاب، وقائل بأنه حل فيه كما تقدم بيان ذلك تفصيلاً في الكلام على عيسى بن مريم عليه السلام في تفسير سورة آل عمران في الجزء الثالث من الكتاب.

لكن الأقوال الثلاثة جميعاً تقبل الانطباق على هذه الكلمة (إن الله المسيح ابن مريم) فالظاهر أن المراد بالذين تفوهوا بهذه الكلمة جميع النصارى الغالين في المسيح عليه السلام لا خصوص القائلين منهم بالانقلاب.

وتوصيف المسيح بابن مريم لا يخلو من دلالة أو إشعار بسبب كفرهم وهو نسبة الالوهية الى انسان ابن انسان مخلوقين من تراب، وأين التراب ورب الأرباب؟!

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ الى آخر الآية: احتجاج على كفرهم وبطلان قولهم بقول المسيح عليه السلام نفسه؛ فإن قوله عليه السلام: «اعبدوا الله ربي وربكم» يدل على أنه عبد مربوب مثلهم، وقوله: «إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة» يدل على أن من يجعل لله شريكاً في الوهيته فهو مشرك كافر محرم عليه الجنة.

وفي قوله تعالى حكاية عنه عليه السلام: «فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار» عناية بإبطال ما ينسبونه الى المسيح من حديث التفدية. وأنه عليه السلام باختياره الصلب فدى بنفسه عنهم فهم مغفور لهم مرفوع عنهم التكاليف الإلهية ومصيرهم الى الجنة ولا يمسون ناراً كما تقدم نقل ذلك عنهم في تفسير سورة آل عمران في قصة عيسى عليه السلام فقصة التفدية والصلب إنما سيقت لهذا الغرض.

وما تحكيه الآية من قوله عليه السلام موجود في متفرقات الأبواب من الأناجيل كالأمر

بالتوحيد[١]، وإبطال عبادة المشرك[٢]، والحكم بخلود الظالمين في النار[٣].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ أي أحد الثلاثة: الأب والابن والروح. أي هو ينطبق على كل واحد من الثلاثة. وهذا لازم قولهم: إن الأب إله، والابن إله، والروح إله، وهو ثلاثة، وهو واحد يضاهئون بذلك نظير قولنا: إن زيد بن عمرو إنسان، فهناك امور ثلاثة هي: زيد وابن عمرو والإنسان، وهناك أمر واحد وهو المنعوت بهذه النعوت، وقد غفلوا عن أن هذه الكثرة إن كانت حقيقية غير اعتبارية أوجبت الكثرة في المنعوت حقيقة، وأن المنعوت إن كان واحداً حقيقة أوجب ذلك أن تكون الكثرة اعتبارية غير حقيقية فالجمع بين هذه الكثرة العددية والوحدة العددية في زيد المنعوت بحسب الحقيقة مما يستنكف العقل عن تعقله.

ولذا ربما ذكر بعض الدعاة من النصارى أن مسألة التثليث من المسائل المأثورة من مذاهب الأسلاف التي لا تقبل الحل بحسب الموازين العلمية، ولم يتنبه أن عليه أن يطالب الدليل على كل دعوى يقرع سمعه سواء كان من دعاوي الأسلاف أو من دعاوي الأخلاف.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ الى آخر الآية؛ رد منه تعالى لقولهم «إن الله ثالث ثلاثة» بأن الله سبحانه لا يقبل بذاته المتعالية الكثرة بوجه من الوجوه فهو تعالى في ذاته واحد، واذا اتصف بصفاته الكريمة وأسمائه الحسنى لم يزد ذلك على ذاته الواحدة شيئاً، ولا الصفة اذا أُضيفت الى الصفة أورث ذلك كثرة وتعدداً فهو تعالى احدى الذات لا ينقسم لا في خارج ولا في وهم ولا في عقل.

فليس الله سبحانه بحث يتجزؤ في ذاته الى شيء وشيء قط، ولا أن ذاته بحيث يجوز أن

---

١. الاصحاح ١٢: ٢٩ (انجيل مرقس).

٢. الاصحاح ٦: ٢٤ (انجيل متى).

٣. الاصحاح ١٣: ٥٠، ٢٥: ٣١ـ٤٧ (انجيل متى ايضاً).

يضاف اليه شيء فيصير اثنين أو أكثر. كيف؟ وهو تعالى مع هذا الشيء الذي تراد إضافته اليه تعالى في وهم أو فرض أو خارج.

فهو تعالى واحد في ذاته لكن لا بالوحدة العددية التي لسائر الأشياء المتكون منها الكثرات، ولا منعوت بكثرة في ذات أو اسم، أو صفة. كيف؟ وهذه الوحدة العددية والكثرة المتألفة منها كلتاهما من آثار صنعه وإيجاده فكيف يتصف بما هو من صنعه؟

وفي قوله تعالى: «وما من إله إلا إله واحد» من التأكيد في إثبات التوحيد ما ليس في غيره حيث سيق الكلام بنحو النفي والاستثناء، ثم أُدخل «من» على النفي لإفادة تأكيد الاستغراق، ثم جيء بالمستثنى وهو قوله: «إله واحد» بالتنكير المفيد للتنويع ولو أُورد معرفة كقولنا «إلا الإله الواحد» لم يفد ما يرام من حقيقة التوحيد.

فالمعنى: ليس في الوجود شيء من جنس الإله أصلاً إلا إله واحد نوعاً من الوحدة لا يقبل التعدد أصلاً لا تعدد الذات ولا تعدد الصفات. لا خارجاً ولا فرضاً، ولو قيل: وما من إله إلا الله الواحد لم يدفع به قول النصارى (إن الله ثالث ثلاثة) فإنهم لا ينكرون الوحدة فيه تعالى، وإنما يقولون: إنه ذات واحدة لها تعين بصفاتها الثلاث، وهي واحدة في عين أنها كثيرة حقيقة.

ولا يندفع ما احتملوه من المعنى إلا بإثبات وحدة لا تتألف منه كثرة أصلاً، وهو الذي يتوخاه القرآن الكريم بقوله «وما من إله إلا إله واحد».

وهذا من لطائف المعاني التي يلوح اليها الكتاب الإلهي في حقيقة معنى التوحيد وسنغور في البحث المستوفى عنه في بحث قرآني خاص ثم في بحث عقلي وآخر نقلي إيفاء لحقه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تهديد لهم بالعذاب الأليم الاخروي الذي هو ظاهر الآية الكريمة.

ولما كان القول بالتثليث الذي تتضمنه كلمة «إن الله ثالث ثلاثة» ليس في وسع عقول

عامة الناس أن تتعقله فأغلب النصارى يتلقونه قولاً مذهبياً مسلماً بلفظه من غير أن يعقلوا معناه، ولا أن يطمعوا في تعقله كما ليس في وسع العقل السليم أن يعقله عقلاً صحيحاً. وإنما يتعقل كتعقل الفروض المحالة كالانسان اللاإنسان، والعدد الذي ليس بواحد ولا كثير ولا زوج ولا فرد فلذلك تتسلمه العامة تسلماً من غير بحث عن معناه. وإنما يعتقدون في النبوة والابوة شبه معنى التشريف فهؤلاء في الحقيقة ليسوا من أهل التثليث، وإنما يمضغون الكلمة مضغاً، وينتمون اليها انتماء بخلاف غير العامة منهم وهم الذين ينسب الله سبحانه اليهم اختلاف المذاهب ويقرر أن ذلك ببغيهم كما قال تعالى: ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ـ الى أن قال ـ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ (الشورى / ١٤).

فالكفر الحقيقي الذي لا ينتهي الى استضعاف ـ وهو الذي فيه إنكار التوحيد والتكذيب بآيات الله ـ إنما يتم في بعضهم دون كلهم، وإنما أوعد الله بالنار الخالد الذين كفروا وكذبوا بآيات الله. قال ﴿والذين كفروا وكذبوا بآيات الله اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ (البقرة / ٣٩) الى غير ذلك من الآيات، وقد مر الكلام في ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿إلا المستضعفين﴾ الآية (النساء / ٩٨).

ولعل هذا هو السر في التبعيض الظاهر في قوله: «ليمسن الذين كفروا منهم» أو أن المراد به الإشارة الى أن من النصارى من لا يقول بالتثليث، ولا يعتقد في المسيح إلا أنه عبد الله ورسوله، كما كانت على ذلك مسيحيوا الحبشة وغيرها على ما ضبطه التاريخ فالمعنى: لئن لم ينته النصارى عما يقولون (نسبة قول بعض الجماعة الى جميعهم) ليمسن الذين كفروا منهم ـ وهم القائلون بالتثليث منهم ـ عذاب أليم.

وربما وجهوا الكلام أعني قوله: «ليمسن الذين كفروا منهم» بأنه من قبيل وضع الظاهر موضع المضمر، والأصل: ليمسنهم (انتهى)، وإنما عدل الى وضع الموصول وصلته مكانه ليدل على أن ذلك القول كفر بالله، وأن الكفر سبب العذاب الذي توعدهم به.

وهذا وجه لا بأس به لولا أن الآية مصدرة بقوله «لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة» ونظيره في البعد قول بعض آخر: إن «من» في قوله: «منهم» بيانية فإنه قول من غير دليل.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تحضيض على التوبة والاستغفار، وتذكير بمغفرة الله ورحمته، أو إنكار أو توبيخ.

قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ رد لقولهم «إن الله ثالث ثلاثة» أو لقولهم هذا وقولهم المحكي في الآية السابقة «إن الله هو المسيح بن مريم» جميعاً، ومحصله اشتمال المسيح على جوهرة الالوهية، بأن المسيح لا يفارق سائر رسل الله الذين توفاهم الله من قبله كانوا بشراً مرسلين من غير أن يكونوا أرباباً من دون الله سبحانه، وكذلك أُمه مريم كانت صديقة تصدق بآيات الله تعالى وهي بشر، وقد كان هو وأُمه جميعاً يأكلان الطعام، وأكل الطعام مع ما يتعقبه مبني على أساس الحاجة التي هو أول إمارة من إمارات الإمكان والمصنوعية فقد كان المسيح عليه السلام ممكناً متولداً من ممكن، وعبداً ورسولاً مخلوقاً من امه كانا يعبدان الله، ويجريان في سبيل الحاجة والافتقار من دون أن يكون رباً.

وما بيد القوم من كتب الإنجيل معترفة بذلك تصرح بكون مريم فتاة كانت تؤمن بالله وتعبده، وتصرح بأن عيسى تولد منها كالانسان من الإنسان، وتصرح بأن عيسى كان رسولاً من الله الى الناس كسائر الرسل وتصرح بأن عيسى وامه مريم كانا يأكلان الطعام.

فهذه امور صرحت بها الأناجيل، وهي حجج على كونه عليه السلام عبداً رسولاً.

ويمكن أن تكون الآية مسوقة لنفي أُلوهية المسيح وامه كليهما على ما يظهر من قوله تعالى: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وامي إلهين من دون الله﴾ (المائدة / ١١٦) أنه كان هناك من يقول بالوهيتها كالمسيح أو أن المراد به اتخاذها إلهاً كما ينسب الى أهل الكتاب أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وذلك بالخضوع لها ولهم بما لا يخضع لبشر بمثله.

وكيف كان فالآية على هذا التقدير تنفي عن المسيح وامه معاً الالوهية بأن المسيح كان رسولاً كسائر الرسل، وامه كانت صديقة، وهما معاً كانا يأكلان الطعام، وذلك كله ينافي الالوهية.

وفي قوله تعالى: «قد خلت من قبله الرسل» حيث وصف الرسل بالخلو من قبله، وهو الموت تأكيد للحجة بكونه بشراً يجوز عليه الموت والحياة كما جاز على الرسل من قبله.

قوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وهو في مقام التعجيب أي تعجب من كيفية بياننا لهم الآيات، وهو أوضح بيان لأظهر آية في بطلان دعواهم الوهية المسيح، وكيفية صرفهم عن تعقل هذه الآيات؛ فإلى أي غاية يصرفون عنها، ولا تلتفت الى نتيجتها ـ وهي بطلان دعواهم ـ عقولهم؟

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ كان الخضوع لأمر الربوبية إنما انتشر بين البشر في أقدم عهوده، وخاصة بين العامة منهم ـ وعامتهم كانوا يعبدون الأصنام ـ طمعاً في أن يدفع الرب عنهم الشر ويوصل اليهم النفع كما يتحصل من الابحاث التاريخية. وأما عبادة الله لأنه الله عز اسمه فلم يكن يعدو الخواص منهم كالأنبياء والربانيين من اممهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ خطاب آخر للنبي ﷺ بأمره أن يدعو أهل الكتاب الى عدم الغلو في دينهم، وأهل الكتاب وخاصة النصارى مبتلون بذلك، و«الغالي» المتجاوز عن الحد بالإفراط، ويقابله «القالي» في طرف التفريط.

قوله تعالى: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ﴾ ظاهر السياق أن المراد بهؤلاء القوم الذين نهوا عن اتباع أهوائهم هم المتبوعون المطاعون في آرائهم وأوامرهم فيكون ضلالهم لمكان التزامهم بآرائهم؛ إضلالهم كثيراً هو اتباع غيرهم لهم، وضلالهم عن سواء السبيل هو المتحصل لهم من ضلالهم

وإضلالهم. وهو ضلال على ضلال.

وكذلك ظاهر السياق أن المراد بهم هم الوثنية وعبدة الأصنام فإن ظاهر السياق أن الخطاب إنما هو لجميع أهل الكتاب لا للمعاصرين منهم للنبي صلى الله عليه وآله حتى يكون نهياً لمتأخريهم عن اتباع متقدميهم.

قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ﴾ الى آخر الآيتين: إخبار بأن الكافرين منهم ملعونون بلسان أنبيائهم. وفيه تعريض لهؤلاء الذين كفرهم الله في هذه الآيات من اليهود ملعونين بدعوة أنبيائهم أنفسهم، وذلك بسبب عصيانهم لأنبيائهم. وهم كانوا مستمرين على الاعتداء وقوله: «كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه» الخ: بيان لقوله «وكانوا يعتدون».

قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الخ: وهذا من قبيل الاستشهاد بالحس على كونهم معتدين فإنهم لو قدروا دينهم حق قدره لزموه ولم يتعدوه، ولازم ذلك أن يتولوا أهل التوحيد ويتبرءوا من الذين كفروا لأن أعداء ما يقدسه قوم أعداء لذلك القوم. فاذا تحابوا وتوالوا دل ذلك على إعراض ذلك القوم وتركهم ما كانوا يقدسونه ويحترمونه. وصديق العدو عدو. ثم ذمهم الله تعالى بقوله «بئس ما قدمت لهم أنفسهم» وهو ولاية الكفار عن هوى النفس. وكان جزاؤه ووباله «أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون». ففي الآية وضع جزاء العمل وعاقبته موضع العمل كأن أنفسهم قدمت لهم جزاء العمل بتقديم نفس العمل.

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي ولو كان أهل الكتاب هؤلاء يؤمنون بالله والنبي محمد صلى الله عليه وآله وما أُنزل اليه. أو نبي أنفسهم كموسى مثلاً وما انزل اليه كالتوراة مثلاً ما اتخذوا اولئك الكفار أولياء لأن الايمان يجبّ سائر الأسباب. ولكن كثيراً منهم فاسقون متمردون عن الايمان.

قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ـ الى قوله ـ نَصَارَىٰ﴾ لما بين سبحانه في الآيات السابقة الرذائل المشتركة بين أهل الكتاب عامة. وبعض ما يختص ببعضهم كقول اليهود ﴿يد الله مغلولة﴾ وقول النصارى «إن الله هو المسيح ابن مريم» ختم الآيات بما يختص به كل من الطائفتين اذا قيس حالهم من المؤمنين ودينهم. وأضاف الى حالهم حال المشركين ليتم الكلام في وقع الإسلام من قلوب الامم غير المسلمة من حيث قربهم وبعدهم من قبوله.

ويتم الكلام في أن النصارى أقرب تلك الامم مودة للمسلمين واسمع لدعوتهم الحقة.

وإنما عدهم الله سبحانه أقرب مودة للمسلمين لما وقع من إيمان طائفة منهم بالنبي ﷺ كما يدل عليه قوله في الآية التالية: «واذا سمعوا ما أُنزل الى الرسول» الخ؛ لكن لو كان إيمان طائفة تصحح هذه النسبة الى جميعهم كان من الواجب أن تعد اليهود والمشركون كمثل النصارى وينسب اليهما نظير ما نسب اليهم لمكان إسلام طائفة من اليهود كعبدالله بن سلام وأصحابه، وإسلام عدة من مشركي العرب وهم عامة المسلمين اليوم فتخصيص النصارى بمثل قوله: «واذا سمعوا ما أُنزل» الخ؛ دون اليهود والمشركين يدل على حسن إقبالهم على الدعوة الإسلامية وإجابة النبي ﷺ مع أنهم على خيار بين أن يقيموا على دينهم ويؤدوا الجزية، وبين أن يقبلوا الإسلام، أو يحاربوا.

ومن المعلوم أن قوله تعالى: «لتجدن أشد الناس عدواة للذين آمنوا» من قبيل بيان الضابط العام في صورة خطاب خاص نظير ما مر في الآيات السابقة «ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا» و«ترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم».

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ القسيس معرب «كشيش» والرهبان جمع الراهب وقد يكون مفرداً. قال الرغب: الرهبة والرهب مخافة مع تحرز ـ الى أن قال ـ والترهب التعبد، والرهبانية غلو في تحمل التعبد من

فرط الرهبة، قال تعالى: «ورهبانية ابتدعوها» والرهبان يكون واحداً وجمعاً فمن جعله واحداً جمعه على رهابين. انتهى.

علل تعالى ما ذكره من كون النصارى أقرب مودة وآنس قلوباً للذين آمنوا بخصال ثلاث يفقدها غيرهم من اليهود والمشركين، وهي أن فيهم علماء وان فيهم رهباناً وزهاداً، وأنهم لا يستكبرون وذلك مفتاح تهيؤهم للسعادة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ الخ: فاضت العين بالدمع سال دمعها بكثرة، و«من» في قوله: «من الدمع» للابتداء، وفي قوله: «مما» للنشوء، وفي قوله: «من الحق» بيانية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ الخ: لفظة «يدخلنا» كأنها مضمنة معنى الجعل، ولذلك عدي بمع. والمعنى: يجعلنا ربنا مع القوم الصالحين مدخلاً لنا فيهم.

وفي هذه الأفعال والأقوال التي حكاها الله تعالى عنهم تصديق ما ذكره عنهم أنهم أقرب مودة للذين آمنوا، وتحقيق أن فيهم العلم النافع والعمل الصالح والخضوع للحق حيث كان فيهم قسيسون ورهبان وهم لا يستكبرون.

قوله تعالى: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ﴾ الى آخر الآيتين: «والإثابة» المجازاة، والآية الاولى ذكر جزائهم، والآية الثانية فيها ذكر جزاء من خالفهم على طريق المقابلة استيفاء للأقسام(١)(٢)(٣)(٤).

---

١. المائدة ٦٨ ـ ٨٦: بحث روائي في: لعن بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم؛ مسخ جماعة من بني اسرائيل؛ عيسى بن مريم عليه السلام؛ هجرة جماعة من المسلمين الى الحبشة.

٢. المائدة ٦٨ ـ ٨٦: كلام في معنى التوحيد في القرآن.

٣. المائدة ٦٨ ـ ٨٦: بحث روائي في التوحيد.

٤. المائدة ٦٨ ـ ٨٦: بحث تاريخي في توحيد الصانع.

٨٧ ❁ يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تُحَرِّمُوا طَيِّبٰاتِ مٰا أَحَلَّ اللّٰهُ لَكُمْ وَلاٰ تَعْتَدُوا إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ.

٨٨ ❁ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّٰهُ حَلاٰلاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللّٰهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ.

٨٩ ❁ لاٰ يُؤٰاخِذُكُمُ اللّٰهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمٰانِكُمْ وَلٰكِنْ يُؤٰاخِذُكُمْ بِمٰا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمٰانَ فَكَفّٰارَتُهُ إِطْعٰامُ عَشَرَةِ مَسٰاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مٰا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيٰامُ ثَلٰثَةِ أَيّٰامٍ ذٰلِكَ كَفّٰارَةُ أَيْمٰانِكُمْ إِذٰا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمٰانَكُمْ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمْ آيٰاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تُحَرِّمُوا طَيِّبٰاتِ مٰا أَحَلَّ اللّٰهُ لَكُمْ﴾.

قال الراغب في المفردات: الحرام الممنوع منه إما بتسخير إلهي، وإما بمنع قهري، وإما بمنع من جهة العقل أو جهة الشرع أو من جهة من يرتسم أمره، انتهى موضع الحاجة.

وقال أيضاً: أصل الحل حل العقدة، ومنه قوله عز وجل: ﴿واحلل عقدة من لساني﴾، وحللت: نزلت، أصله من حل الأحمال عند النزول ثم جرد استعماله للنزول فقيل: حل حلولاً وأحله غيره، قال عز وجل ﴿أو تحل قريباً من دارهم، وأحلوا قومهم دار البوار﴾، ويقال: حل الدين وجب أداؤه، والحلة القوم النازلون وحي حلال مثله، والمحلة مكان النزول، وعن حل العقدة استعير قولهم: حل الشيء حلاً قال الله تعالى «وكلوا مما رزقكم الله

حلالاً طيباً »، وقال تعالى: ﴿ هذا حلال وهذا حرام ﴾، انتهى.

فالظاهر أن مقابلة الحل الحرمة، وكذا التقابل بين الحل والحرم أو الإحرام من جهة تخيل العقد في المنع الذي هو معنى الحرمة وغيرها ثم مقابلته بالحل المستعار لمعنى الجواز والاباحة. واللفظان أعني الحل والحرمة من الحقائق العرفية قبل الإسلام دون الشرعية أو المتشرعية.

والآية أعني قوله: « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا » الخ: تنهى المؤمنين عن تحريم ما أحل الله لهم، وتحريم ما أحل الله هو جعله حراماً كما جعله الله تعالى حلالا وذلك إما بتشريع قبال تشريع، وإما بالمنع أو الامتناع بأن يترك شيئاً من المحللات بالامتناع عن إتيانه أو منع نفسه أو غيره من ذلك فإن ذلك كله تحريم ومنه ومنازعة لله سبحانه في سلطانه واعتداء عليه ينافي الايمان بالله وآياته. ولذلك صدّر النهي بقوله « يا أيها الذين آمنوا »، فإن المعنى: لا تحرموا ما أحل الله لكم وقد آمنتم به وسلمتم لأمره.

ويؤيده أيضاً قوله في ذيل الآية التاليه: « واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ».

وإضافة قوله: « طيبات » الى قوله: « ما أحل الله لكم » ـ مع أن الكلام تام بدونه ـ للإشارة الى تتميم سبب النهي فإن تحريم المؤمنين لما أحل الله لهم على أنه اعتداء منهم على الله في سلطانه، ونقض لايمانهم بالله وتسليمهم لأمره كذلك هو خروج منهم عن حكم الفطرة، فإن الفطرة تستطيب هذه المحللات من غير استخباث، وقد أخبر الله سبحانه عن ذلك فيما نعت به نبيه ﷺ والشريعة التي جاء بها حيث قال ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه أُولئك هم المفلحون ﴾ (الأعراف / ١٥٧).

فحصل مفاد الآية النهي عن تحريم ما أحله الله بالاجتناب عنه والامتناع من الاقتراب منه فإنه يناقض الايمان بالله وآياته ويخالف كون هذه المحللات طيبات لا خباثة فيها حتى يجتنب عنها لأجلها، وهو اعتداء والله لا يحب المعتدين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ قد عرفت أن ظاهر السياق أن المراد بالاعتداء هو التحريم المذكور في الجملة السابقة عليه فقوله «ولا تعتدوا يجري مجرى التأكيد لقوله «ولا تحرموا» الخ.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ الى آخر الآية: ظاهر العطف أعني انعطاف قوله: «وكلوا» على قوله: «لا تحرموا» أن يكون مفاد هذه الآية بمنزلة التكرار والتأكيد لمضمون الآية السابقة، ويؤيده سياق صدر الآية من حيث اشتماله على قوله: «حلالاً طيباً»، وهو يحاذي قوله في الآية السابقة: «طيبات ما أحل الله»، وكذا ذيلها من حيث المحاذاة الواقعة بين قوله فيه: «واتقوا الله إن كنتم مؤمنين» وقوله في الآية السابقة: «يا أيها الذين آمنوا» وقد مر بيانه.

وعلى هذا فقوله: «كلوا» الخ؛ من قبيل ورود الأمر عقيب الحظر. وتخصيص قوله: «كلوا» بعد تعميم قوله: «لا تحرموا طيبات» الخ؛ إما تخصيص بحسب اللفظ فقط، والمراد بالأكل مطلق التصرف فيما رزقه الله تعالى من طيبات نعمه، سواء كان بالأكل بمعنى التغذي أو بسائر وجوه التصرف، وقد تقدم مراراً أن استعمال الأكل بمعنى مطلق التصرف استعمال شائع ذائع.

وإما أن يكون المراد ـ ومن الممكن ذلك ـ الأكل بمعناه الحقيقي، ويكون سبب نزول الآيتين تحريم بعض المؤمنين في زمن النزول المأكولات الطيبة على أنفسهم فتكون الآيتان نازلتين في النهي عن ذلك، وقد عمم النهي في الآية الاولى للأكل وغيره إعطاء للقاعدة الكلية لكون ملاك النهي يعم محللات الأكل وغيرها على حد سواء.

وقوله: «مما رزقكم الله» لازم ما استظهرناه من معنى الآيتين كونه مفعولاً لقوله «كلوا»

وقوله: «حلالاً طيباً» حالين من الموصول وبذلك تتوافق الآيتان. وربما قيل: إن قوله: «حلالاً طيباً» مفعول قوله: «كلوا» وقوله: «مما رزقكم الله» متعلق بقوله «كلوا» أو حال من الحلال قدم عليه لكونه نكرة، أو كون قوله: «حلالاً» وصفاً لمصدر محذوف، والتقدير: رزقاً حلالاً طيباً الى غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ اللغو ما لا يترتب عليه أثر من الأعمال، والأيمان جمع يمين وهو القسم والحلف؛ قال الراغب في المفردات: واليمين في الحلف مستعار من اليد اعتباراً بما يفعله المعاهد والحالف وغيره. قال تعالى: ﴿أم لكم أيمان علينا بالغة الى يوم القيامة﴾ ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم» انتهى. والتعقيد مبالغة في العقد وقرىء: عقدتم بالتخفيف، وقوله: «في أيمانكم» متعلق بقوله «لا يؤاخذكم» أو بقوله «باللغو» وهو أقرب.

والتقابل الواقع بين قوله: «باللغو في أيمانكم» وقوله: «بما عقدتم الأيمان» يعطي أن المراد باللغو في الأيمان ما لا يعقد عليه الحالف، وإنما يجري على لسانه جرياً لعادة اعتادها أو لغيرها وهو قوله ـ وخاصة في قبيل البيع والشرى ـ: لا والله، بلى والله، بخلاف ما عقد عليه عقداً بالالتزام بفعل أو ترك كقول القائل: والله لأفعلن كذا، ووالله لأتركن كذا.

وأما قوله: «ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان» فلا يشمل إلا اليمين الممضاة شرعاً لمكان قوله في ذيل الآية: «واحفظوا أيمانكم» فإنه لا مناص عن شموله لهذه الأيمان بحسب إطلاق لفظه، ولا معنى للأمر بحفظ الأيمان التي ألغى الله سبحانه اعتبارها فالمتعين أن اللغو من الأيمان في الآية ما لا عقد فيه، وما عقد عليه هو اليمين الممضاة.

قوله تعالى: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ ـ الى قوله ـ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، الكفارة هي العمل الذي يستر به مساءة المعصية بوجه، من الكفر بمعنى الستر، قال تعالى:

﴿نكفر عنهم سيئاتكم﴾ (النساء / ٣١)، قال الراغب: والكفارة ما يغطي الاثم ومنه كفارة اليمين، انتهى.

وقوله: «فكفارته» تفريع على اليمين باعتبار مقدر هو نحو من قولنا: فان حنثتم فكفارته كذا، وذلك لأن في لفظ الكفارة دلالة على معصية تتعلق به الكفارة، وليست هذه المعصية هي نفس اليمين، ولو كان كذلك لم يورد في ذيل الآية قوله: «وافحظوا ايمانكم» اذ لا معنى لحفظ ما فيه معصية فالكفارة إنما تتعلق بحنث اليمين لا بنفسها.

ومنه يظهر أن المؤاخذة المذكورة في قوله: «ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان» هي المؤاخذة على حنث اليمين لا على نفس إيقاعها، وإنما أُضيفت الى اليمين لتعلق متعلقها ـ أعني الحنث ـ بها، فقوله «فكفارته» متفرع على الحنث لا المقدر لدلالة قوله: «يؤاخذكم» الخ: عليه، ونظير هذا البيان جار في قوله: «ذلك كفارة أيمانكم اذا حلفتم» وتقديره: اذا حلفتم وحنثتم.

وقوله: «إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة» خصال ثلاث يدل الترديد على تعيين إحدها عند الحنث من غير جمع، ويدل قوله بعده: «فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام» على كون الخصال المذكورة تخييرية من غير لزوم مراعاة الترتيب الواقع بينها في الذكر، وإلا لغى التفريغ في قوله: «فمن لم يجد» الخ؛ وكان المتعين بحسب اقتضاء السياق أن يقال: أو صيام ثلاثة أيام.

وفي الآية أبحاث فرعية كثيرة مرجعها علم الفقه.

قوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ تقدم أن الكلام في تقدير: اذا حلفتم وحنثتم، وفي قوله: «ذلك كفارة أيمانكم» وكذا في قوله: «كذلك يبين الله لكم» نوع التفات ورجوع من خطاب المؤمنين الى خطاب النبي ﷺ، ولعل النكتة فيه أن الجملتين جميعاً من البيان الالهي للناس إنما هو بوساطة النبي ﷺ فكأن في ذلك حفظاً لمقامه ﷺ في بيان ما

أُوحي اليه للناس كما قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ (النحل / ٤٤).

قوله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي يبين لكم بواسطة نبيه أحكامه لعلكم تشكرونه بتعلمها والعمل بها[١].

٩٠ ❁ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

٩١ ❁ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ.

٩٢ ❁ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ.

٩٣ ❁ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ الى آخر الآية: قد تقدم

---

١. المائدة ٨٧ ـ ٨٩: بحث روائي في: النهي عن تحريم طيبات ما أحل الله، الايمان.

الكلام في أول السورة في معنى الخمر والميسر والأنصاب والأزلام فالخمر ما يخمر العقل من كل مائع مسكر عمل بالتخمير. والميسر هو القمار مطلقاً. والأنصاب هي الأصنام أو الحجارة التي كانت تنصب لذبح القرابين عليها وكانت تحترم ويتبرك بها. والأزلام هي الأقداح التي كانت يستقسم بها، وربما كانت تطلق على السهام التي كانت يتفاءل بها عند ابتداء الامور والعزيمة عليها كالخروج الى سفر ونحوه لكن اللفظ قد وقع في أول السورة للمعنى الأول لوقوعه بين محرمات الأكل فيتأيد بذلك كون المراد به هيهنا هو ذلك.

وأما قوله: ﴿رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ فالرجس الشيء القذر على ما ذكره الراغب في مفرداته فالرجاسة بالفتح كالنجاسة والقذارة هو الوصف الذي يبتعد ويتنزه عن الشيء بسببه لتنفر الطبع عنه.

وكون هذه المعدودات من الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجساً هو اشتمالها على وصف لا تستبيح الفطرة الإنسانية الاقتراب منها لأجله. وليس إلا أنها بحيث لا تشتمل على شيء مما فيه سعادة إنسانية أصلاً سعادة يمكن أن تصفو وتتخلص في حين من الأحيان كما ربما أومأ اليه قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ (البقرة / ٢١٩). حيث غلب الإثم على النفع ولم يستثن.

ولعله لذلك نسب هذه الأرجاس الى عمل الشيطان ولم يشرك له أحداً. ثم قال في الآية التالية «إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة»[1].

وأما قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فتصريح بالنهي بعد بيان المفسدة ليكون أوقع في النفوس ثم ترج للفلاح على تقدير الاجتناب، وفيه أشد التأكيد للنهي لتثبيته

---

١. المائدة ٩٠ ـ ٩٣: بحث في: الشيطان: معنى كون الخمر اضرابها رجساً.

ان لا رجاء لفلاح من لا يجتنب هذه الأرجاس.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ الى آخر الآية؛ قال الراغب في المفردات: العدو التجاوز ومنافاة الالتئام فتارة يعتبر بالقلب فيقال له: العداوة والمعاداة، وتارة بالمشي فيقال له: العدو، وتارة في الإخلال بالعدالة في المعاملة فيقال له: العدوان والعدو قال ﴿فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾ وتارة بأجزاء المقر فيقال له: العدواء يقال: مكان ذو عدواء اي غير متلائم الأجزاء فمن المعاداة يقال: رجل عدو وقوم عدو قال ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ وقد يجمع على عدى (بالكسر فالفتح) واعداء قال ﴿ويوم يحشر اعداء الله﴾. انتهى.

والبغض والبغضاء خلاف الحب. والصد الصرف. والانتهاء قبول النهي وخلاف الابتداء.

ثم إن الآية ـ كما تقدم ـ مسوقة بياناً لقوله «من عمل الشيطان» أو لقوله «رجس من عمل الشيطان» اي إن حقيقة كون هذه الامور من عمل الشيطان أو رجساً من عمل الشيطان ان الشيطان لا بغية له ولا غاية في الخمر والميسر ـ اللذين قيل: إنهما رجسان من عمله فقط ـ إلا ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء بتجاوز حدودكم وبغض بعضكم بعضاً، وان يصرفكم عن ذكر الله وعن الصلاة في هذه الامور جميعاً اعني الخمر والميسر والانصاب والأزلام[1].

وأما قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ فهو استفهام توبيخي فيه دلالة ما على أن المسلمين لم يكونوا ينتهون عن المناهي السابقة على هذا النهي، والآية أعني قوله: «إنما يريد الشيطان أن يوقع» الخ؛ كالتفسير يفسر بها قوله: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ أي إن النفع الذي فرض فيهما مع الإثم ليس بحيث

---

١. المائدة ٩٠ـ٩٣: كلام في الخمر والميسر وآثارها.

يمكن أن يفرز أحياناً من الإثم أو من الإثم الغالب عليه كالكذب الذي فيه إثم ونفع، وربما افرز نفعه من إثمه كالكذب لمصلحة إصلاح ذات البين.

وذلك لمكان الحصر في قوله: «إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء» الخ؛ بعد قوله: «رجس من عمل الشيطان» فالمعنى أنها لا تقع إلا رجساً من عمل الشيطان، وأن الشيطان لا يريد بها إلا إيقاع العداوة والبغضاء بينكم في الخمر والميسر وصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فلا يصاب لها مورد يخلص فيه النفع عن الإثم حتى تباح فيه، فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ الى آخر الآية: تأكيد للأمر السابق باجتناب هذه الأرجاس أولاً بالأمر بطاعة الله سبحانه وبيده أمر التشريع، وثانياً بالأمر بطاعة الرسول واليه الإجراء، وثالثاً بالتحذير صريحاً.

ثم في قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ تأكيد فيه معنى التهديد وخاصة لاشتماله على قوله: «فاعلموا» فإن فيه تلويحاً الى أنكم إن توليتم واقترفتم هذه المعاصي فكأنكم ظننتم أنكم كابرتم النبي ﷺ فيه نهيه عنها وغلبتموه، وقد جهلتم أو نسيتم أنه رسول من قبلنا ليس له من الأمر شيء إلا بلاغ مبين لما يوحى اليه ويؤمر بتبليغه، وإنما نازعتم ربكم في ربوبيته.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الى آخر الآية: الطعم والطعام هو التغذي، ويستعمل في المأكول دون المشروب، وهو في لسان المدنيين البُر خاصة، وربما جاء بمعنى الذوق، ويستعمل حينئذ بمعنى الشرب كما يستعمل بمعنى الأكل قال تعالى: ﴿فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني﴾ (البقرة / ٢٤٩)، وفي بعض الروايات عن النبي ﷺ أنه قال في ماء زمزم: إنه طعام طعم وشفاء سقم.

والآية لا تصلح بسياقها إلا أن تتصل بالآيات السابقة فتكون دفع دخل تتعرض لحال

المؤمنين ممن ابتلي بشرب الخمر قبل نزول التحريم أو قبل نزول هذه الآيات، وذلك أن قوله فيها: «فيما طعموا» مطلق غير مقيد بشيء مما يصلح لتقييده. والآية مسوقة لرفع الحظر عن هذا الطعام المطلق. وقد قيد رفع الحظر بقوله «اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا» والمتيقن من معنى هذا القيد - وقد ذكر فيه التقوى ثلاث مرات - هو التقوى الشديد الذي هو حق التقوى.

فالذي ينبغي أن يقال: إن الآية في معنى الآيات السابقة عليها على ما هو ظاهر اتصالها بها، وهي متعرضة لحال من ابتلي من المسلمين بشرب الخمر وطعمها، أو بالطعم لشيء منها أو مما اقتناه بالميسر أو من ذبيحة الأنصاب كأنهم سألوا بعد نزول التحريم الصريح عن حال من ابتلي بشرب الخمر، أو بها وبغيرها مما ذكره الله تعالى في الآية قبل نزول التحريم من إخوانهم الماضين أو الباقين المسلمين لله سبحانه في حكمه.

فاجيب عن سؤالهم ان ليس عليهم جناح إن كانوا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات إن كانوا جارين على صراط التقوى بالإيمان بالله والعمل الصالح ثم الإيمان بكل حكم نازل على النبي ﷺ ثم الإحسان بالعمل على طبق الحكم النازل.

وبذلك يتبين أن المراد بالموصول في قوله: «فيما طعموا» هو الخمر من حيث شربها أو جميع ما ذكر من الخمر والميسر والأنصاب والأزلام حيث ما يصح أن يتعلق بها من معنى الطعم، والمعنى: ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما ذاقوه قبل نزول التحريم من خمر أو منها ومن غيرها من المحرمات المذكورة.

وأما قوله: «اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا» فظاهر قوله: «اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات» أنه إعادة لنفس الموضوع المذكور في قوله: «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح» للدلالة على دخالة الوصف في الحكم الذي هو نفي الجناح كقوله تعالى في خطاب المؤمنين: ﴿ذلك يوعظ به من كان منكم

يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ (البقرة / ٢٣٢)، وهو شائع في اللسان.

وظاهر قوله: «ثم اتقوا وآمنوا» اعتبار الإيمان بعد الإيمان، وليس إلا الإيمان التفصيلي بكلُ حكم حكم مما جاء به الرسول من عند ربه من غير رد وامتناع، ولازمه التسليم للرسول فيما يأمر به وينهى عنه قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله ﴾ (الحديد / ٢٨)، وقال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من رسول الا ليطاع بإذن الله ـ الى ان قال ـ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ (النساء / ٦٥)، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وظاهر قوله: «ثم اتقوا وأحسنوا» إضافة الإحسان الى الإيمان بعد الإيمان اعتبارٌ، والإحسان هو إتيان العمل على وجه حسنه من غير نية فاسدة كما قال تعالى: ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ (الكهف / ٣٠)، وقال ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ﴾ (آل عمران / ١٧٢)، اي يكون استجابتهم ابتغاء لوجه الله وتسليماً لأمره لا لغرض آخر، ومن الإحسان ما يتعدى الى الغير، وهو ان يوصل الى الغير ما يستحسنه، قال تعالى: ﴿ وبالوايدين إحساناً ﴾ (البقرة / ٨٣)، وقال ﴿ واحسن كما احسن الله اليك ﴾ (القصص / ٧٧).

والمناسب لمورد الآية هو المعنى الأول من معنيي الإحسان، وهو إتيان الفعل على جهة حسنه فإن التقوى الديني لا يوفى حقه بمجرد الإيمان بالله وتصديق حقية دينه ما لم يؤمن تفصيلاً بكل واحد واحد من الأحكام المشرعة في الدين فإن رد الواحد منها رد لأصل الدين، ولا أن الإيمان التفصيلي بكل واحد واحد يوفى به حق التقوى ما لم يحسن بالعمل بها وفي العمل بها بأن يجري على ما يقتضيه الحكم من فعل أو ترك، ويكون هذا الجري ناشئاً من الانقياد والاتباع لا عن نية نفاقية فمن الواجب على المتزود بزاد التقوى أن يؤمن بالله ويعمل

صالحاً، وان يؤمن برسوله في جميع ما جاء به، وان يجري في جميع ذلك على نهج الاتباع والاحسان[١].

٩٤ ● يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِماحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدىٰ بَعْدَ ذٰلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ.

٩٥ ● يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياًبالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذٰلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمّا سَلَفَ وَمَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ.

٩٦ ● أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ.

٩٧ ● جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّمٰواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

٩٨ ● إِعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

---

١. المائدة ٩٠ ـ ٩٣: بحث روائي تحريم الخمر.

٩٩ ● مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا البَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ .

بيان:

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ البلاء هو الامتحان والاختبار، ولام القسم والنون المشددة للتأكيد، وقوله: بشيء من الصيد يفيد التحقير ليكون تلقينه للمخاطبين عوناً لهم على انتهائهم الى ما سيواجههم من النهي في الآية الآتية، وقوله: « تناله أيديكم ورماحكم » تعميم للصيد من حيث سهولة الاصطياد كما في فراخ الطير وصغار الوحش والبيض تنالها الأيدي فتصطاد بسهولة، ومن حيث صعوبة الاصطياد ككبار الوحش لا تصطاد عادة إلا بالسلاح.

وظاهر الآية أنها مسوقة كالتوطئة لما ينزل من الحكم المشدد في الآية التالية، ولذلك عقب الكلام بقوله « ليعلم الله من يخافه بالغيب » فإن فيه إشعاراً بأن هناك حكماً من قبيل المنع والتحريم ثم عقبه بقوله « فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ».

قوله تعالى: ﴿ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾ لا يبعد أن يكون قوله: ليبلونكم الله ليعلم كذا كناية عن أنه سيقدر كذا ليتميز منكم من يخاف الله بالغيب عمن لا يخافه لأن الله سبحانه لا يجوز عليه الجهل حتى يرفعه بالعلم، وقد تقدم البحث المستوفى عن معنى الامتحان في تفسير قوله تعالى: « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة » الآية (آل عمران / ١٤٢) في الجزء الرابع من هذا الكتاب، وتقدم أيضاً معنى آخر لهذا العلم.

وأما قوله: « من يخافه بالغيب » فالظرف متعلق بالخوف، ومعنى الخوف بالغيب أن يخاف الانسان ربه ويحترز ما ينذره به من عذاب الآخرة وأليم عقابه، وكل ذلك في غيب من الانسان لا يشاهد شيئاً منه بظاهر مشاعره، قال تعالى: ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي

الرحمن بالغيب ﴾ (يس / ١١) ، وقال : ﴿ وأُزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ، هذا ما توعدون لكل أوّاب حفيظ ، من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾ (ق / ٣٣) ، وقال : ﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون ﴾ (الأنبياء / ٤٩) .

وقوله : « فمن اعتدى بعد ذلك » أي تجاوز الحد الذي يحده الله بعد البلاء المذكور فله عذاب أليم .

قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ الخ : الحرم بضمتين جمع الحرام صفة مشبهة ، قال في المجمع : ورجل حرام ومحرم بمعنى ، وحلال ومحل كذلك ، وأحرم الرجل دخل في الشهر الحرام ، وأحرم أيضاً دخل في الحرم ، وأحرم أهلّ بالحج ، والحرم الإحرام ، ومنه الحديث : كنت أُطيب النبي لحرمه ، وأصل الباب المنع ، وسميت النساء حرماً لأنها تمنع ، والمحروم ، ومنه الحديث : كنت أُطيب النبي لحرمه ، وأصل الباب المنع ، وسميت النساء حرماً لأنها تمنع ، والمحروم الممنوع الرزق .

قال : والمثل والمثل والشِبه والشبه واحد ، قال : والنعم في اللغة الإبل والبقر والغنم ، وإن انفردت الإبل قيل لها : نعم ، وإن انفردت البقر والغنم لم تسم نعماً ذكره الزجاج .

قال : قال الفراء : العدل بفتح العين ما عادل الشيء من غير جنسه ، والعدل بالكسر المثل تقول : عندي عدل (بالكسر) غلامك أو شاتك اذا كانت شاة تعدل شاةً أو غلام يعدل غلاماً فإذا أردت قيمته من غير جنسه فتحت وقلت : عدل ، وقال البصريون : العَدل والعِدل في معنى المثل كان من الجنس أو غير الجنس .

قال : والوبال ثقل الشيء في المكروه ، ومنه قولهم : طعام وبيل وماء وبيل اذا كانا ثقيلين غير ناميين في المال ، ومنه « فأخذناه أخذً وبيلاً » أي ثقيلاً شديداً ، ويقال لخشبة القصّار : وبيل من هذا ، انتهى .

وقوله : ﴿ لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ نهي عن قتل الصيد لكن يفسره بعض

التفسير قوله بعدُ: «أُحل لكم صيد البحر» هذا من جهة الصيد، ويفسره من جهة معنى القتل قوله: «ومن قتله منكم متعمداً فجزاء» الخ؛ فقوله «متعمداً» حال من قوله: «من قتله» وظاهر التعمد ما يقابل الخطأ الذي هو القتل من غير أن يريد بفعله ذلك كمن يرمي الى هدف فأصاب صيداً، ولازمه وجوب الكفارة اذا كان قاصداً لقتل الصيد سواء كان على ذكر من إحرامه أو ناسياً أو ساهياً.

وقوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ لظاهر معناه: فعليه جزاء ذلك الجزاء مثل ما قتل من الصيد، وذلك الجزاء من النعم المماثلة لما قتله يحكم به أي بذلك الجزاء المماثل رجلان منكم ذوا عدل في الدين حال كون الجزاء المذكور هدياً يهدي به بالغ الكعبة ينحر أو يذبح في الحرم بمكة أو بمنى على ما يبينه السنة النبوية.

فقوله «جزاء» بالرفع مبتدأ لخبر محذوف يدل عليه الكلام، وقوله: «مثل ما قتل» وقوله: «من النعم» وقوله: «يحكم به» الخ؛ أوصاف للجزاء، وقوله: «هدياً بالغ الكعبة» موصوف وصفة، والهدي حال من الجزاء كما تقدم، هذا، وقد قيل: غير ذلك.

وقوله: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَاماً﴾ خصلتان اخريان من خصال كفارة قتل الصيد، وكلمة «أو» لا يدل على أزيد من مطلق الترديد، والشارح السنة، غير أن قوله: «أو كفارة» حيث سمى طعام المساكين كفارة ثم اعتبر ما يعادل الطعام من الصيام لا يخلو من إشعار بالترتيب بين الخصال.

وقوله: «ليذوق وبال أمره» اللام للغاية، وهي ومدخولها متعلق بقوله «فجزاء» فالكلام يدل على أن ذلك نوع مجازاة.

قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ الى آخر الآية؛ تعلق العفو بما سلف قرينه على أن المراد بما سلف هو ما تحقق من قتل الصيد قبل نزول الحكم

بنزول الآية فإن تعلق العفو بما يتحقق حين نزول الآية أو بعده يناقض جعل الحكم وهو ظاهر ، فالجملة لدفع توهم شمول حكم الكفارة للحوادث السابقة على زمان النزول.

والآية من الدليل على جواز تعلق العفو بما ليس بمعصية من الأفعال اذا كان من طبعها اقتضاء النهي المولوي لاشتمالها على المفسدة ، وأما قوله : « ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام » فظاهر العود تكرر الفعل ، وهذا التكرر ليس تكرر ما سلف من الفعل بأن يكون المعنى : ومن عاد الى مثل ما سلف منه من الفعل فينتقم الله منه لأنه حينئذ ينطبق على الفعل الذي يتعلق به الحكم في قوله : « ومن قتله منكم متعمداً فجزاء » الخ ؛ ويكون المراد بالانتقام هو الحكم بالكفارة ، وهو حكم ثابت بالفعل لكن ظاهر قوله : « فينتقم الله منه » أنه إخبار عن أمر مستقبل لا عن حكم حال فعلي.

وهذا شاهد على أن المراد بالعود العود ثانياً الى فعل تعلق به الكفارة ، والمراد بالانتقام العذاب الإلهي غير الكفارة المجعولة.

وعلى هذا فالآية بصدرها وذيلها تتعرض لجهات مسألة قتل الصيد ، أما ما وقع منه قبل نزول الحكم فقد عفا الله عنه ، وأما بعد جعل الحكم فمن قتله فعليه جزاء مثل ما قتل في المرة الاولى فإن عاد فينتقم الله منه ولا كفارة عليه ، وعلى هذا يدل معظم الأخبار المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في تفسير الآية.

ولولا هذا المعنى كان كالمتعين حمل الانتقام في قوله : « فينتقم الله منه » على ما يعم الحكم بوجوب الكفارة ، وحمل العود على فعل ما يماثل ما سلف منهم من قتل الصيد أي ومن عاد الى مثل ما كانوا عليه من قتل الصيد قبل هذا الحكم ، أي ومن قتل الصيد فينتقم الله منه أي يؤاخذه بإيجاب الكفارة ، وهذا ـ كما ترى ـ معنى بعيد من اللفظ.

قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ الى آخر الآية ؛ الآيات في مقام بيان حكم الاصطياد من بحر أو بر ، وهو الشاهد على أن متعلق الحل هو

الاصطياد في قوله: «أُحل لكم صيد البحر» دون أكله. وبهذه القرينة يتعين قوله: «وطعامه» في أن المراد به ما يؤكل دون المعنى المصدري الذي هو الأكل والمراد بحل طعام البحر حل أكله فمحصل المراد من حل صيد البحر وطعامه جواز اصطياد حيوان البحر وحل أكل ما يؤخذ منهن.

وما يؤخذ من طعام البحر وإن كان أعم مما يؤخذ منه صيداً كالعتيق من لحم الصيد أو ما قذفته البحر من ميتة حيوان ونحوه إلا أن الوارد من أخبار أئمة أهل البيت عليهم السلام تفسيره بالمملوح ونحوه من عتيق الصيد. وقوله: «متاعاً لكم وللسيارة» كأنه حال من صيد البحر وطعامه. وفيه شيء من معنى الامتنان.

وحيث كان الخطاب للمؤمنين من حيث كونهم محرمين كانت المقابلة بينهم وبين السيارة في قوة قولنا: متاعاً للمحرمين وغيرهم.

واعلم أن في الآيات أبحاثاً فرعية كثيرة معنونة في الكتب الفقهية من أرادها فليراجعها.

قوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ ظاهر تعليق الكلام بالكعبة ثم بيانه بالبيت بأنه بيت حرام. وكذا توصيف الشهر بالحرام ثم ذكر الهدي والقلائد اللذين يرتبط شأنهما بحرمة البيت. كل ذلك يدل على أن الملاك فيما يبين الله سبحانه في هذه الآية من الأمر إنما هو الحرمة.

والقيام ما يقوم به الشيء. قال الرغاب: والقيام والقوام اسم لما يقوم به الشيء أي يثبت كالعماد والسناد لما يعمد ويسند به كقوله: «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً» أي جعلها مما يمسككم. وقوله: «جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس» أي قواماً لهم يقوم به معاشهم ومعادهم. قال الأصم: قائماً لا ينسخ. وقرىء: قيماً بمعنى قياماً. انتهى.

فيرجع معنى قوله: «جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس» الى أنه تعالى جعل الكعبة بيتاً حراماً احترمه. وجعل بعض الشهور حراماً. ووصل بينهما حكماً كالحج في ذي

الحجة الحرام، وجعل هناك اموراً تناسب الحرمة كالهدي والقلائد كل ذلك لتعتمد عليه حياة الناس الاجتماعية السعيدة.

فإنه جعل البيت الحرام قبلة يوجه اليه الناس وجوههم في صلواتهم ويوجهون اليه ذبائحهم وأمواتهم، ويحترمونه في سيىء حالاتهم، فيتوحد بذلك جمعهم، ويجتمع به شملهم، ويحيى ويدوم به دينهم، ويحجون اليه من مختلف الاقطار وأقاصي الآفاق فيشهدون منافع لهم، ويسلكون به طرق العبودية.

ويهدى باسمه وبذكره والنظر اليه والتقرب به والتوجه اليه العالمون، وقد بينه الله تعالى بوجه آخر قريب من هذا الوجه بقوله: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين﴾ (آل عمران / ٩٦)، وقد أفاك في الآية في الجزء الثالث من هذا الكتاب من الكلام ما يتنور به المقام.

ومن هنا يظهر وجه اتصال قوله: «ذلك لتعلموا» الى آخر الآية؛ بما قبله، والمشار اليه بقوله «ذلك» إما نفس الحكم المبين في الآيات السابقة الذي يوضح حكمة تشريعه قوله: «جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس» الخ؛ وإما بيان الحكم الموضح بقوله «جعل الله الكعبة» الخ؛ المدلول عليه بالمقام.

والمعنى على التقدير الأول أن الله جعل البيت الحرام والشهر الحرام قياماً للناس ووضع ما يناسبها من الأحكام لينتقلوا من حفظ حرمتها والعمل بالأحكام المشرعة فيها الى أن الله عليم بما في السماوات والأرض وما يصلح شؤونها، فشرع ما شرع لكم عن علم من غير أن يكون شيء من ذلك حكماً خرافياً صادراً عن جهالة الوهم.

والمعنى على التقدير الثاني أنا بيّنا لكم هذه الحقيقة وهي جعل البيت الحرام والشهر الحرام وما يتبعها من الأحكام قياماً للناس لتعلموا أن الله عليم بما في السماوات والأرض وما يتبعها من الأحكام المصلحة لشؤونها فلا تتوهموا أن هذه الأحكام المشرعة لاغية من غير جدوى

أو أنها خرافات مختلقة.

قوله تعالى: ﴿إِعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الى آخر الآيتين؛ تأكيد للبيان وتثبيت لموقع الأحكام المذكورة، ووعيد ووعد للمطيعين والعاصين، وفيه شائبة تهديد، ولذلك قدم توصيفه بشدة العقاب على توصيفه بالمغفرة والرحمة، ولذلك أيضاً أعقب الكلام بقوله «ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما يسرون وما يعلنون»[1].

١٠٠ * قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ كأن المراد بعدم استواء الخبيث والطيب أن الطيب خير من الخبيث، وهو أمر بين فيكون الكلام مسوقاً للكناية، وذلك أن الطيب بحسب طبعه وبقضاء من الفطرة أعلى درجة وأسمى منزلة من الخبيث؛ فلو فرض انعكاس الأمر وصيرورة الخبيث خيراً من الطيب لعارض يعرضه كان من الواجب أن يتدرج الخبيث في الرقي والصعود حتى يصل الى حد يحاذي الطيب في منزلته ويساويه ثم يتجاوزه فيفوقه فإذا نفي استواء الخبيث والطيب كان ذلك أبلغ في نفي خيرية الخبيث من الطيب.

ومن هنا يظهر وجه تقديم الخبيث على الطيب، فإن الكلام مسوق لبيان أن كثرة الخبيث لا تصيره خيراً من الطيب، وإنما يكون ذلك بارتفاع الخبيث من حضيض الرداءة والخسة الى

١. المائدة ٩٤-٩٩: بحث روائي حرمة الصيد في حال الاحرام.

أوج الكرامة والعزة حتى يساوي الطيب في مكانته ثم يعلو عليه ولو قيل: لا يستوي الطيب والخبيث كانت العناية الكلامية متعلقة ببيان أن الطيب لا يكون أردى وأخس من الخبيث، وكان من الواجب حينئذ أن يذكر بعده أمر قلة الطيب مكان كثرة الخبيث فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تفريع على المثل المضروب في صدر الآية، ومحصل المعنى أن التقوى لما كان متعلقة الشرائع الإلهية التي تبتني هي أيضاً على طيبات وخبائث تكوينية في رعاية أمرها سعادة الانسان وفلاحه على ما لا يرتاب في ذلك ذو لب وعقل فيجب عليكم يا اولي الألباب أن تتقوا الله بالعمل بشرائعه لعلكم تفلحون.

١٠١ ● يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ.

١٠٢ ● قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ الآية: الإبداء الإظهار، وساءه كذا خلاف سرّه.

والآية تنهى المؤمنين عن أن يسألوا عن أشياء إن تبد لهم تسؤهم، وقد سكتت أولاً عن المسؤول من هو؟ غير أن قوله بعد: «وإن تسألوا عنها حين ينزّل القرآن تبد لكم»، وكذا قوله في الآية التالية: «قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين» يدل على أن النبي ﷺ

مقصود بالسؤال مسؤول بمعنى أن الآية سيقت للنهي عن سؤال النبي ﷺ عن أشياء من شأنها كيت وكيت، وإن كانت العلة المستفادة من الآية الموجبة للنهي تفيد شمول النهي لغير مورد الفرض وهو أن يسأل الانسان ويفحص عن كل ما عفاه العفو الإلهي، وضرب دون الاطلاع عليه بالأسباب العادية والطرق المألوفة ستراً فإن في الاطلاع على حقيقة مثل هذه الامور مظنة الهلاك والشقاء كمن تفحص عن يوم وفاته أو سبب هلاكه أو عمر أحبته وأعزته أو زوال ملكه وعزته، وربما كان ما يطلع عليه هو السبب الذي يخترمه بالفناء أو يهدده بالشقاء.

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ يقال: سأله وسأل عنه بمعنى، و«ثم» يفيد التراخي بحسب الرتبة الكلامية دونه بحسب الزمان. والباء في قوله: «بها» متعلقة بقوله «كافرين» على ما هو ظاهر الآية من كونها مسوقة للنهي عن السؤال عما يتعلق بقيود الأحكام والشرائع المسكوت عنها عند التشريع؛ فالكفر كفر بالأحكام من جهة استلزامها تحرج النفوس عنها وتضيق القلوب من قبولها. ويمكن أن تكون الباء للسببية ولا يخلو عن بعد.

والآية وإن أبهمت القوم المذكورين ولم يعرفهم لكن في القرآن الكريم ما يمكن أن تنطبق عليه الآية من القصص كقصة المائدة من قصص النصارى وقصص اخرى من قوم موسى وغيرهم.

١٠٢ ● مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ.

١٠٤ ● وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلىٰ ما أَنْزَلَ اللّٰهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿ما جَعَلَ اللّٰهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حامٍ﴾. هذه أصناف من الأنعام كان أهل الجاهلية يرون لها أحكاماً مبنية على الاحترام ونوع من التحرير. وقد نفى الله سبحانه أن يكون جعل من ذلك شيئاً. فالجعل المنفي متعلق بأوصافها دون ذواتها فإن ذواتها مخلوقة لله سبحانه أن يكون جعل من ذلك شيئاً. فالجعل المنفي متعلق بأوصافها دون ذواتها فإن ذواتها مخلوقة لله سبحانه من غير شك. وكذلك أوصافها من جهة أنها أوصاف فحسب. وإنما الذي تقبل الإسناد إليه تعالى ونفيه هي أواصافها من جهة كونها مصادر لأحكام كانوا يدعونها لها فهي التي تقبل الإسناد ونفيه، فنفي جعل البحيرة وأخواتها في الآية نفي لمشروعية الأحكام المنتسبة اليها المعروفة عندهم.

وهذا الأصناف الأربعة من الأنعام وإن اختلفوا في معنى أسمائها ويتفرع عليه الاختلاف في تشخيص أحكامها كما ستقف عليه، لكن من المسلم أن أحكامها مبنية على نوع من تحريرها والاحترام لها برعاية حالها، ثلاثة منها وهي البحيرة والسائبة والحامي من الإبل، وواحدة وهي الوصيلة من الشاة.

أما البحيرة ففي المجمع: أنها الناقة كانت اذا نتجت خمسة أبطن وكان آخرها ذكراً بحروا أُذنها (أي شقوها شقاً واسعاً) وامتنعوا عن ركوبها ونحرها، ولا تطرد عن ماء ولا تمنع عن مرعى، فإذا لقيها المعيي لم تركبها، عن الزجاج.

وقيل: إنهم كانوا اذا نتجت الناقة خمسة أبطن نظروا في البطن الخامس فإن كان ذكراً نحروه

فأكله الرجال والنساء جميعاً، وإن كانت أنثى شقوا أُذنها فتلك البحيرة ثم لا يجزّ لها وبر، ولا يذكر لها اسم الله إن ذكيت، ولا حمل عليها، وحرم على النساء أن يذقن من لبنها شيئاً، ولا أن ينتفعن بها، وكان لبنها ومنافعها للرجال خاصة دون النساء حتى تموت فإذا ماتت اشتركت الرجال والنساء في أكلها، عن ابن عباس، وقيل: إن البحيرة بنت السائبة، عن محمد بن إسحاق.

وأما السائبة فني المجمع أنها ما كانوا يسيبونه فإن الرجل اذا نذر القدوم من سفر أو البرء من علة أو ما أشبه ذلك قال: ناقتي سائبة فكانت كالبحيرة في أن لا ينتفع بها، وأن لا تخلى عن ماء ولا تمنع من مرعى، عن الزجاج، وهو قول علقمة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ الى آخر الآية في حكاية دعوتهم الى ما أنزل الله الى الرسول الذي شأنه البلاغ فقط فالدعوة دعوة الى الحق وهو الصدق الخالي عن الفرية، والعلم المبرى من الجهل فإن الآية السابقة تجمع الافتراء وعدم التعقل في جانبهم فلا يبقى لما يدعون اليه ـ أعني جانب الله سبحانه ـ إلا الصدق والعلم.

لكنهم ما دفعوه إلا بالتقليد حيث قالوا: حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا، والتقليد وإن كان حقاً في بعض الأحيان وعلى بعض الشروط وهو رجوع الجاهل الى العالم، وهو مما استقر عليه سير المجتمع الانساني في جميع أحكام الحياة التي لا يتيسر فيها للانسان أن يحصّل العلم بما يحتاج الى سلوكه من الطريق الحيوي، لكن تقليد الجاهل في جهله بمعنى رجوع الجاهل الى جاهل آخر مثله مذموم في سنة العقلاء كما يذم رجوع العالم الى عالم آخر بترك ما يستقلّ بعمله من نفسه والأخذ بما يعلم غيره.

ولذلك ردّه تعالى بقوله «أولو كان آباؤهم لا يعلمون ولا يهتدون» ومفاده أن العقل ـ لو كان هناك عقل ـ لا يبيح للانسان الرجوع الى من لا علم عنده ولا اهتداء فهذه سنّة الحياة لا تبيح سلوك طريق لا تؤمن مخاطره، ولا يعلم وصفه لا بالاستقلال ولا باتباع من له به خبرة.

ولعل إضافة قوله: «ولا يهتدون» الى قوله: «لا يعلمون شيئاً» لتتميم قيود الكلام بحسب الحقيقة. فإن رجوع الجاهل الى مثله وإن كان مذموماً لكنه إنما يذم اذا كان المسؤول المتبوع مثل السائل التابع في جهله لا يمتاز عنه بشيء. وأما اذا كان المتبوع نفسه يسلك الطريق بهداية عالم خبير به ودلالته فهو مهتد في سلوكه. ولا ذمّ على من اتبعه في مسيره وقلده في سلوك الطريق. فإن الأمر ينتهي الى العلم بالآخرة كمن يتبع عالماً بأمر الطريق ثم يتبعه آخر جاهل به.

ومن هنا يتضح أن قوله: «أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً» غير كاف في تمام الحجة عليهم لاحتمال أن يكون آباؤهم الذين اتبعوهم بالتقليد مهتدين بتقليد العلماء الهداة فلا يجري فيهم حكم الذم. ولا تتم عليهم الحجة فدفع ذلك بأن آباءهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون. ولا مسوغ لاتباع من هذا حاله.

ولما تحصل من الآية الاولى أعني قوله: «ما جعل الله من بحيرة» الخ: أنهم بين من لا يعقل شيئاً وهم الأكثرون ومن هو معاند مستكبر تحصل أنهم بمعزل من أهلية توجيه الخطاب وإلقاء الحجة ولذلك لم تلق اليهم الحجة في الآية الثانية بنحو التخاطب بل سيق الكلام على خطاب غيرهم والصفح عن مواجهتم فقيل «أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون».

وقد تقدم في الجزء الأول من أجزاء هذا الكتاب بحث علمي أخلاقي في معنى التقليد يمكنك أن تراجعه.

ويتبين من الآية أن الرجوع الى كتاب الله والى رسوله ـ وهو الرجوع الى السنة ـ ليس من التقليد المذموم في شيء.

١٠٥ ● يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ لفظة «عليكم» اسم فعل بمعنى ألزموا، و«أنفسكم» مفعوله.

ومن المعلوم أن الضلال والاهتداء ـ وهما معنيان متقابلان ـ إنما يتحققان في سلوك الطريق لا غير؛ فالملازم لمتن الطريق ينتهي الى ما ينتهي إليه الطريق، وهو الغاية المطلوبة التي يقصدها الإنسان السالك في سلوكه. أما اذا استهان بذلك وخرج عن مستوى الطريق فهو الضلال الذي تفوت به الغاية المقصودة فالآية تقدر للانسان طريقاً يسلكه ومقصداً يقصده غير أنه ربما لزم الطريق فاهتدى إليه أو فسق عنه فضلّ وليس هناك مقصد يقصده القاصد إلا الحياة السعيدة. والعاقبة الحسنى بلا ريب لكنها مع ذلك تنطبق بأن الله سبحانه هو المرجع الذي يرجع اليه الجميع: المهتدي والضال.

فالثواب الذي يريده الإنسان في مسيره بالفطرة إنما هو عند الله سبحانه يناله المهتدون، ويحرم عنه الضلال، ولازم ذلك أن يكون جميع الطرق المسلوكة لأهل الهداية والطرق المسلوكة لأهل الضلال تنتهي الى الله سبحانه، وعنده سبحانه الغاية المقصودة وإن كانت تلك الطرق مختلفة في إيصال الإنسان الى البغية والفوز والفلاح أو ضربه بالخيبة والخسران، وكذلك في القريب والبعد كما قال تعالى: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح الى ربك كدحاً فلاقيه﴾ (الإنشقاق / ٦) وقال تعالى: ﴿ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ (المجادلة / ٢٢) وقال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار﴾ (إبراهيم / ٢٨) وقال تعالى: ﴿فإني قريب أُجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ (البقرة / ١٨٦) وقال تعالى: ﴿والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى اولئك ينادون من مكان بعيد﴾

(السجدة / ٤٤).

بين تعالى في هذه الآيات أن الجميع سائرون اليه سبحانه سيراً لا مناص لهم عنه، غير أن طريق بعضهم قصير وفيه الرشد والفلاح، وطريق آخرين طويل لا ينتهي الى سعادة، ولا يعود الى سالكه إلا الهلاك والبوار.

وبالجملة فالآية تقدر للمؤمنين وغيرهم طريقين اثنين ينتهيان الى الله سبحانه، وتأمر المؤمنين بأن يشتغلوا بأنفسهم وينصرفوا عن غيرهم وهم أهل الضلال من الناس ولا يقعوا فيهم ولا يخافوا ضلالهم فإنما حسابهم على ربهم لا على المؤمنين وليسوا بمسؤلين عنهم حتى يهمهم أمرهم؛ فالآية قريبة المضمون من قوله تعالى: **﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون﴾** (الجاثية / ١٤) ونظيرها قوله تعالى: **﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾** (البقرة / ١٣٤).

فعلى المؤمن أن يشتغل بما يهم نفسه من سلوك سبيل الهدى، ولا يهزهزه ما يشاهده من ضلال الناس وشيوع المعاصي بينهم ولا يشغله ذلك ولا يشتغل بهم فالحق حق وإن ترك والباطل باطل وإن أُخذ به كما قال تعالى: **﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا اولي الألباب لعلكم تفلحون﴾** (المائدة / ١٠٠) وقال تعالى: **﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾** (حم السجدة / ٣٤).

فقوله تعالى: **﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾** بناء على ما مر مسوق سوق الكناية أُريد به نهي المؤمنين عن التأثر من ضلال من ضل من الناس فيحملهم ذلك على ترك طريق الهداية كأن يقولوا: إن الدنيا الحاضرة لا تساعد الدين ولا تبيح التنحل بالمعنويات فإنما ذلك من السنن الساذجة وقد مضى زمنه وانقرض أهله، قال تعالى: **﴿وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾** (القصص / ٥٧).

أو يخافوا ضلالهم على هدى أنفسهم فيشتغلوا بهم وينسوا أنفسهم فيصيروا مثلهم فإنما الواجب على المؤمن هو الدعوة الى ربه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبالجملة الأخذ بالأسباب العادية ثم إيكال أمر المسببات الى الله سبحانه فإليه الأمر كله ، فأما أن يهلك نفسه في سبيل إنقاذ الغير من الهلكة فلم يؤمر به ، ولا يؤاخذ بعمل غيره ، وما هو عليه بوكيل ، وعلى هذا فتصير الآية في معنى قوله تعالى : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ، إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ، وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً ﴾ (الكهف / ٨) ، وقوله تعالى : ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعاً أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ﴾ (الرعد / ٣١) ونحو ذلك[١][٢][٣] .

١٠٦ ● يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلٰوةِ فَيُقْسِمانِ بِاللّٰهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كانَ ذا قُرْبىٰ وَلا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللّٰهِ إِنّا إِذاً لَمِنَ الآثِمِينَ .

---

١ . المائدة ١٠٥ : بحث في تربية النفس .

٢ . المائدة ١٠٥ : بحث روائي في النفس ومعرفتها وتربيتها .

٣ . المائدة ١٠٥ : بحث علمي ملفق من اشارات تاريخية وابحاث اخر نفسية وغير ذلك في فصول (حقيقة النفس ، معرفة النفس ، اساليب الاقوام والشعوب المختلفة من تزكية النفس ، العرفان ، كرامات خارقة للعادة ، متى انقادت الاشياء للانسان ، علم النفس .

١٠٧ ● فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ.

١٠٨ ● ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ.

١٠٩ ● يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ الى آخر الآيتين؛ محصل مضمون الآيتين أن أحدهم اذا كان على سفر فأراد أن يوصي فعليه أن يشهد حين الوصية شاهدين عدلين من المسلمين وإن لم يجد فشاهدين آخرين من غير المسلمين من أهل الكتاب فإن ارتاب أولياء الميت في أمر الوصية يحبس الشاهدان بعد الصلاة فيقسمان بالله على صدقهما فيما يشهدان عليه وترفع بذلك الخصومة. فإن اطلعوا على أن الشاهدين كذبا في شهادتهما أو خانا في الأمر فيوقف شاهدان آخران مقام الشاهدين الأولين فيشهدان على خلافهما ويقسمان بالله على ذلك.

فهذا ما تفيده الآيتان بظاهرهما فقوله «يا أيها الذين آمنوا» خطاب للمؤمنين والحكم مختص بهم «شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم» أي شهادة بينكم شهادة ذوي عدل منكم، ففي جانب الخبر مضاف مقدر، أو شهداء بينكم ذوا

عدل منكم، والمراد أن عدد الشهود اثنان فالمصدر ـ الشهادة ـ بمعنى اسم الفاعل كقولهم: رجل عدل ورجلان عدل.

وحضور الموت كناية عن حضور داعي الوصية فإن الناس بحسب الطبع لا يشتغلون بأمثال هذه الامور من غير حضور أمر يوجب الظن بالموت، وهو عادة المرض الشديد الذي يشرف الإنسان به على الموت.

وقوله: ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ ظرف متعلق بالشهادة أي الشهادة حين الوصية، والمراد بالعدل ـ وهو مصدر ـ الاستقامة في الأمر، وقرينة المقام تعطي أن المراد به الاستقامة في أمر الدين، ويتعين بذلك أن المراد بقوله: «منكم» وقوله: «من غيركم» المسلمون وغير المسلمين، دون القرابة والعشيرة فإن الله سبحانه قابل بين قوله: «اثنان» وقوله: «آخران»، ثم وصف الأول بقوله «ذوا عدل» وقوله: «منكم» ولم يصف الثاني إلا بقوله «من غيركم» دون أن يصفه بالعدالة، والاتصاف بالاستقامة في الدين وعدمه إنما يختلف في المسلم وغير المسلم، ولا موجب لاعتبار العدالة في الشهود اذا كانوا قرابة أو من عشيرة المشهود له وإلغائها اذا كان الشاهد أجنبياً.

وعلى هذا فقوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ ترديد على سبيل الترتيب أي إن كان هناك نفر من المسلمين يستشهد اثنان منهم، وإن لم يكن إلا من غير المسلمين يستشهد باثنين منهم، كل ذلك بالاستفادة من قرينة المقام.

وهذه القرينة بعينها هي التي توجب أن يكون قوله: «إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت» قيداً متعلقاً بقوله «أو آخران من غيركم» فإن المسلم لما كان بالطبع إنما يعيش في مجتمع المسلمين لا تمس الحاجة في الحضر عادة الى الاستشهاد بشهيدين من غير المسلمين بخلاف حالة السفر والضرب في الأرض فإنها مظنة وقوع أمثال هذه الوقائع والاضطرار ومسيس الحاجة الى الانتقاع من غير المسلم بشهادة أو غيرها.

وقرينة المقام أعني المناسبة بين الحكم والموضوع بالذوق المتخذ من كلامه تعالى تدل على أن المراد من غير المسلمين أهل الكتاب خاصة لأن كلامه تعالى لا يشرف المشركين بكرامة .

وقوله تعالى : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلوٰةِ ﴾ أي توقفونهما ، والحبس الايقاف ، « فيقسمان بالله » أي الشاهدان « إن ارتبتم » أي شككتم فيما يظهره الوصي من أمر الوصية أو المال الذي تعلقت به الوصية أو في كيفية الوصية ، والمقسم عليه هو قوله : « ولا نشتري به ثمناً قليلاً ولو كان ذا قربى » أي لا نشتري بالشهادة للوصي فيما يدعيه ثمناً قليلاً ولو كان ذا قربى ، واشتراء الثمن القليل بالشهادة أن ينحرف الشاهد في شهادته عن الحق لغاية دنيوية من مال أو جاه أو عاطفة قرابة فيبذل شهادته بإزاء ثمن دنيوي ، وهو الثمن القليل .

وقوله : ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهٰادَةَ اللّٰهِ ﴾ أي بالشهادة على خلاف الواقع « إنا اذاً لمن الآثمين » الحاملين للاثم ، والجملة معطوفة على قوله : « لا نشتري به ثمناً قليلاً » كعطف التفسير .

وإضافة الشهادة الى الله في قوله : « شهادة الله » إما لأن الواقع يشهده الله سبحانه كما شهده الشاهدان فهو شهادته سبحانه كما هو شهادتهما والله أحق بالملك فهو شهادته تعالى حقاً وبالأصالة وشهادتهما تبعاً ، وقد قال تعالى : ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ (النساء / ٧٩) وقال تعالى : ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ (البقرة / ٢٥٥ .

وإما لأن الشهادة حق مجعول لله على عباده يجب عليهم أن يقيموها على وجهها من غير تحريف أو كتمان ، وهذا كما يقال : دين الله ، فينسب الدين إليه تعالى مع أن العباد هم المتلبسون به ، قال تعالى : ﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾ (الطلاق / ٢) وقال : ﴿ ولا تكتموا الشهادة ﴾ (البقرة / ٢٨٣) .

وقوله : ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً ﴾ العثور على الشيء الحصول عليه

ووجدانه، وهذه الآية بيان وتفصيل للحكم في صورة ظهور خيانة الشاهدين وكذبهما في شهادتهما.

والمراد باستحقاق الإثم الإجرام والجناية يقال: استحق الرجل أي أذنب، واستحق فلان إثماً على فلان كناية عن إجرامه وجنايته عليه ولذا عدي بعلى في قوله تعالى: ذيلاً: «استحق عليهم الأوليان» أي أجرما وجنيا عليهم بالكذب والخيانة، وأصل معنى قولنا: استحق الرجل طلب أن يحق ويثبت فيه الإثم أو العقوبة فاستعماله الكنائي من قبيل إطلاق الطلب وإرادة المطلوب ووضع الطريق موضع الغاية، وإنما ذكر الإثم في قوله: «إستحقا إثماً» بالبناء على ما تقدم في قوله: «إنا اذاً لمن الآثمين».

وقوله تعالى: ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ أي إن عثر على أن الشاهدين استحقا بالكذب والخيانة فشاهدان آخران يقومان مقامهما في اليمين على شهادتهما عليهما بالكذب والخيانة.

وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ في موضع الحال أي حال كون هذين الجديدين من الذين استحق عليهم أي أجرم وجنى عليهم الشاهدان الأولان اللذين هما الأوليان الأقربان بالميت من جهة الوصية كما ذكره الرازي في تفسيره، والمراد بالذين استحق عليهم الأوليان أولياء الميت، وحاصل المعنى أنه إن عثر على أن الشاهدين أجرما على أولياء الميت بالخيانة والكذب فيقوم شاهدان آخران من أولياء الميت الذين أجرم عليهم الشاهدان الأولان الأوليان بالموت قبل ظهور استحقاقهما الإثم.

هذا على قراءة «استحق» بالبناء للفاعل وهو قراءة عاصم على رواية حفص، وأما على قراءة الجمهور «استحق» بضم التاء وكسر الحاء بالبناء للمفعول فظاهر السياق أن يكون الأوليان مبتدأ خبره قوله: «فآخران يقومان» الخ: قدم عليه لتعلق العناية به، والمعنى إن عثر على أنهما استحقا إثماً فالأوليان بالميت هما آخران يقومان مقامهما من أوليائه المجرم

عليهم.

وفي قراءة عاصم من طريق أبي بكر وحمزه وخلف ويعقوب «الأولين» جمع الأول مقابل الآخر، وهو بظاهره بمعنى الأولياء والمقدمين، وصف أو بدل من قوله: «الذين».

وقد فرع على قوله: «فآخران يقومان» الخ؛ تفريع الغاية على ذي الغاية قوله: «فيقسمان بالله» أي الشاهدان الآخران من أولياء الميت «لشهادتنا» بما يتضمن كذبهما وخيانتهما «أحق من شهادتهما» أي من شهادة الشاهدين الأولين بما يدعيان من أمر الوصية «وما اعتدينا» عليهما بالشهادة على خلاف ما شهدا عليه «إنا اذاً لمن الظالمين».

قوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ أَدْنىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهٰادَةِ عَلَى وَجْهِهٰا أَوْ يَخٰافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمٰانٌ بَعْدَ أَيْمٰانِهِمْ﴾ الآية؛ في مقام بيان حكمة التشريع وهي أن هذا الحكم على الترتيب الذي قرره الله تعالى أحوط طريق الى حيازة الواقع في المقام، وأقرب من أن لا يجور الشاهدان في شهادتهما ويخافا من أن يتغير الأمر عليهما برد شهادتهما بعد قبولها.

ثم عقب تعالى القول بالموعظة والإنذار فقال «واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدي القوم الفاسقين» والمعنى واضح.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللّٰهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مٰاذٰا أُجِبْتُمْ قٰالُوا لاٰ عِلْمَ لَنٰا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاّٰمُ الْغُيُوبِ﴾ الآية؛ لا تأبى الإتصال بما قبلها فإن ظاهر قوله تعالى في ذيل الآية السابقة: «واتقوا الله واسمعوا» الخ؛ وإن كان مطلقاً لكنه بحسب الانطباق على المورد نهي عن الانحراف والجور في الشهادة والاستهانة بأمر اليمين بالله فناسب أن يذكر في المقام بما يجري بينه سبحانه وبين رسله يوم القيامة وهم شهداء على اممهم وأفضل الشهداء، حيث يسألهم الله سبحانه عن الذي أجابهم به اممهم وهم أعلم الناس بأعمال اممهم والشاهدون من عند الله عليهم فيجيبونه بقولهم «لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب».

فإذا كان الأمر على هذه الوتيرة، وكان الله سبحانه هو العالم بكل شيء حق العلم فجدير

بالشهود أن يخافوا مقام ربهم: ولا ينحرفوا عن الحق الذي رزقهم الله العلم به. ولا يكتموا شهادة الله فيكونوا من الآثمين والظالمين والفاسقين.

فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ﴾ الخ؛ ظرف متعلق بقوله في الآية السابقة «واتقوا الله» الخ؛ وذكر جمع الرسل دون أن يقال «يوم يقول الله للرسل» لمكان مناسبة مع جمع الشهداء للشهادة كما يشعر به قوله: «تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله».

وأما نفيهم العلم يومئذ عن أنفسهم بقولهم «لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب» فإثباتهم جميع علوم الغيوب لله سبحانه على وجه الحصر يدل على أن المنفي ليس أصل العلم فإن ظاهر قولهم «إنك أنت علام الغيوب» يدل على أنه لتعليل النفي. ومن المعلوم أن انحصار جميع علوم الغيب في الله سبحانه لا يقتضي رفع كل علم عن غيره وخاصة اذا كان علماً بالشهادة، والمسؤول عنه أعني كيفية إجابة الناس لرسلهم من قبيل الشهادة دون الغيب.

فقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ ليس نفياً لمطلق العلم بل لحق العلم الذي لا يخلو عن التعلق بالغيب فإن من المعلوم أن العلم إنما يكشف لعالمه من الواقع على قدر ما يتعلق بأمر من حيث أسبابه ومتعلقاته. والواقع في العين مرتبط بجميع أجزاء الخارج مما يتقدم على الأمر الواقع في الخارج وما يحيط به مما يصاحبه زماناً فالعلم بأمر من الامور الخارجية بحقيقة معنى العلم لا يحصل إلا بالإحاطة بجميع أجزاء الوجود ثم بصانعه المتعالي من أن يحيط به شيء. وهذا أمر وراء الطاقة الإنسانية.

فلم يرزق الإنسان من العلم في هذا الكون الذي يبهته التفكير في سعة ساحته، وتهوله النظرة في عظمة أجرامه ومجراته، ويطير لبه الغور في متون ذراته، ويأخذه الدوار اذا أراد الجري بين هاتين الغايتين إلا اليسير من العلم على قدر ما يحتاج اليه في مسير حياته كالشمعة الصغيرة يحملها طارق الليل المظلم لا ينتفع من نورها إلا أن يميز ما يضع عليه قدمه من الأرض.

فما يتعلق به علم الانسان ناشب بوجوده متعلق بواقعيته بأطراف ثم بأطراف أطراف. وهكذا كل ذلك في غيب من إدراك الانسان فلا يتعلق العلم بحقيقة معنى الكلمة بشيء إلا اذا كان متعلقاً بجميع الغيوب في الوجود. ولا يسع ذلك لمخلوق محدود مقدر إنساناً أو غيره إلا لله الواحد القهار الذي عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو. قال الله تعالى: ﴿ **والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ (البقرة / ٢١٦) فدل على أن من طبع الانسان الجهل فلا يرزق من العلم إلا محدوداً مقدراً كما قال تعالى: ﴿ **وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم** ﴾ (الحجر ٢١) وهو قوله عليه السلام حيث سئل عن علة احتجاب الله عن خلقه فقال: لأنه بناهم بنية على الجهل. وقال تعالى: ﴿ **ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء** ﴾ (البقرة / ٢٥٥) فدل على أن العلم كله لله. وإنما يحيط منه الانسان بما شاء الله. وقال تعالى: ﴿ **وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾ (الإسراء / ٨٥) فدل على أن هناك علماً كثيراً لم يؤت الإنسان إلا قليلاً منه.

فإذن حقيقة الأمر أن العلم حق العلم لا يوجد عند غير الله سبحانه. واذ كان يوم القيامة يوماً يظهر فيه الأشياء بحقائقها على ما تفيده الآيات الواصفة لأمره فلا مجال فيه إلا للكلام الحق كما قال تعالى: ﴿ **لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً. ذلك اليوم الحق** ﴾ (النبأ / ٣٩) كان من الجواب الحق اذا ما سئل الرسل فقيل لهم «ماذا أُجبتم» أن يجيبوا بنفي العلم عن أنفسهم لكونه من الغيب. ويثبتوه لربهم سبحانه بقولهم ﴿ **لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب** ﴾.

وهذا الجواب منهم عليهم السلام نحو خضوع لحضرة العظمة والكبرياء واعتراف بحاجتهم الذاتية وبطلانهم الحقيقي قبال مولاهم الحق رعاية لأدب الحضور وإظهاراً لحقيقة الأمر. وليس جواباً نهائياً لا جواب بعد البتة:

أما أولاً فلأن الله سبحانه جعلهم شهداء على اممهم كما ذكره في قوله: ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً** ﴾ (النساء / ٤١) وقال: ﴿ **ووضع الكتاب وجيء**

بالنبيين والشهداء﴾ (الزمر / ٦٩) ولا معنى لجعلهم شهداء إلا لشهدوا على اممهم يوم القيامة بما هو حق الشهادة يومئذ، فلا محالة هم سيشهدون يومئذ كما قدر الله ذلك فقولهم يومئذ ﴿لا علم لنا﴾ جري على الأدب العبودي قبال الملك الحق الذي له الأمر والملك يومئذ، وبيان لحقيقة الحال وهو أنه هو يملك العلم لذاته ولا يملك غيره إلا ما ملكه، ولا ضير أن يجيبوا بعد هذا الجواب بما لهم من العلم الموهوب المتعلق بأحوال اممهم، وهذا مما يؤيد ما قدمناه في البحث عن قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾ الآية (البقرة / ١٤٣) في الجزء الأول من هذا الكتاب: أن هذا العلم والشهادة ليسا من نوع العلم والشهادة المعروفين عندنا وأنهما من العلم المخصوص بالله الموهوب لطائفة من عباده المكرمين.

وأما ثانياً فلأن الله سبحانه أثبت العلم لطائفة من مقربي عباده يوم القيامة على ما له من الشأن، قال تعالى: ﴿وقال الذين اوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث﴾ (الروم / ٥٦) وقال تعالى: ﴿وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم﴾ (الأعراف / ٤٦) وقال تعالى: ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ (الزخرف / ٨٧) وعيسى بن مريم عليه السلام ممن تعمه الآية وهو رسول فهو ممن يشهد بالحق وهم يعلمون، وقال تعالى: ﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾ (الفرقان / ٣١) والمراد بالرسول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والذي تحكيه الآية من قوله هو بعينه جواب لما تشتمل عليه هذه الآية من السؤال أعني قوله تعالى: ﴿فيقول ماذا أُجبتم﴾ فظهر أن قول الرسل عليهم السلام ﴿لا علم لنا﴾ ليس جواباً نهائياً كما تقدم.

وأما ثالثاً فلأن القرآن يذكر السؤال عن المرسلين والمرسل إليهم جميعاً كما قال تعالى: ﴿فلنسألن الذين أُرسل اليهم ولنسألن المرسلين﴾ (الأعراف / ٦) ثم ذكر عن الامم المرسل اليهم جوابات كثيرة عن سؤالات كثيرة، والجواب يستلزم العلم كما أن السؤال يقرره، وقال

أيضاً فيهم: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ (ق / ٢٢) وقال أيضاً: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ (السجدة / ١٢) الى غير ذلك من الآيات الكثيرة، واذا كانت الامم ـ وخاصة المجرمون منهم ـ على علم في هذا اليوم فكيف يتصور أن يعدمه الرسل الكرام عليهم السلام فالمصير الى ما قدمناه(١)(٢)(٣)(٤).

١١٠ ۞ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ.

١١١ ۞ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ.

---

١. المائده ١٠٥: كلام في معنى الشهادة.

٢. المائده ١٠٥: كلام في العدالة.

٣. المائدة ١٠٥: كلام في اليمين.

٤. المائدة ١٠٥: بحث روائي في: الوصية، الشهادة، معنى الآية «لا علم لنا انك انت علام الغيوب».

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ـ الى قوله ـ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ الآية تعد عدة من الآيات الباهرة الظاهرة بيده عليه السلام إلا أنها تمتن بها عليه وعلى امه جميعاً، وهي مذكورة بهذا اللفظ تقريباً فيما يحكيه تعالى من تحديث الملائكة مريم عند بشارتها بعيسى عليه السلام في سورة آل عمران، قال تعالى: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ـ الى أن قال ـ ويكلم الناس في المهد وكهلاً ـ الى أن قال ـ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ورسولاً إلى بني إسرائيل، أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأُبرىء الأكمه والأبرص وأُحيي الموتى بإذن الله﴾ الآيات (٤٥ ـ ٥٠).

والتأمل في سياق الآيات يوضح الوجه في عدّ ما ذكره من الآيات المختصة ظاهراً بالمسيح نعمة عليه وعلى والدته جميعاً كما تشعر به آيات آل عمران فإن البشارة إنما تكون بنعمة، والأمر على ذلك فإن ما اختص به المسيح عليه السلام من آية وموهبة كالولادة من غير أب والتأييد بروح القدس وخلق الطير وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله سبحانه فهي بعينها كرامة لمريم كما أنها كرامة لعيسى عليه السلام فهما معاً منعمان بالنعمة الإلهية كما قال تعالى: ﴿نعمتي التي أنعمت عليك وعلى والدتك﴾.

والى ذلك يشير تعالى بقوله ﴿وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ (الأنبياء / ٩١) حيث عدهما معاً آية واحدة لا آيتين.

وقوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ الظاهر أن التأييد بروح القدس هو السبب المهيىء له لتكليم الناس في المهد، ولذلك وصل قوله: ﴿تكلم الناس﴾ من غير أن يفصله بالعطف الى الجملة السابقة إشعاراً بأن التأييد والتكليم معاً أمر واحد مؤلف من سبب

ومسبب، واكتفى في موارد من كلامه بذكر أحد الأمرين عن الآخر كقوله في آيات آل عمران المنقولة آنفاً: ﴿ وتكلم الناس في المهد وكهلاً ﴾، وقوله: ﴿ وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدنا بروح القدس ﴾ (البقرة / ٢٥٣).

على أنه لو كان المراد بتأييده بروح القدس مسألة الوحي بوساطة الروح لم يختص بعيسى بن مريم عليه السلام وشاركه فيها سائر الرسل مع أن الآية تأبى ذلك بسياقها.

وقوله: ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ من الممكن أن يستفاد منه أنه عليه السلام إنما تلقى علم ذلك كله بتلق واحد عن أمر إلهي واحد من غير تدريج وتعدد كما أنه أيضاً ظاهر جمع الجميع وتصديرها بإذ من غير تكرار لها.

وكذلك قوله: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي ﴾ ظاهر السياق من جهة عدم تكرار لفظة «إذ» أن خلق الطير وإبراء الأكمه والأبرص كانا متقارنين زماناً، وأن تذييل خلق الطير بذكر الإذن من غير أن يكتفي بالإذن المذكور في آخر الجملة إنما هو لعظمة أمر الخلق بإفاضة الحياة فتعلقت العناية به فاختص بذكر الإذن بعده من غير أن ينتظر فيه آخر الكلام صوناً لقلوب السامعين من أن يخطر فيها أن غيره تعالى يستقل دونه بإفاضة الحياة أو تلبث فيها هذه الخطرة ولو لحظات يسيرة. والله أعلم.

وقوله: ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾ إخراج الموتى كناية عن إحيائها، وفيه عناية ظاهرة بأن الإحياء الذي جرى على يديه عليه السلام كان إحياء لموتى مقبورين بإفاضة الحياة عليهم وإخراجهم من قبورهم الى حياة دنيوية، وفي اللفظ دلالة على الكثرة، وقد تقدم في الكلام على آيات آل عمران بقية ما يتعلق بهذه الآيات من الكلام فراجع ذلك.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ ﴾ الى آخر الآية: فيه دلالة على أنهم قصدوه بشر فكفهم الله عن ذلك فينطبق على ما ذكره الله في سورة آل عمران في قصصه عليه السلام

بقوله ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحَوارِيِّينَ ﴾ الآية: الآية منطبقة على آيات سورة آل عمران بقوله ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بانا مسلمون ﴾ (آل عمران / ٥٢).

ومن هنا يظهر أن هذا الايمان الذي ذكره في الآية بقوله «وإذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا» الآية: غير إيمانهم الأول به ﷺ فإن ظاهر قوله في آية آل عمران: ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر ﴾ أنه كان في أواخر أيام دعوته وقد كان الحواريون وهم السابقون الأولون في الايمان به ملازمين له.

على أن ظاهر قوله في آية آل عمران: ﴿ قال من أنصاري الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون ﴾ أن الدعوة إنما سيقت لأخذ الميثاق على نصرة دين الله لا أصل الإيمان بالله. لأنك ختم الآية بقولهم «وأشهد بأنا مسلمون» وهو التسليم لأمر الله بإقامة دعوته وتحمل الأذى في جنبه. وكل ذلك بعد أصل الإيمان بالله طبعاً.

فتبين أن المراد بقوله «وإذ أوحيت الى الحواريين» الخ: قصة أخذ الميثاق من الحواريين. وفي الآية ابحاث اخر مرت في تفسير سورة آل عمران[1].

١١٢ ● إِذْ قَالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ قالَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.

١١٣ ● قالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَنَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ.

---

١. المائدة ١١٢ـ١١٥: بحث روائي في: المعجزة وتناسبها لزمانها: ان عيسى هل احيى احداً بعد موته.

١١٤ ● قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ.

١١٥ ● قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ.

بيان[1]:

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ «إذ» ظرف متعلق بمقدر والتقدير: اذكر اذ قال، الخ؛ أو ما يقرب منه، وذهب بعضهم الى أنه متعلق بقوله في الآية السابقة «قالوا آمنا» الخ: أي قال الحواريون: آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون في وقت قالوا فيه لعيسى «هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء» والمراد أنهم ما كانوا على صدق في دعواهم، ولا على جد في إشهادهم عيسى عليه السلام على إسلامهم له.

وفيه أنه مخالف لظاهر السياق. وكيف يكون إيمانهم غير خالص؟ وقد ذكر الله أنه هو أوحى اليهم أن آمنوا بي وبرسولي، وهو تعالى يمتن بذلك على عيسى عليه السلام؛ على أنه لا وجه حينئذ للإظهار في قوله: «إذ قال الحواريون» الخ.

و«المائدة» الخوان اذا كان فيه طعام، قال الراغب: والمائدة الطبق الذي عليه الطعام، ويقال لكل واحدة منها مائدة، ويقال: مادني يميدني أي أطعمني، انتهى.

ومتن السؤال الذي حكي عنهم في الآية وهو قولهم «هل يستطيع ربك أن ينزل علينا

---

١. المائدة ١١٢ ـ ١١٥ بحث حول قصة نزول المائدة على المسيح عليه السلام واصحابه.

مائدة من السماء » بحسب ظاهر ما يتبادر من معناه مما يستعبد العقل صدوره عن الحواريين وهم أصحاب المسيح وتلامذته وأخصاؤه الملازمون له المقتبسون من أنوار علومه ومعارفه المتبعون آدابه وآثاره، والإيمان بأدنى مراتبه ينبه الإنسان على أن الله سبحانه على كل شيء قدير، ولا يجوز عليه العجز ولا يغلبه العجز؛ فكيف جاز أن يستفهموا رسولهم عن استطاعة ربه على إنزال مائدة من السماء.

ولذلك قرأ الكسائي من السبعة « هل تستطيع ربك » بتاء المضارعة ونصب « ربك » على المفعولية أي هل تستطيع أنت أن تسأل ربك، فحذف الفعل الناصب للمفعول واقيم « تستطيع » مقامه، أو أنه مفعول لفعل محذوف فقط.

وقد اختلف المفسرون في توجيهه على بناء من أكثريهم على أن المراد به غير ما يتبادر من ظاهره من الشك في قدرة الله سبحانه لنزاهة ساحتهم من هذا الجهل السخيف.

وأوجه ما يمكن أن يقال هو أن الاستطاعة في الآية كناية عن اقتضاء المصلحة ووقوع الإذن كما أن الإمكان والقدرة والقوة يكنى بها عن ذلك كما يقال « لا يقدر الملك أن يصغي الى كل ذي حاجة » بمعنى أن مصلحة الملك تمنعه من ذلك وإلا فطلق الإصغاء مقدور له، ويقال « لا يستطيع الغني أن يعطي كل سائل » أي مصلحة حفظ المال لا تقتضيه، ويقال « لا يمكن للعالم أن يبث كل ما يعلمه » أي يمنعه عن ذلك مصلحة الدين أو مصلحة الناس والنظام الدائر بينهم، ويقول أحدنا لصاحبه « هل تستطيع أن تروح معي الى فلان »؟ وإنما السؤال عن الاستطاعة بحسب الحكمة والمصلحة لا بحسب أصل القدرة على الذهاب، هذا.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ توبيخ منه ﷺ لهم لما يشتمل عليه ظاهر كلامهم من الاستفهام عن استطاعة ربه على إنزال المائدة فإن كلامهم مريب على أي حال.

وأما على ما قدمناه من أن الأصل في مؤاخذتهم الذي يترتب عليه الوعيد الشديد في آخر الآيات هو أنهم سألوا آية حيث لا حاجة اليها واقترحوا بما في معنى العبث بآيات الله سبحانه، ثم تعبيرهم بما يتبادر من ظاهره كونهم كأنهم لم يعقدوا قلبوهم على القدرة الربوبية فوجه توبيخه ﷺ لهم بقوله «اتقوا الله إن كنتم مؤمنين» أظهر.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ السياق ظاهر في أن قولهم هذا عذر اعتذروا به للتخلص من توبيخه ﷺ وما ذكروه ظاهر التعلق باقتراحهم الآية بنزول المائدة دون ما يظهر من قولهم: هل يستطيع ربك ان ينزل، من المعنى الموهم للشك في إطلاق القدرة. وهذا ايضاً احد الشواهد على ان ملاك المؤاخذة في المقام هو انهم سألوا آية على آية من غير حاجة اليها.

وأما قولهم «نريد ان نأكل منها» الخ؛ فقد عدوا في بيان غرضهم من اقتراح الآية اموراً أربعة:

أحدها: الأكل وكأن مرادهم بذكره أنهم ما أرادوا به اللعب بآيات الله بل أرادوا أن يأكلوا منها، وهو غرض عقلائي. وقد تقدم أن هذا القول منهم كالتسليم لاستحقاقهم التوبيخ من عيسى ﷺ والوعيد الشديد من الله لمن يكفر منهم بآية المائدة.

وذكر بعضهم: أن المراد بذكر الأكل إبانة أنهم في حاجة شديدة الى الطعام ولا يجدون ما يسد حاجتهم. وذكر آخرون أن المراد: نريد أن نتبركه بأكله. وأنت تعلم أن المعنى الذي قرر في كل من هذين الوجهين أمر لا يدل عليه مجرد ذكر الأكل، ولو كان مرادهم ذلك وهو أمر يدفع به التوبيخ لكان مقتضى مقام الاعتذار التصريح بذكره، وحيث لم يذكر شيء من ذلك مع حاجة المقام الى ذكره لو كان مراداً فليس المراد بالأكل إلا مطلق معناه من حيث إنه غرض عقلائي هو أحد أجزاء غرضهم في اقتراح نزول المائدة.

الثاني: اطمئنان القلب وهو سكونه باندفاع الخطورات المنافية للخلوص والحضور.

والثالث: العلم بأنه ﷺ قد صدقهم فيا بلغهم عن ربه، والمراد بالعلم حينئذ هو العلم اليقيني الذي يحصل في القلب بعد ارتفاع الخطورات والوساوس النفسانية عنه، أو العلم بأنه قد صدقهم فيا وعدهم من ثمرات الإيمان كاستجابة الدعاء كما ذكره بعضهم، لكن يبعده أن الحواريين ما كانوا يسألون إنزال المائدة من السماء إلا بدعاء عيسى ﷺ ومسألته، وبالجملة بإعجاز منه ﷺ وقد كانوا رأوا منه ﷺ آيات كثيرة فإنه ﷺ لم يزل في حياته قريناً لآيات إلهية كبرى، ولم يرسل الى قومه ولم يدعهم دعوة إلا مع آيات ربه فلم يزالوا يرون ثمرات إيمانه من استجابة الدعاء إن كان المراد الثمرة التي هي استجابة دعائه ﷺ، وإن كان المراد الثمرة التي هي استجابة دعائهم أنفسهم فإنهم لم يسألوا نزول الآية بدعاء أنفسهم، ولم تنزل إلا بدعاء عيسى ﷺ.

الرابع: أن يكونوا عليها من الشاهدين عندما يحتاج الى الشهادة كالشهادة عند المنكرين، والشهادة عند الله يوم القيامة، فالمراد بها مطلق الشهادة، ويمكن أن يكون المراد مجرد الشهادة عند الله سبحانه كما وقع في بعض قولهم الذي حكاه الله تعالى اذ قال: ﴿ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾ (آل عمران / ٥٣).

فقد تحصل أنهم ـ فيا اعتذروا به ـ ضموا اموراً جميلة مرضية الى غرضهم الآخر الذي هو الأكل من المائدة السماوية ليحسموا به مادة الحزازة عن اقتراحهم الآية بعد مشاهدة الآيات الكافية فأجابهم عيسى ﷺ الى مسألتهم بعد الإصرار.

قوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ خلط ﷺ نفسه بهم في سؤال المائدة، وبدأ بنداء ربه بلفظ عام فقال «اللهم ربنا» وقد كانوا قالوا له «هل يستطيع ربك» ليوافق النداء الدعاء.

وقد توحد هذا الدعاء من بين جميع الأدعية والمسائل المحكية في القرآن عن الانبياء عليهم السلام بأن صدر «باللهم ربنا» وغيره من أدعيتهم مصدر بلفظ «رب» أو «ربنا» وليس إلا لدقة المورد وهول المطلع، نعم يوجد في أقسام الثناء المحكية نظير هذا التصدير كقوله: ﴿قل الحمد لله﴾ (النمل / ٥٩) وقوله: ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ (آل عمران / ٢٦) وقوله: ﴿قل اللهم فاطر السماوات والأرض﴾ (الزمر / ٤٦).

ثم ذكر عليه السلام عنواناً لهذه المائدة النازلة هو الغرض له ولأصحابه من سؤال نزولها وهو أن تنزل فتكون عيداً له ولجميع امته، ولم يكن الحواريون ذكروا فيما اقترحوه أنهم يريدون عيداً يخصون به لكنه عليه السلام عنون ما سأله بعنوان عام وقلبه في قالب حسن ليخرج عن كونه سؤالاً للآية مع وجود آيات كبرى إلهية بين أيديهم وتحت مشاهدتهم، ويكون سؤالاً مرضياً عند الله غير مصادم لمقام العزة والكبرياء فإن العيد من شأنه أن يجمع الكلمة، ويجدد حياة الملة، وينشط نفوس العائدين، ويعلن كلما عاد عظمة الدين.

ولذلك قال: «عيداً لأولنا وآخرنا» أي أول جماعتنا من الامة وآخر من يلحق بهم - على ما يدل عليه السياق - فإن العيد من العود ولا يكون عيداً إلا اذا عاد حيناً بعد حين، وفي الخلف بعد السلف من غير تحديد.

وهذا العيد مما اختص به قوم عيسى عليه السلام كما اختصوا بنوع هذه الآية النازلة على ما تقدم بيانه.

وقوله: «وآية منك» لما قدم مسألة العيد وهي مسألة حسنة جميلة لا عتاب عليها عقبها بكونها آية منه تعالى كأنه من الفائدة الزائدة المترتبة على الغرض الأصلي غير مقصودة وحدها حتى يتعلق بها عتاب أو سخط، وإلا فلو كانت مقصودة وحدها من حيث كونها آية لم تخلُ مسألتها من نتيجة غير مطلوبة فإن جميع المزايا الحسنة التي كان يمكن أن يراد بها كانت ممكنة الحصول بالآيات المشهودة كل يوم منه عليه السلام للحواريين

وغيرهم.

وقوله: «وارزقنا وأنت خير الرازقين» وهذه فائدة اخرى عدها مترتبة على ما سأله من العيد من غير أن تكون مقصودة بالذات. وقد كان الحواريون ذكروه مطلوباً بالذات حيث قالوا «نريد أن نأكل منها» فذكروه مطلوباً لذاته وقدموه على غيره، لكنه عليه السلام عده غير مطلوب بالذات وأخره عن الجميع وأبدل لفظ الأكل من لفظ الرزق فأردفه بقوله «وأنت خير الرازقين».

قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قرأ أهل المدينة والشام وعاصم «منزلها» بالتشديد والباقون «منزلها» بالتخفيف ـ على ما في المجمع ـ والتخفيف اوفق لأن الإنزال هو الدال على النزول الدفعي، وكذلك نزلت المائدة. وأما التنزيل فاستعماله الشائع إنما هو في النزول التدريجي كما تقدم كراراً.

وقوله تعالى: «إني منزلها عليكم» وعد صريح بالإنزال وخاصة بالنظر الى الإتيان به في هيئة اسم الفاعل دون الفعل. ولازم ذلك أن المائدة قد نزلت عليهم.

ومن هنا يظهر ان المراد بالعالمين عالمو جميع الامم لا عالمو زمانهم فإن ذلك مرتبطاً بمن يمتازون عنهم من الناس وهم جميع الامم لا اهل زمان عيسى عليه السلام خاصة من امم الأرض.

ومن هناك يظهر ايضاً ان قوله: «فإني اعذبه عذاباً لا اعذبه احداً من العالمين» وإن كان وعيداً شديداً بعذاب بئيس لكن الكلام غير ناظر الى كون العذاب فوق جميع العذابات والعقوبات في الشدة والألم، وإنما هو مسوق لبيان انفراد العذاب في بابه. واختصاصهم من بين الامم به[1].

---

١. المائدة ١١٢ ـ ١١٥: بحث روائي في: نزول المائدة على المسيح عليه السلام واصحابه.

١١٦ ● وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ.

١١٧ ● مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.

١١٨ ● إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

١١٩ ● قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.

١٢٠ ● لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ «إذ» ظرف متعلق بمحذوف يدل عليه المقام، والمراد به يوم

القيامه لقوله تعالى فيها: «قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم» وقول عيسى عليه السلام فيها: «وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم».

وقد عبرت الآية عن مريم بالامومة فقيل «اتخذوني وأُمي إلهين» دون ان يقال «اتخذوني ومريم إلهين» للدلالة على عمدة حجتهم في الالوهية وهو ولادته منها بغير أب. فالبنوة والامومة الكذائيتين هما الأصل في ذلك بالتعبير به وبامه أدل وأبلغ من التعبير بعيسى ومريم.

و«دون» كلمة تستعمل بحسب المآل في معنى الغير، قال الراغب: يقال للقاصر عن الشيء «دون» قال بعضهم: هو مقلوب من الدنو، والأدون الدني. وقوله تعالى: ﴿لا تتخذوا بطانة من دونكم﴾ أي من لم يبلغ منزلتكم في الديانة، وقيل: في القرابة، وقوله: ﴿ويغفر ما دون ذلك﴾ أي ما كان أقل من ذلك، وقيل: ما سوى ذلك، والمعنيان متلازمان، وقوله: «ءأنت قلت للناس اتخذوني وأُمي إلهين من دون الله» أي غير الله، انتهى[1].

قوله تعالى: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ الى آخر الآية: هذه الآية والتي تتلوها جواب المسيح عيسى بن مريم عليه السلام عما سئل عنه وقد أتى عليه السلام فيه بأدب عجيب:

فبدأ بتسبيحه تعالى لما فاجأه أن سمع ذكر ما لا يليق نسبته الى ساحة الجلال والعظمة وهو اتخاذ الناس إلهين من دون الله شريكين له سبحانه فمن أدب العبودية أن يسبح العبد ربه اذا سمع ما لا ينبغي أن يسمع فيه تعالى أو ما يخطر بالبال تصور ذلك، وعليه جرى التأديب الالهي في كلامه كقوله: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه﴾ (الأنبياء / ٢٦) وقوله: ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه﴾ (النحل / ٥٧).

ثم عاد الى نفي ما استفهم عن انتسابه إليه، وهو أن يكون قد قال للناس اتخذوني وأُمي

١. المائدة ١١٦ ـ ١٢٠: بحث في ربوبية الله: اتخاذ الآلهة.

إلهين من دون الله . ولم ينفه بنفسه بل بنفي سببه مبالغة في التنزيه فلو قال : « لم أقل ذلك أو لم أفعل » لكان فيه إيمان الى إمكان وقوعه منه لكنه لم يفعل . لكن اذا نفاه بنفي سببه فقال : « ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق » كان ذلك نفياً لما يتوقف عليه ذلك القول . وهو أن يكون له أن يقول ذلك حقاً فنفي هذا الحق نفي ما يتفرع عليه بنحو أبلغ نظير اذا قال المولى لعبده : لمَ فعلت ما لم آمرك أن تفعله ؟ فإن أجاب العبد بقوله « لم أفعل » كان نفياً لما هو في مظنة الوقوع . وإن قال : « أنا أعجز من ذلك » كان نفياً بنفي السبب وهو القدرة . وإنكاراً لأصل إمكانه فضلاً عن الوقوع .

وقوله : ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ إن كان لفظ « يكون » ناقصة فاسمها قوله : « أن أقول » وخبرها قوله : « لي » واللام للملك . والمعنى : ما أملك ما لم أُملكه وليس من حقي القول بغير حق . وإن كانت تامة فلفظ « لي » متعلق بها وقوله : « أن أقول » الخ ؛ فاعلها . والمعنى : ما يقع لي القول بغير حق . والأول من الوجهين أقرب . وعلى أي حال يفيد الكلام نفي الفعل بنفي سببه .

وقوله عليه السلام : « إن كنت قلته فقد علمته » نفي آخر للقول المستفهم عنه لا نفياً لنفسه بنفسه بل بنفي لازمه فإن لازم وقوع هذا القول أن يعلم به الله لأنه الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وهو القائم على كل نفس بما كسبت . المحيط بكل شيء .

وهذا الكلام منه عليه السلام يتضمن أولاً فائدة إلقاء القول مع الدليل من غير أن يكتفي بالدعوى المجردة : وثانياً الإشعار بأن الذي كان يعتبره في أفعاله وأقواله هو علم الله سبحانه من غير أن يعبأ بغيره من خلقه علموا أو جهلوا . فلا شأن له معهم .

وبلفظ آخر السؤال إنما يصح طبعاً في ما كان مظنة الجهل فيراد به نفي الجهل وإفادة العلم . إما لنفس السائل اذا كان هو الجاهل بواقع الأمر . أو لغيره اذا كان السائل عالماً وأراد أن يعلم غيره بما يعلم هو من واقع الأمر كما يحمل عليه نوع السؤال الواقع في كلامه تعالى . وقوله عليه السلام

في الجواب في مثل المقام «إن كنت قلته فقد علمته» إرجاع للأمر الى علمه تعالى وإشعار أنه لا يعتبر شيئاً في أفعاله وأقواله غير علمه تعالى.

ثم أشار بقوله «تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب» ليكـون تنزيهاً لعلمه تعالى عن مخالطة الجهل إياه، وهو وإن كان ثناء أيضاً في نفسه لكنه غير مقصود لأن المقام ليس بمقام الثناء بل مقام التبري عن انتساب ما نسب اليه.

فقوله ﷺ «تعلم ما في نفسي» توضيح لنفوذ العلم الذي ذكره في قوله: «إن كنت قلته فقد علمته» وبيان أن علمه تعالى بأعمالنا وهو الملك الحق يومئذ ليس من قبيل علم الملوك منا بأحوال رعيته بارتفاع أخبار المملكة إليه ليعلم بشيء ويجهل بشيء، ويستحضر حال بعض ويغفل عن حال بعض، بل هو سبحانه لطيف خبير بكل شيء ومنها نفس عيسى بن مـريم بخصوصه.

ومع ذلك لم يستوف حق البيان في وصف علمه تعالى فإنه سبحانه يعلم كل شيء، لا كعلم أحدنا بحال الآخر وعلم الآخر بحاله، بل يعلم ما يعلم بالإحاطة به من غير أن يحيط به شيء ولا يحيطون به علماً فهو تعالى إله غير محدود وكل من سواه محدود مقدر لا يتعدى طور نفسه المحدود، ولذلك ضم ﷺ الى الجملة جملة اخرى فقال: «تعلم ما في نفسي ولا أعـلم مـا في نفسك».

أما قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ففيه بيان العلة لقوله «تعلم ما في نفسي» الخ؛ وفيه استيفاء حق البيان من جهة اخرى وهو رفع توهم أن حكم العلم في قوله: «تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك» مقصور بما بينه وبين ربه لا يطرد في كل شيء فبين بقوله «إنك أنت علام الغيوب» أن العلم التام بجميع الغيوب منحصر فيه فما كان عند شيء من الأشياء وهو غيب عن غيره فهو معلوم لله سبحانه وهو محيط به.

ولازم ذلك أن لا يعلم شيء من الأشياء بغيبه تعالى ولا بغيب غيره الذي هو تعالى عالم به

لأنه مخلوق محدود لا يتعدى طور نفسه فهو علام جميع الغيوب، ولا يعلم شيء غيره تعالى بشيء من الغيوب لا الكل ولا البعض.

على أنه لو أُحيط من غيبه تعالى بشيء فإن أحاط تعالى به لم يكن هذا المحيط محيطاً حقيقة بل محاطاً له تعالى ملّكه الله بمشيئته أن يحيط بشيء من ملكه من غير أن يخرج بذلك من ملكه كما قال تعالى: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ (البقرة / ٢٥٥).

وإن لم يحط سبحانه تعالى بما أحاط به كان مضروباً بحد فكان مخلوقاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ لما نفى عليه السلام القول المسؤول عنه عن نفسه بسمي سببه أولاً نفاه ببيان وظيفته التي لم يتعدها ثانياً فقال: «ما قلت لهم إلا ما أمرتني به» الخ؛ وأتى فيه بالحصر بطريق النفي والإثبات ليدل على الجواب بنفي ما سئل عنه وهو القول «أن اتخذوني وامي إلهين من دون الله».

وفسر ما أمره به ربه من القول بقوله «أن اعبدوا الله» ثم وصف الله سبحانه بقوله «ربي وربكم» لئلا يبقى أدنى شائبة من الوهم في أنه عبد رسول يدعو الى الله ربه ورب جميع الناس وحده لا شريك له.

وعلى هذه الصراحة كان يسلك عيسى بن مريم عليه السلام في دعوته ما دعاهم الى التوحيد على ما يحكي عنه القرآن الشريف، قال تعالى حكاية عنه: ﴿إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ (الزخرف / ٦٤) وقال: ﴿وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ (مريم / ٣٦).

قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ثم ذكر عليه السلام وظيفته الثانية من جانب الله سبحانه وهو الشهادة على أعمال أُمته كما قال تعالى: ﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾

(النساء / ١٥٩) .

يقول عليه السلام ما كان لي من الوظيفة فيهم إلا الرسالة إليهم والشهادة على أعمالهم : أما الرسالة فقد أديتها على أصرح ما يمكن ، وأما الشهادة فقد كنت عليها ما دمت فيهم ، ولم أتعد ما رسمت لي من الوظيفة فأنا براء من أن أكون ألقي إليهم أن اتخذوني وامي إلهين من دون الله .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ الرقوب والرقابة هو الحفظ ، والمراد به في المقام بدلالة السياق هو الحفظ على الأعمال ، وكأنه أُبدل الشهيد من الرقيب احترازاً عن تكرر اللفظ بالنظر الى قوله بعد : « وأنت على كل شيء شهيد » ، ولا نكتة تستدعي الإتيان بلفظ « الشهيد » ثانياً بالخصوص .

واللفظ أعني قوله : « كنت أنت الرقيب عليهم » يدل على الحصر ، ولازمه أنه تعالى كان شهيداً ما دام عيسى عليه السلام شهيداً وشهيداً بعده ؛ فشهادته عليه السلام كانت وساطة في الشهادة لا شهادة مستقلة على حد سائر التدبيرات الإلهية التي وكل عليها بعض عباده ثم هو على كل شيء وكيل كالرزق والإحياء والإماتة والحفظ والدعوة والهداية وغيرها ، والآيات الشريفة في ذلك كثيرة لا حاجة الى إيرادها .

ولذلك عقب عليه السلام قوله : « فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم » بقوله : « وأنت على كل شيء شهيد » ليدل بذلك على أن الشهادة على أعمال امته التي كان يتصداها ما دام فيهم كانت حصة يسيرة من الشهادة العامة المطلقة التي هي شهادة الله سبحانه على شيء فإنه تعالى شهيد على أعيان الأشياء ، وعلى أفعالها التي منها أعمال عباده التي منها أعمال امة عيسى ما دام فيهم وبعد توفيه ، وهو تعالى شهيد مع الشهداء وشهيد بدونهم .

ومن هنا يظهر أن الحصر صادق في حقه تعالى مع قيام الشهداء على شهادتهم فإنه عليه السلام حصر الشهادة بعد توفيه في الله سبحانه مع أن لله بعده شهداء من عباده ورسله وهو عليه السلام يعلم ذلك .

ومن الدليل على ذلك بشارته ﷺ بمجيء النبي ﷺ ـ على ما يحكيه القرآن ـ بقوله ﴿ يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ (الصف / ٦) وقد نص القرآن على كون النبي ﷺ من الشهداء قال تعالى: ﴿ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ (النساء / ٤١).

على أن الله سبحانه حكى عنه هذا الحصر «فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم» ولم يرده بالإبطال فالله سبحانه هو الشهيد لا غير مع وجود كل شهيد أي إن حقيقة الشهادة هي لله سبحانه كما أن حقيقة كل كمال وخير هو لله سبحانه، وأن ما يملكه غيره من كمال أو خير أو حسن فإنما هو بتمليكه تعالى من غير أن يستلزم هذا التمليك انعزاله تعالى عن الملك ولا زوال ملكه وبطلانه. وعليك بالتدبر في أطراف ما ذكرناه.

فبان بما أورده من بيان حاله المحكي عنه في الآيتين أنه بريء مما قاله الناس في حقه وأن لا عهدة عليه فيما فعلوه، ولذلك ختم ﷺ كلامه بقوله «إن تعذبهم فإنهم عبادك» الى آخر الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ لما اتضح بما أقام ﷺ من الحجة أن لم يكن له من الوظيفة بالنسبة الى الناس إلا أداء الرسالة والقيام بأمر الشهادة، وأنه لم يشتغل فيهم إلا بذلك ولم يتعده الى ما ليس له بحق فهو غير مسؤول عما تفوهوا به من كلمة الكفر. بان أنه ﷺ بمعزل عن الحكم الإلهي المتعلق بهم فيما بينهم وبين ربهم، ولذلك استأنف الكلام ثانياً فقال من غير وصل وتفريع: «إن تعذبهم» الخ.

فالآية كالصالحة لأن يوضع موضع البيان السابق. ومفادها أنه لا عهدة علي فيما وقعوا فيه من الشرك الشنيع، ولم اداخل أمرهم في شيء حتى اشاركهم فيما بينك وبينهم من الحكم عليهم بما شئت فهم وحكمك في حقهم بما أردت، وهم وصنعك فيهم بما صنعت، إن تعذبهم بما حكمت فيمن أشرك بك بدخول النار فإنهم عبادك، وإليك تدبير أمرهم، ولك أن تسخط عليهم به

لأنك المولى الحق والى المولى أمر عباده، وإن تغفر لهم بإمحاء أثر هذا الظلم العظيم فإنك أنت العزيز الحكيم لك حق العزة والحكمة، وللعزيز (وهو الذي له من الجدة والقدرة ما ليس لغيره) ولا سيما اذا كان حكيماً (لا يقدم على أمر إلا اذا كان مما ينبغي أن يقدم عليه) أن يغفر الظلم العظيم فإن العزة والحكمة اذا اعتنقتا في فاعل لم تدعا قدرة تقوم عليه ولا مغمضة في ما قضى به من أمر.

وبما تقدم من البيان ظهر أولاً: أن قوله: «فإنهم عبادك» بمنزلة أن يقال: «فإنك مولاهم الحق» على ما هو دأب القرآن من ذكر أسماء الله بعد ذكر أفعاله كما في آخر الآية.

وثانياً: ان قوله: «فإنك أنت العزيز الحكيم» ليس مسوقاً للحصر بل الإتيان بضمير الفصل وإدخال اللام في الخبر للتأكيد، ويؤول معناه الى أن عزتك وحكمتك مما لا يداخله ريب فلا مجال للاعتراض عليك إن غفرت لهم.

وثالثاً: أن المقام (مقام المشافهة بين عيسى بن مريم عليه السلام وربه) لما كان مقام ظهور العظمة الإلهية التي لا يقوم لها شيء كان مقتضاه أن يراعي فيه جانب ذلة العبودية للغاية بالتحرز عن الدلال والاسترسال والتجنب عن مداخلة في الأمر بدعاء أو سؤال، ولذلك قال عليه السلام «وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» ولم يقل «فإنك غفور رحيم» لأن سطوع آية العظمة والسطوة الإلهية القاهرة الغالبة على كل شيء لا يدع للعبد إلا أن يلتجىء اليه بماله من ذلة العبودية ومسكنة الرقية والمملوكية المطلقة، والاسترسال عند ذلك ذنب عظيم.

وأما قول إبراهيم عليه السلام لربه ﴿فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ (إبراهيم / ٣٦) فإنه من مقام الدعاء وللعبد أن يثير فيه ناشئة الرحمة الإلهية بما استطاع.

قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ تقرير لصدق عيسى بن مريم عليه السلام على طريق التكنية فإنه لم يصرح بشخصه وإنما المقام هو الذي يفيد ذلك.

والمراد بهذا الصدق من الصادقين صدقهم في الدنيا فإنه تعالى يعقب هذه الجملة بقوله

«لهم جنات تجري من تحتها الأنهار» الخ؛ ومن البين أنه بيان لجزاء صدقهم عند الله سبحانه فهو النفع الذي يعود اليهم من جهة الصدق، والأعمال والأحوال الاخروية ـ ومنها صدق أهل الآخرة ـ لا يترتب عليها أثر النفع بمعنى الجزاء، وبلفظ آخر: الأعمال والأحوال الاخروية لا يترتب عليها جزاء كما يترتب على الأعمال والأحوال الدنيوية؛ اذ لا تكليف في الآخرة، والجزاء من فروع التكليف، وإنما الآخرة دار حساب وجزاء كما أن الدنيا دار عمل وتكليف، قال تعالى: ﴿يوم يقوم الحساب﴾ (إبراهيم / ٤١) وقال: ﴿اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾ (الجاثية / ٢٨) وقال تعالى: ﴿إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار﴾ (المؤمن / ٣٩).

والذي ذكره عيسى عليه السلام من حاله في الدنيا مشتمل على قول وفعل وقد قرره الله على الصدق فالصدق الذي ذكر في الآية يشمل الصدق في الفعل كما يشمل الصدق في القول؛ فالصادقون في الدنيا في قولهم وفعلهم ينتفعون يوم القيامة بصدقهم، لهم الجنات الموعودة وهم الراضون المرضيون الفائزون بعظيم الفوز.

على أن الصدق في القول يستلزم الصدق في الفعل ـ بمعنى الصراحة وتنزه العمل عن سمة النفاق ـ وينتهي به الى الصلاح، وقد روي أن رجلاً من أهل البدو استوصى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فوصاه أن لا يكذب ثم ذكر الرجل أن رعاية ما وصى به كفه عن عامة المعاصي اذ ما من معصية عرضت إلا ذكر أنه لو اقترحها ثم سئل عنها وجب عليه أن يعترف بها على نفسه ويخزّ بها الناس فلم يقترفها مخافة ذلك.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ رضي الله عنهم بما قدموا اليه من الصدق، ورضوا عن الله بما آتاهم من الثواب.

وقد علق رضاه بهم أنفسهم لا بأعمالهم كما في قوله تعالى: ﴿ورضي له قولاً﴾ (طه /

١٠٩) وقوله : ﴿ وإن تشكروا يرضه لكم ﴾ (الزمر / ٧) وبين القسمين من الرضى فرق فإن رضاك عن شيء هو أن لا تدفعه بكراهة ومن الممكن أن يأتي عدوك بفعل ترضاه وأنت تسخط على نفسه ، وأن يأتي صديقك الذي تحبه بفعل لا ترضاه .

فقوله « رضي الله عنهم » يدل على أن الله يرضى عن أنفسهم ، ومن المعلوم أن الرضى لا يتعلق بأنفسهم ما لم يحصل غرضه جل ذكره من خلقهم ، وقد قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (الذاريات / ٥٦) ، فالعبودية هو الغرض الإلهي من خلق الإنسان فالله سبحانه إنما يرضى عن نفس عبده اذا كان مثالاً للعبودية أي أن يكون نفسه نفس عبد لله الذي هو رب كل شيء فلا يرى نفسه ولا شيئاً غيره إلا مملوكاً لله خاضعاً لربوبيته لا يؤوب الى ربه ولا يرجع إلا اليه كما قال تعالى في سليمان وأيوب : ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ (ص / ٤٤) وهذا هو الرضى عنه .

وهذا من مقامات العبودية ، ولازمه طهارة النفس عن الكفر بمراتبه وعن الاتصاف بالفسق كما قال تعالى : ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ (الزمر / ٧) ، وقال تعالى : ﴿ فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ (التوبة / ٩٦) .

ومن آثار هذا المقام أن العبودية اذا تمكنت من نفس العبد ورأى ما يقع عليه بصره وتبلغه بصيرته مملوكاً لله خاضعاً لأمره فإنه يرضى عن الله فإنه يجد أن كل ما آتاه الله فإنما آتاه من فضله من غير أن يتحتم عليه فهو جود ونعمة ، وأن ما منعه فإنما منعه عن حكمة .

على أن الله سبحانه يذكر عنهم وهم في الجنة بقوله ﴿ لهم فيها ما يشاؤون ﴾ (النحل / ٣١ ، الفرقان / ١٦) ، ومن المعلوم أن الإنسان اذا وجد كل ما يشاؤه لم يكن له إلا أن يرضى .

وهذا غاية السعادة الإنسانية بما هو عبد ، ولذلك ختم الكلام بقوله « ذلك الفوز العظيم » .

قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، الملك ـ بالكسر ـ سلطة خاصة على رقبة الأشياء وأثره نفوذ الإرادة فيما يقدر عليه

المالك من التصرف فيها. والملك ـ بالضم ـ سلطة خاصة على النظام الموجود بين الأشياء وأثره نفوذ الإرادة فيما يقدر عليه. وبعبارة ساذجة: الملك ـ بالكسر ـ متعلق بالفرد، والملك ـ بالضم ـ متعلق بالجماعة.

وحيث كان الملك في نفوذ الإرادة بالفعل مقيداً أو متقوماً بالقدرة فإذا تمت القدرة وأُطلقت كان الملك ملكاً مطلقاً غير مقيد بشيء دون شيء وحال دون حال. ولبيان هذه النكتة عقب تعالى قوله: «لله ملك السماوات والأرض وما فيهن» بقوله «وهو على كل شيء قدير».

واختتمت السورة بهذه الآية الدالة على الملك المطلق. والمناسبة ظاهرة، فإن غرض السورة هو حث العباد وترغيبهم على الوفاء بالعهود والمواثيق المأخوذة عليهم من جانب ربهم، وهو الملك على الإطلاق فلا يبقى لهم إلا أنهم عباد مملوكون على الإطلاق ليس لهم فيما يأمرهم به وينهاهم عنه إلا السمع والطاعة. ولا فيما يأخذ منهم من العهود والموثيق إلا الوفاء بها من غير نقض[(١)(٢)(٣)(٤)(٥)].

---

١. المائدة ١١٦ ـ ١٢٠: بحث روائي في اسماء الله تعالى.

٢. ١١٦ ـ ١٢٠: كلام في معنى الأدب: الادب الذي ادّب الله به انبياءه ورسله عليهم السلام نماذج من ادب الانبياء.

٣. ١١٦ ـ ١٢٠: بحث روائي في خلق الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وادبه الجميل.

٤. ١١٦ ـ ١٢٠: كلام في الرق والاستعباد (اعتبار العبودية لله سبحانه. استعباد الانسان واسبابه. سير الاستعباد في التاريخ. مال الذي رآه الاسلام في ذلك. ما هو السبيل الى الاستعباد في الاسلام. ما هي سيرة الاسلام في العبيد والاماء. سير الاستعباد في التاريخ).

٥. ١١٦ ـ ١٢٠: كلام في المجازات والعفو في فصول (ما معنى الجزاء؟ العفو والمغفرة. للعفو مراتب. هل المؤاخذة أو المغفرة تستلزم ذنباً. رابطة العمل والجزاء والعمل يؤدي الرابطة الى النفس).

سورة الأنعام وهي سبع آيات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمٰاتِ وَالنورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ.

٢ ● هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ.

٣ ● وَهُوَ اللّٰهُ فِي السَّمٰوٰاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مٰا تَكْسِبُونَ.

بيان:

غرض السورة هو توحيده تعالى بمعناه الأعم أعني أن للإنسان رباً هو رب العالمين جميعاً منه يبدأ كل شيء وإليه ينتهي ويعود كل شيء، أرسل رسلاً مبشرين ومنذرين يهدي بهم عباده المربوبين الى دينه الحق. ولذلك نزلت معظم آياتها في صورة الحجاج على

المشركين في التوحيد والمعاد والنبوة. واشتملت على إجمال الوظائف الشرعية والمحرمات الدينية.

وسياقها ـ على ما يعطيه التدبر ـ سياق واحد متصل لا دليل فيه على فصل يؤدي الى نزولها نجوماً.

وهذا يدل على نزولها جملة واحدة، وأنها مكية فإن ذلك ظاهر سياقها الذي وجّه الكلام في جلها أو كلّها الى المشركين.

وقد اتفق المفسرون والرواة على كونها مكية إلا في ست آيات روى عن بعضهم أنها مدنية. وهي قوله تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ (آية ٩١) الى تمام ثلاث آيات، وقوله تعالى: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ (آية ١٥١) الى تمام ثلاث آيات.

وقيل: إنها كلها مكية إلا آيتان منها نزلتا بالمدينة، وهما قوله تعالى: «قل تعالوا أتل» والتي بعدها.

وقيل: نزلت سورة الأنعام كلها بمكة إلا آيتين نزلتا بالمدينة في رجل من اليهود، وهو الذي قال: ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ الآية.

وقيل: إنها كلها مكية إلا آية واحدة نزلت بالمدينة، وهو قوله تعالى: «ولو أننا نزلّنا إليهم الملائكة» الآية.

وهذه الأقوال لا دليل على شيء منها من جهة سياق اللفظ على ما تقدم من وحدة السياق واتصال آيات السورة، وسنبينها بما نستطيعه. وقد ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وكذا عن أُبيّ وعكرمة وقتادة: أنها نزلت جملة واحدة بمكة.

قوله تعالى: ﴿ٱلحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنورَ﴾ افتتح بالثناء على الله وهو كالمقدمة لما يراد بيانه من معنى التوحيد، وذلك بتضمين الثناء ما هو محصّل غرض السورة ليتوسل بذلك الى الاحتجاج عليه تفصيلاً، وتضمينه:

العجب منهم ولومهم على أن عدلوا به غيره والامتراء في وحدته ليكون كالتمهيد على ما سيورد من جمل الوعظ والإنذار والتخويف.

وقد أشار في هذا الثناء الموضوع في الآيات الثلاث الى جمل ما تعتمد عليه الدعوة الدينية في المعارف الحقيقية التي هي بمنزلة المادة للشريعة، وتنحل الى نظامات ثلاث:

نظام الكون العام وهو الذي تشير إليه الآية الاولى، ونظام الإنسان بحسب وجوده، وهو الذي تشتمل عليه الآية الثانية، ونظام العمل الإنساني وهو الذي تومىء إليه الآية الثالثة.

فالمتحصل من مجموع الآيات الثلاث هو الثناء عليه تعالى بما خلق العالم الكبير الذي يعيش فيه الإنسان، وبما خلق عالماً صغيراً هو وجود الإنسان المحدود من حيث ابتدائه بالطين ومن حيث انتهائه بالأجل المقضي، وبما علم سرّ الإنسان وجهره وما يكسبه.

وما في الآية الثالثة: ﴿وهو الله في السماوات وفي الأرض﴾، بمنزلة الإيضاح لمضمون الآيتين السابقتين، والتمهيد لبيان علمه بسر الإنسان وجهره وما تكسبه نفسه.

فقوله «خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور» إشارة الى نظام الكون العام الذي عليه تدبر الأشياء على كثرتها وتفرقها فما عالمنا في نظامه الجاري المحكم إلا عالم الأرض الذي يحيط به عالم السماوات على سعتها ثم يتصرف بها بالنور والظلمات الذين عليهما يدور رحى العالم المشهود في تحوله وتكامله فلا يزال يتولد شيء من شيء، ويتقلب شيء الى شيء، ويظهر واحد ويخفى آخر، ويتكون جديد ويفسد قديم، وينتظم من تلاقي هذه الحركات المتنوعة على شتاتها الحركة العالمية الكبرى التي تحمل أثقال الأشياء، وتسير بها الى مستقرها.

والجعل في قوله: «وجعل الظلمات» الخ: بمعنى الخلق غير أن الخلق لما كان مأخوذاً في الأصل من خلق الثوب كان التركيب من أجزاء شتى مأخوذاً في معناه بخلاف الجعل، ولعل هذا هو السبب في تخصيص الخلق بالسماوات والأرض لما فيها من التركيب بخلاف الظلمة

والنور . ولذا خصا باستعمال الجعل . والله أعلم .

وقد أتى بالظلمات بصيغة الجمع دون النور . ولعله لكون الظلمة متحققة بالقياس الى النور فإنها عدم النور فيما من شأنه أن يتنور فتتكثر بحسب مراتب قربه من النور وبعده بخلاف النور فإنه أمر وجودي لا يتحقق بمقايسته الى الظلمة التي هي عدمية ، وتكثيره تصوراً بحسب قياسه التصوري الى الظلمة لا يوجب تعدده وتكثره حقيقة .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ مسوق للتعجب المشوب بلوم أي إن الله سبحانه بخلقه السماوات والأرض وجعله الظلمات والنور متوحد بالالوهية متفرد بالربوبية لا يماثله شيء ولا يشاركه ، ومن العجب أن الذين كفروا مع اعترافهم بأن الخلق والتدبير لله بحقيقة معنى الملك دون الأصنام التي اتخذوها آلهة يعدلون بالله غيره من أصنامهم ويسوّون به أوثانهم فيجعلون له أنداداً تعادله بزعمهم فهم ملومون على ذلك .

وبذلك يظهر وجه الإتيان بثم الدال على التأخير والتراخي فكأن المتكلم لما وصف تفرده بالصنع والإيجاد وتوحده بالالوهية والربوبية ذكر مزعمة المشركين وأصحاب الأوثان أن هذه الحجارة والأخشاب المعمولة أصناماً يعدلون بها رب العالمين فشغله التعجب زماناً وكفّه عن التكلم ثم جرى في كلامه وأشار الى وجه سكوته ، وأن حيرة التعجب كان هو المانع عن جريه في كلامه فقال : الذين كفروا بربهم يعدلون .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً ﴾ يشير الى خلقه العالم الإنساني الصغير بعد الإشارة الى خلق العالم الكبير فيبين أن الله سبحانه هو الذي خلق الإنسان ودبر أمره بضرب الأجل لبقائه الدنيوي ظاهراً فهو محدود الوجود بين الطين الذي بدأ منه خلق نوعه وإن كان بقاء نسله جارياً على سنّة الازدواج والوقاع كما قال تعالى : ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعله نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ (السجدة / ٨) .

وبين الأجل المقضي الذي يقارن الموت كما قال تعالى : ﴿كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا

يرجعون﴾ (العنكبوت / ٥٧) ومن الممكن أن يراد بالأجل ما يقارن الرجوع الى الله سبحانه بالبعث فإن القرآن الكريم كأنه يعد الحياة البرزخية من الدنيا كما يفيده ظاهر قوله تعالى: ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين، قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين، قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون﴾ (المؤمنون / ١١٤)، وقال أيضاً: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون، ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون، وقال الذين أُوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾ (الروم / ٥٦).

وقد أبهم أمر الأجل بإتيانه منكّراً في قوله: «ثم قضى أجلاً» للدلالة على كونه مجهولاً للإنسان لا سبيل له الى المعرفة به بالتوسل الى العلوم العاديه.

قوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ تسمية الأجل تعيينه فإن العادة جرت في العهود والديون ونحو ذلك بذكر الأجل وهو المدة المضروبة أو آخر المدة باسمه، وهو الأجل المسمى، قال تعالى: ﴿إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه﴾ (البقرة / ٢٨٢) وهو الأجل بمعنى آخر المدة المضروبة، وكذا قوله تعالى: ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت﴾ (العنكبوت / ٥) وقال تعالى في قصة موسى وشعيب: ﴿قال إني أُريد أن أُنكحك إحدي ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك ـ الى أن قال ـ قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ﴾ (القصص / ٢٨) وهو الأجل بمعنى تمام المدة المضروبة.

والظاهر أن الأجل بمعنى آخر المدة فرع الأجل بمعنى تمام المدة استعمالاً أي إنه استعمل كثيراً «الأجل المقضي» ثم حذف الوصف واكتفي بالموصوف فأفاد الأجل معنى الأجل المقضي. قال الراغب في مفرداته: يقال للمدة المضروبة لحياة الإنسان «أجل» فيقال: دنا أجله عبارة عن دنو الموت، وأصله استيفاء الأجل، انتهى.

وكيف كان فظاهر كلامه تعالى أن المراد بالأجل والأجل المسمى هو آخر مدة الحياة لاتمام المدة كما يفيده قوله ﴿ فإن أجل الله لآت ﴾ الآية .

فتبين بذلك أن الأجل أجلان : الأجل على إبهامه ، والأجل المسمى عند الله تعالى . وهذا هو الذي لا يقع فيه تغير لمكان تقييده بقوله « عنده » وقد قال تعالى : ﴿ وما عند الله باق ﴾ (النحل / ٩٦) وهو الأجل المحتوم الذي لا يتغير ولا يتبدل قال تعالى : ﴿ إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ (يونس / ٤٩) .

فنسبة الأجل المسمى الى الأجل غير المسمى نسبة المطلق المنجز الى المشروط المعلق فمن الممكن أن يتخلف المشروط المعلق عن التحقق لعدم تحقق شرطه الذي علّق عليه بخلاف المطلق المنجز فإنه لا سبيل الى عدم تحققه البتة .

والتدبر في الآيات السابقة منضمة الى قوله تعالى : ﴿ لكل أجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أُم الكتاب ﴾ (الرعد / ٣٩) يفيد أن الأجل المسمى هو الذي وضع في أُم الكتاب ، وغير المسمى من الأجل هو المكتوب فيما نسميه بلوح المحو والإثبات ، وسيأتي إن شاء الله تعالى أن أُم الكتاب قابل الانطباق على الحوادث الثابتة في العين أي الحوادث من جهة استنادها الى الأسباب العامة التي لا تتخلف عن تأثيرها ، ولوح المحو والإثبات قابل الانطباق على الحوادث من جهة استنادها الى الأسباب الناقصة التي ربما نسميها بالمقتضيات التي يمكن اقترانها بموانع تمنع من تأثيرها .

واعتبر ما ذكر من أمر السبب التام والناقص بمثال إضاءة الشمس فإنا نعلم أن هذه الليلة ستنقضي بعد ساعات وتطلع علينا الشمس فتضيء وجه الأرض لكن يمكن أن يقارن ذلك بحيلولة سحابة أو حيلولة القمر أو أي مانع آخر فتمنع من الإضاءة ، وأما اذا كانت الشمس فوق الافق ولم يتحقق أي مانع مفروض بين الأرض وبينها فإنها تضيء وجه الأرض لا محالة .

فطلوع الشمس وحده بالنسبة الى الاضاءة بمنزلة لوح المحو والإثبات، وطلوعها مع حلول وقته وعدم أي حائل مفروض بينها وبين الأرض بالنسبة الى الاضاءة بمنزلة أم الكتاب المسمى باللوح المحفوظ.

فالتركيب الخاص الذي لبنية هذا الشخص الانساني مع ما في أركانه من الاقتضاء المحدود يقتضي أن يعمّر العمر الطبيعي الذي ربما حددوه بمائة أو بمائة وعشرين سنة وهذا هو المكتوب في لوح المحو والإثبات مثلاً غير أن لجميع أجزاء الكون ارتباطاً وتأثيراً في الوجود الانساني فربما تفاعلت الاسباب والموانع التي لا نحصيها تفاعلاً لا نحيط به فأدى الى حلول أجله قبل أن ينقضي الأمد الطبيعي، وهو المسمى بالموت الاخترامي.

وبهذا يسهل تصور وقوع الحاجة بحسب ما نظم الله الوجود الى الأجل المسمى وغير المسمى جميعاً، وأن الإبهام الذي بحسب الأجل غير المسمى لا ينافي التعين بحسب الأجل المسمى، وأن الأجل غير المسمى والمسمى ربما توافقا وربما تخالفا والواقع حينئذ هو الأجل المسمى البتة.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ من المرية بمعنى الشك والريب، وقد وقع في الآية التفات من الغيبة الى الحضور، وكأن الوجه فيه أن الآية الاولى تذكر خلقاً وتدبيراً عاماً ينتج من ذلك أن الكفار ما كان ينبغي لهم أن يعدلوا بالله سبحانه غيره، وكان يكفي في ذلك ذكرهم بنحو الغيبة لكن الآية الثانية تذكر الخلق والتدبير الواقعين في الإنسان خاصة فكان من الحري الذي يهيج المتكلم المتعجب اللائم أن يواجههم بالخطاب ويلومهم بالتجبيه كأنه يقول: هذا خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور عذرناكم في الغفلة عن حكمه لكون ذلك أمراً عاماً ربما أمكن الذهول عما يقتضيه فما عذركم أنتم في امترائكم فيه وهو الذي خلقكم وقضى فيكم أجلاً وأجل مسمى عنده؟.

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمٰوٰاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ الآيتان السابقتان تذكران

الخلق والتدبير في العوالم عامة وفي الإنسـان خاصة. ويكفي ذلك في التنبه على أن الله سبحانه هو الإله الواحد الذي لا شريك له في خلقه وتدبيره.

لكنهم مع ذلك أثبتوا آلهة أُخرى وشفعاء مختلفة لوجوه التدبير المختلفة كإله الحـياة وإله الرزق وإله البر وإله البحر وغير ذلك، وكذا للأنواع والأقوام والامم المتشتتة كإله السماء وإله هذه الطائفة وإله تلك الطائفة فنفى ذلك بقوله «وهو الله في السماوات وفي الأرض».

فالآية نـظيرة قـوله ﴿وهـو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهـو الحكـيم العـليم﴾ (الزخرف / ٨٤) مفادها انبساط حكم أُلوهـيته تـعالى في السماوات وفي الأرض مـن غـير تفاوت أو تحديد، وهي إيضاح لما تقدّم وتمهيد لما يتلوها من الكلام.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ السر والجهر متقابلان وهما وصفان للأعمال، فسرهم ما عملوه سراً وجهرهم ما عملوه جهراً من غير ستر.

وأما ما يكسبون فهو الحال النفسـاني الذي يكسبه الإنسان بعمله السـري والجهري مـن حسنة أو سيئة فالسر والجهر المذكوران ـ كما عـرفت ـ وصـفان صـوريان لمـتون الأعـمال الخارجية، وما يكسبونه حال روحي معنوي قائم بالنفوس فهما مختلفان بالصورية والمعنوية، ولعل اختلاف المعلومين من حيث نفسهما هو الموجب لتكرار ذكر العلم في قوله: «يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون».

والآية كالتمهيد لما ستتعرض له من أمر الرسالة والمعاد فإن الله سبحانه لما كان عالماً بما يأتي به الإنسان من عمل سراً أو جهراً، وكان عالماً بما يكسبه لنفسه بعمله من خير أو شر، وكان إليه زمام التربية والتدبير كان له أن يرسل رسولاً بدين يشرّعه لهداية الناس على الرغم مما يصرّ عليه الوثنيون من الاستغناء عن النبوة كما قال تعالى: ﴿إن علينا للهدى﴾ (الليل / ١٢).

وكذا هو تعالى لما كان عالماً بالأعمال وبتبعاتها في نفس الإنسان كان عليه أن يحاسبهم في

يوم لا يغادر منهم أحداً كما قال تعالى: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾ (ص / ٢٨)(١).

٤ ❁ وَمٰا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيٰاتِ رَبِّهِمْ إِلّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ.
٥ ❁ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمّا جٰاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبٰاءُ مٰا كٰانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِؤُنَ.
٦ ❁ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنٰا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنّاهُمْ فِي الْأَرْضِ
مٰا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمٰاءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وَجَعَلْنَا
الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنٰاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنٰا مِنْ
بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ.
٧ ❁ وَلَوْ نَزَّلْنٰا عَلَيْكَ كِتٰاباً فِي قِرْطٰاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذٰا إِلّا سِحْرٌ مُبِينٌ.
٨ ❁ وَقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنٰا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ
لا يُنْظَرُونَ.
٩ ❁ وَلَوْ جَعَلْنٰاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنٰاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنٰا عَلَيْهِمْ مٰا يَلْبِسُونَ.
١٠ ❁ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحٰاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ
مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ.
١١ ❁ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ.

---

١. الانعام ١ ـ ٣: بحث روائي في: فضل سورة الانعام، معنى خلق الطاعة والمعصية، اجل موقوف واجل محتوم.

بيان:

قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ إشارة الى أن سجية الاستكبار رسخت في نفوسهم فأنتجت فيهم الإعراض عن الآيات الدالة على الحق فلا يلتفتون الى آية من الآيات من غير تفاوت بين آية وآية لأنهم كذبوا بالأصل المقصود الذي هو الحق، وهو قوله تعالى: «فقد كذبوا بالحق لما جاءهم».

قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ تخويف وإنذار فإن الذين يستهزءون به حق، والحق يأبى إلا أن يظهر يوماً ويخرج من حد النبأ الى حد العيان قال تعالى: ﴿ ويمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته ﴾ (الشورى / ٢٤)، وقال: ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ (الصف / ٩)، وقال في مثل ضربه: ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ (الرعد / ١٧).

ومن المعلوم أن الحق اذا ظهر لم يستو في مساسه المؤمن والكافر، والخاضع والمستهزىء، قال تعالى: ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون فتولّ عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون أفبعذابنا يستعجلون فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين﴾ (الصافات / ١٧٧).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ الى آخر الآية: قال الراغب: القرن القوم المقترنون في زمن واحد وجمعه قرون انتهى.

وقال أيضاً: قال تعالى: ﴿ وأرسلنا السماء عليهم مدراراً﴾ ﴿ يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ وأصله من الدر ـ بالفتح ـ والدرة ـ بالكسر ـ أي اللبن، ويستعار ذلك للمطر استعارة أسماء

العير وأوصافه فقيل: لله درّه ودرّ درّك. ومنه استعير قولهم غسوق درة أي نَفاق ـ بالفتح ـ انتهى.

وفي قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ التفات من الغيبة الى الحضور. والوجه فيه ظاهراً رفع اللبس من جهة مرجع الضمير فلولا الالتفات الى الحضور في قوله: «ما لم نمكن لكم» أوهم السياق رجوعه الى ما يرجع إليه الضمير في قوله: «مكنا لهم» وإلا فأصل السياق في مفتتح السورة للغيبة. وقد تقدم الكلام في الالتفات الواقع في قوله: «هو الذي خلقكم من طين».

وفي قوله ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ دلالة على أن للسيئات والذنوب دخلاً في البلايا والمحن العامة، وفي هذا المعنى وكذا في معنى دخل الحسنات والطاعات في إفاضات النعم ونزول البركات آيات كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ الى آخر الآية؛ إشارة الى أن استكبارهم قد بلغ مبلغاً لا ينفع معه حتى لو أنزلنا كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم فناله حسهم بالبصر والسمع، وتأيد بعض حسهم ببعض فإنهم قائلون حينئذ لا محالة: هذا سحر مبين، فلا ينبغي أن يعبأ باللغو من قولهم ﴿ولن نؤمن لرقيك حتى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه﴾ (الإسراء / ٩٣).

وقد نكّر الكتاب في قوله: «كتاباً في قرطاس» لأن هذا الكتاب نزّل نوع تنزيل لا يقبل إلا التنزيل نجوماً وتدريجاً، وقيده بكونه في قرطاس ليكون أقرب الى ما اقترحوه، وأبعد مما يختلج في صدورهم أن الآيات النازلة على النبي ﷺ من منشآت نفسه من غير أن ينزل به الروح الأمين على ما يذكره الله سبحانه ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾ (الشعراء / ١٩٥).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ

لا يُنْظَرُونَ ﴾ قولهم «لولا أُنزل عليه ملك» تحضيض للتعجيز ، وقد أخبرهم النبي ﷺ بما كان يتلو عليهم من آيات الله النازلة عليه أن الذي جاء به إليه ملك كريم نازل من عند الله كقوله تعالى: ﴿ إنه لقول رسول كريم، ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين ﴾ (كورت / ٢١) الى غيرها من الآيات.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ اللبس بالفتح الستر بساتر لما يجب ستره لقبحه أو لحاجته الى ذلك ، واللبس بالضم التغطية على الحق ، وكأن المعنى استعاري والأصل واحد .

قال الراغب في المفردات : لبس الثوب استتر به وألبسه غيره ـ الى أن قال ـ وأصل اللبس (بضم اللام) ستر الشيء ويقال ذلك في المعاني يقال : لبست عليه أمره قال : وللبسنا عليه ما يلبسون وقال : ولا تلبسوا الحق بالباطل ، لمَ تلبسون الحق بالباطل ، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، ويقال : في الأمر لبسة أي التباس ، انتهى .

ومعمول يلبسون محذوف ، وربما استفيد من ذلك العموم والتقدير يلبس الكفار على أنفسهم أعم من لبس البعض على نفسه ، ولبس البعض على البعض الآخر .

أما لبسهم على غيرهم فكما يلبس علماء السوء الحق بالباطل لجهلة مقلديهم وكما يلبس الطواغيت المتبعون لضعفة أتباعهم الحق بالباطل كقول فرعون فيما حكى الله لقومه ﴿ يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي افلا تبصرون أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين، فلولا أُلقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين، فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ (الزخرف / ٥٤) وقوله ﴿ ما أُريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ (المؤمن / ٢٩).

وأما لبسهم على أنفسهم فهو بتخييلهم الى أنفسهم أن الحق باطل وأن الباطل حق ثم تماديهم على الباطل فإن الإنسان وإن كان يميز الحق من الباطل فطرة الله التي فطر الناس

عليها، وكان تلهم نفسه فجورها وتقواها غير أن تقويته جانب الهوى وتأييده روح الشهوة والغضب من نفسه تولّد في نفسه ملكة الاستكبار عن الحق، والاستعلاء على الحقيقة فتنجذب نفسه إليه. وتغتر بعمله، ولا تدعه يلتفت الى الحق ويسمع دعوته، وعند ذاك يزين له عمله، ويلبس الحق بالباطل وهو يعلم كما قال تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾ (الجاثية / ٢٣) وقال: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾ (الكهف / ١٠٤).

وهذا هو المصحح لتصوير ضلال الإنسان في أمر مع علمه به فلا يرد عليه أن لبس الإنسان على نفسه الحق بالباطل إقدام منه على الضرر المقطوع وهو غير معقول.

على أنا لو تعمقنا في أحوالنا أنفسنا ثم أخذنا بالنصفة عثرنا على عادات سوء نقضي بمساءتها لكنا لسنا نتركها لرسوخ العادة وليس ذلك إلا من الضلال على علم. ولبس الحق بالباطل على النفس والتلهي باللذة الخيالية والتوله إليها عن التثبت على الحق والعمل به، أعاننا الله تعالى على مرضاته.

وعلى أي حال فقوله تعالى: «ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً» الخ: الجواب عن مسألتهم نزول الملك ليكون نذيراً فيؤمنوا به.

ومحصله أن الدار دار اختيار لا تتم فيها للانسان سعادته الحقيقية إلا بسلوكه مسلك الاختيار، واكتسابه لنفسه أو على نفسه ما ينفعه في سعادته أو يضره، وسلوك أي الطريقين رضي لنفسه أمضى الله سبحانه له ذلك[1].

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ الى آخر الآيتين. الحيق الحلول

---

١. الانعام ٤ ـ ١١: بحث في حكمة جعل الرسل من البشر.

والإصابة، وفي مفردات الراغب: قيل وأصله حق فقلب نحو زل وزال. وقد قرىء «فأزلهما الشيطان» فأزالها، وعلى هذا ذمه وذامه، انتهى.

وقد كان استهزاؤهم بالرسل بالاستهزاء بالعذاب الذي كانوا ينذرونهم بنزوله وحلوله فحاق بهم عين ما استهزؤا به، وفي الآية الاولى تطييب لنفس النبي ﷺ، وإنذار للمشركين، وفي الآية الثانية أمر بالاعتبار وعظة.

١٢ ● قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلّٰهِ كَتَبَ عَلىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.

١٣ ● وَلَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهٰارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

١٤ ● قُلْ أَغَيْرَ اللّٰهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

١٥ ● قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ.

١٦ ● مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ.

١٧ ● وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللّٰهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

١٨ ● وَهُوَ القاهِرُ فَوْقَ عِبٰادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمٰوٰاتِ وَالأَرْضِ قُلْ لِلّٰهِ﴾ شروع في البرهنة على المعاد، ومحصله أن الله تعالى مالك ما في السماوات والأرض جميعاً له أن يتصرف فيها كيف شاء وأراد، وقد اتصف سبحانه بصفة الرحمة وهي رفع حاجة كل محتاج وإيصال كل شيء الى ما يستحقه وإفاضته عليه وعدة من عباده ومنهم الإنسان صالحون لحياة خالدة مستعدون لأن يسعدوا فيها فهو بمقتضى ملكه ورحمته سيتصرف فيهم بحشرهم وإعطائهم ما يستحقونه البتة.

فقوله تعالى: «قل لمن ما في السماوات والأرض» الخ: يتضمن إحدى مقدمات الحجة وقوله: «كتب على نفسه الرحمة» يتضمن مقدمة اخرى، وقوله: «وله ما سكن في الليل والنهار» الخ: مقدمة اخرى ثالثة بمنزلة الجزء من الحجة.

فقوله تعالى: «قل لمن ما في السماوات والأرض» الخ: يأمر النبي ﷺ أن يسألهم عمن يملك السماوات والأرض وله التصرف فيها بما شاء من غير مانع يمنعه، وهو الله سبحانه من غير شك لأن غيره حتى الأصنام وأرباب الأصنام التي يدعوها المشركون هي كسائر الخلقة ينتهي خلقها وأمرها إليه تعالى فهو المالك لما في السماوات والأرض جميعاً.

ولكون المسئول عنه معلوماً بينا عند السائل والمسئول جميعاً والخصم معترف به لم يحتج الى صدور الجواب عن الخصم واعترافه به بلسانه، وأمر النبي ﷺ أن يذكر هو الجواب ويتكفل ذلك لتتم الحجة من غير انتظار ما لجوابهم.

والسؤال عن الخصم، ومباشرة السائل بنفسه الجواب كلاهما من السلائق البديعة الدائرة في سرد الحجج، يقول المنعم لمن أنعم عليه فكفر بنعمته: من الذي أطعمك وسقاك وكساك؟ أنا الذي فعل ذلك بك ومن بها عليك وأنت تجازيني بالكفر.

وبالجملة ثبت بهذا السؤال والجواب أن الله سبحانه هو المالك على الإطلاق فله التصرف فيها بما شاء من إحياء ورزق وإماتة وبعث بعد الموت من غير أن يمنعه من ذلك مانع كدقة في العمل وموت وغيبة واختلال وغير ذلك. وبهذا تمت إحدى مقدمات الحجة فألحقها المقدمة الاخرى وهي قوله: كتب على نفسه الرحمة.

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ الكتابة هو الإثبات والقضاء الحتم. واذ كانت الرحمة ـ وهي إفاضة النعمة على مستحقها وإيصال الشيء الى سعادته التي تليق به ـ من صفاته تعالى الفعلية صح أن ينسب الى كتابته تعالى. والمعنى: أوجب على نفسه الرحمة وإفاضة النعم وإنزال الخير لمن يستحقه.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ السكون في الليل والنهار هو الوقوع في ظرف هذا العالم الطبيعي الذي يدبر أمره بالليل والنهار. ويجري نظامه بغشيان النور الساكب من شمس مضيئة. وعمل التحولات النورية فيه بالقرب والبعد والكثرة والقلة والحضور والغيبة والمسامتة وغيرها.

فالليل والنهار هما المهد العام يربي فيه العناصر الكلية ومواليدها تربية تسوق كل جزء من أجزائها وكل شخص من أشخاصها الى غايته التي قدرت له. وتكملها روحاً وجسماً[1].

والآية أعني قوله: «وله ما سكن في الليل والنهار» الخ؛ كإحدى مقدّمات الحجة المبيّنة بالآية السابقة فإن الحجة على المعاد وإن تمّت بقوله: «قل لمن ما في السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة» لكن النظر الابتدائي الساذج ربما غفل عن كون ملكه تعالى للأشياء مستلزماً لعلمه بها وسمعه بما يسمع منها كالأصوات والأقوال.

ولذلك نبه عليه بتكرار ملك السموات والأرض، وتفريع السمع والعلم عليه فقال: «وله

١. الانعام ١٢ ـ ١٨: بحث في مالكية الله تعالى لمخلوقاته.

ما سكن في الليل والنهار ـ وهو في معنى قوله: «له ما في السماوات والأرض ـ وهو السميع العليم» فكانت هذه الآية لذلك بمنزلة مقدمة متممة للحجة المسرودة في الآية السابقة.

والآية ـ على أنا لم نستوف حقها ولن يستوفي ـ من أرق الآيات القرآنية معنى وأدقها إشارة وحجة، وأبلغها منطقاً.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فاطِرِ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ شروع في الاحتجاج على وحدانيته تعالى وأن لا شريك له.

والذي يتحصل من تاريخ الوثنية واتخاذ الأصنام والآلهة أنهم كانوا إنما دانوا بذلك وخضعوا للآلهة لأحد أمرين: إما أنهم وجدوا أنفسهم في حاجة الى أسباب كثيرة في إبقاء الحياة كالتغذي بالطعام واللباس والمسكن والأزواج والأولاد والعشيرة ونحو ذلك، وعمدتها الطعام الذي حاجة الإنسان إليه أشد من حاجته الى غيره بحسب النظر الساذج، وقد اعتقدوا أن لكل صنف من أصناف هذه الحوائج تعلقاً بسبب هو الذي يجود لهم بالتمتع من وسيلة رفع تلك الحاجة كالسبب الذي يمطر السماء فينبت المرعى والكلاء لدوابهم ويمنح بالخصب لأنفسهم، والسبب الذي يدبّر أمر السهل والجبل أو يلقي بالمحبة والألفة أو إليه أمر البحر والسفائن الجارية فيها.

ثم وجدوا أن قوّتهم لا تفي بالتسلط على تلك الحاجة أو الحوائج الضرورية فاضطروا الى الخضوع الى السبب المربوط بحاجتهم واتخاذه إلهاً ثم عبادته.

وإما لأنهم وجدوا هذا الإنسان الأعزل غرضاً لسهام الحوادث محصوراً بمكاره وشرور عامة عظيمة لا يقاومها كالسيل والزلزلة والطوفان والقحط والوباء، وببلايا ومحن أُخرى جزئية لا يحصيها كالأمراض والأوجاع والسقوط والفقر والعقم والعدو والحاسد والشانىء وغير ذلك، ثم وضعوا لها أسباباً قاهرة هي المرسلة لها إليهم، والقاصمة بها ظهورهم، والمكدرة لصفوة عيشهم، وهي مخلوقات علوية كأرباب الأنواع وأرواح الكواكب والأجرام

العلوية فاتخذوها آلهة خوفاً من سخطهم وعذابهم، وعبدوهما ليستميلوها بالعبادة ويرضوها بالخضوع والاستكانة فيخلصوا بذلك عن المكاره والرزايا ويأمنوا شرورها والمضار النازلة منها إليهم.

والآية أعني قوله: «قل أغير الله أتخذ ولياً» الخ؛ والآيات التالية لها تحتج على المشركين بقلب حجتهم بعينها إليهم أي تسلم أصل الحجة وتعدّها حقة لكن تبين أن لازمها أن يعبد الله سبحانه وحده، وينفي عنه كل شريك موضوع.

فقوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ إشارة الى الحجة من المسلك الأول، وهو مسلك الرجاء أن يعبد الإله لأنه منعم فيكون عبادته شكراً لانعامه سبباً لمزيده.

أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يبين لهم في صورة الاستفهام والسؤال أن الله سبحانه وحده هو الولي للنعمة التي يتنعم بها الانسان وغيره لأنه هو الرازق الذي لا يحتاج الى أن يرزقه غيره يطعم ولا يطعم، والدليل عليه أنه تعالى هو الذي فطر السموات والأرض، وأخرجها من ظلمة العدم الى نور الوجود، وأنعم عليها بنعمة التحقق والثبوت، ثم أفاض عليها بنعم لا يحصيها إلا هو لإبقاء وجود، ومنها الإطعام للإنسان وغيره فإن جميع هذه النعم المعدة لبقاء وجود الانسان وغيره، والأسباب التي تسوق تلك النعم الى محال الاستحقاق كل ذلك ينتهي الى فطره وإيجاده الأشياء، والأسباب ومسبباتها جميعاً من صنعه.

فإليه سبحانه يرجع الرزق الذي من أهم مظاهره عند الإنسان الإطعام فيجب أن يعبد الله وحده لأنه هو الذي يطعمنا من غير حاجة الى إطعام من غيره.

ثم أمر سبحانه بعد تمام الحجة نبيه ﷺ أن يذكر لهم ما يؤيد به هذه الحجة العقلية، وهو أن الله أمره من طريق الوحي أن يجري في اتخاذ الإله على الطريق الذي يهدي إليه العقل وهو التوحيد، ونهاه صريحاً أن يتخطاه الى أن يلحق بالمشركين فقال: «قل إني أُمرت أن أكون أول

من أسلم» ثم قال: «ولا تكونن من المشركين».

بقي هنا أمران:

أحدهما: أن قوله: «أول من أسلم» إن كان المراد أول من أسلم من بينكم فهو ظاهر فقد أسلم ﷺ قبل امته. وإن كان المراد به أول من أسلم من غير تقييد كما هو ظاهر الإطلاق كانت أوليته في ذلك بحسب الرتبة دون الزمان.

وثانيهما: أن نتيجة الحجة لما كانت هي العبودية وهي نوع خضوع وتسليم كان استعمال لفظة الإسلام في المقام أولى من لفظة الإيمان لما فيه من الدلالة على غرض العبادة. وهو الخضوع.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهذا هو المسلك الثاني من المسلكين اللذين تقدم أن المشركين تعلقوا بهما في اتخاذ الآلهة. وهو أن عبادة آلهتهم يؤمنهم من شمول سخطها ونزول عذابها.

وقد أخذ سبحانه في الحجة أخوف ما يجب أن يخاف منه من أنواع العذاب وأمره وهو عذاب الساعة التي ثقلت في السماوات والأرض كما أخذ في الحجة الاولى أخرج ما يحتاج اليه الإنسان بحسب بادىء النظر من النعم. وهو الإطعام.

وقد قيل: «إن عصيت ربي» دون أن يقال: إن أشركت بربي إشارة الى ما في قوله تعالى في الآية السابقة: «ولا تكونن من المشركين» من نهيه ﷺ عن الشرك فأدت الآية أن من الواجب عليّ عقلاً أن أعبد الله وحده لأومن مما أخاف من عذاب يوم عظيم. وهذا الذي دل عليه العقل دلني عليه للوحي من ربي.

وبهذا تناظر هذه الآية الآية السابقة من جهة إقامة الحجة العقلية أولاً ثم تأييده بالوحي من الله سبحانه فافهم ذلك. وهذا من لطائف إيجاز القرآن الكريم فقد اكتفي في إفادة هذا المعنى على سعته بمجرد وضع قوله: «عصيت» موضع أشركت.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ الخ: المعنى ظاهر الآية متممة للحجة المسرودة في الآية السابقة فظاهر الآية السابقة بحسب النظر البسيط إقامة النبي ﷺ الحجة في وجوب التوحيد على نفسه بأن الله نهاه عن الشرك فيجب عليه توحيده ليؤمن عذاب الآخرة.

فيلوح لنظر المغفّل غير المتدبر أن يرد عليه الحجة بأن النهي لما كان مختصاً بك كما تدعيه يختص الخوف ثم وجوب التوحيد أيضاً بك فلا تقتضي الحجة وجوب التوحيد ونفي الشريك على غيرك، وتصير الحجة عليك لا على غيرك.

فأفاد بقوله: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ أن عذابه مشرف على الجميع محيط بالكل لا مخلص عنه إلا برحمته فعلى كل إنسان أن يخاف من عذاب يومئذ على نفسه ما يخافه النبي ﷺ على نفسه فالحجة عامة قائمة على جميع الناس لا خاصة به ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ الى آخر الآية: قد كانت الحجتان المذكورتان في الآيات السابقة أُخذتا أنموذجاً مما يرجوه الإنسان وهو الإطعام وانموذجاً مما يخافه وهو عذاب يوم القيامة، وتممتا بهما البيان، ولم تتعرضا لسائر أنواع الضر وأقسام الخير التي يمس الله سبحانه بهما الإنسان، والكل من الله عز اسمه.

فالآية توضح بالتصريح أن هناك من الضر ما هو غير عذاب يوم القيامة يمس الله سبحانه به الانسان يجب أن يتوجه إليه تعالى في كشفه، وأن من الخير ما يمس الله به الانسان ولا راد لفضله ولا مانع يمنع من إفاضته لقدرته على كل شيء، ورجاء الخير يوجب على الانسان أن يتخذه سبحانه إلهاً معبوداً.

ولما أمكن أن يتوهم أن كونه تعالى يمس الانسان بضر أو بخير إنما يقتضي أن يتخذ معبوداً،

والخصم لا ينكر ذلك[١]. وأما قصر الالوهية والمعبودية فيه تعالى فلا لأن ما اتخذوه من الآلهة هي أسباب متوسطة وشفعاء أقوياء لها تأثيرات في الكون من شر أو خير يوجب على الانسان أن يتقرب إليها خوفاً من شرها أو رجاء لخيرها.

دفعه بأن الله سبحانه هو القاهر فوق عباده لا يفوقه منهم أحد ولا يعادله فهم أنفسهم تحت قهره، وكذا أفعالهم وآثارهم لا يعملون عملاً من خير أو شر إلا بإذنه ومشيته غير مستقلين بأمر البتة ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا غير ذلك، فما يطلع من أُفق ذواتهم من أثر خيراً أو شراً ينتهي الى أمره ومشيته واذنه يستند اليه على ما يليق بساحة قدسه وعزته من الاستناد.

فالآيتان جميعاً تتمان معنى واحداً، وهو أن ما يصيب الانسان من خير أو شر فمن الله على ما يليق بساحته من الانتساب، فالله سبحانه هو المتوحد بالالوهية، والمتفرد بالمعبودية لا إله غيره، ولا معبود سواه.

وقد عبّر عن إصابة الضر والخير بالمس الدال على الحقارة في قوله: «إن يمسسك» «وإن يمسسك» ليدل به على أن ما يصيب الانسان من ضر أو من خير شيء يسير مما تحمله القدرة غير المتناهية التي لا يقوم لها شيء، ولا يطيقها ولا يتحملها مخلوق محدود.

وكأن قوله تعالى في جانب الخير: «فهو على كل شيء قدير» وضع موضع نحو من قولنا: فلا مانع يمنعه، ليدل على أنه تعالى قدير على كل خير مفروض كما أنه قدير على كل ضر مفروض، وتنكشف به علة قوله: فلا كاشف له إلا هو اذ لو كشف غيره تعالى شيئاً مما مس به من ضر دفع ذلك قدرته عليه، وكذلك قدرته على كل شيء تقتضي أن لا يقوى شيء على دفع

---

١. الخاصة من الوثنية وان كانوا يجوزون عبادته تعالى استناداً إلى أنه غير محدود الوجود لا يتعلق به التوجه العبادي لكن العامة منهم ربما عبدوه في عرض سائر الآلهة كما يظهر من تلبية مشركي مكة في الحج: لبيك لا شريك لك الله شريكاً هو لك تملكه وله ملك.

ما يمس به من خير.

وتخصيص ما يمس به من ضر أو خير بالنبي ﷺ في هذه الآية نظير التخصيص الواقع في قوله: «قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم» ويفيد قوله: «وهو القاهر فوق عباده» من التعميم نظير ما أفاد قوله: «من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه».

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ القاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ القهر هو نوع من الغلبة، وهو أن يظهر شيء على شيء فيضطره الى مطاوعة أثر من الغالب يخالف ما للمغلوب من الأثر طبعاً أو بنحوه من الافتراض كالماء يظهر على النار فيقهرها على الخمود. والنار تقهر الماء فتبخره أو تجفف رطوبته. واذ كانت الأسباب الكونية إنما أظهرها الله سبحانه لتكون وسائط في حدوث الحوادث فتضع آثارها في مسبباتها، وهي كائنة ما كانت مضطرة الى مطاوعة ما يريده الله سبحانه فيها وبها، يصدق عليها عامة أنها مقهورة لله سبحانه فالله قاهر عليها.

فالقاهر من الأسماء التي تصدق عليه تعالى كما تصدق على غيره. غير أن بين قهره تعالى وقهر غيره فرقاً، وهو أن غيره تعالى من الأشياء إنما يقهر بعضها بعضاً وهما مجتمعان من جهة مرتبة وجودهما ودرجة كونهما بمعنى أن النار تقهر الحطب على الاحتراق والاشتعال، وهما معاً موجودان طبيعيان يقتضي أحدهما بالطبع خلاف ما يقتضيه الآخر لكن النار أقوى في تحميل أثرها على الحطب منه من النار فهي تظهر عليه في تأثيرها بأثرها فيه.

والله سبحانه قاهر لا كقهر النار الحطب، بل هو قاهر بالتفوق والإحاطة على الإطلاق بمعنى أنا اذا نسبنا احراق جسم وإشعاله كالحطب مثلاً إلى الله سبحانه فهو سبحانه قاهر عليه بالوجود المحدود الذي أوجده به، قاهر عليه بالخواص والكيفيات التي أعطاها له وعباه بها بيده، قاهر عليه بالنار التي أوقدها لإحراقه وإشعاله، وهو المالك لجميع ما للنار من ذات وأثر، قاهر عليه بقطع عطية المقاومة للحطب، ووضع الاحتراق والاشتعال موضعه فلا

مقاومة ولا تعصي ولا جموح ولا شبه ذلك قبال إرادته ومشيّته لكونها من أُفق أعلى.

فهو تعالى قاهر على عباده لكنه فوقهم لا كقهر شيء شيئاً وهما متزاملان. وقد صدّق القرآن الكريم هذا البحث بنتيجته فذكره اسماً له تعالى في موضعين من هذه السورة وهما هذه الآية وآية (٦١).

وقيد الاسم في كلا الموضعين بقوله: «فوق عباده» والغالب في المحفوظ من موارد استعمال القهر هو أن يكون المغلوب من اولي العقل بخلاف الغلبة، ولذا فسّره الراغب بالتذيل. والذلة في اولي العقل أظهر، ولا يمنع ذلك من صحة صدقه في غير مورد اولي العقل بحسب الاستعمال أو بعناية.

والله سبحانه قاهر فوق عباده يمسهم بالضر وبالخير ويذللهم لمطاوعته وقاهر فوق عباده فيما يفعلونه ويؤثرون به من أثر لأنه المالك لما ملّكهم والقادر على ما عليه أقدرهم.

ولما نسب في الآيتين إليه المس بالضر والخير، وقد ينسبان الى غيره، ميز مقامه من مقام غيره بقوله في ذيل الآية: «وهو الحكيم الخبير» فهو الحكيم لا يفعل ما يفعل جزافاً وجهلاً، الخبير لا يخطيء ولا يغلط كغيره.

١٩ ● قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهٰادَةً قُلِ اللّٰهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوْحِيَ
إِلَيَّ هٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ
اللّٰهِ آلِهَةً أُخْرىٰ قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلٰهٌ واحِدٌ وَإِنَّنِي
بَرِيءٌ مِمّٰا تُشْرِكُونَ.
٢٠ ● الَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ الْكِتٰابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْنٰاءَهُم الَّذِينَ
خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أمر نبيه أن يسألهم عن أكبر الأشياء من حيث الشهادة، والشهادة هي تحمّل الخبر عن نوع من العيان كالإبصار ونحوه، وأداء ما تحمل كذلك بالإخبار والإنباء، واذ كان التحمل والأداء ـ وخاصة التحمل ـ مما يختلف بحسب إدراك المتحملين وبحسب وضوح الخبر الذي تحمّله المتحمل، وبحسب قوة المؤدي بياناً وضعفه اختلافاً فاحشاً.

فليس المتحمل الذي يغلب على مزاجه السهو والنسيان أو الغفلة كالذي يحفظ ما يعيه سمعه ويقع عليه بصره، وليس الصاحي كالسكران ولا الخبير الأخصائي بأمر كالأجنبي الأعزل.

واذا كان الامر على ذلك فلا يقع ريب في أن الله سبحانه هو أكبر من كل شيء شهادة فإنه هو الذي أوجد كل ما دق وجل من الأشياء، وإليه ينتهي كل أمر وخلق، وهو المحيط بكل شيء ومع كل شيء لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر لا يضل ولا ينسى.

ولكون الأمر بيناً لا يقع فيه شك لم يحتج الى إيراد الجواب في اللفظ بأن يقال: قل الله أكبر شهادة، كما قيل: ﴿قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله﴾ (الأنعام / ١٢) أو يقال: سيقولون الله، كما قيل: ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون، سيقولون لله﴾ (المؤمنون / ٨٥).

على أن قوله: «قل الله شهيد بيني وبينكم» يدل عليه ويسد مسده، وليس من البعيد أن يكون قوله: «شهيد» خبراً لمبتدء محذوف هو الضمير العائد الى الله، والتقدير: «قل الله هو شهيد بيني وبينكم» فتشتمل الجملة على جواب السؤال وعلى ما استؤنف من الكلام.

وقوله: «قل الله شهيد بيني وبينكم» على أنه يشتمل على إخباره ﷺ بشهادة الله تعالى هو بنفسه شهادة لمكان قوله: «قل» اذ أمره بأن يخبرهم بشهادته تعالى بالنبوة لا ينفك عن الشهادة بذلك. وعلى هذا فلا حاجة الى التشبث بأنواع ما وقع في القرآن الكريم من شهادة الله تعالى على نبوته ﷺ وعلى نزول القرآن من عنده كقوله تعالى: ﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾ (المنافقون) أو قوله: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه﴾ (النساء / ١٦٦) وغير ذلك من الآيات الدالة على ذلك تصريحاً أو تلويحاً بلفظ الشهادة أو بغيره.

وتقييد شهادته تعالى بقوله: «بيني وبينكم» يدل على توسطه تعالى بين طرفين متخاصمين هما النبي ﷺ وقومه. والنبي لم ينعزل عنهم ولم يتميز منهم في جانب إلا في دعوى النبوّة والرسالة ودعوى نزول القرآن لكن نزول القرآن بالوحي قد ذكر بعد في قوله: «واوحي إلي هذا القرآن» فالمراد بشهادته تعالى بينه وبينهم شهادته بنبوته. ويؤيده أيضاً قوله في الآية التالية: «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم» على ما سيجيء إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ من مقول القول وهو معطوف على قوله: «الله شهيد» الخ؛ وجعل الإنذار غاية لنزول القرآن الكريم أخذ بمسلك الخوف في الدعوة النبوية، وهو الأوقع في أفهام عامة الناس فإن مسلك الرجاء والوعد وإن كان أحد الطريقين في الدعوة، وقد استعمله الكتاب العزيز في الجملة لكن رجاء الخير لا يبعث الى طلبه بعثاً إلزامياً وإنما يورث شوقاً ورغبة بخلاف الخوف لوجوب دفع الضرر المحتمل عقلاً.

ولأن دعوة الإسلام إنما هي الى دين الفطرة، وهو مخزون مكنوز في فطرة الناس وإنما حجبهم عنه ما ابتلوا به من الشرك والمعصية مما يوجب عليهم غلبة الشقوة ونزول السخط

الإلهي فالأقرب الى الحكمة والحزم في دعوتهم أن تبدأ بالإنذار، ولهذا كله ربما حصر شأن النبي ﷺ في الإنذار كما في قوله: ﴿إن أنت إلا نذير﴾ (فاطر / ٢٣) وقوله: ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ (العنكبوت / ٥٠).

هذا في عامة الناس وأما الخاصة من عباد الله، وهم الذين يعبدونه حباً له لا خوفاً من نار ولا طمعاً في جنة فانهم يتلقون من الدعوة بالخوف والرجاء أمراً آخر فإنهم يتلقون من النار أنها دار بعد وسخط فيخافونها لذلك، ومن الجنة أنها ساحة قرب ورضوان فيشتاقون اليها لذلك.

وظاهر قوله: «لانذركم به ومن بلغ» أنه خطاب لمشركي مكة أو لقريش أو للعرب عامة إلا أن التقابل بين ضمير الخطاب وبين من بلغ ـ والمراد بمن بلغ هو من لم يشافهه النبي ﷺ بالدعوة في زمن حياته أو بعد ـ يدل على أن المراد بالمخاطبين في قوله: «لانذركم به» هم الذين شافههم النبي ﷺ بالدعوة ممن تقدم دعاؤه على نزول الآية أو قارنه أو تأخر عنه.

فقوله: «واوحي إلي هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ» يدل على عموم رسالته ﷺ بالقرآن لكل من سمعه منه أو سمعه من غيره الى يوم القيامة، وإن شئت فقل: تدل الآية على كون القرآن الكريم حجة من الله وكتاباً له ينطق بالحق على أهل الدنيا من لدن نزوله الى يوم القيامة.

وقد قيل: «لأنذركم به» ولم يقل: لانذركم بقراءته فالقرآن حجة على من سمع لفظه وعرف معناه واهتدى الى مقاصده، أو فسّر له لفظه وقرع سمعه بمضامينه فليس من شرط كتاب مكتوب الى قوم أن يكون بلسانهم بل أن تقوم عليهم حجته وتشملهم مضامينه، وقد دعا ﷺ بكتابه الى مصر والحبشة والروم وإيران ولسانهم غير لسان القرآن، وقد كان فيمن آمن به في حياته وقبل إيمانهم سلمان الفارسي وبلال الحبشي وصهيب الرومي وعدة من اليهود ولسانهم عبري هذا كله مما لا ريب فيه.

قوله تعالى: ﴿ أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لا أَشْهَدُ ﴾ الى آخر الآية: لما ذكر شهادة الله وهو أكبر شهادة على رسالته ولم يرسل إلا ليدعوهم الى دين التوحيد، وليس لأحد بعد شهادة الله سبحانه على أن لا شريك له في أُولوهيته أن يشهد أن مع الله آلهة أمر نبيه أن يسألهم سؤال متعجب منكر: هل يشهدون بتعدد الآلهة، وهذا هو الذي يدل عليه تأكيد المسئول عنه بأن واللام، كأن النفس لا تقبل أن يشهدوا به بعد أن سمعوا شهادة الله تعالى.

ثم أمره أن يخالفهم في الشهادة فينفي عن نفسه الشهادة بما شهدوا به فقال: «قل لا أشهد» أي بما شهدتم به بقرينة المقام، ثم قال: «قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون» وهو شهادة على وحدانيته تعالى، والبراءة مما يدعون له من شركاء.

قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ وهذا إخبار عما شهد به الله سبحانه في الكتب المنزّلة على أهل الكتاب، وعلمه علماء أهل الكتاب مما عندهم من كتب الأنبياء من البشارة بعد البشارة بالنبي ﷺ ووصفه بما لا يعتريه شك ولا يطرأ عليه ريب.

فهم بما استحضروا من نعته ﷺ يعرفونه بعينه كما يعرفون أبناءهم، قال تعالى: ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل** ﴾ (الأعراف / ١٥٧) وقال تعالى: ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل** ﴾ (الفتح / ٢٩)، وقال تعالى: ﴿ **أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل** ﴾ (الشعراء / ١٩٧).

ولما كان بعض علمائهم يكتمون ما عندهم من بشاراته ونعوته ﷺ ويستنكفون عن الايمان به بيّن الله تعالى خسرانهم في أمرهم فقال: «الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون».

وقد تقدم بعض الكلام في تفسير الآية من سورة البقرة (آية ١٤٦) وبيّنا هناك وجه الالتفات من الحضور الى الغيبة وسيأتي تمام الكلام في سورة الأعراف (آية ١٥٦) إن شاء الله تعالى[1].

٢١ ● وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ.

٢٢ ● وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ.

٢٣ ● ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللّٰهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ.

٢٤ ● أُنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ.

٢٥ ● وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ.

٢٦ ● وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ.

٢٧ ● وَلَوْ تَرىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

---

١. الانعام ١٩ ـ ٢٠: بحث روائي في: الله عز وجلّ الشيء أم لا شيء؛ التوحيد والمذاهب فيه.

٢٨ ● بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ.

٢٩ ● وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلّا حَياتُنَا الدُّنْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ.

٣٠ ● وَلَوْ تَرىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلىٰ رَبِّهِمْ قالَ أَلَيْسَ هٰذابِالْحَقِّ قالُوا بَلىٰ وَرَبِّنا قالَ فَذُقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ.

٣١ ● قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللّٰهِ حَتّىٰ إِذا جاءَتْهُمُ السّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلىٰ ما فَرَّطْنا فِيها وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلىٰ ظُهُورِهِمْ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ.

٣٢ ● وَمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيا إِلّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ﴾ الظلم من أشنع الذنوب بل التحليل الدقيق يقضي أن سائر الذنوب إنما هي شنيعة مذمومة بمقدار ما فيها من معنى الظلم، وهو الانحراف والخروج عن الوسط العدل.

والظلم كما يكبر ويصغر من جهة خصوصيات من صدر عنه الظلم كذلك يختلف حاله بالكبر والصغر من جهة من وقع عليه الظلم أو أُريد إيقاعه عليه فكلما جل موقعه وعظم شأنه كان الظلم أكبر وأعظم، ولا أعز قدراً وأكرم ساحة من الله سبحانه ولا من آياته الدالة عليه، فلا أظلم ممن ظلم هذه الساحة المنزهة أو ما ينتسب إليها بوجه، ولا يظلم إلا نفسه.

وقد صدّق الله سبحانه هذه النظرة العقلية بقوله: «ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو

كذب بآياته » أما افتراء الكذب عليه تعالى فبإثبات الشريك له، ولا شريك له، أو دعوى النبوة أو نسبة حكم إليه كذباً وابتداعاً، وأما تكذيب آياته الدالة عليه فكتكذيب النبي الصادق في دعواه المقارنة للآيات الإلهية أو إنكار الدين الحق، ومنه إنكار الصانع أصلاً.

والآية تنطبق على المشركين، وهم أهل الأوثان الذين إليهم وجّه الاحتجاج من جهة أنهم أثبتوا لله سبحانه شركاء بعنوان أنهم شفعاء مصادر امور في الكون، وإليهم ينتهي تدبير شئون العالم مستقلين بذلك، ومن جهة أنهم أنكروا آياته تعالى الدالة على النبوة والمعاد.

وربما الحق بعضهم بذلك القائلين بجواز شفاعة النبي ﷺ أو الطاهرين من ذريته أو الأولياء الكرام من امته فقضى بكون الاستشفاع بهم في شيء من حوائج الدنيا أو الآخرة شركاً تشمله الآية وما يناظرها من الآيات الشريفة.

وكأنه خفي عليهم أنه تعالى أثبت الشفاعة اذا قارنت الإذن في كلامه من غير أن يقيده بدنيا أو آخرة، فقال عز من قائل: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ (البقرة / ٢٥٥).

على أنه تعالى قال: ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ (الزخرف / ٨٦) فأثبت الشفاعة حقاً للعلماء الشهداء بالحق، والقدر المتيقن منهم الأنبياء ومنهم النبي ﷺ، وقد أثبت الله سبحانه شهادته بقوله: ﴿وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ (النساء / ٤١) ونص على علمه حيث قال: ﴿ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ (النحل / ٨٩)، وقال: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾ (الشعراء / ١٩٤) وهل يعقل نزول الكتاب الذي هو تبيان كل شيء على قلب من غير علم به، أو بعثه تعالى إياه شهيداً وليس بشهيد بالحق؟ وقال الله تعالى: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ (البقرة / ١٤٣)، وقال: ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ (آل عمران / ١٤٠)، وقال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ (العنكبوت / ٤٣) فأثبت في هذه الامة شهداء علماء ولا يثبت إلا الحق.

وقال تعالى في أهل بيته ﷺ: ﴿إنما يريد ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ (الأحزاب / ٣٣) فبين أنهم مطهرون بتطهيره، ثم قال: ﴿إنه لقرآن كريم، في كتاب مكنون، لا يمسه إلا المطهرون﴾ (الواقعة / ٧٩) فعدهم العلماء بالقرآن الذي هو تبيان كل شيء والمطهرون هم القدر المتيقن من هذه الامة في الشهادة بالحق التي لا سبيل للغو والتأثيم إليها، وقد أشبعنا الكلام في معنى الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب فليراجع.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ الفلاح والفوز والنجاح والظفر والسعادة ألفاظ قريبة المعنى، ولهذا فسر الراغب الفلاح بإدراك البغية الذي هو معنى السعادة تقريبا، قال في المفردات: الفلح: الشق، وقيل الحديد بالحديد يُفلح أي يشق، والفلاح الأكار لذلك والفلاح الظفر وإدراك البغية، وذلك ضربان دنيوي وأُخروي:

فالدنيوي الظفر بالسعادات التي تطيب بها حياة الدنيا وهو البقاء والغنى والعز وإياه قصد الشاعر بقوله:

أفلح بما شئت فقد يدرك بالضعف وقد يخدع الأريب

وفلاح اخروي، وذلك أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وعلم بلا جهل. انتهى. فمن الممكن أن يقال: إن الفلاح هو السعادة سميت به لأن فيها الظفر وإدراك البغية بشق الموانع الحائلة دون المطلوب.

وهذا معنى جامع ينطبق على موارد الاستعمال كقوله: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ (المؤمنون / ١)، وقوله: ﴿قد أفلح من زكاها﴾ (الشمس / ٩)، وقوله: ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾ (المؤمنون / ١١٧) الى غير ذلك من الموارد.

فقوله: «إنه لا يفلح الظالمون» - وقد أُخذ الظلم وصفاً - معناه أن الظالمين لا يدركون بغيتهم التي تشبثوا لأجل إدراكها بما تشبثوا به فإن الظلم لا يهدي الظالم الى ما يبتغيه من

السعادة والظفر بواسطة ظلمه[١].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾ الى آخر الآيتين. الظرف متعلق بمقدر والتقدير: واذكر يوم، الخ؛ وقد تعلقت العناية في الكلام بقوله «جميعاً» للدلالة على أن العلم والقدرة لا يتخلفان عن أحد منهم، فالله سبحانه محيط بجميعهم علماً وقدرة سيحصيهم يحشرهم ولا يغادر منهم أحداً.

والجملة في مقام بيان قوله: «إنه لا يفلح الظالمون» كأنه لما قيل «انه لا يفلح الظالمون» سئل فقيل: وكيف ذلك؟ فقيل: لأن الله سيحشرهم ويسألهم عن شركائهم فيضلون عنهم ويفقدونهم فينكرون شركهم ويقسمون لذلك بالله كذباً، ولو أفلح هؤلاء الظالمون في اتخاذهم لله شركاء لم يضل عنهم شركاؤهم، ولم يكذبوا على أنفسهم بل وجدوهم على ما ادعوا من الشركة والشفاعة ونالوا شفاعتهم.

وقوله: «ثم لم تكن فتنتهم» الخ؛ قيل: المراد بالفتنة الجواب أي لم يكن جوابهم إلا أن أقسموا بالله على أنهم ما كانوا مشركين، وقيل: الكلام على تقدير مضاف والمراد: لم تكن عاقبة افتتانهم بالأوثان إلا أن قالوا، الخ؛ وقيل: المراد بالفتنة المعذرة، ولكل من الوجوه وجه.

قوله تعالى: ﴿أُنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ بيان لمحل الاستشهاد فيما قص من حالهم يوم القيامة، والمراد أنهم سيكذبون على أنفسهم ويفقدون ما افتروا به، ولو أفلحوا في ظلمهم وسعدوا فيما طلبوا لم ينجر أمرهم الى فقد ذلك وإنكاره على أنفسهم.

أما كذبهم على أنفسهم فلأنهم لما أقسموا بالله أنهم ما كانوا مشركين أنكروا ما ادعوه في

---

١. الانعام ٢١ ـ ٣٢: كلام في معنى السعادة، طرق السعادات الانسانية.

الدنيا من أن الله سبحانه شركاء، وهم كانوا يصرون عليه ويعرضون فيه عن كل حجة واضحة وآية بينة ظلماً وعتواً، وهذا كذب منهم على أنفسهم.

وأما ضلال ما كانوا يفترونه عنهم فلأن اليوم يوم ينجلي فيه عياناً أن الأمر والملك والقوة لله جميعاً ليس لغيره من شيء إلا ذلة العبودية. والفقر والحاجة من غير أي استقلال قال تعالى: ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب﴾ (البقرة / ١٦٥)، وقال: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ (المؤمن / ١٦) وقال: ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً، والأمر يومئذ لله﴾ (الإنفطار / ١٩).

فيشاهدون عندئذ مشاهدة عيان أن الالوهية لله وحده لا شريك له. ويظهر لهم أوثانهم وشركاؤهم وهم لا يملكون ضراً ولا نفعاً لأنفسهم ولا لغيرهم، ووجدوا الأوصاف التي أثبتوها لهم من الربوبية والشفاعة وغيرهما انما هي لله وحده، وقد كان اشتبه عليهم الأمر فتوهموها لغيره وضل عنهم ما كانوا يفترون.

وبالتدبر في هذه الآيات يظهر أن المراد بضلال ما افتروا به هو ظهور حقيقة شركائهم فاقدة لوصف الشركة والشفاعة وتبينهم أن ما ظهر لهم من ذلك في الدينا لم يكن إلا ظهوراً سرابياً كما قال تعالى: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفّاه حسابه﴾ (النور / ٣٩).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ الى آخر الآية؛ الأكنة جمع كن بكسر الكاف وهو الغطاء الذي يكن فيه الشيء ويغطى. والوقر هو الثقل في السمع، والأساطير جمع اسطورة بمعنى الكذب والمين على ما نقل عن المبرد، وكأنه أصله السطر وهو الصف من الكتابة أو الشجر أو الناس غلب استعماله فيما جمع ونظم ورتب من الأخبار الكاذبة.

وكان ظاهر السياق أن يقال: يقولون إن هذا إلا أساطير الأولين، ولعل الإظهار للإشعار بالسبب في هذا الرمي وهو الكفر.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ينهون عنه أي عن أتباعه، والنأي الابتعاد، والقصر في قوله: «وإن يهلكون إلا أنفسهم» من قصر القلب فإنهم كانوا يحسبون أن النهي عنه والنأي عنه إهلاك له وإبطال الدعوة الإلهية، ويأبى الله إلا أن يتم نوره فهم هم الهالكون من حيث لا يشعرون.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ الى آخر الآيتين. بيان لعاقبة جحودهم وإصرارهم على الكفر والإعراض عن آيات الله تعالى.

وقوله: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ الخ؛ على قراءة النصب في «نكذب» و«نكون» تمن منهم للرجوع الى الدنيا والانسلاك في سلك المؤمنين ليخلصوا به من عذاب النار يوم القيامة، وهذا القول منهم نظير إنكارهم الشرك بالله وحلفهم بالله على ذلك كذباً من باب ظهور ملكاتهم النفسانية يوم القيامة فإنهم قد اعتادوا التمني فيما لا سبيل لهم الى حيازته من الخيرات والمنافع الفائتة عنهم، وخاصة اذا كان فوتها مستنداً الى سوء اختيارهم وقصور تدبيرهم في العمل، ونظيره أيضاً ما سيجيء من تحصرهم على ما فرطوا في أمر الساعة.

على أن التمني يصح في المحالات المتعذرة كما يصح في الممكنات المتعسرة كتمني رجوع الأيام الخالية وغير ذلك قال الشاعر:

ليت وهل ينفع شيئاً ليت ليت الشباب بوع فاشتريت

وقوله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ الخ؛ ظاهر الكلام أن مرجع الضمائر أعني ضمائر «لهم» و«كانوا» و«يخفون» واحد وهو المشركون السابق ذكرهم، وأن المراد بالقبل هو الدنيا فالمعنى أنه ظهر لهؤلاء المشركين حين وقفوا على النار ما كانوا هم أنفسهم يخفونه في الدنيا فبعثهم ظهور ذلك على أن تمنوا الرد الى الدنيا، والإيمان بآيات الله، والدخول في جماعة المؤمنين.

ولم يبدلهم إلا النار التي وقفوا عليها يوم القيامة فقد كانوا أخفوها في الدنيا بالكفر والستر للحق والتغطية عليه بعد ظهوره لهم كما يشير إليه نحو قوله تعالى: ﴿**لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم الحديد**﴾ (ق / ٢٢).

وأما نفس الحق الذي كفروا به في الدنيا مع ظهوره لهم فهو كان بادناً لهم من قبل والسياق يأبى أن يكون مجرد ظهور الحق لهم مع الغض عن ظهور النار وهول يوم القيامة باعثاً لهم على هذا التمني.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي في قولهم «يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا» الخ؛ والتمني وإن كان إنشاء لا يقع فيه الصدق والكذب إلا أنهم لما قالوا «نرد ولا نكذب» أي ردنا الله الى الدنيا ولوردنا لم نكذب، ولم يقولوا: نعود ولا نكذب، كان كلامهم مضمناً للمسألة والوعد أعني مسألة الرد ووعد الايمان والعمل الصالح كما صرح بذلك في قوله: ﴿**ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون**﴾ (السجدة / ١٢) وقوله: ﴿**وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل**﴾ (فاطر / ٣٧).

وبالجملة قولهم «يا ليتنا نرد ولا نكذب» الخ؛ في معنى قولهم ربنا ردنا الى الدنيا لا نكذب بآياتك ونكن من المؤمنين، وبهذا الاعتبار يحتمل الصدق والكذب، ويصح عدهم كاذبين.

وربما وجه نسبة الكذب إليهم في تمنيهم بأن المراد كذب الأمل والتمني وهو عدم تحققه خارجاً كما يقال: كذبك أملك، لمن تمنى ما لا يدرك.

وربما قيل: إن المراد كذبهم في سائر ما يخبرون به عن أنفسهم من إصابة الواقع واعتقاد الحق، هو كما ترى.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ الى آخر الآيتين. ذكر لإنكارهم الصريح للحشر وما يستتبعه يوم القيامة من الإشهاد وأخذ الاعتراف بما أنكروه، والوثنية

كانت تنكر المعاد كما حكى الله عنهم ذلك في كلامه غير مرة، وقولهم بشفاعة الشركاء إنما كان في الامور الدنيوية من جلب المنافع إليهم ودفع المضار والمخاوف عنهم.

فقوله: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ﴾ الخ؛ حكاية لانكارهم أي ما الحياة إلا حياتنا الدنيا لا حياة بعدها، وما نحن بمبعوثين بعد الممات، وقوله: «ولو ترى اذ وقفوا» كالجواب وهو بيان ما يستتبعه قولهم: ان هي إلا، الخ؛ للنبي ﷺ في صورة التمني لمكان قوله: «ولو ترى» وهو أنهم سيصدقون بما جحدوه، ويعترفون بما أنكروه بقولهم «وما نحن بمبعوثين» اذ يوقفون على ربهم فيشاهدون عياناً هذا الموقف الذي اخبروا به في الدنيا، وهو أنهم مبعوثون بعد الموت فيعترفون بذلك بعد ما أنكروه في الدنيا.

ومن هنا يظهر أن الله سبحانه فسر البعث في قوله: «ولو ترى اذ وقفوا على ربهم» بلقاء الله، ويؤيده أيضاً قوله في الآية التالية «قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى اذا جاءتهم الساعة» الخ: حيث بدل الحشر والبعث والقيامة المذكورات في سابق الكلام لقاء ثم ذكر الساعة أي ساعة اللقاء.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ أي أليس البعث الذي أنكرتموه في الدنيا وهو لقاء الله «بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون» به وتسترونه.

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ الى آخر الآية؛ قال في المجمع: كل شيء أتى فجأة فقد بغت يقال: بغتة الأمر يبغته بغتة انتهى، وقال الراغب في المفردات: الحسر كشف الملبس عما عليه يقال: حسرت عن الذراع، والحاسر من لا درع عليه ولا مغفر، والمحسرة المكنسة ـ الى أن قال ـ والحاسر المعيا لانكشاف قواه ـ الى أن قال ـ والحسرة الغم على ما فاته والندم عليه كأنه انحسر عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكبه أو انحسر قواه من فرط غم أو أدركه إعياء عن تدارك ما فرّط منه. انتهى موضع الحاجة.

وقال: الوزر (بفتحتين) الملجأ الذي يتلجأ إليه من الجبل، قال: «كلا لا وزر الى ربك

يومئذ المستقر» والوزر (بالكسر فالسكون) الثقل تشبيهاً بوزر الجبل. ويعبّر بذلك عن الإثم كما يعبّر عنه بالثقل قال: «ليحملوا أوزارهم كاملة» الآية كقوله: «وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم». انتهى.

والآية تبين تبعة اخرى من تبعات إنكارهم البعث وهو أن الساعة سيفاجئهم فينادون بالحسرة على تفريطهم فيها ويتمثل لهم أوزارهم وذنوبهم وهم يحملونها على ظهورهم وهو أشق أحوال الإنسان وأردؤها ألا ساء ما يزرون ويحملونه من الثقل أو من الذنب أو من وبال الذنب.

والآية أعني قوله: «قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله» بمنزلة النتيجة المأخوذة من قوله: «وقالوا ان هي إلا حياتنا الدنيا» الى آخر الآيتين. وهي أنهم بتعويضهم راحة الآخرة وروح لقاء الله من إنكار البعث وما يستتبعه من أليم العذاب خسروا صفقة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ الخ: تتمة للكلام فيه بيان حال الحياتين: الدنيا والآخرة والمقايسة بينهما فالحياة الدنيا لعب ولهو ليس إلا فإنها تدور مدار سلسلة من العقائد الاعتبارية والمقاصد الوهمية كما يدور عليه اللعب فهي لعب، ثم هي شاغلة للإنسان عما يهمه من الحياة الاخرى الحقيقة الدائمة فهي لهو. والحياة الآخرة لكونها حقيقية ثابتة فهي خير ولا ينالها إلا المتقون فهي خير لهم[1].

٣٣ ● قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ.

---

١. الانعام ٢١ ـ ٣٢: بحث روائي في: العفو؛ ابي طالب ودفاعه عن رسول الله.

٣٤ ● وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلىٰ ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتّىٰ أَتاهُمْ نَصْرُنا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللّٰهِ وَلَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِى الْمُرْسَلِينَ.

٣٥ ● وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شاءَ اللّٰهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ.

٣٦ ● إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتىٰ يَبْعَثُهُمُ اللّٰهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ الى آخر الآية؛ «قد» حرف تحقيق في الماضي، وتفيد في المضارع التقليل وربما استعملت فيه أيضاً للتحقيق، وهو المراد في الآية، وحزنه كذا وأحزانه بمعنى واحد، وقد قرىء بكلا الوجهين.

وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ﴾ قرىء بالتشديد من باب التفعيل، وبالتخفيف، والظاهر أن الفاء في قوله: «فإنهم» للتفريع وكأن المعنى قد نعلم إن قولهم ليحزنك لكن لا ينبغي أن يحزنك ذلك فإنه ليس يعود تكذيبهم إليك لأنك لا تدعو إلا إلينا، وليس لك فيه إلا الرسالة بل هم يظلمون بذلك آياتنا ويجحدونها.

فما في هذه الآية مع قوله في آخر الآيات «ثم إليه يرجعون» في معنى قوله تعالى: ﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور﴾ (لقمان / ٢٣) وقوله: ﴿فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ (يس / ٧٦) وغير ذلك من

الآيات النازلة في تسليته ﷺ ، هذا على قراءة التشديد .

وأما على قراءة التخفيف فالمعنى : لا تحزن فإنهم لا يظهرون عليك بإثبات كذبك فيما تدعو إليه ، ولا يبطلون حجتك بحجة وإنما يظلمون آيات الله بجحدها وإليه مرجعهم .

وقوله : ﴿ وَلٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّٰهِ يَجْحَدُونَ ﴾ كان ظاهر السياق أن يقال : ولكنهم ، فالعدول الى الظاهر للدلالة على أن الجحد منهم إنما هو عن ظلم منهم لا عن قصور وجهل وغير ذلك فليس إلا عتواً وبغياً وطغياناً وسيبعثهم الله ثم إليه يرجعون .

ولذلك وقع الالتفات في الكلام من التكلم الى الغيبة فقيل « بآيات الله » ولم يقل : بآياتنا ، للدلالة على أن ذلك منهم معارضة مع مقام الالوهية واستعلاء عليه وهو المقام الذي لا يقوم له شيء .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا ﴾ الى آخر الآية ؛ هداية له ﷺ الى سبيل من تقدمه من الأنبياء ، وهو سبيل الصبر في ذات الله ، وقد قال تعالى : ﴿ أُولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ (الأنعام / ٩٠) .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ بيان غاية حسنة لصبرهم ، وإشارة الى الوعد الإلهي بالنصر ، وفي قوله : ﴿ وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّٰهِ ﴾ تأكيد لما يشير إليه الكلام السابق من الوعد وحتم له ، وإشارة الى ما ذكره بقوله ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ (المجادلة / ٢١) ، وقوله : ﴿ وقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ﴾ (الصافات / ١٧٢) .

ووقوع المبدل في قوله : « لا مبدل لكلمات الله) في سياق النفي ينفي أي مبدل مفروض سواء كان من ناحيته تعالى بأن يتبدل مشيته في خصوص كلمة بأن يمحوها بعد إثباتها أو ينقضها بعد إبرامها أو كان من ناحية غيره تعالى بأن يظهر عليه ويقهره على خلاف ما شاء فيبدل ما أحكم ويغيره بوجه من الوجوه .

ومن هنا يظهر أن هذه الكلمات التي أنبأ سبحانه عن كونها لا تقبل التبديل أُمور خارجة

عن لوح المحو والإثبات، فكلمة الله وقوله وكذا وعده في عرف القرآن هو القضاء الحتم الذي لا مطمع في تغييره وتبديله، قال تعالى: ﴿قال فالحق والحق أقول﴾ (ص / ٨٤) وقال تعالى: ﴿والله يقول الحق﴾ (الأحزاب / ٤)، وقال تعالى: ﴿ألا إن وعد الله حق﴾ (يونس / ٥٥) وقال تعالى: ﴿لا يخلف الله الميعاد﴾ (الزمر / ٢٠) وقد مر البحث المستوفى في معنى كلمات الله تعالى وما يرادفها من الألفاظ في عرف القرآن في ذيل قوله تعالى: ﴿منهم من كلم الله﴾ (البقرة / ٢٥٣).

وقوله في ذيل الآية: «ولقد جاءك من نبأ المرسلين» تثبيت واستشهاد لقوله: «ولقد كذبت رسل من قبلك» الخ؛ ويمكن أن يستفاد منه أن هذه السورة نزلت بعد بعض السور المكية التي تقص قصص الأنبياء كسورة الشعراء ومريم وأمثالها، وهذه السور نزلت بعد أمثال سورة العلق والمدثر قطعاً فتقع سورة الأنعام على هذا في الطبقة الثالثة من السورة النازلة بمكة قبل الهجرة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ـ الى قوله ـ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ قال الراغب: النفق الطريق النافذ والسرب في الأرض النافذ فيه قال: فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض، ومنه نافقاء اليربوع، وقد نافق اليربوع ونفق، ومنه النفاق وهو الدخول في الشرع من باب والخروج عنه من باب، وعلى ذلك نبّه بقوله: إن المنافقين هم الفاسقون أي الخارجون من الشرع، وجعل الله المنافقين شراً من الكافرين فقال: إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، ونيفق السراويل معروف، انتهى.

وقال: السلم ما يتوصل به الى الأمكنة العالية فيرجى به السلامة ثم جعل اسماً لكل ما يتوصل به الى شيء رفيع كالسبب، قال تعالى: أم لهم سلم يستمعون به، وقال: أو سلماً في السماء، وقال الشاعر: ولو نال أسباب السماء بسلم، انتهى.

وجواب الشرط في الآية محذوف للعلم به، والتقدير كما قيل: وإن استطعت أن تبتغي كذا

وكذا فافعل.

والمراد بالآية في قوله تعالى: «فتأتيهم بآية» الآية التي تضطرهم الى الايمان فإن الخطاب أعني قوله: «وإن كان كبر عليك إعراضهم» الخ: إنما أُلقي الى النبي ﷺ من طريق القرآن الذي هو أفضل آية إلهية تدل على حقيّة دعوته، ويقرب إعجازه من فهمهم وهم بلغاء عقلاء فالمراد أنه لا ينبغي أن يكبر ويشق عليك إعراضهم فإن الدار دار الاختيار، والدعوة الى الحق وقبولها جاريان على مجرى الاختيار، وإنك لا تقدر على الحصول على آية توجب عليهم الايمان وتلزمهم على ذلك فإن الله سبحانه لم يرد منهم الايمان إلا على اختيار منهم فلم يخلق آية تجبر الناس على الايمان والطاعة، ولو شاء الله لآمن الناس جميعاً فالتحق هؤلاء الكافرون بالمؤمنين بك فلا تبتئس ولا تجزع بإعراضهم فتكون من الجاهلين بالمعارف الالهية.

وأما ما احتمله بعضهم: أن المراد: فتأتيهم بآية هي أفضل من الآية التي أرسلناك بها أي القرآن فلا تلائمه سياق الآية وخاصة قوله: «ولو شاء الله لجمعهم على الهدى» فإنه ظاهر في الاضطرار.

ومن هنا يظهر أن المراد بالمشية أن يشاء الله منهم الاهتداء الى الايمان فيضطروا الى القبول فيبطل بذلك اختيارهم هذا ما يقتضيه ظاهر السياق من الآية الشريفة.

لكنه سبحانه فيما يشابه الآية من كلامه لم يبن عدم مشيته ذلك على لزوم الاضطرار كقوله تعالى: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها، ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ (السجدة / ١٣) يشير تعالى بذلك الى نحو قوله: ﴿قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ (ص / ٨٥) فبين تعالى أن عدم تحقق مشيته لهداهم جميعاً إنما هو لقضائه ما قضى تجاه ما أقسم عليه إبليس أنه سيغويهم أجمعين إلا عباده منهم المخلصين.

وقد أسند القضاء في موضع آخر الى غوايتهم قال تعالى في قصة آدم وابليس: ﴿قال رب بما أغويتني لازينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين قال هذا صراط عليَّ مستقيم، إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين، وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾ (الحجر / ٤٣) وقد نسب ذلك إليهم إبليس أيضاً فيما حكى الله سبحانه من كلامه لهم يوم القيامة: ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ـ الى أن قال ـ ﴿إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ (إبراهيم / ٢٢).

فالآيات تبين أن المعاصي ومنها الشرك تنتهي الى غواية الإنسان والغواية تنتهي الى نفس الإنسان، ولا ينافي ذلك ما يظهر من آيات أُخر أن الإنسان ليس له أن يشاء إلا أن يشاء الله منه المشية كقوله تعالى: ﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً، وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾ (الإنسان / ٣٠). وقال تعالى: ﴿إن هو الا ذكر للعالمين، لمن شاء منكم أن يستقيم، وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ (التكوير / ٢٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ الآية؛ كالبيان لقوله: «وإن كان كبر عليك إعراضهم» الى آخر الآية؛ فإن ملخصه انك لا تستطيع صرفهم عن هذا الإعراض، والحصول على آية تسوقهم الى الإيمان، فبين في هذه الآية أنهم بمنزلة الموتى لا شعور لهم ولا سمع حتى يشعروا بمعنى الدعوة الدينية ويسمعوا دعوة الداعي وهو النبي ﷺ.

فهذه الهياكل المتراءات من الناس صنفان: صنف منهم أحياء يسمعون، وإنما يستجيب الذين يسمعون، وصنف منهم أموات لا يسمعون وإن كانوا ظاهراً في صور الأحياء، وهؤلاء يتوقف سمعهم الكلام على أن يبعثهم الله، وسوف يبعثهم فيسمعون ما لم يستطيعوا سمعه في الدنيا كما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ (السجدة / ١٢).

٣٧ ● وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ
يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

٣٨ ● وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ
أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
يُحْشَرُونَ.

٣٩ ● وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ
يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

٤٠ ● قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ
تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

٤١ ● بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا
تُشْرِكُونَ.

٤٢ ● وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ
لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ.

٤٣ ● فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ
لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

٤٤ ● فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ
إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ.

٤٥ ● فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

٤٦ ● قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّٰهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلىٰ قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللّٰهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أُنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ.

٤٧ ● قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتيكُمْ عَذابُ اللّٰهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا القَوْمُ الظّالِمُونَ.

٤٨ ● وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

٤٩ ● وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ.

٥٠ ● قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللّٰهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ.

٥١ ● وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ.

٥٢ ● وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظّالِمِينَ.

٥٣ ● وَكَذٰلِكَ فَتَنّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهٰؤُلاءِ مَنَّ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أَلَيْسَ اللّٰهُ بِأَعْلَمَ بِالشّاكِرِينَ.

٥٤ ● وَإِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ

رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ
ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.
٥٥ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ﴾ الى آخر الآية: تحضيض منهم على تنزيل الآية بداعي تعجيز النبي ﷺ. ولما صدر هذا القول منهم وبين أيديهم أفضل الآيات أعني القرآن الكريم الذي كان ينزل عليهم سورة سورة وآية آية، ويتلى عليهم حيناً بعد حين تعيَّن أن الآية التي كانوا يقترحونها بقولهم: «لولا نزّل عليه آية من ربه» هي آية غير القرآن، وأنهم كانوا لا يعدّونه آية تقنعهم وترتضيه نفوسهم بما لها من المجاز والتهوسات.

وقد حملهم التعصب لآلهتهم أن ينقطعوا عن الله سبحانه كأنه ليس بربهم، فقالوا: «لولا نزّل عليه آية من ربه» ولم يقولوا: من ربنا أو من الله ونحوهما إزراء بأمره وتأكيداً في تعجيزه أي لو كان ما يدَّعيه ويدعو إليه حقاً فليغر له ربه الذي يدعو إليه ولينصره ولينزل عليه آية تدل على حقيّة دعواه.

وفي قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ﴾ و﴿يُنَزِّلَ﴾ مشددين من التفعيل دلالة على أنهم اقترحوا آية تدريجية أو آيات كثيرة تنزّل واحدة بعد واحدة كما يدل عليه ما حكى من اقتراحهم في موضع آخر من كلامه تعالى كقوله: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً، أو تكون لك جنة ـ الى أن قال ـ أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيّك حتى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه﴾ الآيات (الإسراء / ٩٣)، وقوله: ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أُنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾ (الفرقان / ٢١) وقوله: ﴿وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن

جملة واحدة﴾ (الفرقان / ٣٢).

وروي عن ابن كثير أنه قرأ بالتخفيف.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ الى آخر الآية: الدابة كل حيوان يدب على الأرض وقد كثر استعماله في الفرس، والدب بالفتح والدبيب هو المشي الخفيف.

والطائر ما يسبح في الهواء بجناحيه، وجمعه الطير كالراكب والركب. والامة هي الجماعة من الناس يجمعهم مقصد واحد يقصدونه كدين واحد أو سنّة واحدة أو زمان واحد أو مكان واحد، والأصل في معناها، القصد يقال: أمّ يؤمّ اذا قصد. والحشر جميع الناس بإزعاج الى الحرب أو جلاء ونحوه من الامور الاجتماعية.

والظاهر أن توصيف الطائر بقوله: «يطير بجناحيه» محاذاة لتوصيف الدابة بقوله: «في الأرض» فهو بمنزلة قولنا: ما من حيوان أرضي ولا هوائي، مع ما في هذا التوصيف من نفي شبهة التجوّز فإن الطيران كثيراً ما يستعمل بمعنى سرعة الحركة كما أن الدبيب هو الحركة الخفيفة فكان من المحتمل أن يراد بالطيران حيث ذكر مع الدبيب الحركة السريعة فدفع ذلك بقوله: «يطير بجناحيه»[1].

وقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ جملة معترضة، وظاهرها أن المفرّط فيه هو الكتاب، ولفظ «من شيء» بيان للفرط الذي يقع التفريط به، والمعنى لا يوجد شيء تجب رعاية حاله والقيام بواجب حقه وبيان نعته في الكتاب إلا وقد فعل من غير تفريط، فالكتاب تام كامل.

والمراد بالكتاب إن كان هو اللوح المحفوظ الذي يسمّيه الله سبحانه في موارد من كلامه

---

١. الانعام ٣٧ ـ ٥٥: كلام في المجتمعات الحيوانية.

كتاباً مكتوباً فيه كل شيء مما كان وما يكون وما هو كائن، كان المعنى أن هذه النظامات الامية المماثلة لنظام الانسانية كان من الواجب في عناية الله سبحانه أن يبني عليها خلقة الأنواع الحيوانية فلا يعود خلقها عبثاً ولا يذهب وجودها سدى، ولا تكون هذه الأنواع بمقدار ما لها من لياقة القبول ممنوعة من موهبة الكمال.

فالآية على هذا تفيد بنحو الخصوص ما يفيده بنحو العموم، قوله تعالى: ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ (الإسراء / ٢٠)، وقوله: ﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾ (هود / ٥٢).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ بيان لعموم الحشر لهم وأن حياتهم الموهوبة نوع حياة تستتبع الحشر الى الله كما أن الحياة الانسانية كذلك. ولذلك أرجع الضمير المستعمل في اولي الشعور والعقل، فقال: «الى ربهم يحشرون» إشارة الى أن أصل الملاك وهو الأمر الذي يدور عليه الرضا والسخط والإثابة والمؤاخذة موجود فيهم.

وقد وقع في الآية التفات من الغيبة الى التكلم مع الغير ثم الى الغيبة بالنسبة إليه تعالى، والتدبر فيها يعطي أن الأصل في السياق الغيبة وإنما تحول السياق في قوله: «ما فرطنا في الكتاب من شيء» الى التكلم مع الغير لكون المعترضة خطاباً خاصاً بالنبي ﷺ فلما فرغ منه رجع الى أصل السياق.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ الى آخر الآية؛ يريد تعالى أن المكذبين لآياته محرومون من نعمة السمع والتكلم والبصر لكونهم في ظلمات لا يعمل فيها البصر فهم لصممهم لا يقدرون على أن يسمعوا الكلام الحق وأن يستجيبوا ولبكمهم لا يستطيعوان أن يتكلموا بالقول الحق ويشهدوا بالتوحيد والرسالة، ولإحاطة الظلمات بهم لا يسعهم أن يبصروا طريق الحق فيتخذوه طريقاً.

وفي قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ الخ؛ دلالة على أن هذا الصمم والبكم

والوقوع في الظلمات إنما هي رجز وقع عليهم منه تعالى جزاء لتكذيبهم بآيات الله فإن الله سبحانه جعل إضلاله المنسوب إليه من قبيل الجزاء، كما في قوله: ﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾ (البقرة / ٢٦).

فتكذيب آيات الله غير مسبب عن كونهم صماً بكماً في الظلمات بل الأمر بالعكس وعلى هذا فالمراد بالإضلال بحسب الانطباق على المورد هو جعلهم صماً بكما في الظلمات والمراد بمن شاء الله ضلاله هم الذين كذبوا بآياته.

وبالمقابلة يظهر أن المراد بالجعل على صراط مستقيم هو أن يعطيه سمعاً يسمع به فيجيب داعي الله بلسانه ويتبصر بالحق ببصره، وأن هذا جزاء من لا يكذب بآيات الله سبحانه فمن يشأ الله يضلله ولا يشاء إلا إضلال من يستحقه ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ولا يشاء ذلك إلا لمن تعرّض لرحمته.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَيكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ الى آخر الآيتين: لفظ «أرأيتكم» بهمزة الاستفهام وصيغة المفرد المذكر الماضي من الرؤية وضمير الجمع المخاطب. أخذه أهل الأدب بمعنى أخبرني، قال الراغب في المفردات: ويجري «أرأيت» مجرى أخبرني فيدخل عليه الكاف ويترك التاء على حالته في التثنية والجمع والتأنيث، ويسلط التغيير على الكاف دون التاء، قال تعالى: «أرأيتك هذا الذي قل أرأيتكم، انتهى.

وفي الآية تجديد احتجاج على المشركين، وإقامة حجة على بطلان شركهم من وجه، وهو أنها تفرض عذاباً آتياً من جانب الله أو إتيان الساعة إليهم ثم تفرض أنهم يدعون في ذلك من يكشف العذاب عنهم على ما هو المغروز في فطرة الانسان أنه يتوجه بالمسألة اذا بلغت به الشدة نحو من يقدر أن يكشفها عنه.

ثم تسألهم أنه من الذي تدعونه وتتوجهون إليه بالمسألة إن كنتم صادقين؟ أغير الله تدعون

من أصنامكم وأوثانكم التي سميتموها من عند أنفسكم آلهة أم إياه تدعون ؟ وهيهات أن تدعوا غيره وأنتم تشاهدون حينئذ أنها محكومة بالأحكام الكونية مثلكم لا ينفعكم دعاؤها شيئاً.

بل تنسون هؤلاء الشركاء المسمين آلهة لأن الانسان اذا أحاطت به البلية وهزهزته الهزاهز ينسى كل شيء دون نفسه إلا أن في نفسه رجاء أن ترتفع عنه البلية، والرافع الذي يرجو رفعها منه هو ربه، فتنسون شركاءكم وتدعون من يرفعها من دونهم وهو الله عز اسمه فيكشف الله سبحانه ما تدعون كشفه إن شاء أن يكشفه، وليس هو تعالى بمحكوم على الاستجابة ولا مضطراً الى الكشف اذا دعي بل هو القادر على كل شيء في كل حال.

فإذا كان الله سبحانه هو الرب القدير الذي لا ينساه الانسان وإن نسي كل شيء إلا نفسه ويضطر الى التوجه إليه ببعث من نفسه عند الشدائد القاصمة الحاطمة دون غيره من الشركاء المسمين آلهة فهو سبحانه هو رب الناس دونها.

فمعنى الآية «قل» يا محمد «أرأيتكم» أخبروني «إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة» فرض إتيان عذاب من الله ولا ينكرونه، وفرض إتيان الساعة ولم يعبأ بإنكارهم لظهوره «أغير الله تدعون» لكشفه، وقد حكى الله في كلامه عنهم سؤال كشف العذاب في الدنيا ويوم القيامة جميعاً لما أن ذلك من فطريات الانسان «إن كنتم صادقين» وجئتم بالنصفة «بل إياه» الله سبحانه دون غيره من أصنامكم «تدعون فيكشف ما تدعون إليه» من العذاب «إن شاء» أن يكشفه كما كشف لقوم يونس، وليس بمجبر ولا مضطراً الى القبول لقدرته الذاتية «وتنسون ما تشركون» من الأصنام والأوثان على ما في غريزة الانسان أن يشتغل عند إحاطة البلية به عن كل «شيء بنفسه، ولا يهم إلا بنفسه لضيق المجال به أن يتهلى بما لا ينفعه. فاشتغاله والحال هذه بدعاء الله سبحانه ونسيانه الأصنام أصرح حجة أنه تعالى هو الله لا إله غيره ولا معبود سواه.

وأما قوله تعالى: ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ فهو دعاؤهم في جهنم لكشف عذابها وتخفيفه عنهم . ومن المعلوم أن الدعاء مع تحتم الحكم وفصل القضاء لا يتحقق بحقيقته فإن سؤال أن لا يبعث الله الخلق أو لا يعذب أهل جهنم فيها من الله سبحانه بمنزلة أن يسأل الله سبحانه أن لا يكون هو الله سبحانه فإن من لوازم معنى الالوهية أن يرجع إليه الخلق على حسب أعمالهم . فلمثل هذه الأدعية صورة الدعاء فقط دون حقيقة معناها . وأما لو تحقق الدعاء بحقيقته بأن يدعى حقيقة ويتعلق ذلك الدعاء بالله حقيقة كما هو ظاهر قوله : « أُجيب دعوة الداع اذا دعان » الآية ؛ فإن ذلك لا يرد البتة . والدعاء على هذا النعت لا يدع الكافر كافراً ولو حين الدعاء كما قال تعالى: ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر إذا هم يشركون ﴾ (العنكبوت / ٦٥).

فما في قوله : « وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » دعاء منهم وهم على الكفر فإن الثابت من ملكة الكفر لا يفارقهم في دار الجزاء وإن كان من الجائز أن يفارقهم في دار العمل بالتوبة والإيمان .

فدعاؤهم لكشف العذاب عنهم يوم القيامة أو في جهنم ككذبهم على الله يوم القيامة بقولهم ـ كما حكى الله ـ والله ربنا ما كنا مشركين . ولا ينفع اليوم كذب غير أنهم اعتادوا ذلك في الدنيا ورسخت رذيلتهم في نفوسهم فبرزت عنهم آثاره يوم تبلى السرائر . ونظير أكلهم وشربهم وخصامهم في النار . ولا غنى لهم في شيء من ذلك . كما قال تعالى: ﴿ تسقى من عين آنية ليس لهم طعام إلا من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ﴾ (الغاشية / ٧) . وقال تعالى: ﴿ ثم أنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوّم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم ﴾ (الواقعة / ٥٥) . وقال تعالى: ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ (ص / ٦٤) . فهذا كله من قبيل ظهور الملكات فيهم .

وما قبل الآية يؤيد ما ذكرناه من أن دعاءهم ليس على حقيقته وهو قوله تعالى: ﴿ وقال

الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب. قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ (المؤمن / ٥٠)، فإن مسألتهم خزنة النار أن يدعوا الله لهم في تخفيف العذاب ظاهر في أنهم آيسون من استجابة دعائهم أنفسهم، والدعاء مع اليأس عن الاستجابة ليس دعاء ومسألة حقيقية اذ لا يتعلق الطلب بما لا يكون البتة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ البأس والبأس والبؤس هو الشدة والمكروه إلا أن البؤس يكثر استعماله في الحرب ونحوه والبأس والبأساء في غيره كالفقر والجدب والقحط ونحوها، والضر والضراء هو سوء الحال فيما يرجع الى النفس كغم وجهل أو ما يرجع الى البدن كمرض ونقص بدني أو ما يرجع الى غيرهما كسقوط جاه أو ذهاب مال، ولعل المقصود من الجمع بين البأساء والضراء الدلالة على تحقق الشدائد في الخارج كالجدب والسيل والزلزلة، وما يعود الى الناس من قبلها من سوء الحال كالخوف والفقر ورثاثة الحال.

والضراعة هي المذلة والتضرع التذلل والمراد به التذلل الى الله سبحانه لكشف ما نزل عليهم من نوازل الشدة والرزية.

والله سبحانه يذكر لنبيه ﷺ في هذه الآية وما يتلوها الى تمام أربع آيات سنّته في الامم التي من قبله اذ جاءتهم رسلهم بالبينات: أنه كان يرسل إليهم الرسل فيذكّرونهم بتوحيد الله سبحانه والتضرع وإخلاص الإنابة إليه ثم يبتليهم بأنواع الشدة والمحن ويأخذهم بالبأساء والضراء ولكن بمقدار لا يلجئهم الى التضرع ولا يضطرهم الى الابتهال والاستكانة لعلهم يتضرعون إليه بحسن اختيارهم، ويلين قلوبهم فيعرضوا عن التزيينات الشيطانية وعن الإخلاد الى الأسباب الظاهرية لكنهم لم يتضرعوا إليه بل أقسى الاشتغال بأعراض الدنيا قلوبهم وزين لهم الشيطان أعمالهم، وأنساهم ذلك ذكر الله.

فلما نسوا ذكر الله سبحانه فتح الله عليهم أبواب كل شيء وصب عليهم نعمه المتنوعة صباً حتى اذا فرحوا بما عندهم من النعم واغتروا واستقلوا بأنفسهم من دون الله أخذهم الله بغتة ومن حيث لا يشعرون به فإذا هم آيسون من النجاة شاهدون سقوط ما عندهم من الأسباب فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

وهذه السنة سنة الاستدراج والمكر الذي لخصها الله تعالى في قوله: **﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين﴾** (الأعراف / ١٨٣).

وبالتأمل فيما تقدم من تقرير معنى الآية والتدبر في سياقها يظهر أن الآية لا تنافي سائر الآيات الناطقة بأن الإنسان مفطور على التوحيد ملجأ باقتضاء من فطرته وجبلته الى الإقرار به والتوجه إليه عند الانقطاع عن الأسباب الكونية كما قال تعالى: **﴿وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور﴾** (لقمان / ٣٢).

وذلك ان الآية لا تريد من البأساء والضراء إلا ما لا يبلغ من الشدة والمهابة مبلغاً يذهلون به عن كل سبب وينسون به كل وسيلة عادية. ومن الدليل على ذلك قوله في الآية: «لعلهم يتضرعون» اذ «لعل» كلمة رجاء ولا رجاء مع الإلجاء والاضطرار. وكذا قوله تعالى: «وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون» فإن ظاهره أنهم اغتروا بذلك وتوسلوا في رفع البأساء والضراء الى أعمالهم التي عملوها بأيديهم ودبروها بتدابيرهم للغلبة على موانع الحياة وأضداد العيش فاشتغلوا بالأسباب الطبيعية الملهية إياهم عن التضرع الى الله سبحانه والاعتصام به، كقوله تعالى: **﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون، فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين﴾** (المؤمن / ٨٤). فالآية الاولى ـ كما ترى ـ تحكي عنهم نظير ما تحكيه الآية التي نحن فيها من الإعراض عن التضرع والاغترار بالأعمال، والآية الثانية تحكي ما تحكيه الآيات الاخرى من التوحيد في

حال الاضطرار .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الخ :
« لولا » للتحضيض أو للنفي ، وعلى أي حال تفيد في المقام فائدة النفي بدليل قوله : « ولكن قست قلوبهم » وقسوة القلب مقابل لينه ، وهو كون الانسان لا يتأثر عن مشاهدة ما يؤثر فيه عادة أو عن استماع كلام شأنه التأثير .

والمعنى : فلم يتضرعوا حين مجيء البأس ولم يرجعوا الى ربهم بالتذلل بل أبت نفوسهم أن تتأثر عنه ، وتلهوا بأعمالهم الشيطانية الصارفة لهم عن ذكر الله سبحانه ، وأخلدوا الى الأسباب الظاهرة التي كانوا يرون استقلالها في إصلاح شأنهم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ الخ :
المراد بفتح أبواب كل شيء إيتاؤهم من كل نعمة من النعم الدنيوية التي يتنافس فيها الناس للتمتع من مزايا الحياة من المال والبنين وصحة الأبدان والرفاهية والخصب والأمن والطول والقوة ، كل ذلك توفيراً من غير تقتير ومنع كما أن خزانة المال اذا أُعطي منها أحد بقدر وميزان فتح بابها فاعطي ما أُريد ثم سد ، وأما اذا أُريد الإعطاء من غير تقدير فتح بابها ولم يسد على وجه قاصده بالجملة كناية عن إيتائهم أنواع النعم من غير تقدير على ما يساعده المقام .

على أن فتح الباب إنما يناسب بحسب الطبع الحسنات والنعم وأما السيئات والنقم فإنما تتحقق بالمنع ويناسبها سد الباب كما يلمح إليه قوله تعالى : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ﴾ (فاطر / ٢) .

ومبلسون من أبلس إبلاساً ، قال الراغب : الإبلاس الحزن المعترض من شدة اليأس ـ الى أن قال ـ ولما كان المبلس كثيراً ما يلزم السكوت وينسى ما يعنيه ، قيل : أبلس فلان اذا سكت واذا انقطعت حجته ، انتهى . وعلى هذا المعنى المناسب لقوله : « فإذا هم مبلسون » أي خامدون منقطعون الحجة .

ومعنى الآية أنهم لما نسوا ما ذكروا به أو أعرضوا عنه آتيناهم من كل نعمة استدراجاً حتى اذا تمت لهم النعم وفرحوا بما اوتوا منها أخذناهم فجأة فـاخمدت أنـفاسهم ولا حـجة لهـم لاستحقاقهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ دبر الشيء مقابل قبله وهما الجزءان: المقدم والمؤخر من الشيء ولذا يكنى بهما عن العضوين المخصوصين، وربما توسع فيهما فاطلقا على ما يلي الجزء المقدم أو المؤخر فينفصلان عن الشيء، وقد اشتق منهما الأفعال بحسب المناسبة نحو أقبل وأدبر وقبّل ودبر وتقبل وتدبر واستقبل واستدبر، ومن ذلك اشتقاق دابر بمعنى ما يقع خلف الشيء ويليه من ورائه، ويقال: أمس الدابر أي الواقع خلف اليوم كما يقال: عام قابل، ويطلق الدابر بهذا المعنى على أثر الشيء كدابر الإنسان على أخلافه وسائر آثاره، فقوله: «فقطع دابر القوم الذين ظلموا» أي أن الهلاك استوعبهم فلم يبق منهم عيناً ولا أثراً أو أبادهم جميعاً فلم يخلص منهم أحد كما قال تعالى: ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾ (الحاقة / ٨).

ووضع الظاهر موضع المضمر في قوله: «دابر القوم الذين ظلموا» دون أن يقال: دابرهم للدلالة على سبب الحكم وهو الظلم الذي أفنى جمعهم وقطع دابرهم. وهو مع ذلك يمهد السبيل الى إيراد قوله: «والحمد لله رب العالمين».

ومن هذه الآية بما تشتمل على وصفهم بالظلم وعلى حمده تعالى بربوبيته تتحصل الدلالة على أن اللوم والسوء في جميع ما حل بهم من عذاب الاستئصال يرجع إليهم لأنهم القوم الذين ظلموا، وأنه لا يعود إليه تعالى إلا الثناء الجميل لأنه لم يأت في تدبير أمرهم إلا بما تقتضيه الحكمة البالغة، ولم يسقهم في سبيل ما انتهوا إليه إلا الى ما ارتضوه بسوء اختيارهم فقد تحقق أن الخزي والسوء على الكافرين، وأن الحمد لله رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ الى آخر الآية؛ أخذ

السمع والأبصار هو سلب قوّتي السمع والإبصار وهو الإصمام والإعماء . والختم على القلوب إغلاق بابها إغلاقاً لا يدخلها معه شيء من خارج حتى تتفكر في أمرها ، وتميز الواجب من الأعمال من غير : والخير النافع منها من الشر الضار مع حفظ أصل الخاصية وهو صلاحية التعقل وإلا كان جنوناً وخبلاً .

واذ كان هؤلاء المشركون لا يسمعون حق القول في الله سبحانه ولا يبصرون آياته الدالة على أنه واحد لا شريك له فصارت قلوبهم لا يدخلها شيء من واردات السمع والبصر حتى تعرف بذلك الحق من الباطل أقام الحجة بذلك على إبطال مذهبهم في أمر الإله تعالى ووحدته .

وملخصها أن القول بثبوت شركاء لله يستلزم القول ببطلانه وذلك أن القول بالشركاء لإثبات الشفاعة ، وهي أن تشفع وتتوسط في جلب المنافع ودفع المضار ، واذ كانت الشركاء شفعاء على الفرض كان لله سبحانه أن يفعل في ملكه ما يشاء من غير مصادفة مانع يمانعه أو ضد يضاده فلو سلب الله عنكم سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم فعل ذلك ولم يعارضه أحد من شركائكم لأنها شفعاء متوسطة لا أضداد معارضة ، ولو فعل ذلك وسلب ما سلب لم يقدر أحد منها أن يأتيكم به لأنها شفعاء وسائط لا مصادر للخلق والإيجاد .

واذا لم يقدر على إيتاء نفع أو إذهاب ضر فما معنى الوهيتها فليس الإله إلا من يوجد ويعدم ويتصرف في الكون كيف شاء ، وإنما اضطرت الفطرة الانسانية الى الإقرار بأن للعالم إلهاً من جهة الحصول على مبدأ حوادث الخير والشر التي تشاهدها في الوجود ، واذ كان شيء لا يضر ولا ينفع في جنب الحوادث شيئاً فليس تسميته إلهاً إلا لغواً من القول .

وقوله : ﴿ أُنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ تصريف الآيات تحويلها الى نحو أفهامهم ، والصدوف الإعراض ، يقال : صدف يصدف صدوفاً اذا مال عن الشيء .

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَيكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ الى آخر الآية: الجهرة الظهور التام الذي لا يقبل الارتياب ولذا قابلت البغتة التي هي إتيان الشيء فجأة لا يظهر على من أتاه إلا بعد إتيانه وغشيانه فلا يترك له مجال التحذر.

وهذه حجة بيّن فيها على وجه العموم أن الظالمين على خطر من عذاب الله عذاباً لا يتخطاهم، ولا يغلط في إصابتهم بإصابة من سواهم، ثم بيّن أنهم هم الظالمون لفسقهم عن الدعوة الإلهية وتكذيبهم بآيات الله تعالى.

وذلك أن معنى العذاب ليس إلا إصابة المجرم بما يسوؤه ويدمّره من جزاء إجرامه ولا إجرام إلا مع ظلم، فلو أتاهم من قبل الله سبحانه عذاب لم يهلك به إلا الظالمون، فهذا ما يدل عليه الآية ثم بيّن الآيتين التاليتين أنهم هم الظالمون.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ الى آخر الآيتين: يبين بالآيتين أنهم هم الظالمون، ولا يهلك بعذاب الله إن أتاهم إلا هم لظلمهم.

ولذا غيّر سياق الكلام فوجّه وجه البيان الى النبي ﷺ ليكون هو المخبر عن شأن عذابه فيكون أقطع للعذر وجيء بلفظ المتكلم ليدل به على صدوره من ساحة العظمة والكبرياء.

فكان ملخص المضمون أمره تعالى نبيه ﷺ أن يقيم عليهم الحجة أن لو أتاهم عذاب الله لم يهلك إلا الضالمين منهم ثم يقول تعالى لرسوله: إنا نحن الملقين إليك الحجة الآتين بالعذاب نخبرك أن إرسالنا الرسل إنما هو للتبشير والإنذار فمن آمن وأصلح فلا عليه، ومن كذب بآياتنا فهو الذي يمسه عذابنا لفسقه وخروجه عن طور العبودية فلينظروا في أمر أنفسهم من أي الفريقين هم؟.

وقد تقدم في المباحث السابقة استيفاء البحث عن معنى الايمان والإصلاح والفسق ومعنى نفي الخوف والحزن عن المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا

أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ لعل المراد بخزائن الله ما ذكره بقوله تعالى: ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق ﴾ (الإسراء / ١٠٠) وخزائن الرحمة هذه هي ما يكشف عن أثره، قوله تعالى: ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك له ﴾ الآية (فاطر / ٢)؛ وهي فائضة الوجود التي تفيض من عنده تعالى على الأشياء من وجودها وآثار وجودها، وقد بيّن قوله تعالى: ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ (يس / ٨٢) أن مصدر هذا الأثر الفائض هو قوله، وهو كلمة «كن» الصادرة عن مقام العظمة والكبرياء، وهذا هو الذي يخبر عنه بلفظ آخر في قوله: ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ (الحجر / ٢١).

فالمراد بخزائن الله هو المقام الذي يعطي بالصدور عنه ما أُريد من شيء من غير أن يفند بإعطاء وجود أو يعجزه بذل وسماحة، وهذا مما يختص بالله سبحانه، وأما غيره كائناً ما كان ومن كان فهو محدود وما عنده مقدّر اذا بذل منه شيئاً نقص بمقدار ما بذل، وما هذا شأنه لم يقدر على إغناء أي فقير، وإرضاء أي طالب، وإجابة أي سؤال.

وأما قوله: ﴿ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ فإنما أُريد بالعلم الاستقلال به من غير تعليم بوحي وذلك أنه تعالى يثبت الوحي في ذيل الآية بقوله: «إن أتبع إلا ما يوحى إليّ»، وقد بيّن في مواضع من كلامه أن بعض ما يوحيه لرسله من الغيب، كقوله تعالى: ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ﴾ (الجن / ٢٦)، وكقوله بعد سرد قصة يوسف: ﴿ وذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ (يوسف / ١٠٢)، وقوله في قصة مريم: ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ (آل عمران / ٤٤)، وقوله بعد قصة نوح: ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ (هود / ٤٩).

فالمراد بنفي علم الغيب نفي أن يكون مجهزاً في وجوده بحسب الطبع بما لا يخفى عليه معه ما لا سبيل للإنسان بحسب العاده الى العلم به من خفيات الامور كائنة ما كانت.

وأما قوله: ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ فهو كناية عن نفي آثار الملكية من أنهم منزهون عن حوائج الحياة المادية من أكل وشرب ونكاح وما يلحق بذلك، وقد عبَّر عنه في مواضع اخرى بقوله: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي﴾ (الكهف / ١١٠)، وإنما عبّر عن ذلك ههنا بنفي الملكية دون إثبات البشرية ليحاذي به ما كانوا يقترحونه عليه ﷺ بمثل قولهم: ﴿وما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ (الفرقان / ٧).

فمعنى قوله: «قل لا أقول لكم» الخ؛ قل: لم أدّع فيما أدعوكم إليه وأبلّغكم أمراً وراء ما أنا عليه من متعارف حال الإنسان حتى تبكّتوني بالزامي بما تقترحونه مني فلم أدّع أني أملك خزائن الالوهية حتى تقترحوا أن أُفجّر أنهاراً أو أخلق جنة أو بيتاً من زخرف، ولا ادعيت أني أعلم الغيب حتى أُجيبكم عن كل ما هو مستور تحت أستار الغيوب كقيام الساعة ولا ادعيت أني ملك حتى تعيبوني وتبطلوا قولي بأكل الطعام والمشي في الاسواق للكسب.

قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ بيان لما يدعيه حقيقة بعد رد ما اتهموه به من الدعوى من جهة دعواه الرسالة من الله إليهم أي ليس معنى قولي: إني رسول الله إليكم أن عندي خزائن الله ولا أني أعلم الغيب ولا أني ملك بل أن الله يوحي الى بما يوحي.

ولم يثبته في صورة الدعوى بل قال «إن أتبع» الخ؛ ليدل على كونه مأموراً بتبليغ ما يوحى إليه ليس له الا اتباع ذلك فكأنه لما قال: لا أقول لكم كذا ولا كذا ولا كذا قيل له: فإذا كان كذلك وكنت بشراً مثلنا وعاجزاً كأحدنا لم تكن لك مزية علينا فماذا تريد منا؟ فقال: إن أتبع إلا ما يوحي إلي أن أُبشركم وانذركم فأدعوكم إلي دين التوحيد.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ الى آخر الآية؛ الضمير في «به» راجع الى القرآن وقد دل عليه قوله في الآية السابقة: «إن أتبع إلا ما يوحى

إلي» وقوله: «ليس لهم من دونه وليّ ولا شفيع» حال والعامل فيه يخافون أو يحشرون.

والمراد بالخوف معناه المعروف دون العلم وما في معناه اذ لا دليل عليه بحسب ظاهر المعنى المتبادر من السياق. والأمر بإنذار خصوص الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم لا ينافي عموم الإنذار لهم ولغيرهم كما يدل عليه قوله في الآيات السابقة: ﴿**وأُوحي إلي هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ**﴾ (آية / ١٩) بل لما كان خوف الحشر الى الله معيناً لنفوسهم على القبول ومقرّباً للدعوة الى أفهامهم أفاد تخصيص الأمر بالإنذار بهم ووصفهم هذا الوصف تأكيداً لدعوتهم وتحريضاً له أن لا يسامح في أمرهم ولا يضعهم موضع غيرهم بل يخصهم بمزيد عناية بدعوتهم لأن موقفهم أقرب من الحق وإيمانهم أرجى فالآية بضميمة سائر آيات الأمر بالإنذار العام تفيد من المعنى: أن أنذر الناس عامة ولا سيما الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم.

وقوله: ﴿**لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ**﴾ نفي مطلق لولاية غير الله وشفاعته فيقيده الآيات الاخر المقيدة كقوله: ﴿**من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه**﴾ (البقرة / ٢٥٥) وقوله: ﴿**ولا يشفعون إلا لمن ارتضى**﴾ (الأنبياء / ٢٨) وقوله: ﴿**ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون**﴾ (الزخرف / ٨٦).

وإنما لم يستثن في الآية لأن الكلام يواجه به الوثنيون الذين كانوا يقولون بولاية الأوثان وشفاعتها، ولم يكونوا يقولون بذلك بالإذن والجعل فإن الولاية والشفاعة عن اذن يحتاج القول به الى العلم به، والعلم الى الوحي والنبوة، وهم لم يكونوا قائلين بالنبوة، وأما الذي أثبتوه من الولاية والشفاعة فكأنه أمر متهيء لأوليائهم وشركائهم بالضرورة من طبعها لا بإذن من الله كأن أقوياء الوجود من الخليقة لها نوع من التصرف في ضعفائه بالطبع وإن لم يأذن به الله سبحانه، وإن شئت قلت: لازمه أن يكون إيجادها إذناً إضطرارياً في التصرف في ما دونها.

وبالجملة قيل «ما لهم من دونه ولي ولا شفيع» ولم يقل: إلا بإذنه لأن المشركين إنما قالوا إن الأوثان أولياء وشفعاء من غير تقييد فنفي ما ذكروه من الولي والشفيع من دون الله محاذاة بالنفي لإثباتهم. وأما الاستثناء فهو وإن كان صحيحاً كما وقع في مواضع من كلامه تعالى لكن لا يتعلق به غرض ههنا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ الى آخر الآية: ظاهر السياق على ما يؤيده ما في الآية التالية: «وكذلك فتنّا بعضهم ببعض» الخ: أن المشركين من قوله ﷺ اقترحوا عليه أن يطرد عن نفسه الضعفاء المؤمنين به فنهاه الله تعالى في هذه الآية عن ذلك.

وذلك منهم نظير ما اقترحه المستكبرون من سائر الامم من رسلهم أن يطردوا عن أنفسهم الضعفاء والفقراء من المؤمنين استكباراً وتعززاً. وقد حكى الله تعالى ذلك عن قوم نوح فيما حكاه من محاجّته ﷺ حجاجاً يشبه ما في هذه الآيات من الحجاج قال تعالى: ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين. قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميّت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ـ الى أن قال ـ وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ـ الى أن قال ـ ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم إني إذاً لمن الظالمين﴾ (هود / ٣١).

والتطبيق بين هذه الآيات والآيات التي نحن فيها يقضي أن يكون المراد بالذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ ويريدون وجهه هم المؤمنين. وإنما ذكر دعائهم بالغداة والعشي وهو صلاتهم أو مطلق دعائهم ربهم للدلالة على ارتباطهم بربهم بما لا يداخله غيره تعالى وليوضح ما سيذكره من قوله: «أوليس الله بأعلم بالشاكرين».

وقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي وجه الله. قال الراغب في مفرداته: أصل الوجه الجارحة قال: فاغسلوا وجوهكم وأيديكم، وتغشى وجوههم النار. ولما كان الوجه أول ما يستقبلك وأشرف ما في ظاهر البدن استعمل في مستقبل كل شيء وفي أشرفه ومبدئه فقيل: وجه كذا ووجه النهار، وربما عبّر عن الذات بالوجه في قول الله: ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام. قيل: ذاته، وقيل: أراد بالوجه ههنا التوجه الى الله بالأعمال الصالحة.

وقال: فأينما تولوا فثم وجه الله، كل شيء هالك إلا وجهه، يريدون وجه الله، إنما نطعمكم لوجه الله. قيل: إن الوجه في كل هذا ذاته ويعني بذلك كل شيء هالك إلا هو وكذا في أخواته، وروي أنه قيل ذلك لأبي عبدالله بن الرضا فقال: سبحان الله لقد قالوا قولاً عظيماً إنما عنى الوجه الذي يؤتى منه ومعناه: كل شيء من أعمال العباد هالك وباطل إلا ما أُريد به الله، وعلى هذا الآيات الاخر، وعلى هذا قوله: يريدون وجهه، يريدون وجه الله، انتهى[١].

وقوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الدخول في جماعة الظالمين متفرع على طردهم أي طرد الذين يدعون ربهم فنظم الكلام بحسب طبعه يقتضي أن يفرّع قوله: «فتكون من الظالمين»، على قوله في أول الآية: «ولا تطرد الذين» الخ؛ إلا أن الكلام لما طال بتخلل جمل بين المتفرع والمتفرع عليه أُعيد لفظ الطرد ثانياً في صورة الفرع ليتفرع عليه قوله: «فتكون من الظالمين» بنحو الاتصال ويرتفع اللبس.

فلا يرد عليه أن الكلام مشتمل على تفريع الشيء على نفسه فإن ملخصه: ولا تطرد الذين يدعون ربهم فتطردهم، وذلك أن إعادة الطرد ثانياً لإيصال الفرع أعني قوله: «فتكون من الظالمين»، الى أصله كما عرفت.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا﴾ الى آخر الآية؛ الفتنة هي

---

١. الانعام ٣٧ـ٥٥: كلام في معنى وجه الله.

الامتحان، والسياق يدل على أن الاستفهام في قوله: «أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا» للتهكم والاستهزاء. ومعلوم أنهم لا يسخرون إلا ممن يستحقرون أمره ويستهينون موقعه من المجتمع، ولم يكن ذلك إلا لفقرهم ومسكنتهم وانحطاط قدرهم عند الأقوياء والكبرياء منهم.

فالله سبحانه يخبر نبيه أن هذا التفاوت والاختلاف إنما هو محنة إلهية يمتحن بها الناس ليميز به الكافرين من الشاكرين، فيقول أهل الكفران والاستكبار في الفقراء المؤمنين: أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا فإن السنن الاجتماعية عند الناس توصف بما عند المستن بها من الشرافة والخسة، وكذا العمل يوزن بما لعامله من الوزن الاجتماعي فالطريقة المسلوكة عند الفقراء والأذلاء والعبيد يستذلها الأغنياء والأعزة، والعمل الذي أتى به مسكين أو الكلام الذي تكلم به عبد أو أسير مستذلاً لا يعتني به أُولوا الطول والقوة.

فانتحال الفقراء والاجراء والعبيد بالدين، واعتناء النبي بهم وتقريبه إياهم من نفسه كالدليل عند الطغاة المستكبرين من أهل الاجتماع على هوان أمر الدين وأنه دون أن يلتفت إليه من يعتني بأمره من الشرفاء والأعزة.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ جواب عن استهزائهم المبني على الاستبعاد، بقولهم: «أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا» ومحصله أن هؤلاء شاكرون لله دونهم ولذلك قدّم هؤلاء لمنّه وأخرهم فكنى سبحانه عن ذلك بأن الله أعلم بالشاكرين لنعمته أي إنهم شاكرون، ومن المسلم أن المنعم إنما يمنّ وينعم على من يشكر نعمته وقد سمى الله تعالى توحيده ونفي الشريك عنه شكراً في قوله حكاية يوسف عليه السلام: ﴿ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ (يوسف / ٣٨).

فالآية تبين أنهم بجهالتهم يبنون الكرامة والعزة على التقدم في زخارف الدنيا من مال وبنين وجاه، ولا قدر لها عند الله ولا كرامة. وإنما الأمر يدور مدار صفة الشكر والنعمة

بالحقيقة هي الولاية الإلهية.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ الى آخر الآية. قد تقدم معنى السلام، والمراد بكتابته الرحمة على نفسه إيجابها على نفسه أي استحالة انفكاك فعله عن كونه معنوناً بعنوان الرحمة. والإصلاح هو التلبس بالصلاح فهو لازم وإن كان بحسب الحقيقة متعدياً وأصله إصلاح النفس أو إصلاح العمل.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ تفصيل الآيات بقرينة المقام شرح المعارف الإلهية وتخليصها من الإبهام والاندماج. وقوله: «ولتستبين سبيل المجرمين» اللام فيه للغاية. وهو معطوف على مقدّر طوي عن ذكره تعظيماً وتفخيماً لأمره وهو شائع في كلامه تعالى كقوله: **﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا﴾** (آل عمران / ١٤٠)، وقوله: **﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾** (الآية / ٧٥).

فالمعنى: وكذلك نشرح ونميز المعارف الإلهية بعضها من بعض ونزيل ما يطرء عليها من الإبهام لأغراض هامة منها أن تستبين سبيل المجرمين فيتجنبها الذين يؤمنون بآياتنا، وعلى هذا فالمراد بسبيل المجرمين السبيل التي يسلكها المجرمون قبال الآيات الناطقة بتوحيد الله سبحانه والمعارف الحقة التي تتعلق به وهي سبيل الجحود والعناد والإعراض عن الآيات وكفران النعمة[1].

٥٦ ● قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ.

---

١. الانعام ٣٧ ـ ٥٥: بحث روائي في القدر؛ القدرية؛ اقتراح قريش على النبي ﷺ في طرد العبيد والفقراء.

٥٧ ● قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ.

٥٨ ● قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ.

٥٩ ● وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ.

٦٠ ● وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

٦١ ● وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ.

٦٢ ● ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ.

٦٣ ● قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ.

٦٤ ● قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ.

٦٥ ● قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ

تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ
أُنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ.
٦٦ ● وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ.
٦٧ ● لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ.
٦٨ ● وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ
يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ
بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.
٦٩ ● وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَٰكِنْ ذِكْرَىٰ
لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ.
٧٠ ● وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا
وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ
الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ
بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ.
٧١ ● قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ
أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي
الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ
هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.
٧٢ ● وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ.

٧٣ ● وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ﴾ الى آخر الآية؛ أمر بأن خبرهم بورود النهي عليه عن عبادة شركائهم هو نهي عن عبادتهم بنوع من الكناية ثم أشار الى ملاك النهي عنها بقوله: «قل لا أتبع أهواءكم» وهو أن عبادتهم اتباع للهوى وقد نهي عنه ثم أشار بقول: «قد ضللت اذاً وما أنا من المهتدين» الى سبب الإستنكاف عن اتباع الهوى وهو الضلال والخروج عن جماعة المهتدين وهم الذين اتصفوا بصفة قبول هداية الله سبحانه، وعرفوا بذلك، فاتباع الهوى ينافي استقرار صفة الاهتداء في نفس الانسان، ويمانع إشراق نور التوحيد على قلبه إشراقاً ثابتاً ينتفع به.

وقد تلخص بذلك كله بيان تام معلل للنهي أو الإنتهاء عن عبادة أصنامهم، وهو أن في عبادتها اتباعاً للهوى، وفي اتباع الهوى الضلال والخروج عن صف المهتدين بالهداية الإلهية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ الى آخر الآية؛ البينة هو الدلالة الواضحة من البيان وهو الوضوح، والأصل في معنى هذه المادة هو انعزال شيء عن شيء وانفصاله عنه بحيث لا يتصلان ولا يختلطان، ومنه البين والبون والبينونة وغير ذلك، قد سميت البينة بينة لأن الحق يبين بها عن الباطل فيتضح ويسهل الوقوف عليه من غير تعب ومؤنة.

والمراد بمرجع الضمير في قوله: «وكذبتم به» هو القرآن وظاهر السياق أن يكون التكذيب إنما تعلق بالبينة التي هو ﷺ عليها على ما هو ظاهر اتصال المعنى، ويؤيده قوله بعده: «ما

عندي ما تستعجلون به » الخ ؛ فإن المحصل من الكلام مع انضمام هذا الذيل : أن الذي أيّد الله به رسالتي من البينات وهو القرآن تكذبون به ، والذي تقترحونه علي وتستعجلون به من الآيات ليس في اختياري ولا مفوضاً أمره إلي فليس بيننا ما نتوافق فيه لما أني أُوتيت ما لا تريدون وأنتم تريدون ما لم أُوت .

فمن هنا يظهر أن الضمير المجرور في قوله : « وكذبتم به » راجع الى البينة لكون المراد به القرآن ، وأن قوله : « ما عندي ما تستعجلون به » أُريد به نفي التسلط على ما يستعجلون به بالتكنية فإن الغالب فيما يقدر الإنسان عليه وخاصة في باب الإعطاء والإنفاق أن يكون ما يعطيه وينفقه حاضراً عنده أو مذخوراً لديه وتحت تسلطه ثم ينفق منه ما ينفق فقد أُريد بقوله : « ما عندي » نفي التسلط والقدرة من باب نفي الملزوم بنفي اللازم .

وقوله : « إن الحكم إلا لله » الخ ؛ بيان لسبب النفي . ولذلك جيء فيه بالنفي والاستثناء المفيد للحصر ليدل بوقوع النفي على الجنس على أن ليس لغيره تعالى من سنخ الحكم شيء قط وأنه الى الله سبحانه فحسب[1][2] .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ الى آخر الآية ؛ أي لو قدرت على ما تقترحونه علي من الآية والحال أنها بحيث اذا نزلت على رسول لم تنفك عن الحكم الفصل بينه وبين امته لقضي الأمر بيني وبينكم ، ونجي بذلك أحد المتخاصمين المختلفين وعذب الآخر وأهلك ، ولم يعذّب بذلك ولا يهلك إلا أنتم لأنكم ظالمون ، والعذاب الإلهي إنما يأخذ الظالمين بظلمهم ، وهو سبحانه أنزه ساحة من أن يشتبه عليه الأمر ولا يميز الظالمين من غيرهم فيعذبني دونكم .

---

١ . الانعام ٥٦ ـ ٧٣ : كلام في معنى الحكم وانه لله وحده .

٢ . الانعام ٥٦ ـ ٧٣ : كلام في معنى حقيقة وحكمه تعالى .

ففي قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾ نوع تكنية وتعليل أي إنكم أنتم المعذبون لأنكم ظالمون والعذاب الإلهي لا يعدو الظالمين الى غيرهم، وفي الجملة إشارة الى ما تقدم من قوله تعالى: **﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون ﴾** (آية / ٤٧).

قوله تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ الى آخر الآية؛ ذكروا في وجه اتصال الآية بما قبلها أن الآية السابقة لما ختمت بقوله: « والله أعلم بـالظالمين » زاد الله سبحانه في بيانه فذكر أن خزائن الغيب أو مفاتيح تلك الخزائن عنده سبحانه لا يعلمها إلا هو، ويعلم كل دقيق وجليل.

وهذا الوجه لا يتضح به معنى الحصر الذي يدل عليه قوله: « لا يعلمها إلا هو » فالأولى أن يوجه الإتصال بما يشتمل عليه مجموع الآيتين السابقتين أعني قوله: « قل إني على بينة من ربي ـ الى قوله ـ والله أعلم بالظالمين » حيث يدل المجموع على أن ما كانوا يقترحونه من الآية وما يستتبعه من الحكم، الفصل والقضاء بينه وبينهم إنما هو عند الله لا سبيل اليه لغيره فهو العالم بذلك الحاكم به ولا يغلط في حكمه الفصل وتعذيب الظالمين لأنه أعلم بهم فهو عالم بالغيب لا يشاركه فيه غيره، وعالم بكل ما جل ودق لا يضل ولا ينسى. ثم زاد ذلك بياناً بقوله: « وعنده مفاتح الغيب » الآية فبيّن به اختصاصه تعالى بعلم الغيب وشمول علمه كل شيء، ثم تمّم البيان بالآيات الثلاث التي تتلوها.

وبذلك تصير الآيات جارية مجرى ما سيقت إليه نظائرها في مثل المورد كقوله تـعالى في قصة هود وقومه: **﴿ قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين. قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما ارسلت به ﴾** (الأحقاف / ٢٣).

ثم نقول: المفاتح جمع مفتح بفتح الميم وهو الخزينة، وربما احتمل أن يكون جمع مفتح بكسر الميم وهو المفتاح، ويؤيده ما قرىء شاذاً: « وعنده مفاتيح الغيب » ومآل المعنيين واحد فإن

من عنده مفاتيح الخزائن هو عالم بما فيها قادر على التصرف فيها كيف شاء عادة كمن عنده نفس الخزائن إلا أن سائر كلامه تعالى فيما يشابه هذا المورد يؤيد المعنى الأول فإنه تعالى كرر في كلامه ذكر خزائنه وخزائن رحمته ـ وذلك في سبعة مواضع ـ ولم يذكر لها مفاتيح في شيء من لاكمه قال تعالى: ﴿أم عندهم خزائن ربك﴾ (الطور / ٣٧) وقال: ﴿لا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ (الأنعام / ٥٠) وقال: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ (الحجر / ٢١) وقال: ﴿ولله خزائن السماوات والأرض﴾ (المنافقون / ٧) وقال: ﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك﴾ (ص / ٩) فالأقرب أن يكون المراد بمفاتح الغيب خزائنه.

وكيف كان فقوله: «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو» مسوق لبيان انحصار العلم بالغيب فيه تعالى إما لأن خزائن الغيب لا يعلمها إلا الله، وإما لان مفاتيح الغيب لا يعلمها غيره تعالى فلا سبيل لغيره الى تلك الخزائن اذ لا علم له بمفاتيحها التي يتوصل بها الى فتحها والتصرف فيها.

وصدر الآية وإن أنبأ عن انحصار علم الغيب فيه تعالى لكن ذيلها لا يختص بعلم الغيب بل ينبيء عن شمول علمه تعالى بكل شيء أعم من أن يكون غيباً أو شهادة فإن كل رطب ويابس لا يختص بما يكون غيباً وهو ظاهر فالآية بمجموعها يبين شمول علمه تعالى لكل غيب وشهادة، غير أن صدرها يختص ببيان علمه بالغيوب، وذيلها ينبيء عن علمه بكل شيء أعم من الغيب والشهادة.

ومن جهة اخرى صدر الآية يتعرض للغيوب التي هي واقعة في خزائن الغيب تحت أستار الخفاء وأقفال الإبهام، وقد ذكر الله سبحانه في قوله: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ (الحجر / ٢١) أن التي في خزائن الغيب عنده من الأشياء امور لا يحيط بها الحدود المشهودة في الأشياء، ولا يحصرها الأقدار المعهودة، ولا شك انها انما صارت غيوباً مخزونة لما فيها من صفة الخروج عن حكم الحد والقدر فإنا لا نحيط علماً إلا بما هو محدود

ومقدر، وأما التي في خزائن الغيب من الأشياء فهي قبل النزول في منزل الشهود والهبوط الى مهبط الحد والقدر، وبالجملة قبل أن يوجد بوجوده المقدر له غير محدودة مقدرة مع كونها ثابتة نوعاً من الثبوت عنده تعالى على ما تنطق به الآية[1].

فقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ راجع الى الغيب المطلق الذي لا سبيل لغيره تعالى إليه، وقوله: «لا يعلمها» الخ؛ حال وهو يدل على أن مفاتح الغيب من قبيل العلم غير أن هذا العلم من غير سنخ العلم الذي نتعارفه فإن الذي يتبادر الى أذهاننا من معنى العلم هو الصورة المأخوذة من الأشياء بعد وجودها وتقدرها بأقدارها ومفاتح الغيب ـ كما تبين ـ علم بالاشياء وهي غير موجودة ولا مقدرة بأقدارها الكونية أي علم غير متناه من غير انفعال من معلوم.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ تعميم لعلمه بما يمكن أن يتعلق به علم غيره مما ربما يحضر بعضه عند بعض وربما يغيب بعضه عن بعض، وإنما قدم ما في البر لانه أعرف عند المخاطبين من الناس.

وقوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ اختص بالذكر لانه مما يصعب الإنسان حصول العلم به لان الكثرة البالغة التي في أوراق الأشجار تعجز الإنسان أن يميز معها بعضها من بعض فيراقب كلا منها فيما يطرء عليه من الاحوال، ويتنبه على انتقاصها بالساقط منها اذا سقط.

وقوله: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ الخ؛ معطوفات على قوله: «من ورقة» على ظاهر السياق، والمراد بظلمات الارض بطونها المظلمة التي تستقر فيها الحبات فينمو منها ما ينمو ويفسد ما يفسد فالمعنى: ولا تسقط من حبة في

---

١. الانعام ٥٦ ـ ٧٣: كلام في: الغيب المطلق والغيب النسبي.

بطون الارض المظلمة ولا يسقط من رطب ولا من يابس أياً ما كان إلا يعلمها. وعلى هذا فقوله «إلا في كتاب مبين» بدل من قوله: «إلا يعلمها» سد مسده، وتقديره إلا هو واقع مكتوب في كتاب مبين.

وتوصيف الكتاب بالمبين إن كان بمعنى المظهر إنما هو لكونه يظهر لقارئه كل شيء على حقيقة ما هو عليه من غير أن يطرأ عليه إبهام التغير والتبدل وسترة الخفاء في شيء من نعوته، وإن كان المبين بمعنى الظاهر فهو ذلك أيضاً لان الكتاب في الحقيقة هو المكتوب، والمكتوب هو المحكي عنه، واذا كان ظاهراً لا سترة عليه ولا خفاء فيه فالكتاب كذلك.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّيكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ التوفي أخذ الشيء بتمامه، ويستعمله الله سبحانه في كلامه بمعنى أخذ الروح الحية كما في حال الموت كما في قوله في الآية التالية: «حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا».

قد عد الانامة توفيا كما عد الإماتة توفيا على حد قوله: ﴿الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها﴾ (الزمر / ٤٣) لاشتراكهما في انقطاع تصرف النفس في البدن كما أن البعث بمعنى الايقاظ بعد النوم يشارك البعث بمعنى الإحياء بعد الموت في عود النفس الى تصرفها في البدن بعد الانقطاع. وفي تقييد التوفي بالليل كالبعث بالنهار جري على الغالب من أن الناس ينامون بالليل ويستيقظون بالنهار.

وفي قوله تعالى: «يتوفّيكُمْ» دلالة على أن الروح تمام حقيقة الإنسان الذي يعبر عنه بأنا لا كما ربما يتخيل لنا أن الروح أحد جزئي الإنسان لاتمامه أو أنها هيئة أو صفة عارضة له، وأوضح منه دلالة قوله تعالى: ﴿وقالوا أئذا ضللنا في الارض أئنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون. قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون﴾ (السجدة / ١١) فإن استبعاد الكفار مبني على حقيقة الإنسان هو البدن الذي يتلاشى ويفسد بانحلال التركيب بالموت فيضل في الارض، والجواب مبني على كون حقيقته هو الروح (النفس) واذ

كان ملك الموت يتوفاه ويقبضه فلا يفوت منه شيء.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ الجرح هو الفعل بالجارحة والمراد به الكسب أي يعلم ما كسبتم بالنهار. والأنسب أن يكون الواو حالية والجملة حالاً من فاعل يتوفاكم. ويتصل حينئذ قوله: «ثم يبعثكم فيه» بقوله: «وهو الذي يتوفاكم» الخ؛ من غير تخلل معنى أجنبي فإن الآيتين في مقام شرح وقوع التدبير الإلهي بالإنسان في حياته الدنيا وعند الموت وبعده حتى يرد الى ربه، والأصل العمدة من جمل الآيتين المسرودة لبيان هذا المعنى قوله تعالى: «وهو الذي يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم فيه ـ أي في النهار ـ ليقضي أجل مسمى ويرسل عليكم حفظة حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون. ثم ردوا الى الله مولاهم الحق» فهذا هو الأصل في المقصود، وما وراء ذلك مقصود بالتبع، والمعنى وهو الذي يتوفاكم بالليل والحال أنه يعلم ما كسبتم في النهار، ثم يبعثكم في النهار، الخ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ الخ؛ سمى الإيقاظ والتنبيه بعثاً محاذاة لتسمية الانامة توفياً وجعل الغرض من البعث قضاء الأجل المسمى وهو الوقت المعلوم عند الله الذي لا يتخطاه حياة الإنسان الدنيوية كما قال: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ (الأعراف / ٣٤).

وإنما جعل قضاء الأجل المسمى غاية لأنه تعالى أسرع الحسابين، ولولا تحقق قضاء سابق لأخذهم بسيئات أعمالهم ووبال آثامهم، كما قال: ﴿وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم﴾ (الشورى / ١٤) والقضاء السابق هو الذي يشتمل عليه قوله تعالى في قصة هبوط آدم ﷺ: ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ (الأعراف / ٢٤).

فالمعنى أن الله يتوفاكم بالليل والحال أنه يعلم ما كسبتم في النهار من السيئات وغيرها لكن لا يمسك أرواحكم ليديم عليها الموت بل يبعثكم في النهار بعد التوفي لتقضي آجالكم المسماة ثم

إليه مرجعكم بنزول الموت والحشر فينبئكم بما كنتم تعملون.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ قد تقدم الكلام فيه في تفسير الآية (١٧) من السورة.

قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ الخ: اطلاق إرسال الحفظة من غير تقييد لا في الارسال ولا في الحفظة ثم جعله مغيّاً بمجيء الموت لا يخلو عن دلالة على أن هؤلاء الحفظة المرسلين شأنهم حفظ الانسان من كل بلية تتوجه إليه ومصيبة تتوخاه. وآفة تقصده فإن النشأة التي نحن فيها نشأة التفاعل والتزاحم، ما فيه من شيء إلا وهو مبتلى بمزاحمة غيره من شيء من جميع الجهات لان كلا من أجزاء هذا العالم الطبيعي بصدد الاستكمال واستزادة سهمه من الوجود، ولا يزيد في شيء إلا وينقص بنسبته من غيره فالاشياء دائماً في جدال التنازع والتغلب. ومن أجزائه الانسان الذي تركيب وجوده ألطف التراكيب الموجودة فيه وأدقها فيما نعلم فرقباؤه في الوجود أكثر وأعداؤه في الحياة أخطر فأرسل الله إليه من الملائكة حفظة تحفظه من طوارق الحدثان وعوادي البلايا والمصائب ولا يزالون يحفظونه من الهلاك حتى اذا جاء أجله خلوا بينه وبين البلية فأهلكته على ما في الروايات.

وأما ما ذكره في قوله: ﴿إن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾ (الإنفطار / ١٢) فإنما يريد به الحفظة على الأعمال غير أن بعضهم أخذ الآيات مفسرة لهذه الآية. والآية وإن لم تأب هذا المعنى كل الاباء لكن قوله: «حتى اذا جاء أحدكم الموت» الى آخر الآية. كما تقدم يؤيد المعنى الأول.

وقوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ الظاهر أن المراد من التفريط هو التساهل والتسامح في إنفاذ الأمر الإلهي بالتوفي فإن الله سبحانه وصف ملائكته بأنهم يفعلون ما يؤمرون، وذكر أن كل أمة رهن أجلهم فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فالملائكة المتصدون لأمر التوفي لا يقصرون عن الحد الواجب المحدود المكشوف

لهم من موت فلان في الساعة الفلانية على الشرائط الكذائية فهم لا يسامحون في توفي من أُمروا بتوفّيه ولا مقدار ذرة فهم لا يفرّطون.

وهل هذه الرسل هم الرسل المذكورون أولاً حتى تكون الحفظة هم الموكلين على التوفي؟ الآية ساكتة عن ذلك إلا ما فيها من إشعار ضعيف بالوحدة غير أن هؤلاء الرسل المأمورين بالتوفي كائنين من كانوا هم من أعوان ملك الموت لقوله تعالى: ﴿**قل يتوفّاكم ملك الموت الذي وكل بكلم**﴾ (السجدة / ١١).

ونسبة التوفي الى هؤلاء الرسل ثم الى ملك الموت في الآية المحكية آنفاً ثم الى الله سبحانه في قوله: ﴿**الله يتوفى الأنفس**﴾ (الزمر / ٤٢) من قبيل التفنن في مراتب النسب فالله سبحانه ينتهي إليه كل أمر وهو المالك المتصرف على الإطلاق، ولملك الموت التوسل الى ما يفعله من قبض الأرواح بأعوانه الذين هم أسباب الفعل ووسائله وأدواته كالخط الذي يخطه القلم وورائه اليد ووراءهما الإنسان الكاتب.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَيٰهُمُ الْحَقِّ﴾ إشارة الى رجوعهم الى الله سبحانه بالبعث بعد الموت، وتوصيفه تعالى بأنه مولاهم الحق للدلالة على علة جميع ما تقدم من تصرفاته تعالى بالإنامة والإيقاظ والتدبير والإماتة والبعث، وفيه تحليل لمعنى المولى ثم إثبات حق المولوية له تعالى، فالمولى هو الذي يملك الرقبة فيكون من حقه جواز التصرف فيها كيفما شاء، واذا كان له تعالى حقيقة الملك، وكان هو المتصرف بالإيجاد والتدبير والإرجاع فهو المولى الحق الذي يثبت له معنى المولوية ثبوتاً لا زوال له بوجه البتة.

والحق من أسماء الله الحسنى لثبوته تعالى بذاته وصفاته ثبوتاً لا يقبل الزوال ويمتنع عن التغير والإنتقال والضمير في «ردّوا» راجع الى الآحاد الذي يومىء إليه سابق الكلام من قوله: «حتى اذا جاء أحدكم الموت» فإن حكم الموت يعم كل واحد ويجتمع به آحادهم نفس

الجماعة، ومن هنا يظهر أن قوله: «ثم ردوا» ليس من قبيل الإلتفات من الخطاب السابق الى الغيبة.

قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ الخ؛ لما بيّن تعالى اختصاصه بمفاتح الغيب وعلمه بالكتاب المبين الذي فيه كل شيء، وتدبيره لأمر خلقه من لدن وجدوا الى أن يرجعوا إليه تبين أن الحكم إليه لا الى غيره، وهو الذي ذكره فيما مر من قوله: «إن الحكم إلا لله» أعلن نتيجة بيانه فقال «ألا له الحكم» ليكون منبهاً لهم مما غفلوا عنه.

وكذلك قوله: «وهو أسرع الحاسبين» نتيجة أُخرى لسابق البيان فإنه تبين به أنه تعالى لا يؤخر حساب أعمال الناس عن الوقت الصالح له، وإنما يتأخر ما يتأخر ليدرك الأجل الذي أُجل له.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ﴾ الى آخر الآية؛ كأن المراد بالتنجية من ظلمات البر والبحر هو التخليص من الشدائد التي يبتلى بها الإنسان في خلال الأسفار اذا ضرب في الأرض أو ركب البحر كالبرد الشديد والأمطار والثلوج وقطاع الطريق والطوفان ونحو ذلك، وأشق ما يكون ذلك على الإنسان في الظلمات من ليل أو سحاب أو ريح تثير عجاج الأرض فيزيد في اضطراب الإنسان وحيرته وضلالة طريق الإحتيال لدفعه، ولذلك علقت التنجية على الظلمات. وكان أصل المعنى الإستفهام عمن ينجّي الإنسان من الشدائد التي يبتلى بها في أسفاره في البر والبحر فاضيفت الشدائد الى البر والبحر بعناية الظرفية ثم أُضيفت الى ظلمات البر والبحر لأن للظلمات تأثيراً تاماً في تشديد هذه المكاره، ثم حذفت الشدائد وأُقيمت الظلمات مقامها فعلقت التنجية عليها فقيل: ينجيكم من ظلمات البر والبحر.

وإنما خصت الظلمات بالذكر وإن كان المنجي من كل مكروه وغم هو الله سبحانه كما يذكره في الآية التالية لأن أسفار البر والبحر معروف عند الإنسان بالعناء والوعثاء والكريهة.

والتضرع إظهار الضراعة وهو الذل والخضوع على ما ذكره الراغب، ولذلك قوبل بالخفية وهو الخفاء والإستتار فالتضرع والخفية في الدعاء هما الإعلان والإسرار فيه، والإنسان اذا نزلت به المصيبة يبتديء فيدعو للنجاة بالإسرار والمناجاة ثم اذا اشتدت به ولاح بعض آثار اليأس والانقطاع من الأسباب لا يبالي بمن حوله ممن يطّلع على ذلته واستكانته فيدعو بالتضرع والمناداة ففي ذكر التضرع والخفية إشارة الى أنه تعالى هو المنجي من مصائب البر والبحر شديدتها ويسيرتها.

وفي قوله: ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ إشارة الى أن الإنسان يضيف في هذه الحالة التي يدعو لكشفها الى دعائه عهداً يقدمه الى ربه ووعداً يعده به أن لو كشف الله عنه ليكونن من الشاكرين ويرجع عن سابق كفره.

وأصل هذه العدة مأخوذ من العادة الجارية بين أفراد الإنسان بعضهم مع بعض فإن الواحد منا اذا أعيته المذاهب وأحاطت به البلية من مصيبة قاصمة أو فقر أو عدو واستغاث لكشف ما به من كرب الى أحد الأقوياء القادرين على كشفه بزعمه وعده بما يطيّب به نفسه ويقوّي باعث عزيمته وفتوته، وذلك بثناء جميل أو مال أو طاعة أو وفاء كل ذلك لما أن الأعمال الإجتماعية التي تدور بيننا كلها معاملات قائمة بطرفين يعطي فيها الإنسان شيئاً ويأخذ شيئاً لأن الحاجة محيطة بالإنسان ليس له أن يعمل عملاً أو يؤثر أثراً إلا لنفع عائد الى نفسه، ومثله سائر أجزاء الكون.

لكن الله سبحانه أكرم ساحة أن تمسه حاجة أو يطرأ عليه منقصة لا يفعل فعلاً إلا ليعود نفعه الى غيره من خليقته فوجه التوحيد في مقابلة الإنسان له بوعد الشكر والطاعة في دعائه الفطري هو أن الإنسان اذا نزلت به النازلة، وانقطعت عنه الأسباب وغابت عن مسرح نظره وسائل الخلاص وجد أن الله سبحانه هو السبب الوحيد الذي يقدر على كشف ما به من غم، وأنه الذي يدبّر أمره منذ خلقه ويدبر أمر كل سبب فوجد نفسه ظالماً مفرطاً في جنب الله

سبحانه لا يستحق كشف الغم ورفع الحاجة من قبله تعالى لما كسبت يداه من السيئات، وحملت نفسه من وبال الخطيئة فعندئذ يعد ربه الشكر والطاعة ليصحح ذلك استحقاقه لإستجابة دعائه وكشف ضره.

ولذلك نجده أنه اذا نجي مما نزل به النائبة ذهب لوجهه ناسياً لما عهد به ربه ووعده من الشكر كما قال تعالى في ذيل الآية التالية: «ثم أنتم تشركون».

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ قال الراغب في مفرداته: الكرب الغم الشديد، قال تعالى: ﴿ونجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾ والكربة كالغمة، وأصل ذلك من كرب الأرض بسكون الراء وهو قلبها بالحفر فالغم يثير النفس إثارة ذلك وقيل في مثل: الكراب على البقر وليس ذلك من قولهم: الكلاب على البقر. في شيء، ويجوز أن يكون الكرب من كربت الشمس اذا دنت للمغيب، وقوله: إناء كربان أي قريب نحو قربان أي قريب من الملء، أو من الكرب (بفتحتين) وهو عقد غليظ في رشا الدلو، وقد يوصف الغم بأنه عقد على القلب يقال: أكربت الدلو، انتهى.

وقد أُضيف في هذه الآية كل كرب الى ظلمات البر والبحر ليعم الجميع فإن إنساناً مّا لا يخلو في مدى حياته من شيء من الكروب والغموم فالمسألة والدعاء عام فيهم سواء أعلنوا به أو أسرّوا.

فملخص المراد بالآية أنكم في الشدائد النازلة بكم في ظلمات البر والبحر وغيرها اذا انقطعتم عن الأسباب الظاهرة وأعيت بكم الحيل تشاهدون بالرجوع الى فطرتكم الإنسانية أن الله سبحانه هو ربكم لا رب سواه وتجزمون أن عبادتكم لغيره ظلم وإثم والشاهد على ذلك أنكم تدعونه حينئذ تضرعاً وخفية، وتعدونه أن تشكروه بعد ذلك ولا تكفروا به إن أنجاكم لكنكم بعد الإنجاء تنقضون ميثاقكم الذي واثقتموه به وتستمرون على سابق كفركم. ففي الآيتين احتجاج على المشركين وتوبيخ لهم على حنث اليمين وخلف الوعد.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ الى آخر الآية؛ قال الراغب في المفردات: أصل البعث اثارة الشيء وتوجيهه يقال: بعثته فانبعث، ويختلف البعث بحسب اختلاف ما علق به فبعثت البعير أثرته وسيّرته، وقوله عز وجل: والموتى يبعثهم الله أي يخرجهم ويسيّرهم الى القيامة ـ الى ان قال ـ فالبعث ضربان: بشريّ كبعث البعير وبعث الانسان في حاجة، والهيّ وذلك ضربان: أحدهما: ايجاد الاعيان والاجناس والانواع عن ليس وذلك يختص به الباري تعالى ولم يقدر عليه احداً، والثاني إحياء الموتى وقد خص بذلك بعض أوليائه كعيسى عليه السلام وأمثاله. انتهى.

وبالجملة في لفظه شيء من معنى الإقامة والإنهاض، وبهذه العناية يستعمل في التوجيه والإرسال لأن التوجيه الى حاجة والارسال نحو قوم يكون بعد سكون وخمود غالباً. وعلى هذا فبعث العذاب لا يخلو من إشعار على أنه عذاب من شأنه أن يتوجه إليهم ويقع بهم، وإنما يمنع عن هذا الإقضتاء مانع كالايمان والطاعة، وللكلام تتمة سنوافيك.

وقال في المجمع: لبست عليهم الأمر ألبسه اذا لم أُبينه وخلطت بعضه ببعض ولبست الثوب ألبسه، واللبس اختلاط الأمر واختلاط الكلام، ولابست الأمر خالطته، والشيع الفرق، وكل فرقة شيعة على حدة، وشيعة فلان تبعته، والتشيّع الإتباع على وجه التدين والولاء. انتهى.

وعلى هذا فالمراد بقوله: «أو يلبسكم شيعاً» أن يضرب البعض بالبعض ويخلط حال كونهم شيعاً وفرقاً مختلفة.

فقوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ ظاهره إثبات القدرة لله سبحانه على بعث العذاب عليهم من فوق أو من تحت، والقدرة على الشيء لا تستلزم فعله، وهو أعني إثبات القدرة على الفعل الذي هو العذاب كاف في الإخافة والإنذار لكن المقام يعطي أن المراد ليس هو إثبات مجرد القدرة بل هم استحاق لمثل هذا العذاب، وفي العذاب اقتضاء أن ينبعث عليهم إن لم يجتمعوا على الايمان بالله

وآياته كما مر من استفادة ذلك من معنى البعث، ويؤيده قوله بعد: «لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون» فإنه تهديد صريح.

على أنه تعالى يهدد هذه الامة صريحاً بالعذاب في موارد مشابهة لهذه المورد من كلامه كقوله تعالى: ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط ـ الى أن قال ـ ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين﴾ الآيات (يونس / ٤٧ ـ ٥٣) وقوله: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون. وتقطعوا أمرهم بينهم﴾ الى آخر الآيات (الأنبياء / ٩٣ ـ ٩٧) وقوله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً ـ إلى أن قال ـ ولا تكونوا من المشركين. من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً﴾ الى آخر الآيات (الروم / ٣٠ ـ ٤٥).

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ ظاهره أنه أُريد به التحزّبات التي نشأت بعد النبي ﷺ. فأدى ذلك الى حدوث مذاهب متنوعة أُلبست لباس العصبية والحمية الجاهلية واستتبعت حروباً ومقاتل يستبيح كل فريق من غيره كل حرمة ويطرده بمزعمته من حرمة الدين وبيضة الإسلام.

وعلى هذا فقوله: «أو يلبسكم شيعاً ويذيق» الخ؛ عذاب واحد لا عذابان وإن أمكن بوجه عد كل من إلقاء التفرق في الكلمة وإذاقة البعض بأس بعض عذاباً مستقلاً برأسه فللتفرقة بين الامة أثر سوء آخر وهو طروّ الضعف ونفاد القوة وتبعّض القدرة لكن المأخوذ في الآية المعدود عذاباً أعني قوله: «ويذيق بعضكم» الخ؛ حينئذ بالنسبة الى مجرد إلقاء الاختلاف بمنزلة المقيّد بالنسبة الى المطلق، ولا يحسن مقابلة المطلق بالمقيد إلا بعناية زائدة في الكلام، على أن العطف بواو الجمع يؤيد ما ذكرناه.

فبالجملة معنى الآية: قل يا رسول الله مخاطباً لهم منذراً لهم عاقبة استنكافهم عن الإجتماع تحت لواء التوحيد واستماع دعوة الحق إن لشأنكم هذا عاقبة سيئة في قدرة الله سبحانه أن

يأخذكم بها وهو أن يبعث عليكم عذاباً لا مفر لكم منه ولا ملاذ تلوذون به وهو العذاب من فوقكم أو من تحت أرجلكم، أو أن يضرب بعضكم ببعض فتكونوا شيعاً وفرقاً مختلفين متنازعين ومتحاربين فيذيق بعضكم بأس بعض، ثم تمم البيان بقوله خطاباً لنبيه: أُنظر كيف نصرّف الآيات لعلهم يفقهون، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ قوم النبي ﷺ هم قريش أو مضر أو عامة العرب والمستفاد من فحوى بعض كلامه تعالى في موارد أُخر ان المراد بقومه ﷺ هم العرب كقوله: **﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين، فقرأه عليهم ماكانوا به مؤمنين، كذلك سلكناه في قلوب المجرمين، لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم، فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾** (الشعراء / ٢٠٢) وقوله: **﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم﴾** (إبراهيم / ٤).

وكيف كان فقوله: «وكذّب به قومك وهو الحق» بمنزلة التمهيد لتحقيق النبأ الذي يتضمنه الإنذار السابق كأن قيل: يا أيتها الامة اجتمعوا في توحيد ربكم واتفقوا في اتباع كلمة الحق وإلا هلا مؤمّن يؤمّنكم عذاباً يأتيكم من فوق أو من تحت أو من اختلاف وتحزب يستتبع سيفاً وسوطاً من بعضكم على بعض، ثم خوطب النبي ﷺ فقيل: إن قومك كذّبوا بذلك فليستعدوا لعذاب بئيس أو بأس شديد يذوقونه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ ذكر الراغب في المفردات أن الخوض هو الشروع في الماء والمرور فيه، ويستعار في الامور، وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه، انتهى. وهو الدخول في باطل الحديث والتوغل فيه كذكر الآيات الحقة والاستهزاء بها والإطالة في ذلك.

والمراد بالإعراض عدم مشاركتهم فيما يخوضون فيه كالقيام عنهم والخروج من بينهم أو ما

يشابه ذلك مما يتحقق به عدم المشاركة، وتقييد النهي بقوله: «حتى يخوضوا في حديث غيره» للدلالة على أن المنهي عنه ليس مطلق مجالستهم والقعود معهم، ولو كان لغرض حق، وإنما المنهي عنه مجالستهم ما داموا مشتغلين بالخوض في آيات الله سبحانه.

ومن هنا يظهر أن في الكلام نوعاً من إيجاز الحذف فإن تقدير الكلام: واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا يخوضون فيها فأعرض عنهم، الخ؛ فحذفت الجملة المماثلة للصلة استغناء بها عنها، والمعنى ـ والله أعلم ـ واذا رأيت أهل الخوض والاستهزاء بآيات الله يجرون على خوضهم واستهزائهم بالآيات الإلهية فأعرض عنهم ولا تدخل في حلقهم حتى يخوضوا في حديث غيره فإذا دخلوا في حديث غيره فلا مانع يمنعك من مجالستهم. والكلام وإن وقع في سياق الاحتجاج على المشركين لكن ما أُشير إليه من الملاك يعممه فيشمل غيرهم كما يشملهم. وقد وقع في آخر الآية قوله: «فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين» فالخوض في آيات الله ظلم والآية إنما نهت عن مشاركة الظالمين في ظلمهم، وقد ورد في مورد آخر من كلامه تعالى: ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ (النساء / ١٤٠).

فقد تبين: أن الآية لا تأمر بالإعراض عن الخائضين في آيات الله تعالى بل إنما تأمر بالإعراض عنهم اذا كانوا يخوضون في آيات الله ما داموا مشتغلين به.

والضمير في قوله: «غيره» راجع الى الحديث الذي يخاض فيه في آيات الله باعتبار أنه خوض وقد نهي عن الخوض في الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ و«ما» في قوله: «إما ينسينك» زائد يفيد نوعاً من التأكيد أو التقليل، والنون للتأكيد. والأصل وإن ينسك، والكلام في مقام التأكيد والتشديد للنهي أي حتى لو غفلت عن نهينا بما أنساكه الشيطان ثم ذكرت فلا تهاون في القيام عنهم ولا تلبث دون أن تقوم عنهم فإن الذين يتقون ليس لهم أي مشاركة للخائضين اللاعبين بآيات الله المستهزئين بها.

والخطاب في الآية للنبي ﷺ والمقصود غيره من الامة فقد تقدم في البحث عن عصمة الأنبياء ﷺ ما ينفي وقوع هذا النوع من النسيان ـ وهو نسيان حكم إلهي ومخالفته عملاً بحيث يمكن الاحتجاج بفعله على غيره والتمسك به نفسه ـ عنهم ﷺ.

ويؤيد ذلك عطف الكلام في الآية التالية الى المتقين من الامة حيث يقول: «وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء» الى آخر الآية.

وأوضح منها دلالة قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزء بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾ (النساء / ١٤٠) فإن المراد في الآية وهي مدنية بالحكم الذي نزل في الكتاب هو ما في هذه الآية من سورة الأنعام وهي مكية ولا آية غيرها. وهي تذكر أن الحكم النازل سابقاً وجِّه به الى المؤمنين، ولازمه أن يكون الخطاب الذي في قوله: «واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا» الخ؛ موجهاً الى النبي ﷺ والمقصود به غيره على حد قولهم: إياك أعني واسمعي يا جارة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الى آخر الآية؛ يريد أن الذي يكتسبه هؤلاء الخائضون من الاثم لا يحمل الى على أنفسهم ولا يتعداهم الى غيرهم إلا أن يماثلوهم ويشاركوهم في العمل أو يرضوا بعملهم فلا يحاسب بعمل إلا عامله ولكن نذكّرهم ذكر لعلهم يتقون. فإن الإنسان اذا حضر مجلسهم وإن أمكنه أن لا يجاريهم فيما يخوضون ولا يرضى بقلبه بعملهم وأمكن أن لا يعد حضوره عندهم إعانة لهم على ظلمهم تأييداً لهم في قولهم لكن مشاهدة الخلاف ومعاينة المعصية تهوّن أمر المعصية عند النفس وتصغر الخطيئة في عين المشاهد المعاين. واذا هان أمرها أو شك أن يقع الانسان فيها فإن للنفس في كل معصية هوى ومن الواجب على المتقي بما عنده من التقوى والورع عن محارم الله أن يجتنب مخالطة أهل الهتك والاجتراء على الله كما يجب على المبتلين بذلك الخائضين في

آياتالله لئلا تهون عليه الجرأة على الله وآياته فتقربه ذلك من المعصية فيشرف على الهلكة، ومن يحم حول الحمى أوشك أن يقع فيه.

قوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً﴾ الى آخر الآية؛ قال الراغب: البسل ضم الشيء ومنعه ولتضمنه لمعنى الضم استعير لتقطيب الوجه فقيل: هو باسل ومبتسل الوجه. ولتضمنه لمعنى المنع قيل للمحرم والمرتهن بسل. وقوله تعالى: وذكّر به أن تبسل نفس بما كسبت، أي تحرّم الثواب. والفرق بين الحرام والبسل أن الحرام عام فيما كان ممنوعاً منه بالحكم والقهر. والبسل هو الممنوع منه بالقهر قال عز وجل: «اولئك الذين أُبسلوا بما كسبوا» أي حرّموا الثواب. انتهى.

وقال في المجمع: يقال: أبسلته بجريرته أي أسلمته. والمستبسل المستسلم الذي يعلم أنه لا يقدر على التخلص ـ الى أن قال ـ قال الأخفش: تبسل أي تجازى، وقيل: تبسل أي ترهن والمعاني متقاربة. انتهى.

والمعنى «واترك الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً» عد تدينهم بما يدعوهم إليه هو أنفسهم لعباً وتلهيهاً بدينهم، وفيه فرض دين حق لهم وهو الذي دعتهم إليه فطرتهم فكان يجب عليهم أن يأخذوا به أخذ جد ويتحرزوا به عن الخلط والتحريف ولكنه اتخذوه لعباً ولهواً يقلبونه كيف شاءوا من حال الى حال ويحولونه حسب ما يأمرهم به هوى أنفسهم من صورة الى صورة.

ثم عطف على اتخاذهم الدين لعباً ولهواً قوله: «وغرتهم الحياة الدنيا» لما بينهما من الملازمة لأن الاسترسال في التمتع من لذائذ الحياة المادية والجد في اقتنائها يوجب الإعراض عن الجد في الدين الحق والهزل واللعب به.

ثم قال: وذكّر به أي بالقرآن حذراً من أن تبسل أي تمنع نفس بسبب ما كسبت من السيئات أو تسلم نفس مع ما كسبت للمؤاخذة والعقاب، وتلك نفس ليس لها من دون الله

ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل وتفد كل فدية لا يؤخذ منها لأن اليوم يوم الجزاء بالأعمال لا يوم البيع والشرى اولئك الذين أبسلوا ومنعوا من ثواب الله أو أسلموا لعقابه لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ احتجاج على المشركين بنحو الإستفهام الإنكاري. وإنما ذكر من أوصاف شركائهم كونها لا تنفع ولا تضر لأن اتخاذ الآلهة ـ كما تقدم ـ كان مبنياً على أحد الأساسين: الرجاء والخوف واذ كانت الشركاء لا تنفع ولا تضر فلا موجب لدعائها وعبادتها والتقرب منها.

قوله تعالى: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ ـ الى قوله ـ ائْتِنَا﴾ الإستهواء طلب الهوي والسقوط. والرد على الأعقاب كناية عن الضلال وترك الهدى فإن لازم الهداية الحقة الوقوع في مستقيم الصراط والشروع في السير فيه فالارتداد على الأعقاب ترك السير في الصراط والعود الى ما خلف من المسير وهو الضلال. ولذا قال: ونرد على أعقابنا بعد اذ هدانا الله فقيد الرد بكونه بعد الهداية الالهية.

وقوله: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ الخ: تمثيل مثّل به حال الانسان المتحير الذي لم يؤت بصيرة في أمره وعزيمة راسخة على سعادته فترك أحسن طريق وأقومه الى مقصده، وقد ركبه قبله أصحاب له مهتدون به وبقي متحيراً بين شياطين يدعونه الى الردى والهلاك. وأصحاب له مهتدين قد نزلوا في منازلهم أو أشرفوا على الوصول يدعونه الى الهدى أن ائتنا فلا يدري ما يفعل وهو بين مهبد ومستوى؟.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ الى آخر الآية: أي إن كان الأمر دائراً بين دعوة الله سبحانه وهي التي توافق الفطرة وتسميه الفطرة هدى الله، وبين دعوة الشياطين وهي التي فيها الهوى واتخاذ الدين لعباً ولهواً فهدى الله هو الهدى الحقيقي دون غيره.

أما أن ما يوافق دعوة الفطرة هو هدى الله فلا شك يعتريه لأن حق الهداية هو الذي ينطق

به الصنع والايجاد الذي ليس إلا لله ولا نروم شيئاً من دين أو اعتقاد إلا لابتغاء مطابقة الواقع والواقع لله فلا يعدوه هداه، وأما أن هدى الله هو الهدى الحقيقي الذي يجب أن يؤخذ به دون الدعوة الشيطانية فظاهر أيضاً لأن الله سبحانه هو الذي إليه أمرنا كله من جهة مبدئنا ومنتهانا وما نحتاج إليه في دنيا أو آخرة.

وقوله: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال في المجمع: تقول العرب: أمرتك لتفعل وأمرتك أن تفعل وأمرتك بان تفعل فمن قال: أمرتك بأن تفعل فالباء للإلصاق والمعنى وقع الأمر بهذا الفعل، ومن قال: أمرتك أن تفعل حذف الجار، ومن قال: أمرتك لتفعل فالمعنى أمرتك للفعل، وقال الزجّاج: التقدير أُمرنا كي نسلم.

والجملة أعني قوله: «وأُمرنا لنسلم» الخ؛ عطف تفسير لقوله: «إن هدى الله هو الهدى» فالأمر بالإسلام هو مصداق لهدى الله، والمعنى: أمرنا الله لنسلم له وإنما أبهم فاعل الفعل ليكون تمهيداً لوضع قوله: «لرب العالمين» موضع الضمير فيدل به على علة الأمر فالمعنى أُمرنا من ناحية الغيب أن نسلم لله لأنه رب العالمين جميعاً ليس لها جميعاً أو لكل بعض منها ـ كما تزعمه الوثنية ـ رب آخر ولا أرباب أُخر.

وظاهر الآية أن المراد بالإسلام هو تسليم عامة الامور إليه تعالى لا مجرد التشهّد بالشهادتين، وهو ظاهر قوله: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ (آل عمران / ١٩) كما مر في تفسير الآية.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّقُوهُ﴾ تفنن في سرد الكلام بأخذ الأمر بمعنى القول والجري في مجرى هذه العناية كأنه قيل: وقيل لنا: أن أسلموا لرب العالمين وأن أقيموا الصلاة واتقوه.

وقد أجمل تفاصيل الأعمال الدينية ثانياً في قوله: «واتقوه» غير أنه صرح من بينها باسم الصلاة تعظيماً لأمرها واعتناء بشأنها واهتمام القرآن الشريف بأمر الصلاة ظاهر لا شك فيه.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فمن الواجب أن يسلم له ويتقى لأن الرجوع إليه، والحساب والجزاء بيده.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ الى آخر الآية؛ بضعة أسماء وأوصاف له سبحانه مذكورة أريد بذكرها بيان ما تقدم من القول وتعليله فإنه تعالى ذكر أن الهدى هداه ثم فسره نوع تفسير بالإسلام له والصلاة والتقوى وهو تمام الدين ثم بيّن السبب في كون هداه هو الهدى الذي لا يجوز التجافي عنه وهو أن حشر الجميع إليه ثم بيّنه أتم بيان بقوله: «وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق» الخ؛ فهذه أسماء ونعوت له تعالى لو انتفى واحد منها لم يتم البيان.

فقوله ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ﴾ الخ: يريد به أن الخلقة جميعاً فعله وإنما أتى به بالحق لا بالباطل. والفعل اذا لم يكن باطلاً لم يكن مندوحة من ثبوت الغاية له فللخلقة غاية وهو الرجوع إليه تعالى وهذا هو إحدى الحجتين اللتين ذكرهما في قوله عز من قائل: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا﴾ الى آخر الايتين؛ (ص / ٢٧) فخلقة السماوات والأرض بخلقة حقة تؤدي الى أن الخلق يحشرون إليه.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ السياق يدل على أن المراد بالمقول له هو يوم الحشر وإن كان كل موجود مخلوق على هذه الصفة كما قال تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ (يس / ٨٢) ويوم ظرف متعلق بالقول والمعنى: يوم يقول ليوم القيامة: كن فيكون، وربما قيل: إن المقول له هو الشيء والتقدير: يوم يقول لشيء كن فيكون، وما ذكرناه أوفق للسياق.

وقوله: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ تعليل عللت به الجملة التي قبله، والدليل عليه فصل الجملة، والحق هو الثابت بحقيقة معنى الثبوت وهو الوجود الخارجي والكون العيني واذ كان قوله هو فعله وإيجاده كما يدل عليه قوله: ﴿ويوم يقول كن فيكون﴾ فقوله تعالى هو نفس الحق فلا

مردّ له ولا مبدل لكلماته قال تعالى: ﴿والحق أقول﴾ (ص / ٨٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ يريد به يوم القيامة قال تعالى: ﴿يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار﴾ (المؤمن / ١٦) والمراد بثبوت الملك له تعالى يوم النفخ مع أن له الملك دائماً إنما هو ظهور ذلك بتقطع الأسباب وانبتات الروابط والأنساب وقد تقدم شذور من البحث في ذلك فيما تقدم وسيجيء استيفاء البحث عنه وعن معنى الصور في الموضع المناسب لذلك إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ قد تقدم معناه، وهو اسم يتقوّم بمعناه الحساب والجزاء، وكذلك الاسمان: الحكيم والخبير فهو تعالى بعلمه بالغيب والشهادة يعلم ظاهر الأشياء وباطنها فلا يخفى عليه ظاهر لظهوره ولا باطن لبطونه، وبحكمته يتقن تدبير الخليقة ويميز الواجب من الجزاء كما ينبغي فلا يظلم ولا يجازف، وبخبرته لا يفوت عنه دقيق لدقته ولا جليل لجلالته.

فهذه الأسماء والنعوت تبين بأتم البيان أن الجميع محشورون إليه وأن هداه هو الهدى ودين الفطرة الذي أمر به هو الدين الحق فإنه تعالى خلق العالم لغاية مطلوبة أرادها منه وهو الرجوع إليه، واذ كان يريدها فسيقول لها كن فيكون لأن قوله حق لا مرد له، ويظهر اليوم أن الملك له لا سلطنة لشيء غيره على شيء، وعند ذلك يتميز بتمييزه من أطاعه ممن عصاه لأنه يعلم كل غيب وشهادة عن حكمة وخبرة[1].

٧٤ ● وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

١. الانعام ٥٦ ـ ٧٣: بحث روائي في: علم الله: عذاب الله في الدنيا: اوضاع الامة بعد النبي ﷺ.

٧٥ • وَكَذٰلِكَ نُرِيَ إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ
مِنَ الْمُوقِنِينَ.
٧٦ • فَلَمّٰا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَءٰا كَوْكَباً قٰالَ هٰذٰا رَبِّي فَلَمّٰا أَفَلَ قٰالَ
لاٰ أُحِبُّ الْآفِلِينَ.
٧٧ • فَلَمّٰا رَءَا الْقَمَرَ بٰازِغاً قٰالَ هٰذٰا رَبِّي فَلَمّٰا أَفَلَ قٰالَ لَئِنْ لَمْ
يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضّٰالِّينَ.
٧٨ • فَلَمّٰا رَءَا الشَّمْسَ بٰازِغَةً قٰالَ هٰذٰا رَبِّي هٰذٰا أَكْبَرُ فَلَمّٰا أَفَلَتْ
قٰالَ يٰا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمّٰا تُشْرِكُونَ.
٧٩ • إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً
وَمٰا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ.
٨٠ • وَحٰاجَّهُ قَوْمُهُ قٰالَ أَتُحٰاجُّونِّي فِي اللّٰهِ وَقَدْ هَدٰنِ وَلاٰ أَخٰافُ
مٰا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاّٰ أَنْ يَشٰاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ
عِلْماً أَفَلاٰ تَتَذَكَّرُونَ.
٨١ • وَكَيْفَ أَخٰافُ مٰا أَشْرَكْتُمْ وَلاٰ تَخٰافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللّٰهِ مٰا
لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطٰاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.
٨٢ • اَلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمٰانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ
مُهْتَدُونَ.
٨٣ • وَتِلْكَ حُجَّتُنٰا آتَيْنٰاهٰا إِبْراهِيمَ عَلىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجٰاتٍ مَنْ

نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ.

بيان:[١]

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ القراءات السبع في آزر بالفتح فيكون عطف بيان أو بدلاً من أبيه وفي بعض القراءات «آزر» بالضم وظاهره أنه منادى مرفوع بالنداء، والتقدير: يا آزر أتتخذ أصناماً آلهة. وقد عد من القراءات «أأزراً تتخذ» مفتتحاً بهمزة الاستفهام، وبعده «أزراً» بالنصب مصدر أزر يأزر بمعنى قوى والمعنى: واذ قال إبراهيم لأبيه اتتخذ أصناماً للتقوى والاعتضاد.

وقد اختلف المفسرون على القراءة الاولى المشهورة والثانية الشاذة في «آزر» أنه اسم علم لأبيه أو لقب أُريد بمعناه المدح أو الذم بمعنى المعتضد أو بمعنى الأعرج أو المعوج أو غير ذلك ومنشأ ذلك ما ورد في عدة روايات أن اسم أبيه «تارح» بالحاء المهملة أو المعجمة ويؤيده ما ضبطه التاريخ من اسم أبيه، وما وقع في التوراة الموجودة أنه عليه السلام ابن تارخ.

كما اختلفوا أن المراد بالأب هو الوالد أو العم أو الجد الامي أو الكبير المطاع ومنشأ ذلك ايضاً اختلاف الروايات فنها ما يتضمن أنه كان والده وأن إبراهيم عليه السلام سيشفع له يوم القيامة ولكن لا يشفَّع بل يمسخه الله ضبعاً منتناً فيتبرء منه إبراهيم، ومنها ما يدل على أنه لم يكن والده، وأن والده كان موحداً غير مشرك، وما يدل على أن آباء النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانوا جميعاً موحدين غير مشركين الى غير ذلك من الروايات، وقد اختلفت في سائر ما قص من أمر إبراهيم اختلافاً عجيباً حتى اشتمل بعضها على نظائر ما ينسبه إليه العهد العتيق مما تنزهه عنه

---

١. الانعام ٧٤ـ٨٣: كلام في: الدعوة والقيام بدين الفطرة والانتهاض لنشر عقيدة التوحيد.

الخلة الإلهية والنبوة والرسالة[1].

قوله تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ قال الراغب في المفردات: الصنم جثة متخذة من فضة أو نحاس أو خشب كانوا يعبدونها متقربين به الى الله تعالى وجمعه أصنام قال الله تعالى: أتتخذ أصناماً آلهة، لأكيدنَّ أصنامكم، انتهى، وما ذكره من اتخاذه من فضة أو نحاس أو خشب إنما هو من باب المثال لا ينحصر فيه اتخاذها بل كان يتخذ من كل ما يمكن أن يمثل به تمثال من أقسام الفلزّات والحجارة وغيرها، وقد روي أن بني حنيفة من اليمامة كانوا قد اتخذوا صنماً من أقط، وربما كانوا يتخذونه من الطين وربما كان صورة مصورة.

وكيف كان فقد كانت الأصنام ربما يمثل بها موضوع اعتقادي غير محسوس كإله السماء والأرض وإله العدل، وربما يمثل بها موضوع محسوس كصنم الشمس وصنم القمر، وقد كانت من النوعين جميعاً أصنام لقوم ابراهيم عليه السلام على ما تؤيده الآثار المكشوفة منهم في خرائب بابل وقد كانوا يعبدونها تقرباً بها الى أربابها، وبأربابها الى الله سبحانه، وهذا انموذج بارز من سفه أحلام البشر أن يخضع أعلى حد الخضوع ـ وهو خضوع العبد للرب ـ لمثال مثل به موضوعاً يستعظم أمره ويعظمه، وحقيقته منتهيه درجة خضوع المصنوع المربوب لصانعه من صانع لمصنوع نفسه كان الواحد منهم يأخذ خشبة فينحت بيده منه صنماً ثم ينصبه فيعبده ويتذلل له ويخضع ولذلك جيء بلفظة الأصنام في قوله المحكي: «أتتخذ أصناماً آلهة» نكرة ليدل على هوان أمرها وحقارته من جهة أنها مصنوعة لهم مخلوقة بأيديهم كما يشير إليه قوله عليه السلام لقومه فيما حكى لله: ﴿أتعبدون ما تنحتون﴾ (الصافات / ٩٥) ومن جهة أنها فاقدة لأظهر صفات الربوبية وهو العلم والقدرة كما في قوله لابيه: ﴿إذ قال لأبيه يا أبت لمَ تعبد ما لا يسمع ولا

---

١. الانعام ٧٤ ـ ٨٣: كلام في: ابراهيم وابيه آزر. مسلك القرآن في قصصه.

يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾ (مريم / ٤٢).

فقوله: «أتتخذ أصناماً» الخ: معناه: أتتخذ أصناماً لا خطر في أمرها آلهة والإله هو الذي في أمره خطر عظيم إني أراك وقومك في ضلال مبين، وكيف لا يظهر هذا الضلال وهو عبادة وتذلل عبودي من صانع فيه آثار العلم والقدرة لمصنوعة الذي يفقد العلم والقدرة.

والذي تشتمل عليه الآية أعني قوله: «أتتخذ أصناماً آلهة» الخ: من الحجاج وإن كان بمنزلة التلخيص لعدة احتجاجات واجه بها ابراهيم ﷺ أباه وقومه على ما حكي تفصيلها في عدة مواضع من القرآن الكريم إلا أنه أول ما حاج به أباه وقومه فإن الذي حكاه الله سبحانه من محاجته هو حجاجه أباه وحجاجه قومه في أمر الأصنام وحجاجهم في ربوبية الكوكب والقمر والشمس وحجاجه الملك.

أما حجاجه في ربوبية الكوكب والقمر والشمس فالآيات دالة على كونه بعد الحجاج في أمر الأصنام، والاعتبار والتدبير يعطي أن يكون حجاجه الملك بعد ما ظهر أمره وشاع مخالفته لدين الوثنية والصابئة وكسر الأصنام، وأن يكون مبدء أمره مخالفته أباه في دينه وهو معه وعنده قبل أن يواجه الناس ويخالفهم في نحلتهم فقد كان أول ما حاج به في التوحيد هو ما حاج به أباه وقومه في أمر الأصنام.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الخ: ظاهر السياق أن تكون الإشارة بقوله: «كذلك» الى ما تضمنته الآية السابقة: «واذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك» الخ: أنه ﷺ اري الحق في ذلك، فالمعنى: على هذا المثال من الإراءة نري إبراهيم ملك السماوات والأرض.

وبمعونة هذه الإشارة ودلالة قوله في الآية التالية: «فلما جنّ عليه الليل» الدالة على ارتباط ما بعده بما قبله يظهر أن قوله: «نري» لحكاية الحال الماضية كقوله تعالى: ﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض﴾ (القصص / ٥).

فالمعنى: أنّا أرينا إبراهيم ملكوت السماوات والأرض فبعثه ذلك أن حاج أباه وقومه في أمر الأصنام وكشف له ضلالهم، وكنا نمده بهذه العناية والموهبة وهي إراءة الملكوت وكان على هذه الحال حتى جنّ عليه الليل ورآى كوكباً.

وبذلك يظهر أن ما يتراءى من بعضهم: أن قوله: «وكذلك نري» الخ؛ كالمعترضة لا يرتبط بما قبله ولا بما بعده، وكذا قول بعضهم: إن إراءة الملكوت أول ما ظهر من أمرها في إبراهيم عليه السلام أنه لما جنّ عليه الليل رآى كوكباً. الخ؛ فاسد لا ينبغي أن يصار إليه.

وأما ملكوت السماوات والأرض فالملكوت هو الملك مصدر كالطاغوت والجبروت وإن كان آكد من حيث المعنى بالنسبة الى الملك كالطاغوت والجبروت بالنسبة الى الطغيان والجبر أو الجبران.

قوله تعالى: ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ اللام للتعليل. والجملة معطوفة على أُخرى محذوفة والتقدير: ليكون كذا وكذا وليكون من الموقنين.

واليقين هو العلم الذي لا يشوبه شك بوجه من الوجوه، ولعل المراد به ان يكون على يقين بآيات الله على حد ما في قوله: ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ (السجدة / ٢٤) وينتج ذلك اليقين بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا.

وفي معنى ذلك ما أنزله في خصوص النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ﴾ (الإسراء / ١) وقال: ﴿ ما زاغ البصر وما طغى، لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ (النجم / ١٨) وأما اليقين بذاته المتعالية فالقرآن يجلّه تعالى ان يتعلق به شك أو يحيط به علم وإنما يسلّمه تسليماً.

وقد ذكر في كلامه تعالى من خواص العلم اليقيني بآياته تعالى إنكشاف ما وراء ستر الحس من حقائق الكون على ما يشاء الله تعالى كما في قوله: ﴿ كلّا لو تعلمون علم اليقين، لترونّ الجحيم ﴾ (التكاثر / ٦) وقوله: ﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين، وما أدراك ما

عليّون، كتاب مرقوم، يشهده المقربون﴾ (المطففين / ٢١).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَءَا كَوْكَباً قَالَ هٰذَا رَبِّي﴾ الى آخر الآية؛ قال الراغب في المفردات: أصل الجن (بفتح الجيم) ستر الشيء عن الحاسة يقال: جنه الليل وأجنّه وجن عليه: فجنّه ستره، وأجنه جعل له ما يجنه كقولك: قبرته وأقبرته وسقيته وأسقيته، وجن عليه كذا ستر عليه قال عز وجل: فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً، انتهى. فجن الليل إسداله الظلام لا مجرد ما يحصل بغروب الشمس.

وقوله: «فلما جن عليه الليل» تفريع على ما تقدم من نفيه أُلوهية الأصنام بما يرتبطان بقوله: «وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض» ومحصّل المعنى على ذلك أنّا كنا نريه الملكوت من الأشياء فأبطل الوهية الأصنام اذ ذاك، ودامت عليه الحال فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال كذا وكذا.

وقوله: ﴿رَءَا كَوْكَباً﴾ كأن تنكير الكوكب إنما هو لنكتة راجعة الى مرحلة الإخبار والتحدث فلا غرض في الكلام يتعلق بتعيين هذا الكوكب وأنه أيّ كوكب كان من السيارات أو الثوابت لأن الذي أخذه في الحجاج يجري في أي كوكب من الكواكب يطلع ويغرب لا أن إبراهيم عليه السلام أشار الى كوكب ما من الكواكب من غير ان يمتاز بأي مميز مفروض: أما أولاً فلأن اللفظ لا يساعده فلا يقال لمن أشار الى كوكب بين كواكب لا تحصى كثرة فقال: هذا ربي: إنه رأى كوكباً قال هذا ربي، وأما ثانياً فلأن ظاهر الآيات أنه كان هناك قوم يعبدون الكوكب الذي أشار اليه وقال فيه ما قال، والصابئون ما كانوا يعبدون أي كوكب ولا يحترمون إلا السيارات.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هٰذَا رَبِّي﴾ المراد بالرب هو مالك الأشياء المربوبين، المدبّر لأمرهم لا الذي فطر السماوات والأرض وأوجد كل شيء بعد ما لم يكن موجوداً فإنه الله سبحانه الذي ليس بجسم ولا جسماني ولا يحويه مكان ولا يقع عليه إشارة، والذي يظهر مما

حكي من كلام إبراهيم مع قومه في أمر الأصنام ظهوراً لا شك فيه أنه كان على بيّنة من ربه وله من العلم بالله وآياته ما لا يخفى عليه معه أن الله سبحانه أنزه ساحة من التجسم والتمثل والمحدودية، قال تعالى حكاية عنه في محاورة له مع أبيه: ﴿يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتّبعني أهدك صراطاً سوياً﴾ الى آخر الآيات (مريم / ٤٣).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ الأفول الغروب وفيه إبطال ربوبية الكوكب بعروض صفة الافول له فإن الكوكب الغارب ينقطع بغروبه ممن طلع عليه ولا يستقيم تدبير كوني مع الانقطاع.

على ان الربوبية والمربوبية بارتباط حقيقي بين الرب والمربوب وهو يؤدي الى حب المربوب لربه لانجذابه التكويني إليه وتبعيّته له، ولا معنى لحب ما يفنى ويتغير عن جماله الذي كان الحب لأجله، وما يشاهد من ان الانسان يحب كثيراً الجمال المعجّل والزينة الداثرة فإنما هو لاستغراقه فيه من غير ان يلتفت الى فنائه وزواله فمن الواجب ان يكون الرب ثابت الوجود غير متغير الأحوال كهذه الزخارف المزوّقه التي تحيا وتموت وتثبت وتزول وتطلع وتغرب وتظهر وتخفى وتشب وتشيب وتنضر وتشين، وهذا وجه برهاني وان كان ربما يتخيل انه بيان خطابي أو شعري فافهم ذلك.

وعلى أي حال فهو عليه السلام أبطل ربوبية الكوكب بعروض الافول له إما بالتكنية عن البطلان بأنه لا يحبه لأفوله لأن المربوبية والعبودية متقومة بالحب فليس يسع من لا يحب شيئاً أن يعبده وقد ورد في المروي عن الصادق عليه السلام: «هل الدين إلا الحب»؟ وقد بيّنا ذلك فيما تقدم.

وإما لكون الحجة متقومة بعدم الحب وإنما ذكر الافول ليوجه به عدم حبه له المنافي للربوبية لان الربوبية والالوهية تلازمان المحبوبية فما لا يتعلق به الحب الغريزي الفطري لفقدانه الجمال الباقي الثابت لا يستحق الربوبية، وهذا الوجه هو الظاهر يتكيء عليه سياق الإحتجاج في الآية.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هٰذَا رَبِّي﴾ الى آخر الآية؛ البزوغ هو الطلوع تقدم الكلام في دلالة قوله: «فلما رأى» الخ: على اتصال القضية بما قبلها. وقوله: «هذا ربي» على سبيل الافتراض أو المجاراة والمماشاة والتسليم نظير ما تقدم في الآية السابقة.

وأما قوله بعد أُفول القمر: ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ فهو موضوع وضع الكناية فهو ﷺ أبطل ربوبية الكوكب بما يعم كل غارب ولما غرب القمر ظهر عندئذ رأيه في أمر ربوبيته بما كان قد قاله قبل ذلك في الكوكب «لا احب الآفلين» فقوله: «لئن لم يهدني ربي» الخ؛ إشارة الى ان الوضع الذي ذكره في القمر بقوله: «هذا ربي» كان ضلالا لو دام وأصرّ عليه كان أحد اولئك الضالين القائلين بربوبيته والوجه في كونه ضلالا ما قاله في الكوكب حيث عبّر بوصف لا يختص به بل يصدق في مورده وكل مورد يشابهه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هٰذَا رَبِّي هٰذَا أَكْبَرُ﴾ الكلام في دلالة اللفظ على الاتصال بما قبله لمكان قوله: «فلما» وكون قوله: «هذا ربي» مسوقاً للافتراض أو التسليم كما تقدم في الآية السابقة.

وقد كان تكرر قوله: «هذا ربي» في القمر لما رآه بازغاً بعدما رأى الكوكب، ولذلك ضم قوله: «هذا أكبر» الى قوله: «هذا ربي» في الشمس في المرة الثالثة ليكون بمنزلة الاعتذار للعود الى فرض الربوبية لها مع تبيّن خطاء افتراضه مرة بعد مرة.

وقد تقدمت الإشارة الى أن إشارته الى الشمس بلفظة «هذا» تشعر بأنه ﷺ ما كان يعرف من الشمس ما يعرفه أحدنا أنه جرم سماوي يطلع ويغرب بحسب ظاهر الحس في كل يوم وليلة، وإليها تستند النهار والليل والفصول الأربعة السنوية الى غير ذلك من نعوتها.

فإن الإتيان في الإشارة بلفظ المذكر هو الذي يستريح إليه من لا يميّز المشار إليه في نوعه كما

تقول فيمن لاح لك شبحه وأنت لا تدري أرجل أم امرأة: من هذا؟ ونظيره ما يقال في شبح لا يدرى أمن أُولي العقل هو أولاً: ما هذا؟ فلعله إنما كان ذلك من إبراهيم عليه السلام أول ما خرج من مختفى أُخفي فيه الى أبيه وقومه، ولم يكن عهد مشاهد الدنيا الخارجة والمجتمع البشري فرأى جرماً هو كوكب وجرماً هو القمر وجرماً هو الشمس، وكلما شاهد واحداً منها ـ ولم يكن يشاهد إلا جرماً مضيئاً لامعا ـ قال: هذا ربي، على سبيل عدم المعرفة بحاله معرفة تامة كما سمعت.

ويؤيده بعض التأييد قوله: ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ فإن فيه إشعاراً بأنه عليه السلام مكث بانياً على كون الكوكب رباً حتى شاهد غروبه فحكم بأن الفرض باطل وأنه ليس برب، ولو كان عالما بأنه سيغرب أبطل ربوبيته مقارنا لفرض ربوبيته كما فعل ذلك في أمر الأصنام على ما يدل عليه قوله لأبيه: «أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين» وقوله أيضا: «يا أبت لمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا».

وإن أمكن أن يقال: إنه أراد بتأخير قوله: «لا احب الآفلين» الى أن يأفل ان يحاجهم بما وقع عليه الحس كما أراد بما فعل بالأصنام حيث جعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم أن يريهم عجز الأصنام وكونها أجساداً ميتة لا تدفع عن أنفسها الضر والشر[1].

قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الى آخر الآية ذكر الراغب في المفردات: أن أصل الفطر الشقّ طولاً يقال: فطر فلان كذا فطراً وأفطر هو فطوراً وانفطر انفطاراً قال: هل ترى من فطور أي اختلال ووهي فيه، وذلك قد يكون على سبيل الفساد، وقد يكون على سبيل الصلاح قال: السماء منفطر به كان وعده مفعولا.

---

١. الانعام ٧٤ ـ ٨٣: بحث تفسيري في: تذكير الاشارة في قوله «هذا ربي هذا اكبر»؛ معنى قول ابراهيم عليه السلام «لا احب الآفلين»؛ احتجاج في رد عقايد المشركين.

وفطرت الشاة حلبتها بإصبعين، وفطرت العجين اذا عجنته فخبزته من وقته، ومنه الفطرة، وفطر الله الخلق وهو إيجاده الشيء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال فقوله: فطرة الله التي فطر الناس عليها إشارة منه تعالى الى ما فطر أي أبدع وركز في الناس من معرفته تعالى، وفطرة الله هي ما ركز فيه من قوته على معرفة الإيمان وهو المشار إليه بقوله: ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله. انتهى. وذكر أيضاً: أن الحنف هو ميل عن الضلال الى الاستقامة والجنف ميل عن الاستقامة الى الضلال قال: وسمّت العرب كل من حج أو اختتن حنيفاً تنبيهاً على أنه على دين إبراهيم عليه السلام والأحنف من في رجله ميل، قيل: سمي بذلك على التفاؤل وقيل: بل استعير للميل المجرد، انتهى.

لما تبرأ عليه السلام من شركهم وشركائهم بقوله: «يا قوم إني بريء» الخ؛ وقد سلك إليه تدريجاً بإظهار عدم تعلق قلبه بالشريك حيث قال: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ ثم الإيمان الى كون عبادة الشريك ضلالاً حيث قال: «لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين» ثم التبري الصريح من ذلك بقوله: «يا قوم إني بريء مما تشركون» رجع الى توحيده التام في الربوبية، وهو إثبات الربوبية والمعبودية للذي فطر السماوات والأرض، ونفي الشرك عن نفسه فقال: «إني وجّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً».

فتوجيه الوجه كناية عن الإقبال الى الله سبحانه بالعبادة فإن لازم العبودية والمربوبية أن يتعلق العبد المربوب بربه في قوته وإرادته، ويدعوه ويرجع إليه في جمع أعماله، ولا يكون دعاء ولا رجوع إلا بتوجيه الوجه والإقبال إليه فكنّى بتوجيه الوجه عن العبادة التي هي دعاء ورجوع.

وذكر ربه وهو الله سبحانه الذي وجه وجهه إليه، بنعته الذي يخصه بلا نزاع فيه وهو فطر السماوات والأرض، وجاء بالموصول والصلة ليدل على العهد فلا يشتبه الأمر على أحد منهم فقال: للذي فطر السماوات والأرض أي إني أقبلت بعبادتي على من ينتهي إليه إيجاد كل شيء

وإبداعه، وهو الذي يثبته ويثبتونه فوق الجميع.

ثم نفى غيره مما يدعونه شريكاً بقوله: «حنيفا» أي مائلاً إليه عن غيره نافياً للشريك عنه، وأكده بقوله: «وما أنا من المشركين» فأفاد مجموع قوله: «إني وجهت» الخ: إثبات المعبودية لله تعالى ونفي الشريك عنه قريباً مما تفيده الكلمة الطيبة: لا إله إلا الله.

واللام في قوله: «للذي» للغاية وتفيد معنى الى، وكثيراً ما تستعمل في الغاية اللام كما تستعمل «الى» قال: ﴿أسلم وجهه لله﴾ (البقرة / ١١٢) ﴿ومن يسلم وجهه الى الله﴾ (لقمان / ٢٢).

وفي تخصيص فطر السماوات والأرض من بين صفاته تعالى الخاصة وكذا من بين الألفاظ الدالة على الخلقة كالباري والخالق والبديع إشارة الى ما يؤثره عليه السلام من دين الفطرة وقد كرر توصيف هذا الدين في القرآن الكريم بأنه دين ابراهيم الحنيف ودين الفطرة أي الدين الذي بنيت معارفه وشرائعه على خلقة الإنسان ونوع وجوده الذي لا يقبل التبدل والتغير فإن الدين هو الطريقة المسلوكة التي يقصد بها الوصول الى السعادة الحقيقة والسعادة الحقيقية هي الغاية المطلوبة التي يطلبها الشيء حسب تركب وجوده وتجهزه بوسائل الكمال طلباً خارجياً واقعياً، وحاشا أن يسعد الإنسان أو أي شيء آخر من الخليقة بأمر ولم يتهيأ بحسب خلقته له أو هيىء لخلافه كأن يسعد بترك التغذي أو النكاح أو ترك المعاشرة والاجتماع وقد جهز بخلافها، أو يسعد بالطيران كالطير أو بالحياة في قعر البحار كالسمك ولم يجهز بما يوافقه.

فالدين الحق هو الذي يوافق بنواميسه الفطرة وحاشا ساحة الربوبية أن يهدي الإنسان أو أي مخلوق آخر مكلف بالدين ـ إن كان ـ الى غاية سعيدة مسعدة ولا يوافق الخلقة أو لم يجهز بما يسلك به إليها فإنما الدين عند الله الإسلام وهو الخضوع لله بحسب ما يهدي إليه ويدل عليه صنعه وإيجاده.

قوله تعالى: ﴿ وَحاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدٰنِ ﴾. قسّم تعالى

حججه ﷺ الى قسمين: أحدهما ما بدأ به هو فحاج الناس، وثانيهما ما بدأ به الناس فكلموه به بعد ما تبرأ من آلهتهم، وهذا الذي تعرّض له في الآية وما بعده هو القسم الثاني.

لم يذكر تعالى ما أوردوه عليه من الحجة لكنه لوّح إليه بقوله حكاية عن إبراهيم ﷺ: «ولا أخاف ما تشركون به» فهو الاحتجاج لوجوب عبادة آلهتهم من جهة الخوف وقد تقدم وسيجيء أن الذي بعثهم الى اتخاذ الآلهة وعبادتها أحد أمرين: الخوف من سخطها وقهرها بما لها من السلطة على حوادث العالم الأرضي، أو رجاء البركة والسعادة منها، وأشد الأمرين تأثيراً في نفوسهم هو الأمر الأول أعني الخوف وذلك أن الناس بحسب الطباع يرون ما بأيديهم من النعمة والسعادة المادية ملك أنفسهم إما مرهون جهدهم في سلوك سبيل المعاش في اقتناء الأموال واكتساب المقام والجاه أو بما ملّكهم إياه الجد الرفيع أو البخت السعيد كمن ورث مالاً من مورّثه أو صادف كنزاً فتملّكه أو ساد قومه برئاسة أبيه.

فطريق الرجاء قليل التأثير في وجوب العبودية حتى أن المسلمين مع ما بأيديهم من التعليم الكامل الإلهي يتأثرون من الوعد والبشارة أقل مما يتأثرون من الوعيد والإنذار، ولذلك بعينه نرى أن القرآن يذكر الإنذار من وظائف الأنبياء أكثر من ذكر التبشير، وكلا الأمرين من وظائفهم والطرق التي يستعملونها في الدعوة الدينية.

وبالجملة اختار قوم إبراهيم ﷺ في محاجتهم إياه عندما كلموه في أمر الآلهة سبيل الخوف فأرهبوه من قهر الآلهة وسخطها ووعظه بسلوك سبيلهم ولزوم طريقهم في التقرب بالآلهة ورفض القول بربوبية الله سبحانه، وإثباته في المقام الذي أثبتوه فيه وهو أنه الذي ينتهي إليه الكل فحسب.

ولما وجد ﷺ كلامهم ينحل الى جزاين: الردع عن القول بربوبية الله سبحانه والتحريض على القول بربوبية آلهتهم احتج عليهم من الجهتين جميعاً لكن لا غنى للجهة الاولى عن الثانية كما سيجيء.

وما أورده في الاحتجاج على حجاجهم في الله سبحانه هو قوله: «أتحاجوني في الله وقد هدان» أي إني واقع في أمر مفروغ عنه ومهتد بهداية ربي حيث آتاني العلم بما أراني من ملكوت السماوات والأرض وألهمني بذلك حجة أنني بها ربوبية غيره من الأصنام والكواكب، وأني لا استغني عن رب يدبر أمري فأنتج لي أنه هو الرب وحده لا شريك له، واذ هداني إليه فأنا في غنى عن الإصغاء الى حجتكم والبحث عن الربوبية ثانياً فإن البحث إنما ينفع الطالب ولا طلب بعد الوصول الى الغاية.

هذا ما يعطيه ظاهر الآية بالتبادر الى الذهن لكن هناك معنى أدق من ذلك يظهر بالتدبر وهو أن قوله: «وقد هدان» استدلال بنفس الهداية لا استغناء بالهداية عن الاستدلال وتقريره: أن الله هداني بما علمني من الحجة على نفي ربوبية غيره وإثبات ربوبيته، ونفس هدايته دليل على أنه رب ولا رب غيره فإن الهداية الى الرب من جملة التدبير فهي شأن من هو رب، ولو لم يكن الله سبحانه هو ربي لم يكن ليهديني ولا قام بها الى الذي هو الرب لكن الله هو هداني فهو ربي.

ولم يكن لهم أن يقولوا: إن الذي علمك ما علمت وألهمك الحجة هو بعض آلهتنا لأن الشيء لا يهدي الى ما يضره ويميت ذكره ويفسد أمره فاهتداؤه عليه السلام الى نفي ربوبيتها لا يصح أن ينسب إليها، هذا.

ولكن كان لهم أن يقولوا أو أنهم قالوا: إن ذلك من فعل بعض آلهتنا فعل بك ذلك قهراً وسخطاً أبعدك عن القول بربوبيتها ولقنك هذه الحجج لما وجد من فساد رأيك وعلّة نفسك نظير ما شافهت به عاد هوداً عليه السلام لما دعاهم الى توحيد الله سبحانه واحتج عليهم بأن الله هو الذي يجب أن يرجى ويخاف، وأن آلهتهم لا تنفع ولا تضر فردّوا عليه بأن بعض آلهتنا اعتراك بسوء قال تعالى في قصتهم حكاية عن هود عليه السلام: ﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة الى قوّتكم ولا تتولوا مجرمين. قالوا يا هود ـ الى أن

قال ـ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أُشهد الله وأشهدوا أني بريء مما تشركون، من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون﴾ (هود / ٥٥).

فقوله ﷺ: ﴿وَلا أَخافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ الخ؛ ينفي هذه الشبهة وكما أنه ينفي هذه الشبهة فإنه حجة تامة تنفي ربوبية شركائهم.

ومحصّله: أنكم تدعونني الى القول بربوبية شركائكم ورفض القول بربوبية ربي بما تخافونني من ان تمسني شركاؤكم بسوء، وترهبونني بإلقاء الشبهة فيما اهتديت به، وإني لا أخاف ما تشركون به لأنها جميعاً مخلوقات مدبّرة لا تملك نفعاً ولا ضراً واذ لم اخفها سقطت حجتكم وارتفعت شبهتكم.

ولو كنت خفتها لم يكن الخوف الحاصل في نفسي من صنع شركائكم لأنها لا تقدر على شيء بل كان من صنع ربي وكان هو الذي شاء ان اخاف شركاءكم فخفتها فكان هذا الخوف دليلاً آخر على ربوبيته وآية أُخرى من آيات توحيده يوجب إخلاص العبادة له لا دليلاً على ربوبية شركائكم وحجة توجب عبادتها.

والدليل على ان ذلك من ربي أنه وسع كل شيء علماً فهو يعلم كل ما يحدث ويجري من خير وشر في مملكته التي أوجدها لغايات صحيحة متقنة. وكيف يمكن ان يعلم في ملكه بشيء ينفع أو يضر فيسكت ولا يستقبله بأحد امرين: إما المنع أو الإذن؟

فلو حصل في نفسي شيء من الخوف لكان بمشية من الله واذن على ما يليق بساحة قدسه، وكان ذلك من التدبير الدال على ربوبيته ونفي ربوبية غيره أفلا تتذكرون وترجعون الى ما تدركونه بعقولكم وتهدي إليه فطرتكم.

فهذا وجه في تقرير الحجة المودعة في قوله: «ولا أخاف ما تشركون به إلا ان يشاء ربي وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون» وعلى ذلك فقوله: «ولا اخاف ما تشركون به» كالمتمم للحجة في قوله: «أتحاجوني في الله وقد هدان» وهو مع ذلك حجة تامة في نفسه

لإبطال ربوبية شركائهم بعدم الخوف منها. قوله: «إلا أن يشاء ربي شيئاً» كالكلام في الحجة على تقدير التسليم أي تحتجون على وجوب عبادتها بالخوف ولا خوف في نفسي، ولو فرض خوف لكان دليلاً على ربوبية ربي لا على ربوبية شركائكم فإنه عن مشية من ربي، وقوله: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ بيان وتعليل لكون الخوف المفروض مستنداً الى مشية ربه فإن فاطر السماوات والأرض لا يجهل ما يقع في ملكه فلا يقع إلا بإذن منه فهو الذي يدبر امره ويقوم بربوبيته، وقوله: «أفلا تتذكرون» استفهام توبيخي وإشارة الى أن الحجة فطرية، هذا.

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً﴾ الخ: ثم كرَّ ﷺ عليهم بحجة أُخرى تثبت المناقضة بين قولهم وفعلهم وبعبارة اخرى: حالهم يكذب مقالهم ومحصّله أنكم تأمرونني أن أخاف ما لا يجب أن يخاف منه، وأنتم أنفسكم لا تخافون من يجب ان يخاف منه فأنا أولى بالأمن منكم إن عصيتكم ولم أءتمر بأمركم.

أما كون ما تأمرونني بخوفه لا يجب أن يخاف منه فلأن الأصنام وأربابها لا دليل على كونها مستقلة بالضر والنفع حتى توجب الخوف منها، وأما كونكم لا تخافون من يجب أن يخاف منه فإنكم انفسكم أثبتم لله سبحانه شركاء في الربوبية ولم ينزّل الله في ذلك عليكم برهاناً يمكن أن يعتمد عليه فان الصنع والايجاد لله سبحانه فله الملك وله الحكم فلو كان اتخذ بعض مخلوقاته شريكاً لنفسه يوجب لنا بذلك عبادة شريكه كان إليه لا الى غيره أن يبين لنا ذلك ويكشف عن وجه الحقيقة فيه. والطريق فيه أن يقارنه بعلائم وآيات تدل على أن له شركة في كذا وكذا، وذلك إما وحي أو برهان يتكىء على آثار خارجية، وشيء من ذلك غير موجود.

وعلى هذا التقرير فقوله تعالى: «ما أشركتم» مقيد بحسب ما يستفاد من المقام بما قيد به

قوله: «أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً» وإنما ذكر هذا القيد عند ذكر عدم خوفهم من شركهم لأن الحجة الى ذكره هناك أحوج وهو ظاهر. وقوله: «فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون» من تتمة الحجة. والمجموع برهان على مناقضتهم أنفسهم في دعوته ﷺ الى أن يخاف آلهتهم فإنهم يأمرونه بالخوف فيما لا يجب وهم أنفسهم لا يخافون فيما يجب.

وبالبيان السابق يظهر ان وصف شركائهم بأن الله لم ينزل بها عليهم سلطاناً افتراض استدعاه نوع الحجة التي وضعت في الكلام لا مفهوم له يثبت إمكان ان يأمر الله باتخاذ الشركاء آلهة يعبدون فهو بمنزلة قولنا: لا دليل لكم على ما ادّعيتم، في جواب من يخوفنا من وضوع خرافي يدّعي أنه ربما ينفع ويضر. ولنا ان نبدل قولنا ذلك لو اردنا التكلم بلسان التوحيد بقولنا: ما أنزل الله على ذلك دليلاً. والكلام بحسب التحليل المنطقي يؤول الى قياس استثنائي استثني فيها نقيض المقدم في الشرطية لإنتاج نقيض التالي نحواً من قولنا: لو كان الله نزل بها عليكم سلطاناً يدل على قدرتهم على الضر لكان اتخاذكم الشركاء خوفاً منها في محله لكنه لم ينزل سلطاناً فليس اتخاذكم الشركاء في محله. ومن المعلوم أن لا مفهوم في هذا القياس فلا حاجة الى القول بأن التقييد بقوله: «لم ينزّل به عليكم سلطاناً» للتهكم، أو للإشارة الى ان هذا وصف لازم لشركائهم على حد قوله تعالى: ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به﴾ (المؤمنون / ١١٧) الى غير ذلك من التحملات.

والباء في قوله: ﴿لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ﴾ للمعية أو السببية وقد كنى ﷺ عنهم وعن نفسه بالفريقين ولم يقل: أنا وانتم أو ما يشابه ذلك ليكون أبعد من تحريك الحمية وتهييج العصبية كما قيل، وليدل على تفرقهما وشقاق بينهما من جهة الإختلاف في أصل الاصول وأم المعارف الحقيقية بحيث لا يأتلفان بعد ذلك في شيء.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ سألهم في الآية السابقة في ضمن ما أقامه من الحجة عمن هو أحق بالأمن حيث

قال: «فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون» ثم اجابهم عما سألهم لكون الجواب واضحاً لا يختلف فيه الفريقان المتخاصمان والجواب الذي هذا شأنه لا بأس بأن يبادر السائل الى إيراده من غير ان ينتظر المسؤول فإن المسؤول لا يخالف السائل في ذلك حتى يخاف منه الرد، وقد حكى الله تعالى اعترافهم بذلك في قصة كسر الأصنام: ﴿**قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون، فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم انتم الظالمون، ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون**﴾ (الأنبياء / ٦٥).

هذا ما يقتضيه سياق الكلام ان تكون الآية من كلام إبراهيم ﷺ وموقولة لقوله، وأما كونها من كلام قومه وجواباً محكيّاً عنهم، وكذا كونها من الله سبحانه من باب القضاء بين الطرفين المتخاصمين ففيا لا يساعد عليه السياق البتة.

وكيف كان فالكلام متضمن تأكيداً قوياً من جهة اسنادات متعددة في جمل اسمية وهي ما في قوله: «لهم الأمن» جملة اسمية هي خبر لقوله: «أُولئك» والمجموع جملة اسمية هي خبر لقوله: «الذين آمنوا» الخ: والمجموعة جملة اسمية، وكذلك ما عطف على قوله: «لهم الأمن» من قوله: «وهم مهتدون» فينتج أنه لا شك في اختصاص الذين آمنوا ولم يستروا إيمانهم بظلم بالأمن والاهتداء ولا ريب.

فقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ معناه اشتراط الايمان في إعطائه الأمن من كل ذنب ومعصية يفسد أثره بعدم الظلم غير أن هيهنا دقيقة وهي ان الذنب الاختياري ـ كما استوفينا البحث عنه في آخر الجزء السادس من الكتاب ـ أمر ذو مراتب مختلفة باختلاف الأفهام فمن الظلم ما هو معصية اختيارية بالنسبة الى قوم وليس بها عند آخرين. فالواقف في منشعب طريقي الشرك والتوحيد مثلاً وهو الذي يرى أن للعالم صانعاً هو الذي فطر أجزائها وشق أرجائها وأمسك أرضها وسمائها، ويرى أنه نفسه وغيره مخلوقون مربوبون مدبرون، وان الحياة الإنسانية الحقيقية إنما تسعد بالايمان به والخضوع له

فالظلم اللائح لهذا الإنسان هو الشرك بالله والإيمان بغيره بالربوبية كالأصنام والكواكب وغيرها على ما يثبته إبراهيم ﷺ بقوله: «وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم اشركتم بالله ما لم ينزّل به عليكم سلطاناً» فالايمان الذي يؤثر أثره بالنسبة الى هذا الانسان انما يشترط في إعطاءه الأمن من الشقاء بأن لا يلبسه ظلم الشرك ومعصيته.

ومن طوى هذه المرحلة فآمن بالله وحده فإنه يواجه من الظلم الكبائر من المعاصي كعقوق الوالدين وأكل مال اليتيم وقتل النفس المحترمة والزنا وشرب الخمر فإيمانه في تأثيره آثاره الحسنة يشترط باجتناب هذا النوع من الظلم، وقد وعده الله أن يكفّر عنه السيئات والمعاصي الصغيرة إن اجتنب كبائر ما ينهي عنه، قال تعالى: ﴿إن اجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً﴾ (النساء / ٣١) وفساد أثر هذا الايمان هو الشقاء بعذاب هذه المعاصي وإن لم يكن عذاباً خالداً غير منقطع الآخر كعذاب الشرك بل منقطعاً إما بحلول أجله وإما بشفاعة ونحوها.

ومن تزوّد هذا الزاد من التقوى وحصّل شيئاً من المعرفة بمقام ربه كان مسؤلاً باصناف من الظلم تبدو له بحسب درجة معرفته بربه كإتيان المكروهات وترك المستحبات والتوغل في المباحات، وفوق ذلك المعاصي في مستوى الأخلاق الكريمة والملكات الربانية ووراء ذلك الذنوب التي تعترض سبيل الحب، وتحفّ بساط القرب، فالايمان في كل من هذه المراتب إنما يؤمن المتلبس به ويدفع عنه الشقاء اذا عرى عن ملابسة الظلم المناسب لتلك المرتبة.

فلقوله تعالى: «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم» إطلاق من حيث الظلم لكنه إطلاق يختلف باختلاف مراتب الايمان واذ كان المقام مقام محاجة المشركين انطبق الظلم المنفي على ظلم الشرك فحسب والأمن الذي يعطيه هذا الايمان هو الأمن مما يخاف منه من الشقاء المؤبد والعذاب المخلّد. والآية مع ذلك آية مستقلة من حيث البيان مع قطع النظر عن خصوصية

المورد تفيد أن الأمن والاهتداء إنما يترتب على الايمان بشرط انتفاء جميع انحاء الظلم الذي يلبسه ويستر أثره بالمعنى الذي تقدم بيانه.

وأما الايمان المذكور في الآية ففيه إطلاق والمراد به الايمان بالربوبية الصالح للتقيد بما يصلحه أو يفسده ثم اذا قيد بقوله: «ولم يلبسوا إيمانهم بظلم» أفاد الايمان بربوبية الله سبحانه ورفض غيره من شركائهم فإن ابراهيم ﷺ ذكر فيما تحكي عنه الآية السابقة أن قولهم بربوبية شركائهم وإيمانهم بها مع كونها من خلق الله قول بما لا دليل لهم عليه من جانب الله ولا سلطان وأنهم بإيمانهم بشركائهم يتوقون شراً ويستأمنون شقاء ليس لها أن تدفعها لأنها لا تضر ولا تنفع، وأما هو ﷺ فقد خاف وآمن بمن هو فاطره وهو المتصرف بالهداية والمدبر الذي له في كل أمر إرادة ومشية لسعة علمه، ثم سألهم: أي الفريقين أحق بالأمن والناجح بالايمان بالرب، ولكل من الفريقين إيمان بالرب، وإن اختلفا من جهة الرب، والذي آمنوا به بين مؤمن برب على ربوبيته دليل، ومؤمن برب لا دليل على ربوبيته بل الدليل على خلافه.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ الخ؛ في الاشارة بلفظ البعيد الى الحجة تفخيم وتعظيم لأمرها لكونها حجة قاطعة جارية على صراط الفطرة مأخوذة بمقدماتها منها.

وأما قوله: «نرفع درجات من نشاء» فالدرجات ـ كما قيل ـ هي مراقي السلّم ثم توسّع فيها فاطلق على مراتب الكمال من المعنويات كالعلم والايمان والكرامة والجاه وغير ذلك فرفعه تعالى من يشاء من عباده درجات من الرفع هو تخصيصه بكمالات معنوية وفضائل حقيقة في الخيرات الكسبية كالعلم والتقوى وغير الكسبية كالنبوة والرسالة والرزق وغيرها.

والدرجات لكونها نكرة في سياق الايجاب مهملة غير مطلقة غير أن المتيقن من معناها بالنظر الى خصوص المورد هو درجات العلم والهداية فقد رفع الله إبراهيم ﷺ بهدايته وإراءته ملكوت السماوات والأرض وإيتائه اليقين والحجة القاطعة، والجميع من العلم، وقد

قال تعالى في درجات العلم: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلم درجات﴾ (المجادلة / ١١).

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ لتثبيت أن ذلك كله كان بحكمه منه تعالى وعلم كما أن الحجج التي آتاها رسول الله ﷺ المذكورة في السورة قبل هذه الحجة من حكمته وعلمه تعالى، وفي الكلام التفات من التكلم الى الغيبة لتطييب قلب النبي ﷺ وتثبيت المعارف المذكورة فيه[1][2].

٨٤ ● وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ كُلّاً هَدَيْنا وَنُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَسُلَيْمٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسىٰ وَهٰرُونَ وَكَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ.

٨٥ ● وَزَكَرِيّا وَيَحْيىٰ وَعِيسىٰ وَإِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصّالِحِينَ.

٨٦ ● وَإِسْمٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلّاً فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ.

٨٧ ● وَمِنْ آبائِهِمْ وَذُرِّيّاتِهِمْ وَإِخْوانِهِمْ وَاجْتَبَيْناهُمْ وَهَدَيْناهُمْ إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ.

٨٨ ● ذٰلِكَ هُدَى اللّٰهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ.

---

١. الانعام ٧٤ ـ ٨٣: بحث روائي في: عصمة الانبياء؛ معنى قول ابراهيم عليه السلام «هذا ربي»؛ التوحيد والشرك.

٢. الانعام ٧٤ ـ ٨٣: كلام في قصة ابراهيم عليه السلام وشخصيته وفيه ابحاث مختلفة قرآنية واخرى علمية وتاريخية وغير ذلك «قصة ابراهيم عليه السلام في القرآن؛ منزلة ابراهيم عند الله وموقفه العبودي، ما تقصه التوراة الموجودة في ابراهيم.

٨٩ ● أُولٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هٰؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ.

٩٠ ● أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّٰهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلّاً هَدَيْنَا﴾ إسحاق هو ابن ابراهيم ويعقوب هو ابن إسحاق عليهما السلام، وقوله: «كلاً هدينا» قدّم فيه كلاً للدلالة على أن الهداية الإلهية تعلقت بكل واحد من المعدودين استقلالاً لا أنها تعلقت بعضهم استقلالاً كإبراهيم وبغيره بتبعه، فهو بمنزلة أن يقال: هدينا إبراهيم وهدينا إسحاق وهدينا يعقوب. كما قيل.

قوله تعالى: ﴿وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ فيه إشعار بأن سلسلة الهداية غير منقطعة ولا مبتدئة من إبراهيم عليه السلام بل كانت الرحمة قبله شاملة لنوح عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمٰنَ ـ الى قوله ـ وَكَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ الضمير في «ذريته» راجع الى نوح ظاهراً لأنه المرجع القريب لفظاً. ولأن في المعدودين من ليس هو من ذرية إبراهيم مثل لوط وإلياس، على ما قيل.

وربما قيل: إن الضمير يعود الى إبراهيم عليه السلام وقد ذكر لوط وإلياس عليهما السلام من الذرية تغليباً قال: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ (العنكبوت / ٢٧) أو أن المراد بالذرية هم الستة المذكورون في هذه الآية دون الباقين. وأما قوله: «وزكريا» الخ؛ وقوله: «وإسماعيل» الخ؛ فمعطوفان على قوله: ومن «ذريته» على قوله: «داود» الخ؛ وهو بعيد من السياق.

وأما قوله: «وكذلك نجزي المحسنين» فالظاهر أن المراد بهذا الجزاء هو الهداية الإلهية المذكورة، وإليها الإشارة بقوله: «كذلك» والإتيان بلفظ الإشارة البعيدة لتفخيم أمر هذه الهداية فهو نظير قوله: ﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾ (الرعد / ١٧) والمعنى نجزي المحسنين على هذا المثال.

قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ تقدم الكلام في معنى الاحسان والصلاح فيما سلف من المباحث وفي ذكر عيسى بين المذكورين من ذرية نوح عليه السلام وهو إنما يتصل به من جهة أُمه مريم دلالة واضحة على أن القرآن الكريم يعتبر أولاد البنات وذريتهن أولاداً وذرية حقيقة، وقد تقدّم استفادة نظير ذلك من آية الإرث وآية محرمات النكاح، وللكلام تتمة ستوافيك في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ الظاهر أن المراد بإسماعيل هو ابن ابراهيم أخو إسحاق عليه السلام وقوله: «اليسع» بفتحتين كأسد وقرىء «الليّسع» كالضيغم أحد أنبياء بني إسرائيل ذكر الله اسمه مع إسماعيل عليه السلام كما في قوله: ﴿واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفر وكل من الأخيار﴾ (ص / ٤٨) ولم يذكر شيئاً من قصته في كلامه.

وأما قوله: ﴿وَكُلاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فالعالم هو الجماعة من الناس كعالم العرب وعالم العجم وعالم الروم، ومعنى تفضيلهم على العالمين تقديمهم بحسب المنزلة على عالمي زمانهم لما أن الهداية الخاصة الإلهية أخذتهم بلا واسطة، وأما غيرهم فإنما تشملهم رحمة الهداية بواسطتهم، ويمكن أن يكون المراد تفضيلهم بما أنهم طائفة مهدية بالهداية الفطرية الإلهية من غير واسطة على جميع العالمين من الناس سواء عاصروهم أو لم يعاصروهم فإن الهداية الإلهية من غير واسطة نعمة يتقدم بها من تلبّس بها على من لم يتلبّس. وقد شملت المذكورين من الأنبياء ومن لحق بهم من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم فالمجتمع الحاصل منهم

مفضل على غيرهم جميعاً بتفضيل إلهي.

وبالجملة الملاك في أمر هذا التفضيل هو التلبس بتلك الهداية الإلهية التي لا واسطة فيها، والأنبياء فضلوا على غيرهم بسبب التلبس بها فلو فرض تلبس من غيرهم بهذه الهداية كالملائكة كما ربما يظهر من كلامه تعالى كالأئمة على ما تقدم في البحث عن قوله تعالى: ﴿وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات﴾ (البقرة / ١٢٤) في الجزء الأول من الكتاب فلا يفضل عليهم الأنبياء عليهم السلام من هذه الحيثية وإن أمكن أن يفضلوا عليهم من جهة اخرى غير جهة الهداية.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ هذا التعبير يؤيد ما قدمناه أن المراد بيان اتصال سلسلة الهداية حيث أضاف الباقين الى المذكورين بأنهم متصلون بهم بابوّة أو بنوّة أو اخوّة.

قوله تعالى: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قال الراغب في المفردات: يقال: جبيت الماء في الحوض جمعته والحوض الجامع له جابية وجمعها «جواب» قال الله تعالى: وجفان كالجواب. ومنه استعير جبيت الخراج جباية ومنه قوله تعالى: يجبى إليه ثمرات كل شيء، والاجتباء الجمع على طريق الاصطفاء قال عز وجل: فاجتباه ربه.

قال: واجتباء الله العبد تخصيصه إياه بفيض إلهي يتحصل له منه أنواع من النعم بلا سعي من العبد، وذلك للأنبياء وبعض ما يقارنهم من الصديقين والشهداء كما قال تعالى: وكذلك يجتبيك ربك. فاجتباه ربه فجعله من الصالحين واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم وقوله تعالى: ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى، وقال عز وجل: يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب، انتهى.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ الى آخر الآية: يبين تعالى أن الذي ذكره من صفة الهداية التي هدى بها المذكورين من أنبيائه هو المعرّف لهداه الخاص به الذي يهدي به من يشاء من عباده.

فالهدى إنما يكون هدى ـ حق الهدى ـ اذا كان من الله سبحانه ، والهدى إنما يكون هدى الله اذا أورد المتلبس به صراطاً مستقيماً اتفق على الورود فيه أصحاب الهدى وهم الأنبياء المكرمون ﷺ . واتفق أجزاء ذلك الصراط في الدعوة الى كلمة التوحيد وإقامة دعوة الحق والاتسام بسمة العبودية والتقوى .

أما الطريق الذي يفرّق فيه بين رسل الله فيؤمن فيه ببعض ويكفر ببعض أو يفرّق فيه بين أحكام الله وشرائعه فيؤخذ فيه ببعض ويترك بعض ، والطرق التي لا تضمن سعادة حياة المجتمع الانساني أو يسوق الى بعض ما ليس فيه السعادة الانسانية فتلك هي الطرق التي لا مرضاة فيها لله سبحانه وقد انحرفت فيها عن شريعة الفطرة الى مهابط الضلال ومزالق الأهواء ، والاهتداء إليها ليس اهتداءً بهدى الله سبحانه .

قال تعالى : ﴿ **إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ، اولئك هم الكافرون حقاً** ﴾ (النساء / ١٥١) وقال : ﴿ **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردّون الى أشد العذاب** ﴾ (البقرة / ٨٥) وقال : ﴿ **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ (القصص / ٥٠) يريد أن الطريق الذي فيه اتباع الهوى إنما هو ضلال لا يورد سالكه سعادة الحياة وليس بهدى الله لأن فيه ظلماً والله سبحانه لم يجعل الظلم ولن يجعله مما يتوسل به الى سعادة ولا أن السعادة تنال بظلم .

وبالجملة هدى الله سبحانه من خاصته أنه لا يشتمل على ضلال ولا يجامع ضلالاً بالتأدية إليه . وإنما هو الهدى محضاً تتلوه السعادة محضة عطاءً غير مجذوذ لكن لا على حد العطايا المعمولة فيما بيننا التي ينقطع معها ملك المعطي (بالكسر) عن عطيته وينتقل الى المعطى (بالفتح) فيحوزه على أي حال سواء شكر أو كفر .

بل هذه العطية الإلهية إنما تقوم على شريطة التوحيد والعبودية فلا كرامة لأحد عليه تعالى ولا أمن له منه الا بالعبودية محضاً. ولذلك ذيَّل الكلام بقوله: «ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون» وإنما ذكر الإشراك لأن محط البيان إنما هو التوحيد.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ الإشارة باللفظ المفيد للبعد للدلالة على علو شأنهم ورفعة مقامهم، والمراد بإيتائهم الكتاب وغيره إيتاء جمعهم ذلك بوصف المجموع وإن كان بعضهم لم يؤتوا بعض المذكورات كما مرّ في تفسير قوله: «واجتبيناهم وهديناهم» فإن الكتاب إنما أُوتيه بعض الأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام.

والكتاب اذا نسب في كلامه تعالى الى الأنبياء عليهم السلام نوعاً من النسبة يراد به الصحف التي تشتمل على الشرائع ويقضى بها بين الناس فيما اختلفوا فيه كقوله تعالى: ﴿كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيّين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ (البقرة / ٢١٣) وقوله: ﴿إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيّون ـ الى أن قال ـ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ (المائدة / ٤٨). الى غير ذلك من الآيات.

والحكم هو إلقاء النسبة التصديقية بين أجزاء الكلام كقولنا: فلان عالم، واذا كان ذلك في الامور الاجتماعية والقضايا العملية التي تدور بين المجتمعين عد نوع النسبة حكماً كما تسمى نفس القضية حكماً كما يقال: يجب على الإنسان أن يفعل كذا ويحرم عليه أن يفعل كذا أو يجوز له أن يفعل كذا أو أُحب أو أكره أن تفعل كذا فتسمى الوجوب والحرمة والجواز والاستحباب والكراهة أحكاماً كما تسمى القضايا المشتملة عليها أحكاماً. ولأهل الاجتماع أحكام أُخر ناشئة من نسب أُخرى كالملك والرئاسة والنيابة والكفالة والولاية وغير ذلك.

واذا قصد به المعنى المصدري أُريد به إيجاد الحكم وجعله إما بحسب التشريع والتقنين كما

يجعل أهل التقنين أحكاماً صالحة ليجري عليها الناس ويعملوا بها في مسير حياتهم لحفظ نظام مجتمعهم. وإما بحسب التشخيص والنظر كتشخيص القضاة والحكام في المنازعات والدعاوي أن المال لفلان والحق مع فلان وكتشخيص أهل الفتيا في فتاواهم وقد يراد به إنفاذ الحكم كحكم الوالي والملك على الناس بما يريدان في حوزة الولاية والملك.

والظاهر من الحكم في الآية بقرينة ذكر الكتاب معه أن يكون المراد به معنى القضاء فيكون المراد من إيتاء الكتاب والحكم إعطاء شرائع الدين والقضاء بحسبها بين الناس كما هو ظاهر عدة من الآيات كقوله تعالى: ﴿وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ (البقرة / ٢١٣) وقوله: ﴿إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا﴾ (المائدة / ٤٤) وقوله: ﴿لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ (النساء / ١٠٥) وقوله: ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث﴾ (الأنبياء / ٧٨) وقوله: ﴿يا داود إنا جعلنا خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾ (ص / ٢٦) الى غير ذلك من الآيات وهي كثيرة، وإن كان مثل قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين﴾ (الشعراء / ٨٣) لا يأبى بظاهره الحمل على المعنى الأعم.

وأما النبوة فقد تقدم في تفسير قوله: ﴿كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين﴾ الآية (البقرة / ٢١٣) أن المراد بها التحقق بأنباء الغيب بعناية خاصة إلهية وهي الأنباء المتعلقة بما وراء الحس والمحسوس كوحدانيته تعالى والملائكة واليوم الآخر.

وعد هذه الكرامات الثلاث التي أكرم الله سبحانه بها سلسلة الأنبياء عليهم السلام أعني الكتاب والحكم والنبوة في سياق الآيات الواصفة لهداه تعالى يدل على أنها من آثار هداية الله وبها يتم العلم بالله تعالى وآياته فكأنه قيل: تلك الهداية التي جمعنا عليها الأنبياء عليهم السلام وفضلناهم بها على العالمين هي التي توردهم صراطاً مستقيماً وتعلمهم الكتاب المشتمل على شرائعه،

وتسددهم وتنصبهم للحكم بين الناس، وتنبئهم أنباء الغيب[(١)(٢)].

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هٰؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ الضميران في قوله: «يكفر بها» وقوله: «وكلنا بها» راجعان الى الهدى ويجوز فيه التذكير والتأنيث من جهة أنه هداية. أو راجعان الى الكتاب والحكم والنبوة التي هي من آثار الهداية الالهية، ولا يخلو أول الوجهين عن بعد. والمشار اليه بقوله: «هؤلاء» الكافرون بالدعوة من قوم النبي ﷺ والمتيقن منهم بحسب مورد الآية كفّار مكة الذين أشار الله سبحانه إليهم بقوله: ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ (البقرة / ٦).

المعنى على الوجه الأول: فإن يكفر مشركو قومك بهدايتنا وهي طريقتنا فقد وكلّنا بها من عبادنا من ليس يكفر بها، والكفر والايمان يتعلقان بالهداية وخاصة اذا كانت بمعنى الطريقة كما ينسبان الى الله سبحانه وآياته قال تعالى: ﴿وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به﴾ (الجن / ١٣) وقال: ﴿فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (البقرة / ٣٨).

وعلى الوجه الثاني: فإن يكفر بالكتاب والحكم والنبوة ـ وهي التي تشتمل على الطريقة الالهية والدعوة الدينية ـ مشركو مكة فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين.

والذي ينبغي أن يقال في معنى الآية أعني قوله: «فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين» أن الآيات لما كانت تصف التوحيد الفطري والهداية الإلهية الطاهرة من شوب الشرك بالله سبحانه، وتذكر أن الله سبحانه أكرم بهذه الهداية سلسلة متصلة متحدة من أنبيائه واصطفاهم بها ذرية بعضها من بعض واجتباهم وهداهم الى صراط مستقيم لا ضلال فيه وآتاهم الكتاب والحكم والنبوّة.

---

١. الانعام ٨٤ ـ ٩٠: كلام في معنى الكتاب في القرآن.

٢. الانعام ٨٤ ـ ٩٠: كلام في معنى الحكم في القرآن.

ثم فرع على ذلك قوله: «فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين» وسياقه سياق اعتزاز منه تعالى وتسلية للنبي ﷺ وتطييب لنفسه لئلا يوهنه الحزن ويفسخ عزيمته في الدعوة الدينية ما يشاهده من كفر قومه واستكبارهم وعمههم في طغيانهم فمعناه أن لا تحزن بما تراه من كفرهم بهذه الهداية الإلهية والطريقة التي تشتمل عليها الكتاب والحكم والنبوة التي آتيناها سلسلة المهديين من الأنبياء الكرام فإنا قد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين فلا سبيل للضيعة والزوال الى هذه الهداية الإلهية لانا وكلناهم بها واعتمدنا عليهم فيها وأُولئك غير كافرين بها البتة. فهؤلاء قوم لا يتصوّر في حقهم كفر ولا يدخل في قلوبهم شرك لان الله وكلهم بها واعتمد عليهم فيها وحفظها بهم ولو جاز عليهم الشرك وأمكن فيهم التخلف كان الاعتماد عليهم فيها خطاءً وضلالاً والله سبحانه لا يضل ولا ينسى.

فالآية تدل ـ والله أعلم ـ على أن لله سبحانه في كل زمان عبداً أو عباداً موكلين بالهداية الإلهية والطريقة المستقيمة التي يتضمنها ما آتاه أنبياءه من الكتاب والحكم والنبوة يحفظ الله بهم دينه عن الزوال وهدايته عن الانقراض، ولا سبيل للشرك والظلم إليهم لاعتصامهم بعصمة إلهية وهم أهل العصمة من الأنبياء الكرام وأوصيائهم ﷺ.

فالآية خاصة بأهل العصمة وقصارى ما يمكن أن يتوسع به أن يلحق بهم الصالحون من المؤمنين ممن اعتصم بعصمة التقوى والصلاح ومحض الإيمان عن الشرك والظلم، وخرج بذلك عن ولاية الشيطان قال تعالى: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ (النحل / ٩٩) إن صدق عليهم أن الله وكلهم بها واعتمد عليهم فيها.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ الى آخر الآية: عاد ثانياً الى تعريفهم بما فيه تعريف الهدى الإلهي فالهدى الإلهي لا يتخلف عن شأنه وأثره وهو الايصال الى المطلوب قال تعالى: ﴿فإن الله لا يهدي من يضل﴾ (النحل / ٣٧).

وقد أمر النبي ﷺ في قوله: «فبهداهم اقتده» بالاقتداء ـ وهو الاتباع ـ بهداهم لا بهم

لأن شريعته ناسخة لشرائعهم وكتابه مهيمن على كتبهم، ولأن هذا الهدى المذكور في الآيات لا واسطة فيه بينه تعالى وبين من يهديه، وأما نسبة الهدى إليهم في قوله: «فبهداهم» فمجرد نسبة تشريفية، والدليل عليه قوله: «ذلك هدى الله» الخ.

وقد استدل بعضهم بالآية على أن النبي ﷺ وأُمته كانوا متعبدين بشرائع من قبلهم إلا ما قام الدليل على نسخه، وفيه: أن ذلك إنما يتم لو كان قيل: فبهم اقتده، وأما قوله: «فبهداهم اقتده» فهو بمعزل عن الدلالة على ذلك، كما هو ظاهر.

وختم سبحانه كلامه في وصف التوحيد الفطري والهداية الإلهية إليه بقوله خطاباً لنبيّه: «قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين» كأنه قيل: اهتد بالهدى الإلهي الذي اهتدى به الأنبياء قبلك، وذكر به العالمين من غير أن تسألهم أجراً على ذلك، وقل لهم ذلك لتطيب به نفوسهم، ويكون أنجح للدعوة وأبعد من التهمة، وقد حكى الله سبحانه هذه الكلمة عن نوح من بعده من الأنبياء عليهم السلام في دعواتهم.

والذكرى أبلغ من الذكر كما ذكره الراغب، وفي الآية دليل على عموم نبوته ﷺ لجميع العالمين[1].

٩١ ● وَمٰا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قٰالُوا مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتٰابَ الَّذِي جٰاءَ بِهِ مُوسىٰ نُوراً وَهُدىً لِلنّٰاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرٰاطِيسَ تُبْدُونَهٰا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مٰا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلاٰ آبٰاؤُكُمْ قُلِ اللّٰهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ.

---

١. الانعام ٨٤ ـ ٩٠: بحث روائي في: الياس واليسع، الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام وهما ابنا رسول الله ﷺ.

٩٢ ۞ وَهٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ
الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ
عَلَىٰ صَلَوٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ.
٩٣ ۞ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ
يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ
إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَٰئِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ
أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ أَلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ
تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ.
٩٤ ۞ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَّا
خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ
زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا
كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ.
٩٥ ۞ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ
الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ.
٩٦ ۞ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً
ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ.
٩٧ ۞ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.
٩٨ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ

فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ.

٩٩ ❁ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ أُنْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

١٠٠ ❁ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ.

١٠١ ❁ بَدِيعُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

١٠٢ ❁ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ.

١٠٣ ❁ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.

١٠٤ ❁ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ.

١٠٥ ❁ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَما قَدَرُوا اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللّهُ عَلىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ قدر الشيء وقدره بالتحريك كميته من عظم أو صغر ونحوهما يقال: قدرت الشيء قدراً وقدّرته بالتشديد تقديراً اذا بيّنت كمية الشيء وهندسته المحسوسة ثم توسع فيه فاستعمل في المعاني غير المحسوسة فقيل: قدر فلان عند الناس وفي المجتمع أي عظمته في أعين الناس ووزنه في مجتمعهم وقيمته الاجتماعية.

واذ كان تقدير الشيء وتحديده بحدود لا ينفك غالباً عن وصفه بأوصافه المبينة لحاله المتسبعة لعرفانه أُطلق القدر والتقدير على الوصف وعلى المعرفة بحال الشيء ـ على نحو الاستعارة ـ فيقال قدر الشيء وقدّره أي وصفه، ويقال: قدر الشيء وقدّره أي عرفه، فاللغة تبيح هذه الاستعمالات جميعاً.

ولما كان الله سبحانه لا يحيط بذاته المتعالية حس ولا وهم ولا عقل وإنما يعرف معرفة ما بما يليق بساحة قدسه من الأوصاف وينال من عظمته ما دلت عليه آياته وأفعاله صح استعمال القدر فيه تعالى بكل من المعاني السابقة فيقال: ما قدروا الله حق قدره أي ما عظموه بما يليق بساحته من العظمة أو ما وصفوه حق وصفه أو ما عرفوه حق معرفته، فالآية بحسب نفسها تحتمل كلاً من المعاني الثلاثة أو جميعها بطريق الإلتزام لكن الأنسب بالنظر الى الآيات السابقة الواصفة لهدايته تعالى أنبياءه المستعقبة لإيتائهم الكتاب والحكم والنبوة، وعنايته الكاملة بحفظ كلمة الحق ونعمة الهداية بين الناس زماناً بعد زمان وجيلاً بعد جيل أن تحمل على المعنى الأول فإن في إنكار إنزال الوحي حطاً لقدره تعالى وإخراجاً له من منزلة الربوبية المعتنية بشؤون عباده وهدايتهم الى هدفهم من السعادة والفلاح.

ويؤيد ذلك ما ورد من نظير اللفظ في قوله تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض

جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ (الزمر / ٦٧).

وقوله تعالى: ﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب، ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز ﴾ (الحج / ٧٤) أي وقوته وعزته وضعف غيره وذلته تقتضيان أن لا يحط قدره ولا يسوي هو وما يدعون من دونه بتسمية الجميع آلهة وأرباباً فالأنسب بالآية هو المعنى الأول وإن لم يمتنع المعنيان الآخران، وأما تفسير «ما قدروا الله حق قدره» بأن المراد: ما أعطوه من القدرة ما هو حقها كما فسره بعضهم فأبعد المعاني المحتملة من مساق الآية.

ولما قيد قوله تعالى: «وما قدروا الله حق قدره» بالظرف الذي في قوله: «اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء» أفاد ذلك أن اجتراءهم على الله سبحانه وعدم تقديرهم حق قدره إنما هو من حيث إنهم نفوا إنزال الوحي والكتاب منه تعالى على بشر فدل ذلك على أن من لوازم الالوهية وخصائص الربوبية أن ينزل الوحي والكتاب لغرض هداية الناس الى مستقيم الصراط والفوز بسعادة الدنيا والآخرة فهي الدعوى.

وبالجملة فالآية أعني قوله تعالى: «وما قدروا الله حق قدره» تدل بما لها من الضمائم على أن من لوازم الالوهية أن تهدي الإنسان الى مستقيم الصراط ومنزل السعادة بإنزال الكتاب والوحي على بعض أفراده، وتستدل على ذلك بوجود بعض الكتب المنزلة من الله في طريق الهداية أولاً، وبوجود ما يدل على تعاليم إلهية بينهم لا ينالها الإنسان بما عنده من العقل الاجتماعي ثانياً.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسىٰ نُوراً وَهُدىً لِلنّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ كَثِيراً ﴾ القراءة الدائرة تجعلونه بصيغة الخطاب والمخاطبون به اليهود لا محالة، وقرىء «يجعلونه» بصيغة الغيبة، والمخاطب المسؤول

عنه بقوله: «من أنزل الكتاب» الخ: حينئذ اليهود أو مشركوا العرب على ما قيل. والمراد بجعل الكتاب قراطيس وهي جمع قرطاس إما جعله في قراطيس بالكتابة فيها، وإما جعله نفس القراطيس بما فيها من الكتابة فالصحائف والقراطيس تسمى كتاباً كما تسمى الألفاظ المدلول عليها بالكتابة كتاباً.

وقوله: «قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى» الخ: جواب عن قولهم المحكي بقوله تعالى: «اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء» والآية وإن لم تعيّن القائلين بهذا القول من هم؟ إلا أن الجواب بما فيه من الخصوصية لا يدع ريباً في أن المخاطبين بهذا الجواب هم اليهود فالقائلون: «ما أنزل الله على بشر من شيء» هم اليهود أيضاً. وذلك أن الآية تحتج على هؤلاء القائلين بكتاب موسى ﷺ والمشركون لا يعترفون به ولا يقولون بنزوله من عند الله، وإنما القائلون به أهل الكتاب. وأيضاً الآية تذمهم بأنهم يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً، وهذا أيضاً من خصائص اليهود على ما نسبه القرآن إليهم دون المشركين.

على أن قوله بعد ذلك: «وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم» على ظاهر معناه الساذج لا يصلح أن يخاطب به غير اليهود من المشركين أو المسلمين كما تقدم وسيجيء إن شاء الله تعالى[1].

قوله تعالى: ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ المراد بهذا العلم الذي علموه ولم يكونوا يعلمونه هم ولا آباؤهم ليس هو العلم العادي بالنافع والضار في الحياة مما جهز الإنسان بالوسائل المؤدية إليه من حس وخيال وعقل فإن الكلام واقع في سياق الاحتجاج مربوط به ولا رابطة بين حصول العلوم العادية للإنسان من الطرق المودعة فيه وبين المدعي وهو أن من لوازم الالوهية أن تهدي الانسان الى سعادته وتنزل على بعض

---

١. الانعام ٩١ ـ ١٠٥: بحث حول معنى الآية «اذ قالوا ماانزل الله على بشر من شيء».

أفراده الوحي والكتاب.

وليس المرادبها أن الله أفاض عليكم العلم بأشياء ما كان لكم من أنفسكم أن تعلسوا كما يفيده قوله تعالى: ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ (النحل / ٧٨) وقوله: ﴿ الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم ﴾ (العلق / ٥)، فإن السياق كما عرفت ينافي ذلك.

فالمراد بالآية تعليم ما ليس في وسع الإنسان بحسب الطرق المألوفة عنده التي جهز بها أن ينال علمه، وليس إلا ما أوحاه الله سبحانه الى أنبيائه وحملة وحيه بكتاب أو بغير كتاب من المعارف الإلهية والأحكام والشرائع فإنها هي التي لا تسع الوسائل العادية التي عند عامة الإنسان أن تنالها.

ومن هنا يظهر أن المخاطبين بهذا الكلام أعني قوله: «وعلمتم ما لم تعلموا» الخ: ليسوا هم المشركين اذا لم يكن عندهم من معارف النبوة والشرائع الإلهية شيء بين يعرفونه ويعترفون به والذي كانوا ورثوه من بقايا آثار النبوة من أسلاف أجيالهم ما كانوا ليعترفوا به حتى يصح الاحتجاج به عليهم من غير بيان كاف، وقد وصفهم الله بالجهل في أمثال قوله: ﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله ﴾ (البقرة / ١١٨).

فالخطاب متوجه الى غير المشركين، وليس بموجه الى المسلمين أما أولاً: فلأن السياق سياق الاحتجاج، ولو كان الخطاب متوجهاً إليهم لكان اعتراضاً في سياق الاحتجاج من غير نكتة ظاهرة.

وأما ثانياً: فلما فيه من تغيير مورد الخطاب، والعدول من خطاب المخاطبين بقوله: «من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى» الخ: الى خطابه غيرهم بقوله: «وعلمتم» الخ: من غير قرينة ظاهرة مع وقوع اللبس فالخطاب لغير المشركين والمسلمين وهم اليهود المخاطبون بصدر الآية.

قوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ لما كان الجواب واضحاً

بيّناً لا يداخله ريب. والجواب الذي هذا شأنه يسوغ للمستدل السائل أن يتكلفه ولا ينتظر المسؤال المحتج عليه. أمر تعالى نبيه ﷺ أن يتصدى هو الجواب فقال: «قل الله» أي الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى والذي علمكم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم هو الله.

ولما كان القول بأن الله لم ينزل على بشر شيئاً من لغو القول وهزله الذي لا يتفوه به إلا خائض لاعب بالحقائق وخاصة اذا كان القائل به من اليهود المعترفين بتوراة موسى والمباهين بالعلم والكتاب أمره بأن يدعهم وشأنهم فقال: «ثم ذرهم في خوضهم يلعبون».

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ لما نبه على أن من لوازم الالوهية أن ينزل الوحي على جماعة من البشر هم الأنبياء عليهم السلام. وأن هناك كتاباً حقاً كالتوراة التي جاء بها موسى، واموراً اخرى علمها البشر لا تنتهي إلا الى وحي إلهي وتعليم غيبي. ذكر أن هذا القرآن أيضاً كتاب إلهي منزل من عنده على حد ما نزل سائر الكتب السماوية، ومن الدليل على ذلك اشتماله على ما هو شأن كتاب سماوي نازل من عند الله سبحانه.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ﴾ الخ: كأنه تفريع لما عده الله سبحانه من أوصاف هذا الكتاب الذي أنزله أي لما كان هذا الكتاب الذي أنزلناه مباركاً ومصدقاً لما بين يديه نازلاً لغاية إنذار أهل الأرض فالمؤمنون بالآخرة يؤمنون به لأنه يدعو الى أمن أخروي دائم ويحذرهم من عذاب خالد.

ثم عرف تعالى هؤلاء المؤمنين بالآخرة بما هو من أخص صفات المؤمنين وهو أنهم على صلاتهم وهي عبادتهم التي يذكرون فيها ربهم يحافظون، وهذه هي الصفة التي ختم الله به صفات المؤمنين التي وصفهم بها في أول سورة المؤمنون اذ قال: ﴿الذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ (المؤمنون / ٩)، كما بدأ بمعناها في أولها فقال: ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ (المؤمنون / ٢).

وهذا هو الذي يؤيد أن المراد بالمحافظة في هذه الآية هو الخشوع في الصلاة وهو نحو تذلل وتأثر باطني عن العظمة الإلهية عند الإنتصاب في مقام العبودية لكن المعروف من تفسيره أن المراد بالمحافظة على الصلوة المحافظة على وقتها[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً ـ الى قوله ـ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ عد الله سبحانه موارد ثلاثة من الظلم هي من أشد مراتبه التي لا يرتاب العقل العادي في شناعتها وفظاعتها. ولذا أوردها في سياق السؤال.

والغرض من ذلك الدعوة الى النزول على حكم العقل السليم والأخذ بالنصفة وخفض الجناح لصريح الحق فكأنه يقول: قل لهم: يجب عليّ وعليكم أن لا نستكبر عن الحق ولا نستعلي على الله تعالى بارتكاب ما هو من أشد الظلم وأشنعه وهو الظلم في جنب الله فكيف يصح لكم أن تفتروا على الله كذباً وتدعوا له شركاء تتخذونها شفعاء؟ وكيف يسوغ لي أن أدعي النبوّة وأقول: أُوحي إليّ إن كنت لست بنبي يوحي إليه؟ وكيف يجوز لقائل أن يقول: سانزل مثل ما أنزل الله، فيسخر بحكم الله ويستهزء بآياته؟

ونتيجة هذه الدعوة أن ينقادوا لحكم النبوة فإنهم اذا اجتنبوا الافتراء على الله بالشرك، وكف القائل «سانزل مثل ما أنزل الله» عن مقاله، والنبي ﷺ يصر على الوحي بقيت نبوته بلا معارض.

وافتراء الكذب على الله سبحانه وهو أول المظالم المعدودة وإن كان أعم بالنسبة الى دعوى الوحي اذا لم يوح إليه وهو ثاني المظالم المعدودة ولذا قيل: إن ذكر الثاني بعد الأول من باب ذكر الخاص بعد العام اعتناءً بشأن الوحي وإعظاماً لأمره، لكن التأمل في سياق الكلام ووجهه الى المشركين يعطي أن المراد بالافتراء المذكور هو اتخاذ الشريك لله سبحانه، وإنما لم يصرّح

---

١. الانعام ٩١ ـ ١٠٥: كلام في معنى البركة في القرآن.

بذلك ليرتفع به غائلة ذكر الخاص بعد العام لأن الغرض في المقام ـ كما تقدم ـ هو الدعوة الى الأخذ بالنصفة والتجافي عن عصبية الجاهلية فلم يصرح بالمقصود وإنما أبهم إبهاماً لئلا يتحرك بذلك عرق العصبية ولا يتنبه داعي النخوة.

فقوله: ﴿ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَىٰ اللّٰهِ كَذِباً ﴾ وقوله: «أو قال أوحي إليّ ولم يوح إليه» متباثنان من حيث المراد وإن كانا بحسب ظاهر ما يتراءى منهما أعم وأخص.

ويدل على ما ذكرنا ما في ذيل الآية من حديث التهديد بالعذاب والسؤال عن الشركاء والشفعاء.

وأما ما قيل: إن قوله: «أو قال أُوحي إلي ولم يوح إليه شيء» نزل في مسيلمة حيث ادعى النبوة فسياق الآيات كما عرفت لا يلائمه بل ظاهره أن المراد به نفسه وإن كان الكلام مع الغض عن ذلك أعم.

على أن سورة الأنعام مكية ودعواه النبوة من الحوادث التي وقعت بعد الهجرة إلا أن هؤلاء يرون أن الآية مدنية غير مكية وسيأتي الكلام في ذلك في البحث الروائي التالي إن شاء الله.

وأما قوله: ﴿ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللّٰهُ ﴾ فظاهره أنه حكاية قول واقع، وأن هناك من قال: سانزل مثل ما أنزل الله، وأنه إنما قاله استهزاءً بالقرآن الكريم حيث نسبه الى الله سبحانه بالنزول ثم وعد الناس مثله بالإنزال، ولم يقل: سأقول مثل ما قاله محمد أو سآتيكم بمثل ما أتاكم به.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرىٰ إِذِ الظّٰالِمُونَ فِي غَمَرٰاتِ الْمَوْتِ ﴾ الى آخر الآية: الغمر أصله ستر الشيء وإزالة أثره ولذا يطلق الغمرة على الماء الكثير الساتر لما تحته، وعلى الجهل المطبق، وعلى الشدة التي تحيط بصاحبها والغمرات الشدائد، ومنه قوله تعالى: «في غمرات الموت»، والهون والهوان الذلة.

وبسط اليد معناه واضح غير أن المراد به معنى كنائي، ويختلف باختلاف الموارد فبسط الغني يده جوده بماله وإحسانه لمن يستحقه، وبسط الملك يده إدراته أُمور مملكته من غير أن يزاحمه مزاحم وبسط المأمور الغليظ الشديد يده على المجرم المأخوذ به هو نكاله وإيذاؤه بضر وزجر ونحوه.

فبسط الملائكة أيديهم هو شروعهم بتعذيب الظالمين، وظاهر السياق أن الذي تفعله الملائكة بهؤلاء الظالمين هو الذي يترجم عنه قوله: «أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون» الخ: فهذه الجمل محكية عن الملائكة لا من قول الله سبحانه، والتقدير: يقول الملائكة لهم أخرجوا أنفسكم، الخ: فهم يعذبونهم بقبض أرواحهم قبضاً يذوقونه به أليم العذاب وهذا عذابهم حين الموت ولما ينتقلوا من الدنيا الى ما وراءها ولهم عذاب بعد ذلك ولما تقم عليهم القيامة كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ (المؤمنون / ١٠٠).

وبذلك يظهر أن المراد باليوم في قوله: «اليوم تجزون» هو يوم الموت الذي يجزون فيه العذاب وهو البرزخ كما ظهر أن المراد بالظالمين هم المرتكبون لبعض المظالم الثلاثة التي عدها الله سبحانه من أشد الظلم أعني افتراء الكذب على الله. ودعوى النبوة كذباً والاستهزاء بآيات الله.

ويؤيد ذلك ما ذكره الله من أسباب عذابهم من الذنوب وهو قوزم على الله غير الحق كما هو شأن المفتري الكذب على الله بنسبة الشريك إليه أو بنسبة حكم تشريعي أو وحي كاذب إليه. واستكبارهم عن آيات الله كما هو شأن من كان يقول: «سانزل مثل ما أنزل الله».

وكذلك قوله: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أمر تكويني لأن الموت والوفاة ليس في قدرة الإنسان كالحياة حتى يؤمر بذلك قال تعالى: ﴿وأنه هو أمات وأحيا﴾ (النجم / ٤٤) فالأمر تكويني والملائكة من أسبابه. والكلمة مصوغة صوغ الاستعارة بالكناية والاستعارة

التخييلية كأن النفس الإنسانية أمر داخل في البدن وبه حياته وبخروجه عن البدن طرو الموت وذلك أن كلامه تعالى ظاهر في أن النفس ليست من جنس البدن ولا من سنخ الأمور المادية الجسمانية وإنما هي سنخ آخر من الوجود يتحد مع البدن ويتعلق به نوعاً من الاتحاد والتعلق غير مادي كما تقدم بيانه في بحث علمي في الجزء الأول من الكتاب وسيأتي في مواضع تناسبه إن شاء الله. فالمراد بقوله: «أخرجوا أنفسكم» قطع علقة أنفسهم من أبدانهم وهو الموت، والقول قول الملائكة على ما يعطيه السياق.

والمعنى: وليتك ترى حين يقع هؤلاء الظالمون المذكورون في شدائد الموت وسكراته والملائكة آخذون في تعذيبهم بالقبض الشديد العنيف لأرواحهم وإنبائهم بأنهم واقعون في عالم الموت معذبون فيه بعذاب الهون والذلة جزاء لقولهم على الله غير الحق ولاستكبارهم عن آياته.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الى آخر الآية: الفرادى جمع فرد وهو الذي انفصل عن اختلاط غيره نوعاً من الاختلاط ويقابله الزوج وهو الذي يختلط بغيره بنحو ويقرب منهما بحسب المعنى الوتر والشفع فالوتر ما لم ينضم الى غيره والشفع ما انضم الى غيره. والتخويل إعطاء الخول أي المال ونحوه الذي يقوم الإنسان به بالتدبير والتصرف.

والمراد بالشفعاء الأرباب المعبودون من دون الله ليكونوا شفعاء عند الله فعادوا بذلك شركاء لله سبحانه في خلقه، والآية تنبىء عن حقيقة الحياة الإنسانية التي ستظهر له حينما يقدم على ربه بالتوفي فيشاهد حقيقة أمر نفسه وأنه مدبر بالتدبير الإلهي لا غير كما كان كذلك في أول مرة كونته الخلقة، وأن المزاعم التي انضمت الى حياته من التكثر بالأسباب والاعتضاد والانتصار بالأموال والأولاد والأزواج والعشائر والجموع، وكذا الاستشفاع بالأرباب من دون الله المؤدي الى الإشراك كل ذلك مزاعم وأفكار باطلة لا أثر لها في ساحة

التكوين صلاً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوىٰ﴾ الى آخر الآية: الفلق هو الشق. لما انتهى الكلام في الآية السابقة الى نفي استقلال الأسباب في تأثيرها، وبطلان كون أربابهم شفعاء من دون الله المؤدي الى كونهم شركاء لله صرف الكلام الى بيان أن هذه التي يشتغل بها الإنسان عن ربه ليست الا مخلوقات لله مدبرة بتدبيره، ولا تؤثر أثراً ولا تعمل عملاً في اصلاح حياة الانسان وسوقه الى غايات خلقته الا بتقدير من الله وتدبير يدبره هو لا غير فهو تعالى الرب دون غيره.

فالله سبحانه هو يشق الحب والنوى فينبت منها النبات والشجر اللذين يرتزق الناس من حبه وثمره، وهو يخرج الحي من الميت والميت من الحي ـ وقد مر تفسير ذلك في الكلام على الآية ٢٧ من سورة آل عمران ـ ذلكم الله لا غير فأنى تؤفكون والى متى تصرفون من الحق الى الباطل.

قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً﴾ الى آخر الآية: الإصباح بكسر الهمزة هو الصبح وهو في الاصل مصدر، والسكن ما يسكن اليه. والحسبان جمع حساب، وقيل: هو مصدر حسب حساباً وحسباناً. وقوله: «وجعل الليل سكناً» عطف على قوله: «فالق الاصباح» ولا ضير في عطف الجملة الفعلية على الاسمية اذا اشتملت على معنى الفعل وقرىء: «وجاعل».

وفي فلق الصبح وجعل الليل سكناً يسكن فيه المتحركات عن حركاتها لتجديد القوى ودفع ما عرض لها من التعب والعي والكلال من جهة حركاتها طول النهار، وجعل الشمس والقمر بما يظهر من الليل والنهار والشهور والسنين من حركاتهما في ظاهر الحس حسباناً تقدير عجيب للحركات في هذه النشأة المتغيرة المتحولة ينتظم بذلك نظام المعاش الانساني ويستقيم به أمر حياته، ولذلك ذيلها بقوله: «ذلك تقدير العزيز العليم» فهو العزيز الذي لا

يقهره قاهر فيفسد عليه شيئاً من تدبيره، والعليم الذي لا يجهل بشيء من مصالح مملكته حتى ينظمه نظماً ربما يفسد من نفسه ولا يدوم بطبعه.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُم النُّجومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ الى آخر الآية: المعنى واضح والمراد بتفصيل الآيات اما تفصيلها بحسب الجعل التكويني أو تفصيلها بحسب البيان اللفظي.

ولا تنافي بين ارادة مصالح الانسان في حياته وعيشته في هذه النشأة مما يتراءى لظاهر الحس من حركات هذه الاجرام العظيمة العلوية والكرات المتجاذبة السماوية، وبين كون كل من هذه الاجرام مراداً بإرادة إلهية مستقلة ومخلوقة بمشية تتعلق بنفسه وتخص شخصه فإن الجهات مختلفة، وتحقق بعض هذه الجهات لا يدع تحقق بعض آخر والارتباط والاتصال حاكم على جميع أجزاء العالم.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ الى آخر الآية: قرىء «مستقر» بفتح القاف وكسرها وهو على القراءة الاولى اسم مكان بمعنى محل الاستقرار فيكون «مستودع» أيضاً اسم مكان بمعنى محل الاستيداع وهو المكان الذي توضع فيه الوديعة. وقد وقع ذكر المستقر والمستودع في قوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلى على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾ (هود / ٦) وفي الكلام حذف وإيجاز. والتقدير: فمنكم من هو في مستقر ومنكم من هو في مستودع. وعلى القراءة الثانية وهي الرجحى «مستقر» اسم فاعل ويكون المستودع اسم مفعول لا محالة، والتقدير فمنكم مستقر ومنكم مستودع لم يستقر بعد.

والظاهر أن المراد بقوله: «وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة» انتهاء الذرية الإنسانية على كثرتها وانتشارها الى آدم الذي يعده القرآن الكريم مبدء للنسل الإنساني الموجود، وأن المراد بالمستقر هو البعض الذي تلبس بالولادة من أفراد الإنسان فاستقر في الأرض التي هي

المستقر لهذا النوع كما قال تعالى: ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ (البقرة / ٣٦). والمراد بالمستودع من استودع في الأصلاب والأرحام ولم يولد بعد وسيولد بعد حين. فهذا هو المناسب لمقام بيان الآية بإنشاء جميع الأفراد النوعية من فرد واحد ومن الممكن أن يؤخذ مستقر ومستودع مصدرين ميميين.

وقد عبّر بلفظ الإنشاء دون الخلق ونحوه وهو ظاهر في الدفعة وما في حكمه دون التدريج، ويؤيد هذا المعنى أيضاً ما تقدم من قوله تعالى: «وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها» كما لا يخفى أي يعلم ما استقر منها في الأرض بفعلية التكون «وما هو في طريق التكون مما لم يتكون بالفعل ولم يستقر في الأرض».

فالمعنى: وهو الذي أوجدكم معشر الأناسي من نفس واحدة وعمر بكم الأرض الى حين فهي مشغولة بكم ما لم تنقرضوا فلا يزال بعضكم مستقراً فيها وبعضكم مستودع في الأصلاب والأرحام أو في الأصلاب فقط في طريق الاستقرار فيها.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ الى آخر الآية: السماء هي جهة العلو فكلما علاك وأظلك فهو سماء، والمراد بقوله: «فأخرجنا به نبات كل شيء» على ما قيل، فأخرجنا بالماء الذي أنزلناه من السماء النبات والنمو الذي في كل شيء نام له قوة النبات من الكمون الى البروز، أي أنبتنا به كل شيء نباتي كالنجم والشجر والإنسان وسائر الحيوان.

والخضر هو الأخضر وكأنه مخفف الخاضر، وتراكب الحب انعقاد بعضه فوق بعض كما في السنبلة، والطلع أول ما يبدو من ثمر النخل، والقنوان جمع قنو وهو العذق بالكسر وهو من التمر كالعنقود م العنب، ودانية أي القريبة، والمشتبه وغير المتشابه المشاكل وغير المشاكل في النوع والشكل وغيرهما. وينع الثمر نضجه.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ الى آخر الآية: الجن إما مفعول لجعلوا ومفعوله الآخر شركاء أو بدل من شركاء، وقوله: «وخلقهم» كأنه حال وإن

منعه بعض النحاة وحجتهم غير واضحة. وكيف كان فالكلمة في مقام ردهم، والمعنى وجعلوا له شركاء الجن وهو خلقهم والمخلوق لا يجوز أن يشارك خالقه في مقامه.

والمراد بالجن الشياطين كما ينسب الى المجوس القول: بأهر من ويزدان. ونظيره ما عليه اليزيدية الذي يقولون بالوهية إبليس (الملك طاوس ـ شاه بريان) أو الجن المعروف بناءً على ما نسب الى قريش أنهم كانوا يقولون: إن الله قد صاهر الجن فحدث بينهما الملائكة، وهذا أنسب بسياق قوله: «وجعلوا له شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم» وعلى هذا فالبنون والبنات هم جميعاً من الملائكة خرقوهم أي اختلقوهم ونسبوهم إليه افتراء عليه سبحانه وتعالى عما يشركون.

ولو كان المراد من هو أعم من الملائكة لم يبعد أن يكون المراد بهم ما يوجد في سائر الملل غير الإسلام فالبرهمنية والبوذية يقولون بنظير ما قالته النصارى من بنوة المسيح كما تقدم في الجزء الثالث من الكتاب، وسائر الوثنيين القدماء كانوا يثبتون لله سبحانه بنين وبناء من الآلهة على ما يدل على الآثار المكتشفة، ومشركوا العرب كانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله.

قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ الى آخر الآية: جواب عن قولهم بالبنين والبنات، ومحصله أن لا سبيل لتحقق حقيقة الولد إلا اتخاذ الصاحبة ولم يكن له تعالى صاحبة فأنّى يكون له ولد؟

وأيضاً هو تعالى الخالق لكل شيء وفاطره، والولد هو الجزء من الشيء يربيه بنوع من اللقاح وجزء الشيء والمماثل له لا يكون مخلوقاً له البتة. ويجمع الجميع أنه تعالى بديع السماوات والأرض الذي لا يماثله شيء من أجزائها بوجه من الوجوه فكيف يكون له صاحبة يتزوج بها أو بنون وبنات يماثلونه في النوع فهذا أمر يخبر به الله الذي لا سبيل للجهل إليه فهو بكل شيء عليم. وقد تقدم في الكلام على قوله تعالى: ﴿وما كان لبشر أن يؤتيه الله﴾ الخ

(آل عمران / ٧٩)؛ في الجزء الثالث من الكتاب ما ينفع في المقام.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الى آخر الآيتين الجملة الاولى أعني قوله: «ذلكم الله ربكم» نتيجة متخذة من البيان المورد في الآيات السابقة، والمعنى: اذا كان الأمر على ما ذكر فالله الذي وصفناه هو ربكم لا غير، وقوله: «لا إله إلا هو» كالتصريح بالتوحيد الضمني الذي تشتمل عليه الجملة السابقة، وهو مع ذلك يفيد معنى التعليل أي هو الرب ليس دونه رب لأنه الله الذي ليس دونه إله وكيف يكون غيره رباً وليس بإله.

وقوله: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تعليل لقوله: «لا إله إلا هو» أي إنما انحصرت الالوهية فيه لأنه خالق كل شيء من غير استثناء فلا خالق غيره لشيء من الأشياء حتى يشاركه في الالوهية، وكل شيء مخلوق له خاضع له بالعبودية فلا يعادله فيها.

وقوله: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ متفرع كالنتيجة على قوله: «ذلكم الله ربكم» أي اذا كان الله سبحانه هو ربكم لا غير فاعبدوه، وقوله: «وهو على كل شيء وكيل» أي هو القائم على كل شيء المدبر لأمره الناظم نظام وجوده وحياته واذا كان كذلك كان من الواجب أن يتق فلا يتخذ له شريك بغير علم فالجملة كالتأكيد لقوله: «فاعبدوه» أي لا تستنكفوا عن عبادته لأنه وكيل عليكم غير غافل عن نظام أعمالكم.

وأما قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ فهو لدفع الدخل الذي يوهمه قوله: «وهو على كل شيء وكيل» بحسب ما تتلقاه أفهام المشركين الساذجة والخطاب معهم، وهو أنه اذا صار وكيلاً عليهم كان أمراً جسمانياً كسائر الجسمانيات التي تتصدى الأعمال الجسمانية فدفعه بأنه تعالى لا تدركه الأبصار لتعاليه عن الجسمية ولوازمها، وقوله: «وهو يدرك الأبصار» دفع لما يسبق الى أذهان هؤلاء المشركين الذين اعتادوا بالتفكّر المادي، وأخلدوا الى الحس والمحسوس وهو أنه تعالى اذا ارتفع عن تعلق الأبصار به خرج عن حيطة الحس والمحسوس

وبطل نوع الاتصال الوجودي الذي هو مناط الشعور والعلم. وانقطع عن مخلوقاته فلا يعلم بشيء كما لا يعلم به شيء، ولا يبصر شيئاً كما لا يبصره شيء فأجاب تعالى عنه بقوله: «وهو يدرك الأبصار» ثم علل هذه الدعوى بقوله: «وهو اللطيف الخبير» واللطيف هو الرقيق النافذ في الشيء، والخبير من له الخبرة. فإذا كان تعالى محيطاً بكل شيء بحقيقة معنى الإحاطة كان شاهداً على كل شيء لا يفقده ظاهر شيء من الأشياء ولا باطنه، وهو مع ذلك ذو علم وخبرة كان عالماً بظواهر الأشياء وبواطنها من غير أن يشغله شيء عن شيء أو يحتجب عنه شيء بشيء فهو تعالى يدرك البصر المبصر معاً. والبصر لا يدرك إلا المبصر.

وقد نسب إدراكه الى نفس الأبصار دون اولى الأبصار لأن الإدراك الموجود فيه تعالى ليس من قبيل إدراكاتنا الحسية حتى يتعلق بظواهر الأشياء من أعراضها كالبصر مثلاً الذي يتعلق بالأضواء والألوان ويدرك به القرب والبعد والعظم والصغر والحركة والسكون بنحو بل الأعراض وموضوعاتها بظواهرها وبواطنها حاضرة عنده مكشوفة له غير محجوبة عنه ولا غائبة فهو تعالى يجد الأبصار بحقائقها وما عندها وليست تناله.

ففي الآيتين من سطح البيان وسهولة الطريق وإيجاز القول ما يحير اللب وهما مع ذلك تهديان المتدبر فيهما الى أسرار دونها أستار[1].

قوله تعالى: ﴿قَدْ جٰاءَكُمْ بَصٰائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهٰا﴾ الخ: قال في المجمع: البصيرة البينة والدلالة التي يبصر بها الشيء على ما هو به والبصائر جمعها انتهى. وقيل: البصيرة للقلب كالبصر للعين، والأصل في الباب على أي حال هو الإدراك بحاسة البصر الذي يعد أقوى الإدراكات، ونيلاً من خارج الشيء المشهود، والإبصار والعمى في الآية هو العلم والجهل أو الإيمان والكفر توسعاً.

---

١. الانعام ٩٦ ـ ١٠٥: كلام في عموم الخلقة وانبساطها على كل شيء.

وكأنه تعالى يشير بقوله: «قد جاءكم بصائر من ربكم» الى ما ذكره الآيات السابقة من الحجج الباهرة على وحدانيته وانتفاء الشريك عنه. والمعنى أن هذه الحجج بصائر قد جاءتكم من جانب الله بالوحي إلي. والخطاب من قبل النبي ﷺ ثم ذكر للمخاطبين وهم المشركون أنهم على خيرة من أمر أنفسهم إن شاءوا أبصروا بها وإن شاءوا عموا عنها غير أن الإبصار لأنفسهم والعمى عليها.

ومن هنا يظهر أن المراد بالحفظ عليهم رجوع أمر نفوسهم وتدبير قلوبهم إليه فهو إنما ينفي كونه حفيظاً عليهم تكويناً وإنما هو ناصح لهم. والآية كالمعترضة بين الآيات السابقة والآية اللاحقة. وهو خطاب منه تعالى عن لسان نبيه كالرسول يأتي بالرسالة الى قوم فيؤديها إليهم وفي خلال ما يؤديه يكلمهم من نفسه بما يهيجهم للسمع والطاعة ويحثهم على الانقياد بإظهار النصح ونفي الأغراض الفاسدة عن نفسه.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ ﴾ الخ: وقرىء: دارست بالخطابات ودرست بالتأنيث والغيبة. قيل: إن التصريف هو إجراء المعنى الدائر في المعاني المتعاقبة ليجتمع فيه وجوه الفائدة. وقوله: «درست» من الدرس وهو التعلم والتعليم من طريق التلاوة. وعلى هذا المعنى قراءة دارست غير أن زيادة المباني تدل على زيادة المعاني وأما قراءة «درست» بالتأنيث والغيبة فهو من الدروس بمعنى تعفّي الأثر أي اندرست هذه الأقوال كقولهم: أساطير الأولين.

والمعنى: على هذا المثال نصرف الآيات ونحولها بياناً لغايات كثيرة ومنها أن يستكل هؤلاء الأشقياء شقوتهم فيتهموك يا محمد بأنك تعلمتها من بعض أهل الكتاب أو يقولوا: اندرست هذه الأقاويل وانقرض عهدها ولا نفع فيها اليوم، ولنبينه لقوم يعلمون بتطهير قلوبهم وشرح صدورهم به. وهذا كقوله: ﴿ وتنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين

ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾ (الإسراء / ٨٢)[1].

١٠٦ ۞ إِتَّبِعْ مٰا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ.

١٠٧ ۞ وَلَوْ شٰاءَ اللّٰهُ مٰا أَشْرَكُوا وَمٰا جَعَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمٰا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ.

١٠٨ ۞ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ فَيَسُبُّوا اللّٰهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذٰلِكَ زَيَّنّٰا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ.

١٠٩ ۞ وَأَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمٰانِهِمْ لَئِنْ جٰاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهٰا قُلْ إِنَّمَا الْآيٰاتُ عِنْدَ اللّٰهِ وَمٰا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهٰا إِذٰا جٰاءَتْ لاٰ يُؤْمِنُونَ.

١١٠ ۞ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصٰارَهُمْ كَمٰا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيٰانِهِمْ يَعْمَهُونَ.

١١١ ۞ وَلَوْ أَنَّنٰا نَزَّلْنٰا إِلَيْهِمُ الْمَلاٰئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتىٰ وَحَشَرْنٰا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاّٰ أَنْ يَشٰاءَ اللّٰهُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ.

---

١. الانعام ٩١ ـ ١٠٥: بحث روائي في: معنى الآية «وما قدروا الله حق قدره»: علة تسمية النبي صلى الله عليه وآله وسلم امياً؛ خلق آدم؛ التزويج بالليل: التوحيد.

١١٢ ● وَكَذٰلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ.

١١٣ ● وَلِتَصْغىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلٰهَ إِلّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أمر باتباع ما أُوحي إليه من ربه من أمر التوحيد وأُصول شرائع الدين من غير أن يصده ما يشاهده من استكبار المشركين عن الخضوع لكلمة الحق والإعراض عن دعوة الدين.

وفي قوله: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ المشعر بمزيد الاختصاص تلويح الى شمول العناية الخاصة الإلهية إلا أن قوله: «من ربك» لما كان ملحوقاً بقوله: «وأعرض عن المشركين» وكان ذلك ربما يوهم أن المراد: اتبع الوحي واعبد ربك، واعرض عنهم يعبدوا أربابهم، ولا يخلو ذلك عن إمضاء لطريقتهم وشركهم قدم على قوله: «وأعرض» الخ؛ قوله: «لا إله إلا هو» ليندفع به هذا الوهم، ويجلو معنى قوله: «وأعرض» الخ؛ ويأخذ موضعه.

فالمعنى: اتبع ما أُوحي إليك من ربك الذي له العناية البالغة بك والرحمة المشتملة عليك اذ خصك بوحيه وأيدك بروح الاتباع، وأعرض عن هؤلاء المشركين لا بأن تدعهم وما يعبدون وتسكت راضياً بما يشركون فيكون ذلك إمضاءً للوثنية فإنما الإله واحد وهو ربك الذي يوحي إليك لا إله إلا هو بل أن تعرض عنهم فلا تجهد نفسك في حملهم على التوحيد ولا

تتحمل شقاً فوق طاقتك فإنما عليك البلاغ ولست عليهم بحفيظ ولا وكيل. إنما الحفيظ الوكيل هو الله ولم يشأ لهم التوحيد ولو شاء ما أشركوا لكنه تركهم وضلالهم لأنهم أعرضوا عن الحق واستنكفوا عن الخضوع له.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ تطييب لقلب النبي ﷺ أن لا يجد لشركهم ولا يحزن لخيبة المسعى في دعوتهم فإنهم غير معجزين لله فيما أشركوا فإنما المشية لله لو شاء ما أشركوا بل تلبسوا بالإيمان عن طوع ورغبة كما تلبس من وفق للإيمان، وذلك أنهم استكبروا في الأرض واستعلوا على الله ومكروا به وقد أهلكوا بذلك أنفسهم فرد الله مكرهم إليهم وحرمهم التوفيق للإيمان والاهتداء اذ كما أن السنة الجارية في التكوين هي سنة الأسباب وقانون العلية والمعلولية العام. والمشية الالهية إنما تتعلق بالأشياء وتقع على الحوادث على وفقها فما تمت فيه العلل والشرائط وارتفعت عن وجوده الموانع كان هو الذي تتعلق بتحققه المشية الالهية وإن كان الله سبحانه له فيه المشية مطلقاً إن لم يشأه لم يكن وإن شاء كان. كذلك السنة في نظام التشريع والهداية هي سنة الأسباب فمن استرحم الله رحمه ومن أعرض عن رحمته حرمه، والهداية بمعنى إراءة الطريق تعم الجميع فمن تعرض لهذه النفحة الاهلية ولم يقطع طريق وصولها إليه بالفسق والكفر والعناد شملته وأحيته بأطيب الحياة. ومن اتبع هواه وعاند الحق واستعلى على الله وأخذ يمكن الله. ويستهزىء بآياته حرمه الله السعادة وأنزل الله عليه الشقوة وأضله على علم وطبع عليه بالكفر فلا ينجو أبداً.

ولولا جريان المشية الالهية على هذه السنة بطل نظام الأسباب وقانون العلية والمعلولية وحلت الإرادة الجزافية محله ولغت المصالح والحكم والغايات. وأدى فساد هذا النظام الى فساد نظام التكوين لأن التشريع ينتهي بالاخرة الى التكوين بوجه ودبيب الفساد إليه يؤدي الى فساد أصله.

وهذا كما أن الله سبحانه لو اضطر المشركين على الايمان وخرج بذلك النوع الإنساني عن منشعب طريقي الإيمان والكفر، وسقط الاختيار الموهوب له ولازم بحسب الخلقة الإيمان، واستقر في أول وجوده على أريكة الكمال، وتساوى الجميع في القرب والكرامة كان لازم ذلك بطلان نظام الدعوة ولغو التربية والتكميل، وارتفع الاختلاف بين الدرجات وأدى ذلك الى بطلان اختلاف الاستعدادت والاعمال والاحوال والملكات وانقلب بذلك النظام الإنساني وما يحيط به ويعمل فيه من نظام الوجود الى نظام آخر لا خبر فيه عن إنسان أو ما يشعر به فافهم ذلك.

فالمعنى: أعرض عنهم ولا يأخذك من جهة شركهم وجد ولا حزن فإن الله قادر أن يشاء منهم الإيمان فيؤمنوا كما شاء ذلك من المؤمنين فآمنوا. على أنك لست بمسؤل عن أمرهم لا تكويناً ولا غير فلتطب نفسك.

قوله تعالى: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوَاً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ السب معروف. قال الراغب في المفردات: العدو التجاوز ومنافاة الالتيام فتارة يعتبر بالقلب فيقال له: العدواة والمعاداة، وتارة بالمشي فيقال له العدو، وتارة في الإخلال بالعدالة في المعاملة فيقال له العدوان والعدو قال: فيسبوا الله عدواً بغير علم وتارة بأجزاء المقر فيقال له العدواء يقال: مكان ذو عدواء أي غير متلائم الأجزاء. انتهى.

والآية تذكر أدباً دينياً تصان به كرامة مقدسات المجتمع الديني وتتوقى ساحتها أن يتلوث بدرن الإهانة والإزراء بشنيع القول والسب والشتم والسخرية ونحوها فإن الإنسان مغروز على الدفاع عن كرامة ما يقدسه، والمقابلة في التعدي على ما يحسبه متعدياً الى نفسه، وربما حمله الغضب على الهجر والسب لما له عنده أعلى منزلة العزة والكرامة فلو سب المؤمنون آلهة المشركين حملتهم عصبية الجاهلية أن يعارضوا المؤمنين بسب ما له عندهم كرامة الالوهية وهو الله عز اسمه ففي سب آلهتهم نوع تسبيب الى ذكره تعالى ما لا يليق بساحة قدسه

وكبريائه.

وعموم التعليل المفهوم من قوله: «كذلك زينا لكل أُمة عملهم» يفيد عموم النهي لكل قم سيىء يؤدي الى ذكر شيء من المقدسات الدينية بالسوء بأي وجه أدى.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الزينة أمر جميل محبوب يضم الى الشيء ضماً يجلب الرغبة إليه ويحببه عند طالبه فيتحرك نحو الزينة وينتهي الى الشيء المتزين بها كاللباس المزين بهيئته الحسنة الذي يلبسه الانسان لزينته فيصان به بدنه عن الحر والبرد.

وقد أراد الله سبحانه أن يعيش الانسان هذه العيشة الدنيوية ذات الشعب والفروع ويديم حياته الأرضية الخاصة به من طريق إعمال قواه الفعالة فيدرك ما ينفعه وما يضره بحواسه الظاهرة ثم يتصرف فيها بحواسه وقواه الباطنة ثم يتغذى بأكل أشياء وشرب أشياء ويهيج الى النكاح بأعمال خاصة ويلبس ويأوي ويجلب ويدفع وهكذا.

وله في جميع هذه الأعمال وما يتعلق بها لذائذ يقارنها وغايات حيوية ينتهي اليها وآخر ما ينتهي اليه الحياة السعيدة الحقيقة التي خلق لها أو الحياة التي يظنها الحياة السعيدة الحقيقية.

وهو إنما يقصد بما يعمله من عمل ما يتصل به من اللذة المادية كلذة الطعام والشراب والنكاح وغير ذلك أو اللذة الفكرية كلذة الدواء ولذة التقدم والانس والمدح والفخر والذكر الخالد والانتقام والثروة والأمن وغير ذلك مما لا يحصى.

وهذه اللذائذ أُمور زينت بها هذه الأعمال ومتعلقاتها، وقد سخر الله سبحانه بها الانسان فهو يوقع الأفعال ويتوخى الأعمال لأجلها، وبتحققها يتحقق الغايات الإلهية والأغراض التكوينية كبقاء الشخص، ودوام النسل، ولولا ما في الأكل والشرب والنكاح من اللذة المطلوبة لم يكن الانسان ليتعب نفسه بهذه الحركات الشاقة المتعبة لجسمه والثقيلة على روحه فاختل بذلك نظام الحياة، وفنى الشخص، وانقطع النسل فانقرض النوع، وبطلت حكمة

التكوين بلا ريب في ذلك[١].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يؤيد ما تقدم أن حكم التزيين عامّ شامل لجميع الاعمال الباطنية كالايمان والكفر والظاهرية كأعمال الجوارح الحسنة والسيئة فإن ظاهر الآية أن الانسان إنما يقصد هذه الاعمال ويوقعها لاجل ما يرغب فيه من زينته غافلاً عن الحقائق المستورة تحت هذه الزينات المضروب عليها بحجاب الغفلة ثم اذا رجعوا الى ربهم نبأهم بحقيقة ما كانوا يعملونه، وعاينوا ما هم مصروفون عنه، أما أولياء الرحمن فوجدوا ما لم يكن يعلم مما أخفي لهم من قرة أعين. وأما أولياء الشيطان فبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون فظهور حقائق الاعمال يوم القيامة لا يختص بأحد القبيلين من الحسنات والسيئات.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ـ الى قوله ـ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الجهد بفتح الجيم الطاقة والايمان جمع يمين وهي القسم، وجهد الايمان أي ما تبلغه قدرتها وهو الطاقة، والمراد أنهم بالغوا في القسم وأكدوه ما استطاعوا، والمراد بكون الآيات عند الله كونها في ملكه وتحت سلطته لا ينالها أحد إلا باذنه.

فالمعنى: وأقسموا بالله وبالغوا فيه لئن جاءتهم آياته تدل على صدق النبي ﷺ فيما يدعو إليه ليؤمنن بتلك الآية ـ وهذا اقتراح منهم للآية كناية ـ قل إنما الآيات عند الله وهو الذي يملكها ويحيط بها وليس إليّ من أمرها شيء حتى أُجيبكم إليها من تلقاء نفسي.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قرىء: لا يؤمنون بياء الغيبة وتاء الخطاب جميعاً، والخطاب على القراءة الاولى للمؤمنين بنوع من الالتفات، وعلى القراءة الثانية للمشركين والكلام من تتمة قول النبي ﷺ وهو ظاهر.

---

١. الانعام ١٠٦ ـ ١١٣: بحث في: اللذائذ واقسامها: تزيين الاعمال.

والظاهر أن ﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ للاستفهام، والمعنى: وما هو الذي يفيد لكم العلم بواقع الأمر وهو أنهم لا يؤمنون اذا جاءتهم الآيات؟ فالكلام في معنى قولنا: هؤلاء يحلفون بالله لئن جاءتكم الآيات ليؤمنن بها فربما آمنتم وصدقتم بحلفهم وليس لكم علم بأنّهم اذا جاءتهم الآيات لا يؤمنون بها لأن الله لم يشأن إيمانهم فالكلام من الملاحم.

قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الخ: ظاهر السياق أن الجملة عطف على قوله: «لا يؤمنون» وهي بمنزلة التفسير لعدم إيمانهم، والمراد بقوله: «أول مرة» الدعوة الاولى قبل نزول الآيات قبال ما يتصور له من المرة الثانية التي هي الدعوة مع نزول الآيات.

والمعنى أنهم لا يؤمنون لو نزلت عليهم الآيات، وذلك أنا نقلب أفئدتهم فلا يعقلون بها كما ينبغي أن يعقلوه، وأبصارهم فلا يبصرون بها ما من حقهم أن يبصروه فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا بالقرآن أول مرة من الدعوة قبل نزول هذه الآيات المفروضة ونذرهم في طغيانهم يترددون ويتحيرون. هذا ما يقضي به ظاهر سياق الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ﴾ الى آخر الآية: بيان آخر لقوله: «إنما الآيات عند الله» وأن قولهم: «لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها» دعوى كاذبة أجرأهم عليها جهلهم بمقام ربهم فليس في وسع الآيات التي يظنون أنها أسباب مستقلة في إيجاد الايمان في قلوبهم وإقدارهم على التلبس به أن تودع في نفوسهم الايمان إلا بمشية الله.

فهذا السياق يدل على أن في الكلام حذفاً وإيجازاً، والمعنى: ولو أننا أجبناهم في مسألتهم وآتيناهم أعاجيب الآيات فنزلنا اليهم الملائكة فعاينوهم، وأحيينا لهم الموتى فواجهوهم وكلموهم وأخبروهم بصدق ما يدعون اليه، وحشرنا وجمعنا عليهم كل شيء قبيلاً قبيلاً وصنفاً صنفاً، أو حشرنا عليهم كل شيء قبلاً ومواجهة فشهدوا لهم بلسان الحال أو القال، ما

كانوا ليؤمنوا ولم يؤثر شيء من ذلك في استجابتهم للايمان إلا أن يشاء الله إيمانهم.

فلا يتم لهم الايمان بشيء من الاسباب والعلل إلا بمشية الله فإن النظام الكوني على عرضه العريض وإن كان يجري على طبق حكم السببية وقانون العلية العام غير أن العلل والاسباب مفتقرة في أنفسها متدلية الى ربها غير مستقلة في شيء من شؤنها ومقتضياتها فلا يظهر لها حكم الا بمشية الله ولا يحيا لهم رسم الا بإذنه.

غير أن المشركين أكثرهم ـ ولعلهم غير العلماء الباغين منهم ـ يجهلون مقام ربهم ويتعلقون بالاسباب على أنها مستقلة في نفسها مستغنية عن ربها فيظنون أن لو أتاهم سبب الايمان ـ وهو الآية المقترحة ـ آمنوا واتبعوا الحق وقد اختلط عليهم الامر بجهلهم فأخذوا هذه الأسباب الناقصة المفتقرة الى مشيّة الله أسباباً مستقلة تامة مستغنية عنه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ الى آخر الآية؛ الشياطين جمع شيطان وهو في اللغة الشرير غلب استعماله في إبليس الذي يصفه القرآن وذريته. والجن من الجن بالفتح وهو الاستتار. وهو في عرف القرآن نوع من الموجودات ذوات الشعور والإرادة مستور عن حواسنا بحسب طبعها وهم غير الملائكة. يذكر القرآن أن إبليس الشيطان من سنخهم. والوحي هو القول الخفي بإشارة ونحوها، والزخرف الزينة المزوّقة أو الشيء المزوق فزخرف القول الكلام المزوق المموه الذي يشبه الحق وليس به. وغروراً مفعول مطلق لفعل مقدر من جنسه أو مفعول له.

والمعنى: ومثل ما جعلنا لك جعلنا لكل نبي عدواً هم شياطين الانس والجن يشير بعضهم الى بعض ـ وكأن المراد وحي شياطين الجن بالوسوسة والنزغة الى شياطين الانس ووحي بعض شياطين الانس الى بعض آخر منهم بإسرار المكر والتسويل ـ بأقوال مزوّقة وكلمات مموّهة يغرونهم بذلك غروراً أو لغرورهم وإضلالهم بذلك.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ يشير بذلك الى أن حكم المشيّة عامٌ جار نافذ

فكما أن الآيات لا تؤثر في إيمانهم شيئاً إلا بمشيّة الله كذلك معاداة الشياطين الأنبياء ووحيهم زخرف القول غروراً كل ذلك بإذن الله ولو شاء الله ما فعلوه ولم يوحوا ذلك فلم يكونوا عدواً للأنبياء، وبهذا المعنى يتصل هذه الآية بما قبلها لاشتراكهما في بيان توقفّ الامور على المشية.

وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ تفريع على نفوذ الشمية أي اذا كانت هذه المعاداة والافساد بالوساوس كل ذلك بإذن الله ولم يكونوا بمعجزين لله في مشيته النافذة الغالبة فلا يحزنك ما تشاهد من إخلالهم بالأمر وإفسادهم له بل اتركهم وما يفترونه على الله من دعوى الشريك ونحوها.

فقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ الى آخر الآية؛ في معنى قوله في صدر الآيات «وأعرض عن المشركين ولو شاء الله ما أشركوا».

والكلام في قوله تعالى: «وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن» الخ؛ حيث أسند ظاهراً جعلهم عدواً للأنبياء ـ وفيه التسبب الى الشر والبعث الى الشرك والمعصية ـ الى الله سبحانه وهو منزه من كل شر وسوء نظير الكلام في إسناده تزيين الأعمال الى الله سبحانه في قوله: «كذلك زينا لكل امة عملهم» وقد تقدم الكلام فيه، وكذا الكلام في ظاهر ما يفيده قوله في الآية التالية: «ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة» الخ: حيث جعل هذه المظالم والآثام غايات إلهية للدعوة الحقة.

قوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ الى آخر الآية؛ الاقتراف هو الاكتساب، وضمير المفرد للوحي المذكور في الآية السابقة، واللازم في قوله «لتصغى» للغاية والجملة معطوفة على مقدر، والتقدير: فعلنا ما فعلنا وشئنا ما شئنا ولم نمنع عن وحي بعضهم لبعض زخرف القول غروراً لغايات مستورة ولتصغى وتجيب إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليكتسبوا ما هم مكتسبون لينالوا بذلك جميعاً ما

يسألونه بلسان استعدادهم من شقاء الآخرة، فإن الله سبحانه يمد كلاً من أهل السعادة وأهل الشقاء بما يتم به سيرهم الى منازلهم ويرزقهم ما يقترحونه بلسان استعدادهم قال تعالى: ﴿كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ (الإسراء / ٢٠)[1]

١١٤ ● أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ.

١١٥ ● وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

١١٦ ● وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ.

١١٧ ● إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ.

١١٨ ● فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ.

١١٩ ● وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ.

١٢٠ ● وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ.

---

١. الانعام ١٠٦ ـ ١١٣: بحث روائي في: مشركي مكة واقتراحهم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ترك الدعوى الى التوحيد وجواب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم: تقلب القلوب الابصار.

١٢١ ۞ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ قال في المجمع: الحكم والحاكم بمعنى واحد إلا أن الحكم أمدح لأن معناه من يستحق أن يتحاكم إليه فهو لا يقضي إلا بالحق وقد يحكم الحاكم بغير حق. قال: ومعنى التفصيل تبين المعاني بما ينفي التخليط المعمي للمعنى، وينفي أيضاً التداخل الذي يوجب نقصان البيان عن المراد، انتهى.

وفي قوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً﴾ تفريع على ما تقدم من البصائر التي جاءت من قبله تعالى، وقد ذكر قبل ذلك في القرآن أنه كتاب أنزله مبارك مصدق الذي بين يديه من التوراة والانجيل، والمعنى: أفغير الله من سائر من تدعون من الآلهة أو من ينتمي إليهم أطلب حكماً يتبع حكمه وهو الذي أنزل عليكم هذا الكتاب وهو القرآن مفصلاً متميزاً بعض معارفه من بعض غير مختلط بعض أحكامه ببعض، ولا يستحق الحكم إلا من هو على هذه الصفة فالآية كقوله تعالى: ﴿والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير﴾ (المؤمن / ٢٠).

وقوله: ﴿أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدى﴾ (يونس / ٣٥).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ﴾ الى آخر الآية: رجوع الى خطاب النبي ﷺ بما يتأكد به يقينه ويزيد في ثبوت قدمه فيما ألقاه إلى المشركين من

الخطاب المشعر بأن الكتاب النازل إليه منزل من ربه بالحق في الكلام التفات، وهو بمنزلة المعترضة ليزيد بذلك رسوخ قدمه واطمئنان قلبه وليعلم المشركون أنه على بصيرة من أمره.

وقوله: ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ متعلق بقوله: «منزّل من ربك» وكون التنزيل بالحق هو أن لا يكون بتنزيل الشياطين بالتسويل أو بطريق الكهانة كما في قوله تعالى: ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين، تنزل على كل أفاك أثيم ﴾ (الشعراء / ٢٢٢) أو بتخليط الشياطين بعض الباطل بالوحي الإلهي، وقد أمن الله رسوله من ذلك بمثل قوله: ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ (الجن / ٢٨).

قوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ الكلمة ـ وهي ما دل على معنى تام أو غيره ـ ربما استعملت في القرآن في القول الحق الذي قاله الله عز من قائل من القضاء أو الوعد كما في قوله: ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم ﴾ (يونس / ١٩) يشير الى قوله لآدم عند الهبوط ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ (البقرة / ٣٦) وقوله تعالى: ﴿ حقت عليهم كلمة ربك ﴾ (يونس / ٩٦) يشير الى قوله تعالى لإبليس: ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ (ص / ٨٥) وقد فسرها في موضع آخر بقوله: ﴿ وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ (هود / ١١٩) وكقوله تعالى: ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ﴾ (الأعراف / ١٣٧) يشير الى ما وعدهم أنه سينجيهم من فرعون ويورثهم الأرض كما يشير إليه قوله: ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾ (القصص / ٥).

وربما استعملت الكلمة في العين الخارجي كالإنسان مثلاً كقوله تعالى: ﴿ إن الله يبشرك

بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ﴾ (آل عمران / ٤٥) والعناية فيه أنه ﷺ خرق عادة التدريج وخلق بكلمة إلهية موجدة قال تعالى: ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾ (آل عمران / ٥٩).

فظاهر سياق الآيات فيما نحن فيه يعطي أن يكون المراد بقوله: «وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً» كلمة الدعوة الإسلامية وما يلازمها من نبوة محمد ﷺ ونزول القرآن المهيمن على ما تقدم عليه من الكتب السماوية المشتمل على جوامع المعارف الإلهية وكليات الشرائع الدينية كما أشار إليه فيما حكى من دعاء إبراهيم ﷺ عند بناء الكعبة ﴿ **ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم** ﴾ (البقرة / ١٢٩).

وأشار الى تقدم ذكره في الكتب السماوية في قوله: ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل** ﴾ (الأعراف / ١٥٧) وبذلك يشعر قوله في الآية السابقة: «والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق» وقوله ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم** ﴾ (البقرة / ١٤٦) الى غير من ذلك الآيات الكثيرة.

فالمراد بتمام الكلمة ـ والله أعلم ـ بلوغ هذه الكلمة أعني ظهور الدعوة الإسلامية بنبوة محمد ﷺ ونزول الكتاب المهيمن على جميع الكتب، مرتبة الثبوت واستقرارها في مستقر التحقق بعد ما كانت تسير دهراً طويلاً في مدارج التدريج بنبوة بعد نبوة وشريعة بعد شريعة فإن الآيات الكريمة دالة على أن الشريعة الإسلامية تتضمن جمل ما تقدمت عليه من الشرائع وتزيد عليها بما ليس فيها كقوله تعالى: ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى** ﴾ (الشورى / ١٣).

وبذلك يظهر معنى تمام الكلمة وأن المراد به انتهاء تدرج الشرائع من مراحل النقص الى مرحلة الكمال، ومصداقه الدين المحمدي قال تعالى: ﴿ **والله متم نوره ولو كره الكافرون، هو**

الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ (الصف / ٩).

وتمام هذه الكلمة الالهية صدقاً هو أن يصدق القول بتحققها في الخارج بالصفة التي بيّن بها، وعدلاً أن تتصف بالتقسيط على سواء فلا يتخلف بعض أجزائه عن بعض وتزن الأشياء على النحو الذي من شأنها أن توزن به من غير إخسار أو حيف وظلم، ولذلك بيّن هذين القيدين أعني « صدقاً وعدلاً » بقوله : « لا مبدل لكلماته » فإن الكلمة الالهية اذا لم تقبل تبديلاً من مبدل سواء كان المبدل هو نفسه تعالى كأن ينقض ما قضى بتبدل إرادة أو يخلف ميعاده، أو كان المبدل غيره تعالى كأن يعجزه غيره ويقهره على خلاف ما يريد كانت كلمته صدقاً تقع كما قال، وعدلاً لا تنحرف عن حالها التي كانت عليها وصفها الذي وصفت به فالجملة أعني قوله : « لا مبدل لكلماته » بمنزلة التعليل يعلل بها قوله : « صدقاً وعدلاً ».

وقوله تعالى : « وهو السميع العليم » أي السميع المستجيب لما تدعونه بلسان حاجتكم، العليم بحقيقة ما عندكم من الحاجة، أو السميع بما يحدث في ملكه بواسطة الملائكة الرسل، والعليم بذلك من غير واسطة، أو السميع لأقوالكم، العليم بأفعالكم.

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الى آخر الآية ؛ الخرص الكذب والتخمين، والمعنى الثاني هو الأنسب بسياق الآية فإن الجملة أعني قوله : « وإن هم إلا يخرصون » والتي قبلها أعني قوله : « إن لا يتبعون إلا الظن » واقعتان موقع التعليل لقوله : « وإن تطع أكثر من في الأرض » الخ ؛ واتباع الظن والقول بالخرص والتخمين سببان بالطبع للضلال في الامور التي لا يسوغ الاعتماد فيها إلا على العلم واليقين كالمعارف الراجعة إليه تعالى والشرائع المأخوذة من قبله.

وسير الإنسان وسلوكه الحيوي في الدنيا وإن كان لا يتم دون الركون الى الظن والإستمداد من التخمين حتى أن الباحث عن علوم الانسان الإعتبارية والعلل والأسباب التي تدعوه الى

صوغه لها وتقليبها في قالب الاعتبار. وارتباطها بشؤنه الحيوية وأعماله وأحواله لا يكاد يجد مصداقاً يركن الإنسان فيه الى العلم الخالص واليقين المحض اللهم إلا بعض الكليات النظرية التي ينتهي إليها مما يضطر الى الإذعان بها والاعتماد عليها.

إلا أن ذلك كله فيما يقبل التقريب والتخمين من جزئيات الامور في الحياة، وأما السعادة الإنسانية التي فيه فوز هذا النوع وفلاحه، والشقاء الذي يرتبط به الهلاك الأبدي والخسران الدائم، وما يتوقف عليه التبصر فيهما من النظر في العالم وصانعه والغرض من إيجاده وما ينتهي إليه الأمر من البعث والنشور وما يتعلق به من النبوة والكتاب والحكم فإن ذلك كله مما لا يقبل الركون الى الظن والتخمين والله سبحانه لا يرتضي من عباده في ذلك إلا العلم واليقين، والآيات في ذلك كثيرة جداً كقوله تعالى: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ (الإسراء / ٣٦).

ومن أوضحها دلالة هذه الآية التي نحن فيها يبيّن فيها أن أكثر اهل الأرض لركونهم العام الى الظن والتخمين لا يجوز طاعتهم فيما يدعون إليه ويأمرون به في سبيل الله وطريق عبوديته لأن الظن ليس مما يكشف به الحق الذي يستراح إليه في أمر الربوبية والعبودية لملازمته الجهل بالواقع وعدم الاطمئنان إليه، ولا عبودية مع الجهل بالرب وما يريده من عبده.

فهذا هو الذي يقضي به العقل الصريح، وقد أمضاه الله سبحانه كما في قوله في الآية التالية في معنى تعليل النهي عن الطاعة: ﴿إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ حيث علل الحكم بعلم الله دون حكم العقل، وقد جمع سبحانه بين الطريقين جميعاً في قوله: ﴿وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ ـ وهذا أخذ بحكم العقل ـ ﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾ (النجم / ٣٠) وفي ذيل الآية استناد الى علم الله سبحانه وحكمه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

ذكروا أن «أعلم» إذا لم يتم بمن ربما أفاد معنى التفضيل وربما استعمل بمعنى الصفة خالية عن التفضيل، والآية تحتمل المعنيين جميعاً إن أُريد حقيقة العلم بالضالين والمهتدين فهو لله سبحانه لا يشاركه فيها أحد حتى يفضل عليه، وإن اريد مطلق العلم أعم مما كان المتصف به متصفاً بذاته أو كان اتصافه به بعطية منه تعالى كان المتعين هو معنى التفضيل فإن لغيره تعالى علماً بالضال والمهتدي قدر ما أفاضه الله عليه من العلم.

وتعدّي أعلم بالباء في قوله: «أعلم بالمهتدين» يدل على أن قوله: «من يضل» منصوب بنزع الخافض والتقدير: «أعلم بمن يضل» ويؤيده ما نقلناه آنفاً من آية سورة النجم.

قوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ لما تمّهد ما قدّمه من البيان الذي هو حجة على أن الله سبحانه هو أحق بأن يطاع من غيره استنتج منه وجوب الأخذ بالحكم الذي شرّعه وهو الذي يدل عليه هذه الآية، ووجوب رفض ما يبيحه غيره بهواه من غير علم ويجادل المؤمنين فيه بوحي الشياطين إليه، وهو الذي يدل عليه قوله: «ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه» الى آخر الآية.

ومن هنا يظهر أن العناية الأصلية متعلقة بجملتين من بين الجمل المتسقة في الآية الى تمام أربع آيات، وسائر الجمل مقصودة بتبعها يبين بها ما يتوقف عليه المطلوب بجهاته فأصل الكلام: فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه أي فرّقوا بين المذكى والميتة فكلوا من هذه ولا تأكلوا من ذاك، وإن كان المشركون يجادلونكم في أمر التفريق.

فقوله: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ ﴾ تفريع للحكم على البيان السابق، ولذا أردفه بقوله: «إن كنتم بآياته مؤمنين» والمراد بما ذكر اسم الله عليه الذبيحة المذكّاة.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ الى آخر الآية: بيان تفصيلي لإجمال التفريع الذي في الآية السابقة، والمعنى: أن الله فصل لكم ما حرّم عليكم واستثنى صورة الاضطرار وليس فيما فصّل لكم ما ذكر اسم الله عليه فلا بأس بأكله وإن كثيراً

ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين المتجاوزين عن حدوده وهؤلاء هم المشركون القائلون: لا فرق بين ما قتلتموه أنتم وما قتله الله فكلوا الجميع أو دعوا الجميع.

ويظهر بما مر أن معنى قوله: «وما لكم أن لا تأكلوا» ما لكم من نفع في أن لا تأكلوا، وما للاستفهام التعجبي، وقيل: المعنى ليس لكم أن لا تأكلوا، وما للنفي.

ويظهر من الآية أن محرّمات الأكل نزلت قبل سورة الأنعام وقد وقعت في سورة النحل من السور المكية فهي نازلة قبل الأنعام.

قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ الى آخر الآية؛ وإن كانت مطلقة بحسب المضمون تنهى عن عامة الإثم ظاهره وباطنه غير أن ارتباطها بالسياق المتصل الذي لسابقتها ولاحقتها يقضي بكونها تمهيداً للنهي الآتي في قوله: «ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق» ولازم ذلك أن يكون الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه من مصاديق الإثم حتى يرتبط بالتمهيد السابق عليه فهو من الإثم الظاهر أو الباطن لكن التأكيد البليغ الذي في قوله: «وإنه لفسق» يفيد أنه من الإثم الباطن وإلا لم تكن حاجة الى تأكيده ذاك التأكيد الأكيد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ تعليل للنهي وإنذار بالجزاء السيء.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ نهي هو زميل قوله «وكلوا مما ذكر اسم الله عليه» كما تقدم.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ الى آخر الآية؛ بيان لوجه النهي وتثبيت له أما قوله: «وإنه لفسق» فهو تعليل والتقدير: إنه لفسق وكل فسق يجب اجتنابه فالأكل مما لم يذكر اسم الله عليه واجب الاجتناب.

وأما قوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ ففيه رد ما كان المشركون يلقونه الى المؤمنين من الشبهة، والمراد بأولياء الشياطين هم المشركون، ومعناه أن

ما يجادلكم به المشركون وهو قولهم: إنكم تأكلون مما قتلتم ولا تأكلون مما قتله الله يعنون الميتة، هو مما أوحاه إليهم الشياطين من باطل القول، والفارق أن أكل الميتة فسق دون أكل المذكى، وأن الله حرَّم أكل الميتة ولم يحرم أكل المذكى فليس فيما حرَّمه الله ذكر ما ذكر اسم الله عليه.

وأما قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ فهو تهديد وتخويف بالخروج من الايمان، والمعنى: إن أطعتم المشركين في أكل الميتة الذي يدعونكم إليه صرتم مشركين مثلهم إما لأنكم استننتم بسنَّة المشركين، أو لأنكم بطاعتهم تكونوا أولياء لهم فتكونون منهم قال تعالى: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ (المائدة / ٥١).

ووقوع هذه الجملة أعني قوله: «وإن أطعمتموهم» الخ؛ في ذيل النهي عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه دون الأمر بأكل ما ذكر اسم الله عليه يدل على أن المشركين كانوا يريدون من المؤمنين بجدالهم أن لا يتركوا أكل الميتة لا أن يتركوا أكل المذكى.

١٢٢ ● أَوَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ.

١٢٣ ● وَكَذٰلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها وَما يَمْكُرُونَ إِلّا بِأَنْفُسِهِمْ وَما يَشْعُرُونَ.

١٢٤ ● وَإِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتّىٰ نُؤْتىٰ مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللّٰهِ اللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللّٰهِ وَعَذابٌ شَدِيدٌ بِما كانُوا يَمْكُرُونَ.

١٢٥ ● فَمَنْ يُرِدِ اللّٰهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ
يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمٰا يَصَّعَّدُ فِي السَّمٰاءِ
كَذٰلِكَ يَجْعَلُ اللّٰهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ.
١٢٦ ● وَهٰذٰا صِرٰاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الآيٰاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ.
١٢٧ ● لَهُمْ دٰارُ السَّلاٰمِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَوَ مَنْ كٰانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنٰاهُ وَجَعَلْنٰا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّٰاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمٰاتِ لَيْسَ بِخٰارِجٍ مِنْهٰا﴾ الآية واضحة المعنى وهي بحسب ما يسبق الى الفهم البسيط الساذج مثل مضروب لكل من المؤمن والكافر يظهر بالتدبر فيه حقيقة حاله في الهدى والضلال.

فالانسان قبل أن يمسه الهدى الإلهي كالميت المحروم من نعمة الحياة الذي لا حس له ولا حركة فإن آمن بربه إيماناً يرتضيه كان كمن أحياه الله بعد موته، وجعل له نوراً يدور معه حيث دار يبصر في شعاعه خيره من شره ونفعه من ضره فيأخذ ما ينفعه ويدع ما يضره وهكذا يسير في مسير الحياة.

وأما الكافر فهو كمن وقع في ظلمات لا مخرج له منها لا مناص له عنها ظلمة الموت وما بعد ذلك من ظلمات الجهل في مرحلة تمييز الخير من الشر والنافع من الضار. ونظير هذه الآية في معناها بوجه قوله تعالى: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله﴾ (الأنعام / ٣٦) وقال تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ (النحل / ٩٧).

في الكلام استعارة الموت للضلال واستعارة الحياة للإيمان أو الاهتداء والإحياء للهداية الى الايمان والنور للتبصر بالأعمال الصالحة، والظلمة للجهل كل ذلك في مستوى التفهيم والتفهّم العموميّين لما أن أهل هذا الظرف لا يرون للإنسان بما هو إنسان حياة وراء الحياة الحيوانية التي هي المنشأ للشعور باللذائذ المادية والحركة الارادية نحوها.

فهؤلاء يرون أن المؤمن والكافر لا يختلفان في هذه الموهبة وهي فيهما شرع سواء فلا محالة عد المؤمن حياً بحياة الايمان ذا نور يمشي به في الناس، وعد الكافر ميتاً بميتة الضلال في ظلمات لا مخرج منها ليس إلا مبتنياً على عناية تخييلية واستعارة تمثيلية يمثل بها حقيقة المعنى المقصود.

لكن التدبر في أطراف الكلام والتأمل فيما يعرّفه القرآن الكريم يعطي للآية معنى وراء هذا الذي يناله الفهم العامي فإن الله سبحانه ينسب للإنسان الالهي في كلامه حياة خالدة أبدية لا تنقطع بالموت الدنيوي هو فيها تحت ولاية الله محفوظ بكلاءته مصون بصيانته لا يمسه نصب ولا لغوب، ولا مذلة شقاء ولا تعب، مستغرب في حب ربه مبتهج ببهجة القرب لا يرى إلا خيراً، ولا يوجه إلا سعادة وهو في أمن وسلام لا خوف معه ولا خطر، وسعادة وبهجة ولذة لا نفاذ لها ولا نهاية لأمدها.

ومن كان هذا شأنه فإنه يرى ما لا يراه الناس، ويسمع ما لا يسمعونه، ويعقل ما لا يعقلونه، ويريد ما لا يريدونه وإن كانت ظواهر أعماله وصور حركاته وسكناته تحاكي أعمال غيره وحركاتهم سكناتهم وتشابهها فله شعور وإرادة فوق ما لغيره من الشعور والإرادة فعنده من الحياة التي هي منشأ الشعور والإرادة ما ليس عند غيره من الناس فللمؤمن مرتبة من الحياة ليست عند غيره.

فقوله: ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ أي ضالاً من حيث نفسه أو ضالاً كافراً قبل أن يؤمن بربه وهو نوع من الموت فأحييناه بحياة الإيمان أو الهداية والمآل واحد ـ وجعلنا له

نوراً أي علماً متولداً من إيمانه كما قال ﷺ فيما رواه الفريقان: «من عمل بما علم رزقه الله علم ما لم يعلم أو علمه الله ما لم يعلم». فإن روح الإيمان اذا تمكنت من نفس الإنسان واستقرت فيها حوّلت الآراء والأعمال الى صور تناسبها ولا تخالفها وكذلك سائر الملكات أعم من الفضائل والرذائل اذا استقرت في باطن الانسان لم تلبث دوراً تحوّل آراءه واعماله الى أشكال تحاكيها.

قوله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكٰافِرِينَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ظاهر سياق صدر الآية أن يكون التشبيه في قوله: «كذلك» من قبيل تشبيه الفرع بالأصل بعناية إعطاء القاعدة الكلية كقوله تعالى: ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾ وقوله: ﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾ (الرعد / ١٧) أي اتخذ ما ذكرناه من المثل أصلاً وقس عليه كل ما عثرت به من مثل مضروب فمعنى قوله: «كذلك زين» الخ؛ على هذا المثال المذكور أن الكافر لا يخرج له من الظلمات، زين للكافرين أعمالهم فقد زينت لهم أعمالهم زينة تجذبهم إليها وتحبسهم ولا تدعهم يخرجوا منها الى فضاء السعادة وفسحة النور أبداً والله لا يهدي القوم الظالمين.

قوله تعالى: ﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْنٰا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكٰابِرَ مُجْرِمِيهٰا﴾ الى آخر الآية؛ كأن المراد بالآية أنا أحيينا جمعاً وجعلنا لهم نوراً يمشون به في الناس، وآخرين لم نحيهم فكثوا في الظلمات فهم غير خارجين منها ولا أن أعمالهم المزينة تنفعهم وتخلصهم منها كذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها بالدعوة الدينية والنبي والمؤمنين لكنه لا ينفعهم فإنهم في ظلمات لا يبصرون بل إنما يمكرون بأنفسهم ولا يشعرون.

وعلى هذا فقوله: «كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون» مسوق لبيان أن أعمالهم المزينة لهم لا تنفعهم في استخلاصهم من الظلمات التي هم فيها، وقوله: «وكذلك جعلنا في كل قرية» الخ؛ مسوق لبيان أن أعمالهم ومكرهم لا يضر غيرهم إنما ويقع مكرهم على أنفسهم وما يشعرون لمكان ما غمرهم من الظلمة.

والجعل في قوله: «وجعلنا في كل قرية أكابر مجرميها» كالجعل في قوله: «وجعلنا له نوراً» فالأنسب أنه بمعنى الخلق. والمعنى: خلقنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وكون مكرهم غاية للخلقة وغرضاً للجعل نظير كون دخول النار غرضاً إلهياً في قوله: ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ﴾ (الأعراف / ١٧٩) وقد مر الكلام في معنى ذلك في مواضع من هذا الكتاب. وإنما خص بالذكر أكابر مجرميها لأن المطلوب بيان رجوع المكر الى ما كره، والمكر بالله وآياته إنما يصدر منهم، وأما أصاغر المجرمين وهم العامة من الناس فإنما هم أتباع وأذناب.

وأما قوله: ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ فذلك أن المكر هو العمل الذي يستبطن شراً وضراً يعود الى الممكور به فيفسد به غرضه المطلوب ويضل به سعيه ويبطل نجاح عمله، ولا غرض لله سبحانه في دعوته الدينية، ولا نفع فيها إلا ما يعود الى نفس المدعوّين فلو مكر الإنسان مكراً بالله وآياته ليفسد بذلك الغرض من الدعوة ويمنع عن نجاح السعي فيها فإنما مكر بنفسه من حيث لا يشعر: واستضر بذلك هو نفسه دون ربه.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ ـ الى قوله ـ رِسَالَتَهُ ﴾ قولهم: «لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أُوتي رسل الله» يريدون به أن يؤتوا نفس الرسالة بما لها من مواد الدعوة الدينية دون مجرد المعارف الدينية من أُصول وفروع وإلا كان اللفظ المناسب له أن يقال: «مثل ما أُوتي أنبياء الله» أو ما يشاكل ذلك كقولهم: ﴿ لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ﴾ (البقرة / ١١٨) وقولهم: ﴿ لولا أُنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ (الفرقان / ٢١).

فرادهم أنا لن نؤمن حتى نؤتى الرسالة كما أُوتيها الرسل، وفيه شيء من الاستهزاء فإنهم ما كانوا قائلين بالرسالة فهو بوجه نظير قولهم: ﴿ لولا نزل هذا القرآن على من رجل القريتين عظيم ﴾ (الزخرف / ٣١) كما أن جوابه نظير جوابه وهو قوله تعالى: ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ «الله أعلم حيث يجعل رسالته».

ومما تقدم يظهر أن الضمير في قوله: «وإذا جاءتهم آية قالوا» الخ: عائد الى «أكابر مجرميها» في الآية السابقة، اذ لو رجع الى عامة المشركين لغى قولهم: «حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله» اذ لا معنى لرسالة جميع الناس حيث لا أحد يرسلون إليه، ولم يقع قوله: «الله أعلم حيث يجعل رسالته» موقعه بل كان حق الجواب أنه لغو من القول كما عرفت.

ويؤيده الوعيد الذي في ذيل الآية: «سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون» حيث وصفهم بالاجرام وعلل الوعيد بمكرهم، ولم ينسب المكر في الآية السابقة إلا الى أكابر مجرميها. والصغار الهوان والذلة.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ الشرح هو البسط وقد ذكر الراغب في مفرداته أن أصله بسط اللحم ونحوه، وشرح الصدر الذي يعد في الكلام وعاءً للعلم والعرفان هو التوسعة فيه بحيث يسع ما يصادفه من المعارف الحقة ولا يدفع كلمة الحق اذا أُلقيت إليه كما يدل عليه ما ذكر في وصف الاضلال بالمقابلة وهو قوله: «يجعل صدره ضيقاً حرجاً» الخ: فمن شرح الله صدره للإسلام وهو التسليم لله سبحانه فقد بسط صدره ووسعه لتسليم ما يستقبله من قبله تعالى من اعتقاد حق أو عمل ديني صالح فلا يلقى إليه قول حق إلا وعاه ولا عمل صالح إلا أخذ به وليس إلا أن لعين بصيرته نوراً يقع على الاعتقاد الحق فينوره أو العمل الصالح فيشرقه خلاف من عميت عين قلبه فلا يميّز حقاً من باطل ولا صدقاً من كذب قال تعالى: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ (الحج / ٤٦).

وقد بيَّن تعالى شرح الصدر بهذا البيان في قوله: ﴿أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾ فوصفه فعرفه بأن صاحبه راكب نور من الله يشرق قدامه في مسيره ثم عرفه بالمقابلة بلينة في القلب يقبل به ذكر الله ولا يدفعه لقسوة ثم قال: ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم

تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فماله من هاد﴾ (الزمر / ٢٣) فذكر لين القلب الى ذكر الله وطوعه للحق وأفاد أن ذلك هو الهدى الإلهي الذي يهدي به من يشاء، وعند ذلك يرجع الآيتان أعني آية الزمر والآية التي نحن فيها الى معنى واحد وهو أن الله سبحانه عند هدايته عبداً من عباده يبسط صدره فيسع كل اعتقاد حق وعمل صالح ويقبله بلين ولا يدفعه بقسوة وهو نوع من النور المعنوي الذي ينور القول الحق والعمل الصالح وينصر صاحبه فيمسك بما نوّره فهذا معرّف يعرف به الهداية الإلهية.

ومن هنا يظهر أن الآية أعني قوله: «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام» بمنزلة بيان آخر لقوله: «أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس» والتفريع الذي في قوله: «فمن يرد الله» الخ؛ من قبيل تفريع أحد البيانين على الآخر بدعوى أنه نتيجته كأن التصادق بين البيانين يجعل أحدهما نتيجة مترتبة وفرعاً متفرعاً على الآخر، وهو عناية لطيفة.

والمعنى: فإذا كان من أحياه ا بعد ما كان ميتاً على هذه الصفة وهي أنه على نور من ربه يستضيء به له واجب الاعتقاد والعمل فيأخذ به فمن يرد الله أن يهديه يوسّع صدره لأن يسلم لربه ولا يستنكف عن عبادته فالاسلام نور من الله، والمسلمون لربهم على نور من ربهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً﴾ الى آخر الآية؛ الإضلال مقابل الهداية، ولذا كان أثره مقابلاً لأثرها وهو التضييق المقابل للشرح والتوسعة وأثره أن لا يسع ما يتوجه إليه من الحق والصدق، ويتحرج عن دخولها فيه، ولذا أردف كون الصدر ضيقاً بكونه حرجاً.

والحرج على ما في المجمع أضيق الضيق، وقال في المفردات: أصل الحرج والحراج مجتمع الشيء وتصور منه ضيق ما بينها فقيل للضيق حرج وللإثم حرج. انتهى.

فقوله: ﴿حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ في محل التفسير لقوله: «ضيقاً»

وإشارة الى أن ذلك نوع من الضيق يناظر بوجه التضيق والتحرج الذي يشاهد من الظروف والأوعية اذا أُريد إدخال ما هو أعظم منها ووضعه فيها.

وقوله: ﴿كَذٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إعطاء ضابط كلي في إضلال الذين لا يؤمنون أنهم يفقدون حال التسليم لله والانقياد للحق. وقد أُطلق عدم الايمان وإن كان مورد الآيات عدم الايمان بالله سبحانه وهو الشرك به لكن الذي سبق من البيان في الآية يشمل عدم الايمان بالله وهو الشرك، وعدم الايمان بآيات الله وهو رد بعض ما أنزله الله من المعارف والأحكام فقد دل على ذلك كله بقوله: «ويشرح صدره للإسلام» الخ؛ وبقوله سابقاً: «وجعلنا له نوراً يمشي به» الخ؛ وقوله: «يجعل صدره ضيقاً حرجاً» الخ؛ وبقوله سابقاً: «في الظلمات ليس بخارج منها».

وقد سمى في الآية الضلال الذي يساوق عدم الايمان رجساً والرجس هو القذر غير أنه اعتبر فيه نوعاً من الاستعلاء الدال عليه قوله: «على الذين لا يؤمنون» كأن الرجس يعلوهم ويحيط بهم فيحول بينهم وبين غيرهم فيتنفر منهم الطباع كما يتنفر من الغذاء الملطخ بالقذر.

وقد استدل بالآية على أن الهدى والضلال من الله لا صنع فيهما لغيره تعالى وهو خطأ فإن الآية ـ كما عرفت ـ في مقام بيان حقيقة الهدى والضلال اللذين من الله ونوع تعريف لهما وتحديد لا في مقام بيان انحصارهما فيه وانتفائهما عن غيره كما هو المدعى وهو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَهٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً﴾ إلى آخر الآية. الاشارة الى ما تقدم بيانه في الآية السابقة من صنعه عن الهداية والاضلال وقد تقدم معنى الصراط واستقامته وقد بيّن تعالى في الآية عما ذكره من شرح الصدر للاسلام اذا اراد الهداية ومن جعل الصدر ضيقاً حرجاً عن ارادة الاضلال هو صراطه المستقيم وسنته الجارية التي لا تختلف ولا تتخلف فما من مؤمن إلا وهو منشرح الصدر للاسلام بالله وغير المؤمن بالعكس من ذلك.

فقوله تعالى: ﴿وَهٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً﴾ بيان ثان وتأكيد لكون المعرف المذكور في الاية السابقة معرّفاً جامعاً مانعاً للهداية والضلالة ثم أكد سبحانه البيان بقوله «قد بيّنا الآيات لقوم يذكّرون» أي إن القول حق بيّن عند من تذكر ورجع الى ما أودعه الله في نفسه من المعارف الفطرية والعقائد الأولية التي بتذكرها يهتدي الإنسان الى معرفة كل حق وتمييزه من الباطل، والبيان مع ذلك لله سبحانه فإنه هو الذي يهدي الإنسان الى النتيجة بعد هدايته الى الحجة.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ المراد بالسلام هو معناه اللغوي ـ على ما يعطيه ظاهر السياق ـ وهو التعري من الآفات الظاهرة والباطنة، ودار السلام هي المحل الذي لا آفة تهدد من حل فيه من موت وعاهة ومرض وفقر واي عدم وفقد آخر وغم وحزن. وهذه هي الجنة الموعودة ولا سيا بالنظر الى تقييده بقوله: «عند ربهم».

نعم اولياء الله تعالى يجدون في هذه النشأة ما وعدهم الله من إسكانهم دار السلام لأنهم يرون الملك لله فلا يملكون شيئاً حتى يخافوا فقده أو يحزنوا لفقده قال تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (يونس / ٦٢) وهم لا شغل لهم إلا بربهم خلوا به في حياتهم فلهم دار السلام عند ربهم ـ وهم قاطنون في هذه الدنيا ـ وهو وليهم بما كانوا يعملون وهو سيرهم في الحياة بنور الهداية الإلهية الذي جعله في قلوبهم، ونوّر به أبصارهم وبصائرهم.

وربما قيل: المراد بالسلام هو الله، وداره الجنة. والسياق يأباه وضمائر الجمع في الاية راجعة الى القوم في قوله: «لقوم يذكّرون» ـ على ما قيل ـ لأنه أقرب المراجع لرجوعها إليها غير أن التدبّر في الايات يؤيد رجوعها الى المهتدين بالهداية المذكورة بما أن الكلام فيهم والايات مسوقة لبيان حسن صنع الله بهم فالوعد الحسن المذكور يجب أن يعود إليهم، وأما

القوم المتذكرون فإنما ذكروا ودخلوا في غرض الكلام بالتبع [١][٢].

١٢٨ ❁ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ.

١٢٩ ❁ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ.

١٣٠ ❁ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ.

١٣١ ❁ ذَٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ.

١٣٢ ❁ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ.

١٣٣ ❁ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ.

١٣٤ ❁ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ.

١٣٥ ❁ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ.

---

١. الانعام ١٢٢ ـ ١٢٧: كلام في معنى الهداية الالهية.

٢. الانعام ١٢٢ ـ ١٢٧: بحث روائي: معنى الحياة والموت؛ القلب؛ شرح الصدر.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ ـ الى قوله ـ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ يقال: أكثر من الشيء أو الفعل واستكثر منه اذا أتى بالكثير. واستكثار الجن من الإنس ليس من جهة أعيانهم فإن الآتي بأعيانهم في الدنيا والمحضر لهم يوم القيامة هو الله سبحانه، وإنما للشياطين الاستكثار مما هم مسلطون عليه وهو إغواء الإنس من طريق ولايتهم عليهم وليست بولاية إجبار واضطرار بل من قبيل التعامل من الطرفين يتبع التابع المتبوع ابتغاء لما يرى في اتباعه من الفائدة. ويتولى المتبوع أمر التابع ابتغاء لما يستدر من النفع في ولايته عليه وإدارة شؤنه. فللجن نوع التذاذ من إغواء الإنس والولاية عليهم. وللإنس نوع التذاذ من اتباع الوساوس والتسويلات ليستدروا بذلك اللذائذ المادية والتمتعات النفسانية.

وهذا هو الذي يعترف به أولياء الجن من الإنس بقولهم: ربنا استمتع بعضنا ببعض فتمتعنا بوساوسهم وتسويلاتهم من متاع الدنيا وزخارفها، وتمتعوا منا بما كانت تشتهيه أنفسهم حتى آل أمرنا الى ما آل إليه.

ومن هنا يظهر ـ كما يعطيه السياق ـ أن المراد بالأجل في قولهم: «وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا» الحد الذي قدر لوجودهم والدرجة التي حصلت لهم من أعمالهم دون الوقت الذي ينتهي إليه أعمارهم وبعبارة اخرى آخر درجة نالوها من فعلية الوجود لا الساعة التي ينتهي إليها حياتهم فيرجع المعنى الى أن بعضنا استمتع ببعض بسوء اختياره وسيّء عمله فبلغنا بذلك السير الاختياري ما قدرت لنا من الأجل، وهو أنّا ظالمون كافرون.

فمعنى الآية: ويوم يحشرهم جميعاً ليتم أمر الحجاج عليهم فيقول للجن: يا معشر الجن قد استكثرتم من ولاية الإنس وإغوائهم، وقال أولياؤهم من الإنس في الاعتراف بحقيقة الأمر: ربنا استمتع بعضنا ببعض فاستمتعنا معشر الإنس من الجن بأن تمتعنا بزخارف الدنيا وما

تهواه أنفسنا بتسويلاتهم، وتمتع الجن منا باتباع ما كانوا يلقون إلينا من الوساوس وكنا على ذلك حتى بلغنا آخر ما بلغنا من فعلية الحياة الشقية ودرجة العمل.

فهذا اعتراف منهم بأن الأجل وإن كان بتأجيل الله سبحانه لكنهم إنما بلغوه بطيهم طريق تمتع البعض من البعض، وهو طريق سلكوه باختيارهم. ولا يبعد أن يستظهر من هنا أن المراد بالجن الشياطين الذين يوسوسون فيي صدور الناس من الجن.

قوله تعالى: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ الخ: هذا جواب منه سبحانه وقضاء عليه. ومتن ما قضى به قوله: «النار مثواكم» الخ.

والمثوى اسم مكان من قولهم: ثوى يثوي ثواءً أي أقام مع استقرار فقوله: النار مثواكم أي مقامكم الذي تستقرون فيه من غير خروج ولذا أكده بقوله؟ «خالدين فيها» وقوله «إلا ما شاء الله» استثناء يفيد أن القدرة الإلهية باقية مع ذلك على ما كانت فله مع ذلك أن يخرجكم منها وإن كان لا يفعل.

ثم تمم الآية بقوله: «إن ربك حكيم عليم» وهو يفيد تعليل البيان الواقع في الآية والخطاب للنبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فيه بيان أن جعله تعالى بعض الظالمين أولياء يجري على الحقيقة المبينة في الآية السابقة، وهو أن التابع يستمتع المتبوع من طريق تسويله وإغوائه فيكسب بذلك الذنوب والآثام حتى يجعل الله المتبوع ولياً عليه ويدخل التابع في ولايته.

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الباء للسببية أو المقابلة، وهو يفيد أن هذه التولية إنما هي بنحو المجازاة يجازي بها الظالمين في قبال ما اكتسبوه من المظالم لا تولية ابتدائية من غير ذنب سابق نظير ما في قوله: «يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين» (البقرة / ٢٦). وقد التفت في الآية من الغيبة الى التكلم ليختص النبي ﷺ ببيان هذه

الحقيقة فإنهم غير لاتقين بتلقيها وإنما التفت الى التكلم لأن التكلم هو المناسب للمسارة هذا وفي الآيات موارد أُخر من الالتفات لا يخفى وجهها على المتدبر.

قوله تعالى: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ الى آخر الاية. في هذا الخطاب دفع دخل يمكن أن يتوجه الى الحجة السابقة المأخوذة من اعترافهم بأنهم إنما وقعوا فيما وقعوا فيه من ولاية الشياطين بسوء اختيارهم.

وهو أنهم وإن ابتلوا بذلك من طريق الاختيار لكنهم لم يكونوا يعلمون أن هذه المعاصي والتمتعات سوف توردهم مورد الهلكة وتسجل عليهم ولاية الظالمين والشياطين ويخسرهم بالشقاء الذي لا سعادة بعده أبداً فهم كانوا على غفلة من ذلك وإن كانوا على علم في الجملة بمساءة أعمالهم وشناعة أفعالهم ومؤاخذة الغافل ظلم.

فدفعه الله سبحانه بهذا الخطاب الذي يسألهم فيه عن إتيان الرسل وذكرهم آيات الله وإنذارهم بيوم الجمع والحساب فلما شهدوا على أنفسهم بالكفر بما جاء به الرسل تمت الكلمة ولزمت الحجة.

فمعنى الآية: أنا نخاطبهم جميعاً فنقول لهم: يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم أرسلناهم إليكم يقصون عليكم آياتي التي تدل على الدين الحق، وينذرونكم لقاء يومكم هذا وهو يوم القيامة وأن الله سيوقفكم موقف المساءلة فيحاسبكم على أعمالكم ثم يجازيكم بما عملتم إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً فإذا سألناهم عن ذلك أجابونا وقالوا: شهدنا على أنفسنا أن الرسل أتونا وقصوا علينا آياتك، وأنذرونا لقاء يومنا هذا، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين بما جاء به الرسل رادين عليهم عن علم وما كانوا غافلين.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ الإشارة بقوله: «ذلك» إلى مضمون ما تقدم من البيان ـ على ما يعطيه السياق ـ وقوله: «أن لم يكن» بتقدير لام التعليل فالمعنى أن الذي بيّناه من إرسال الرسل والتذكير بالآيات والإنذار

بيوم القيامة إنما هو لان الله سبحانه ليس من سنته أن يهلك أهل القرى ويوردهم مورد السخط والعذاب وهم غافلون عما يريده منهم من الطاعة ويفعله بهم على تقدير المخالفة، وذلك ظلم منه تعالى.

فهم وإن نزلوا منزل الشقاء بتأجيل الله سبحانه وقضائه وجعله بعضهم أولياء بعض لكنه تعالى لم يسلبهم القدرة على الطاعة ولم يبطل منهم الاختيار فاختاروا الشرك والمعصية ثم أرسل إليهم رسلاً منهم يقصون عليهم آياته وينذرونهم لقاء يوم الحساب فكفروا بهم ومكثوا على بغيهم وعتوهم فجزاهم بولاية بعضهم بعضاً وقضى عليهم بأن النار مثواهم فهم أنفسهم استدعوا الهلاك عن علم وإرادة، ولم يهلكهم الله وهم غافلون حتى يكون يظلمهم فهو الحكم العدل تبارك اسمه.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ متعلق الكلم محذوف وهو الضمير الراجع الى الطائفتين. والمعنى: ولكل طائفة من طائفتي الجن والانس درجات من أعمالهم فإن الأعمال مختلفة وباختلافها يختلف ما توجبه من الدرجات، وما ربك بغافل عن أعمالهم.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ الى آخر الآية؛ بيان عام لنفي الظلم عنه تعالى في الخلقة.

وتوضيحه: أن الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه الذي ينبغي أن يوضع عليه وبعبارة أُخرى إبطال حق إنما يتحقق من الظلم بأخذ شيء أو تركه لأحد أمرين إما لحاجة منه إليه بوجه من الوجوه كأن يعود إليه أو الى من يهواه منه نفع أو يندفع عنه أو عما يعود إليه بذلك ضرر، وإما لا لحاجة منه إليه بل لشقوة باطنية وقسوة نفسانية لا يعبأ بها بما يقاسيه المظلوم من المصيبة ويكابده من المحنة. ليس ذلك منه لحاجة بل من آثار الملكة المشومة.

والله سبحانه منزه من هاتين الصفتين السيئتين فهو الغني الذي لا تمسه حاجة ولا يعرضه

فقر . وذو الرحمة المطلقة التي ينعم بها على كل شيء بما يليق بحاله فلا يظلم سبحانه أحداً . وهذا هو الذي يدل عليه قوله : «وربك الغني ذو الرحمة» الخ ؛ ومعنى الآية : وربك هو الذي يوصف بالغنى المطلق الذي لا فقر معه ولا حاجة ، وبالرحمة المطلقة التي وسعت كل شيء ومقتضى ذلك أنه قادر على أن يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء من الخلق برحمته والشاهد عليه أنه أنشأكم برحمته من ذرية قوم آخرين أذهبهم بغناه عنهم .

وفي قوله : ﴿ مَا يَشَاءُ ﴾ دون أن يقال : من يشاء ، إبهام للدلالة على سعة القدرة .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي الأمر الإلهي من البعث والجزاء وهو الذي توعدون من طريق الوحي لآت البتة وما أنتم بمعجزين لله حتى تمنعوا شيئاً من ذلك أن يتحقق فني الكلام تأكيد للوعد والوعيد السابقين .

قوله تعالى : ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ الى آخر الآية ؛ المكانة هي المنزلة والحالة التي يستقر عليها الشيء ، وعاقبة الشيء ما ينتهي إليه ، وهي في الأصل مصدر كالعقبى على ما قيل ، وقولهم : كانت له عاقبة الدار كناية عن نجاحه في سعيه وتمكنه مما قصده ، وفي الآية انعطاف الى ما بدىء به الكلام ، وهو قوله تعالى قبل عدة آيات : «اتبع ما أُوحي إليك من ربك لا إله هو وأعرض عن المشركين» .

والمعنى : قل للمشركين : يا قوم اعملوا على منزلتكم وحالتكم التي أنتم عليها من الشرك والكفر ـ وفيه تهديد بالأمر ـ ودوموا على ما أنتم عليه من الظلم إني عامل ومقيم على ما أنا عليه من الإيمان والدعوة الى التوحيد فسوف تعلمون من يسعد وينجح في عمله ، وأنا الناجح دونكم فإنكم ظالمون بشرككم والظالمون لا يفلحون في ظلمهم .

وربما قيل : إن قوله : «إني عامل» إخبار عن الله سبحانه أنه يعمل بما وعد به من البعث والجزاء ، وهو فاسد يدفعه سياق قوله : «فسوق تعلمون من تكون له عاقبة الدار» .

١٣٦ ● وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هٰذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهٰذا لِشُرَكائِنا فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكائِهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ.

١٣٧ ● وَكَذٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ.

١٣٨ ● وَقالُوا هٰذِهِ أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلَّا مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَأَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِراءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ.

١٣٩ ● وَقالُوا ما فِي بُطُونِ هٰذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلىٰ أَزْواجِنا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ.

١٤٠ ● قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِراءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَما كانُوا مُهْتَدِينَ.

١٤١ ● وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمّانَ مُتَشابِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ.

١٤٢ ● وَمِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّٰهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ.

١٤٣ ● ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ.

١٤٤ ● وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصّٰيكُمُ اللّٰهُ بِهٰذا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّٰهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ.

١٤٥ ● قُلْ لا أَجِدُ فِيما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلىٰ طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّٰهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

١٤٦ ● وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلاّ ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ ما اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذٰلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنّا لَصادِقُونَ.

١٤٧ ● فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ.

١٤٨ ● سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللّٰهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا

حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ كَذٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتّىٰ ذاقُوا
بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا
الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلّا تَخْرُصُونَ.
١٤٩ ● قُلْ فَلِلّٰهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ.
١٥٠ ● قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّٰهَ حَرَّمَ هٰذا فَإِنْ
شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا
وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلّٰهِ مِمّا ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ وَالأَنْعامِ نَصِيباً﴾ الى آخر الآية: الذرء الإيجاد على وجه الاختراع وكأن الأصل في معناه الظهور، والحرث الزرع، وقوله: «بزعمهم» في قوله: «فقالوا هذا لله بزعمه» نوع من التنزيه كقوله: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه﴾ (الأنبياء / ٢٦). والزعم الاعتقاد ويستعمل غالباً فيما لا يطابق الواقع منه.

وقوله: ﴿وَهٰذا لِشُرَكائِنا﴾ أضاف الشركاء إليهم لأنهم هم الذين أثبتوها واعتقدوا بها نظير أئمة الكفر وأئمتهم وأولياؤهم. وقيل: أُضيفت الشركاء إليهم لأنهم كانوا يجعلون بعض أموالهم لهم فيتخذونهم شركاء لأنفسهم.

وكيف كان فمجموع الجملتين أعني قوله: «فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا» من تفريع التفصيل على الإجمال يفسر به جعلهم لله نصيباً من خلقه. وفيه توطئة وتمهيد لتفريع حكم آخر عليه. وهو الذي يذكره في قوله: «فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله

فهو يصل الى شركائهم».

واذ كان هذا الحكم على بطلانه من أصله وكونه افتراءً على الله لا يخلو عن إزراء بساحته تعالى بتغليب جانب الأصنام على جانبه قبحه بقوله: «ساء ما يحكمون» ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ الى آخر الآية: قرأ غير ابن عامر «زين» بفتح الزاي فعل معلوم، و«قتل» بنصب اللام مفعول «زين» وهو مضاف الى «أولادهم» بالجر وهو مفعول «قتل» اضيف إليه، و«شركاؤهم» فاعل «زين».

والمعنى أن الأصنام بما لها من الوقع في قلوب المشركين والحب الوهمي في نفوسهم زينت لكثير من المشركين أن يقتلوا أولادهم ويجعلوهم قرابين يتقربون بذلك الى الآلهة كما يضبطه تاريخ قدماء الوثنيين والصابئين، وهذا غير مسألة الوأد الذي كانت بنو تميم من العرب يعملون به فإن المأخوذ في سياق الآية الأولاد دون البنات خاصة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ الى آخر الآية: الحجر بكسر الحاء المنع ويفسره قوله بعده: «لا يطعمها إلا من نشاء» أي هذه الأنعام والحرث حرام إلا على من نشاء أن نأذن لهم، وروي: أنهم كانوا يقدمونها لآلهتم ولا يحلون أكلها إلا لمن كان يخدم آلهتهم من الرجال دون النساء بزعمهم.

وقوله: ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ أي وقالوا: هذه أنعام حرمت ظهورها أو ولهم أنعام حرمت ظهورها، وهي السائبة والبحيرة والحامي التي نفاها الله تعالى في قوله: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾ (المائدة / ١٠٣) وقيل: هي بعض هؤلاء على الخلاف السابق في معناها في تفسير آية المائدة.

وقوله: ﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي ولهم أنعام. الخ: وهي الأنعام

التي كانوا يهلون عليها بأصنامهم لا باسم الله، وقيل: هي التي كانوا لا يركبونها في الحج، وقيل: أنعام كانوا لا يذكرون اسم الله عليها ولا في شأن من شؤنها، ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا﴾ الى آخر الآية، المراد بما في البطون أجنة البحائر والسيب، فقد كانوا يحلونها اذا ولدت حية للرجال دون النساء وإن ولدت ميتة أكله الرجال والنساء جميعاً، وقيل: المراد بها الألبان، وقيل: الأجنة والألبان جميعاً.

والمراد بقوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ سيجزيهم نفس وصفهم فإنه يعود وبالاً وعذاباً عليهم ففيه نوع من العناية، وقيل: التقدير: سيجزيهم بوصفهم، وقيل: التقدير: سيجزيهم جزاء وصفهم، فحذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الخ: رد لما حكي عنهم في الآيات السابقة من الأحكام المفتراة وهي قتل الأولاد وتحريم أصناف من الأنعام والحرث وذكر أن ذلك منهم خسران وضلال من غير اهتداء.

وقد وصف قتل الأولاد بأنه سفه بغير علم، وكذلك بدل الأنعام والحرث من قوله ما رزقهم الله ووصف تحريمها بأنه افتراء على الله ليكون في ذلك تنبيه كالتعليل على خسرانهم في ذلك كأنه قيل: خسروا في قتلهم أولادهم لأنهم سفهوا به سفهاً بغير علم، وخسروا في تحريمهم أصنافاً من الأنعام والحرث افتراء على الله لأنها من رزق الله وحاشاه تعالى أن يرزقهم شيئاً ثم يحرمه عليهم.

ثم بين ضلالهم في تحريم الحرث والأنعام مع كونها من رزق الله بياناً تفصيلياً بالاحتجاج من ناحية العقل ومصلحة معاش العباد بقوله: ﴿وهو الذي أنشأ جنات﴾ الى تمام أربع آيات؛ ثم من ناحية السمع ونزول الوحي بقوله: «قل لا أجد فيما أُوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه» الى تمام الآية.

فيكون محصل الآيات الخمس أن تحريمهم أصنافاً من الحرث والأنعام ضلال منهم لا يساعدهم على ذلك حجة فلا العقل ورعاية مصلحة العباد يدلهم على ذلك، ولا الوحي النازل من الله سبحانه يهديهم إليه فهم في خسران منه.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ـ الى قوله ـ وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾. الشجرة المعروشة هي التي ترفع أغصانها بعضاً على بعض بدعائم كالكرم وأصل العرش الرفع فالجنات المعروشات هي بساتين الكرم ونحوها، والجنات غير المعروشات ما كانت أشجارها قائمة على أصولها من غير دعائم.

وقوله: ﴿وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ﴾ أي ما يؤكل منه من الحبات كالحنطة والشعير والعدس والحمص.

وقوله: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ أي متشابه كل منها وغير متشابه على ما يفيده السياق، والتشابه بين الثمرتين باتحادهما في الطعم أو الشكل أو اللون أو غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ الى آخر الآية: الأمر للإباحة لوروده في رفع الحظر الذي يدل عليه إنشاء الجنات والنخل والزرع وغيرها، والسياق يدل على أن تقدير الكلام: وهو الذي أنشأ جنات والنخل والزرع، الخ؛ وأمركم بأكل ثمر ما ذكر وأمركم بإيتاء حقه يوم حصاده، ونهاكم عن الإسراف. فأي دليل أدل من ذلك على إباحتها؟

وقوله: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ أي الحق الثابت فيه المتعلق به فالضمير راجع الى الثمر وأُضيف إليه الحق لتعلقه به كما يضاف الحق أيضاً الى الفقراء لارتباطه بهم وربما احتمل رجوع الضمير الى الله كالضمير الذي بعده في قوله: «إنه لا يحب المسرفين» وإضافته إليه تعالى لانتسابه إليه بجعله.

وهذا إشارة الى جعل حق ما للفقراء في الثمر من الحبوب والفواكه يؤدي إليهم يوم الحصاد

يدل عليه العقل ويمضيه الشرع وليس هو الزكاة المشرعة في الإسلام اذ ليست في بعض ما ذكر في الآية زكاة. على أن الآية مكية وحكم الزكاة مدني.

نعم لا يبعد أن يكون أصلاً لتشريعها فإن أُصول الشرائع النازلة في السور المدنية نازلة على وجه الإجمال والإبهام في السور المكية كقوله تعالى بعد عدة آيات عند تعداد كليات المحرمات: ﴿ **قل تعالوا أُتل ما حرم ربكم ـ الى أن قال ـ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن** ﴾ (الأنعام / ١٥١).

وقوله: ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ الخ: أي لا تتجاوزوا الحد الذي يصلح به معاشكم بالتصرف فيه فلا يتصرف صاحب المال منكم بالإسراف في أكله أو التبذير في بذله أو وضعه في غير موضعه من معاصي الله وهكذا، ولا يسرف الفقير الآخذ بتضييعه ونحو ذلك. ففي الكلام إطلاق، والخطاب فيه لجميع الناس.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً ﴾ الى آخر الآية: الحمولة أكابر الأنعام لإطاقتها الحمل، والفرش أصاغرها لأنها كأنها تفترش على الأرض أو لأنها توطأ كما يوطأ الفرش، وقوله: «كلوا مما رزقكم الله» إباحة للأكل وإمضاء لما يدل عليه العقل نظير قوله في الآية السابقة: «كلوا من ثمره» وقوله: «لا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين» أي لا تسيروا في هذا الأمر المشروع إباحته باتباع الشيطان بوضع قدمكم موضع قدمه بأن تحرموا ما أحله، وقد تقدم أن المراد باتباع خطوات الشيطان تحريم ما أحله الله بغير علم.

قوله تعالى: ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ﴾ الى آخر الآية: تفصيل للأنعام بعد الإجمال والمراد به تشديد اللوم والتوبيخ عليهم ببسطه على كل صورة من الصور والوجوه، فقوله: «ثمانية أزواج» عطف بيان من «حمولة وفرشاً» في الآية السابقة.

والأزواج جميع زوج، ويطلق الزوج على الواحد الذي يكون معه آخر وعلى الاثنين،

وأنواع الأنعام أربعة: الضأن والمعز والبقر والإبل، واذا لوحظت ذكراً وانثى كانت ثمانية أزواج.

والمعنى: أنشأ ثمانية أزواج من الضأن زوجين اثنين هما الذكر والانثى ومن المعز زوجين اثنين كالضأن قل آلذكرين من الضأن والمعز حرم الله أم الانثيين منهما أم حرم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين من الضأن والمعز نبئوني ذلك بعلم إن كنتم صادقين.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ -الى قوله- الْأُنْثَيَيْنِ﴾ معناه ظاهر مما مر، وقيل: المراد بالاثنين في المواضع الأربعة من الآيتين الأهلي والوحشي.

قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا﴾ الى آخر الآية: هذا شق من ترديد حذف شقه الآخر على ما يدل عليه الكلام، وتقديره: أعلمتم ذلك من طريق الفكر كعقل أو سمع أم شاهدتم تحريم الله ذلك وشافهتموه فادعيتم ذلك.

وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ الخ: تفريع على ما قبله باعتبار دلالته على انقطاعهم عن الجواب وعلى ذلك فمعناه: فمن أظلم منكم، ويكون قوله: «ممن افترى» الخ: كناية عن المشركين المخاطبين وضع موضع ضمير الخطاب الراجع إليهم ليدل به على سبب الحكم المفهوم من الاستفهام الإنكاري والتقدير: لا أظلم منكم لأنكم افتريتم على الله كذباً لتضلوا الناس بغير علم، واذ ظلمتم فإنكم لا تهتدون إن الله لا يهدي القوم الظالمين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ الخ: معنى الآية ظاهر، وقد تقدم في نظيره الآية من سورة المائدة آية ٣، وفي سوره البقرة آية ١٧٣ ما ينفع في المقام.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ الخ: الظفر واحد الأظفار وهو العظم النابت على رؤوس الأصابع، والحوايا المباعر قال في المجمع: موضع

الحوايا يحتمل أن يكون رفعاً عطفاً على الظهور وتقديره: أو ما حملت الحوايا، ويحتمل أن يكون نصباً عطفاً على ما في قوله: «إلا ما حملت» فأما قوله: «أو ما اختلط بعظم» فإن ما هذه معطوفة على ما الاول (انتهى) والوجه الأول أقرب.

ثم قال: ذلك في قوله ـ ذلك جزيناهم ـ يجوز أن يكون منصوب الموضع بأنه مفعول ثان لجزيناهم التقدير: جزيناهم ذلك ببغيهم، ولا يجوز أن يرفع بالإبتداء لأنه يصير التقدير: ذلك جزيناهموه فيكون كقولهم: زيد ضربت أي ضربته، وهذا إنما يجوز في ضرورة الشعر. انتهى.

والآية كأنها في مقام الاستدراك ودفع الدخل ببيان أن ما حرم الله على بني إسرائيل من طيبات ما رزقهم إنما حرمه جزاء لبغيهم فلا ينافي ذلك كونه حلاً بحسب طبعه الأوّلي كما يشير الى ذلك قوله: ﴿كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة﴾ (آل عمران / ٩٣) وقوله: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أُحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً﴾ (النساء / ١٦٠).

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ﴾ الى آخر الآية؛ معنى الآية ظاهر، وفيها أمر بإنذارهم وتهديدهم إن كذبوا بالبأس الإلهي الذي لا مرد له لكن لا ببيان يسلط عليهم اليأس والقنوط بل بما يشوبه بعض الرجاء، ولذلك قدم عليه قوله: «ربكم ذو رحمة واسعة».

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية تذكر احتجاجهم بهذه الحجة ثم ترد عليهم بأنهم جاهلون بها وإنما يركنون فيها الى الظن والتخمين، والكلمة كلمة حق وردت في كثير من الآيات القرآنية لكنها لا تنتج ما قصدوه منها.

فإنهم إنما احتجوا بها لإثبات أن شركهم وتحريمهم ما رزقهم الله بإمضاء من الله سبحانه لا بأس عليهم في ذلك فحجتهم أن الله لو شاء منا خلاف ما نحن عليه من الشرك والتحريم لكنا

مضطرين على ترك الشرك والتحريم فإذ لم يشأ كان ذلك إذناً في الشرك والتحريم فلا بأس بهذا الشرك والتحريم.

وهذه الحجة لا تنتج هذه النتيجة وإنما تنتج أن الله سبحانه اذ لم يشأ منهم ذلك لم يوقعهم موقع الاضطرار والإجبار فهم مختارون في الشرك والكف عنه وفي التحريم وتركه فله تعالى أن يدعوهم الى الايمان به ورفض الافتراض فلله الحجة البالغة ولا حجة لهم في ذلك إلا اتباع الظن والتخمين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَدٰاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كأن الفاء الاولى لتفريع مضمون الجملة على ما تقدم من قولهم: «لو شاء الله ما أشركنا» الخ؛ والفاء الثانية للتعليل فيكون الكلام من قبيل قلب الحجة على الخصم بعد بيان مقتضاها.

والمعنى ان نتيجة الحجة قد التبست عليكم بجهلكم واتباعكم الظن وخرصكم في المعارف الإلهية فحجتكم تدل على أن لا حجة لكم في دعوته إياكم الى رفض الشرك وترك الافتراء عليه، وإن الحجة إنما هي لله عليكم فإنه لو شاء لهداكم أجمعين وأجبركم على الايمان وترك الشرك والتحريم، واذ لم يجبركم على ذلك وأبقاكم على الاختيار فله أن يدعوكم الى ترك الشرك والتحريم.

وبعبارة أُخرى: يتفرع على حجتكم أن الحجة لله عليكم لأنه لو شاء لأجبر على الايمان فهداكم أجمعين، ولم يفعل بل جعلكم مختارين يجوز بذلك دعوتكم الى ما دعاكم إليه.

وقد بيّن تعالى في طائفة من الآيات السابقة أنه تعالى لم يضطر عباده على الايمان ولم يشأ منهم ذلك بالمشية التكوينية حتى يكونوا مجبرين عليه بل أذن لهم في خلافه وهذا الإذن الذي هو رفع المانع التكويني هو اختيار العباد وقدرتهم على جانبي الفعل والترك، وهذا الإذن لا ينافي الأمر التشريعي بترك الشرك مثلاً بل هو الأساس الذي يبتني عليه الأمر والنهي.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ﴾ الى آخر الآية: هلم شهداءكم أي هاتوا شهداءكم وهو اسم فعل يستوي فيه المفرد والمثنى والمجموع، والمراد بالشهادة شهادة الأداء، والإشارة بقوله: «هذا» الى ما ذكر من المحرمات عندهم، والخطاب خطاب تعجيزي أمر به الله سبحانه ليكشف به أنهم مفترون في دعواهم أن الله حرم ذلك فهو كناية عن عدم التحريم.

وقوله: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ في معنى الترقي، والمعنى: لا شاهد فيهم يشهد بذلك فلا تحريم حتى أنهم لو شهدوا بالتحريم فلا تشهد معهم اذ لا تحريم ولا يعبأ بشهادتهم فإنهم قوم يتبعون أهواءهم.

فقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الخ: عطف تفسير لقوله: «فإن شهدوا فلا تشهد معهم» أي أن شهادتك اتباع لأهوائهم كما أن شهادتهم من اتباع الأهواء وكيف لا؟ وهم قوم كذبوا بآيات الله الباهرة، ولا يؤمنون بالآخرة ويعدلون بربهم غيره من خلقه كالأوثان، ولا يجترىء على ذلك مع كمال البيان وسطوع البرهان إلا الذين يتبعون الأهواء[1].

١٥١ ❁ قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً
وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ
نَرْزُقُكُمْ وَإِيّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ
وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلّا بِالْحَقِّ ذٰلِكُمْ وَصّيكُمْ بِهِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

---

١. الانعام ١٢٦ ـ ١٥٠: بحث روائي في المشركين وسننهم: ما احل الله وما حرّم.

١٥٢ ● وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلّا وُسْعَها وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كانَ ذا قُرْبىٰ وَبِعَهْدِ اللّٰهِ أَوْفُوا ذٰلِكُمْ وَصّٰيكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.

١٥٣ ● وَأَنَّ هٰذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذٰلِكُمْ وَصّٰيكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.

١٥٤ ● ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ.

١٥٥ ● وَهٰذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ.

١٥٦ ● أَنْ تَقُولُوا إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلىٰ طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا وَإِنْ كُنّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ.

١٥٧ ● أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنّا أَهْدىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللّٰهِ وَصَدَفَ عَنْها سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾

قيل: تعال مشتق من العلو وهو أمر بتقدير أن الآمر في مكان عال وإن لم يكن الأمر على ذلك

بحسب الحقيقة. والتلاوة قريب المعنى من القراءة وقوله: «عليكم» متعلق بقوله: «أتل» أو قوله: «حرم» على طريق التنازع في المتعلق. وربما قيل: إن: «عليكم» اسم فعل بمعنى خذوا وقوله: «أن لا تشركوا» معموله والنظم: عليكم أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً، الخ؛ وهو خلاف ما يسبق الى الذهن من السياق.

ولما كان قوله: «تعالوا أتل ما حرم» الخ؛ دعوة الى التلاوة وضع في الكلام عين ما جاء به الوحي في مورد المحرمات من النهي في بعضها والأمر بالخلاف في بعضها الآخر فقال: «أن لا تشركوا به شيئاً» كما قال: «ولا تقتلوا أولادكم من إملاق» «ولا تقربوا الفواحش» الخ؛ وقال: «وبالوالدين إحساناً» كما قال: «وأوفوا الكيل والميزان» «واذا قلتم فاعدلوا» الخ.

وقد قدم الشرك على سائر المحرمات لأنه الظلم العظيم الذي لا مطمع في المغفرة الإلهية معه قال: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ (النساء / ٤٨) وإليه ينتهي كل معصية كما ينتهي الى التوحيد بوجه كل حسنة.

قوله تعالى: ﴿وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْسٰاناً﴾ أي أحسنوا بالوالدين إحساناً، وفي المجمع: أي وأوصى بالوالدين إحساناً ويدل على ذلك أن في «حرم كذا» معنى أوصى بتحريمه وأمر بتجنبه. انتهى.

وقد عدّ في مواضع من القرآن الكريم إحسان الوالدين تالياً للتوحيد ونفي الشرك فامر به بعد الأمر بالتوحيد أو النهي عن الشرك به كقوله: ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾ (الإسراء / ٢٣) وقوله: ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ووصينا الإنسان بوالديه﴾ (لقمان / ١٤) وغير ذلك من الآيات.

ويدل ذلك على أن عقوق الوالدين من أعظم الذنوب أو هو أعظمها بعد الشرك بالله العظيم. والاعتبار يهدي الى ذلك فإن المجتمع الانساني الذي لا يتم للإنسان دونه حياة ولا

دين هو أمر وضعي اعتباري لا يحفظه في حدوثه وبقائه إلا حب النسل الذي يتكىء على رابطة الرحمة المتكونة في البيت القائمة بالوالدين من جانب وبالأولاد من جانب آخر، والأولاد إنما يحتاجون الى رحمتها وإحسانها في زمان تتوق أنفسها الى نحو الأولاد بحسب الطبع، وكفى به داعياً ومحرضاً لهما الى الإحسان إليهم بخلاف حاجتهم الى رأفة الأولاد ورحمتهم فإنها بالطبع يصادف كبرهما ويوم عجزهما عن الاستقلال بالقيام بواجب حياتها وشباب الأولاد وقوتهم على ما يعنيهم.

وجفاء الأولاد للوالدين وعقوقهم لهما يوم حاجتهما إليهم ورجائهما منهم وانتشار ذلك بين النوع يؤدي بالمقابلة الى بطلان عاطفة التوليد والتربية، ويدعو ذلك من جهة الى ترك التناسل وانقطاع النسل، ومن جهة الى كراهية تأسيس البيت والتكاهل في تشكيل المجتمع الصغير، والاستنكاف عن حفظ سمة الابوة والامومة، وينجر الى تكوّن طبقة من الذرية الإنسانية لا قربة بينهم ولا أثر من رابطة الرحم فيهم، ويتلاشى عندئذ أجزاء المجتمع، ويتشتت شملهم، ويتفرق جمعهم، ويفسد أمرهم فساداً لا يصلحه قانون جار ولا سنة دائرة، ويرتحل عنهم سعادة الدنيا والآخرة، وسنقدم إليك بحثاً ضافياً في هذه الحقيقة الدينية إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيّاهُمْ﴾ الإملاق الإفلاس من المال والزاد ومنه التملق، وقد كان هذا كالسنة الجارية بين العرب في الجاهلية لتسرع الجدب والقحط الى بلادهم فكان الرجل اذا هدّده الإفلاس بادر الى قتل أولاده تأنفاً من أن يراهم على ذلة العدم والجوع.

وقد علل النهي بقوله: «نحن نرزقكم وإياهم» أي إنما تقتلونهم مخافة أن لا تقدروا على القيام بأمر رزقهم ولستم برازقين لهم بل الله يرزقكم وإياهم جميعاً فلا تقتلوهم.

قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ﴾ الفواحش جميع

فاحشة وهي الأمر الشنيع المستقبح، وقد عدّ الله منها في كلامه الزنا واللواط وقذف المحصنات، والظاهر أن المراد مما ظهر ومما بطن العلانية والسر كالزنا العلني واتخاذ الأخدان والأخلاء سراً.

وفي استباحة الفاحشة إبطال فحشها وشناعتها، وفي ذلك شيوعها لأنها من أعظم ما تتوق إليه النفس الكارهة لأن يضرب عليها بالحرمان من ألذ لذائذها وتحجب عن أعجب ما تتعلق به وتعزم به شهوتها، وفي شيوعها انقطاع النسل وبطلان المجتمع البيتي وفي بطلانه بطلان المجتمع الكبير الانساني، وسوف نستوفي هذا البحث إن شاء الله فيما يناسبه من المحل.

وكذلك استباحة القتل وما في تلوه من الفحشاء إبطال للأمن العام وفي بطلانه انهدام بنية المجتمع الانساني وتبدد أركانه.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي حرم الله قتلها أو حرمها بالحرمة المشرعة لها التي تقيها وتحميها من الضيعة في دم أو حق، قيل: إنه تعالى أعاد ذكر القتل وإن كان داخلاً في الفواحش تفخيماً لشأنه وتعظيماً لأمره، ونظيره الكلام في قتل الأولاد خشية الإملاق اختص بالذكر عناية به، وقد كانت العرب يفعل ذلك بزعمهم أن خشية الإملاق يبيح للوالد أن يقتل أولاده، ويصان به ماء وجهه من الابتذال، والابوة عندهم من أسباب الملك.

وقد استثنى الله تعالى من جهة قتل النفس المحترمة التي هي نفس المسلم والمعاهد قتلها بالحق وهو القتل بالقود والحد الشرعي.

ثم أكد تحريم المذكورات في الآية بقوله: «ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون» سيجيء الوجه في تعليل هذه المناهي الخمس بقوله: «لعلكم تعقلون».

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ النهي عن القرب للدلالة على التعميم فلا يحل أكل ماله ولا استعماله ولا أي تصرف فيه إلا

بالطريقة التي هي أحسن الطرق المتصورة لحفظه. ويمتند هذا النهي وتدوم الحرمة الى أن يبلغ أشده فإذا بلغ أشده لم يكن يتيماً قاصراً عن إدارة ماله وكان هو المتصرف في مال نفسه من غير حاجة بالطبع الى تدبير الولي لماله.

ومن هنا يظهر أن المراد ببلوغه أشده هو البلوغ والرشد كما يدل عليه أيضاً قوله: ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ﴾ (النساء / ٦).

ويظهر أيضاً أنه ليس المراد بتحديد حرمة التصرف في مال اليتيم بقوله: «حتى يبلغ أشده» رفع الحرمة بعد بلوغ الأشد وإباحة التصرف حينئذ بل المراد بيان الوقت الذي يصلح للاقتراب من ماله، وارتفاع الموضوع بعده فإن الكلام في معنى: وأصلحوا مال اليتيم الذي لا يقدر على إصلاح ماله وإغنائه حتى يكبر ويقدر.

قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ الإيفاء بالقسط هو العمل بالعدل فيهما من غير بخس، وقوله: «لا نكلف نفساً إلا وسعها» بمنزلة دفع الدخل كأنه قيل: «إن الإيفاء بالقسط والوقوع في العدل الحقيقي الواقعي لا يمكن للنفس الانسانية التي لا مناص لها عن أن تلتجىء في أمثال هذه الامور إلى التقريب فاجيب بأنا لا نكلف نفساً إلا وسعها. ومن الجائز أن يتعلق قوله: «لا نكلف نفساً إلا وسعها» بالحكمين جميعاً أعني قوله: «ولا تقربوا مال اليتيم» الخ؛ وقوله: «وأوفوا الكيل والميزان».

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ ذكر ذي القربى وهو الذي تدعو عاطفة القرابة والرحم الى حفظ جانبه وصيانته من وقوع الشر والضرر في نفسه وماله يدل على أن المراد بالقول هو القول الذي يمكن أن يترتب عليه انتفاع الغير أو تضرره كما أن ذكر العدل في القول يؤيد ذلك. ويدل على أن هناك ظلماً، وإن القول متعلق ببعض الحقوق كالشهادة والقضاء والفتوى ونحو ذلك.

فالمعنى: وراقبوا أقوالكم التي فيها نفع أو ضرر للناس واعدلوا فيها، ولا يحملنكم رحمة أو رأفة أو أي عاطفة على أن تراعوا جانب أحد فتحرّفوا الكلام وتجاوزوا الحق فتشهدوا أو تقضوا بما فيه رعاية لجانب من تحبونه وإبطال حق من تكرهونه.

قال في المجمع: وهذا من الأوامر البليغة التي يدخل فيها مع قلة حروفها الأقارير والشهادات، والوصايا، والفتاوى، والقضايا، والأحكام، والمذاهب، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

قوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ قال الراغب في المفردات: العهد حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال. انتهى. ولذا يطلق على الفرامين والتكاليف المشرّعة والوظائف المحوّلة وعلى العهد الذي هو الموثق وعلى النذر واليمين.

وكثرة استعماله في القرآن الكريم في الفرامين الإلهية، وإضافته في الآية الى الله سبحانه، ومناسبة المورد وفيه بيان الأحكام والوصايا الإلهية العامة كل ذلك يؤيد أن يكون المراد بقوله: «وبعهد الله اوفوا» التكاليف الدينية الإلهية، وإن كان من الممكن أن يكون المراد بالعهد هو الميثاق المعقود بمثل قولنا: عاهدت الله على كذا وكذا. قال تعالى: ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤلاً﴾ (الإسراء / ٣٤) فيكون إضافته الى الله نظير إضافة الشهادة إليه في قوله: ﴿ولا نكتم شهادة الله﴾ (المائدة / ١٠٦) للإشارة الى أن المعاملة فيه معه سبحانه. ثم أكد التكاليف المذكورة في الآية بقوله: «ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون».

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الى آخر الآية، قرىء «وأن» بفتح الهمزة وتشديد النون وتخفيفها وكأنه بالعطف على موضع قوله: «أن لا تشركوا به شيئاً» وقرىء بكسر الهمزة على الاستئناف.

والذي يعطيه سياق الآيات أن يكون مضمون هذه الآية أحد الوصايا التي أُمر النبي ﷺ أن يتلوها عليهم ويخبرهم بها حيث قيل: «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم»، ولازم ذلك

أن يكون قوله: «وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه» مسوقاً لا لتعلق الغرض به بنفسه لأن كليات الدين قد تمت في الآيتين السابقتين عليه بل ليكون توطئة وتمهيداً لقوله بعده: «ولا تتبعوا السبل» كما أن هذه الجمله بعينها كالتوطئة لقوله: «فتفرق بكم عن سبيله» فالمراد بالآية ان لا تتفرقوا عن سبيله ولا تختلفوا فيه. فتكون الآية مسوقة سوق قوله: ﴿ شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ (الشورى / ١٣) فالأمر في الآية بإقامة الدين هو ما وصى من الدين المشروع كأنه أُعيد ليكون تمهيداً للنهي عن التفرق بالدين.

فالمعنى: ومما حرم ربكم عليكم ووصاكم به أن لا تتبعوا السبل التي دون هذا الصراط المستقيم الذي لا يقبل التخلف والاختلاف وهي غير سبيل الله فإن اتباع السبل دونه يفرقكم عن سبيله فتختلفون فيه فتخرجون من الصراط المستقيم اذ الصراط المستقيم لا اختلاف بين أجزائه ولا بين سالكيه.

ومقتضى ظاهر السياق أن يكون المراد بقوله: «صراطي» صراط النبي ﷺ فإنه هو الذي يخاطب الناس بهذه التكاليف عن أمر من ربه اذ يقول: «قل تعالوا أتل» الخ؛ فهو المتكلم معهم المخاطب لهم. ولله سبحانه في الآيات مقام الغيبة حتى في ذيل هذه الآية اذ يقول: «فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به» ولا ضير في نسبة الصراط المستقيم الى النبي ﷺ فقد نسب الصراط المستقيم الى جمع من عباده الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم﴾ (الحمد / ٧).

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلىٰ الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ الى آخر الآية، لما كان ما ذكره ووصى به من كليات الشرائع تكاليف مشرعة عامة لجميع ما أُوتي الأنبياء من الدين، وهي أُمور كلية مجملة صحح ذلك الالتفات الى بيان أنه تعالى بعد ما

شرعها للجميع إجمالاً فصلها حيث اقتضت تفصيلها لموسى عليه السلام أولاً فيما أنزل عليه من الكتاب . وللنبي صلى الله عليه وآله وسلم ثانياً فيما أنزله عليه من كتاب مبارك فقال تعالى: «ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذين أحسن وتفصيلاً لكل شيء» الخ.

فمعنى الآية: أنا بعد ما شرعنا من إجمال الشرائع الدينية آتينا موسى الكتاب تماماً تتم به نقيصة من أحسن منهم من حيث الشرع الإجمالي وتفصيلاً يفصل به كل شيء من فروع هذه الشرائع الإجمالية مما يحتاج إليه بنو إسرائيل وهدى لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون. هذا هو الذي يعطيه سياق الآية المتصل بسياق الآيات الثلاث السابقة.

فقوله: «ثم آتينا موسى الكتاب» رجوع الى السياق السابق الذي قبل قوله: «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم» الآيات؛ وهو خطاب الله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم بصيغة المتكلم مع الغير، وقد افيد بالتأخير المستفاد من لفظة «ثم» أن هذا الكتاب إنما أنزل ليكون تماماً وتفصيلاً للإجمال الذي في تلك الشرائع العامة الكلية.

وقوله: ﴿تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ يبيّن أن إنزال الكتاب لتتم به نقيصة الذين أحسنوا من بني إسرائيل في العمل بهذه الشرائع الكلية العامة، وقد قال تعالى في قصة موسى بعد نزول الكتاب: ﴿**وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها**﴾ (الأعراف / ١٤٥) وقال: ﴿**وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين**﴾ (البقرة / ٥٨) وعلى هذا فالموصول في قوله: «على الذي أحسن» يفيد الجنس.

وقوله: «وتفصيلاً لكل شيء» أي مما يحتاج إليه بنو إسرائيل أو ينتفع به غيرهم ممن بعدهم، وهدىً يهتدى به ورحمة ينعمون بها. وقوله: «لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون» فيه إشارة الى أن بني إسرائيل كانوا يتثاقلون أو يستنكفون عن الايمان بلقاء الله واليوم الآخر، ومما يؤيده أن التوراة الحاضرة التي يذكر القرآن أنها محرفة لا يوجد فيها ذكر من البعث يوم

القيامة. وقد ذكر بعض المؤرخين منهم أن شعب إسرائيل ما كانت تعتقد المعاد.

قوله تعالى: ﴿ وَهٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ الى آخر الآية؛ أي وهذا كتاب مبارك يشارك كتاب موسى فيما ذكرناه من الخصيصة فاتبعوه، الخ.

قوله تعالى: ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ الخ: «أن تقولوا» معناه كراهة أن تقولوا، أو لئلا تقولوا، وهو شائع في الكلام، وهو متعلق بقوله في الآية السابقة: «وأنزلناه».

وقوله: «طائفتين من قبلنا» يراد به اليهود والنصارى أنزل عليهما التوراة والإنجيل. وأما كتب الأنبياء النازلة قبلهما مما يذكره القرآن مثل كتاب نوح وكتاب إبراهيم عليه السلام فلم يكن فيها تفصيل الشرائع وإن اشتملت على أصلها، وأما سائر ما ينسب الى الأنبياء عليهم السلام من الكتب كزبور داود عليه السلام وغيره فلم تكن فيها شرائع ولا لهم بها عهد.

والمعنى أنا أنزلناه القرآن كراهة أن تقولوا: إن الكتاب الإلهي المفصل لشرائعه إنما انزل على طائفتين من قبلنا هم اليهود والنصارى وإنما كنا غافلين عن دراستهم وتلاوتهم، ولا بأس علينا مع الغفلة.

قوله تعالى: ﴿ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾ الى آخر الآية: أي من الذين أُنزل إليهم الكتاب قبلنا آ وقوله: «فقد جاءكم بيّنة من ربكم» تفريع لقوليه: «أن تقولوا» «أو تقولوا» جميعاً. وقد بدل الكتاب من البيّنة ليدل به على ظهور حجته ووضوح دلالته بحيث لا يبقى عذر لمعتذر ولا علة لمتعلل. والصدف الإعراض ومعنى الآية ظاهر.

١٥٨ ● هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً

إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ.

١٥٩ ● إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللّٰهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ.

١٦٠ ● مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزىٰ إِلّا مِثْلَها وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ﴾ استفهام إنكاري في مقام لا تنفع فيه عظة ولا تنجح فيه دعوة فالامور المذكورة في الآية لا محالة امور لا تصحب إلا القضاء بينهم بالقسط والحكم الفصل بإذهابهم وتطهير الأرض من رجسهم.

ولازم هذا السياق أن يكون المراد بإتيان الملائكة نزولهم بآية العذاب كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وقالوا يا أيها الذين نزّل عليه الذكر إنك لمجنون، لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين، ما ننزل الملائكة إلا بالحق وماكانوا إذاً منظرين﴾ (الحجر / ٨).

ويكون المراد بإتيان الرب هو يوم اللقاء وهو الانكشاف التام لآية التوحيد بحيث لا يبقى عليه ستر كما هو شأن يوم القيامة المختص بانكشاف الغطاء، والمصحح لإطلاق الإتيان على ذلك هو الظهور بعد الخفاء والحضور بعد الغيبة جل شأنه عن الاتصاف بصافت الأجسام.

وربما يقال: إن المراد إتيان أمر الرب وقد مرّ نظيره في قوله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظل من الغمام﴾ (البقرة / ٢١٠) في الجزء الثاني من الكتاب.

ويكون المراد بإتيان بعض آيات الرب إتيان آية تلازم تبدّل نشأة الحياة عليهم بحيث لا سبيل الى العود الى فسحة الاختيار كآية الموت التي تبدّل نشأة العمل نشأة الجزاء البرزخي أو تلازم استقرار ملكة الكفر والجحود في نفوسهم استقراراً لا يمكنهم معه الاذعان بالتوحيد والاقبال بقلوبهم الى الحق إلا ما كان بلسانهم خوفاً من شمول السخط والعذاب كما ربما دل عليه قوله تعالى: ﴿ **وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون** ﴾ (النمل / ٨٢).

وكذا قوله تعالى: ﴿ **ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين، قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون** ﴾ (السجدة / ٢٩) فإن الظاهر أن المراد بالفتح هو الفتح للنبي ﷺ بالقضاء بينه وبين أُمته بالقسط كما حكاه الله تعالى عن شعيب عليه السلام في قوله: ﴿ **ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين** ﴾ (الأعراف / ٨٩) وحكاه عن رسله في قوله: ﴿ **واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد** ﴾ (إبراهيم / ١٥).

أو تلازم بأساً من الله تعالى لا مرد له ولا محيص عنه فيضطرهم الله الايمان ليتقوا به أليم العذاب لكن لا ينفعهم ذلك فلا ينفع من الايمان إلا ما كان عن اختيار كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ **فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون** ﴾ (المؤمن / ٨٥).

فهذه أعني إتيان الملائكة أو إتيان الرب أو إتيان بعض آياته أُمور تصاحب القضاء بينهم بالقسط وهم لكونهم لا تؤثر فيهم حجة ولا تنفعهم موعظة لا ينظرون إلا ذلك وإن ذهلوا عنه فإن الواقع أمامهم علموا أو جهلوا.

وربما قيل: إن الإستفهام للتهكم. فإنهم كانوا يقترحون على النبي ﷺ أن ينزّل عليهم الملائكة أو يروا ربهم أو يأتيهم بآية كما أُرسل الأوّلون فكأنه قيل: هؤلاء لا يريدون حجة

وإنما ينتظرون ما اقترحوه من الامور.

وهذا الوجه غير بعيد بالنسبة الى صدر الآية لكن ذيلها أعني قوله: «يوم يأتي بعض آيات ربك» الخ؛ لا يلائمه تلك الملاءمة فإن التهكم لا يتعدى فيه الى بيان الحقائق وتفصيل الآثار.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الى آخر الآية؛ يشرح خاصة يوم ظهور هذه الآيات، وهي في الحقيقة خاصة نفس الآيات وهي أن الايمان لا ينفع نفساً لم تؤمن قبل ذلك اليوم إيمان طوع واختيار أو آمنت قبله ولم تكن كسبت في إيمانها خيراً ولم تعمل صالحاً بل انهمكت في السيئات والمعاصي اذ لا توبة لمثل هذا الإنسان، قال تعالى: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾ (النساء/ ١٨)، فالنفس التي لم تؤمن من قبل إيمان طوع ورضيً أو آمنت بالله وكذبت بآيات الله ولم تعتن بشيء من شرائع الله واسترسلت في المعاصي الموبقة ولم تكتسب شيئاً من صالح العمل فيما كان عليها ذلك ثم شاهدت البأس الإلهي فحملها الاضطرار الى الإيمان لترد به بأس الله تعالى لم ينفعها ذلك، ولم يرد عنها بأساً ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

وفي قوله: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ﴾ الفصل بين الموصوف والوصف بفاعل الفعل وهو إيمانها وكأنه للاحتراز عن الفصل الطويل بين الفعل وفاعله، واجتماع: «في إيمانها» و«إيمانها» في اللفظ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ الخ؛ وجه الكلام السابق وإن كان مع المشركين وقد ابتلوا بتفريق الدين الحنيف، وكان أيضاً لأهل الكتاب نصيب من الكلام وربما لوّح إليهم بعض التلويح ولازم ذلك أن ينطبق قوله «الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً» على المشركين بل عليهم وعلى اليهود والنصارى لاشتراك الجميع في التفرق والاختلاف في الدين الإلهي.

لكن اتصال الكلام بالآيات المبينة للشرائع العامة الإلهية التي تبتدىء بالنهي عن الشرك وتنتهي الى النهي عن التفرق عن سبيل الله يستدعي أن يكون قوله: «الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً» موضوعاً لبيان حال النبي ﷺ مع من كان هذا وصفه فالاتيان بصيغة الماضي في قوله: «فرقوا دينهم» لبيان أصل التحقق سواء كان في الماضي أو الحال أو المستقبل لا تحقق الفعل في الزمان الماضي فحسب.

ومن المعلوم أن تمييز النبي ﷺ وإخراجه من أُولئك المختلفين في الدين المتفرقين شيعة شيعة كل شيعة يتبع إماماً يقودهم ليس إلا لأنه رسول يدعو الى كلمة الحق ودين التوحيد، ومثال كامل يمثل بوجوده الإسلام ويدعو بعمله إليه فيعود معنى قوله: «لست منهم في شيء» الى أنهم ليسوا على دينك الذي تدعو إليه، ولا على مستوى طريقك الذي تسلكه.

فمعنى الآية أن الذين فرقوا دينهم بالاختلافات التي هي لا محالة ناشئة عن العلم ـ وما اختلف الذين أُوتوه إلا بغياً بينهم ـ والانشعابات المذهبية ليسوا على طريقتك التي بنيت على وحدة الكلمة ونفي الفرقة إنما أمرهم في هذا التفريق الى ربهم لا يماسّك منهم شيء فينبئهم يوم القيامة بما كانوا يفعلون ويكشف لهم حقيقة أعمالهم التي هم رهناؤها.

وقد تبين بما مر أن لا وجه لتخصيص الآية بتبرئته ﷺ من المشركين أو منهم ومن اليهود والنصارى، أو من المختلفين بالمذاهب والبدع من هذه الامة فالآية عامة تعم الجميع.

قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الآية تامة في نفسها تكشف عن منّة إلهية يمتن بها على عباده أنه يجازي الحسنة بعشر أمثالها، ولا يجازي السيئة إلا بمثلها أي يحسب الحسنة عشرة والسيئة واحدة ولا يظلم في الإيفاء فلا ينقص من تلك ولا يزيد في هذه، إن أمكن أن يزيد في جزاء الحسنة فيزيد على العشر كما يدل عليه قوله: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء﴾

(البقرة / ٢٦١) وأمكن أن يعفو عن السيئة فلا يحسب حتى المثل الواحد.

لكنها أعني الآية باتصالها بما تقدمها وانتظامها معها في سياق واحد تفيد معنى آخر كأنه قيل بعد سرد الكلام في الآيات السابقة في الاتفاق والاجتماع على الحق والتفرق فيه: فهاتان خصلتان حسنة وسيئة يجزي فيهما ما يماثلها ولا ظلم فإن الجزاء يماثل العمل فمن جاء بالحسنة فله مثلها ويضاعف له ومن جاء بالسيئة وهي الاختلاف المنهي عنه فلا يجزى إلا سيئة مثلها ولا يطمعنّ في الجزاء الحسن. وعاد المعنى الى نظير ما استفيد من قوله: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ (الشورى / ٤٠) أن المراد به بيان مماثلة جزاء السيئة لها في كونها سيئة لا يرغب فيها لا إثبات الوحدة ونفي المضاعفة.

١٦١ ● قُلْ إِنَّنِي هَدٰانِي رَبِّي إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ
إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كٰانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

١٦٢ ● قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلّٰهِ رَبِّ الْعالَمِينَ.

١٦٣ ● لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ.

١٦٤ ● قُلْ أَغَيْرَ اللّٰهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ
نَفْسٍ إِلّا عَلَيْها وَلا تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ
مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ.

١٦٥ ● وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ
بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيما آتٰاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ
وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ الى آخر الآيتين؛ القيم بالكسر فالفتح مخفف القيام وصف به الدين للمبالغة في قيامه على مصالح العباد. وقيل: وصف بمعنى القيّم على الأمر.

يأمر الله سبحانه أن يخبرهم بأن ربه الذي يدعو إليه هداه بهداية إلهية الى صراط مستقيم وسبيل واضح قيّم على سالكيه لا تخلف فيه ولا اختلاف ديناً قائماً على مصالح الدنيا والآخرة أحسن القيام ـ لكونه مبنياً على الفطرة ـ ملة إبراهيم حنيفاً مائلاً عن التطرف بالشرك الى اعتدال التوحيد وما كان من المشركين، وقد تقدم توضيح هذه المعاني في تفسير الآيات السابقة من السورة.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ـ الى قوله ـ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ النسك مطلق العبادة، وكثر استعماله في الذبح أو الذبيحة تقرباً الى الله سبحانه.

أمره ﷺ ثانياً أن يخبرهم بأنه عامل بما هداه الله إليه متلبس به كما أنه مأمور بذلك ليكون أبعد من التهمة عندهم وأقرب الى تلقيهم بالقبول فإن من امارة الصدق أن يعمل الانسان بما يندب إليه، ويطابق فعله قوله.

فقال: قل: إنني جعلت صلاتي ومطلق عبادتي ـ واختصت الصلاة بالذكر استقلالاً لمزيد العناية بها منه تعالى ـ ومحياي بجميع ما له من الشؤن الراجعة إلي من أعمال وأوصاف وأفعال وتروك، ومماتي بجميع ما يعود إلي من اموره وهي الجهات التي ترجع منه الى الحياة ـ كما قال: كما تعيشون تموتون ـ جعلتها كلها لله رب العالمين من غير أن أُشرك به فيها أحداً فأنا عبد في جميع شؤني في حياتي ومماتي لله وحده وجهت وجهي إليه لا أقصد شيئاً ولا أتركه إلا له ولا

أسير في مسير حياتي ولا أراد مماتي إلا له فإنه رب العالمين، يملك الكل ويدبر أمرهم.

وقد أُمرت بهذا النحو من العبودية، وأنا أول المسلمين لله فيما أراده من العبودية التامة في كل باب وجهة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الخ: هذه الآية والتي بعدها تشتملان على حجج ثلاث هي جوامع الحجج المذكورة في السورة للتوحيد، وهي الحجة من طريق بدء الخلقة، والحجة من طريق عودها، والحجة من حال الإنسان وهو بينهما وبعبارة أُخرى الحجة من نشأة الحياة الدنيا والنشأة التي قبلها والتي بعدها.

فالحجة من طريق البدء ما في قوله: «أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء» ومن المعلوم أنه اذا كان رب كل شيء كان كل شيء مربوباً له فلا رب غيره على الإطلاق يصلح أن يعبد.

والحجة من طريق العود ما يشتمل عليه قوله: «ولا تكسب كل نفس إلا عليها» الى آخر الآية، أي أن كل نفس لا تعمل عملاً ولا تكسب شيئاً إلا حمل عليها ولا تزر وازرة وزر اخرى حتى يحمل ما اكتسبته نفس على غيرها ثم المرجع الى الله وإليه الجزاء بالكشف عن حقائق أعمال العباد، واذا كان لا محيص عن الجزاء وهو المالك ليوم الدين فهو الذي تتعين عبادته لا غيره ممن لا يملك شيئاً.

والحجة من طريق النشأة الدنيا ما في قوله: «وهو الذي جعلكم خلائف» الخ؛ ومحله أن هذا النظام العجيب الذي يحكم في معاشكم في الحياة الدنيا وهو مبني على خلافتكم في الأرض واختلاف شؤنكم بالكبر والصغر والقوة والضعف والذكورية والانوثية والغنى والفقر والرئاسة والمرؤسية والعلم والجهل وغيرها وإن كان نظاماً اعتبارياً لكنه ناش من عمل التكوين منته إليه فالله سبحانه هو ناظمه، وإنما فعل ذلك لامتحانكم وابتلائكم فهو الرب الذي يدبر أمر سعادتكم، ويوصل من أطاعه الى سعادته المقدرة له ويذر الظالمين فيها جثياً، فهو الذي يحق عبادته.

وقد تبيّن بما مر أن مجموع الجملتين: «ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر اخرى» سيق لإفادة معنى واحد وهو أن ما كسبته نفس يلزمها ولا يتعداها. وهو مفاد قوله: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ (المدثر / ٣٨).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ الخلائف جمع خليفة أي يستخلف بعضكم بعضاً أو استخلفكم لنفسه في الأرض وقد مر كلام في معنى هذه الخلافة في تفسير قوله تعالى: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ (البقرة / ٣٠) في الجزء الأول من الكتاب، ومعنى الآية ظاهر بما مر من البيان، وقد ختمت السور بالمغفرة والرحمة.

سورة الأعراف مكية وهي مائتا وستة آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● الٓمٓصٓ.

٢ ● كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ
وَذِكْرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ.

٣ ● إِتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ
قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ.

٤ ● وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ.

٥ ● فَما كانَ دَعْويٰهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلَّا أَنْ قالُوا إِنّا كُنّا
ظالِمِينَ.

٦ ● فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ.

٧ ● فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَما كُنّا غائِبِينَ.

٨ ● وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ

ٱلْمُفْلِحُونَ.

٩ ❁ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ.

بيان:

السورة تشتمل من الغرض على مجموع ما تشتمل عليه السور المصدَّرة بالحروف المقطعة «الم» والسورة المصدرة بحرف «ص» فليكن على ذكر منك حتى نستوفي ما استيفاؤه من البحث في أول سورة حم عسق إن شاء الله تعالى عن الحروف المقطعة القرآنيّة.

والسورة كأنها تجعل العهد الإلهي المأخوذ من الإنسان على أن يعبد الله ولا يشرك به شيئاً أصلاً يبحث عما آل إليه أمره بحسب مسير الإنسانية في الامم والأجيال فأكثرهم نقضوه ونسوه ثم اذا جاءتهم آيات مذكرة لهم أو أنبياء يدعونهم إليه كذّبوا وظلموا بها ولم يتذكر بها إلا الأقلون.

وذلك أن العهد الإلهي الذي هو إجمال ما تتضمنه الدعوة الدينية الإلهية اذا نزل بالإنسان ـ وطبائع الناس مختلفة في استعداد القبول والرد ـ تحوّل لا محالة بحسب أماكن نزوله والأوضاع والأحوال والشرائط الحافّة بنفوس الناس فأنتج في بعض النفوس ـ وهي النفوس الطاهرة الباقية على أصل الفطرة ـ الإهتداء الى الإيمان بالله وآياته، وفي آخرين وهم الأكثرون ذووا النفوس المخلدة الى الأرض المستغرقة في شهوات الدنيا خلاف ذلك من الكفر والعتوّ.

واستتبع ذلك ألطافاً إلهية خاصة بالمؤمنين من توفيق ونصر وفتح في الدنيا، ونجاة من النار وفوز بالجنة وأنواع نعيمها الخالد في الآخرة، وغضباً ولعناً نازلاً على الكافرين وعذاباً واقعاً يهلك جمعهم، ويقطع نسلهم، ويخمد نارهم، ويجعلهم أحاديث ويمزقهم كل ممزق،

ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون.

فهذه هي سنة الله التي قد خلت في عباده وعلى ذلك ستجري. والله يحكم لا معقب لحكمه وهو على صراط مستقيم.

فتفاصيل هذه السنة اذا وصفت لقوم ليدعوهم ذلك الى الايمان بالله وآياته كان ذلك إنذاراً لهم، واذا وصفت لقوم مؤمنين ولهم علم بربهم في الجملة ومعرفة بمقامه الربوبيّ كان ذلك تذكيراً لهم بآيات الله وتعليماً بما يلزمه من المعارف وهي معرفة الله ومعرفة أسمائه الحسنى وصفاته العليا وسننه الجارية في الآخرة والاولى وهذا هو الذي يلوح من قوله تعالى في الآية الثانية من السورة: «لتنذر به وذكرى للمؤمنين» أن غرضها هو الإنذار والذكرى.

والسورة على أنها مكية ـ إلا آيات اختُلف فيها ـ وجه الكلام فيها بحسب الطبع الى المشركين وطائفة قليلة آمنوا بالنبي ﷺ على ما يظهر من آيات أولها وآخرها إنذار لعامة الناس بما فيها من الحجة والموعظة والعبرة، وقصة آدم ﷺ وابليس وقصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى ﷺ، وهي ذكرى للمؤمنين تذكرهم ما يشتمل عليه إجمال إيمانهم من المعارف المتعلقة بالمبدأ والمعاد والحقائق التي هي آيات إلهية.

والسورة تتضمن طرفاً عالياً من المعارف الإلهية منها وصف إبليس وقبيلة، ووصف الساعة والميزان والأعراف وعالم الذر والميثاق ووصف الذاكرين لله، وذكر العرش، وذكر التجلي، وذكر الأسماء الحسنى، وذكر أن للقرآن تأويلاً الى غير ذلك.

وهي تشتمل على ذكر إجمالي من الواجبات والمحرمات كقوله: ﴿**قل أمر ربي بالقسط**﴾ الآية ٢٩، وقوله: ﴿**إنّما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن**﴾ (الآية / ٣٣)، وقوله ﴿**قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق**﴾ (الآية / ٣٢) فنزولها قبل نزول سورة الأنعام التي فيها قوله: ﴿**قل لا أجد فيما أُوحي إليّ محرَّماً على طاعم يطعمه**﴾ الآية (الأنعام / ١٤٥)، فإن ظاهر الآية أن الحكم بإباحة غير ما استثنى من المحرمات كان

نازلاً قبل السورة فالإشارة بها الى ما في هذه السورة.

على أن الأحكام والشرائع المذكورة في هذه السورة أوجز وأكثر إجمالاً مما ذكر في سورة الأنعام في قوله: «قل تعالوا أتل ما حرّم ربّكم عليكم» الآيات؛ وذلك يؤيد كون هذه السورة قبل الأنعام نزولاً على ما هو المعهود من طريقة تشريع الأحكام في الإسلام تدريجاً آخذاً من الاجمال الى التفصيل.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ. كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تنكير الكتاب وتوصيفه بالانزال إليه من غير ذكر فاعل الإنزال كل ذلك للدلالة على التعظيم ويتخصص وصف الكتاب ووصف فاعله ببعض التخصص بما يشتمل عليه قوله: «فلا يكن في صدرك حرج منه» من التفريع كأنه قيل: هذا كتاب مبارك يقص آيات الله أنزله إليك ربّك فلا يكن في صدرك حرج منه كما أنه لو كان كتاباً غير الكتاب وألقاه إليك ربك لكان من حقه أن يتحرج ويضيق منه صدرك لما في تبليغه ودعوة الناس الى ما يشتمل عليه من الهدى من المشاق والمحن.

وقوله: «لتنذر به» غاية للإنزال متعلقة به كقوله: «وذكرى للمؤمنين» وتخصيص الذكرى بالمؤمنين دليل على أن الانذار يعمّهم وغيرهم. فالمعنى: أُنزل إليك الكتاب لتنذر به الناس وهو ذكرى للمؤمنين خاصة لأنهم يتذكرون بالآيات والمعارف الالهية المذكورة فيها مقام ربهم فيزيد بذلك إيمانهم وتقرّ بها أعينهم. وأما عامة الناس فإن هذا الكتاب يؤثر فيهم أثر الانذار بما يشتمل عليه من ذكر سخط الله وعقابه للظالمين في الدار الآخرة، وفي الدنيا بعذاب الاستئصال كما تشرحه قصص الأمم السالفة.

قوله تعالى: ﴿إِتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ لما ذكر لنبيه ﷺ أنه كتاب أُنزل إليه لغرض الإنذار شرع في الإنذار ورجع من خطابه ﷺ الى خطابهم فإن الإنذار من شأنه أن يكون بمخاطبة المنذرين ـ اسم

مفعول ـ وقد حصل الغرض من خطاب النبي ﷺ.

وخاطبهم بالأمر باتباع ما أُنزل إليهم من ربهم، وهو القرآن الآمر لهم بحقّ الاعتقاد وحق العمل أعني الايمان بالله وآياته والعمل الصالح الذين يأمر بهما الله سبحانه في كتابه وينهى عن خلافهما. والجملة أعني قوله: «اتبعوا ما أُنزل إليكم من ربّكم» موضوعة وضع الكناية كنّى بها عن الدخول تحت ولاية الله سبحانه والدليل عليه قوله: «ولا تتّبعوا من دونه أولياء» حيث لم يقل في مقام المقابلة: ولا تتبعوا غير ما أُنزل إليكم.

والمعنى: ولا تتبعوا غيره تعالى ـ وهم كثيرون ـ فيكونوا لكم أولياء من دون الله قليلا ما تذكَّرون، ولو تذكرتم لدريتم أن الله تعالى هو ربّكم لا ربَّ لكم سواه فليس لكم من دونه أولياء.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ تذكير لهم بسنّة الله الجارية في المشركين من الامم الماضية اذ اتخذوا من دون الله أولياء فأهلكهم الله بعذاب أنزله إليهم ليلاً أو نهاراً فاعترفوا بظلمهم.

و«البيات» التبيت وهو قصد العدو ليلاً. و«القائلون» من القيلولة وهو النوم نصف النهار. وقوله: «بياتاً أو هم قائلون» ولم يقل ليلاً أو نهاراً كأنه للإشارة الى أخذ العذاب إياهم وهم آخذون في النوم آمنون مما كمن لهم من البأس الإلهي الشديد غافلون مغفلون.

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ تتميم للتذكير يبين أن الانسان بوجدانه وسرّه يشاهد الظلم من نفسه إن اتخذ من دون الله أولياء بالشرك، وأن السنة الالهية أن يأخذ منه الاعتراف بذلك ببأس العذاب إن لم يعترف به طوعاً ولم يخضع لمقام الربوبية فليعترف اختياراً وإلا فسيعترف اضطراراً.

قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ دل البيان السابق على أنهم مكلفون بتوحيد الله سبحانه موظفون برفض الأولياء من دونه غير مخلين

وما فعلوا، ولا متروكون وما شاؤوا، فإذا كان كذلك فهم مسؤولون عما أُمروا به من الإيمان والعمل الصالح، وما كلفوا به من القول الحق، والفعل الحق وهذا الأمر والتكليف قائم بطرفين: الرسول الذي جاءهم به والقوم الذين جاءهم، ولهذا فرع على ما تقدم من حديث إهلاك القرى وأخذ الاعتراف منهم بالظلم قوله: «فلنسألن الذين أُرسل إليهم ولنسألن المرسلين».

قوله تعالى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ دل البيان السابق على أنهم مربوبون مدبرون فسيسألون عن أعمالهم ليجزوا بما عملوا، وهذا إنما يتم فيما اذا كان السائل على علم من أمر أعمالهم فإن المسؤول لا يؤمن أن يكذب لجلب النفع الى نفسه ودفع الضرر عن نفسه في مثل هذا الموقف الصعب الهائل الذي يهدده بالهلاك الخالد والخسران المؤبد.

ولذلك فرّع عليه قوله: «فلنقصن عليهم بعلم» الخ؛ وقد نكَّر العلم للاعتناء بشأنه وأنه علم لا يخطىء ولا يغلط، ولذلك أكده بعطف قوله: «وما كنا غائبين» عليه للدلالة على أنه كان شاهداً غير غائب، وإن وكل عليهم من الملائكة من يحفظ عليهم أعمالهم بالكتابة فإنه بكل شيء محيط.

قوله تعالى: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الى آخر الآيتين الآيتان تخبران عن الوزن وهو توزين الأعمال أو الناس العاملين من حيث عملهم، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ـ الى أن قال ـ وكفى بنا حاسبين﴾ (الأنبياء / ٤٧)، حيث دل على أن هذا الوزن من شعب حساب الأعمال. وأوضح منه قوله: ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ (الزلزال / ٨)، حيث ذكر العمل وأضاف الثقل اليه خيراً وشراً.

وبالجملة الوزن إنما هو للعمل دون عامله فالآية تثبت للعمل وزناً سواء كان خيراً أو شراً غير أن قوله تعالى: ﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ (الكهف / ١٠٥)، يدل على أن الأعمال في صور الحبط ـ وقد تقدم الكلام فيه في الجزء الثاني من هذا الكتاب ـ لا وزن لها أصلا، ويبقى للوزن أعمال من لم تحبط أعماله[(١)(٢)].

١٠ ● وَلَقَدْ مَكَّنّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً ما
تَشكُرُونَ.

١١ ● وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ
فَسَجَدُوا إلّا إبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ.

١٢ ● قالَ ما مَنَعَكَ أَنْ لا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنا خَيْرٌ مِنْهُ
خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ.

١٣ ● قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ
مِنَ الصّاغِرِينَ.

١٤ ● قالَ أَنْظِرْنِي إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ.

١٥ ● قالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنْظَرِينَ.

١٦ ● قالَ فَبِمٰا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ.

---

١. الاعراف ١ ـ ٩: كلام في وزن الاعمال يوم القيامة.

٢. الاعراف ١ ـ ٩: بحث روائي في: ميزان الاعمال يوم القيامة: تجسم الاعمال.

١٧ ● ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ.

١٨ ● قالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ.

١٩ ● وَيا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظّالِمِينَ.

٢٠ ● فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُرِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما وَقالَ ما نَهٰكُما رَبُّكُما عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ.

٢١ ● وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النّاصِحِينَ.

٢٢ ● فَدَلّٰهُما بِغُرُورٍ فَلَمّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الجَنَّةِ وَناداهُما رَبُّهُما أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ.

٢٣ ● قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ.

٢٤ ● قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلىٰ حِينٍ.

٢٥ ● قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَفِيها تَمُوتُونَ وَمِنْها تُخْرَجُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾ التمكين في الأرض هو الإسكان والايطان فيها أي جعلنا مكانكم الأرض. ويمكن أن يكون من التمكين بمعنى الإقدار والتسليط. ويؤيد المعنى الثاني أن هذه الآيات تحاذي بنحو ما في سورة البقرة من قصة آدم وإبليس وقد بدئت الآيات فيها بقوله: ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ البقرة / ٢٩)، وهو التسليط والتسخير.

غير أن هذه الآيات التي نحن فيها لمّا كانت تنتهي الى قوله: «ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين» كان المعنى الأول هو الأنسب وقوله: «ولقد مكناكم في الأرض» الخ؛ كالاجمال لما تفصّله الآيات التالية الى آخر قصة الجنة.

والمعايش جمع معيشة وهي ما يعاش به من مطعم أو مشرب أو نحوهما، والآية في مقام الامتنان عليهم بما أنعم الله عليهم من نعمة سكنى الأرض أو التسلط والاستيلاء عليها، وجعل لهم فيها من أنواع ما يعيشون به، ولذلك ختم الكلام بقوله: «قليلا ما تشكرون».

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ صورة قصة تبتدىء من هذه الآية الى تمام خمس عشرة آية يفصل فيها إجمال الآية السابقة وتبين فيها العلل والأسباب التي انتهت الى تمكين الإنسان في الأرض المدلول عليه بقوله «ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش».

ولذلك بدىء الكلام في قوله: «ولقد خلقناكم» الخ؛ بلام القسم، ولذلك ايضاً سيقت القصتان أعني قصة الأمر بالسجدة، وقصة الجنة في صورة قصة واحدة من غير أن تفصل القصة الثانية بما يدل على كونها قصة مستقلة كل ذلك ليتخلص الى قوله: «قال اهبطوا منها بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر» الى آخر الآيتين؛ فينطبق التفصيل على إجمال

قوله: «ولقد مكناكم في الأرض» الآية.

وقوله: «ولقد خلقناكم ثم صورناكم» الخطاب فيه لعامّة الآدميين وهو خطاب امتناني كما مر نظيره في الآية السابقة لأن المضمون هو المضمون وإنما يختلفان بالإجمال والتفصيل.

وعلى هذا فالانتقال في الخطاب من العموم الى الخصوص أعني قوله: «ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم» بعد قوله: «ولقد خلقناكم ثم صورناكم» يفيد بيان حقيقتين: الاولى: أن السجدة كانت من الملائكة لجميع بني آدم أي للنشأة الإنسانية وإن كان آدم عليه السلام هو القبلة المنصوبة للسجدة فهو عليه السلام في أمر السجدة كان مثالا يمثل به الإنسانية نائباً مناب أفراد الإنسان على كثرتهم لا مسجوداً له من جهة شخصه كالكعبة المجعولة قبلة يتوجه إليها في العبادات. وتمثل بها ناحية الربوبية.

قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ أخبر تعالى عن سجود الملائكة جميعاً كما يصرح به في قوله: ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾. (الحجر / ٣٠). واستثنى منهم إبليس وقد علل عدم ائتماره بالأمر في موضع آخر بقوله: ﴿كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ (الكهف / ٥٠). وقد وصف الملائكة بمثل قوله: ﴿بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾ (الأنبياء / ٢٧). وهو بظاهره يدل على أنه من غير نوع الملائكة.

ولهذا وقع الخلاف بينهم في توجيه هذا الاستثناء: أهو استثناء متصل بتغليب الملائكة لكونهم أكثر وأشرف أو أنه استثناء منفصل وإنما أمر بأمر على حدة غير الأمر المتوجه الى جمع الملائكة وإن كان ظاهر قوله: «ما منعك أن لا تسجد اذ أمرتك» أن الأمر لم يكن إلا واحداً وهو الذي وجهه الله الى الملائكة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ يريد ما منعك أن تسجد كما وقع في سورة ص من

قوله ﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾ (ص / ٧٥)، ولذلك ربما قيل: إن «لا» زائدة جيء بها للتأكيد كما في قوله: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شيء من فضل الله﴾ (الحديد / ٢٩).

والظاهر أن «منع» مضمن نظير معنى حمل أو دعا، والمعنى: ما حملك أو ما دعاك على أن لا تسجد مانعاً لك.

وقوله: «قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين» يحكي عمّا أجاب به لعنه الله، وهو أول معصيته وأول معصية عصي بها الله سبحانه فإن جميع المعاصي ترجع بحسب التحليل الى دعوى الانّيّة ومنازعة الله سبحانه في كبريائه، وله رداء الكبرياء لا شريك له فيه، فليس لعبد مخلوق أن يعتمد على ذاته ويقول: أنا قبال الإنّيّة الالهية التي عنت له الوجود، وخضعت له الرقاب، وخشعت له الأصوات، وذل له كل شيء.

ولو لم تنجذب نفسه إلى نفسه، ولم يحتبس نظره في مشاهدة إنيّته لم يتقيد باستقلال ذاته، وشاهد الاله القيوم فوقه فذلت له إنيّته ذلة تنفي عنه كل استقلال وكبرياء فخضع للأمر الإلهي، وطاوعته نفسه في الايتار والامتثال، ولم تنجذب نفسه إلى ما كان يتراءى من كونه خيراً منه لأنه من النار وهو من الطين بل انجذبت نفسه إلى الأمر الصادر عن مصدر العظمة والكبرياء ومنبع كل جمال وجلال.

وكان من الحري إذا سمع قوله: «ما منعك أن لا تسجد اذ أمرتك» أن يأتي بما يطابقه من الجواب كأن يقول: منعني أني خير منه لكنه أتى بقوله: «أنا خير منه» ليظهر به الإنّيّة، ويفيد الثبات والاستمرار، ويستفاد منه أيضاً أن المانع له من السجدة ما يري لنفسه من الخيرية فقوله: «أنا خير منه» أظهر وآكد في إفادة التكبر.

ومن هنا يظهر أن هذا التكبر هو التكبر على الله سبحانه دون التكبر على آدم.

ثم إنه في قوله: «أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين» استدل على كونه خيراً من

آدم بمبدء خلقته وهو النار وأنها خير من الطين الذي خلق منه آدم، وقد صدّق الله سبحانه ما ذكره من مبدأ خلقته حيث ذكر أنه كان من الجن، وأن الجن مخلوق من النار قال تعالى: ﴿كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ (الكهف / ٥٠) وقال: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإٍ مسنون والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾ (الحجر / ٢٧)، وقال أيضاً: ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار﴾ (الرحمن / ١٥).

لكنه تعالى لم يصدقه فيما ذكره من خيريته منه فإنه تعالى وإن لم يرد عليه قوله: «أنا خير منه خلقتني من نار» الخ؛ في هذه السورة إلا أنه بين فضل آدم عليه وعلى الملائكة في حديث الخلافة الذي ذكره في سورة البقرة للملائكة[1].

قوله تعالى: ﴿قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصّاغِرِينَ﴾ التكبر هو أخذ الإنسان مثلاً الكبر لنفسه وظهوره به على غيره فإن الكبر والصغر من الامور الإضافية، ويستعمل في المعاني غالباً فإذا أظهر الإنسان بقول أو فعل أنه أكبر من غيره شرفاً أو جاهاً أو نحو ذلك فقد تكبر عليه وعده صغيراً، واذ كان لا شرف ولا كرامة لشيء على شيء إلا ما شرفه الله وكرمه كان التكبر صفة مذمومة في غيره تعالى على الإطلاق اذ ليس لما سواه تعالى إلا الفقر والمذلة في أنفسهم من غير فرق بين شيء وشيء ولا كرامة إلا بالله من قبله، فليس لأحد من دون الله أن يتكبر على أحد، وإنما هو صفة خاصة بالله سبحانه فهو الكبير المتعال على الإطلاق فمن التكبر ما هو حق محمود وهو الذي لله عز اسمه أو ينتهي اليه بوجه كالتكبر على أعداء الله الذي هو في الحقيقة اعتزاز بالله، ومنه ما هو باطل مذموم وهو الذي يوجد عند غيره بدعوى الكبر لنفسه لا بالحق.

و«الصاغرين» جمع صاغر من الصغار وهو الهوان والذلة، والصغار في المعاني كالصغر في

---

١. الاعراف ١٠ ـ ٢٥: بحث في: تمرد ابليس؛ كون استكبار ابليس على ربّه لا على آدم عليه السلام.

الصور. وقوله: «فاخرج إنك من الصاغرين» تفسير وتأكيد لقوله: «فاهبط منها» لأن الهبوط خروج الشيء من مستقره نازلا فيدل ذلك على أن الهبوط المذكور إنما كان هبوطاً معنوياً لا نزولا من مكان جسماني الى مكان آخر. ويتأيد به ما تقدم أن مرجع الضمير في قوله: «منها» وقوله: «فيها» هو المنزلة دون السماء أو الجنة إلا أن يرجعا الى المنزلة بوجه.

والمعنى: قال الله تعالى: فتنزل عن منزلتك حيث لم تسجد لما أمرتك فإن هذه المنزلة منزلة التذلل والانقياد لي فما يحق لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين أهل الهوان. وإنما أُخذ بالصغار ليقابل به التكبر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ استمهال وإمهال. وقد فصل الله تعالى ذلك في موضع آخر بقوله: ﴿قال رب فانظرني إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾ (الحجر / ٣٨). (ص / ٨١). ومنه يعلم أنه أُمهل بالتقييد لا بالإطلاق الذي ذكره فلم يمهل الى يوم البعث بل ضرب الله لمهلته أجلا دون ذلك وهو يوم الوقت المعلوم. وسيجيء الكلام فيه في سورة الحجر إنشاء الله تعالى.

فقوله تعالى: «إنك من المنظرين» إنما يدل على إجمال ما أُمهل به. وفيه دلالة على أن هناك منظرين غيره.

واستمهاله الى يوم البعث يدل على أنه كان من همه أن يديم على إغواء هذا النوع في الدنيا وفي البرزخ جميعاً حتى تقوم القيامة فلم يجبه الله سبحانه الى ما استدعاه بل لعله أجابه الى ذلك الى آخر الدنيا دون البرزخ فلا سلطان له في البرزخ سلطان الإغواء والوسوسة وإن كان ربما صحب الإنسان بعد موته في البرزخ مصاحبة الزوج والقرين كما يدل عليه ظاهر قوله تعالى: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس

القرين ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون﴾ (الزخرف / ٣٩)، وظاهر قوله: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ (الصافات / ٢٢).

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الى آخر الآية: الإغواء هو الإلقاء في الغي والغي والغواية هو الضلال بوجه والهلاك والخيبة، والجملة أعني قوله: «أغويتني» وإن فسر بكل من هذه المعاني على اختلاف أنظار المفسرين غير أن قوله تعالى في سورة الحجر فيما حكاه عنه: «قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين» يؤيد أن مراده هو المعنى الأول، والباء في قوله: «فبما» للسببية أو المقابلة، والمعنى: فبسبب إغوائك إياي أو في مقابلة إغوائك إياي لأقعدن لهم، الخ؛ وقد أخطأ من قال: إنها للقسم وكأن القائل أراد أن يطبقه على قوله تعالى في موضع آخر حكاية عنه: ﴿قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين﴾ (ص / ٨٢).

وقوله: «لأقعدن لهم صراطك المستقيم» أي لأجلسن لأجلهم على صراطك المستقيم وسبيلك السوي الذي يوصلهم إليك وينتهي بهم الى سعادتهم لما أن الجميع سائرون إليك سالكون لا محالة مستقيم صراطك فالقعود على الصراط فالقعود على الصراط المستقيم كناية عن التزامه والترصد لعابريه ليخرجهم منه.

وقوله: «ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم» بيان لما يصنعه بهم وقد كمن لهم قاعداً على الصراط المستقيم، وهو أنه يأتيهم من كل جانب من جوانبهم الأربعة.

وإذ كان الصراط المستقيم الذي كمن لهم قاعداً عليه أمراً معنوياً كانت الجهات التي يأتيهم منها معنوية لا حسية والذي يستأنس من كلامه تعالى لتشخيص المراد بهذه الجهات كقوله تعالى: ﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ (النساء / ١٢٠)، وقوله ﴿إنما

ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ﴾ (آل عمران / ١٧٥) وقوله: ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ (البقرة / ١٦٨)، وقوله: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾ (البقرة / ٢٦٨) الى غير ذلك من الآيات الكثيرة هو أن المراد مما بين أيديهم ما يستقبلهم من الحوادث أيام حياتهم مما يتعلق به الآمال والأماني من الامور التي تهواه النفوس وتستلذه الطباع، ومما يكرهه الإنسان ويخاف نزوله به كالفقر يخاف منه لو أنفق المال في سبيل الله أو ذم الناس ولومهم لو ورد سبيلا من سبل الخير والثواب.

والمراد بخلفهم ناحية الأولاد والأعقاب فللإنسان فيمن يخلفه بعده من الأولاد آمال وأماني ومخاوف ومكاره فإنه يخيل إليه أنه يبقى ببقائهم فيسره ما يسرهم ويسوءه ما يسوؤهم فيجمع المال من حلاله وحرامه لأجلهم، ويعدلهم ما استطاع من قوة فيهلك نفسه في سبيل حياتهم.

والمراد باليمين وهو الجانب القوي الميمون من الإنسان ناحية سعادتهم وهو الدين وإتيانه من جانب اليمين أن يزين لهم المبالغة في بعض الامور الدينية، والتكلف بما لم يأمرهم به الله وهو الذي يسميه الله تعالى باتباع خطوات الشيطان.

والمراد بالشمال خلاف اليمين، وإتيانه منه أن يزين لهم الفحشاء والمنكر ويدعوهم إلى ارتكاب المعاصي واقتراف الذنوب واتباع الأهواء.

قوله تعالى: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ﴾ الخ: المذؤوم من ذامه يذامه ويذيمه اذا عابه وذمه، والمدحور من دحره اذا طرده ودفعه بهوان.

وقوله: «لمن تبعك منهم» الخ: اللام للقسم وجوابه هو قوله: «لأملان جهنم» الخ: لما كان مورد كلام إبليس ـ وهو في صورة التهديد بالانتقام ـ هو بني آدم وأنه سيبطل غرض الخلقة فيهم وهو كونهم شاكرين أجابه تعالى بما يفعل بهم وبه فقال: «لمن تبعك منهم» محاذاة لكلامه ثم قال: «لأملان جهنم منكم أجمعين» أي منك ومنهم فأشركه في الجزاء معهم.

وقد امتن تعالى في كلمته هذه التي لابد أن تتم فلم يذكر جميع من تبعه بل أتى بقوله «منكم» وهو يفيد التبعيض.

قوله تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ الى آخر الآية: خص بالخطاب آدم ﷺ وأُلحق به في الحكم زوجته، وقوله: «فكلا من حيث شئتما» توسعة في إباحة التصرف إلا ما استثناء بقوله: «ولا تقربا هذه الشجرة» والظلم هو الظلم على النفس دون معصية الأمر المولوي فإن الأمر إرشادي.

قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ الى آخر الآية: الوسوسة هي الدعاء الى أمر بصوت خفي. والمواراة ستر الشيء بجعله وراء ما يستره، والسوآة جمع السوءة وهي العضو الذي يسوء الانسان إظهاره والكشف عنه، وقوله: «مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين» الخ: أي إلا كراهة أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين.

والملك وإن قرىء بفتح اللام إلا أن فيه معنى الملك ـ بالضم فالسكون ـ والدليل عليه قوله في موضع آخر: ﴿قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ (طه / ١٢٠).

ونقل في المجمع عن السيد المرتضى ﷺ احتمال أن يكون المراد بقوله: «إلا أن يكونا ملكين» الخ: أنه أوهمها أن المنهي عن تناول الشجرة الملائكة خاصة والخالدون دونهما فيكون كما يقول أحدنا لغيره: ما نهيت عن كذا إلا أن تكون فلاناً، وإنما يريد أن المنهي إنما هو فلان دونك، وهذا أوكد في الشبهة واللبس عليهما (انتهى). لكن آية سورة طه المنقولة آنفاً تدفعه.

قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ المقاسمة المبالغة في القسم أي حلف لهما وأغلظ في حلفه أنه لهما لمن الناصحين. والنصيح خلاف الغش.

قوله تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ الى آخر الآية: التدلية التقريب والايصال كما أن

التدلي الدنو والاسترسال، وكأنه من الاستعارة من دلوت الدلو أي أرسلتها، والغرور إظهار النصح مع إبطان الغش، والخصف الضم والجمع، ومنه خصف النعل.

وفي قوله: «وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة» دلالة على أنهما عند توجه هذا الخطاب كانا في مقام البعد من ربهما لأن النداء هو الدعاء من بعد، وكذا من الشجرة بدليل قوله: «تلكما الشجرة» بخلاف قول عند أول ورودهما الجنة: «ولا تقربا هذه الشجرة».

قوله تعالى: ﴿قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخاسِرِينَ﴾ هذا منهما نهاية التذلل والابتهال، ولذلك لم يسألا شيئاً وإنما ذكرا حاجتهما الى المغفرة والرحمة وتهديد الخسران الدائم المطلق لهما حتى يشاء الله ما يشاء.

قوله تعالى: ﴿قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ الى آخر الآية؛ كأن الخطاب لآدم وزوجته وإبليس، وعداوة بعضهم لبعض هو ما يشاهد من اختلاف طبائعهم، وهذا قضاء منه تعالى والقضاء الآخر قوله: «ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين أي الى آخر الحياة الدنيوية، وظاهر السياق أن الخطاب الثاني أيضاً يشترك فيه الثلاثة.

قوله تعالى: ﴿قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَفِيها تَمُوتُونَ وَمِنْها تُخْرَجُونَ﴾ قضاء آخر يوجب تعلقهم بالأرض الى حين البعث، وليس من البعيد أن يختص هذا الخطاب بآدم وزوجته وبنيهما، لما فيه من الفصل بلفظة «قال» وقد مر تفصيل الكلام في قصة الجنة في سورة البقرة فليراجعها من شاء[1][2][3].

---

١. الاعراف ١٠ ـ ٢٥: كلام في ابليس وعمله.

٢. الاعراف ١٠ ـ ٢٥: بحث عقلي وقرآني في: صورة مناظرة جرت بين الملائكة وابليس؛ الحكمة في الخلق؛ الفائدة في التكليف؛ التكليف بالسجود لآدم؛ ما الفائدة في عقاب ابليس؛ لمَ سلط ابليس على اولاد آدم.

٣. الاعراف ١٠ ـ ٢٥: بحث روائي في الشيطان وعمله.

٢٦ ● يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً
وَلِباسُ التَّقْوىٰ ذٰلِكَ خَيْرٌ ذٰلِكَ مِنْ آياتِ اللّٰهِ لَعَلَّهُمْ
يَذَّكَّرُونَ.
٢٧ ● يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ
ٱلْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ
وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ
لا يُؤْمِنُونَ.
٢٨ ● وَإِذٰا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللّٰهُ أَمَرَنا بِها
قُلْ إِنَّ اللّٰهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللّٰهِ ما لا
تَعْلَمُونَ.
٢٩ ● قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ
وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ.
٣٠ ● فَرِيقاً هَدىٰ وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا
الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ.
٣١ ● يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا
وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ.
٣٢ ● قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللّٰهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ
الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ

ٱلقِيٰمَةِ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلآيٰاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.

٣٣ ● قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلحَق وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللّٰهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى ٱللّٰهِ ما لا تَعْلَمُونَ.

٣٤ ● وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ.

٣٥ ● يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي فَمَنِ ٱتَّقىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ.

٣٦ ● وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولٰئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً﴾ اللباس كل ما يصلح للبس وستر البدن وغيره، وأصله مصدر يقال: لبس يلبس لبساً ـ بالكسر والفتح ـ ولباساً، والريش ما فيه الجمال مأخوذ من ريش الطائر لما فيه من أنواع الجمال والزينة، وربما يطلق على أثاث البيت ومتاعه.

وكأن المراد من انزال اللباس والريش عليهم خلقه لهم كما في قوله تعالى: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع﴾ (الحديد / ٢٥)، وقوله: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ (الزمر / ٦)، وقد قال تعالى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ (الحجر / ٢١)، فقد أنزل الله اللباس والريش بالخلق من غيب ما عنده الى عالم الشهادة وهو

الخلق.

واللباس هو الذي يعمله الإنسان صالحاً لأن يستعمله بالفعل دون المواد الأصلية من قطن أو صوف أو حرير أو غير ذلك مما يأخذه الإنسان فيضيف إليه أعمالاً صناعية من تصفية وغزل ونسج وقطع وخياطة فيصير لباساً صالحاً للبس فعد اللباس والريش من خلق الله وهما من عمل الإنسان نظير ما في قوله تعالى: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ (الصافات / ٩٦)، من النسبة.

ولا فرق من جهة النظر في التكوين بين نسبة ما عمله الإنسان الى الله سبحانه وما عمله منته الى أسباب جمة أحدها الإنسان، ونسبة سائر ما عملته الطبائع ولها أسباب كثيرة أحدها الفاعل كنبات الأرض وصفرة الذهب وحلاوة العسل فإن جميع الأسباب بجميع ما فيها من القدرة منتهية إليه سبحانه وهو محيط بها.

وليست الخلقة منتسبة الى الأشياء على وتيرة واحدة وإن كانت جميع مواردها متفقة في معنى الانتهاء إليه إلا ما فيه معنى النقص والقبح والشناعة من المعاصي ونحوها فحقيقتها فقدان الخلقة الحسنة أو مخالفة الأمر الإلهي، وليست بمخلوقة له وإنما هي أوصاف نقص في أعمال الإنسان مثلاً في باطنه أو ظاهره، وقد تكررت الإشارة الى هذه الحقيقة فيما مر من أجزاء هذا الكتاب.

وتوصيف اللباس بقوله: «يواري سوآتكم» للدلالة على أن المراد باللباس ما ترفع به حاجة الإنسان التي اضطرته الى اتخاذ اللباس وهي مواراة سوآته التي يسوؤه انكشافها وأما الريش فإنما يتخذه لجمال زائد على أصل الحاجة.

وفي الآية امتنان بهداية الإنسان الى اللباس والريش وفيها ـ كما قيل ـ دلالة على إباحة لباس الزينة.

قوله تعالى: ﴿ وَلِباسُ التَّقْوىٰ ذٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ الى آخر الآية؛ انتقل سبحانه من ذكر

لباس الظاهر الذي يواري سوآت الإنسان فيتقي به أن يظهر منه ما يسوؤه ظهوره. الى لباس الباطن الذي يواري السوآت الباطنية التي يسوء الإنسان ظهورها وهي رذائل المعاصي من الشرك وغيره. وهذا اللباس هو التقوى الذي أمر الله به.

وذلك أن الذي يصيب الإنسان من ألم المساءة وذلة الهوان من ظهور سوآته روحي من سنخ واحد في السوآتين إلا أن ألم ظهور السوآت الباطنية أشد وأمر وأبقى فالمحاسب هو الله، والتبعة شقوة لازمة، ونار تطلع على الأفئدة، ولذلك كان لباس التقوى خيراً من لباس الظاهر.

وللإشارة الى هذا المعنى وتتميم الفائدة عقب الكلام بقوله: «ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون» فاللباس الذي اهتدى إليه الإنسان ليرفع به حاجته الى مواراة سوآته التي يسوؤه ظهورها آية إلهية إن تأمله الإنسان وتبصر به تذكر أن له سوآت باطنية تسوؤه إن ظهرت وهي رذائل النفس، وسترها عليه أوجب وألزم من ستر السوآت الظاهرية بلباس الظاهر واللباس الذي يسترها ويرفع حاجة الإنسان الضرورية هو لباس التقوى الذي أمر الله به وبيّنه بلسان أنبيائه.

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ الى آخر الآية. الكلام وإن كان مفصولاً عما قبله بتصديره بخطاب: «يا بني آدم» إلا أنه بحسب المعنى من تتمة المفاد السابق، ولذا أعاد ذكر السوآت ثانياً فيرجع المعنى الى أن لكم معاشر الآدميين سوآت لا يسترها إلا لباس التقوى الذي ألبسناكموه بحسب الفطرة التي فطرناكم عليها فإياكم أن يفتنكم الشيطان فينزع عنكم ذلك كما نزع لباس أبويكم في الجنة ليريهما سوآتهما فإنا جعلنا الشياطين أولياء لمن تبعهم ولم يؤمن بآياتنا.

ومن هنا يظهر أن ما صنعه إبليس بهما في الجنة من نزع لباسهما ليريهما سوآتهما كان مثالاً لنزع لباس التقوى عن الآدميين بالفتنة وأن الإنسان في جنة السعادة ما لم يفتتن به فإذا افتتن

أخرجه الله منها.

وقوله: «إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم» تأكيد للنهي وبيان لدقة مسلكه وخفاء سربه دقة لا يميزه حس الانسان وخفاء لا يقع عليه شعوره فإنه لا يرى إلا نفسه من غير أن يشعر أن وراءه من يأمر بالشر ويهديه الى الشقوة.

وقوله: «إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون» تأكيداً آخر للنهي، وليست ولايتهم وتصرفهم في الانسان إلا ولاية الفتنة والغرور فإذا افتتن واغتر بهم تصرفوا بما شاؤوا وكما أرادوا كما قال تعالى مخاطباً لابليس: ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا﴾ (الاسراء / ٦٥)، وقال: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ (النحل / ٩٩)، وقال: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾ (الحجر / ٤٢).

ومن الآيات بانضمامها الى آيتنا المبحوث عنها يظهر أن لا ولاية لهم على المؤمنين وإن مسهم طائف منهم أحياناً، وأن لا سلطان له على المتوكلين من المؤمنين وهم الذين عدّهم الله عباداً له بقوله: «عبادي» فلا ولاية له إلا على الذين لا يؤمنون.

والظاهر أن المراد به عدم الايمان بآيات الله بتكذيبها وهو أخص من وجه من عدم الايمان بالله الذي هو الكفر بالله بشرك أو نفي، وذلك لأن هذا الكفر هو المذكور في الخطاب العام الذي في ذيل القصة من سورة البقرة حيث قال تعالى: ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى ـ الى أن قال ـ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أُولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ (البقرة / ٣٩)، وفي ذيل هذه الآيات من هذه السورة حيث قال: ﴿والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أُولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ (الأعراف / ٣٦).

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها ﴾

الى آخر الآية: رجوع من الخطاب العام لبني آدم الى خطاب النبي ﷺ خاصة ليتوسل به الى انتزاع خطابات خاصة يوجهها الى أُمته كما جرى نظيره من الالتفات في الخطاب المتقدم يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً حيث قال: «ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون» لنظير الغرض.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لما نفت الآية السابقة أن يأمر الله سبحانه بالفحشاء وذكرت أن ذلك افتراء عليه وقول بغير علم لعدم انتهائه الى وحي ما أُوحي به الله بادرت هذه الآية إلى ذكر ما أمر به وهو لا محالة أمر يقابل ما استشنعته الآية السابقة وعدته فحشاء لما فيه من بلوغ القبح والإفراط والتفريط فقال: «قل أمر ربي بالقسط» الخ.

والقسط على ما ذكره الراغب هو النصيب بالعدل كالنصف والنصفة قال: «ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط» «وأقيموا الوزن بالقسط» والقسط هو أن يأخذ قسط غيره، وذلك جور والإقساط أن يعطي قسط غيره، وذلك إنصاف ولذلك قيل: قسط الرجل اذا جار وأقسط اذا عدل قال: «وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً» وقال «وأقسطوا إن الله يحب المقسطين». انتهى كلامه.

فالمراد: قل أمر ربي بالنصيب العدل ولزوم وسط الاعتدال في الامور كلها وأن تجتنبوا جانبي الإفراط والتفريط فأقسطوا وأنيبوا وأقروا نفوسكم عند كل معبد تعبدون الله فيه وادعوه بإخلاص الدين له من غير أن تشركوا بعبادته صنماً أو أحداً من آبائكم وكبرائكم بالتقليد لهم وهذا هو القسط في العبادة.

فقوله: «وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد» معطوف ظاهراً على مقول القول لأن معنى أمر ربي بالقسط: أقسطوا، فيكون التقدير: أقسطوا وأقيموا، الخ؛ والوجه هو ما يتوجه به الى الشيء، وهو في حال تمام النفس الإنسانية، وإقامتها عندها إيجاد القيام بالأمر لها أي إيفاؤه

والإتيان به كما ينبغي تاماً غير ناقص فيؤول معنى إقامة الوجه عند العبادة الى الاشتغال بالعبادة والانقطاع عن غيرها.

فيفيد قوله: «وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد» اذا انضم إليه قوله: «وادعوه مخلصين له الذين» وجوب الانقطاع للعبادة عن غيرها ولله سبحانه عن غيره كما عرفت ومن الغير الذي يجب الانقطاع عنه الى الله سبحانه نفس العبادة، وإنما العبادة توجه لا متوجه إليها، والتوجه إليها يبطل معنى كونها عبادة وتوجهاً الى الله فيجب أن لا يذكر الناسك في نسكه إلا ربه وينسى غيره.

قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ، فَرِيقاً هَدىٰ وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ الى آخر الآية. ظاهر السياق أن يكون قوله: «فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة» حالا من فاعل «تعودون» ويكون هو الوجه المشترك الذي شبه فيه العود بالبدء، والمعنى تعودون فريقين كما بدأكم فريقين نظير قوله تعالى: ﴿ولقد جئتمونا أفراداً كما خلقناكم أول مرة﴾ (الأنعام / ٩٤)، والمعنى لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة فرادى.

فهذا هو الظاهر المستفاد من الكلام، وأما كون «فريقاً هدى» الخ؛ حالا لا يعدو عامله، ووجه الشبه بين البدء والعود أمراً آخر غير مذكور ككونهم فرادى بدءً وعوداً أو كون الخلق الأول والثاني جميعاً من تراب أو كون البعث مثل الإنشاء في قدرة الله الى غير ذلك مما احتملوه فوجوه بعيدة عن دلالة الآية، وأي فائدة في حذف وجه الشبه من الذكر وذكر ما لا حاجة إليه مع وقوع اللبس، وسيجيء إن شاء الله توضيح ذلك.

وظاهر البدء في قوله: «بدأكم» أول خلقة الإنسان الدنيوية لا مجموع الحياة الدنيوية قبال الحياة الاخروية فيكون البدء هو الحياة الدنيا والعود هو الحياة الاخرى فيكون المعنى كنتم في الدنيا مخلوقين له هدى فريقاً منكم وحقت الضلالة على فريق آخر كذلك تعودون كما

يؤول إليه قول من قال: «إن معنى الآية: تبعثون على ما متم عليه: المؤمن على إيمانه، والكافر على كفره».

وذلك أن ظاهر البدء اذا نسب الى شيء ذي امتداد واستمرار بوجه أن يقع على أقدم أجزاء وجوده الممتد المستمر لا على الجميع، والخطاب للناس فبدؤهم أول خلقة النوع الانساني وبدؤ ظهوره. على أن الآية من تتمة الآيات التي يبين الله سبحانه فيها بدء إيجاده الإنسان بمثل قوله: «ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم» الخ؛ فالمراد به كيفية البدء التي قصها في أول كلامه، وقد كان من القصة أن الله قال لإبليس لما رجمه: ﴿أُخرج منها مذؤوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ وفيه قضاء أن ينقسم بنو آدم فريقين فريقاً مهتدين على الصراط المستقيم، وفريقاً ضالين حقاً فهذا هو الذي بدأهم به وكذلك يعودون.

وأما قوله: «إنهم اتخذوا الشياطين أولياء» فهو تعليل لثبوت الضلالة ولزومها لهم في قوله: «حقت عليهم الضلالة» كأن كلمة الضلال والخسران صدرت من مصدر القضاء في حقهم مشروطاً بولاية الشيطان كما يذكره في قوله: ﴿كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله﴾ (الحج / ٤).

فلما تولوا الشياطين في الدنيا حقت عليهم الضلالة ولزمتهم لزوماً لا انفكاك بعده أبداً وهذا نظير ما يستفاد من قوله: ﴿ وقيّضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أُمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين﴾ (حم السجدة / ٢٥).

وأما قوله: «ويحسبون أنهم مهتدون» فهو كعطف التفسير بالنسبة الى الجملة السابقة يفسر به معنى تحقق الضلالة ولزومها فإن الإنسان مهما ركب غير طريق الحق واعتنق الباطل وهو يعترف بأنه من الباطل ولما ينس الحق أو شك أن يعود الى الحق الذي فارقه وكان مرجواً

أن ينتزع عن ضلاله الى الهدى أما اذا اعتقد حقية الباطل الذي هو عليه، وحسب أنه على الهدى وهو في ضلال فقد استقر فيه شيمة الغي وحقت عليه الضلالة ولا يرجى معه فلاح أبداً.

فقوله: «ويحسبون أنهم مهتدون» كالتفسير لتحقق الضلالة لكونه من لوازمه، وقد قال تعالى في موضع آخر: ﴿قل هل ننبؤكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سيعهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾ (الكهف / ١٠٤)، وقال تعالى: ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾ (البقرة / ٧).

فقوله: «كما بدأكم تعودون» معناه فليس بعثكم بأشد من ابتدائكم.

وفيه: ما في الوجه السابق على أنه تحكم من غير دليل.

ومن قائل: إنه كلام مستأنف. وقد تقدم ذكره.

ومن قائل: إنه متصل بما سبقه، والمعنى: أخلصوا لله في حياتكم فإنكم تبعثون على متم عليه: المؤمن على إيمانه، والكافر على كفره.

وفيه: أنه مبني على كون المراد بالبدء هو مجموع الحياة الدنيا في قبال الحياة الآخرة ثم تشبيه بالعود وهو الحياه الآخرة بآخر الحياة الاولى المسماة بعثاً. والآية ـ كما تقدم ـ بمعزل عن الدلالة على هذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الى آخر الآية؛ قال الراغب: السرف تجاوز الحد في كل فعل يفعله الانسان، وإن كان ذلك في الإنفاق اشهر. انتهى.

أخذ الزينة عند كل مسجد هو التزين الجميل عند الحضور في المسجد، وهو إنما يكون بالطبع للصلاة والطواف وسائر ذكر الله فيرجع المعنى الى الأمر بالتزين الجميل للصلاة

ونحوها، ويشمل باطلاقه صلوات الأعياد والجماعات اليومية وسائر وجوه العبادة والذكر.

وقوله: «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا» الخ: أمران إباحيان ونهي تحريمي معلل بقوله: «إنه لا يحب المسرفين» والجميع مأخوذة من قصة الجنة كما مرت الإشارة إليه، وهي كما تقدم خطابات عامة لا تختص بشرع دون شرع ولا بصنف من أصناف الناس دون صنف.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ هذا من استخراج حكم خاص ـ بهذه الامة ـ من الحكم العام السابق عليه بنوع من الالتفات نظير ما تقدم في قوله: «ذلكم من آيات الله لعلهم يذكرون» وقوله فإذا فعلوا فاحشة» الآية.

والاستفهام إنكاري. والزين يقابل الشين وهو ما يعاب به الإنسان فالزينة ما يرتفع به العيب ويذهب بنفرة النفوس. والإخراج كناية عن الإظهار واستعارة تخييلية كأن الله سبحانه بإلهامه وهدايته الإنسان من طريق الفطرة الى إيجاد أنواع الزينة التي يستحسنها مجتمعه ويستدعي انجذاب نفوسهم إليه وارتفاع نفرتهم واشمئزازهم عنه يخرج لهم الزينة وقد كانت مخبية خفية فأظهرها لحواسهم[(١)(٢)].

قوله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لا ريب أن الخطاب في صدر الآية إما لخصوص الكفار أو يعمهم والمؤمنين جميعاً كما يعمهم جميعاً ما في الآية السابقة من الخطاب بقوله: «يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا» ولازمه أن تكون الزينة وطيبات الرزق موضوعة على الشركة بين الناس جميعاً، مؤمنهم وكافرهم.

---

١. الاعراف ٢٦ ـ ٣٦: كلام في معنى اخراج زينة الله لعباده والطيبات من الرزق.

٢. الاعراف ٢٦ ـ ٣٦: كلام في جواب بعض المنصفين من النصارى الى دعاة النصارى الى دعاة النصرانية في الطعن في الإسلام.

فقوله: «قل هي للذين آمنوا» الخ؛ مسوق لبيان ما خص الله سبحانه به المؤمنين من عباده من الكرامة والمزية، واذ قد اشتركوا في نعمه في الدنيا فهي خالصة لهم في الآخرة، ولازم ذلك أن يكون قوله: «في الحياة الدنيا» متعلقاً بقوله: «آمنوا» وقوله: «يوم القيامة» متعلقاً بما تعلق به قوله: «للذين آمنوا» وهو قولنا كائنة أو ما يقرب منه، «وخالصة» حال عن الضمير المؤنث وقدمت على قوله: «يوم القيامة» لتكون فاصلة بين قوله: «في الحياة الدنيا» و«يوم القيامة» والمعنى: قل هي للمؤمنين يوم القيامة وهي خالصة لهم لا يشاركهم فيها غيرهم كما شاركوهم في الدنيا فمن آمن في الدنيا ملك نعمها يوم القيامة.

وقد امتن الله تعالى في ذيل الآية على أهل العلم بتفصيل البيان اذ قال: «كذلك يفصل الآيات لقوم يعلمون».

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الى آخر الآية، قد تقدم البحث المستوفى عن مفردات الآية فيما مر، وأن الفواحش هي المعاصي البالغة قبحاً وشناعة كالزنا واللواط ونحوهما، والإثم هو الذنب الذي يستعقب انحطاط الإنسان في حياته وذلة وهواناً وسقوطاً كشرب الخمر الذي يستعقب للإنسان تهلكة في جاهه وماله وعرضه ونفسه ونحو ذلك، والبغي هو طلب الإنسان ما ليس له بحق كأنواع الظلم والتعدي على الناس والاستيلاء غير المشروع عليهم، ووصفه بغير الحق من قبيل التوصيف باللازم نظير التقييد الذي في قوله: «ما لم ينزل به سلطاناً».

وكان إلقاء الخطاب بإباحة الزينة وطيبات الرزق داعياً لنفس السامع الى أن يحصل على ما حرمه الله فألقى الله سبحانه في هذه الآية جماع القول في ذلك، ولا يشذ عما ذكره شيء من المحرمات الدينية، وهي تنقسم بوجه الى قسمين: ما يرجع الى الأفعال وهي الثلاثة الاول، وما يرجع الى الأقوال والاعتقادات وهو الأخيران، والقسم الأول منه ما يرجع الى الناس وهو البغي بغير الحق، ومنه غيره وهو إما ذو قبح وشناعة فالفاحشة، وإما غيره فالإثم،

والقسم الثاني إما شرك بالله أو افتراء على الله سبحانه.

قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ الى آخر الآية: هي حقيقة مستخرجة من قوله تعالى في ذيل القصة: «قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون» نظير الأحكام الاخر المستخرجة منها المذكورة سابقاً. ومفاده أن الامم والمجتمعات لها أعمال وآجال نظير ما للأفراد من الأعمار والآجال.

وربما استفيد من هذا التفريع والاستخراج أن قوله تعالى في ذيل القصة سابقاً: «قال فيها تحيون» الخ: راجع الى حياة كل فرد فرد وكل أمة أمة، وهي بعض عمر الإنسانية العامة. وأن قوله قبله: «ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين» راجع الى حياة النوع الى حين وهو حين الانقراض أو البعث. وهذا هو عمر الإنسانية العامة في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾ الى آخر الآيتين. «إما» أصله إن الشرطية دخلت على ما. وفي شرطها النون الثقيلة. وكأن ذلك يفيد أن الشرط محقق لا محالة. والمراد بقص الآيات بيانها وتفصيلها لما فيه من معنى القطع والإبانة عن مكمن الخفاء.

والآية احدى الخطابات العامة المستخرجة من قصة الجنة المذكورة هيهنا وهي رابعها وآخرها يبين للناس التشريع الإلهي العام للدين باتباع الرسالة وطريق الوحي. والأصل المستخرج عنه هو مثل قوله في سورة طه: ﴿ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى ﴾ الخ: فبين أن اتيان الهدى منه انما يكون بطريق الرسالة[١][٢].

---

١. الاعراف ٢٦ ـ ٣٦: بحث روائي في: سنن الجاهلية في الطواف: تحريم ما احل الله: ان الله لا يأمر بالفحشاء: ان الله جميل يحب الجمال.

٢. الاعراف ٢٦ ـ ٣٦: بحث روائي مختلط بغيره في كيفية خلق الانسان: سعادة الانسان وشقاوته: معنى كون الطينة من الجنة أو النار: الماء العذب الفرات والملح الاجاج: النور والظلمة: فعل الله.

٣٧ ● فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ أُولٰئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ ٱلْكِتابِ حَتّىٰ إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ قالُوا ضَلُّوا عَنّا وَشَهِدُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ.

٣٨ ● قالَ ٱدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ فِي النّارِ كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها حَتّىٰ إِذا ٱدّارَكُوا فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هٰؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلٰكِنْ لا تَعْلَمُونَ.

٣٩ ● وَقالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا ٱلعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ.

٤٠ ● إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَلا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتّىٰ يَلِجَ ٱلجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِياطِ وَكَذٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ.

٤١ ● لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ وَكَذٰلِكَ نَجْزِي الظّالِمِينَ.

٤٢ ● وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلّا وُسْعَها أُولٰئِكَ أَصْحابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ.

٤٣ ● وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهارُ

وَقالُوا ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي هَدانا لِهٰذا وَما كُنّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ
هَدانَا ٱللّٰهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ
ٱلجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.
٤٤ ۞ وَنادىٰ أَصْحابُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحابَ النّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا
رَبُّنا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ
مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللّٰهِ عَلَى الظّالِمِينَ.
٤٥ ۞ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالآخِرَةِ
كافِرُونَ.
٤٦ ۞ وَبَيْنَهُما حِجابٌ وَعَلَى ٱلأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ
بِسِيماهُمْ وَنادَوْا أَصْحابَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ
يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ.
٤٧ ۞ وَإِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النّارِ قالُوا رَبَّنا لا
تَجْعَلْنا مَعَ ٱلْقَوْمِ الظّالِمِينَ.
٤٨ ۞ وَنادىٰ أَصْحابُ الأَعْرافِ رِجالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا
ما أَغْنىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ.
٤٩ ۞ أَهٰؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ ٱللّٰهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ لا
خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ.
٥٠ ۞ وَنادىٰ أَصْحابُ النّارِ أَصْحابَ ٱلجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ
ٱلْماءِ أَوْ مِمّا رَزَقَكُمُ اللّٰهُ قالُوا إِنَّ اللّٰهَ حَرَّمَهُما عَلَى

ٱلْكافِرِينَ.

٥١ ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيوٰةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ نَنْسيهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هٰذا وَمَا كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ.

٥٢ ﴿ وَلَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلىٰ عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

٥٣ ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِي كُنّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ﴾ تفريع على ما تتضمنه الآية السابقة من أعلام الشريعة العامة المبلغة بواسطة الرسل أي اذا كان الأمر على ذلك وقد أبلغ الله دينه العام جميع أولاد آدم وأخبر بما أعده من الجزاء للأخذ به وتركه فمن أظلم ممن استنكف عن ذلك إما بافتراء الكذب على الله، ونسبة دين إليه، ووضعه موضع ما أتى به الرسل من دين التوحيد. وقد أخبر الله أنهم وسائط بينه وبين خلقه في تبليغهم دينه، وإما بالتكذيب لآياته الدالة على وحدانيته وما يتبعه من الشرائع.

ومن هنا يظهر أن افتراء الكذب على الله وإن كان يعم كل بدعة في الدين أُصوله وفروعه غير أن المورد هو الشرك بالله باتخاذ آلهة دون الله، ويدل عليه ما سيأتي من قوله «قالوا أينما

كنتم تدعون من دون الله ».

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ الى آخر الآية . المراد بالكتاب ما قضي وكتب أن يصيب الانسان من مقدرات الحياة من عمر ومعيشة وغنى وصحة ومال وولد وغير ذلك ، والدليل عليه تقييده بقوله : « حتى اذا جاءتهم رسلنا » الخ ؛ والمراد به أجل الموت ، ومن المعلوم أنه غاية للحياة الدنيا بجميع شؤونها ومقارناتها .

والمراد بالنصيب من الكتاب السهم الذي يختص كل واحد منهم من مطلق ما كتب له ولغيره ، وفي جعل النصيب من الكتاب هو الذي ينالهم ، والأمر منعكس بحسب الظاهر دلالة على أن النصيب الذي فرض للإنسان وقضي له من الله سبحانه لم يكن ليخطئه البتة وما لم يفرض له لم يكن ليصيبه البتة .

والمعنى : أُولئك الذين كذبوا على الله بالشرك أو كذبوا بآياته بالرد لجميع الدين أو شطر منه ينالهم نصيبهم من الكتاب ، ونصيبهم ما قضي في حقهم من الخير والشر في الحياة الدنيا حتى اذا قضوا أجلهم وجاءتهم رسلنا من الملائكة وهم ملك الموت وأعوانه نزلوا عليهم وهم يتوفونهم ويأخذون أرواحهم ونفوسهم من أبدانهم سألوهم وقالوا : أين ما كنتم تدعون من دون الله من الشركاء الذين كنتم تدعون أنهم شركاء الله فيكم وشفعاؤكم عنده ؟ قالوا ضلوا عنا وإنما ضلت أوصافهم ونعوتهم ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين بمعاينة حقيقة الأمر أن غير الله سبحانه لا ينفع ولا يضر شيئاً ، وقد أخطأوا في نسبة ذلك الى أوليائهم .

وفي مضمون الآية جهات من البحث تقدمت في نظيرة الآية من سورة الأنعام وغيرها .

قوله تعالى : ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ الخطاب من الله سبحانه دون الملائكة وإن كانوا في وسائط في التو في وغيره ،

والمخاطبون بحسب سياق اللفظ هم بعض الكفار وهم الذين توفيت قبلهم أُمم من الجن والإنس إلا أن الخطاب في معنى: ادخلوا فيما دخل فيه سابقوكم ولاحقوكم وإنما نظم الكلام هذا النظم ليتخلص به الى ذكر التخاصم الذي يقع بين متقدميهم ومتأخريهم، وقد قال تعالى: ﴿إن ذلك لحق تخاصم أهل النار﴾ (ص / ٦٤).

وفي الآية دلالة على أن من الجن أمماً يموتون بآجال خاصة قبل انتهاء أمد الدنيا على خلاف إبليس الباقي الى يوم الوقت المعلوم.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ هذا من جملة خصامهم في النار وهو لعن كل داخل من تقدم عليه في الدخول، واللعن هو الإبعاد من الرحمة ومن كل خير والاخت المثل.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً﴾ الى آخر الآيتين؛ اداركوا أي تداركوا أي أدرك بعضهم بعضاً اللاحقون السابقين أي اجتمعوا في النار جميعاً.

والمراد بالاولى والاخرى اللتين تتخاصمان ما هو كذلك بحسب الرتبة أو بحسب الزمان فإن الاولى منهم مقاماً وهم رؤساء الضلال، وأئمة الكفر المتبوعون أعانوا تابعيهم بإضلالهم على الضلال، وكذا الاولى منهم زماناً وهم الأسلاف المتقدمون أعانوا متأخريهم على ضلالتهم لأنهم هم الذين جرؤوهم بفتح الباب لهم وتمهيد الطريق لسلوكهم.

والضعف بالكسر فالسكون ما يكرر الشيء فضعف الواحد اثنان وضعف الاثنين أربعة غير أنه ربما أُريد به ما يوجب تكرار شيء آخر فقط كالاثنين يوجب بنفسه تكرار الواحد فضعف الواحد اثنان وضعفاه أَربعة، وربما أُريد به ما يوجب التكرار بانضمامه الى شيء كالواحد يوجب تكرار واحد آخر بانضمامه إليه لأنهما يصيران بذلك اثنين فكل واحد من جزئي الاثنين ضعف وهما جميعاً ضعفان نظير الزوج فالاثنان زوج وهما زوجان وعلى كلا الاعتبارين ورد استعماله في كلامه تعالى، قال تعالى كما في هذه الآية: «فآتهم عذاباً ضعفاً»

وقال تعالى: «ضعفين من العذاب».

وقوله: «قالت أُخراهم لاولاهم ربنا هؤلاء أضلونا» الخ: نوع من الالتفات لطيف في بابه فيه رجوع من مخاطبتهم بالمخاصمة الى مخاطبة الله سبحانه بالدعاء عليهم معللا بظلمهم فيفيد فائدة التكنية بالإشارة الى الملزوم وإفادة الملازمة. وفيه مع ذلك نوع من الإيجاز فإن فيه اكتفاء بمحاورة واحدة عن محاورتين، والتقدير قالت أُخراهم لاولاهم أنتم أشد ظلماً منا لأنكم ضالون في أنفسكم وقد أضللتمونا فليعذبكم الله عذاباً ضعفاً من النار، ثم رجعوا الى ربهم بالدعاء عليهم وقالوا ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً، الخ: فأجابهم الله وقال لكل ضعف ولكن لا تعلمون، ثم أجابتهم أُولاهم وقالوا: فما كان لكم علينا من فضل، الخ.

فمعنى الآية: ﴿حتى إذا اداركوا﴾ واجتمعوا بلحوق أُخراهم لأولاهم «فيها» أي في النار تخاصموا «وقالت أُخراهم» وهم اللاحقون مرتبة أو زماناً من التابعين «لاولاهم» وهم الملحقون المتبوعون من رؤسائهم وأئمتهم، ومن آبائهم والأجيال السابقة عليهم زماناً الممهدين لهم الطريق الى الضلال أنتم أضللتمونا بإعانتكم عليه فلتعذبوا بأشد من عذابنا فسألوا ربهم ذلك وقالوا: «ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار» يكون ضعف عذابنا لأنهم ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم بالإعانة «قال» الله سبحانه «لكل» من الاولى والاخرى «ضعف من العذاب» أما أُولاكم فإنهم ضلوا وأعانوكم على الضلال، وأما أنتم فإنكم ضللتم وأعنتموهم على الإضلال باتباع أمرهم وإجابة دعوة الرؤساء منهم، وتكثير سواد السابقين منهم باللحوق بهم «ولكن لا تعلمون» فإن العذاب إنما يتحقق أو يتم في مرحلة الإدراك والعلم. وأنتم تشاهدونهم أمثال أنفسكم في شمول العذاب وإحاطة النار فتتوهمون أن عذابهم مثل عذابكم وليس كذلك بل لهم من العذاب ما لا طريق لكم الى إدراكه والشعور به كما أنهم بالنسبة إليكم كذلك فما عندكم وعندهم من العذاب ضعف ولكن إحاطة العذاب شغلكم عن العلم بذلك.

وهذا خطاب إلهي مبني على القهر والإذلال فيه تعذيب لهم يسمعه أُولاهم وأُخراهم جميعاً فتعود به أُولاهم لاخراهم بالتهكم وتقول كما حكى الله: «وقالت أُولاهم لاخراهم فما كان لكم علينا من فضل» بخفة العذاب «فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون» في الدنيا من الذنوب والآثام.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ﴾ الى آخر الآية؛ السم هو الثقب وجمعه السموم، والخياط والمخيط الابرة.

والذي نفاه الله تعالى من تفتيح أبواب السماء مطلق في نفسه الفتح لولوج أدعيتهم وصعود أعمالهم ودخول أرواحهم غير أن تعقيبه بقوله: «ولا يدخلون الجنة» الخ؛ كالقرينة على أن المراد نفي أن يفتح بابها لدخولهم الجنة فإن ظاهر كلامه سبحانه أن الجنة في السماء كما هو في قوله: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ (الذاريات / ٢٢).

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ من التعليق بالمحال وإنما يعلق الأمر بالمحال كناية عن عدم تحققه وإياساً من وجوده كما يقال: لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب ويبيض الفار. وقد قال تعالى في موضع آخر في هذا المعنى: ﴿وما هم بخارجين من النار﴾ (البقرة / ١٦٧). والآية في معنى تعليل مضمون الآية السابقة، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ الخ؛ جهنم اسم من أسماء نار الآخرة التي بها التعذيب، وقد قيل: إنه مأخوذ من قولهم: «بئر جهنام» أي بعيدة القعر وقيل: فارسي معرب. و«المهاد» الوطاء الذي يتفرش، ومنه مهد الصبي والغواشي جمع غاشية وهي ما يغشى الشيء ويستره ومنه غاشية السرج.

وقد أُفيد بقوله: «لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش» أنهم محاطون بالعذاب من تحتهم ومن فوقهم، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾

الخ؛ الآية وما يتلوها لتتميم بيان حال الطائفتين الكفار والمؤمنين، ولتكون كالتوطئة لقوله الآتي «ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار» الخ.

وقوله: «لا نكلف نفساً إلا وسعها» مسوق للتخفيف وتقوية الرجاء في قلوب المؤمنين فإن تقييد الإيمان بعمل الصالحات ـ والصالحات جمع محلى باللام وهو يفيد الاستغراق ـ يفيد بظاهره لزوم العمل بجميع الصالحات حتى لا يشذ عنها شاذ. وما أقل من وفق لذلك من طبقة أهل الإيمان ويسد ذلك باب الرجاء على أكثر المؤمنين فذكر الله سبحانه أن التكليف على قدر الوسع فمن عمل من الصالحات ما وسعه أن يعمله من غير أن يشق على نفسه ويتحمل ما لا طاقة له به بعد الإيمان بالله فهو من أهل هذه الآية. ومن أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الغل هو الحقد وضغن القلوب وعداوتها، وفي مادتها معنى التوسط باللطف والحيلة ومنه الغلالة وهي الثوب المتوسطة بين الدثار والشعار. وغل الصدور من أعظم ما ينغص عيش الإنسان، وما من إنسان يعاشر إنساناً ويأتلف به إلا وائتلافه مشروط بأن يوافقه فيما يراه ويريده فإذا شاهد من حاله ما لا يرتضيه جاش صدره بالغل وراحت الألفة ونغصت العيشة فإذا ذهب الله سبحانه بغل الصدور لم يسؤ الإنسان ما يشاهده من أليفه على الإطلاق وهي اللذة الكبرى وفي قوله: «تجري من تحتها الأنهار» إشارة الى أنهم ساكنون في قصورها العالية.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا ـ إلى قوله ـ بِالْحَقِّ﴾ في نسبة التحميد إليهم دلالة على أن الله سبحانه يخلصهم لنفسه فلا يوجد عندهم اعتقاد باطل ولا عمل سيء كما قال تعالى: «لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً» الواقعة ٢٦، فيصح منهم تحميد الله سبحانه ويقع توصيفهم موقعه فليس توصيفه تعالى بحيث يصيب غرضه ويقع موقعه بذلك المبتذل حتى يناله كل ناظل. قال تعالى: ﴿سبحان الله عما يصفون

إلا عباد الله المخلصين ﴾ (الصافات / ١٦٠)، وقد تقدم القول في معنى الحمد وخصوصية حمده تعالى في تفسير سورة الحمد.

وفي قولهم: ﴿ هَدَانا لِهَذا وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدانَا اللّهُ ﴾ إشارة الى اختصاص الهداية به تعالى فليس الى الانسان من الأمر شيء.

وفي قولهم: ﴿ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ ﴾ اعتراف بحقية ما وعدهم الله تعالى بلسان أنبيائه، وهو الذي يأخذون الاعتراف به من أصحاب النار على ما تقصه الآية التالية. وفي هذا الاعتراف وسائر الاعترافات المأخوذة من الفريقين يوم القيامة من قبل مصدر العظمة والكبرياء ظهور منه تعالى بالقهر وتمام الربوبية، ويكون ذلك من أهل الجنة شكراً، ومن أهل النار تماماً للحجة.

واعتراف أهل المجمع بحقية ما وعدهم الله سبحانه بواسطة رسله هو من الحقائق العالية القرآنية وإن كان بحسب ساذج النظر معنى بسيطاً مبتذلاً. ولعلنا نوفق لشطر من البحث فيه في ذيل الكلام على هذه الآيات.

قوله تعالى: ﴿ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الإشارة بلفظ البعيد ـ تلكم ـ إشارة الى رفعة قدر الجنة وعلو مكانها فإن ظاهر السياق ـ كما قيل ـ أن النداء إنما هو حين كونهم في الجنة، وقد جعلت الجنة إرثاً لهم في قبال عملهم وإنما يتحقق الإرث فيما اذا كان هناك مال أو نحوه مما ينتفع به وهو في معرض انتفاع شخص ثم زال عنه الشخص فبقي لغيره يقال: ورث فلان أباه أي مات وترك مالاً بقي له، والعلماء ورثة الأنبياء أي مختصون بما تركوا لهم من العلم، ويرث الله الأرض أي إنه كان خولهم ما بها من مال ونحوه وسوف يموتون فيبقى له ما خولهم.

وعلى هذا فكون الجنة إرثاً لهم أورثوها معناه كونها خلقت معروضة لأن يكسبها بالعمل المؤمن والكافر جميعاً غير أن الكافر زال عنها بشركه ومعاصيه فتركها فبقيت للمؤمن فهو

الوارث لها بعمله، ولولا عمله لم يرثها. قال تعالى: ﴿أُولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس﴾ (المؤمنون / ١١).

وقال تعالى: حكاية عن أهل الجنة: ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوء من الجنة حيث نشاء﴾ (الزمر / ٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ النَّارِ﴾ الى آخر الآية؛ هذا في نفسه أخذ اعتراف من أصحاب النار بتوسط أصحاب الجنة وواقع موقع التهكم والسخرية يتهكم ويسخر به أصحاب الجنة من أصحاب النار. والاستهزاء والسخرية إنما يكون من اللغو الباطل اذا لم يتعلق به غرض حق كالاستهزاء بالحق وأهله أما اذا كان لغرض المقابلة والمجاراة أو لغرض آخر حق من غير محذور فليس من قبيل اللغو الذي لا يصدر عن أهل الجنة قال تعالى حكاية عن نوح ﷺ: ﴿ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون﴾ (هود / ٣٨)، وقال: ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون ـ الى أن قال ـ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾ (المطففين / ٣٤).

وأما الفرق بين قولهم: «ما وعدنا ربنا» وقولهم: «ما وعد ربكم» حيث ذكر المفعول في الوعد الأول دون الثاني فلعل ذلك للدلالة على نوع من التشريف فإن الظاهر أن المراد بما وعد الله جميع ما وعده من الثواب والعقاب لعامة الناس.

وهناك وجه آخر وهو أن متعلق اعتراف المؤمنين وإنكار الكفار من أمر المعاد مختلف في الدنيا فإن المؤمنين يثبتون البعث بجميع خصوصياته التي بينها الله لهم ووعدها إياهم. وأما الكفار المنكرون فإنهم ينكرون أصل البعث الذي اشترك في الوعد به المؤمنون والكفار جميعاً. ولذلك احتج الله سبحانه ويتم الحجة عليهم بأصله دون خصوصياته كقوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا﴾ (الأنعام / ٣٠).

وقوله: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا﴾ (الأحقاف / ٣٤).

وعلى هذا فقوله: «أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً» اعتراف منهم بحقية ما وعدهم الله وكانوا يذعنون به ويشهدون من جميع خصوصيات البعث بما قصهم الله في الدنيا بلسان أنبيائه، وأما الكفار فقد كانوا ينكرون أصل البعث والعذاب. وهو مما يشتركون فيه هم والمؤمنون فلذا قيل: «فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً» ولم يقل ما وعدكم ربكم لأن الوعد بأصل البعث والعذاب لم يكن مختصاً بهم.

وبذلك يظهر الجواب عما قيل: إن الوفاء بالوعد واجب دون الوفاء بالوعيد على ما ذكره المتكلمون فما معنى أخذ الاعتراف بحقية ما ذكره الله من عقاب الكفار والمجرمين وأنذرهم به في الدنيا، وليس تحققه بلازم.

وذلك أن الملاك فيما ذكروه من الفرق أن الثواب حق العامل على ولي الثواب الذي بيده الأمر، والعقاب حق الولي المثيب على العامل، ومن الجائز أن يصرف الشخص نظره عن إعمال حق نفسه لكن لا يجوز إبطال حق الغير فإنجاز الوعد واجب دون إنجاز الوعيد، وهذا إنما يتم في موارد الوعيد الخاصة ومصاديقه في الجملة، وأما عدم إنجاز أصل العقاب على الذنب وإبطال أساس المجازاة على التخلف فليس كذلك اذ في إبطال التشريع من أصله وإخلال النظام العام.

وربما وجه الفرق في قوليه: «وعدنا ربنا» «وعد ربكم» بأن المراد بقوله: «وعدنا» ما وعد الله المتقين من خصوصيات ما يعاملهم به يوم القيامة، وبقوله: «وعد ربكم» عموم ما وعد به المؤمنين والكفار من الثواب والعقاب يوم القيامة كالذي في قوله: «يا بني آدم إما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي» الى آخر الآيتين؛ ومن المعلوم أن هذا الوعد لا يختص بالكفار حتى يقال: وعدكم ربكم بل التعبير الحق وعد ربكم.

وفيه: أن أصل الفرق لا بأس به لكنه لا يقطع السؤال فللسائل أن يعود فيقول ما هو السبب الفارق في أن أصحاب الجنة لما أوردوا اعتراف نفسهم اقتصروا بذكر ما يخصهم من أُمور يوم القيامة، وأما اذا سألوا أصحاب النار سألوهم عن جميع ما وعد الله به المؤمنين والكفار؟ وبعبارة أُخرى هناك ما يشترك فيه الطائفتان وما يختص به كل منهما فما بالهم اذا اعترفوا هم أنفسهم اعترفوا بما يختص بأنفسهم ويسألون أصحاب النار الاعتراف بما يشترك فيه الجميع؟.

وربما وجه الفرق بأن المراد بقوله: «ما وعد ربكم» الذي وعده أصحاب الجنة من أنواع الثواب الجزيل فإن أصحاب النار يشاهدون ذلك كما يجدون ما بهم من أليم العقاب. وهو وجه سخيف على سخافته لا يغني طائلاً.

وقوله: «فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين» تفريع على تحقق الاعتراف من الطائفتين جميعاً على حقية ما وعده الله سبحانه، والأذان هو قوله: «لعنة الله على الظالمين» وهو إعلام عام للفريقين ـ والدليل عليه ظاهر قوله: «بينهم» بقضاء اللعنة وهي الابعاد والطرد من الرحمة الالهية على الظالمين وقد فسر الظالمين الذين ضربت عليهم باللعنة بقوله «الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون» فهم الكافرون المنكرون للآخرة الذين يصدون عن سبيل الله محرفة منحرفة، ويصرفون غيرهم عن سلوك الصراط المستقيم فهؤلاء هم المعاندون للحق المنكرون للمعاد.

وهذا الوصف يشمل جميع المعاندين للحق الكافرين بالجزاء حتى المنكرين للصانع الذين لا يدينون بدين فإن الله سبحانه يذكر في كتابه أن دينه وسبيله الذي يهدي إليه وبه هو سبيل الإنسانية الذي تدعو إليه الفطرة الإنسانية والخلقة خص بها الإنسان ليس وراءه إسلام ولا دين.

فالسبيل الذي يسلكه الإنسان في حياته هو سبيل الله وصراطه وهو الدين الإلهي فإن

سلكه على استقامة ما تدعو إليه الفطرة وهو الذي يسوقه الى سعادة كان هو الصراط المستقيم والإسلام الذي هو الدين عند الله وسبيل الله الذي لا عوج فيه. وإن سلك غير ذلك سواء كان فيه إذعان بالوهية وعبادة لمعبود كالملل والأديان الباطلة أو لم يكن فيه خضوع لشيء وعبادة لمعبود كالمادية المحضة فهو سلوك يبغون فيه سبيل الله عوجاً وهو الاسلام محرفاً عن وجهه، ونعمة الله التي بدلت كفراً، فافهم ذلك.

وقد أبهم الله هذا الذي يخبر عنه بقوله: «فأذن مؤذن بينهم» ولم يعرفه من هو؟ أمن الإنس أم من الجن أم من الملائكة؟ لكن الذي يقتضيه التدبر في كلامه تعالى أن يكون هذا المؤذن من البشر لا من الجن ولا من الملائكة: أما الجن فلم يذكر في شيء من تضاعيف كلامه تعالى أن يتصدى الجن شيئاً من التوسط في أمر الانسان من لدن وروده في عالم الآخرة وهو حين نزول الموت الى أن يستقر في جنة أو نار فيختم أمره فلا موجب لاحتمال كونه من الجن.

وأما الملائكة فإنهم وسائط لأمر الله وحملة لإرادته بأيديهم إنفاذ الأوامر الالهية، وبوساطتهم يجري ما قضى به في خلقه. وقد ذكر الله سبحانه أشياء من أمرهم وحكمهم في عالم الموت وفي جنة الآخرة ونارها كقولهم للظالمين حين القبض «أخرجوا أنفسكم» الخ (الأنعام / ٩٣)؛ وقولهم لأهل الجنة الجنة: ﴿سلام عليكم ادخلوا الجنة﴾ الخ (النحل / ٣٢)؛ وقول مالك لأهل النار: ﴿إنكم ماكثون﴾ الخ (الزخرف / ٧٧)؛ ونظائر ذلك.

وأما المحشر وهو حظيرة البعث والسؤال والشهادة وتطاير الكتب والوزن والحساب والظرف الذي فيه الحكم الفصل فلم يذكر للملائكة فيه شيء من الحكم أو الأمر والنهي ولا لغيرهم صريحاً إلا ما صرح تعالى به في حق الانسان.

كقوله تعالى في أصحاب الأعراف في ذيل هذه الآيات حكاية عنهم: «ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم» وقولهم لجمع من المؤمنين هناك: «ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا

أنتم تحزنون» وهذا حكم وأمر وتأمين بإذن الله. وقوله تعالى فيما يصف يوم القيامة: ﴿ **قال الذين أُوتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين** ﴾ (النحل / ٢٧) وقوله تعالى بعد ذكر سؤاله أهل الجمع عن مدة لبثهم في الأرض: ﴿ **وقال الذين أُوتوا العلم والايمان لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون** ﴾ (الروم / ٥٦).

فهذه جهات من تصدي الشؤون. والقيام بالأمر يوم القيامة حبا الله الانسان به دون الملائكة مضافاً الى أمثال الشهادة والشفاعة اللتين له.

فهذا كله يقرب إلى الذهن أن يكون هذا المؤذن من الانسان دون الملائكة. ويأتي في البحث الروائي ما له تعلق بالمقام.

قوله تعالى: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ﴾ الحجاب معروف وهو الستر المتخلل بين شيئين يستر أحدهما من الآخر. والأعراف أعالي الحجاب، والتلال من الرمل والعرف للديك وللفرس وهو الشعر فوق رقبته وأعلا كل شيء ففيه معنى العلو على أي حال، وذكر الحجاب قبل الأعراف، وما ذكر بعده من إشرافهم على الجميع وندائهم أهل الجنة والنار جميعاً كل ذلك يؤيد أن يكون المراد بالأعراف أعالي الحجاب الذي بين الجنة والنار وهو المحل المشرف على الفريقين أهل الجنة وأهل النار جميعاً.

والسيماء العلامة قال الراغب: السيماء والسيمياء العلامة، قال الشاعر:

له سيماء لا تشق على البصر .

وقال تعالى: «سيماهم في وجوههم» وقد سومته أي أعلمته، ومسومين أي معلمين (انتهى).

والذي يعطيه التدبر في معنى هذه الآية وما يلحق بها من الآيات أن هذا الحجاب الذي ذكره الله تعالى إنما هو بين اصحاب الجنة وأصحاب النار فهما مرجع الضمير في قوله «وبينهما»

وقد أنبأنا الله سبحانه بمثل هذا المعنى عند ذكر محاورة بين المنافقين والمؤمنين يوم القيامة بقوله: ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ (الحديد / ١٣)، وإنما هو حجاب لكونه يفرق بين الطائفتين ويحجب إحداهما عن الاخرى لا أنه ثوب منسوج مخيط على هيأة خاصة معلق بين الجنة والنار.

ثم أخبر الله سبحانه أن على أعراف الحجاب وأعاليه رجالاً مشرفين على الجانبين لارتفاع موضعهم يعرفون كلاً من الطائفتين أصحاب الجنة وأصحاب النار بسيماهم وعلامتهم التي تختص بهم.

ولا ريب في أن السياق يفيد أن هؤلاء الرجال منحازون على الطائفتين متمايزون من جماعتهم فهل ذلك لكونهم خارجين عن نوع الإنسان كالملائكة أو الجن مثلاً، أو لكونهم خارجين عن أهل الجمع من حيث ما يتعلق بهم من السؤال والحساب وسائر الشؤون الشبيهة بها فيكون بدلك أهل الجمع منقسمين الى طوائف ثلاث: أصحاب الجنة، وأصحاب النار. وأصحاب الأعراف كما قسمهم الله في الدنيا الى طوائف ثلاث: المؤمنين والكفار والمستضعفين الذين لم تتم عليهم الحجة وقصروا عن بلوغ التكليف كضعفاء العقول من النساء والأطفال غير البالغين والشيخ الهرم الخرف والمجنون والسفيه وأضرابهم، أو لكونهم مرتفعين عن موقف أهل الجمع بمكانتهم؟

لا ريب أن إطلاق لفظ «رجال» لا يشمل الملائكة فإنهم لا يتصفون بالرجولية والانوثية كما يتصف به جنس الحيوان وإن قيل: إنهم ربما يظهرون في شكل الرجال فإن ذلك لا يصحح الاتصاف والتسمية، على أنه لا دليل يدل عليه.

ثم إن التعبير بمثل قوله: «رجال يعرفون» الخ: وخاصة بالتنكير يدل بحسب عرف اللغة على اعتناء تام بشأن الأفراد المقصودين باللفظ نظراً الى دلالة الرجل بحسب العادة على

الإنسان القوي في تعقله وإرادته الشديد في قوامه.

وعلى ذلك يجري ما يوجد في كلامه تعالى من مثل هذا التعبير كقوله تعالى: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ (النور / ٣٧)، وقوله: ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ (التوبة / ١٠٨)، وقوله: ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ (الأحزاب / ٢٣)، وقوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم﴾ (يوسف / ١٠٩) حتى في مثل قوله: ﴿ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار﴾ (ص / ٦٢)، وقوله: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن﴾ (الجن / ٦).

فالمراد برجال في الآية أفراد تامون في إنسانيتهم لا محالة، وإن فرض أن فيهم أفراداً من النساء كان من التغليب[1].

قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ المنادون هم الرجال الذين على الأعراف ـ على ما يعطيه السياق ـ وقوله «أن سلام عليكم» يفسر ما نادوا به، وقوله: «لم يدخلوها وهم يطمعون» جملتان حاليتان فجملة «لم يدخلوها» من أصحاب الجنة، وجملة «وهم يطمعون» حال آخر من أصحاب الجنة والمعنى: أن أصحاب الجنة نودوا وهم في حال لم يدخلوا الجنة بعدوهم يطمعون في أن يدخلوها؛ أو حال من ضمير الجمع في «لم يدخلوها» وهو العامل فيه، والمعنى أن أصحاب الجنة نودوا بذلك وهم في الجنة لكنهم لم يدخلوا الجنة على طمع في دخولها لأن ما شاهدوه من أهوال الموقف ودقة الحساب كان أيأسهم من أن يفوزوا بدخول الجنة لكن قوله بعد «أهؤلاء الذين» الى آخر الآية يؤيد أول الاحتمالين وأنهم إنما سلموا عليهم قبل دخولهم

---

١. الاعراف ٣٧ـ٥٣: كلام في اصحاب الاعراف.

الاعراف ٣٧ـ٥٣: بحث روائي في: سنن الجاهلية في الطواف، تحريم ما احل الله، ان الله لا يأمر بالفحشاء، ان الله جميل ويحب الجمال.

الجنة .

وأما احتمال أن تكون الجملتان حالين من ضمير الجمع في « نادوا » فيوجب سقوط الجملة عن الإفادة كما هو ظاهر . وذلك لرجوع المعنى الى أن هؤلاء الرجال الذين هم على أعراف الحجاب بين الجنة والنار نادوا وهم لم يدخلوا .

وعلى من يميل إلى أن يجعل قوله : « لم يدخلوها وهم يطمعون » بياناً لحال أصحاب الأعراف أن يجعل قوله : « لم يدخلوها » استئنافاً يخبر عن حال أصحاب الأعراف أو صفة لرجال والتقدير : وعلى الأعراف رجال لم يدخلوها وهم يطمعون واذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ... الخ ؛ كما نقل عن الزمخشري في الكشاف .

لكن يبعد الاستئناف أن اللازم حينئذ إظهار الفاعل في قوله : « لم يدخلوها » دون إضماره لمكان اللبس كما فعل ذلك في قوله : « ونادى أصحاب الأعراف رجالاً » الخ ؛ ويبعد الوصفية الفصل بين الموصوف والصفة بقوله : « ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم » من غير ضرورة موجبة .

وهذا التقدير الذي تقدم أعني رجوع معنى قوله : « لم يدخلوها وهم يطمعون واذا صرفت أبصارهم » الى آخر الآية ؛ الى قولنا : وعلى الأعراف رجال يطمعون في دخول الجنة ويتعوذون من دخول النار ـ على ما زعموا ـ هو الذي مهد لهم الطريق وسواه للقول بأن أصحاب الأعراف رجال استوت حسناتهم وسيئاتهم فلم يترجح لهم أن يدخلوا الجنة أو النار فاوقفوا على الأعراف !.

لكنك عرفت أن قوله : « لم يدخلوها » الخ ؛ حال أصحاب الجنة لا وصف أصحاب الأعراف ، وأما قوله : « واذا صرفت أبصارهم » الخ ؛ فسيأتي ما في كونه بياناً أصحاب الأعراف من الكلام .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا

تَجْعَلْنا مَعَ ٱلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ التلقاء كالبيان مصدر لقي يلقى ثم استعمل بمعنى جهة اللقاء، وضمير الجمع في قوله: «أبصارهم» وقوله: «قالوا» عائد الى «رجال» والتعبير عن النظر الى أصحاب النار بصرف أبصارهم إليه كأن الوجه فيه أن الإنسان لا يحب إلقاء النظر الى ما يؤلمه النظر إليه وخاصة في مثل المورد الذي يشاهد الناظر فيه أفظع الحال وأمر العذاب وأشقه الذي لا يطاق النظر إليه غير أن اضطراب النفس وقلق القلب ربما يفتح العين نحوه للنظر إليه كأن غيره هو الذي صرف نظره إليه وإن كان الإنسان لو خلي وطبعه لم يرغب في النظر ولو بوجه نحوه. ولذا قيل: «واذا صرفت أبصارهم» الخ؛ ولم يقل واذا نظروا إليه أو ما يفيد مفاده.

ومعنى الآية: واذا نظر أصحاب الأعراف أحياناً الى أصحاب النار تعوذوا بالله من أن يجعلهم مع أصحاب النار فيدخلهم النار، وقالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين.

وليس دعاؤهم هذا الدعاء دالاً على سقوط منزلتهم، وخوفهم من دخول النار كما يدل على رجائهم دخول الجنة قوله: «وهم يطمعون» وذلك أن ذلك مما دعا به أُولوا العزم من الرسل والأنبياء المكرمون والعباد الصالحون وكذا الملائكة المقربون فلا دلالة فيه ولو بالإشعار الضعيف على كون الداعي ذا سقوط في حاله وحيرة من أمره. هذا ما فسروا به الآية بإرجاع ضميري الجمع الى «رجال».

لكنك خبير بأن ذلك لا يلائم الإظهار الذي في مفتتح الآية التالية في قوله: «ونادى أصحاب الأعراف» اذ الكلام في هذه الآيات الأربع حال جار في أوصاف أصحاب الأعراف وأخبارهم كقوله: «يعرفون كلاً» الخ؛ وقوله: «ونادوا أصحاب الجنة» الخ؛ وقوله «لم يدخلوها» الخ؛ على احتمال. وقوله: «واذا صرفت أبصارهم» الخ: وليس في الكلام أي لبس ولا نكتة ظاهرة توجب العدول من الإضمار الذي هو الأصل في المقام الى الإظهار بمثل قوله: «ونادى أصحاب الأعراف».

فالظاهر أن ضميري الجمع أعني ما في قوله: «أبصارهم» وقوله: «قالوا» راجعان الى أصحاب الجنة، والجملة إخبار عن دعائهم اذا صرفت أبصارهم تلقاءَ أصحاب النار كما أن الجملة السابقة بيان لطمعهم في دخول الجنة، وكل ذلك قبل دخولهم الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ الى آخر الآية؛ في توصيف الرجال بقوله: «يعرفونهم بسيماهم» دلالة على أن سيماءهم كما يدلهم على أصل كونهم من أصحاب الجنة يدلهم على أُمور أُخر من خصوصيات أحوالهم، وقد مرت الإشارة إليه.

وقوله: «قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون» تقريع لهم وشماتة، وكشف عن تقطع الأسباب الدنيوية عنهم فقد كانوا يستكبرون عن الحق ويستذلونه ويغترون بجمعهم.

قوله تعالى: ﴿أَهٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ الى آخر الآية. الإشارة الى أصحاب الجنة، والاستفهام للتقرير أي هؤلاء هم الذين كنتم تجزمون قولاً أنهم لا يصيبهم فيما يسلكونه من طريق العبودية خير، وإصابة الخير هي نيله تعالى إياهم برحمة ووقوع النكرة ـ برحمة ـ في حيز النفي يفيد استغراق ـ الجنس، وقد كانوا ينفون عن المؤمنين كل خير.

وقوله: أُدخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون، أمر من أصحاب الأعراف للمؤمنين أن يدخلوا الجنة بعد تقرير حالهم بالاستفهام، وهذا هو الذي يفيده السياق[1].

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا﴾ الخ؛ الإفاضة من الفيض وهو سيلان الماء منصباً، قال تعالى: ﴿ترى أعينهم تفيض من الدمع﴾ أي يسيل دمعها منصباً، وعطف سائر ما رزقهم الله من النعم على الماء يدل على أن المراد بالإفاضة صب

١. الاعراف ٣٧ ـ ٥٣: كلام في معنى الاعراف في القرآن.

مطلق النعم أعم من المائع وغيره على نحو عموم المجاز . وربما قيل : إن الإفاضة حقيقة في إعطاء النعمة الكثيرة فيكون تعليقه على الماء وغيره حقيقة حينئذ .

وكيف كان ففي الآية إشعار بعلو مكانة أهل الجنة بالنسبة الى مكان أهل النار .

وإنما أفرز الماء وهو من جملة ما رزقهم الله ثم قدم في الذكر على سائر ما رزقهم الله لأن الحاجة الى بارد الماء أسبق الى الذهن طبعاً بالنسبة الى غيره عندما تحيط الحرارة بالإنسان ، ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً ﴾ الى آخر الآية : اللهو ما يشغلك عما يهمك ، واللعب الفعل المأتي به لغاية خيالية غير حقيقية . والغرور إظهار النصح واستبطان الغش . والنسيان يقابل الذكر ، وربما يستعار لترك الشيء وعدم الاعتناء بشأنه كالشيء المنسي ، وعلى ذلك يجري في الآية . والجحد النفي والإنكار ، والآية مسوقة لتفسير الكافرين ، ويستفاد منها تفسيرات ثلاثة للكفر : أولها : أنه اتخاذ الإنسان دينه لهواً ولعباً وغرور الحياة الدنيا له ، والثاني : نسيان يوم اللقاء ، والثالث : الجحد بآيات الله ، ولكل من التفاسير وجه .

وفي قوله تعالى : «الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً» دلالة على أن الإنسان لا غنى له عن الدين على أي حال حتى من اشتغل باللهو واللعب ومحض حياته فيها محضاً فإن الدين ـ كما تقدمت الإشارة إليه في تفسير قوله : «الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً» الآية ـ هو طريق الحياة الذي يسلكه الإنسان في الدنيا . ولا محيص له عن سلوكه ، وقد نظمه الله سبحانه بحسب ما تهدى إليه الفطرة الإنسانية ودعت إليه ، وهو دين الإنسان الذي يخصه وينسب إليه ، وهو الذي يهم الإنسان ويسوقه الى غاية حقيقية هي سعادة حياته .

فحيث جرى عليه الإنسان وسلكه كان على دينه الذي هو دين الله الفطري ، وحيث اشتغل عنه الى غيره الذي يلهو عنه ولا يهديه إلا الى غايات خيالية وهي اللذائذ المادية التي لا بقاء لها ولا نفع فيها يعود الى سعادته فقد اتخذ دينه لهواً ولعباً وغرته الحياة الدنيا بسراب

زخارفها.

وقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسيهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هٰذا﴾ أي اليوم نتركهم ولا نقوم بلوازم حياتهم السعيدة كما تركوا يومهم هذا فلم يقوموا بما يجب أن يعملوا له وبما كانوا بآياتنا يجحدون ونظير الآية في جعل تكذيب الآيات سبباً لنسيان الله له يوم القيامة قوله ﴿قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾ (طه / ١٢٦)، وقد بدل هناك الجحد نسياناً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلىٰ عِلْمٍ﴾ الآية: عود على بدء الكلام أعني قوله في أول الآيات: «فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته» أي من أعظم من هؤلاء ظلماً ولقد أتممنا عليهم الحجة وأتممنا لهم البيان فجئناهم بكتاب فصلناه وأنزلناه إليهم على علم منا بنزوله؟.

فقوله: «على علم» متعلق بقوله: «لقد جئناهم» والكلمة تتضمن احتجاجاً على حقية الكتاب والتقدير: ولقد جئناهم بكتاب حق: وكيف لا يكون حقاً؟ وقد نزل على علم منا بما يشتمل عليه من المطالب.

وقوله: «هدى ورحمة لقوم يؤمنون» أي هدى وإراءة طريق للجميع ورحمة للمؤمنين به خاصة؛ أو هدى وإيصالاً بالمطلوب للمؤمنين ورحمة لهم. والأول أنسب بالمقام وهو مقام الاحتجاج.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلّا تَأْوِيلَهُ﴾ الى آخر الآية؛ الضمير في تأويله راجع الى الكتاب، وقد تقدم في تفسير قوله: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات﴾ الآية (آل عمران / ٧)؛ أن التأويل في عرف القرآن هو الحقيقة التي يعتمد عليها حكم أو خبر أو أي أمر ظاهر آخر اعتماد الظاهر على الباطن والمثل على المثل.

فقوله: «هل ينظرون إلا تأويله» معناه هل ينتظر هؤلاء الذين يفترون على الله كذبا أو

يكذبون بآياته وقد تمت عليهم الحجة بالقرآن النازل عليهم، إلا حقيقة الأمر التي كانت هي الباعثة على سوق بياناته وتشريع أحكامه والانذار والتبشير الذين فيه؟ فلو لم ينتظروه لم يتركوا الأخذ بما فيه.

ثم يخبر تعالى عن حالهم في يوم إتيان التأويل بقوله: يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه، الخ: أي اذا انكشفت حقيقة الأمر يوم القيامة يعترف التاركون له بحقية ما جاءت به الرسل من الشرائع التي أوجبوا العمل بها، وأخبروا أن الله سيبعثهم ويجازيهم عليها.

واذ شاهدوا عند ذلك أنهم صفر الأيدي من الخير، هالكون بفساد أعمالهم سألوا أحد أمرين يصلح به ما فسد من أمرهم إما شفعاء ينجونهم من الهلاك الذي أطل عليهم أو أنفسهم، بأن يردوا الى الدنيا فيعملوا صالحاً غير الذي كانوا يعملونه من السيئات وذلك قوله حكاية عنهم: «فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل»؟.

وقوله تعالى: «قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون» فصل في معنى التعليل لما حكي عنهم من سؤال أحد أمرين: إما الشفعاء وإما الرد الى الدنيا كأنه قيل: لماذا يسألون هذا الذي يسألون؟ فقيل: «قد خسروا أنفسهم» فيما بدلوا دينهم لهواً ولعباً، واختاروا الجحود على التسليم وقد زال عنهم الافتراءات المضلة التي كانت تحجبهم عن ذلك في الدنيا فبان لهم أنهم في حاجة الى من يصلح لهم أعمالهم إما أنفسهم أو غيرهم ممن يشفع لهم.

وقد تقدم في مبحث الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب أن في قوله: «فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا» دلالة على أن هناك شفعاء يشفعون للناس اذ قال: من شفعاء، ولم يقل: من شفيع فيشفع لنا[1].

---

١. الاعراف ٣٧ ـ ٥٣: بحث روائي في: عذاب القبر؛ كيفية قبض روح المؤمن والكافر؛ كيفية الورود الى عالم البرزخ؛ اصحاب الاعراف.

٥٤ ❁ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ
وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ.
٥٥ ❁ أُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ.
٥٦ ❁ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَادْعُوهُ خَوْفاً
وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ.
٥٧ ❁ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتّىٰ إِذا
أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ
فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتىٰ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ.
٥٨ ❁ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ
إِلَّا نَكِداً كَذٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ سيأتي البحث في معنى السماء والأيام الستة التي خلقتا فيها في تفسير سورة حم السجدة إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ ـ الى قوله ـ بِأَمْرِهِ﴾ الاستواء الاعتدال

على الشيء والاستقرار عليه، وربما استعمل بمعنى التساوي. يقال: استوى زيد وعمرو أي تساويا قال تعالى: «لا يستوون عند الله».

والعرش ما يجلس عليه الملك وربما كني به عن مقام السلطنة. قال الراغب في المفردات: العرش في الأصل شيء مسقف، وجمعه عروش قال: «وهي خاوية على عروشها» ومنه قيل: عرشت الكرم وعرشتها إذا جعلت له كهيأة سقف. قال: والعرش شبه هودج للمرأة تشبيهاً في الهيأة بعرش الكرم، وعرشت البئر جعلت له عريشاً. وسمي مجلس السلطان عرشاً اعتباراً بعلوه. قال: وعرش الله ما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلا بالاسم، وليس كما يذهب إليه أوهام العامة فإنه لو كان كذلك لكان حاملاً له ـ تعالى عن ذلك ـ لا محمولاً والله تعالى يقول: ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده﴾. وقال قوم: هو الفلك الأعلى والكرسي فلك الكواكب، واستدل بما روي عن رسول الله ﷺ: ما السماوات السبع والأرضون السبع في جنب الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة والكرسي عند العرش كذلك (انتهى).

قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ الخلق هو التقدير بضم شيء الى شيء وإن استقر ثانياً في عرف الدين وأهله في معنى الإيجاد أو الابداع على غير مثال سابق. وأما الأمر فيستعمل في معنى الشأن وجمعه أمور، ومصدراً بمعنى يقرب من بعث الإنسان غيره نحو ما يريده يقال أمرته بكذا أمراً، وليس من البعيد أن يكون هذا هو الأصل في معنى اللفظ ثم يستعمل الأمر اسم مصدر بمعنى نتيجة الأمر وهو النظم المستقر في جميع أفعال المأمور المنبسط على مظاهر حياته. فينطبق في الانسان على شأنه في الحياة ثم يتوسع فيه فيستعمل بمعنى الشأن في كل شيء. فأمر كل شيء هو الشأن الذي يصلح له وجوده، وينظم له تفاريق حركاته وسكناته وشتى أعماله وإراداته. يقال: أمر العبد الى مولاه، أي هو يدبر حياته ومعاشه، وأمر المال الى مالكه. وأمر الإنسان الى ربه أي بيده تدبيره في

مسير حياته.

ولا يرد عليه أن الأمر بمعنى الشأن يجمع على «أُمور» وبمعنى يقابل النهي على «أوامـر» وهو ينافي رجوع أحدهما الى الآخر معنى !، فإن أمثال هذه التفننات كثيرة في اللغة يعثر عليها المتتبع الناقد فالأمر كالمتوسط بين من يملكه وبين من يملك منه كالمولى والعبد ويضاف الى كل منهما يقال: أمر العبد وأمر المولى، قال تعالى: ﴿ وأمره إلى الله ﴾ (البقرة / ٢٧٥)، وقال: ﴿ أتى أمر الله ﴾ (النحل / ١).

وقد فسر سبحانه أمره الذي يملكه من الأشياء بقوله: ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ﴾ (يس / ٨٣)، فبين أن أمره الذي يملكه من كل شيء سواء كان ذاتاً أو صفة أو فعلاً وأثراً هو قول كن وكلمة الايجاد وهو الوجود الذي يفيضه عليه فيوجد هو به. فإذا قال لشيء: كن فكان. فقد أفاض عليه مـا وجـد بـه مـن الوجود، وهذا الوجود الموهوب له نسبة الى الله سبحانه وهو بذاك الاعتبار أمره تعالى وكلمة «كن» الإلهية، وله نسبة الى الشيء الموجود، وهو بذاك الاعتبار أمره الراجع الى ربه. وقـد عبر عنه في الآية بقوله: «فيكون».

وقد ذكر تعالى لكل من النسبتين ـ وإن شئت فقل: للإيجاد المنسوب إليه تعالى وللوجود المنسوب الى الشيء ـ نعوتاً وأحكاماً مختلفة سنبحث عنها إن شاء الله في محل يناسبه.

والحاصل: أن الأمر هو الإيجاد سواء تعلق بذات الشيء أو بنظام صفاته وأفعاله فأمـر ذوات الأشياء الى الله وأمر نظام وجودها الى الله لأنها لا تملك لنفسها شيئاً البتة. والخلق هو الإيجاد عن تقدير وتأليف سواء كان ذلك بنحو ضم شيء الى شيء كضم أجزاء النطفة بعضها الى بعض وضم نطفة الذكور الى نطفة الإناث ثم ضم الأجزاء الغذائية إليها في شرائط خاصة حتى يخلق بدن انسان مثلاً، أم من غير أجزاء مؤلفة كتقدير ذات الشيء البسيط وضم ماله من درجة الوجود وحده وما له من الآثار والروابط التي له مع غيره. فالاصول الأولية مـقدرة

مخلوقة كما أن المركبات مقدرة مخلوقة. قال الله تعالى: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ (الفرقان / ٢)، وقال: ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ (طه / ٥٠)، وقال: ﴿الله خالق كل شيء﴾ (الزمر / ٦٢)، فعمم خلقه كل شيء.

فقد اعتبر في معنى الخلق تقدير جهات وجود الشيء وتنظيمها سواء كانت متمايزة منفصلاً بعضها عن بعض أم لا بخلاف الأمر.

ولذا كان الخلق يقبل التدريج كما قال: «خلق السماوات والأرض في ستة أيام» بخلاف الأمر قال تعالى: ﴿وما أمرنا إلى واحدة كلمح بالبصر﴾ (القمر / ٥٠)، ولذلك أيضاً نسب في كلامه الى غيره الخلق كقوله: ﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيه﴾ (المائدة / ١١٠)، وقال ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ (المؤمنون / ١٤).

وأما الأمر بهذا المعنى فلم ينسبه الى غيره بل خصه بنفسه، وجعله بينه وبين ما يريد حدوثه وكينونته كالروح الذي يحيى به الجسد.

انظر الى قوله تعالى: ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾ وقوله: ﴿ولتجري الفلك بأمره﴾ (الروم /٤٦)، وقوله: ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره﴾ (النحل / ٢) وقوله: ﴿وهم بأمره يعملون﴾ (الأنبياء / ٢٧)، الى غير ذلك من الآيات تجد أنه تعالى يجعل ظهور هذه الأشياء بسببية أمره أو بمصاحبة أمره، فنلخص أن الخلق والأمر يرجعان بالأخرة الى معنى واحد وإن كانا مختلفين بحسب الاعتبار.

فإذا انفرد كل من الخلق والأمر صح أن يتعلق بكل شيء، كل بالعناية الخاصة به، وإذا اجتمعا كان الخلق أحرى بأن يتعلق بالذوات لما أنها أُوجدت بعد تقدير ذواتها وآثارها، ويتعلق الأمر بآثارها والنظام الجاري فيها بالتفاعل العام بينها لما أن الآثار هي التي قدرت للذوات ولا وجه لتقدير المقدر فافهم ذلك.

ولذلك قال تعالى: «ألا له الخلق والأمر» فأتى بالعطف المشعر بالمغايرة بوجه وكأن

المراد بالخلق ما يتعلق من الإيجاد بذوات الأشياء، وبالامر ما يتعلق بآثارها والأوضاع الحاصلة فيها والنظام الجاري بينها كما ميز بين الجهتين في أول الآية حيث قال: «خلق السماوات والأرض في ستة أيام» وهذا هو إيجاد الذوات: ﴿ثم استوى على العرش يدبر الامر﴾ وهو إيجاد النظام الاحسن بينهما بإيقاع الامر تلو الامر والإتيان بالوحد منه بعد الواحد.

وما ربما يقال: إن العطف لا يقتضي المغايرة، ولو اقتضى ذلك لدل في قوله: ﴿من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل﴾ (البقرة / ٩٨) على كون جبريل من غير جنس الملائكة! مدفوع بأن المراد مغايرة ما ولو اعتباراً لقبح قولنا جائني زيد وزيد ورأيت عمراً وعمراً فلا محيص عن مغايرة ما ولو بحسب الاعتبار، وجبريل مع كونه من جنس الملائكة يغايره غيره بما له من المقام المعلوم والقوة والمكانة عند ذي العرش.

وقوله تعالى: «فتبارك الله رب العالمين» أي كان ذا بركات ينزلها على مربوبيه من جميع من في العالمين فهو ربهم[1].

قوله تعالى: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾ الى آخر الآيتين: التضرع هو التذلل من الضراعة وهي الضعف والذلة. والخفية هي الاستتار، وليس من البعيد أن يكون كناية عن التذلل جيء به لتأكيد التضرع فإن المتذلل يكاد يختفي من الصغار والهوان.

الآية السابقة: «إن ربكم الله الذي خلق» الآية تذكر بربوبيته وحده لا شريك له من جهة أنه هو الخالق وحده، وإليه تدبير خلقه وحده؛ فتعقيبها بهاتين الآيتين بمنزلة أخذ النتيجة من البيان، وهي الدعوة الى دعائه وعبوديته، والحكم بأخذ دين يوافق ربوبيته تعالى وهي الربوبية من غير شريك في الخلق ولا في التدبير.

---

١. الاعراف ٥٤ ـ ٥٨: كلام في معنى العرش.

ولذلك عاد أولاً الى دين العبودية فقال: ﴿أُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها﴾ فأمر أن يدعوه بالتضرع والتذلل وأن يكون ذلك خفية من غير المجاهرة البعيدة عن أدب العبودية الخارجة عن زيها ـ بناء على أن تكون الواو في «تضرعاً وخفية» للجمع ـ أو أن يدعوه بالتضرع والابتهال الملازم عادة للجهر بوجه أو بالخفية إخفاتاً فإن ذلك هو لازم العبودية ومن عدا ذلك فقد اعتدى عن طور العبودية وإن الله لا يحب المعتدين.

ومن الممكن أن يكون المراد بالتضرع والخفية: الجهر والسر وإنما وضع التضرع موضع الجهر لكون الجهر في الدعاء منافياً لأدب العبودية إلا أن يصاحب التضرع.

هذا فيما بينهم وبين الله. وأما فيما بينهم وبين الناس فأن لا يفسدوا في الأرض بعد إصلاحها فليس حقيقة الدين فيما يرجع الى حقوق الناس إلا أن يصلح شأنهم بارتفاع المظالم من بينهم ومعاملتهم بما يعينهم على التقوى، ويقربهم من سعادة الحياة في الدنيا والآخرة.

ثم كرر الدعوة إليه وأعاد البعث الى دعائه بالجمع بين الطريقين الذين لم يزل البشر يعبد الرب أو الأرباب من أحدهما وهما طريق الخوف وطريق الرجاء. فإن قوماً كانوا يتخذون الأرباب خوفاً فيعبدونهم ليسلموا من شرورهم، وكان قوماً يتخذون الأرباب طمعاً فيعبدونهم لينالوا خيرهم وبركتهم لكن العبادة عن محض الخوف ربما ساق الإنسان الى اليأس والقنوط فدعاه الى ترك العبادة. وقد شوهد ذلك كثيراً. والعبادة عن محض الطمع ربما قاد الى استرسال الوقاحة وزوال زي العبودية فدعاه الى ترك العبادة. وقد شوهد أيضاً كثيراً فجمع سبحانه بينهما ودعا الى الدعاء باستعمالهما معاً فقال: «وادعوه خوفاً وطمعاً» ليصلح كل من الصفتين ما يمكن أن تفسده الاخرى. وفي ذلك وقوع في مجرى الناموس العام الجاري في العالم أعني ناموس الجذب والدفع.

وقد سمى الله سبحانه هذا الاعتدال في العبادة والتجنب عن إفساد الأرض بعد إصلاحها

إحساناً وبشر المجيبين لدعوته بأنهم يكونون حينئذ محسنين فتقرب منهم رحمته إن رحمة الله قريب من المحسنين.

ولم يقل: «رحمة الله قريبة»، قيل: لأن الرحمة مصدر يستوي فيه الوجهان. وقيل: لأن المراد بالرحمة الإحسان، وقيل: لأن قريب فعيل بمعنى المفعول فيستوي فيه المذكر والمؤنث ونظيره قوله تعالى: ﴿لعل الساعة قريب﴾ (الشورى / ١٧).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ الى آخر الآية؛ وفي الآية بيان لربوبيته تعالى من جهة العود كما أن في قوله: «إن ربكم الله» الآية بياناً لها من جهة البدء.

وقوله: «بشراً» وأصله البشر بضمتين جمع بشير كالنذر جمع نذير. والمراد بالرحمة المطر. وقوله: «بين يدي رحمته» أي قدام المطر. وفيه استعارة تخييلية بتشبيه المطر بالإنسان الغائب الذي ينتظره أهله فيقدم وبين يديه بشير يبشر بقدومه.

والإقلال الحمل. والسحاب والسحابة الغمام والغمامة كتمر وتمرة وكون السحاب ثقالاً باعتبار حمله ثقل الماء. وقوله: «لبلد ميت» أي لأجل بلد ميت أو الى بلد ميت والباقي ظاهر.

والآية تحتج بإحياء الأرض على جواز إحياء الموتى لأنهما من نوع واحد. وحكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد وليس الأحياء الذين عرض لهم عارض الموت بمنعدمين من أصلهم فإن أنفسهم وأرواحهم باقية محفوظة وإن تغيرت أبدانهم. كما أن النبات يتغير ما على وجه الأرض منها ويبقى ما في أصله من الروح الحية على انعزال من النشوء والنماء ثم تعود إليه حياته الفعالة كذلك يخرج الله الموتى فما إحياء الموتى في الحشر الكلي يوم البعث إلا كإحياء الارض الميتة في بعثه الجزئي العائد كل سنة. وللكلام ذيل سيوافيك في محل آخر إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ الى آخر الآية: النكد

القليل. والآية بالنظر الى نفسها كالمثل العام المضروب لترتب الأعمال الصالحة والآثار الحسنة على الذوات الطيبة الكريمة كخلافها على خلافها كما تقدم في قوله: ﴿كما بدأكم تعودون﴾ لكنها بانضمامها الى الآية السابقة تفيد أن الناس وإن اختلفوا في قبول الرحمة فالاختلاف من قبلهم والرحمة الإلهية عامة مطلقة[١].

٥٩ ● لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ ٱعْبُدُوا اللّٰهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ.

٦٠ ● قالَ ٱلْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ.

٦١ ● قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعالَمِينَ.

٦٢ ● أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللّٰهِ ما لا تَعْلَمُونَ.

٦٣ ● أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ.

٦٤ ● فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ فِي ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ.

---

١. الاعراف ٥٤ ـ ٥٨: بحث روائي في العرش الكرسي.

بيان:

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ الى آخر الآية: بدء الله سبحانه بقصته وهو أول رسول يذكر الله سبحانه تفصيل قصته في القرآن كما سيأتي تفصيل القول في قصته في سورة هود إن شاء الله تعالى.

واللام في قوله: «لقد أرسلنا نوحاً» للقسم جيء بها للتأكيد لأن وجه الكلام الى المشركين وهم ينكرون النبوة. وقوله: «فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره» ناداهم بقوله: «يا قوم» فأضافهم الى نفسه ليكون جرياً على مقتضى النصح الذي سيخبرهم به عن نفسه. ودعاهم اول ما دعاهم الى توحيد الله تعالى فإن دعاهم الى عبادته. وأخبرهم بانتفاء كل إله غيره فيكون دعوة الى عبادة الله وحده من غير أن يشرك به في عبادته غيره، وهو التوحيد.

ثم أنذرهم بقوله: «إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم» وظاهره يوم القيامة فيكون في ذلك دعوة الى أصلين من أصول الدين وهما التوحيد والمعاد. وأما الأصل الثالث وهو النبوة فيصرح به في قوله: «يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول» الآية.

على أن في نفس الدعوة وهي دعوة الى نوع من العبادة لا يعرفونها وكذا الإنذار بما لم يكونوا يعلمونه وهو عذاب القيامة إشعاراً بالرسالة من قبل من يدعو إليه. ومن الشاهد على ذلك قوله في جوابهم: «أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم» فإنه يدل على تعجبهم من رسالته باستماع أول ما خاطبهم به من الدعوة وهو قوله: «يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره».

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الملأ هم أشراف القوم وخواصهم سموا به لأنهم يملؤن القلوب هيبة والعيون جمالاً وزينة. وإنما رموا

بالضلال المبين وأكدوه تأكيداً شديداً لأنهم لم يكونوا ليتوقعوا أن معترضاً يعترض عليهم بالدعوة الى رفض آلهتهم وتوجيه العبادة الى الله سبحانه بالرسالة والإنذار فتعجبوا من ذلك فأكدوا ضلاله مدعين أن ذلك من بيِّن الضلال تحقيقاً. والرؤية هي الرؤية بحسب الفكر أعني الحكم.

قوله تعالى: ﴿قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ﴾ الآية: أجابهم بنفي الضلال عن نفسه والاستدراك بكونه رسولاً من الله سبحانه. وذكره بوصفه: «رب العالمين» ليجمع له الربوبية كلها قبال تقسيمهم إياها بين آلهتهم بتخصيص كل منها بشيء من شؤنها وأبوابها كربوبية البحر وربوبية البر وربوبية الأرض وربوبية السماء وغير ذلك.

وقد جرد ﷺ جوابه عن التأكيد للإشارة الى ظهور رسالته وعدم ضلالته تجاه إصرارهم بذلك وتأكيد دعواهم.

قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ أخبرهم بأوصاف نفسه فبين أنه يبلغهم رسالات ربه، وهذا شأن الرسالة ومقتضاها القريب الضروري، وفي جمع الرسالة دلالة على كونها كثيرة وأن له مقاصد أمره ربه أن يبلغها إياهم وراء التوحيد والمعاد فإنه نبي رسول من أُولي العزم صاحب كتاب وشريعة.

ثم ذكر أنه ينصح لهم وهو عظاته بالإنذار والتبشير ليقربهم من طاعة ربهم ويبعدهم عن الاستكبار والاستنكاف عن عبوديته كل ذلك بذكر ما عرف الله من بدء الخلقة وعودها وسننه تعالى الجارية فيها. ولذا ذكر ثالثاً أنه يعلم من الله ما لا يعلمون كوقائع يوم القيامة من الثواب والعقاب وغير ذلك. وما يستتبع الطاعة والمعصية من رضاه تعالى وسخطه ووجوه نعمه ونقمه.

ومن هنا يظهر أن الجمل الثلاث كل مسوق لغرض خاص أعني قوله: «أُبلغكم» الآية

و«أنصح لكم» و«أعلم» الآية وهي ثلاثة أوصاف متوالية لا كما قيل: إن الاوليان صفتان، والثالثة جملة حالية عن فاعل «وأنصح لكم».

قوله تعالى: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الى آخر الآية؛ استفهام إنكاري ينكر تعجبهم من دعواه الرسالة ودعوته إياهم الى الدين الحق والمراد بالذكر ما يذكر به الله وهو المعارف الحقة التي أُوحيت إليه. وقوله: «من ربكم» متعلق بمقدر أي ذكر كائن من ربكم.

وقوله: «لينذركم» و«لتتقوا» و«لعلكم ترحمون» متعلقات بقوله: «جاءكم» والمعنى لغرض أن ينذركم الرسول، ولتتقوا أنتم، ويؤدي ذلك الى رجاء أن تشملكم الرحمة الإلهية فإن التقوى وإن كان يؤدي الى النجاة لكنها ليست بعلة تامة، وقد اشتمل ما حكي من إجمال كلامه عليه السلام من معارف عالية إلهية.

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ الفلك السفينة يستعمل واحداً وجمعاً على ما ذكره الراغب ويذكر ويؤنث كما في الصحاح وقوله: «قوماً عمين» موصوف وصفة. وعمين جمع عمي كخشن صفة مشبهة من عمي يعمى، عمي كالأعمى إلا أن العمى يختص بعمى البصيرة والأعمى بعمي البصر، كما قيل، ومعنى الآية ظاهر.

٦٥ • وَإِلىٰ عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ.

٦٦ • قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ.

٦٧ • قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ وَلٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ.
٦٨ • أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ.
٦٩ • أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللّٰهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.
٧٠ • قالُوا أَجِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللّٰهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ.
٧١ • قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللّٰهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ.
٧٢ • فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّا وَقَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَما كانُوا مُؤْمِنِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِلىٰ عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ﴾ الى آخر الآية؛ الأخ وأصله أخو هو المشارك غيره في الولادة تكويناً لمن ولده وغيره أب أو أم أو هما معاً أو بحسب شرع إلهي كالأخ الرضاعي أو سنة اجتماعية كالأخ بالدعاء على ما كان يراه أقوام فهذا أصله، ثم استعير لكل من ينتسب الى قوم أو بلدة أو صنعة أو سجية ونحو ذلك يقال: أخو بني تميم وأخو يثرب وأخو الحياكة وأخو الكرم، ومن هذا الباب قوله: «والى عاد أخاهم

هوداً».

والكلام في قوله: «قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره» كالكلام في نظير الخطاب من القصة السابقة. فإن قلت: لم حذف العاطف من قوله: «قال يا قوم» ولم يقل: فقال كما في قصة نوح؟ قلت: هو على تقدير سؤال كأنه لما قال: «والى عاد أخاهم هوداً» قيل: فما قال هود؟ فاجيب وقيل: قال يا قوم اعبدوا الله الآية. كذا قاله الزمخشري في الكشاف.

ولا يجري هذا الكلام في قصة نوح لأنه أول قصة أوردت، وهذه القصة قصة بعد قصة يهيأ فيها ذهن المخاطب للسؤال بعد ما وعي إجمال القصة وعلم أن قصة الإرسال تتضمن دعوة ورداً وقبولاً فكان بالحري إذا سمع المخاطب قوله: «والى عاد أخاهم هوداً» أن يسأل فيقول: ما قال هود لقومه؟ وجوابه قال لهم: الخ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ الى آخر الآية: لما كان في هذا الملأ من يؤمن بالله ويستر إيمانه كما سيأتي في القصة بخلاف الملأ من قوم نوح قال هيهنا في قصة هود: ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ وقال في قصة نوح: ﴿قال الملأ من قومه﴾ كذا ذكره الزمخشري. وقوله تعالى حكاية عن قولهم: «إنا لنريك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين» أكدوا كلامهم مرة بعد مرة لأنهم سمعوا منه مقالاً ما كانوا ليتوقعوا صدوره من أحد، وقد أخذت آلهتهم موضعها من قلوبهم، واستقرت سنة الوثنية بينهم استقراراً لا يجترىء معه أحد على أن يعترض عليها فتعجبوا من مقاله فردوه رداً عن تعجب، فجبهوه أولاً بأن فيه سفاهة وهو خفة العقل التي تؤدي الى الخطأ في الآراء، وثانياً بأنهم يظنون بظن قوي جداً أنه من الكاذبين، وكأنهم يشيرون بالكاذبين الى أنبيائهم لأن الوثنيين ما كانوا ليذعنوا بالنبوة وقد جاءهم أنبياء قبل هود كما يذكره تعالى بقوله: ﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله﴾ (هود / ٥٩).

قوله تعالى: ﴿قَالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ الكلام في الآية نظير الكلام في نظيره

من قصة نوح غير أن عاداً زادوا وقاحة على قوم نوح حيث إن أُولئك رموا نوحاً بالضلال في الرأي وهؤلاء رموا هوداً بالسفاهة لكن هوداً لم يترك ما به من وقار النبوة، ولم ينس ما هو الواجب من أدب الدعوة الإلهية فأجابهم بقوله: «يا قوم» فأظهر عطوفته عليهم وحرصه على إنجائهم «ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين» فجرى على تجريد الكلام من كل تأكيد واكتفى بمجرد رد تهمتهم وإثبات ما كان يدعيه من الرسالة للدلالة على ظهوره.

قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أي لا شأن لي بما أني رسول إلا تبليغ رسالات ربي خالصاً من شوب ما تظنون بي من كوني كاذباً فلست بغاش لكم فيما أُريد أن أحملكم عليه، ولا خائن لما عندي من الحق بالتغيير ولا لما عندي من حقوقكم بالإضاعة، فما أُريده منكم من التدين بدين التوحيد هو الذي أراه حقاً، وهو الذي فيه نفعكم وخيركم، فإنما وصف نفسه بالأمين محاذاة لقولهم: «وإنا لنظنك من الكاذبين».

قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الى آخر الآية: البصطة هي البسطة قلبت السين صاداً لمجاورتها الطاء وهو من حروف الإطباق كالصراط والسراط والآلاء جمع ألى بفتح الهمزة وكسرها بمعنى النعمة كآناء جمع أنى وإنى.

ثم أنكر ﷺ تعجبهم من رسالته إليهم نظير ما تقدم من نوح ﷺ وذكّرهم نعم الله عليهم، وخص من بينها نعمتين ظاهرتين هما أن الله جعلهم خلفاء في الأرض بعد نوح، وأن الله خصهم من بين الأقوام ببسطة الخلق وعظم الهيكل البدني المستلزم لزيادة الشدة والقوة، ومن هنا يظهر أنهم كانوا ذوي حضارة وتقدم، وصيت في البأس والقوة والقدرة. ثم أتبعها بالإشارة الى سائر النعم بقوله تعالى: «فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون».

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ الآية: فيه تعلق منهم بتلقيد الآباء، وتعجيز هود مشوباً بنوع من الاستهزاء بما أنذرهم به من العذاب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ الى آخر الآية؛ الرجس والرجز هو الأمر الذي إذا وقع على الشيء أوجب ابتعاده أو الابتعاد عنه، ولذا يطلق على القاذورة لأن الإنسان يتنفر ويبتعد عنه، وعلى العذاب لأن المعذب ـ اسم مفعول ـ يبتعد عمن يعذبه أو من الناس الآمنين من العذاب.

أجابهم بأن إصرارهم على عبادة الأوثان بتقليد آبائهم أوجب أن يحق عليهم البعد عن الله بالرجس والغضب؛ ثم فرع عليه أن هددهم بما يستعجلون من العذاب، وأخبرهم بنزوله عليهم لا محالة، وكنى عن ذلك بأمرهم بالانتظار واخبارهم بأنه مثلهم في انتظار نزول العذاب فقال: «فانتظروا إني معكم من المنتظرين».

وأما قوله: «أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان» فهو رد لما استندوا إليه في أُلوهية آلهتهم وهو أنهم وجدوا آباءهم على عبادتها ـ وهم أكمل منهم وممن في طبقتهم كهود وأعقل ـ فيجب عليهم أن يقلدوهم.

ومحصله أنكم وآباءكم سواء في أنكم جميعاً أتيتم بأشياء ليس لكم على ما ادعيتم من صفتها وهي الالوهية من سلطان وهو البرهان والحجة القاطعة فلا يبقى لها من الالوهية إلا الأسماء التي سميتموها بها إذ قلتم: إله الخصب وإله الحرب وإله البحر وإله البر، وليس لهذه الأسماء مصاديق إلا في أوهامكم، فهل تجادلونني في الأسماء، وللإنسان أن يسمي كل ما شاء بما شاء إذا لم يعتبر تحقق المعنى في الخارج.

وقد تكرر في القرآن الاستدلال على بطلان الوثنية بهذا البيان: «أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان» وهو من ألطف البيان وأرقه، وأبلغ الحجة وأقطعها إذ لو لم يأت الإنسان لما يدعيه من دعوى بحجة برهانية لم يبق لما يدعيه من النعت إلا التسمية والتعبير، ومن أبده الجهل أن يعتمد الإنسان على مثل هذا النعت الموهوم.

وهذا البيان يطرد ويجري بالتحليل في جميع الموارد التي يثق فيها الإنسان على غير الله

سبحانه من الأسباب، ويعطيها من الاستقلال ما يوجب تعلق قلبه بها وطاعته لها وتقربه منها فإن الله سبحانه عد في موارد من كلامه طاعة غيره والركون الى من سواه عبادة له قال ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني﴾ (يس / ٦١).

قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ الى آخر الآية: تنكير الرحمة للدلالة على النوع أي بنوع من الرحمة وهي الرحمة التي تختص بالمؤمنين من النصرة الموعودة لهم قال تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ (المؤمن / ٥١). وقال: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ (الروم / ٤٧).

وقوله: «وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا» الآية كناية عن إهلاكهم وقطع نسلهم فإن الدابر هو الذي يلي الشيء من خلفه فربما وصف به الأمر السابق على الشيء كأمس الدابر، وربما وصف به اللاحق كدابر القوم وهو الذي في آخرهم فنسبة القطع الى الدابر بعناية أن النسل اللاحق دابر متصل بالإنسان في سبب ممتد، وإهلاك الإنسان كذلك كأنه قطع هذا السبب الموصول فيما بينه وبين نسله.

وسيأتي تفصيل البحث عن قصة هود ﷺ في تفسيره سورة هود إن شاء الله.

٧٣ ◉ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مالَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هٰذِهِ ناقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ ٱللَّهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ.

٧٤ ◉ وَٱذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلأَرْضِ

تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبالَ بُيُوتاً فَاذكُرُوا آلاءَ ٱللّٰهِ وَلا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ.

٧٥ ● قالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ.

٧٦ ● قالَ الَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ.

٧٧ ● فَعَقَرُوا النّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقالُوا يا صالِحُ ٱئْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ.

٧٨ ● فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ.

٧٩ ● فَتَوَلّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلٰكِنْ لا تُحِبُّونَ النّاصِحِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِلىٰ ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً﴾ الى آخر الآية؛ ثمود أُمة قديمة من العرب سكنوا أرض اليمن بالأحقاف بعث الله إليهم «أخاهم صالحاً» وهو منهم «فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره» دعاهم الى التوحيد وقد كانوا مشركين يعبدون الأصنام على النحو الذي دعا نوح وهود عليهما السلام قومهما المشركين.

وقوله: ﴿قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي شاهد قاطع في شهادته ويبينه قوله بالاشارة الى نفس البينة «هذه ناقة الله لكم آية» وهي الناقة التي أخرجها الله لهم من الجبل آية لنبوته بدعائه عليه السلام، وهي العناية في إضافة الناقة الى الله سبحانه.

وقوله : ﴿ فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرضِ ٱللَّهِ ﴾ الآية : تفريع على كون الناقة آية لله ، وحكم لا يخلو عن تشديد عليهم يستتبع كلمة العذاب التي تفصل بين كل رسول وأُمته قال تعالى : ﴿ ولكل أُمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾ (يونس / ٤٧) ، وفي الآية تلويح الى أن تخليتهم الناقة وشأنها في الأكل والسير في الأرض كانت مما يشق عليهم فكانوا يتحرجون من ذلك . وفي قوله : « في أرض الله » إيماء إليه فوصاهم وحذرهم أن يمنعوها من إطلاقها ويمسوها بسوء كالعقر والنحر فإن وبال ذلك عذاب أليم يأخذهم .

قوله تعالى : ﴿ وَٱذكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ ﴾ الى آخر الآية : دعاهم الى أن يذكروا نعم الله عليهم كما دعا هود عاداً الى ذلك . وذكرهم أن الله جعلهم خلفاء يخلفون أُمماً من قبلهم كعاد . وبوأهم من الأرض أي مكنهم في منازلهم منها ، يتخذون من سهولها ـ والسهل خلاف الجبل سمي به لسهولة قطعه ـ قصوراً وهي الدور التي لها سور على ما قيل ، وينحتون الجبال بيوتاً يأوون اليها ويسكنونها .

ثم جمع الجميع ولخصها في قوله : « فاذكروا آلاء الله » وأورده في صورة التفريع مع أنه إجمال للتفصيل الذي قبله بإيهام المغايرة كأنه لما أمر بذكر النعم وعد من تفاصيل النعم أشياء كأنهم لا يعلمون بها قيل ثانياً : فإذا كان لله فيكم آلاء ونعم عظيمة أمثال التي ذكرت فاذكروا آلاء الله .

وأما قوله ﴿ وَلا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرضِ مُفْسِدِينَ ﴾ فمعطوف على قوله : « فاذكروا » عطف اللازم على ملزومه ، وفسر العثي بالفساد وفسر بالاضطراب والمبالغة . قال الراغب في المفردات : العيث والعثي يتقاربان نحو جذب وجبذ إلا أن العيث أكثر ما يقال في الفساد الذي يدرك حساً ، والعثي فيما يدرك حكماً يقال : عثي يعثي عثياً ، وعلى هذا « فلا تعثوا في الأرض مفسدين » . انتهى .

قوله تعالى : ﴿ قالَ ٱلْمَلأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِمَنْ

آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ الى آخر الآيتين: دل سبحانه ببيان قوله: «للذين استضعفوا» بقوله: «لمن آمن منهم» على أن المستضعفين هم المؤمنون وأن المؤمنين إنما كانوا من المستضعفين ولم يكن ليؤمن به أحد من المستكبرين، والباقي ظاهر.

قوله: ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ الى آخر الآية: عقر النخلة قطعها من أصلها، وعقر الناقة نحرها، وعقر الناقة أيضاً قطع قوائمها، والعتو هو التمرد والامتناع وضمن في الآية معنى الاستكبار بدليل تعديته بعن، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ ﴾ الى آخر الآيتين: الرجفة هي الاضطراب والاهتزاز الشديد كما في زلزلة الأرض وتلاطم البحر، والجثوم في الانسان والطير كالبروك في البعير.

وقد ذكر الله هنا في سبب هلاكهم أنه أخذتهم الرجفة، وقال في موضع آخر: ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ﴾ (هود / ٦٧)، وفي موضع آخر: ﴿ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون ﴾ (حم السجدة / ١٧)، والصواعق السماوية لا تخلو عن صيحة هائلة تقارنها، ولا ينفك ذلك غالباً عن رجفة الأرض هي نتيجة الاهتزاز الجوي الشديد الى الأرض، وتوجف من جهة أُخرى القلوب وترتعد الأركان، فالظاهر أن عذابهم إنما كان بصاعقة سماوية اقترنت صيحة هائلة ورجفة في الأرض أو في قلوبهم فأصبحوا في دارهم أي في بلدهم جاثمين ساقطين على وجوههم وركبهم.

والآية تدل على أن ذلك كان مرتبطاً بما كفروا وظلموا آية من آيات الله مقصوداً بها عذابهم عذاب الاستئصال، ولا نظر في الآية الى كيفية حدوثها، والباقي ظاهر.

٨٠ ● وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ٱلْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلْعالَمِينَ.

٨١ ● إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ.

٨٢ ● وَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ.

٨٣ ● فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الغابِرِينَ.

٨٤ ● وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ المُجْرِمِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ﴾ الى آخر الآية: ظاهره أنه من عطف القصة على القصة أي عطف قوله: «لوطاً» على «نوحاً» في قوله في القصة الاولى «ولقد أرسلنا نوحاً» فيكون التقدير ولقد أرسلنا لوطاً إذ قال لقومه، الخ: لكن المعهود من نظائر هذا النظم في القرآن أن يكون بتقدير «اذكر» بدلالة السياق. وعلى ذلك فالتقدير: واذكر لوطاً الذي أرسلناه إذ قال لقومه، الخ: والظاهر أن تغيير السياق من جهة أن لوطاً من الأنبياء التابعين لشريعة إبراهيم عليه السلام لا لشريعة نوح عليه السلام، ولذلك غير السياق في بدء قصته عن السياق السابق في قصص نوح وهود وصالح فغير السياق في بدء قصته ثم رجع الى السياق في قصة شعيب عليه السلام.

وقد كان لوط ـ على ما سيأتي إن شاء الله من تفصيل قصته في سورة هود ـ مرسلاً الى أهل سدوم وغيره يدعوهم الى دين التوحيد وكانوا مشركين عبدة أصنام.

وقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ﴾ يريد بالفاحشة اللواط بدليل قوله: «إنكم لتأتون الرجال شهوة» وفي قوله: «ما سبقكم بها من أحد من العالمين» أي أحد من الامم والجماعات

دلالة على أن تاريخ ظهور هذه الفاحشة الشنيعة تنتهي الى قوم لوط، وسيأتي جل ما يتعلق به من الكلام في تفصيل قصته في سورة هود.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ﴾ الآية: إتيان الرجال كناية عن العمل بهم بذلك، وقوله: «شهوة» قرينة عليه، وقوله: «من دون النساء» قرينة أخرى على ذلك، ويفيد مضافاً الى ذلك أنهم كانوا قد تركوا سبيل النساء واكتفوا بالرجال، ولتعديهم سبيل الفطرة والخلقة الى غيره عدهم متجاوزين مسرفين فقال: «بل أنتم قوم مسرفون».

ولكون عملهم فاحشة مبتدعة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين استفهم عن ذلك مقارناً بـ«إن» المفيدة للتحقيق فافاد التعجب والاستغراب، والتقدير: «إنكم لتأتون» الآية.

قوله تعالى: ﴿وَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا﴾ الى آخر الآية: أي لم يكن عندهم جواب فهددوه بالإخراج من البلد فإن قولهم: «أخرجوهم من قريتكم» الآية: ليس جواباً عن قول لوط لهم: «أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد» الآية: فجواب الكلام في ظرف المناظرة إما إمضاؤه والاعتراف بحقيته وإما بيان وجه فساده، وليس في قولهم: «اخرجوهم» الى آخر شيء من ذلك فوضع ما ليس بجواب في موضع الجواب كناية عن عدم الجواب ودلالة على سفههم.

وقد استهانوا أمر لوط إذ قالوا: «أخرجوهم من قريتكم» الآية: أي أن القرية أي البلدة لكم وهم نزلاء ليسوا منها وهم يتنزهون عما تأتونه ويتطهرون. ولا يهمنكم أمرهم فليسوا إلا أُناساً لا عدة لهم ولا شدة.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ﴾ فيه دلالة على أنه لم يكن آمن به إلا أهله، وقد قال تعالى في موضع آخر: ﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ (الذاريات / ٣٦).

وقوله: ﴿كانَتْ مِنَ ٱلغابِرِينَ﴾ أي الماضين من القوم، وهو استعارة بالكناية عن الهلاك والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ المُجْرِمِينَ﴾ ذكر الإمطار في مورد ترقب ذكر العذاب يدل على أن العذاب كان به وقد نكّر المطر للدلالة على غرابة أمره وغزارة أثره، وقد فسره الله تعالى في موضع آخر بقوله: ﴿**وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد**﴾ (هود / ٨٣).

وقوله: «فانظر كيف كان عاقبة المجرمين» توجيه خطاب الى النبي ﷺ ليعتبر به هو وأُمته.

٨٥ ● وَإِلىٰ مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللّٰهَ ما لَكُمْ مِنْ
إِلٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزانَ
وَلا تَبْخَسُوا النّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ
إِصْلاحِها ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.
٨٦ ● وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللّٰهِ
مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَها عِوَجاً وَٱذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ
وَٱنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ.
٨٧ ● وَإِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطائِفَةٌ لَمْ
يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتّىٰ يَحْكُمَ ٱللّٰهُ بَيْنَنا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحاكِمِينَ.
٨٨ ● قالَ ٱلْمَلَأُ الَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ
وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا قالَ أَوَلَوْ

كُنّا كارِهِينَ.

٨٩ ● قَدِ ٱفْتَرَيْنا عَلَى ٱللّٰهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا ٱللّٰهُ مِنْها وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ ٱللّٰهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى ٱللّٰهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا ٱفْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ ٱلْفاتِحِينَ.

٩٠ ● وَقالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ.

٩١ ● فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ.

٩٢ ● الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ ٱلْخاسِرِينَ.

٩٣ ● فَتَوَلّىٰ عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسىٰ عَلىٰ قَوْمٍ كافِرِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِلىٰ مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً﴾ الآية معطوف على القصة الاولى وهي قصة نوح عليه السلام، وقد بنى عليه السلام دعوته على أساس التوحيد كما بناها عليه من قبله من الرسل المذكورين في القصص المتقدمة.

وقوله: ﴿قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يدل على مجيئه بآية تدل على رسالته ولكن الله سبحانه لم يذكر ذلك في كتابه وليست هذه الآية هي آية العذاب التي يذكرها الله تعالى في آخر قصته فإن عامة قومه من الكفار لم ينتفعوا بها بل كان فيها هلاكهم ولا معنى لكون آية

العذاب آية للرسالة مبينة للدعوة.

على أنه يفرع قوله: «فأوفوا الكيل والميزان» الآية؛ على مجيء الآية ظاهراً، وإنما يستقيم الدعوة الى العمل بالدين قبل نزول العذاب وتحقق الهلاك. وهو ظاهر.

وقد دعاهم أولاً بعد التوحيد الذي هو أصل الدين الى إيفاء الكيل والميزان وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم فقد كان الإفساد في المعاملات رائجاً فيهم شائعاً بينهم.

ثم دعاهم ثانياً بقوله: «ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها» الى الكف عن الإفساد في الأرض بعدما أصلحها الله بحسب طبعها، والفطرة الإنسانية الداعية الى اصلاحها كي ينتظم بذلك أمر الحياة السعيدة، والإفساد في الأرض وان كان بحسب اطلاق معناه يشمل جميع المعاصي والذنوب مما يتعلق بحقوق الله أو بحقوق الناس كائنة ماكانت لكن مقابلته لما قبله وما بعده يخصه - تقريباً - بالإفساد الذي يسلب الأمن العام في الأموال والأعراض والنفوس كقطع الطرق ونهب الأموال وهتك الأعراض وقتل النفوس المحترمة.

ثم علل دعوته الى الأمرين بقوله: «ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين» أما كون إيفاء الكيل والميزان وعدم بخس الناس أشياءهم خيراً فلأن حياة الإنسان الاجتماعية في استقامتها مبنية على المبادلة بين الأفراد بإعطاء كل منهم ما يفضل من حاجته، وأخذ ما يعادله مما يتمم به نقصه في ضروريات الحياة وما يتبعها، وهذا يحتاج الى أمن عام في المعاملات تحفظ به أوصاف الأشياء ومقاديرها على ما هي عليه فمن يجوز لنفسه البخس في أشياء الناس فهو يجوز ذلك لكل من هو مثله، وهو شيوعه، وإذا شاع البخس والغش والغرر من غير أن يؤمن حلول السم محل الشفاء والردي مكان الجيد، والخليط مكان الخالص، وبالأخرة كل شيء محل كل شيء بأنواع الحيل والعلاجات كان فيه هلاك الأموال والنفوس جميعاً.

وأما كون الكف عن إفساد الأرض خيراً لهم فلأن سلب الأمن العام يوقف رحى المجتمع الإنساني عن حركتها من جميع الجهات وفي ذلك هلاك الحرث والنسل وفناء الإنسانية.

فالمعنى: إيفاء الكيل والميزان وعدم البخس والكف عن الفساد في الأرض خير لكم يظهر لكم خيريته إن كنتم مصدقين لقولي مؤمنين بي، أو المعنى: ذلكم خير لكم تعلمون أنه خير إن كنتم ذوي إيمان بالحق.

وربما قيل: إن المعنى ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين بدعوتي فإن غير المؤمن لا ينتفع بسبب ما عنده من الكفر القاضي بشقائه وخسرانه وضلال سعيه بهذه الخيرات الدنيوية بحسب الحقيقة لأن انتفاعه إنما هو انتفاع في موطن خيالي وهو الحياة الدنيا التي هي لعب، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون.

هذا كله على تقدير كون المشار إليه بقوله: «ذلكم» هو إيفاء الكيل وما بعده كما هو ظاهر السياق، وأما اخذ الإشارة الى جميع ما تقدم وجعل المراد بالايمان هو الايمان المصطلح دون الايمان اللغوي كما احتمله بعضهم فهو أشبه باشتراط الشيء بنفسه لرجوع المعنى الى نحو قولنا إن كنتم مؤمنين فالعبادة لله وحده بالايمان به وإيفاء الكيل والميزان وعدم الفساد في الأرض خير لكم.

ويرد على الوجهين الأخيرين جميعاً أن ظاهر قوله: «إن كنتم مؤمنين» ثبوت اتصافهم بالايمان قبل حال الخطاب فإنه مقتضى تعليق الحكم بقوله: «كنتم مؤمنين» المؤلف من ماضي الكون الناقص واسم الفاعل من الايمان، المقتضى لاستقرار الصفة فيهم زماناً، ولا يخاطب بمثل هذا المعنى القوم الذين فيهم الكافر والمؤمن والمستكبر والمنقاد ولو كان كما يقولون لكان من حق الكلام أن يقال: ذلكم خير لكم إن آمنتم أو إن تؤمنوا فالظاهر أنه لا محيص من كون المراد بالايمان غير الايمان المصطلح.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ الآية: ظاهر السياق أن «توعدون وتصدون» حالان من فاعل «لا تقعدوا» وقوله: «وتبغونها» حال من فاعل «تصدون».

ثم دعاهم ثالثاً الى ترك التعرض لصراط الله المستقيم الذي هو الدين فإن في الكلام تلويحاً الى أنهم كانوا يقعدون على طريق المؤمنين بشعيب عليه السلام ويوعدونهم على إيمانهم به والحضور عنده والاستماع منه وإجراء العبادات الدينية معه، ويصرفونهم عن التدين بدين الحق والسلوك في طريقة التوحيد وهم يسلكون طريق الشرك، ويطلبون سبيل الله الذي هو دين الفطرة عوجاً.

وبالجملة كانوا يقطعون الطريق على الايمان بكل ما يستطيعون من قوة واحتيال فنهاهم عن ذلك، ووصاهم أن يذكروا نعمة الله عليهم ويعتبروا بالنظر الى ما يعلمونه من تاريخ الامم الغابرة، وما آل إليه أمر المفسدين من عاقبة السوء.

فقوله: ﴿ وَٱذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين كلام مسوق سوق العظة والتوصية وهو يقبل التعلق بجميع ما تقدم من الأوامر والنواهي فقوله: «واذكروا إن كنتم قليلاً فكثركم» أمر بتذكر تدرجهم من القلة الى الكثرة بازدياد النسل فإن ذلك من نعم الله العظيمة على هذا النوع الانساني لأن الانسان لا يقدر على أن يعيش وحده من غير اجتماع إذ الغاية الشريفة والسعادة العالية الانسانية التي يمتاز بها عن سائر الأنواع الحيوانية وغيرها اقتضت أن تهب العناية الالهية له أدوات وقوى مختلفة وتركيباً وجودياً خاصاً لا يستطيع أن يقوم بضروريات حوائجها العجيبة المتفننة وحده بل بالتعاضد مع غيره في تحصيل المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمنكح وغيرها تعاضداً في الفكر والإرادة والعمل.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ الى آخر الآية؛ ثم دعاهم رابعاً الى الصبر على تقدير وقوع الاختلاف بينهم بالإيمان والكفر فإنه كان يوصيهم جميعاً قبل هذه الوصية بالاجتماع على الإيمان بالله والعمل الصالح، وكأنه أحس منهم أن ذلك مما لا يكون البتة، وأن الاختلاف كائن لا محالة، وأن الملأ المستكبرين من قومه وهم الذين

كانوا يوعدون ويصدون عن سبيل الله سيأخذون في افساد الأرض وايذاء المؤمنين ويوجب ذلك في المؤمنين وهن عزيمتهم، وتسلط الناس على قلوبهم فأمرهم جميعاً بالصبر وانتظار أمر الله فيهم ليحكم بينهم وهو خير الحاكمين.

فإن في ذلك صلاح المجتمع، أما المؤمنون فلا يقعون في الباس من الحياة الآمنة، والاضطراب والحيرة من جهة دينهم. وأما الكفار فلا يقعون في ندامة الإقدام من غير رؤية ومفسدة المظلمة على جهالة فحكم الله خير فاصل بين الطائفتين فهو خير الحاكمين لا يساهل في حكم اذا حان حينه، ولا يجور في حكم اذا ما حكم.

فقوله: «فاصبروا» بالنسبة الى الكفار أمر ارشادي، وبالنسبة الى المؤمنين أمر مولوي أو ارشادي، وهو ارشاد الجميع الى ما يصلح حالهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ﴾ الآية. لم يسترشد الملا المستكبرون من قومه بما أرشدهم اليه من الصبر وانتظار الحكم الفصل في ذلك من الله سبحانه بل بادروه بتهديده وتهديد المؤمنين بإخراجهم من أرضهم الا أن يرجعوا الى ملتهم بالارتداد عن دين التوحيد.

وفي تأكيدهم القول: «لنخرجنك» و«لتعودن» بالقسم ونون التأكيد دلالة على قطعهم العزم على ذلك، ولذا بادر ﷺ بعد استماع هذا القول منهم الى الاستفتاح من الله سبحانه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ، قَدِ ٱفْتَرَيْنا عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ الآية: أجاب ﷺ بكراهة العود في ملتهم بدليل ما بعده من الجمل، ولازم ذلك اختيار الشق الآخر على تقدير الاضطرار الى أحدهما كما أخبروه.

وقد أجاب ﷺ عن نفسه وعن المؤمنين به من قومه، وذكر أنه والمؤمنين به جميعاً كارهون للعود الى ملتهم فإن في ذلك افتراء للكذب على الله سبحانه بنسبة الشركاء إليه، وما يتبعها من الأحكام المفتراة في دين الوثنية فقوله: «قد افترينا على الله كذباً» الآية: بمنزلة التعليل لقوله:

«أولو كنا كارهين».

ومن أسخف الاستدلال الاحتجاج بقوله: «إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها» على أن شعيباً عليه السلام كان قبل نبوته مشركاً وثنياً ـ حاشاه ـ وقد تقدم آنفاً أنه يتكلم عن نفسه وعن المؤمنين به من قومه وقد كانوا كفاراً مشركين قبل الإيمان به فأنجاهم الله من ملة الشرك وهداهم بشعيب الى التوحيد فقول شعيب: «نجانا الله» تكلم عن المجموع بنسبة وصف الجل الى الكل. هذا لو كان المراد بالتنجية التنجية الظاهرية من الشرك الفعلي وأما لو أُريد بها التنجية الحقيقة وهي الإخراج من كل ضلال محقق موجود أو مقدر مترقب كان شعيب ـ وهو لم يشرك بالله طرفة عين ـ وقومه ـ وهم كانوا مشركين قبل زمان إيمانهم بشعيب ـ جميعاً من نجاهم الله من الشرك إذ لا يملك الانسان لنفسه الهالكة ضراً ولا نفعاً وما أصابه من خير فهو من الله سبحانه.

وقوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ كالإضراب والترقي بالجواب القاطع كأنه قال: نحن كارهون العود الى ملتكم لأن فيه افتراء على الله بل إن ذلك مما لا يكون البتة. وذلك أن كراهة شيء إنما توجب تعسر التلبس به دون تعذره فأجاب عليه السلام ثانياً بتعذر العود بعد جوابه أولاً بتعسره، وهو ما ذكرناه من الإضراب والترقي.

ولما كان قوله: «وما يكون لنا أن نعود فيها» في معنى أن يقال: «لن نعود إليها أبداً» والقطع في مثل هذه العزمات مما هو بعيد عن أدب النبوة فإنه في معنى: لن نعود على أي تقدير فرض حتى لو شاء الله، وهو من الجهل بمقامه تعالى. استثنى مشية الله سبحانه فقال «إلا أن يشاء الله ربنا» فإن الانسان كيفما كان جائز الخطأ فمن الجائز أن يخطىء بذنب فيعاقبه الله بسلب عنايته به فيطرده من دينه فيهلك على الضلال.

وفي الجمع بين الاسمين في قوله: «الله ربنا» إشارة الى أن الله الذي يحكم ما يشاء هو الذي يدبر أمرنا وهو إله ورب. على ما يقتضيه دين التوحيد لا كما يعلمه دين الوثنية فإنه يسلم

الالوهية لله ثم يفرز الربوبية بمختلف شؤنها بين الأوثان ويسميها رب البحر ورب البر وهكذا.

وقوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ كالتعليل لتعقيب الكلام بالاستثناء كأنه قيل لما استثنيت بعدما أطلقت الكلام وقطعت في العزم؟ فقال: لأنه وسع ربي كل شيء علماً ولا أُحيط من علمه إلا بما شاء فمن الجائز أن يتعلق مشيته بشيء غائب عن علمي ساءني أو سرني كأن يتعلق علمه بأنا سنخالفه في بعض أوامره فيشاء عودنا الى ملتكم. وإن كنا اليوم كارهين له. ولعل هذا المعنى هو السبب في تعقيب هذا القول بمثل قوله: «على الله توكلنا» فإن من يتوكل على الله كان حسبه وصانه من شر ما يخاف.

ولما بلغ الكلام هذا المبلغ وقد أخبروهم بعزمهم على أحد الأمرين: الإخراج أو العود، وأخبرهم شعيب ﷺ بالعزم القاطع على عدم العود الى ملتهم البتة التجأ ﷺ الى ربه واستفتح بقوله عن نفسه وعن المؤمنين «ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين» يسأل ربه أن يفتح بينهم أي بين شعيب والمؤمنين به، وبين المشركين من قومه، وهو الحكم الفصل فإن الفتح بين شيئين يستلزم إبعاد كل منهما عن صاحبه حتى لا يماس هذا ذاك ولا ذاك هذا دعا ﷺ بالفتح وكنى به عن الحكم الفصل وهو الهلاك أو هو بمنزلته وأبهم الخاسر من الرابح والهالك من الناجي وهو يعلم أن الله سينصره وأن الخزي اليوم والسوء على الكافرين لكنه ﷺ أخذ بالنصفة للحق وتأدب بإرجاع الأمر في ذلك الى الله كما أتى بنظير ذلك في قوله السابق: «فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين».

وخير الحاكمين وخير الفاتحين اسمان من أسماء الله الحسنى، وقد تقدم البحث عن معنى الحكم فيما مر، وعن معنى الفتح آنفاً. وسيجيء الكلام المستوفى في الأسماء الحسنى في تفسير قوله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ (الآية / ١٨٠) من السورة إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ الى آخر الآية: هذا تهديد

منهم لمن آمن بشعيب أو أراد أن يؤمن به ويكون من جملة الإيعاد والصد اللذين كان شعيب ينهى عنهما بقوله: «ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله» ويكون إفراد هذا بالذكر ههنا من بين سائر أقوالهم ليكون كالتوطئة والتمهيد لما سيأتي من قولهم بعد ذكر هلاكهم: «الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين».

ويحتمل أن يكون الاتباع بمعناه الظاهر العرفي وهو اقتفاء أثر الماشي على الطريق والسالك السبيل بأن يكون الملأ المستكبرون لما اضطروه ومن معه الى أحد الأمرين: الخروج من أرضهم أو العود في ملتهم ثم سمعوه يرد عليهم العود الى ملتهم رداً قاطعاً ثم يدعو بمثل قوله: «ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين» لم يشكّوا أنه سيتركهم ويهاجر الى أرض غير أرضهم، ويتبعه في هذه المهاجرة المؤمنون به من القوم خاطبوا عند ذلك طائفة المؤمنين بقولهم: «لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون» فهددوهم وخوفوهم بالخسران إن تبعوه في الخروج من أرضهم ليخرج شعيب وحده فإنهم إنما كانوا يعادونه إياه بالأصالة، وأما المؤمنون فإنما كانوا يبغضون من جهته ولأجله.

وعلى أي الوجهين كان فالآية كالتوطئة والتمهيد للآية الآتية: «الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين» كما تقدم الإشارة إليه.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ أصبحوا أي صاروا أو دخلوا في الصباح، وقد تقدم معنى الآية في نظيرتها من قصة صالح.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها ـ الى قوله ـ الْخاسِرِينَ﴾ قال الراغب في المفردات: وغني في مكان كذا إذا طال مقامه فيه مستغنياً به عن غيره بغنى قال: كأن لم يغنوا فيها (انتهى). و«كأن» مخفف كأن خفف لدخوله الجملة الفعلية.

فقوله: «الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها» فيه تشبيه حال المكذبين من قومه بمن لم يطيلوا الإقامة في أرضهم فإن أمثال هؤلاء يسهل زوالهم لعدم تعلقهم بها في عشيرة أو أهل أو

دار أو ضياع وعقار. وأما من تمكن في أرض واستوطنها وأطال المقام بها وتعلق بها بكل ما يقع به التعلق في الحياة المادية فإن تركها له متعسر كالمتعذر وخاصة ترك الامة القاطنة في أرض أرضها وما اقتنته فيها طل مقامها. وقد ترك هؤلاء وهم أُمة عريقة في الأرض دارهم وما فيها، في أيسر زمان أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين.

وقد كانوا يزعمون أن شعيباً ومن تبعه منهم سيحشرون فخاب ظنهم وانقلبت الدائرة عليهم فكانوا هم الخاسرين فمكروا ومكر الله والله خير الماكرين.

والى هذا يشير تعالى حيث ذكر أولاً قولهم: إن متبعي شعيب خاسرون، ثم ذكر نزول العذاب وأبهم الذين أخذتهم الرجفة فقال: «فأخذتهم الرجفة» ولم يقل: فأخذت الذين كفروا الرجفة. ثم صرح في قوله: «الذين كذبوا شعيباً» الآية أن الحكم الإلهي والهلاك والخسران كان لشعيب ومن تبعه على الذين كذبوه من قومه فكانوا هم الخاسرين الممكور بهم، وهم يزعمون خلافه.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ الى آخر الآية. ظاهر السياق أنه إنما تولى بعد نزول العذاب عليهم وهلاكهم، وأن الخطاب خطاب اعتبار. وقوله: «فكيف آسى» الخ؛ هو من الأسى أي كيف أحزن. والباقي ظاهر[1].

٩٤ ● وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَٱلضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ.

٩٥ ● ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَٱلسَّرَّاءُ فَأَخَذناهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ.

---

١. الاعراف ٩٤ ـ ١٠٢: كلام في سنة الامتحان واختبار الامم بالبأساء والضراء: ان الله عز اسمه ليس سبباً في عرض الاسباب.

٩٦ ● وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلقُرىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَٱلأَرضِ وَلٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ.

٩٧ ● أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلقُرىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ.

٩٨ ● أَوَ أَمِنَ أَهْلُ القُرىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ.

٩٩ ● أَفَأَمِنُوا مَكْرَ ٱللّٰهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللّٰهِ إِلَّا ٱلقَوْمُ ٱلْخاسِرُونَ.

١٠٠ ● أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ.

١٠١ ● تِلْكَ ٱلقُرىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِ ٱلْكافِرِينَ.

١٠٢ ● وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ﴾ الى آخر الآية: قيل: البأساء في المال كالفقر، والضراء في النفس كالمرض، وقيل: يعني بالبأساء ما نالهم من الشدة في أنفسهم وبالضراء ما نالهم في أموالهم، وقيل: غير ذلك. وقيل: إن البأس والبأساء يكثر استعمالها في الشدة التي هي بالنكاية والتنكيل كما في قوله تعالى: ﴿والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً﴾.

ولعل قوله بعد: «الضراء والسراء» حيث أُريد بهما ما يسوء الإنسان وما يسره يكون قرينة على إرادة مطلق ما يسوء الإنسان من الشدائد من الضراء، ويكون قوله: «بالبأساء

والضراء» من ذكر العام بعد الخاص.

يذكر سبحانه أن السنة الإلهية جرت على أنه كلما أرسل نبياً من الأنبياء الى قرية من القرى ـ وما يرسلهم إليهم إلا ليهديهم سبيل الرشاد ـ ابتلاهم بشيء من الشدائد في النفوس والأموال رجاء أن يبعثهم ذلك الى التضرع إليه سبحانه ليتم بذلك أمر دعوتهم الى الإيمان بالله والعمل الصالح.

فالابتلاءات والمحن نعم العون لدعوة الأنبياء فإن الإنسان ما دام على النعمة شغله ذلك عن التوجه الى من أنعمها عليه واستغنى بها، وإذا سلب النعمة أحس بالحاجة. ونزلت عليه الذلة والمسكنة، وعلاه الجزع. وهدده الفناء فيبعثه ذلك بحسب الفطرة الى الالتجاء والتضرع الى من بيده سد خلته ودفع ذلته. وهو الله سبحانه وإن كان لا يشعر به وإذا نبه عليه كان من المرجو اهتداؤه الى الحق. قال تعالى: ﴿ **وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض** ﴾ (حم السجدة / ٥١).

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا ﴾ الى آخر الآية: تبديل الشيء شيئاً وضع الشيء الثاني مكان الشيء الأول والسيئة والحسنة معناهما ظاهر، والمراد بهما ما هما كالشدة والرخاء، والخوف والأمن، والضراء والسراء كما يدل عليه قوله بعد: «قد مس آباءنا الضراء والسراء».

وقوله: ﴿ حَتَّىٰ عَفَوْا ﴾ من العفو وفسر بالكثرة أي حتى كثروا أموالاً ونفوساً بعدما كان الله قللهم بالابتلاءات والمحن. وليس ـ ببعيد وإن لم يذكروه ـ أن يكون من العفو بمعنى إمحاء الأثر كقوله:

ربع عفاه الدهر طولاً فانمحى　　　قد كان من طول البلى أن يمصحا

فيكون المراد أنهم محوا بالحسنة التي أوتوها آثار السيئة السابقة وقالوا: «قد مس آباءنا الضراء والسراء» أي أن الإنسان وهو في عالم الطبيعة المتحولة المتغيرة من حكم موقفه أن

يمسه الضراء والسراء، وتتعاقب عليه الحدثان مما يسوؤه أو يسره من غير أن يكـون لذلك انتساب الى امتحان إلهي ونقمة ربانية .

ومن الممكن بالنظر الى هذا المعنى الثاني أن يكون قوله : «وقـالوا» الخ : عـطف تـفسير لقولـه : «عفوا» والمـراد أنهم محـوا رسم الامتحان الالهي بقولهـم : إن الضراء والسراء إنما هما من عادات الدهر المتبادلـة المتداولة يداولنـا بذلك كما كان يـداول آباءنـا كما قـــال تـعالى ﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة﴾ (حم السجدة / ٥٠).

و«حتى» في قوله : «حتى عفوا وقالوا» الآية : للغاية . والمعنى : ثم آيتناهم النـعم مكـان النقم فاستغرقوا فيها الى أن نسوا ما كانوا عليه في حال الشدة وقالوا : إن هذه الحسنات وتلك الســيئآت من عادة الدهر فانتهى بهم إرسال الشدة ثم الرخاء الى هذه الغاية . وكان ينبغي لهم أن يتذكروا عند ذلك ويهتدوا الى مزيد الشكر بعد التضرع لكنهم غيروا الأمر فوضعوا هذه الغاية مكان تلك الغاية التي رضيها لهم ربهم فطبع الله بذلك على قلوبهم فلا يسمعون كـلمة الحق .

ولعل قوله : ﴿الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ قدم فيه الضراء على السراء ليـحاذي مـا في قـوله تعالى : «ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة» من الترتيب .

وفي قوله : ﴿فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ تلويح الى جهل الأنسان بجريان الأمر الإلهي ، ولذا كان الأخذ بغتة وفجأة من غير أن يشعروا به ، وهم يظنون أنهم عـالمون بمجاري الامور ، وخصوصيات الأسباب . لهم أن يتقوا ما يهددهم من أسباب الهلاك بوسائل دافعة يهديهم إليها العلم . قال تعالى : ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عـندهم مـن العلم﴾ (المؤمن / ٨٣).

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ﴾ الى

آخر الآية: البركات أنواع الخير الكثير ربما يبتلى الإنسان بفقده كالأمن والرخاء والصحة والمال والأولاد وغير ذلك.

وقوله: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ فيه استعارة بالكناية بالكناية فقد شبهت البركات بمجاري تجري منها عليهم كل ما يتنعمون به من نعم الله لكنها سدت دونهم فلا يجري عليهم منها شيء لكنهم لو آمنوا واتقوا لفتحها الله سبحانه فجرى عليهم منها بركات السماء من الأمطار والثلوج والحر والبرد وغير ذلك كل في موقعه وبالمقدار النافع منه، وبركات الأرض من النبات والفواكه والأمن وغيرها ففي الكلام استعارة المجاري للبركات ثم ذكر بعض لوازمه وآثاره وهو الفتح للمستعار له.

وفي قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ الآية دلالة على أن افتتاح ابواب البركات مسبب لإيمان أهل القرى جميعاً وتقواهم أي أن ذلك من آثار إيمان النوع الإنساني وتقواه لا إيمان البعض وتقواه فإن إيمان البعض وتقواه لا ينفك عن كفر البعض الآخر وفسقه، ومع ذلك لا يرتفع سبب الفساد وهو ظاهر.

وفي قوله: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذناهُمْ بِمَا كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ دلالة على أن الأخذ بعنوان المجازاة وقد تقدم في البيان المذكور آنفاً ما يتبين به كيفية ذلك، وأنه في الحقيقة أعمال الإنسان ترد إليه.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ﴾ البيات والتبييت قصد العدو ليلاً، وهو من المكر لأن الليل سكن يسكن فيه الإنسان ويميل بالطبع الى أن يستريح وينقطع عن غيره بالنوم والسكون.

وقد فرع مضمون الآية على ما قبله أي إذا كان هذا حال أهل القرى أنهم يغترون بما تحت حسهم عما وراءه فيفجؤون ويأخذهم العذاب بغتة وهم لا يشعرون فهل أمنوا أن يأتيهم عذاب الله ليلاً وهم في حال النوم، وقد عمتهم الغفلة؟.

قوله تعالى: ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ الضحى صدر النهار حين تنبسط الشمس، والمراد باللعب الأعمال التي يشتغلون بها لرفع حوائج الحياة الدنيا والتمتع من مزايا الشهوات، وهي إذا لم تكن في سبيل السعادة الحقيقة، وطلب الحق كانت لعباً، فقوله: «وهم يلعبون» كناية عن العمل للدنيا وربما قيل: إنه استعارة أي يشتغلون بما لا نفع فيه كأنهم يلعبون، وليس ببعيد أن يكون قوله في الآية السابقة: «وهم نائمون» كناية عن الغفلة. ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللّٰهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللّٰهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ﴾ مكر به مكراً أي مسه بالضرر أو بما ينتهي الى الضرر وهو لا يشعر وهو إنما يصح منه تعالى إذا كان على نحو المجازاة كأن يأتي الانسان بالمعصية فيؤاخذه الله بالعذاب من حيث لا يشعر أو يفعل به ما يسوقه الى العذاب وهو لا يشعر، وأما المكر الابتدائي من غير تحقق معصية سابقة فما يمتنع عليه تعالى وقد مرت الإشارة إليه كراراً.

وما ألطف قوله تعالى: «أفأمن أهل القرى» و«أو أمن أهل القرى» ثم قوله: «أفأمنوا مكر الله»، والثالث ـ وهو الذي في هذه الآية ـ جمع وتلخيص للإنكارين السابقين في الآيتين، وقد أظهر في الآيتين جميعاً من غير أن يقول في الثانية: أو أمنوا، الخ؛ ليعود الضمير في الآية الثالثة الى من في الآيتين جميعاً كأنه أخذ أهل القرى وهم نائمون غير أهل القرى وهم يلعبون.

وقوله: ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللّٰهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ﴾ وذلك لأنه تعالى بين في الآيتين الاوليين أن الأمن من مكر الله نفسه مكر إلهي يتعقبه العذاب الإلهي فالآمنون من مكر الله خاسرون لانهم ممكور بهم بهذا الأمن بعينه.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها﴾ الى آخر الآية؛ الظاهر أن فاعل قوله: «يهد» ضمير راجع الى ما أجمله من قصص أهل القرى، وقوله «للذين يرثون» مفعوله عدي إليه باللام لتضمينه معنى التبيين، والمعنى: أو لم يبين ما تلوناه من قصص

أهل القرى للذين يرثون الأرض من بعد أهلها هادياً لهم. وقوله: «أن لو نشاء أصبناهم» الآية مفعول «يهد» والمراد بالذين يرثون الأرض من بعد أهلها الأخلاف الذين ورثوا الأرض من أسلافهم.

ومحصل المعنى: أو لم يتبين أخلاف هؤلاء الذين ذكرنا أنا آخذناهم بمعاصيهم بعد ما امتحناهم ثم طبعنا على قلوبهم فلم يستطيعوا أن يسمعوا مواعظ أنبيائهم أنّا لو نشاء لأصبناهم بذنوبهم من غير أن يمنعنا منهم مانع أو يتقوا بأسنا بشيء.

وربما قيل: إن قوله: «يهد» منزل منزلة اللازم والمعنى: أو لم يفعل بهم الهداية أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم. ونظيره قوله تعالى: ﴿أولم يهد لهم كم اهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم﴾ (الم السجدة / ٢٦).

وأما قوله: «ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون» فمعطوف على قوله: «أصبناهم» لأن الماضي ههنا في معنى المستقبل. والمعنى أو لم يهد لهم أو لو نشاء نطبع، الخ: وقيل جملة معترضة تذييلية، وفي الآية وجوه وأقوال أُخر خالية عن الجدوى.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها﴾ الى آخر الآية: تلخيص ثان لقصصهم المقصوصة سابقاً بعد التلخيص الذي مر في قوله: «وما أرسلنا في قرية من نبي» الى آخر الآيتين أو الآيات الثلاث.

والفرق بين التلخيصين أن الأول تلخيص من جهة صنع الله من أخذهم بالبأساء والضراء ثم تبديل السيئة حسنة ثم الأخذ بغتة وهم لا يشعرون. والثاني تلخيص من جهة حالهم في أنفسهم قبال الدعوة الإلهية. وهو أنهم وإن جاءتهم رسلهم بالبينات لكنهم لم يؤمنوا لتكذيبهم من قبل وما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل. وهذا من طبع الله على قلوبهم.

وقوله: ﴿فَمَا كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ ظاهر الآية أن قوله: «بما» متعلق بقوله: «ليؤمنوا» ولازم ذلك أن تكون «ما» موصولة ويؤيده قوله تعالى في موضع

آخر: ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ (يونس / ٧٤) فإنه أظهر في كون «ما» موصولة لمكان ضمير «به» ويؤول المعنى الى أنهم كذبوا بما دعوا إليه أولاً ثم لم يؤمنوا به عند الدعوة النبوية ثانياً.

ويؤيده ظاهر قوله: «فما كانوا ليؤمنوا» فإن هذا التركيب يدل على نفي التهيؤ القبلي يقال: ما كنت لآتي فلاناً. وما كنت لاكرم فلاناً وقد فعل كذا أي لم يكن من شأني كذا ولم أكن بمتهيىء لكذا. وفي التنزيل: ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ (آل عمران / ١٧٩)، أي كان في إرادته التمييز من قبل.

وقال تعالى: ﴿ لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً ﴾ (النساء / ١٣٧).

ويؤيده أيضاً قوله في الآية التالية: «وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين» فإن ظاهر السياق أن هذه الآية معطوفة عطف تفسير على قوله: «فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل» فيتبين بها أنهم كانوا عهد إليهم بعهد ففسقوا عنه وكذبوا به حين عهد إليهم ثم إذا جاءتهم الرسل بالبينات كذبوهم ولم يؤمنوا بهم. وما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل.

والآية أعني قوله: «ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل» مذيلة بقوله: «وكذلك يطبع الله على قلوب الكافرين» فدل ذلك على أن ما وصفه من مجيء الرسل بالبينات وعدم إيمانهم لتكذيبهم بذلك قبلاً هو من مصاديق الطبع المذكور. وحقيقته أن الله ثبت التكذيب في قلوبهم ومكنه من نفوسهم حتى إذا جاءتهم الرسل بالبينات لم يكن محل لقبول دعوتهم لكون المحل مشغولاً بضده.

فتنطبق هاتان الايتان بحسب المعنى على الآيتين الاوليين أعني قوله: «وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها» الى آخر الآيتين؛ حيث تصفان سنة الله أنه يرسل آيات دالة على حقية أصول الدعوة من التوحيد وغيره بأخذهم بالبأساء والضراء ثم تبديل السيئة حسنة ثم يطبع على قلوبهم جزاء لجرمهم.

وعلى هذا فالمعنى في الآية: لقد جاءتهم رسلهم بالبينات لكنهم لما لم يؤمنوا بالآيات المرسلة إليهم الداعية لهم الى التضرع الى الله والشكر لإحسانه بل شكوا فيها بل حملوها على عادة الدهر وتصريف الأيام وتقليبها الإنسان من حال الى حال فكذبوا بهذه الايات، واستقر التكذيب في قلوبهم فلما دعاهم الأنبياء الى الدين الحق لم يؤمنوا بما كانوا يدعون إليه من الحق وبما كانوا يذكرونهم بها من الآيات لأنهم كذبوا بها من قبل وما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل فإن الله عز وجل طبع على قلوبهم فهم لا يسمعون.

فعدم إيمانهم أثر الطبع الإلهي، والطبع أثر تكذيبهم بدلالة الابتلاء بالبأساء والضراء ثم تبديل السيئة حسنة ثانياً. ومن الدليل عليه قوله: ﴿ **ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين** ﴾ (يونس / ١٣)، وقوله: ﴿ **ثم بعثنا من بعده** ـ يعني نوحاً ـ **رسلاً إلى قومهم فجاؤهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين** ﴾ (يونس / ٧٤)، وعلى هذا فقوله: «فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل» تفريع على قوله: «ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات»، والمراد بما كذبوا به الآيات البينات التي ذكرتهم بها الأنبياء من آيات الآفاق والانفس وما جاؤوا به من الآيات المعجزة فالجميع آياته. والمراد بتكذيبهم بها من قبل، تكذيبهم بها من حيث دلالة عقولهم بمشاهدتها أنهم مربوبون لله لا رب سواه. وبعدم إيمانهم ثانياً عدم إيمانهم بها حين يذكرهم بها الانبياء.

فالمعنى فما كانوا ليؤمنوا بما يذكرهم به ويأتي به الأنبياء من الآيات التي كذبوا بها حين ذكرتهم بها عقولهم، وأرسلها الله إليهم ليذكروا ويتضرعوا اليه ويشكروا له.

وعلى هذا فالمراد بالعهد في قوله في الآية التالية: «وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين» هو العهد الذي عهده الله سبحانه إليهم من طريق العقل بلسان الآيات: أن لا يعبدوا إلا إياه، والمراد بالفسق خروجهم عن ذلك العهد بعدم الوفاء به.

ولهذا العهد تحقق سابق على هذا التحقق وهو أن الله سبحانه أخذه بعينه منهم حين خلقهم وسواهم بخلق أبيهم آدم وتسويته ثم جعله مثالاً للإنسانية العامة فاسجد له الملائكة وأدخله الجنة ثم عهد إليه حين أمر بهبوطه الأرض أن يعبده هو وذريته ولا يشركوا به شيئاً.

وقد قدر الله سبحانه هنالك ما قدر فهدى بحسب تقديره قوماً ولم يهد آخرين ثم اذا وردوا الدنيا وأخذوا في سيرهم في مسير الحياة اهتدى الأولون، وفسق عن عهده الآخرون حتى طبع الله على قلوبهم وحقت عليهم الضلالة في الدنيا بعد أعمالهم السيئة كما تقدم بيانه في تفسير قوله: ﴿كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾ (الآية ٣٠ من السورة).

فمعنى الآية على هذا: فما كانوا ليؤمنوا عند عوة الأنبياء بما كذبوا به ولم يقبلوه عند أخذ العهد الأول، وما وجدنا لأكثرهم من وفاء في الدنيا بالعهد الذي عهدناه هناك وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين خارجين عن حكم ذلك العهد.

فهذا معنى لكنه غير مناف للمعنى السابق فإن أحد المعنيين في طول الآخر وليسا بمتعارضين فإن تعين طريق الانسان وغايته من سعادة وشقاوة بحسب القدر لا ينافي إمكان سعادته وشقاوته في الدنيا. وإناطة تحقق كل منهما باختياره ذلك وانتخابه.

وفيه: أنه معنى صحيح في نفسه غير أنه من البطن دون الظهر الذي عليه يدور التفسير. والدليل عليه قوله بعده: «كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين» فإنه يصرح بأن عدم إيمانهم كذلك إنما كان بالطبع على قلوبهم. وإن الله طبع على قلوبهم بتكذيبهم السابق فلم يؤمنوا به عند الدعوة اللاحقة، والطبع لا يكون ابتدائياً في الدنيا بل لجرم سابق فيها. وهذا أحسن شاهد على أن هذا التكذيب الذي أورث لهم الطبع على قلوبهم كان في الدنيا ثم الطبع أوجب لهم أن لا يؤمنوا بما كذبوا به من قبل.

وفي هذا المعنى آيات أُخر تدل على أن الطبع والختم الالهي إنما هو عن جرم سابق

دنيوي، وليس مجرد سبق التكذيب في الميثاق ينتج الطبع الابتدائي في الدنيا فإنه مما لا يليق به سبحانه البتة. وقد قال: ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ (البقرة / ٢٦).

قوله تعالى: «وما وجدنا لأكثرهم من عهد» الى آخر الاية. قال في المجمع: من عهد أي من وفاء بعهد كما يقال: فلان لا عهد له أي لا وفاء له بالعهد، وليس يحافظ للعهد (انتهى). ومن الجائز أن يراد بالعهد عهد الله الذي عهده إليهم من ناحية آياته أو عهدهم الذي عاهدوا الله عليه أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ومن ناحية حاجة أنفسهم ودلالة عقولهم. وقد ظهر معنى الاية مما تقدم.

١٠٣ ◉ ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسىٰ بِآياتِنا إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَظَلَمُوا بِها فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ.

١٠٤ ◉ وَقالَ مُوسىٰ يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ.

١٠٥ ◉ حَقِيقٌ عَلىٰ أَنْ لا أَقُولَ عَلَى ٱللّٰهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ.

١٠٦ ◉ قالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ.

١٠٧ ◉ فَأَلْقىٰ عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ.

١٠٨ ◉ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنّاظِرِينَ.

١٠٩ ◉ قالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هٰذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ.

١١٠ ◉ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَماذا تَأْمُرُونَ.

١١١ ◉ قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدائِنِ حاشِرِينَ.

١١٢ ۞ يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ.
١١٣ ۞ وَجاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ
ٱلْغالِبِينَ.
١١٤ ۞ قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ.
١١٥ ۞ قالُوا يا مُوسىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ.
١١٦ ۞ قالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ
وَجاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ.
١١٧ ۞ وَأَوْحَيْنا إِلىٰ مُوسىٰ أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما
يَأْفِكُونَ.
١١٨ ۞ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ.
١١٩ ۞ فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَٱنْقَلَبُوا صاغِرِينَ.
١٢٠ ۞ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ.
١٢١ ۞ قالُوا آمَنّا بِرَبِّ العالَمِينَ.
١٢٢ ۞ رَبِّ مُوسىٰ وَهارُونَ.
١٢٣ ۞ قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هٰذا لَمَكْرٌ
مَكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ.
١٢٤ ۞ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ
أَجْمَعِينَ.
١٢٥ ۞ قالُوا إِنّا إِلىٰ رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ.

١٢٦ ● وَما تَنْقِمُ مِنّا إِلّا أَنْ آمَنّا بِآياتِ رَبِّنا لَمّا جاءَتْنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسىٰ بِآياتِنا إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ﴾ الى آخر الآية: في تغيير السياق في أول القصة دلالة على تجدد الاهتمام بأمر موسى عليه السلام فإنه من أُولي العزم صاحب كتاب وشريعة. وقد ورد الدين ببعثته في مرحلة جديدة من التفصيل بعد المرحلتين اللتين قطعهما ببعثة نوح وإبراهيم عليهما السلام. وفي لفظ الآيات شيء من الإشارة الى تبدل المراحل فقد قال تعالى أولاً: ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه**﴾ ﴿**وإلى عاد أخاهم هوداً**﴾ ﴿**وإلى ثمود أخاهم صالحاً**﴾ فجرى على سياق واحد لأن هوداً وصالحاً كانا على شريعة نوح؛ ثم غير السياق فقال: ﴿**ولوطاً إذ قال لقومه**﴾ لأن لوطاً من أهل المرحلة الثانية في الدين وهي مرحلة شريعة إبراهيم، وكان لوط على شريعته ثم عاد الى السياق السابق في بدء قصة شعيب، ثم غير السياق في بدء قصة موسى بقوله: «ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملائه» لأنه ثالث أُولي العزم صاحب كتاب جديد وشريعة جديدة. ودين الله وشرائعه وإن كان واحداً لا تناقض فيه ولا تنافي غير أنه مختلف بالإجمال والتفصيل والكمال وزيادته بحسب تقدم البشر تدريجياً من النقص الى الكمال. واشتداد استعداده لقبول المعارف الإلهية عصراً بعد عصر الى أن ينتهي الى موقف علمي هي أعلى المواقف فيختتم عند ذلك الرسالة والنبوة، ويستقر الكتاب والشريعة استقراراً لا مطمع بعده في كتاب جديد أو شريعة جديدة ولا يبقى للبشر بعد ذلك إلا التدرج في الكمال من حيث انتشار الدين وانبساطه على المجتمع البشري واستيعابه لهم. وإلا التقدم من جهة التحقق بحقائق المعارف. والترقي في مراقي العلم والعمل التي يدعو إليها الكتاب، ويحرض عليها الشريعة والأرض لله يورثها من يشاء

من عباده والعاقبة للمتقين.

فقوله تعالى: «ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا» الى آخر الآية: إجمال لقصة موسى عليه السلام ثم يؤخذ في التفصيل من قوله: «وقال موسى يا فرعون» الآية؛ وإنا وإن كنا نسمي هذه القصص بقصة موسى وقصة نوح وقصة هود وهكذا فإنها بحسب ما سردت في هذه السورة قصص الامم والأقوام الذين أُرسل إليهم هؤلاء الرسل الكرام يذكر فيها حالهم فيما واجهوا به رسل الله من الإنكار والرد، وما آل إليه أمرهم من نزول العذاب الإلهي الذي أفنى جمعهم، وقطع دابرهم ولذلك ترى أن عامة القصص المذكورة مختومة بذكر نزول العذاب وهلاك القوم.

ولا تنس ما قدمناه في مفتتح الكلام أن الغرض منها بيان حال الناس في قبول العهد الإلهي المأخوذ منهم جميعاً ليكون إنذاراً للناس عامة وذكرى للمؤمنين خاصة، وأنه الغرض الجامع بين ما في سور «الم» وما في سورة «ص» من الغرض وهو الإنذار والذكرى.

فقوله: «ثم بعثنا من بعدهم» أي من بعد من ذكروا من الأنبياء وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام «موسى الى فرعون وملائه» أي الى ملك مصر والأشراف الذين حوله، و«فرعون» لقب كان يطلق على ملوك مصر كالخديو كما كان يلقب بقيصر وكسرى وفغفور ملوك الروم وإيران والصين، ولم يصرح القرآن الكريم باسم هذا الفرعون الذي أُرسل إليه موسى فأغرقه الله بيده.

وقوله: «بآياتنا» الظاهر أن المراد بها ما أتى به في أول الدعوة من إلقاء العصا فإذا هي ثعبان، وإخراج يده من جيبه فإذا هي بيضاء، والايات التي أرسلها الله إليهم بعد ذلك من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات، ولم ينقل القرآن الكريم لنبي من الأنبياء من الآيات الكثيرة ما نقله عن موسى عليه السلام.

وقوله: «فظلموا بها» أي بالآيات التي أُرسل بها على ما سيذكره الله سبحانه في خلال

القصة، وظلم كل شيء بحسبه، وظلم الآيات إنما هو التكذيب بها والإنكار لها.

وقوله: «فانظر كيف كان عاقبة المفسدين» ذكر عاقبة الإفساد في الاعتبار بأمرهم لأنهم كانوا يفسدون في الأرض ويستضعفون بني إسرائيل، وقد كان في متن دعوة موسى حين ألقاها الى فرعون «فأرسل معي بني إسرائيل» وفي سورة طه: ﴿ فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ﴾ (طه / ٤٧).

قوله تعالى: ﴿ وَقالَ مُوسىٰ يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ العٰالَمِينَ ﴾ شروع في تفصيل قصة الدعوة كما تقدمت الإشارة إليه، وقد عرف نفسه بالرسالة ليكون تمهيداً لذكر ما أُرسل لأجله، وذكره تعالى باسمه رب العالمين أنسب ما يتصور في مقابلة الوثنيين الذين لا يرون إلا أن لكل قوم أو لكل شأن من شؤون العالم وطرف من أطرافه رباً على حدة.

قوله تعالى: ﴿ حَقِيقٌ عَلىٰ أَنْ لا أَقُولَ عَلَى ٱللّٰهِ إِلاّ ٱلْحَقَّ ﴾ الى آخر الآية؛ تأكيد لصدقه في رسالته أي أنا حري بأن أقول قول الحق ولا أنسب الى الله في رسالتي منه إليك شيئاً من الباطل لم يأمرني به الله سبحانه، وقوله: «قد جئتكم ببينة من ربكم» في موضع التعليل بالنسبة الى جميع ما تقدم أو بالنسبة الى قوله: «إني رسول من رب العالمين» لأنه هو الأصل الذي يتفرع عليه غيره.

ولعل تعدية «حقيق» بعلى من جهة تضمينه معنى حريص أي حريص على كذا حقيقاً به. والمعروف في اللغة تعدية حقيق بمعنى حري بالباء يقال: فلان حقيق بالإكرام أي حري به لائق.

وقرىء «حقيق عليّ» بتشديد الياء والحقيق على هذا مأخوذ من حق عليه كذا أي وجب، والمعنى واجب عليّ أن لا أقول على الله إلا الحق فالحقيق خبر ومبتداه قوله: أن لا أقول، الآية والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ قالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰادِقِينَ ﴾

الشرط في صدر الآية أعني قوله: «إن كنت جئت بآية» يتضمن صدقه ﷺ فإنه إذا كان جائياً بآية واقعة فقد صدق في إخباره بأنه قد جاء بآية لكن الشرط في ذيل الآية تعريض يومىء به الى أنه ما يعتقد بصدقه في إخباره بوجود آية معه. فكأنه قال: إن كنت جئت بآية فأت بها وما أظنك تصدق في قولك. فلا تكرار في الشرط.

قوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ الفاء جوابية كما قيل أي فأجابه بإلقاء عصاه. وهذه هي فاء التفريع والجواب مستفاد من خصوصية المورد. والثعبان الحية العظيمة ولا تنافي بين وصفه هيهنا بالثعبان المبين وبين ما في موضع آخر من قوله تعالى: ﴿ فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب ﴾ (القصص / ٣١). والجان هي الحية الصغيرة لاختلاف القصتين كما قيل فإن ذكر الجان إنما جاء في قصة ليلة الطور وقد قال تعالى فيها في موضع آخر: ﴿ فألقاها فإذا هي حية تسعى ﴾ (طه / ٢٠). وأما ذكر الثعبان فقد جاء في قصة إتيانه لفرعون بالآيات حين سأله ذلك.

قوله تعالى: ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ أي نزع يده من جيبه على ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ (طه / ٢٢)، وقوله: ﴿ اسلك يد في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ (القصص / ٣٢).

والأخبار وإن وردت فيها أن يده ﷺ كانت تضيء كالشمس الطالعة عند إرادة الإعجاز بها لكن الآيات لا تقص أزيد من أنها كانت تخرج بيضاء للناظرين إلا أن كونها آية معجزة تدل على أنها كانت تبيض ابيضاضاً لا يشك الناظرون في أنها حالة خارقة للعادة.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ لم يذكر تعالى ما قاله فرعون عند ذلك. وإنما الذي ذكر محاورة الملإ بعضهم بعضاً كأنهم في مجلس مشاورة يذاكر بعضهم بعضاً ويشير بعضهم الى ما يراه ويصوبه آخرون فيقدمون ما صوبوه من رأي الى فرعون ليعمل به فهم لما تشاوروا في أمر موسى وما شاهدوه من آياته المعجزة قالوا: إن

هذا لساحر عليم، وإذا كان ساحراً غير صادق فيما يذكره من رسالة الله سبحانه فإنما يتوسل بهذه الوسيلة الى نجاة بني إسرائيل واستقلالهم في أمرهم ليتأيد بهم ثم يخرجكم من أرضكم ويذهب بطريقتكم المثلى فماذا تأمرون به في إبطال كيده، وإخماد ناره التي أوقدها ؟ أمن الواجب مثلاً أن يقتل أو يصلب أو يسجن أو يعارض بساحر مثله ؟.

فاستصوبوا آخر الآراء، وقدموه الى فرعون أن أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم.

ومن ذلك يظهر أن قوله تعالى: « فماذا تأمرون » حكاية ما قاله بعض الملإ لبعض وقوله « قالوا أرجه ». الخ؛ حكاية ما قدموه من رأي الجميع الى فرعون وقد اتفقوا عليه، وقد حكى الله سبحانه في موضع آخر من كلامه هذا القول بعينه من فرعون يخاطب به ملأه قال تعالى: **﴿ قال للملإ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم ﴾** (الشعراء / ٣٧).

ويظهر مما في الموضعين أنهم إنما شاوروا حول ما قاله فرعون ثم صوبوه ورأوا أن يجيبه بسحر مثل سحره، وقد حكى الله أيضاً هذا القول عن فرعون يخاطب به موسى حتى بالذي أشار إليه الملأ من معارضة سحره بسحر آخر مثله إذ قال: **﴿ قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله ﴾** (طه / ٥٨)، ولعل ذلك محصل ما خرج من مشاورتهم حول ما قاله فرعون بعدما قدم الى فرعون مخاطب به موسى من قبل نفسه.

وللملإ جلسة مشاورة أُخرى أيضاً بعد قدوم السحرة الى فرعون ناجى فيها بعضهم بعضاً بمثل ما في هذه الآيات قال تعالى: **﴿ فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾** (طه / ٦٣).

فتبين أن أصل الكلام لفرعون ألقاه إليهم ليتشاوروا فيه ويروا رأيهم فيما يفعل به فرعون فتشاوروا وصدقوا قوله وأشاروا بالإرجاء وجمع السحرة للمعارضة فقبله ثم ذكره لموسى ثم

اجتمعوا للمشاورة والمناجاة ثانياً بعد مجيء السحرة واتفقوا أن يجتمعوا عليه ويعارضوه بكل ما يقدرون عليه من السحر صفاً واحداً.

قوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَماذا تَأْمُرُونَ﴾ أي يريد أن يتأيد ببني إسرائيل فيتملك مصر. ويبطل استقلالكم ويخرجكم من أرضكم، وكثيراً ما كان يتفق في الأعصار السابقة أن يهجم قوم على قوم فيتغلبوا عليهم فيشغلوا أرضهم ويتملكوا ديارهم فيخرجوهم منها ويشردوهم في الأرض.

قوله تعالى: ﴿قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدائِنِ حاشِرِينَ﴾ الى آخر الآية التالية: أرجه بسكون الهاء أمر من الارجاء بمعنى التأخير والهاء للسكت أي أخره وأخاه ولا تعجل لهما بشر كالقتل ونحوه حتى ترمى بظلم أو قسوة ونحوهما بل ابعث في المدائن من جنودك حاشرين يجمعون السحرة فيأتوك بهم ثم عارض سحر موسى بسحر السحرة.

وقرىء: أرجه بكسر الجيم والهاء وأصله أرجئه قلبت الهمزة ياء ثم حذفت، والهاء ضمير راجع الى موسى، وأخوه هو هارون عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿وَجآءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً﴾ الى آخر الآية التالية أي فأرسل حاشرين فحشروهم وجاء السحرة كل ذلك محذوف للإيجاز.

وقولهم: «إن لنا لأجراً» سؤال للأجر جيء به في صورة الخبر للتأكيد، وإفادة الطلب الانشائي في صورة الإخبار شائع، ويمكن أن يكون استفهاماً بحذف أداته، ويؤيده قراءة ابن عامر «أئن لنا لأجراً» وقوله: «قال نعم وإنكم لمن المقربين» إجابة لمسؤلهم مع زيادة وعدهم بالتقريب.

قوله تعالى: ﴿قالُوا يا مُوسىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ خيروه بين أن يكون هو الملقي بعصاه، وبين أن يكونوا هم الملقين لما أعدوه من الحبال والعصي

وهذا التخيير في مقام استمدوا لمقابلته، ولا محالة يفيد التخيير في الابتداء بالإلقاء فمعناه إن شئت ألق عصاك أولاً وإن شئت ألقينا حبالنا وعصينا أولاً.

وفيه نوع من التجلد لدلالته على أنهم لا يبالون بأمره سواء ألق قبلهم أو بعدهم فلا يهابونه على أي حال لوثوقهم بأنهم هم الغالبون. ولا يخلو التخيير مع ذلك مع نوع من التأدب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ الى آخر الآية. السحر هيهنا نوع تصرف في حاسة الإنسان بإدراك أشياء لا حقيقة لها في الخارج، وقد تقدم الكلام فيه في تفسير قوله: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾ (البقرة / ١٠٢) في الجزء الأول من الكتاب، والاسترهاب الإخافة، ومعنى الآية ظاهر، وقد عد الله فيها سحرهم عظيماً.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ﴾ الى آخر الآيتين. أن تفسيرية واللقف واللقفان تناول الشيء بسرعة، والإفك هو صرف الشيء عن وجهه ولذا يطلق على الكذب، وفي الآية وجوه من الإيجاز ظاهرة، والتقدير: وأوحينا الى موسى بعد ما ألقوا أن ألق عصاك فألقاها فإذا هي حية وإذا هي تلقف ما يأفكون.

وقوله: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ فيه استعارة بالكناية بتشبيه الحق بشيء كأنه معلق لا يعلم عاقبة حاله أيستقر في الأرض بالوقوع عليها والتمكن فيها أم لا؟ فوقع واستقر «وبطل ما كانوا يعملون» من السحر.

قوله تعالى: ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ أي غلب فرعون واصحابه «هنالك» أي في ذلك المجمع العظيم الذي تهاجم عليهم فيه الناس من كل جانب ففي لفظ «هنالك» إشارة الى ذلك وهو للبعيد. «وانقلبوا صاغرين» أي عادوا وصاروا أذلاء مهانين.

قوله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ، قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّ

مُوسىٰ وَهٰارُونَ ﴾أبهم فاعل الالقاء في قوله: «وأُلقي السحرة ساجدين» وهو معلوم فإن السحرة هم الذين أُلقوا بأنفسهم الى الأرض ساجدين، وذلك للإشارة الى كما تأثير آية موسى فيهم وإدهاشها إياهم فلم يشعروا بأنفسهم حين ما شاهدوا عظمة الآية وظهورها عليهم إلا وهم ملقون ساجدون فلم يدروا من الذي أوقع بهم ذلك.

فاضطرتهم الآية الى الخرور على الأرض ساجدين، والايمان برب العالمين الذي اتخذه موسى وهارون، وفي ذكر موسى وهارون دلالة على الايمان بهما مع الايمان برب العالمين.

وربما قيل: إن بيانهم رب العالمين برب موسى وهارون لدفع توهم أن يكون إيمانهم لفرعون فإنه كان يدعي أنه رب العالمين فلما بينوه بقوله: «رب موسى وهارون» ولم يأخذا فرعون رباً اندفع ذلك التوهم، ولا يخلو عن خفاء فإن الوثنية ما كانت تقول برب العالمين بحقيقة معناه بمعنى من يملك العالمين ويدبر أمر جميع أجزائها بالاستقامة بل قسموا أجزاء العالم وشؤنها بين أرباب شتى، وإنما أعطوا الله سبحانه مقام إله الآلهة ورب الأرباب لا رب الأرباب ومربوبيها.

والذي ادعاه فرعون لنفسه على ما حكاه الله من قوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ (النازعات / ٢٤)، إنما هو العلو من جهة القيام بحاجة الناس ـ وهم أهل مصر خاصة ـ عن قرب واتصال لا من جهة القيام بربوبية جميع العالمين، ومع ذلك كله قد أحاطت الخرافات على الوثنية بحيث لا يستبعد أن يتفوهوا بكون فرعون رب العالمين وإن خالف أُصول مذاهبهم قطعاً.

قوله تعالى: ﴿قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ الى آخر الآيتين؛ خاطبهم فرعون بقوله: «آمنتم به قبل أن آذن لكم» تأنفاً واستكباراً، وهو إخبار يفيد بحسب المقام والانكار والتوبيخ، ومن الجائز أن يكون استفهاماً انكارياً أو توبيخياً محذوف الأداة.

وقوله: ﴿إِنَّ هٰذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ الآية: يتهمهم بالمواطأة والمواضعة في المدينة يريد أنهم لما اجتمعوا في مدينته بعدما حشرهم الحاشرون من مدائن مختلفة شتى فجاؤا بهم اليه ولقوا موسى أجمعوا على أن يمكروا بفرعون وأصحابه فيتسلطوا على المدينة فيخرجوا منها أهلها، وذلك لأنهم لم يشاهدوا موسى قبل ذلك فلو كانوا تواطؤا على شيء فقد كان ذلك بعد اجتماعهم في مدينته.

أنكر عليهم ايمانهم بقوله: «آمنتم به قبل أن آذن لكم» ثم اتهمهم بأنهم تواطؤا جميعاً على المكر ليخرجوا أهل المدينة منها بقوله: «ان هذا لمكر» الخ: ليثبت لهم جرم الإفساد في الأرض المبيح له سياستهم وتنكيلهم بأشد العقوبات.

ثم هددهم بقوله: «فسوف تعلمون» ثم بينه وفصله بقوله: «لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين» فهددهم تهديداً أكيداً أولاً بقطع الأيدي الأرجل من خلاف وهو أن يقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو اليد اليسرى مع الرجل اليمنى وبالجملة قطع كل من اليد والرجل من خلاف الجهة التي قطعت منها الاخرى.

وثانياً بالصلب وهو شد المجرم بعد تعذيبه على خشبة ورفع الخشبة بإثبات جانبة على الأرض ليشاهده الناس فيكون لهم عبرة، وقد تقدم تفصيل بيانه في قصص المسيح عليه السلام في تفسير سورة آل عمران.

قوله تعالى: ﴿قالُوا إِنّا إِلىٰ رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ﴾ الى آخر الآيات: جواب السحرة وهم القائلون هذا المقال وقد قابلوه بما يبطل به كيده، وتنقطع به حجته، وهو أنك تهددنا بالعذاب قبال ما تنقم منا من الإيمان بربنا ظناً منك أن ذلك شر لنا من جهة انقطاع حياتنا به وما نقاسيه من ألم العذاب، وليس ذلك شراً فإنا نرجع الى ربنا، ونحيا عنده بحياة القرب السعيدة، ولم نجترم إلا ما تعده أنت لنا جرماً وهو إيماننا بربنا فما دوننا إلا الخير.

وهذا معنى قوله: ﴿قالُوا إِنّا إِلىٰ رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ﴾ وهو إيمان منهم بالمعاد «وما تنقم

منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا» وعدوا أمر العصا ـ على الظاهر ـ آيات كثيرة لاشتماله على جهات كل منها آية كصيرورتها ثعباناً، ولقفها حبالهم وعصيهم واحداً بعد واحد، ورجوعها الى حالتها الاولى.

والنقم هو الكراهة والبغض يقال: نقم منه كذا ينقم من باب ضرب وعلم: إذا كره وأبغض.

ثم أخذتهم الجذبة الإلهية من غير أن يذعروا مما هددهم به، واستغاثوا بربهم على ما عزم به من تعذيبهم وقتلهم فسألوه تعالى قائلين: «ربنا أفرغ علينا صبراً ـ على ما يريد أن يوقع بنا من العذاب الشديد ـ وتوفنا مسلمين» إن قتلنا.

وفي إطلاق الإفراغ على إعطاء الصبر استعارة بالكناية فشبهوا نفوسهم بالآنية، والصبر بالماء، وإعطاءه بإفراغ الإناء بالماء وهو صبه فيه حتى يغمره، وإنما سألوا ذلك ليفيض الله عليهم من الصبر ما لا يجزعون به عند نزول أي عذاب وألم ينزل بهم:

وقد جاؤا بالعجب العجاب في مشافهتهم هذه مع فرعون وهو الجبار العنيد الذي ينادي «أنا ربكم الأعلى» ويعبده ملك مصر فلم يذعرهم ما شاهدوا من قدرته وسطوته فأعربوا عن حجتهم بقلوب مطمئنة، ونفوس كريمة، وعزم راسخ، وإيمان ثابت، وعلم عزيز، وقول بليغ؛ وإن تدبرت ما حكاه الله سبحانه من مشافهتهم ومحاورتهم فرعون في موقفهم هذا في هذه السورة وفي سورتي طه والشعراء أرشدك ما في خلال كلامهم من الحجج البالغة الى علوم جمة، وحالات روحية شريفة، وأخلاق كريمة، ولولا محذور الخروج عن طور هذا الكتاب لأوردنا شذوة منها في هذا المقام فلينتظر الى حين[1].

---

١. الاعراف ١٠٣ ـ ١٢٦: بحث روائي حول قصة موسى وفرعون.

١٢٧ ● وَقالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَإِنّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ.

١٢٨ ● قالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِاللّٰهِ وَٱصْبِرُوا إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلّٰهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَٱلْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ.

١٢٩ ● قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ.

١٣٠ ● وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ ٱلثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ.

١٣١ ● فَإِذا جاءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هٰذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ ٱللّٰهِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ.

١٣٢ ● وَقالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ.

١٣٣ ● فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَٱلْجَرادَ وَٱلْقُمَّلَ وَالضَّفادِعَ وَالدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ.

١٣٤ ● وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ٱدْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ

عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي
إِسْرائِيلَ.

١٣٥ ❁ فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلىٰ أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ.

١٣٦ ❁ فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا
عَنْها غافِلِينَ.

١٣٧ ❁ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ
وَمَغارِبَها الَّتِي بارَكْنا فِيها وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنىٰ عَلىٰ
بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَدَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَونُ وَقَوْمُهُ
وَما كانُوا يَعْرِشُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَقالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسىٰ وَقَوْمَهُ﴾ الى آخر الآية: هذا إغراء منهم لفرعون وتحريض له أن يقتل موسى وقومه، ولذلك رد فرعون قولهم بأنه لا يهمنا قتلهم فإنا فوقهم قاهرون على أي حال بل سنعيد عليهم سابق عذابنا فنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم. ولو كان ما سألوا مطلق تعذيبهم غير القتل لم يقع قوله: «وإنا فوقهم قاهرون» موقعه ذلك الوقوع.

وقوله: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ تأكيد لتحريضهم إياه على قتلهم. والمعنى أن موسى يتركك وآلهتك فلا يعبدكم مع ما يفسد هو وقومه في الأرض، وفيه دلالة على أن فرعون كما كان يدعي الالوهية، ويستعبد الناس لنفسه كان يعبد آلهة أُخرى، وهو كذلك والتاريخ يثبت نظائر لذلك في الامم السالفة. وقد نقل: أن عظماء البيوت وسادات القوم في الروم وممالك

أُخرى غيرها كان يعبدهم مرؤسوهم من بيتهم وعشائرهم وهم أنفسهم كانوا يعبدون آباءهم الأولين وأصناماً أُخرى غيرهم كما يعبدهم ضعفاؤهم. وأيضاً بين الأرباب التي تعبدها الوثنية ما هو رب لغيره من الأرباب أو رب لرب آخر كربوبية الأب والام للابن وغير ذلك.

إلا أن قوله لقومه فيما حكاه الله سبحانه: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ (النازعات / ٢٤)، وقوله: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ (القصص / ٣٨)، ظاهر في أنه كان لا يتخذ لنفسه رباً، وكان يأمر قومه أن لا يعبدوا إلا إياه، ولذلك قال بعضهم: إنه كان دهرياً لا يعترف بصانع، ويأمر قومه بترك عبادة الآلهة مطلقاً، وقصر العبادة فيه، ولذلك قرأ بعضهم - على ما قيل - «وإلهتك» بكسر الهمزة وفتح اللام وإثبات الألف بعدها كالعبادة وزناً ومعنى.

لكن الأوجه أنه كان يريد بقوله: ﴿ما علمت لكم من إليه غيري﴾ نفي إله يخص قومه القبطيين يملكهم ويدبر أُمورهم غير نفسه كما هو المعهود من عقائد الوثنيين أن لكل صنف من أصناف الخلائق كالسماء والأرض والبر والبحر وقوم كذا، أو من أصناف الحوادث والامور كالسلم والحرب والحب والجمال رباً على حدة، وإنما كانوا يعبدون من بينها ما يهمهم عباته كعبادة سكان سواحل البحار رب البحر والطوفان.

فمعنى كلامه أني أنا ربكم معاشر القبطيين لا ما اتخذه موسى وهو يدعي أنه ربكم أرسله إليكم، ويؤيده ما ذكرناه ما احتف به من القرينة بقوله: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾، فإنه تعالى يقول: ﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين﴾ (القصص /٣٨)، فظاهرها أنه كان يشك في كونه إلهاً لموسى، وأن معنى قوله: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ نفي العلم بوجود إله غيره لا العلم بعدم وجود إله غيره، وبالجملة فكلامه لا ينفي إلهاً غيره.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ وعد منه للملإ من قومه أن يعيد الى بني إسرائيل تعذيبه السابق وهو قتل أبنائهم واستحياء نسائهم واستبقاؤهن للخدمة. وعقبه بقوله: «وإنا فوقهم قاهرون» وهو تطييب قلوبهم وإسكان ما في نفوسهم من الاضطراب والطيش.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَٱصْبِرُوا﴾ الى آخر الآية؛ وهذا من موسى ﷺ بعثٌ لبني إسرائيل واستنهاض لهم على الاستعانة بالله على مقصدهم وهو التخلص من إسارة آل فرعون واستعبادهم ثم بعث على الصبر على شدائد يهددهم بها فرعون من ألوان العذاب. والصبر هو رائد الخير وفرط كل فرج؛ ثم علل ذلك بقوله: «إن الأرض لله يورثها من يشاء».

ومحصله أن فرعون لا يملك الأرض حتى يمنحها من يشاء، ويمنع من التمتع بها من يشاء بل هي لله يورثها من يشاء. وقد جرت السنة الالهية أن يخص بحسن العاقبة من يتقيه من عباده فإن استعنتم بالله وصبرتم في ذات الله على ما يهددكم من الشدائد ـ وهو التقوى ـ أورثكم الأرض التي ترونها في أيدي آل فرعون.

ولذلك عقب قوله: «إن الأرض لله» الآية بقوله: «والعاقبة للمتقين» العاقبة ما يعقب الشيء كالبادئة لما يبدء بالشيء، وكون العاقبة مطلقاً للمتقين من جهة أن السنة الالهية تقضي بذلك وذلك أنه تعالى نظم الكون نظماً يؤدي كل نوع الى غاية وجوده وسعادته التي خلق لأجلها فإن جرى على صراطه الذي ركب عليه، ولم يخرج عن خط مسيره الذي خط له بلغ غاية سعادته لا محالة. والإنسان الذي هو أحد هذه الأنواع أيضاً حاله هذا الحال إن جرى على صراطه الذي رسمته له الفطرة واتقى الخروج عنه والتعدي منه الى غير سبيل الله بالكفر بآياته والإفساد في أرضه هداه الله الى عاقبته الحسنة، وأحياه الحياة الطيبة، وأرشده الى كل خير يبتغيه.

قوله تعالى: ﴿قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا﴾ الإتيان والمجيء في الآية بمعنى واحد، والاختلاف في التعبير للتفنن. وما قيل إن المعنى من قبل أن تأتينا بالآيات ومن بعد ما جئتنا لا دليل على ما فيه من التقدير. على أن غرضهم إظهار أن مجيء موسى وقد وعدوا أن الله ينجيهم بيده من مصيبة الإسارة وهاوية المذلة لم يؤثر أثره فإن الأذى الذي كانوا يحملونه ويؤذون به على حاله، ولا تعلق لغرضهم بأنه أتاهم بالآيات البتة. وهذا الكلام شكوى منهم يبثونها الى موسى عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿قالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ وهذا جواب من موسى عن قولهم: «أوذينا» الخ؛ يسليهم به ويعزيهم بالرجاء، وهو في الحقيقة تكرار لقوله السابق: «استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله» الآية؛ كأنه يقول: ما أمرتكم به أن اتقوا الله في سبيل مقصدكم كلمة حية ثابتة فإن عملتم بها كان من المرجو أن يهلك الله عدوكم، ويستخلفكم في الأرض بإيراثكم إياها ولا يصطفيكم بالاستخلاف اصطفاء جزافاً، ولا يكرمكم إكراماً مطلقاً من غير شرط ولا قيد بل ليمتحنكم بهذا الملك ويبتليكم بهذا التسليط والاستخلاف فينظر كيف تعملون، قال تعالى: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء﴾ (آل عمران / ١٤٠).

وهذا مما يخطّىء به القرآن ما يعتقده اليهود من كرامتهم على الله كرامة لا تقبل عزلاً، ولا تحتمل شرطاً ولا قيداً. والتوراة تعد شعب إسرائيل شعب الله الذي لهم الأرض المقدسة كأنهم ملكوها من الله سبحانه ملكاً لا يقبل نقلاً ولا إقالة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ السنون جمع سنة وهي القحط والجدب، وكأن أصله سنة القحط ثم قيل: السنة إشارة إليها ثم كثر الاستعمال حتى تعينت السنة لمعنى القحط والجدب.

والله سبحانه يذكر في الآية ـ ويقسم ـ أنه أخذ آل فرعون وهم قومه المختصون به من القبطيين بالقحوط المعددة ونقص من الثمرات لعلهم يذّكرون.

وهما نوعان من الآيات التي أرسلها الله الى آل فرعون، وظاهر السياق أنه أرسل ما أرسل منها فصلاً فصلاً، ولذا جمع السنين ولا يصدق الجمع إلا مع الفصل بين سنة وسنة. على أنه يقول: «فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه» الآية: وظاهره الحسنة التي بعد السيئة ثم السيئة التي بعد هذه الحسنة.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ﴾ الى آخر الآية: كانوا اذا جاءهم الخصب ووفور النعمة وسعة الرزق بعد ارتفاع السنة ونقص الثمرات قالوا: «لنا هذه» يريدون به الاختصاص وإنما قلنا: إنهم كانوا يقولون ذلك بعد ارتفاع السنة ونقص الثمرات لأن الإنسان بحسب الطبع لا ينتقل الى ذكر النعمة بما هي نعمة، ولا يتنبه لقدرها إلا بعد مشاهدة النقمة التي هي خلافها، ولا داعي يدعو آل فرعون الى ذكر النعمة الحسنة وتخصيصها بأنفسهم لولا أنهم رأوا خلافها وعدوه أمراً بدعاً لم يكونوا رأوه قبل ذلك فاطيروا بموسى ومن معه ثم اذا بدلت السيئة حسنة عدوها لأنفسهم فالتطير عند السيئة بحسب الوقوع قبل قولهم في الحسنة: لنا هذه وإن كان الأمر بحسب الطبع على خلاف ذلك بمعنى أنهم لو لم يزعموا ولم يرتكز في نفوسهم من اعتيادهم بالرفاهية ووفور النعمة والخصب أنهم مخصوصون بذلك يملكونه لم يتطيروا بموسى عند نزول المصيبة عليهم فإن من لم تروحه الراحة والعافية لا يتحرج عن خلافها.

ولعل هذا هو الوجه في تقديمه تعالى اغترارهم بالنعمة قبل تطيرهم عند النقمة ثم ذكر الحسنة بكلمة «اذا» والسيئة بلفظة «إن» حيث قال: «فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه» فقد جعل مجيء الحسنة كالأصل الثابت فذكره بإذا والتعريف بلام الجنس، ثم ذكر إصابة السيئة بطريق الشرط، ونكر السيئة ليدل على ندرتها

وكونها اتفاقية .

والتطير مشتق من الطير باعتبار اشتماله على نسبة من النسب ، وهي نسبة التشؤم فإنهم كانوا يتشأمون ببعض الطيور كالغراب فاشتق منه ما يفيد معنى التشؤم وهو التطير ومعناه التشؤم بالطير حتى سمي مطلق النصيب أو النصيب من الشر والشأمة طائراً.

فقوله تعالى: «ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون» معناه أن نصيبهم من الشر والشؤم الذي يحق به أن يسمى نصيب الشر وهو العذاب . هو عند الله . ولكن أكثرهم لا يعلمون لظنهم أن ما تجنيه أيديهم يفوت ويزول ولا يحفظ عليهم .

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ مهما من أسماء الشرط معناه أي شيء ، وقولهم هذا إياس منهم لموسى من أن يؤمنوا به وإن أتى بأي آية وفي قولهم: «من آية لتسحرنا بها» استهزاء به حيث سموها آية وجعلوا غرضه منها أن يسحرهم أي إنك تأتينا بالسحر وتسميها آية .

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ ﴾الآية : الطوفان على ما قاله الراغب ـ كل حادثة تحيط بالإنسان ، وصار متعارفاً في الماء المتناهي في الكثرة ، وفي المجمع : أنه السيل الذي يعم بتغريقه الأرض وهو مأخوذ من الطوف فيها (انتهى) .

والقمل بالضم والتشديد قيل : كبار القردان ، وقيل : صغار الذباب وبالفتح فالسكون معروف ، والجراد والضفادع والدم معروفة .

والتفصيل تفريق الشيء الى أجزاء مفصولة منفصلة بعضها عن بعض ، ولازم ذلك تميز كل بعض وظهوره في نفسه فقوله : «آيات مفصلات» يدل على أنها أُرسلت إليهم لا مجتمعة ودفعة بل متفرقة منفصلة بعضها عن بعض ظاهرة في أنها آيات إلهية مقصودة غير اتفاقية ولا جزافية .

ومن الدليل على كون المفصلات بهذا المعنى قوله في الآية التالية: «ولما وقع عليهم الرجز قالوا» الآية: الظاهر أن الآية كانت تأتيهم عن إخبار من موسى وإنذار ثم اذا نزلت بهم ودهمتهم التجأوا إليه فسألوه أن يدعو لهم لتنكشف عنهم، وأعطوه عهداً إن كشفت عنهم آمنوا به وأرسلوا معه بني إسرائيل فلما كشفت نكثوا ونقضوا وعلى هذا القياس.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ٱدْعُ لَنا رَبَّكَ﴾ الى آخر الآية: الرجز هو العذاب ويعني به العذاب الذي كانت تشتمل عليه كل واحدة من الآيات المفصلات فإنها آيات عذاب ونكال وقوله: «بما عهد عندك» على ما يؤيده المقام أي بما التزم عندك أن لا يرد دعاءك فيما تسأله، واللام عندئذ للقسم، والمعنى ادع لنا ربك بالعهد الذي له عندك.

وقوله: ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ هو ما عاهدوا به موسى لكشف الرجز عنهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلىٰ أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ النكث نقض العهد، وقوله: «الى أجل هم بالغوه» متعلق بقوله: «كشفنا» وهو يدل على أنه كان يضم الى معاهدة أجل مضروب كأن يقول موسى ﷺ إن الله سيرفع العذاب عنكم بشرط أن تؤمنوا وترسلوا معي بني اسرائيل الى أجل كذا، أو يقول آل فرعون ما يشابه هذا المعنى فلما كشف العذاب عنهم وحل الأجل المضروب نكثوا ونقضوا عهدهم الذي عاهدوا الله وعاهدوا موسى عليه. والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي ٱلْيَمِّ﴾ اليم البحر، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَها﴾ الى آخر الآية. الظاهر أن المراد بالأرض أرض الشام وفلسطين ويؤيده أو يدل عليه قوله بعد: «التي باركنا فيها» فإن الله سبحانه لم يذكر بالبركة غير الأرض

المقدسة التي هي نواحي فلسطين إلا ما وصف به الكعبة المباركة. والمعنى: أورثنا بني إسرائيل وهم المستضعفون الأرض المقدسة بمشارقها ومغاربها، وانما ذكرهم بوصفهم فقال: القوم الذين كانوا يستضعفون ليدل على عجيب صنعه تعالى في رفع الوضيع، وتقوية المستضعف، وتمليكه من الأرض ما لا يقدر على مثله عادة الا كل قوي ذو أعضاد وأنصار.

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الآية: يريد به ما قضاه في حقهم أنه سيورثهم الأرض ويهلك عدوهم، واليه اشارة موسى عليه السلام في قوله لهم وهو يسليهم ويؤكد رجاءهم: «عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض» ويشير سبحانه اليه في قوله: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ (القصص / ٥)، وتمام الكلمة خروجها من مرحلة القوة الى مرحلة الفعلية. وعلل ذلك بصبرهم.

وقوله: ﴿وَدَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَونُ وَقَوْمُهُ﴾ الآية: أي أهلكنا ما كانوا يصنعونه وما كانوا يسقفونه من القصور والأبنية وما كانوا يعرشونه من الكرم وغيره[1].

١٣٨ ● وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُون عَلىٰ أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا يا مُوسَى ٱجْعَلْ لَنا إِلٰهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ.

١٣٩ ● إِنَّ هٰؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مّا هُمْ فِيهِ وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ.

١٤٠ ● قالَ أَغَيْرَ ٱللهِ أَبْغِيكُمْ إِلٰهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلعالَمِينَ.

---

١. الاعراف ١٢٧ ـ ١٣٧: بحث روائي في ما ارسل الله على قوم فرعون.

١٤١ ● وَ إِذ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذابِ
يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذٰلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ
رَبِّكُمْ عَظِيمٌ.

١٤٢ ● وَواعَدْنا مُوسىٰ ثَلٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ
أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقالَ مُوسىٰ لِأَخِيهِ هٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي
وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلمُفْسِدِينَ.

١٤٣ ● وَلَمَّا جاءَ مُوسىٰ لِمِيقاتِنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ
إِلَيْكَ قالَ لَنْ تَرانِي وَلٰكِنِ انْظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكانَهُ
فَسَوْفَ تَرانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسىٰ
صَعِقاً فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنا أَوَّلُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ.

١٤٤ ● قالَ يا مُوسَى إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي
وَبِكَلامِي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ.

١٤٥ ● وَكَتَبْنا لَهُ فِي ٱلْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ
شَيْءٍ فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها سَأُورِيكُمْ
دارَ ٱلْفاسِقِينَ.

١٤٦ ● سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ
ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ
لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذٰلِكَ

بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنَا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ.

١٤٧ ❁ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ ٱلآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ.

١٤٨ ❁ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً إِتَّخَذُوهُ وَكانُوا ظالِمِينَ.

١٤٩ ❁ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَيَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخاسِرِينَ.

١٥٠ ❁ وَلَمّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلىٰ قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْواحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْداءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ الظّالِمِينَ.

١٥١ ❁ قالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ.

١٥٢ ❁ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيا وَكَذٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ.

١٥٣ ❁ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ثُمَّ تابُوا مِن بَعْدِها وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ.

١٥٤ ۞ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا
هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلىٰ قَوْمٍ﴾ الآية: العكوف الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم. ذكره الراغب في المفردات، وقولهم «اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة» أي كما لهم آلهة مجعولة.

كان بنو إسرائيل على شريعة جدهم إبراهيم عليه السلام، وقد خلا فيهم من الأنبياء إسحاق ويعقوب ويوسف، وهم على دين التوحيد الذي لا يعبد فيه إلا الله سبحانه وحده لا شريك له المتعالي عن أن يكون جسماً أو جسمانياً يعرض له شكل أو قدر غير أن بني إسرائيل كما يستفاد من قصصهم كانوا قوماً ماديين حسيين يجرون في حياتهم على أصالة الحس ولا يعتنون بما وراء الحس إلا اعتناء تشريفياً من غير أصالة ولا حقيقة، وقد مكثوا تحت إسارة القبط سنين متطاولة، وهم يعبدون الأوثان فتأثرت من ذلك أرواحهم وإن كانت العصبية القومية تحفظ لهم دين آبائهم بوجه.

ولذلك كان جلهم لا يتصورون من الله سبحانه إلا أنه جسم من الأجسام بل جوهر أُلوهي يشاكل الإنسان كما هو الظاهر المستفاد من التوراة الدائرة اليوم، وكلما كان موسى يقرب الحق من أذهانهم حولوه الى أشكال وتماثيل يتوهمون له تعالى، لهذه العلة لما شاهدوا في مسيرهم قوماً يعكفون على أصنام لهم استحسنوا مثل ذلك لأنفسهم فسألوا موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة يعكفون عليها.

فلم يجد موسى عليه السلام بدأ من أن يتنزل في بيان توحيد الله سبحانه الى ما يقارب أفهامهم على قصورها فلامهم أولاً على جهلهم بمقام ربهم مع وضوح أن طريق الوثنية طريق باطل هالك

ثم عرف لهم ربهم بالصفة، وأنه لا يقبل صنماً ولا يحد بمثال كما سيجيء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هٰؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مّا هُمْ فِيهِ وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ المتبر من التبار وهو الهلاك. والمراد بقوله: «ما هم فيه» سبيلهم الذي يسلكونه وهو عبادة الأصنام والمراد بقوله: «ما كانوا يعملون» أعمالهم العبادية. والمعنى أن هؤلاء الوثنية طريقتهم هالكة وأعمالهم باطلة فلا يحق أن يميل إليه إنسان عاقل لأن الغرض من عبادة الله سبحانه أن يهتدي به الإنسان الى سعادة دائمة وخير باق.

قوله تعالى: ﴿قالَ أَغَيْرَ ٱللّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعالَمِينَ﴾ «أبغيكم» أي أطلب لكم وألتمس، يعرف ربهم ويصفه لهم، وقوله: «أغير الله أبغيكم إلهاً» فيه تأسيس أن كل إله أبغيه لكم بجعل أو صنع فإنما هو غير الله سبحانه، والذي يجب عليكم أن تعبدوا الله ربكم بصفة الربوبية التي هي تفضيله إياكم على العالمين.

فكأنهم قالوا: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة فقال: كيف ألتمس لكم رباً مصنوعاً وهو غير الله ربكم، وإذا كان غيره فعبادته متبرة باطلة؟ فقالوا: فكيف نعبده ولا نراه ولا سبيل لنا إلى ما لا نشاهده؟ كما يقوله عبدة الأصنام. فقال: اعبدوه بما تعرفونه من صفته فإنه فضلكم على سائر الامم بآياته الباهرة ودينه الحق وإنجائكم من فرعون وعمله، فالآية ـ كما ترى ـ ألطف بيان وأوجز برهان يجلي عن الحق الصريح للأذهان الضعيفة التعقل.

قوله تعالى: ﴿وَ إِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذابِ﴾ إلى آخر الآية؛ سامه العذاب يسومه أي حمله ذلك على طريق الإذلال، والتقتيل الإكثار في القتل والاستحياء الاستبقاء للخدمة وقد تقدم، والظاهر أن قوله: «وفي ذلكم» إشارة إلى ما ذكر من سوء تعذيب آل فرعون لهم.

والآية خطاب امتناني للموجودين من أخلافهم حين النزول يمتن الله فيها عليهم بما منَّ به على آبائهم في زمن فرعون كما قيل، والأنسب بالسياق أن يكون خطاباً لأصحاب موسى

بعينهم مسوقاً سوق التعجب إذا نسوا عظيم نعمة الله عليهم اذ أنجاهم من تلك البلية العظيمة، ونظيره في الغيبة قوله تعالى فيما سيأتي: «ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً».

قوله تعالى: ﴿وَواعَدْنا مُوسىٰ ثَلٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ الى آخر الآية؛ الميقات قريب المعنى من الوقت، قال في المجمع: الفرق بين الميقات والوقت أن الميقات ما قدر ليعمل فيه عمل من الأعمال، والوقت وقت الشيء وقدره، ولذلك قيل: مواقيت الحج وهي المواضع التي قدرت للإحرام فيها(انتهى).

وقد ذكر الله سبحانه المواعدة وأخذ أصلها ثلاثين ليلة ثم أتمها بعشر ليال أُخر ثم ذكر الفذلكة وهي أربعون، وأما الذي ذكره في موضع آخر إذ قال: ﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة﴾ (البقرة / ٥١) فهو المجموع المتحصل من المواعدتين أعني أن آية البقرة تدل على أن مجموع الأربعين كان عن مواعدة، وآية الأعراف على أن ما في آية البقرة مجموع المواعدتين.

وبالجملة يعود المعنى إلى أنه تعالى وعده ثلاثين ليلة للتقريب والتكليم ثم وعده عشراً آخر لإتمام ذلك فتم ميقات ربه اربعين ليلة، ولعله ذكر الليالي دون الأيام ـ مع أن موسى مكث في الطور الأربعين بأيامها ولياليها، والمتعارف في ذكر المواقيت والأزمنة ذكر الأيام دون الليالي ـ لأن الميقات كان للتقرب الى الله سبحانه ومناجاته وذكره، وذلك أخص بالليل وأنسب لما فيه من اجتماع الحواس عن التفرق وزيادة تهيؤ النفس للانس وقد كان من بركات هذا الميقات نزول التوراة.

وهذا كما يشير إلى مثله قوله تعالى: ﴿يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً ـ إلى أن قال ـ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً إن لك في النهار سبحاً طويلاً﴾ (المزمل / ٧)، وقوله تعالى: «وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي» إنما قاله حين ما كان يفارقهم للميقات، والدليل على ذلك قوله: «اخلفني في قومي» فإن الاستخلاف لا يكون إلا في غيبة. وإنما عبر بلفظ «قومي» دون بني إسرائيل لتجري القصة على سياق

سائر القصص المذكورة في هذه السورة فقد حكي فيها عن لفظ نوح وهود وصالح وغيرهم: يا قوم يا قوم، وعلى ذلك أُجريت هذه القصة فعبر فيها عن بني إسرائيل في بضعة مواضع بلفظ القوم، وقد عبر عنهم في سورة طه ببني إسرائيل.

وأما قوله لأخيه ثانياً: «وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين» فهو أمر له بالإصلاح وأن لا يتبع سبيل أهل الفساد، وهارون نبي مرسل معصوم لا تصدر عنه المعصية، ولا يتأتى منه اتباع أهل الفساد في دينهم، وموسى ﷺ أعلم بحال أخيه فليس مراده نهيه عن الكفر والمعصية بل أن لا يتبع في إدارة أُمور قومه ما يشير إليه ويستصوبه المفسدون من القوم أيام خلافته ما دام موسى غائباً.

ومن الدليل عليه قوله: «وأصلح» فإنه يدل على أن المراد بقوله: «ولا تتبع سبيل المفسدين» أن يصلح أمرهم ولا يسير فيهم سيرة هي سبيل المفسدين الذي يستحسنونه ويشيرون إليه بذلك.

ومن هنا يتأيد أنه كان في قومه يومئذ جمع من المفسدين يفسدون ويقلبون عليه الامور ويتربصون به الدوائر فنهى موسى أخاه أن يتبع سبيلهم فيشوشوا عليه الأمر ويكيدوا ويمكروا به فيتفرق جمع بني إسرائيل ويتشتت شملهم بعد تلك المحن والأذايا التي كابدها في إحياء كلمة الاتحاد بينهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جاءَ مُوسىٰ لِمِيقاتِنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قالَ لَنْ تَرانِي وَلٰكِنِ انْظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي﴾ الآية: التجلي مطاوعة التجلية من الجلاء بمعنى الظهور، والدك هو أشد الدق، وجعله دكاً أي مدكوكاً والخرور هو السقوط، والصعقة هي الموت أو الغشية بجمود الحواس وبطلان إدراكها، والإفاقة الرجوع إلى حال سلامة العقل والحواس يقال: أفاق من غشيته أي رجع إلى حال استقامة الشعور والإدراك.

ومعنى الآية على ما يستفاد من ظاهر نظمها أنه «لما جاء موسى لميقاتنا» الذي وقتناه له «وكلمه ربه» بكلامه «قال» أي موسى «رب أرني أنظر إليك» أي أرني نفسك أنظر إليك أي مكني من النظر إليك حتى أنظر إليك وأراك فإن الرؤية فرع النظر، والنظر فرع التمكين من الرؤية والتمكن منها. «قال» الله تعالى لموسى: «لن تراني» أبداً «ولكن انظر الى الجبل» وكان جبلاً بحياله مشهوداً له أُشير إليه بلام العهد الحضوري: «ولكن انظر الى الجبل فإن استقر مكانه وأطاق رؤيتي فاعلم أنك تطيق النظر إلي ورؤيتي «فلما تجلى» وظهر «ربه للجبل جعله» بتجليه «دكاً» مدكوكاً متلاشياً في الجو أو سائخاً «وخر موسى صعقاً» ميتاً أو مغشياً عليه من هول ما رأى «فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك» رجعت إليك مما اقترحته عليك «وأنا أول المؤمنين» بأنك لا ترى. هذا ظاهر ألفاظ الآية.

والذي يعطيه التدبر فيها أن حديث الرؤية والنظر الذي وقع في الآية اذا عرضناه على الفهم العامي المتعارف حمله على رؤية العين ونظر الإبصار. ولا نشك ولن نشك أن الرؤية والإبصار يحتاج الى عمل طبيعي في جهاز الإبصار يهيء للباصر صورة مماثلة لصورة الجسم المبصر في شكله ولونه.

وبالجملة هذا الذي نسميه الإبصار الطبيعي يحتاج الى مادة جسمية في المبصر والباصر جميعاً. وهذا لا شك فيه.

قوله تعالى: ﴿قالَ يا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ المراد باصطفاء الاختيار على وجه التصفية. ولذلك عدي الى الناس بعلى. والمراد بالرسالات هو ما حمل من الأوامر والنواهي الإلهية من المعارف والحكم والشرائع ليبلغه الناس سواء كان التحميل بواسطة ملك أو بتكليم بلا واسطة ملك فهي غير الكلام وإن حملت بكلام فإن الكلام أمر، والمعاني التي يتلقاها السامع منه أمر آخر.

والمراد بالكلام هو ما شافه به الله سبحانه من غير واسطة ملك وبعبارة أُخرى هو ما يكشف به عن مكنون الغيب. واما أن يكون من نوع الكلام الدائر بيننا معاشر الإنسان فلا فإن الكلام عندنا هو أنا نصطلح ونتعهد فيا بيننا على تخصيص صوت مخصوص من الأصوات لمعنى من المعاني لينتقل ذهن السامع الى ذلك المعنى ثم نتوسل عند إرادة تفهيمه الى إيجاد تموج خاص في الهواء يبتدي منا وينتهي الى السامع لننقل به ما في ضميرنا الى ضمير السامع المخاطب والتكلم بهذا الوجه يستلزم التجسم في المتكلم والله سبحانه منزه عنه. ومجرد إيجاد الصوت وتمويج الهواء بإيجاد أسباب الصوت في مكان لا يدل على كون المعاني التي ينتقل إليها الذهن مقصودة لله سبحانه ما لم تكشف الإرادة بأمر آخر وراء نفس الصوت كما أن من أوجد منا بدق أو ضرب أو نحوهما صوتاً يدل على معنى لم نحكم بإرادته ذلك ما لم يكشف من حاله أو مقاله قبلاً أنه قاصد لمعنى ما يوجده من الأصوات.

وما كلم به الله سبحانه موسى ﷺ مما حكاه القرآن الشريف خال عن سؤال الدليل عن كونه كلامه، وعلى كونه تعالى مريداً لمعناه فلم يسأل موسى ربه حين سمع النداء من جانب الطور الأيمن من الشجرة: هل هذا منك يا رب؟ وهل أنت مريد معناه؟ بل أيقن بذلك إيقاناً، ونظير الكلام جار في سائر أقسام الوحي غير الكلام.

وهذا يكشف كشفاً قطعياً عن ارتباط خاص من السامع بإرادة مصدر الكلام والوحي يوجب الانتقال الى المعنى المقصود وإلا فمجرد صدور صوت له معنى مفهوم في اللغة منه تعالى لا يستلزم صحة الانتساب إليه تعالى ولا كونه كلامه كيف؟ وجميع الألفاظ الصادرة من المتكلمين بما أنها أصوات تنتهي إليه تعالى وليست كلاماً له تعالى بل المتكلم بها غيره، وكثيراً ما يحدث من تصادم الأجسام المختلفة أصوات ذوات معان في اللغة ولا نعده كلاماً له تعالى.

وبالجملة تكليمه تعالى هو إيجاده اتصالاً وارتباطاً خاصاً بين مخاطبه وبين الغيب ينتقل به

بمشاهدة بعض مخلوقاته الى معنى مراد، ولا يمنع مقارنة ذلك بأصوات يوجدها الله تعالى في خارج أو سمع أو غير ذلك، وقد تقدم بعض الكلام في الكلام فيما تقدم. وسيأتي منه تتمة في تفسير سورة الشورى إن شاء الله تعالى.

وكيف كان فقوله تعالى: «قال يا موسى إني اصطفيتك» الآية. وارد في مورد الامتنان وموعظة لموسى عليه السلام أن يكتفي بما اصطفاه الله به من رسالاته وكلامه ويشكره ولا يستزيد.

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ الآية: اللوح صحيفة معدة للكتابة فيه لأنه يلوح ويظهر بما فيه من الخط وأصله من لاح البرق اذا لمع.

وقوله: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ من فيه للتبعيض كما يؤيده السياق اللاحق، وقوله «موعظة» الظاهر أنه بيان لكل شيء، ويعطف عليه قوله: «وتفصيلاً لكل شيء» وتنكير قوله: «تفصيلاً» لإفادة الابهام والتبعيض، ويؤول المعنى الى مثل قولنا: وكتبنا لموسى في الألواح وهي التوراة النازلة مختارات من كل شيء ونعني بذلك أنا كتبنا له موعظة وتفصيلاً ما وتشريحاً ما لكل شيء حسب ما يحتاج إليها قومه في الاعتقاد والعمل.

ففي الكلام دلالة على أن التوراة لم تستكمل جميع ما تمس به حاجة البشر من المعارف والشرائع، وهو كذلك كما يدل عليه أيضاً قوله تعالى بعد ذكر التوراة والإنجيل: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه﴾ (المائدة / ٤٨)، وقد تقدم تفسيره.

قوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ عطف تفريع على قوله «وكتبنا له في الألواح» الآية؛ لأنه مشعر بمعنى القول، والتقدير: وقلنا إنا كتبنا لك في الألواح من كل شيء فخذها بقوة.

والأخذ بالقوة كناية عن الأخذ بالجد والحزم فإن من يجد ويحزم في أمر يستعمل ما عنده

من القوة فيه حذراً أن يفوته فالأخذ بالقوة لازم الأخذ بالجد والحزم كني به عنه.

وقوله: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ الظاهر أن الضمير في «بأحسنها» راجع الى الأشياء المدلول عليها بقوله قبلاً: «من كل شيء» من المواعظ وتفاصيل الآداب والشرائع والأخذ بالأحسن كناية عن ملازمة الحسن في الامور واتباعه واختياره فإن من يهم بأمر الحسن في الامور اذا وجد سيئاً وحسناً اختار الحسن الجميل. واذا وجد حسناً وأحسن منه اضطره حب الجمال الى اختيار الأحسن وتقديمه عن الحسن فالأخذ بأحسن الامور لازم حب الجمال وملازمة الحسن فكني به عنه. والمعنى: وأمر قومك يجتنبوا السيئات ويلازموا ما تهدي إليه التوراة من الحسنات. ونظير الآية في التكنية قوله تعالى: ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أُولوا الألباب﴾ (الزمر / ١٨).

وقوله: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَاسِقِينَ﴾ ظاهر السياق أن المراد بهؤلاء الفاسقين هم الذين يفسقون بعدم ائتمار قوله: «وأمر قومك يأخذوا بأحسنها» على ما تقدم من معناه من ملازمة طريق الإحسان في الامور واتباع الحق والرشد فإن من فسق عن الطريق صرفه الله عن الصراط المستقيم الى تتبع السيئات والميل عن الرشد الى الغي كما يفصله في الآية التالية فكانت عاقبة أمره خسراناً وآل أمره الى الهلاك.

وعلى هذا فما في الآية التالية: «سأصرف عن آياتي» الآية: تفسير أو كالتفسير لقوله «ساريكم دار الفاسقين» وقيل المراد بدار الفاسقين جهنم. وفي الكلام تهديد وتحذير. وقيل المراد بها منازل فرعون وقومه بمصر. وقيل: منازل عاد وثمود. وقيل المراد دار العمالقة وغيرهم بالشام وأن الله سيدخلهم فيها فيرونها. وقيل: المراد سيجينكم قوم فساق تكون الدولة لهم عليكم.

قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ

وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها ﴾ الآية: تقييد التكبر في الأرض بغير الحق مع أن التكبر فيها لا يكون إلا بغير الحق كتقييد البغي في الأرض بغير الحق للتوضيح لا للاحتراز ويراد به الدلالة على وجه الذم في العمل وأن التكبر كالبغي مذموم لكونه بغير الحق.

وأما ما قيل: إن القيد احترازي للدلالة على أن المراد هو التكبر المذموم دون التكبر الممدوح كالتكبر على أعداء الله والتكبر على المتكبر، وهو تكبر بالحق ففيه أن المذكور في الآية ليس مطلق التكبر بل التكبر في الأرض، وهو الاستعلاء على عباد الله واستذلالهم والتغلب عليهم. وهذا لا يكون إلا بغير الحق.

وقوله: ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها ﴾ عطف على قوله: «يتكبرون» وبيان لأحد أوصافهم وهو الإصرار على الكفر والتكذيب.

وكذا قوله: ﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ الآية؛ وتكرار الجملتين المثبتة والمنفية بجميع خصوصياتها للدلالة على اعتنائهم الشديد ومراقبتهم الدقيقة على مخالفة سبيل الرشد واتباع سبيل الغي بحيث لا يعذرون بخطإ ولا يحتمل في حقهم جهل أو اشتباه.

وقوله: ﴿ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنَا ﴾ الى آخر الآية؛ تعليل لما تحقق فيهم من رذائل الصفات أي إنما جروا على ما جروا بسبب تكذيبهم لآياتنا وغفلتهم عنها، ومن المحتمل أن يكون تعليلاً لقوله تعالى: «سأصرف عن آياتي».

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ معنى الآية ظاهر ويتحصل منها:

أولاً: أن الجزاء هو نفس العمل وقد تقدم توضيحه كراراً في أبحاثنا السابقة.

وثانياً: أن الحبط من الجزاء فإن الجزاء بالعمل واذا كان العمل حابطاً فإحباطه هو الجزاء، والحبط إنما يتعلق بالأعمال التي فيها جهة حسن فتكون نتيجة إحباط الحسنات ممن له

حسنات وسيئات أن يجزى بسيئاته جزاء سيئاً ويجزى بحسناته بإحباطها فيتمحض له الجزاء السيىء.

ويمكن أن تنزل الآية على معنى آخر وهو أن يكون المراد بالجزاء، الجزاء الحسن وقوله «هل يجزون إلا ما كانوا يعملون» كناية عن أنهم لا يثابون بشيء اذ لا عمل من الأعمال الصالحة عندهم لمكان الحبط قال تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾ (الفرقان / ٢٣)، والدليل على كون المراد بالجزاء هو الثواب أن هذا الجزاء هو جزاء الأعمال المذكورة في الآية قبلاً. والمراد بها بقرينة ذكر الحبط هي الأعمال الصالحة.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ﴾ الى آخر الآية، الحلي على فعول جمع حلي كالثدي جمع ثدي، وهو ما يتحلى ويتزين به من ذهب أو فضة أو نحوهما، والعجل ولد البقرة. والخوار صوت البقرة خاصة، وفي قوله تعالى: «جسداً له خوار» ـ وهو بيان للعجل ـ دلالة على أنه كان غير ذي حياة وإنما وجدوا عنده خواراً كخوار البقر.

والآية وما بعده تذكر قصة عبادة بني إسرائيل العجل بعد ما ذهب موسى الى ميقات ربه واستبطؤا رجوعه إليهم. فكادهم السامري وأخذ من حليهم فصاغ لهم عجلا من ذهب له خوار كخوار العجل وذكر لهم أنه إلههم وإله موسى فسجدوا له واتخذوه إلهاً. وقد فصل الله سبحانه القصة في سورة طه تفصيلاً، والذي ذكره في هذه الآيات من هذه السورة لا يستغني عما هناك، وهو يؤيد نزول سورة طه قبل سورة الأعراف.

وكيف كان فقوله: «واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً» معناه اتخذ قوم موسى من بعد ذهابه لميقات ربه قبل أن يرجع ـ فإنه سيذكر رجوعه إليهم غضبان ـ عجلا فعبدوه، وكان هذا العجل الذي اتخذوه «جسداً له خوار» ثم ذمهم الله سبحانه بأنهم لم يعبؤوا بما هو ظاهر جلي بين عند العقل في أول نظرته أنه لو كان هو لله سبحانه لكلمهم ولهداهم السبيل

فقال تعالى: «أولم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً».

وإنما ذكر من صفاته المنافية للالوهية عدم تكليمه إياهم وعدم هدايته لهم وسكت عن سائر ما فيه كالجسمية وكونه مصنوعاً ومحدوداً ذا مكان وزمان وشكل الى غير ذلك مع أن الجميع ينافي الالوهية لأن هاتين الصفتين أعني التكليم والهداية من أوضح ما تستلزمه الالوهية من الصفات عند من يتخذ شيئاً إلهاً اذ من الواجب أن يعبده بما يرتضيه ويسلك إليه من طريق يوصل إليه، ولا يعلم ذلك إلا من قبل الإله بوجه فهو الذي يجب أن يهديه الى طريق عبادته بنوع من التكليم والتفهيم. وقد رأوا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً.

على أنهم عهدوا من موسى أن الله سبحانه يكلمه ويهديه، ويكلمهم ويهديهم بواسطته. وقد قالوا حين أخرج السامري لهم العجل: ﴿هذا إلهكم وإله موسى﴾ (طه/٨٨). فلو كان العجل هو الذي أومأ إليه السامري لكلمهم وهداهم سبيلاً.

وبالجملة فقد كان من الواضح البين عند عقولهم لو عقلوا أنه ليس هو. ولذلك أردفه بقوله: «اتخذوه وكانوا ظالمين». كأنه قيل: فلم اتخذوه وأمره بذاك الوضوح. فقيل: «اتخذوه وكانوا ظالمين».

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ الى آخر الآية: قال في المجمع: معنى «سقط في أيديهم» وقع البلاء في أيديهم أي وجدوه وجدان من يده فيه يقال ذلك للنادم عندما يجده مما كان خفي عليه، ويقال: سقط في يده، وأُسقط في يده وبغير ألف أفصح. وقيل: معناه صار الذي يضرب به ملقى في يده انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً﴾ الى آخر الآية: الأسف بكسر السين صفة مشبهة من الأسف وهو شدة الغضب والحزن والخلافة القيام بالأمر بعد غيره. والعجلة طلب الشيء وتحريه قبل أوانه على ما ذكره الراغب يقال: عجلت أمراً كذا أي طلبته قبل أوانه الذي له بحسب الطبع فمعنى الآية: ولما رجع موسى الى قومه وهو في حال

غضب وأسف لما أخبره الله تعالى لدى الرجوع بأن قومه ضلوا بعبادة العجل بعده فوبخهم وذمهم بما صنعوا وقال: بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وطلبتموه قبل بلوغ أجله، وهو أمر من بيده خيركم وصلاحكم ولا يجري أمراً إلا على ما يقتضيه حكمته البالغة، ولا يؤثر فيه عجلة غيره ولا طلبه ولا رضاه إلا بما شاء، والظاهر أن المراد بأمر ربهم أمره الذي لأجله واعد موسى لميقاته. وهو نزول التوراة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ الآية: دعاء منه عليه السلام وقد تقدم في الكلام على المغفرة في آخر الجزء السادس من الكتاب أن المغفرة أعم مورداً من المعصية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ الآية: تنكير الغضب وكذا الذلة للإشعار بعظمتها وقد أبهم الله سبحانه ما سينالهم من غضبه وذلة الحياة فلم يبين ما هما فمن المحتمل أن تكون الإشارة بذلك الى ما جرى عليهم بعد ذلك من تحريق العجل المعبود ونسفه في اليم نسفاً وطرد السامري وقتل جمع منهم، أو أن يكون المراد به ما ضرب الله على قومهم من الذلة والمسكنة والقتل والإبادة والإسارة، ويمكن أن يكون المراد بالغضب هو عذاب الآخرة فيجمع لهم بذلك هوان الآخرة وذلة الدنيا.

وكيف كان فذيل الآية: «وكذلك نجزي المفترين» بظاهره يدل على أن ذلك أعني نيل غضب الرب سبحانه وذلة الحياة الدنيا سنة جارية إلهية في المفترين على الله وهذا الذي يدل عليه الآية يهدي إليه الأبحاث العقلية أيضاً كما مر مراراً.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ضمير «من بعدها» الأول راجع الى السيئات، والثاني الى التوبة، ومعنى الآية ظاهر.

والآية وإن كانت في نفسها عامة لكنها بالنظر الى المورد بمنزلة الاستثناء من الذين اتخذوا

العجل المذكورين في الآية السابقة فالتوبة اذا تحققت بحقيقة معناها في أية سيئاً كانت لم يمنع من قبولها مانع كما تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿إنما التوبة على الله﴾ الآية (النساء / ١٧).

وهذه الآية والتي قبلها معترضتان في القصة. ووجه الخطاب فيهما الى النبي ﷺ والدليل على ذلك قوله في الآية الاولى: «وكذلك نجزي المفترين» وفي الآية الثانية: «إن ربك» الآية وظاهر السياق أن الكلام فيهما جار على حكاية الحال الماضية بدليل قوله «سينالهم غضب».

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ الآية: الرهبة هي خوف مع تحرز: والباقي ظاهر[١][٢].

١٥٥ ۞ وَٱخْتَارَ مُوسىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنا فَلَمّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَٱرْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ ٱلْغافِرِينَ.

١٥٦ ۞ وَٱكْتُبْ لَنا فِي هٰذِهِ ٱلدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنّا هُدْنا إِلَيْكَ قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَٱلَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ.

---

١. الاعراف ١٣٨ ـ ١٥٤: بحث روائي في: ميقات موسى عليه السلام؛ مسألة روية الله: تجلي سبحانه للجبل.

٢. الاعراف ١٣٨ ـ ١٥٤: بحث روائي في: الرؤيا القلبية: معرفة الله سبحانه.

١٥٧ ❁ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.

١٥٨ ❁ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.

١٥٩ ❁ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ.

١٦٠ ❁ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا﴾ أي اختار من قومه

فالقوم منصوب بنزع الخافض.

والآية تدل على أن الله سبحانه عين لهم ميقاتاً فحضره منهم سبعون رجلاً اختارهم موسى من القوم، ولا يكون ذلك إلا لأمر ما عظيم لكن الله سبحانه لم يبين ههنا ما هو الغاية المقصودة من حضورهم غير أنه ذكر أنهم أخذتهم الرجفة ولم تأخذهم إلا لظلم عظيم ارتكبوه حتى أدى بهم الى الهلاك بدليل قول موسى عليه السلام: «رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا» فيظهر من هنا أن الرجفة أهلكتهم.

ويتأيد بذلك أن هذه القصة هي التي يشير سبحانه إليها بقوله: ﴿**وإذا قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون**﴾ (البقرة / ٥٦)، وبقوله: ﴿**يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك**﴾ (النساء / ١٥٣).

ومن ذلك يظهر أن المراد بالرجفة التي أخذتهم في الميقات رجفة الصاعقة لا رجفة في أبدانهم كما احتمله بعض المفسرين ولا ضير في ذلك فقد تقدم نظير التعبير في قصة قوم صالح حيث قال تعالى: ﴿**فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين**﴾ (الأعراف / ٧٨)، وقال فيهم: ﴿**فأخذتهم صاعقة العذاب الهون**﴾ (حم السجدة / ١٧).

وفي آية النساء المنقولة آنفاً إشعار بأن سؤالهم الرؤية كان مربوطاً بنزول الكتاب وأن اتخاذ العجل كان بعد ذلك فكأنهم حضروا الميقات لنزول التوراة، وأنهم إنما سألوا الرؤية ليكونوا على يقين من كونها كتاباً سماوياً نازلاً من عند الله، ويؤيد ذلك ان الظاهر أن هؤلاء المختارين كانوا مؤمنين بأصل دعوة موسى، وإنما أرادوا بقولهم: ﴿**لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**﴾ تعليق إيمانهم به من جهة نزول التوراة عليه على الرؤية.

وبهذا كله يتأيد أن هذه القصة جزء من قصة الميقات ونزول التوراة، وأن موسى عليه السلام لما

أراد الحضور لميقات ربه ونزول التوراة اختار هؤلاء السبعين فذهبوا معه الى الطور ولم يقنعوا بتكليم الله كليمه، وسألوا الرؤية فأخذتهم الصاعقة فماتوا ثم أحياهم الله بدعوة موسى، ثم كلم الله موسى وسأل الرؤية وكان ما كان، ومما كان اتخاذ بني إسرائيل العجل بعد غيبتهم وذهابهم لميقات الله، وقد وقع هذا المعنى في بعض الأخبار المأثورة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام كما سيجيء إن شاء الله.

وعلى أي حال العناية في هذه القصة ببيان ظلمهم ونزول العذاب عليهم ودعاء موسى لهم لا بيان كون هذه القصة جزءاً من القصة السابقة لو كان جزءاً، ولا مغايرتها لها لو كانت مغايرة فلا دلالة في اللفظ تنبه على شيء من ذلك.

وأما قوله: ﴿بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ﴾ وقد كان الصادر منهم قولاً لا فعلاً فالوجه في ذلك أن المؤاخذة إنما هو على المعصية، والمعصية تعد عملاً وفعلاً وإن كانت من قبيل الأقوال كما قال تعالى: ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ (التحريم / ٧)، فإنه شامل لقول كلمة الكفر والكذب والافتراء ونحو ذلك بلا ريب، والظاهر أنهم عذبوا بما كان يستلزمه قولهم من سوء الأدب والعناد والاستهانة بمقام ربهم.

على أن ظاهر تلك الاقوال جميعاً أنهم إنما عذبوا بالرجفة قبال ما قالوه دون ما فعلوه فالإشكال على تقدير وروده مشترك بين جميع الأقوال فالأقرب كون القصة جزءاً من سابقتها كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ - الى قوله - مَنْ تَشَاءُ﴾ يريد عليه السلام بذلك أن يسأل ربه أن يحييهم خوفاً من أن يتهمه بنو إسرائيل فيخرجوا به عن الدين، ويبطل بذلك دعوته من أصلها فهذا هو الذي يبتغيه غير أن المقام والحال يمنعانه من ذلك فها هو عليه السلام واقع أمام معصية موبقة من قومه صرعتهم وغضب إلهي شديد أحاط بهم حتى أهلكهم.

ولذلك أخذ يمهد الكلام رويداً ويسترحم ربه بجمل من الثناء حتى يهيج الرحمة على الغضب، ويثير الحنان والرأفة الإلهية ثم يتخلص الى مسألته وذكر حاجته في جو خال من موانع الإجابة.

«قال» مبتدئاً باسم الربوبية المهيجة للرحمة: «رب لو شئت أهلكتهم من قبل» فالأمر الى مشيتك، ولو أهلكتهم من قبل «وإياي» لم يتجه من قومي إلي تهمة في هلاكهم، ثم ذكر أنه ليس من شأن رحمته وسنة ربوبيته أن يؤاخذ قوماً بفعل سفهائهم فقال في صورة الاستفهام تأدباً «أتهلكنا بما فعل السفهاء منا»؟ ثم أكد القول بقوله: «إن هي إلا فتنتك» وامتحانك «تضل بها» أي بالفتنة «من تشاء وتهدي من تشاء» أي أن هذا المورد أحد موارد امتحانك وابتلائك العام الذي تبتلي به عبادك وتجريه عليهم ليضل من ضل ويهتدي من اهتدى، وليس من سنتك أن تهلك كل من افتتن بفتنتك فانحرف عن سوي صراطك.

وبالجملة أنت الذي سبقت رحمتك غضبك ليس من دأبك أن تستعجل المسيئين من عبادك بالعقوبة أو تعاقبهم بما فعل سفاؤهم، وأنت الذي أرسلتني الى قومي ووعدتني أن تنصرني في نجاح دعوتي، وهلاك هؤلاء المصعوقين يجلب علي التهمة من قومي.

قوله تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ شروع منه ﷺ في الدعاء بعد ما قدمه من الثناء، وبدأه بقوله: «أنت ولينا» وختمه بقوله: «وأنت خير الغافرين» ليقع ما يسأله بين صفتي ولاية الله الخاصة به، ومغفرته التي هي خير مغفرة ثم سأل حاجته بقوله: «فاغفر لنا وارحمنا» لأنه خير حاجة يرتضي الله من عباده أن يسألوها عنه، ولم يصرح بخصوص حاجته التي بعثته الى الدعاء، وهي إحياء السبعين الذين أهلكهم الله تذللاً واستحياءً.

وحاجة هذه مندرجة في قوله: «فاغفر لنا وارحمنا» لا محالة فإن الله سبحانه يذكر في آية سورة البقرة أنه بعثهم بعد موتهم، ولم يكن ليحييهم بعدما أهلكهم إلا بشفاعة موسى ﷺ ولم

يذكر من دعائه المرتبط بحالهم إلا هذا الدعاء فهو إنما سأله ذلك تلويحاً بقوله «فاغفر لنا» الخ؛ كما تقدم لا تصريحاً.

قوله تعالى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي رجعنا إليك من هاد يهود إذا رجع، وهو أعني قوله: «إنا هدنا إليك» تعليل لهذا الفصل من الدعاء سأل فيه أن يكتب الله أي يقضي لهم بحسنة في الدنيا وحسنة في الآخرة والمراد بالحسنة لا محالة الحياة والعيشة الحسنة فإن الرجوع إلى الله أي سلوك طريقته والتزام سبيل فطرته يهدي الإنسان الى حياة طيبة وعيشة حسنة في الدنيا والآخرة جميعاً، وهذا هو الوجه فيما ذكرنا أن قوله: «إنا هدنا إليك» تعليل لهذا الفصل من دعائه فإن الحياة الطيبة من آثار الرجوع إلى الله، وهي شيء من شأنه أن يرزقوه ـ لورزقوا ـ في مستقبل أمرهم، وهو المناسب للكتابة والقضاء، وأما الفصل الأول من الدعاء أعني قوله: «فاغفر لنا وارحمنا» الخ؛ فتكفي في تعليله الجمل السابقة عليه، وما احتف به من قوله: «أنت وليّنا» وقوله: «وأنت خير الغافرين» ولا يتعلق بقوله: «إنا هدنا إليك» فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ هذا جواب منه سبحانه لموسى، وفيه محاذاة لما قدَّمه موسى قبل مسألته من قوله: «ربِّ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي»، وقد قيَّد الله سبحانه إصابة عذابه بقوله: «من أشاء» دون سعة رحمته لأن العذاب إنما ينشأ من اقتضاء من قبل المعذبين لا من قبله سبحانه، قال تعالى ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ (النساء / ١٤٧) وقال: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ (إبراهيم / ٧) فلا يعذّب الله سبحانه باقتضاء من ربوبيته ولو كان كذلك لعذَّب كل أحد بل إنما يعذب بعض من تعلقت به مشيته فلا تتعلق مشيته إلا بعذاب من كفروا نعمه فالعذاب إنما هو باقتضاء من قبل المعذَّبين لكفرهم لا من قبله.

على أن كلامه سبحانه يعطي أن العذاب إنما حقيقته فقدان الرحمة، والنقمة عدم بذل

النعمة، ولا يتحقق ذلك إلا لعدم استعداد المعذّب بواسطة الكفران والذنب لإفاضة النعمة عليه وشمول الرحمة له. فسبب العذاب في الحقيقة عدم وجود سبب الرحمة.

وأما سعة الرحمة وإفاضة النعمة فمن المعلوم أنه من مقتضيات الالوهية ولوازم صفة الربوبية فما من موجود مخلوق إلا ووجود نعمة لنفسه ولكثير ممن دونه لارتباط أجزاء الخلقة. وكل ما عنده من خير أو شر نعمة إما لنفسه ولغيره كالقوة والثروة وغيرهما التي يستفيد منها الإنسان وغيره. وإما لغيره اذا كان نقمة بالنسبة إليه كالعاهات والآفات والبلايا يستضر بها شيء وينتفع أشياء وعلى هذا فالرحمة الإلهية واسعة كل شيء فعلاً لا شأناً. ولا يختص بمؤمن ولا كافر ولا ذي شعور ولا غيره ولا دنيا ولا آخرة. والمشيئة لازمة لها.

نعم تحقق العذاب والنقمة في بعض الموارد ـ وهو معنى قياسي ـ يوجب أن يتحقق هناك رحمة تقابلها وتقاس إليها فإن حرمان البعض من النعمه التي أنعم الله بها على بعض آخر اذا كان عذاباً كان ما يجده البعض الآخر رحمة تقابل هذا العذاب. وكذا نزول ما يتألم به ويؤذي على بعض كالعقوبات الدنيوية والأخروية اذا كان عذاباً كان الأمن والسلامة التي يجدها البعض الآخر رحمة بالنسبة إليه وتقابله. وإن كانت الرحمة المطلقة بالمعنى الذي تقدم بيانه بشملها جميعاً.

فهناك رحمة إلهية عامة يتنعم بها المؤمن والكافر والبرّ والفاجر وذو الشعور وغير ذي الشعور فيوجدون بها ويرزقون بها في أول وجودهم ثم في مسيرة الوجود ما داموا سالكين سبيل البقاء. ورحمة إلهية خاصة وهي العطية الهنيئة التي يجود بها الله سبحانه في مقابل الإيمان والعبودية. وتختص لا محالة بالمؤمنين الصالحين من عباده من حياة طيبة نورانية في الدنيا، وجنة ورضوان في الآخرة ولا نصيب فيها للكافرين والمجرمين. ويقابل الرحمة الخاصة عذاب وهو اللا ملائم الذي يصيب الكافرين والمجرمين من جهة كفرهم وجرمهم في الدنيا كعذاب الإستئصال والمعيشة الضنك وفي الآخرة من النار وآلامها. ولا يقابل الرحمة العامة شيء من

العذاب اذ كل ما يصدق عليه اسم شيء فهو من مصاديق الرحمة العامة لنفسه أو لغيره، وكونه رحمة هي المقصودة في الخلقة، وليس وراء الشيء شيء.

اذا تحقق هذا تبين أن قوله تعالى: «عذابي أُصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء» بيان لخصوص العذاب وعموم الرحمة، وإنما قابل بين العذاب والرحمة العامة مع عدم تقابلهما لأن ذكر الرحمة العامة توطئة وتمهيد لما سيذكره من صيرورتها رحمة خاصة في حق المتقين من المؤمنين.

وقد اتضح بما تقدم أن سعة الرحمة ليست سعة شأنيّة وأن قوله: «ورحمتي وسعت كل شيء» ليس مقيداً بالمشيئة المقدرة بل من لوازم سعة الرحمة الفعلية كما تقدم، وذلك لأن الظاهر من الآية أن المراد بالرحمة العامة وهي تسع كل شيء بالفعل وقد شاء الله ذلك فلزمتها فلا محل لتقدير «إن شئت» خلافاً لظاهر كلام جمع من المفسرين.

قوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ تفريع على قوله: «عذابي أُصيب به من أشاء ورحمتي» الآية؛ أي لازم وجوب إصابة العذاب بعض الناس وسعة الرحمة لكل شيء أن أُوجب الرحمة على البعض الباقي، وهم الذين يتقون ويؤتون الزكاة الآية.

وقد ذكر سبحانه الذين تنالهم الرحمة بأوصاف عامة وهي التقوى وإيتاء الزكاة والإيمان بآيات الله من غير أن يقيّدهم بما يخص قومه كقولنا: للذين يتقون منكم ونحو ذلك لأن ذلك مقتضى عموم البيان في قوله: «عذابي أُصيب به من أشاء» الآية والبيان العام ينتج نتيجة عامة.

واذا قوبلت مسألة موسى بالآية كانت الآية بمنزلة المقيدة لها فإنه ﷺ سأل الحسنة والرحمة لقومه ثم عللها بقوله: «إنا هدنا إليك» فكان معنى ذلك مسألة الرحمة لكل من هاد ورجع منهم بأن يكتب الله حسنة الدنيا والآخرة لمجرد هودهم وعودهم إليه فكان فيما أجابه

الله به أنه سيكتب رحمته للذين آمنوا واتقوا فكأنه قال: اكتب رحمتك لمن هاد إليك منا، فأجابه الله أن سأكتب رحمتي لمن هاد واتق وآمن بآياتي فكان في ذلك تقييد لمسألته.

ولا ضير في ذلك فإنه سبحانه هو الهادي لأنبيائه ورسله المعلم لهم يعلّم كليمه أن يقيّد مسألته بالتقوى وهو الورع عن محارمه وبالإيمان بآياته وهو التسليم لأنبيائه وللأحكام النازلة إليهم، ولا يطلق الهود وهو الرجوع الى الله بالإيمان به، فهذا تصرف في دعاء موسى بتقييده كما تصرَّف تعالى في دعاء إبراهيم بالتقييد في قوله: ﴿قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ (البقرة / ١٢٤)، وبالتعميم والإطلاق في قوله فيما يحكي من دعائه لأهل مكة: ﴿وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فامتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ (البقرة / ١٢٦)، فقد تبين أولاً أن الآية تتضمن استجابته تعالى لدعاء موسى: «واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة» بتقييد ما له فمن العجيب ما ذكره بعضهم: أن الآية بسياقها تدل على أن الله سبحانه رد دعوة موسى ولم يستجبها، وكذا قول بعضهم: إن موسى ﷺ دعا لقومه فاستجابه الله في حق أُمة محمد ﷺ بناءً على بيانيّة قوله: «الذين يتّبعون الرسول» الآية؛ لقوله: «للذين يتقون» الآية وسيجيء.

وثانياً: أنه تعالى استجاب ما اشتمل عليه الفصل الأول من دعائه فإنه تعالى لم يرده، وحاشا أن يحكي الله في كلامه دعاءً لاغياً غير مستجاب، وقوله: «فسأكتبها للذين» الآية فإنه يحاذي ما سأله ﷺ من الحسنة المستمرة الباقية في الدنيا والآخرة لقومه، وأما طلب المغفرة لذنب دفعي صدر عنهم بقولهم: «أرنا الله جهرة» فلا يحاذيه قوله: «فسأكتبها» الآية؛ بوجه، فسكوته تعالى عن رد دعوته دليل إجابتها كما في سائر الموارد التي تشابهه في القرآن.

ويلوّح الى استجابة دعوته لهم بالمغفرة قوله في القصة في موضع آخر: ﴿ثم بعثناكم من

بعد موتكم لعلّكم تشكرون ﴾ (البقرة / ٥٦) فمن البعيد المستبعد أن يحييهم الله بعد إهلاكهم ولم يغفر لهم ذنبهم الذي أُهلكوا به.

وعلى أي حال معنى الآية «فسأكتبها» أي سأكتب رحمتي وأقضيها وأُوجبها استعيرت الكتابة للإيجاب لأن الكتابة أثبت وأحكم «للذين يتقون» ويجتنبون المعاصي وترك الواجبات «ويؤتون الزكاة» وهي الحق المالي أو مطلق الإنفاق في سبيل الله الذي ينمو به المال، ويصلح به مفاسد الإجتماع، ويتم به نواقصه، وربما قيل: إن المراد بها زكاة النفس وطهارتها، وإيتاء الزكاة إصلاح أخلاق النفس. وليس بشيء.

«والذين هم بآياتنا يؤمنون» أي يسلّمون لما جاءتهم من عند الله من الآيات والعلامات سواء كانت آيات معجزة كمعجزات موسى وعيسى ومحمد ﷺ وعليهم، أو أحكاماً سماوية كشرائع موسى وأوامره وشرائع غيره من الأنبياء، أو الأنبياء أنفسهم أو علامات صدق الأنبياء كعلائم محمد ﷺ التي ذكرها الله تعالى لهم في كتاب موسى وعيسى عليهما السلام فكل ذلك آيات له تعالى يجب عليهم وعلى غيرهم أن يؤمنوا بها ويسلموا لها، ولا يكذبوا بها.

وفي الآية التفات من سياق التكلم مع الغير الى الغيبة فإنه قال أولاً: «واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا». ثم قال: «قال عذابي أُصيب به» الآية وكأن النكتة فيه إظهار ماله سبحانه من العناية الخاصة باستجابة دعاء الداعين من عباده فيقبل عليهم هو تعالى من غير أن يشاركه فيه غيره ولو بالتوسط فإن التكلم بلفظ المتكلم مع الغير لإظهار العظمة لمكان أن العظماء يتكلمون عنهم وعن أتباعهم فإذا أُريد إظهار عناية خاصة بالمخاطب أو بالخطاب تكلم بلفظ المتكلم وحده.

وعلى هذا جرى كلامه تعالى فاختار سياق المتكلم وحده المناسب المناجاة والمسارّة فيما حكى من أدعية أنبيائه وأوليائه واستجابته لهم في كلامه كأدعية نوح وإبراهيم ودعاء موسى ليلة الطور، وأدعية سائر الصالحين واستجابته لهم، ولم يعدل عن سياق المتكلم وحده إلا

لنكتة زائدة.

وأما قوله: «والذين هم بآياتنا يؤمنون» وما فيه من العدول من التكلم وحده ـ السياق السابق ـ الى التكلم مع الغير فالظاهر أن النكتة فيه إيجاد الإتصال بين هذه الآية والآية التالية التي هي نوع من البيان لهذه الجملة أعني قوله: «والذين هم بآياتنا يؤمنون» فإن الآية التالية ـ كما سيجيء ـ بمنزلة المعترضة من النتيجة المأخوذة في ضمن الكلام الجاري، وسياقها سياق خارج عن سياق هذه القطعة المتعرضة للمشافهة والمناجاة بين موسى وبينه تعالى راجع الى السياق الأصلي السابق الذي هو سياق المتكلم مع الغير.

فبتبديل «والذين هم بآياتي يؤمنون» الى قوله: «والذين هم بآياتنا يؤمنون» يتصل الآية التالية بسابقتها في السياق بنحو لطيف فافهم ذلك وتدبر فيه فإنه من عجب السياقات القرآنية.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ـ الى قوله ـ كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾. قال الراغب في المفردات: الإصر عقد الشيء وحبسه بقهره يقال: أصرته فهو مأصور، والمأصَر والمأصِر ـ بفتح الصاد وكسرها ـ محبس السفينة، قال تعالى: ويضع عنهم إصرهم أي الأمور التي تثبطهم وتقيدهم عن الخيرات، وعن الوصول الى الثوابات، وعلى ذلك: ولا تحمل علينا إصراً. وقيل ثقلاً وتحقيقه ما ذكرت. (انتهى) والأغلال جمع غل وهو ما يقيّد به.

وقوله: «الذين يتّبعون الرسول النبي الامي» الآية بحسب ظاهر السياق بيان لقوله «والذين هم بآياتنا يؤمنون» ويؤيده ما هو ظاهر الآية أنّ كونه ﷺ رسولاً نبيّاً أُميّاً ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحل لهم الطيّبات ويحرّم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم كلُّ ذلك من أمارات النبوّة الخاتمية وآياتها المذكورة لهم في التوراة والانجيل فمن الإيمان بآيات الله الذي شرطه الله تعالى لهم في كلامه: أن يؤمنوا بالآيات المذكورة لهم أمارات لنبوة محمد ﷺ.

غير أن من المسلّم الذي لا مرية فيه أن الرحمة التي وعد الله كتابته لليهود بشرط التقوى والايمان بآيات الله ليست بحيث تختص بالذين آمنوا منهم بالنبي ﷺ، ويحرم عنها صالحو بني إسرائيل من لدن أجاب الله دعوة موسى ﷺ الى أن بعث الله محمداً ﷺ فآمن به شرذمة قليلة من اليهود، فإن ذلك مما لا ينبغي توهمه أصلاً. فبين موسى وعيسى ﷺ، وكذا بعد عيسى ﷺ ممن آمن به من بني إسرائيل جمّ غفير من المؤمنين الذين آمنوا بالدعوة الالهية فقبل الله منهم إيمانهم ووعدهم بالخير، والكلام الإلهي بذلك ناطق فكيف يمكن أن تقصر الرحمة الإلهية المبسوطة على بني إسرائيل في جماعة قليلة منهم آمنوا بالنبي ﷺ.

فقوله: «الذين يتبعون الرسول النبي الأمي» الآية؛ وإن كان بياناً لقوله: «والذين هم بآياتنا يؤمنون» إلا أنه ليس بياناً مساوياً في السعة والضيق لمبيّنه بل بيان مستخرج من مبيّنه انتزع منه، وخص بالذكر ليستفاد منه فيما هو الغرض من سوق الكلام، وهو بيان حقيقة الدعوة المحمدية، ولزوم إجابتهم لها وتلبيتهم لداعيها.

ولذلك في القرآن الكريم نظائر من حيث التضييق والتوسعة في البيان كما قال تعالى حاكياً عن إبليس: «فبعزتك لأغوينهم أجمعين» الآية؛ ثم قال في موضع آخر حاكياً عنه ﴿**لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً لأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله**﴾ (النساء / ١١٩) فإن القول الثاني المحكي عن إبليس مستخرج من عموم قوله المحكي أولاً: ﴿**لأغوينهم أجمعين**﴾.

وقال تعالى في أول هذه السورة: ﴿**ولقد خلقناكم ثم صورناكم ـ الى أن قال ـ يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم**﴾ الآية؛ وقد تقدم أن ذلك من قبيل استخراج الخطاب من الخطاب لغرض التعميم الى غير ذلك من النظائر.

فيؤول معنى بيانية قوله: «الذين يتبعون الرسول» الى استخراج بيان من بيان للتطبيق على مورد الحاجة كأنه قيل: فإذا كان المكتوب من رحمة الله لبني إسرائيل قد كتب للذين

يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون فصداقه اليوم ـ يوم بعث محمد ﷺ ـ هم الذين يتبعونه من بني إسرائيل لأنهم الذين اتقوا وآتوا الزكاة وهم الذين آمنوا بآياتنا فإنهم آمنوا بموسى وعيسى ومحمد ﷺ وهم آياتنا، وآمنوا بمعجزات هؤلاء الرسل وما نزّل عليهم من الشرائع والأحكام وهي آياتنا، وآمنوا بما ذكرنا لهم في التوراة والإنجيل من أمارات نبوة محمد ﷺ وعلامات ظهوره ودعوته، وهي آياتنا.

ثم قوله: «الذين يتبعون الرسول النبي الامي» الآية أُخذ فيه «يتبعون» موضع يؤمنون، وهو من أحسن التعبير لأن الإيمان بآيات الله سبحانه كأنبيائه وشرائعهم إنما هو بالتسليم والطاعة فاختير لفظ الإتباع للدلالة على أن الايمان بمعنى الإعتقاد المجرد لا يغني شيئاً فإن ترك التسليم والطاعة عملاً تكذيب بآيات الله وإن كان هناك اعتقاد بأنه حق.

وذكره ﷺ بهذه الأوصاف الثلاث: الرسول النبي الامي. ولم يجتمع له في موضع من كلامه تعالى إلا في هذه الآية والآية التالية، مع قوله تعالى بعده: «الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل» تدل على أنه ﷺ كان مذكوراً فيهما معرَّفاً بهذه الأوصاف الثلاث.

ولولا أن الغرض من توصيفه بهذه الثلاث هو تعريفه بما كانوا يعرفونه به من النعوت المذكورة له في كتابيهم لما كانت لذكر الثلاث «الرسول النبي الامي» وخاصة الصفة الثالثة نكتة ظاهرة.

وكذلك ظاهر الآيه يدل أو يشعر بأن قوله: يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر الى آخر الامور الخمسة التي وصفه ﷺ بها في الآية من علائمه المذكورة في الكتابين، وهي مع ذلك من مختصات النبي ﷺ بها في الآية من علائمه المذكورة في الكتابين، وهي مع ذلك من مختصات النبي ﷺ وملّته البيضاء فإن الأمم الصالحة وإن كانوا يقومون بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما ذكره تعالى من أهل الكتاب في قوله: ﴿ليسو سواءً من أهل

الكتاب أُمة قائمة ـ الى أن قال ـ ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأُولئك من الصالحين ﴾ (آل عمران / ١١٤) .

وكذلك تحليل الطيبات وتحريم الخبائث في الجملة من جملة الفطريات التي أجمع عليها الأديان الإلهية ، وقد قال تعالى : ﴿ قل من حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ (الأعراف / ٣٢) .

وكذلك وضع الإصر والأغلال وإن كان مما يوجد في الجملة في شريعة عيسى عليه السلام كما يدل عليه قوله فيما حكى الله عنه في القرآن الكريم : ﴿ ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرّم عليكم ﴾ (آل عمران / ٥٠) ويشعر به قوله خطاباً لبني إسرائيل : ﴿ قد جئتكم بالحكمة ولأبيّن لكم بعض الذي تختلفون فيه ﴾ (الزخرف / ٦٣) .

إلا أنه لا يرتاب ذو ريب في أن الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم بكتاب من عند الله مصدّق لما بين يديه من الكتب السماوية ـ وهو دين الإسلام ـ هو الدين الوحيد الذي نفخ في جثمان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كل ما يسعه من روح الحياة ، وبلغ به من حد الدعوة الخالية الى درجة الجهاد في سبيل الله بالأموال والنفوس ، وهو الدين الوحيد الذي أحصى جميع ما يتعلق به حياة الإنسان من الشئون والأعمال ثم قسمها الى طيبات فأحلها ، والى خبائث فحرمها ، ولا يعادله في تفصيل القوانين المشرعة أي شريعة دينية وقانون إجتماعي ، وهو الدين الذي نسخ جميع الأحكام الشاقة الموضوعة على أهل الكتاب واليهود خاصة ، وما تكلّفها علماؤهم ، وابتدعها أحبارهم ورهبانهم من الأحكام المبتدعة .

فقد اختص الإسلام بكمال هذه الامور الخمسة وإن كانت توجد في غير نماذج من ذلك .

على أن كمال هذه الامور الخمسة في هذه الملّة البيضاء أصدق شاهد وأبين بيّنة على صدق الناهض بدعوتها صلى الله عليه وآله وسلم ، ولو لم تكن تذكر أمارات له في الكتابين فإن شريعته كمال شريعة الكليم والمسيح عليهما السلام وهل يطلب من شريعة حقّة إلا عرفانها المعروف وإنكارها المنكر ،

وتحليلها الطيبات، وتحريمها الخبائث، وإلغاؤها كل إصر وغل؟ وهي تفاصيل الحق الذي يدعو إليه الشرائع الإلهية فليعترف أهل التوراة والإنجيل أن الشريعة التي تتضمن كمال هذه الأمور بتفاصيلها هي عين شريعتهم في مرحلة كاملة.

وبهذا البيان يظهر أن قوله تعالى: «يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر» الآية يفيد بمجموعه معنى تصديقه لما في كتابهم من شرائع الله تعالى كانه قيل مصدقاً لما بين يديه كما في قوله تعالى: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدّق لما معهم نبذ فريق من الذين أُوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾ (البقرة / ١٠١) وقوله: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدّق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾ (البقرة / ٨٩) يريد مجيء النبي ﷺ بكمال ما في كتابهم من الشريعة مصدّقاً له ثم كفرهم به وهم يعلمون أنه المذكور في كتبهم المبشر به بلسان أنبيائهم كما حكى سبحانه عن المسيح في قوله: ﴿يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدّقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ (الصف / ٦).

وسنبحث عن بشاراته ﷺ الواقعة في كتبهم المقدسة بما تيسر من البحث إن شاء الله العزيز.

غير أنه تعالى لم يقل: مصدقاً لما بين يديه بدل قوله: «يأمرهم بالمعروف» الآية لأن وجه الكلام الى جميع الناس دون أهل الكتاب خاصة، ولذا أمر نبيه ﷺ في الآية التالية بقوله: «قل يا أيها الناس إني رسول إليكم جميعاً» ولم يقيّد الكلام في قوله: «فالذين آمنوا به» الخ؛ بما يختص به بأهل الكتاب.

قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ﴾ الى آخر الآية؛ التعزير النصرة مع التعظيم، والمراد بالنور النازل معه القرآن الكريم ذكر بنعت النورية ليدل به على أنه ينير طريق لاحياة، ويضيء الصراط الذي يسلكه الإنسان الى موقف

السعادة والكمال، والكلام في هذا الشأن.

وفي قوله: ﴿أُنزِلَ مَعَهُ﴾ ولم يقل: أنزل عليه أو أُنزل إليه و«مع» تدل على المصاحبة والمقارنة تلويح الى معنى الإمارة والشهادة التي ذكرناها كأنه قيل: واتبعوا النور الذي أُنزل عليه وهو بما يحتوي عليه من كمال الشرائع السابقة، ويظهره بالإضاءة شاهد على صدقه، وأمارة أنه هو الذي وعد به أنبياؤهم، وذكر لهم في كتبهم فقوله: «معه» حال من نائب فاعل «أُنزل». وقد وقع نظيره في قوله تعالى: ﴿فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ (البقرة / ٢١٣).

وقوله: «فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور» الآية؛ بمنزلة التفسير لقوله في صدر الآية «الذين يتّبعون الرسول» وأن المراد باتباعه حقيقة اتباع كتاب الله المشتمل على شرائعه، وأن الذي له ﷺ من معنى الاتباع هو الإيمان بنبوته ورسالته من غير تكذيب به، واحترامه بالتسليم له ونصرته فيما عزم عليه من سيرته.

والكلام أعني قوله: «فالذين آمنوا به» الآية نتيجة متفرعة على قوله في صدر الآية «الذين يتّبعون الرسول» الآية؛ بناءً على ما قدمناه من أنه بيان خاص مستخرج من قوله «والذين هم بآياتنا يؤمنون» الذي هو بيان عام، والمعنى اذا كان اتباع الرسول بهذه الأوصاف والنعوت هو من الإيمان بآياتنا الذي شرطناه على بني إسرائيل في قبول دعوة موسى لهم ببسط الرحمة في الدنيا والآخرة وفيه الفلاح بكتابة الحسنة في الدنيا والآخرة فالذين آمنوا به ـ الى آخر ما شرط الله ـ أُولئك هم المفلحون.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ـ إلى قوله ـ وَيُمِيتُ﴾ لما لاح من الأوصاف التي وصف بها نبيه ﷺ أن عنده كمال الدين الذي به حياة الناس الطيبة في أي مكان فرضوا وفي أي زمان قدّر وجودهم، ولا حاجة للناس في طيّب حياتهم الى أزيد من أن يؤمروا بالمعروف، وينهوا عن المنكر، وتحلل لهم الطيبات، وتحرّم

عليهم الخبائث، ويوضع عنهم إصرهم والأغلال التي عليهم أمر نبيهم ﷺ أن يعلن بنبوته الناس جميعاً من غير أن تختص بقوم دون قوم فقال: «قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً».

وقوله: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ صفات وصف الله بها، وهي بمجموعها بمنزلة تعليل يبين بها إمكان الرسالة من الله في نفسها أولاً وإمكان عمومها لجميع الناس ثانياً فيرتفع به استيحاش بني إسرائيل أن يرسل إليهم من غير شعبهم وخاصة من الاميين وهم شعب الله ومن مزاعمهم أنه ليس عليهم في الاميين سبيل، وهم خاصة الله وأبناؤه وأحباؤه، وبه يزول استبعاد غير العرب من جهة العصبية القومية أن يرسل إليهم رسول عربي.

وذلك أن الله الذي اتخذه رسولاً هو الذي له ملك السماوات والأرض والسلطنة العامة عليها، ولا إله غيره حتى يملك شيئاً منها فله أن يحكم بما يشاء من غير أن يمنع عن حكمه مانع يزاحمه أو تعوق إرادته إرادة غيره فله أن يتخذ رسولاً الى عباده وأن يرسل رسوله الى بعض عباده أو الى جميعهم كيف شاء.

وهو الذي له الإحياء والإماتة فله أن يحيي قوماً أو الناس جميعاً بحياة طيبة سعيدة والسعادة والهدى من الحياة كما أن الشقاوة والضلالة موت، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ (الأنفال / ٢٤)، وقال: ﴿أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾ (الأنعام / ١٢٢)، وقال: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون، والموتى يبعثهم الله﴾ (الأنعام / ٣٦).

قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ الى آخر الآية تفريع على ما تقدم أي اذا كان الحال هذا الحال فآمنوا بي فإني ذاك الرسول النبي الامي الذي بشر به في التوراة والانجيل، وأنا أُومن بالله ولا أكفر به وأُومن بكلماته وهي ما قضى به من الشرائع

النازلة عليّ وعلى الأنبياء السالفين، واتبعوني لعلكم تفلحون.

هذا ما يقتضيه السياق، ومنه يعلم وجه الإلتفات من التكلم الى الغيبة في قوله «ورسوله النبي الأمي الذي» الآية فإن الظاهر من السياق أن هذه الآية ذيل الآية السابقة، وهما جميعاً من كلام النبي ﷺ.

ووجه الإلتفات ـ كما ظهر مما تقدم ـ أن يدل بالأوصاف الموضوعة مكان ضمير المتكلم على تعليل الأمر في قوله: «فآمنوا» وقوله: «فاتبعوه لعلكم تهتدون».

والمراد بالإهتداء الإهتداء الى السعادة الآخرة التي هي رضوان الله والجنة لا الإهتداء الى سبيل الحق فإن الإيمان بالله ورسوله واتباع رسوله بنفسه اهتداء، فيرجع معنى قوله «لعلكم تهتدون» الى معنى قوله في الآية السابقة في نتيجة الإيمان والإتباع «أُولئك هم المفلحون».

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ وهذا من نصفة القرآن مدح من يستحق المدح، وحمد صالح أعمالهم بعد ما قرَّعهم بما صدر عنهم من السيِّئات فالمراد أنهم ليسوا جميعاً على ما وصفنا من مخالفة الله ورسوله، والتزام الضلال والظلم بل منهم أُمة يهدون الناس بالحق وبالحق يعدلون فيما بينهم فالباء في قوله: «بالحق» للآلة وتحتمل الملابسة.

وعلى هذا فالاية من الموارد التي نسبت الهداية فيها الى غيره تعالى وغير الأنبياء والأئمة كما في قوله حكاية عن مؤمن آل فرعون ولم يكن بنبي ظاهراً: ﴿وقال الذي آمن يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد﴾ (المؤمن / ٣٨).

ولا يبعد أن يكون المراد بهذه الأمة من قوم موسى ﷺ الأنبياء والأئمة الذين نشأوا فيهم بعد موسى وقد وصفهم الله في كلامهم بالهداية كقوله تعالى: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ (الم السجدة / ٢٤) وغيره من الآيات وذلك أن الآية أعني

قوله: «أُمة يهدون بالحق وبه يعدلون» لو حملت على حقيقة معناها من الهداية بالحق والعدل بالحق لم يتيسر لغير النبي والإمام أن يتلبس بذلك وقد تقدم كلام في الهداية في تفسير قوله: ﴿قال إني جاعلك للناس إماماً﴾ (البقرة / ١٢٤) وقوله: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره﴾ (الأنعام / ١٢٥). وغيرهما من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً﴾ الى آخر الآية: السبط بحسب اللغة ولد الولد أو ولد البنت. والجمع أسباط، وهو في بني إسرائيل بمعنى قوم خاص، فالسبط عندهم بالمنزلة القبيلة عند العرب. وقد نقل عن ابن الحاجب أن أسباطاً في الآية بدل من العدد لا تمييز وإلا لكانوا ستة وثلاثين سبطاً على إرادة أقل الجمع من «أسباطاً» وتمييز العدد محذوف للدلالة عليه بقوله: «أسباطاً» والتقدير وقطّعناهم اثنتي عشرة فرقة أسباطاً هذا. وربما قيل: إنه تمييز لكونه بمعنى المفرد والمعنى اثنتي عشرة جماعة مثلاً.

وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ ٱسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ الآية: الانبجاس هو الانفجار وقيل الانبجاس خروج الماء بقلة، والانفجار خروجه بكثرة، وظاهر من قوله: «فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أُناس مشربهم» أن العيون كانت بعدد الأسباط وأن كل سبط اختصوا بعين من العيون، وأن ذلك كانت عن مشاجرة بينهم ومنافسة، وهو يؤيد ما في الروايات من قصتها. وباقي الآية ظاهر.

وقد عدّ الله سبحانه في هذه الآيات من معجزات موسى عليه السلام وآياته: الثعبان واليد البيضاء، وسني آل فرعون ونقص ثمراتهم، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وفلق البحر، وإهلاك السبعين، وإحياءهم، وانبجاس العيون من الحجر بضرب العصا، والتظليل بالغمام، وإنزال المنّ والسلوى، ونتق الجبل فوقهم كأنه ظلة. ويمكنك أن تضيف إليها التكليم ونزول التوراة، ومسخ بعضهم قردة خاسئين. وسيجيء تفصيل البحث في قصته عليه السلام

في تفسير سورة هود إن شاء الله[1].

١٦١ ● وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ.

١٦٢ ● فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ.

١٦٣ ● وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ.

١٦٤ ● وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ.

١٦٥ ● فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ.

١٦٦ ● فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ.

١٦٧ ● وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ.

---

١. الاعراف ١٥٥ ـ ١٦٠: بحث روائي في: العلة التي تمنع القوم من اختيار امام لانفسهم؛ ميقات موسى عليه السلام اوضاع بني اسرائيل بعد موت موسى عليه السلام.

١٦٨ ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.

١٦٩ ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ.

١٧٠ ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ.

١٧١ ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ الى آخر الآيتين: القرية هي التي كانت في الأرض المقدسة أُمروا بدخولها وقتال أهلها من العمالقة وإخراجهم منها فتمرّدوا عن الأمر، وردّوا على موسى عليه السلام فابتلوا بالتيه. والقصة مذكورة في سورة المائدة آية ٢٠ ـ ٢٦.

وقوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾ الآية تقدم الكلام في نظيره من سورة البقرة آية: ٥٨ ـ ٥٩. وقوله: «سنزيد المحسنين» في موضع الجواب عن سؤال مقدّر كأنه لمّا قال: «يغفر لكم خطيئاتكم» قيل: ثم ماذا فقال: «سنزيد المحسنين».

قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ الى آخر الآية؛ أي اسأل بني إسرائيل عن حال أهل القرية: «التي كانت حاضرة البحر» أي قريبة منه مشرفة عليه من حضر الأمر اذا أشرف عليه وشهده «اذ يعدون» ويتجاوزون حدود ما أمر الله به في أمر «السبت» وتعظيمه وترك الصيد فيه «اذ تأتيهم حيتانهم» والسمك الذي في ناحيتهم «يوم سبتهم شرَّعاً» جمع شارع وهو الظاهر البيّن «ويوم لا يسبتون لا تأتيهم» أي إن تجاوزهم عن حدود ما أمر به الله كان اذ كانت الحيتان تأتيهم شرَّعاً يوم منعوا من الصيد وأُمروا بالسبت. وأمَّا اذا مضى اليوم وأُبيح لهم الصيد وذلك غير يوم السبت فكان لا تأتيهم الحيتان وكان ذلك من بلاء الله وأُبيح لهم الصيد وذلك غير يوم السبت فكان لا تأتيهم الحيتان وكان ذلك من بلاء الله وامتحانه ابتلاهم بذلك لشيوع الفسق بينهم فبعثهم الحرض على صيدها على مخالفة أمر الله سبحانه. ولم يمنعهم تقوى عن التعدي، ولذلك قال: «كذلك نبلوهم» أي نمتحنهم «بما كانوا يفسقون».

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ الى آخر الآية؛ إنما قالت هذه الامة ما قالت. لامة أُخرى منهم كانت تعظهم وتنهاهم عن مخالفة أمر الله في السبت.

فالتقدير: «واذ قالت أُمة منهم لامة أُخرى كانت تعظهم» حذف للإيجاز وظاهر كلامهم «لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً» أنهم كانوا أهل تقوى يجتنبون مخالفة الأمر إلا أنهم تركوا نهيهم عن المنكر فخالطوهم وعاشروهم ولو كان هؤلاء اللاغون من المتعدين الفاسقين لوعظهم أولئك الملومون، ولم يجيبوهم بمثل قولهم: معذرة الى ربكم، الخ؛ وأن المتعدين طغوا في تعديهم وتجاهروا في فسقهم فلم يكونوا لينتهوا بنهي ظاهراً غير أن الامة التي كانت تعظهم لم ييأسوا من تأثير العظة فيهم، وكانوا يرجون منهم الانتهاء لو استمروا في عظتهم، ولا أقل من أنتهاء بعضهم ولو بعض الانتهاء، وليكون ذلك معذرة منهم

الى الله سبحانه بإظهار أنهم غير موافقين لهم في فسقهم منزجرون عن طغيانهم بالتمرد.

ولذلك أجابوا عن قولهم: «لم تعظون» الخ: بقولهم «معذرة الى ربكم ولعلهم يتّقون» أي إنما نعظهم ليكون ذلك عذراً الى ربكم، ولأنّا نرجو منهم أن يتّقوا هذا العمل.

وفي قولهم: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ حيث أضافوا الرب الى اللائمين ولم يقولوا: الى ربنا إشارة الى أن التكليف بالعظة ليس مختصاً بنا بل أنتم أيضاً مثلنا يجب عليكم أن تعظوهم لأن ربكم لمكان ربوبيته يجب أن يعتذر إليه، ويبذل الجهد في فراغ الذمة من تكاليفه والوظائف التي أحالها الى عباده، وأنتم مربوبون له كما نحن مربوبون فعليكم من التكاليف ما هو علينا.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ المراد بنسيانهم ما ذكّروا انقطاع تأثير الذكر في نفوسهم وإن كانوا ذاكرين لنفس التذكر حقيقة فإنمّا الأخذ الإلهي مسبب عن الاستهانة بأمره والإعراض عن ذكره، بل حقيقة النسيان بحسب الطبع مانع عن فعلية التكليف وحلول العقوبة.

فالإنسان يطوف عليه طائف من توفيق الله يذكّره بتكاليف هامة إلهية ثم إن استقام وثبت، وإن ترك الاستقامة ولم يزجره زاجر باطني ولا ردعه رادع نفساني عدا حدود الله بالمعصية غير أنه في بادىء أمره يتألم تألماً باطنياً ويتحرج تحرجاً قلبياً من ذلك ثم اذا عاد إليها ثانياً من غير توبة زادت صورة المعصية في نفسه تمكناً، وضعف أثر التذكير وهان أمره، وكلما عاد إليها وتكررت منه المخالفة زادت تلك قوة وهذه ضعفاً حتى يزول أثر التذكير من أصله، ساوى وجوده عدمه فلحق بالنسيان في عدم التأثير، وهو المراد بقوله «فلمّا نسوا ما ذكّروا» أي زال أثره كأنه منسي زائل، الصورة عن النفس.

وفي الآية دلالة على أن الناجين كانوا هم الناهين عن السوء فقط، وقد أخذ الله الباقين، وهم الذين يعدون في السبت والذين قالوا: «لم تعظون» الخ.

وفيه دلالة على أن اللائمين كانوا مشاركين للعادين في ظلمهم وفسقهم حيث تركوا عظتهم

ولم يهجروهم .

وفي الآية دلالة على سنّة إلهية عامة ، وهي أن عدم ردع الظالمين عن ظلمهم بمنع ، وعظة إن لم يمكن المنع أو هجرة إن لم تمكن العظة أو بطل تأثيرها ، مشاركة معهم في ظلمهم ، وأن الأخذ الالهي الشديد كما يرصد الظالمين كذلك يرصد مشاركيهم في ظلمهم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ العتو المبالغة في المعصية والقردة جمع القرد وهو الحيوان المعروف ، والخاسىء الطريد البعيد من خسأ الكلب اذا بعد .

وقوله : « فلما عتوا عما نهوا عنه » أي عن ترك ما نهوا عنه فإن العتو إنما يكون عن ترك المنهيات لا عن نفسها ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ﴾ الى آخر الآية ؛ تأذّن وأذن بمعنى أعلم ، واللام في قوله : « ليبعثن » للقسم ، والمعنى : واذكر اذ أعلم ربك أنه قد أقسم ليبعثن على هؤلاء الظالمين بعثاً يدون عليهم ما دامت الدنيا من يذيقهم ويوليّهم سوء العذاب .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ﴾ معناه أن من عقابه ما يسرع الى الناس كعقاب الطاغي لطغيانه . قال تعالى : ﴿ الذين طغوا في البلاد ـ الى أن قال ـ إن ربك لبالمرصاد ﴾ (الفجر / ١٤) والدليل على ما فسرنا به قوله بعده : « وإنه لغفور رحيم » فإن الظاهر أنه لم يؤت به إلا للدلالة على أنه تعالى ليس بسريع العقاب دائماً وإلا فضمون الآية ليس مما يناسب التذليل باسمي الغفور والرحيم لتمحضه في معنى المؤاخذة والانتقام فمعنى قوله : « إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم » أنه تعالى غفور للذنوب رحيم بعباده لكنه اذا قضى لبعض عباده بالعقاب لاستيجابهم ذلك بطغيان وعتو ونحو ذلك فسرعان ما يتبعهم اذ لا مانع يمنع عنه ولا عائق يعوقه .

ولعل هذا هو معنى قول بعضهم: إن معنى قوله: «إن ربك لسريع العقاب» سريع العقاب لمن شاء أن يعاقبه في الدنيا، وإن كان الأنسب أن يقال: إن ذلك معنى قوله: «إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم»، ويرتفع به ما يمكن أن يتوهم أن كونه تعالى سريع العقاب ينافي كونه حليماً لا يسرع الى المؤاخذة.

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ ٱلصَّالِحُونَ﴾ الى آخر الآية؛ قال: في المجمع: دون في موضع الرفع بالابتداء، ولكنه جاء منصوباً لتمكنه في الظرفية، ومثله على قول أبي الحسن: «لقد تقطَّع بينكم» هو في موضع الرفع فجاء منصوباً لهذا المعنى. وكذلك في قوله: «يوم القيامة يفصل بينكم» بين في موضع رفع لقيامة مقام الفاعل، وإن شئت كان التقدير: ومنهم جماعة دون ذلك فحذف الموصوف وقامت صفته مقامه. انتهى.

والمراد بالحسنات والسيئات نعماء الدنيا وضرّاءها والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ الى آخر الآية. العرض ما لا ثبات له، ومنه قوله تعالى: ﴿عرض الحياة الدنيا﴾ (النساء / ٩٤) أي ما لا ثبات له من شؤنها، والمراد بعرض هذا الأدنى عرض هذه الحياة الدنيا والدار العاجلة غير أنه أُشير إليها بلفظ التذكير لأخذها شيئاً ليس له من الخصوصيات إلا أن يشار إليه تجاهلاً بخصوصياتها تحقيراً لشأنها كأنها لا يختص بنعت من النعوت يرغب فيها، وقد تقدم نظيره في قول إبراهيم عليه السلام على ما حكاه الله: ﴿هذا ربي هذا أكبر﴾ (الأنعام / ٧٨) يريد الشمس.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ قول جزافي لهم قالوه، ولا معوّل لهم فيه إلا الاغترار بشعبهم الذي سمّوه شعب الله كما سموا أنفسهم أبناء الله وأحبّاءه، ولم يقولوا ذلك لوعد النفس بالتوبة لأن ذلك قيد لا يدل عليه الكلام. ولا أنهم قالوا ذلك رجاءً للمغفرة الإلهية فإن للرجاء آثاراً لا تلائم هذه المشيئة اذ رجاء الخير لا ينفك عن خوف الشر الذي يقابله وكما أن الرجاء يستدعي شيئاً من ثبات النفس وطيبها كذلك الخوف يوجب قلق النفس واضطرابها

ومساءتها فآية الرجاء الصادق توسط النفس بين سكون واضطراب، وجذب ودفع، ومسرّة ومساءة، وأما من توغل في شهوات نفسه وانغمر في لذائذ الدنيا من غير أن يتذكّر بعقوبة ما يجنيه ويتقرفه ثم اذا ردعه رادع من نفسه أو غيره بما أوعد الله الظالمين، وذكّره شيئاً من سوء عاقبة المجرمين قال: إن الله غفور رحيم يتخلص به من اللوم، ويخلص به الى صافي لذائذه الدنية فليس ما يتظاهر به رجاء صادقاً بل أُمنية نفسانية كاذبة، وتسويل شيطاني موبق فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً.

وقوله: ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ أي لم يقنعوا بما أخذوه من العرض بمرّة حتى يكون تركهم ذلك ورجوعهم الى إتقاء محارم الله نحواً من التوبة، وقولهم: «سيغفر لنا» نوعاً من الرجاء يتلبّس به النائبون بل كلما وجدوا شيئاً من عرض الدنيا أخذوه من غير أن يراقبوا الله تعالى فيه فالجملة أعني قوله: «وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه» في معنى قوله تعالى في وصفهم في موضع آخر: ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾ (المائدة / ٧٩).

وقوله: ﴿وَدَرَسُوا ما فِيهِ﴾ كأن الواو للحال، والجملة حال عن ضمير «عليهم» وقيل الجملة معطوفة على قوله: «ورثوا الكتاب» في صدر الآية، ولا يخلو من بعد.

والمعنى: «فخلف من بعدهم» أي من بعد هؤلاء الأسلاف من بني إسرائيل وحالهم في تقوى الله واجتناب محارمه ما وصف: «خلف ورثوا الكتاب» وتحمّلوا ما فيه من المعارف والأحكام والمواعظ والعبر، وكان لازمه أن يتّقوا ويختاروا الدار الآخرة، ويتركوا أعراض الدنيا الفانية الصارفة عما عند الله من الثواب الدائم «يأخذون عرض هذا الأدنى» وينكبّون على اللذائذ الفانية العاجلة، ولا يبالون بالمعصية وإن كثرت «ويقولون سيغفر لنا» قولاً بغير الحق ولا يرجعون عن المعصية بالمرة والمرتين بل هم على قصد العود إليها كلما أمكن «وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه» ولا يتناهون عما اقترفوه من المعصية.

«ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب» وهو الميثاق المأخوذ عليهم عند حملهم إيّاه «أن لا

يقولوا على الله إلا الحق» والحال أنهم درسوا ما فيه، وعلموا بذلك أن قولهم: «سيغفر لنـا» قول بغير الحق ليس لهم أن يتفوّهوا به، وهو يجرّئهم على معاصي الله وهدم أركان دينه. «و» الحال أن «الدار الآخرة خير للذين يتّقون» لدوام ثوابها وأمنها من كل مكروه «أفلا تعقلون».

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ قال في المجمع: أمسك ومسّك وتمسّك واستمسك بالشيء بمعنى واحد أي اعتصم به. انتهى.

وتخصيص إقامة الصلاة بالذكر من بين سائر أجزاء الدين لشرفها وكونها ركناً من الدين يحفظ بها ذكر الله والخضوع الى مقامه الذي هو بمنزلة الروح الحية في هيكل الشرائع الدينية.

والآية تعدّ التمسّك بالكتاب اصلاحاً والإصلاح يقابل الإفساد وهو الإفساد في الأرض أو إفساد المجتمع البشري فيها، ولا تفسد الأرض ولا المجتمع البشري إلا بإفساد طريقة الفطرة التي فطر الله الناس عليها. والدين الذي يشتمل عليه الكتاب الإلهي النازل في عصر من الأعصار هو المتضمن لطرق الفطرة بحسب ما يستدعيه استعداد أهله فإن الله سبحانه يذكر في كلامه أن الدين القيّم الذي يقوم بحوائج الحياة هي الفطرة التي فطر الناس عليها، والخلقة التي لا حقيقة لهم وراءها قال: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (الروم / ٣٠) ثم قال: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ (آل عمران / ١٩) والإسلام هو التسليم لله سبحانه في سنّته الجارية في تكوينه المبتنية عليها تشريعه.

والآية أعني قوله: «والذين يمسكون بالكتاب» الآية في نفسها عامة مستقلة لكنها بحسب دخولها في سياق الكلام في بني إسرائيل معتنية بشأنهم، والمراد بالكتاب بهذا النظر التوراة أو هي والإنجيل.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ الآية؛ النتق قلع الشيء من أصله، والظلمة هي الغمامة، وما يستظلّ بها من نحو السقف، والباقي ظاهر.

والآية تقصّ رفع الطور فوق رؤس بني إسرائيل، وقد تقدمت هذه القصة مكررة في سورتي البقرة والنساء[1].

١٧٢ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ.

١٧٣ ﴿ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ.

١٧٤ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾ أخذ الشيء من الشيء يوجب انفصال المأخوذ من المأخوذ منه واستقلاله دونه بنحو من الأنحاء، وهو يختلف باختلاف العنايات المتعلقة بها والاعتبارات المأخوذة فيها كأخذ اللقمة من الطعام وأخذ الجرعة من ماء القدح وهو نوع من الأخذ، وأخذ المال والأثاث من زيد الغاصب أو الجواد أو البائع أو

---

١. الاعراف ١٦١ ـ ١٧١: بحث روائي في طائفة من بني اسرائيل وموضوع صيد الحيتان: نزول العذاب الالهي على بني اسرائيل ونجاة الناهين عن المنكر؛ نزول التوراة وعدم ايمان بني اسرائيل.

المعير وهو نوع آخر، أو أنواع مختلفة اخرى، وكأخذ العلم من العالم وأخذ الاهبة من المجلس وأخذ الحظ من لقاء الصديق وهو نوع وأخذ الولد من والده للتربية وهو نوع الى غير ذلك.

فمجرد ذكر الأخذ من الشيء لا يوضح نوعه إلا ببيان زائد، ولذلك أضاف الله سبحانه إلى قوله: «واذ أخذ ربك من بني آدم» الدال على تفريقهم وتفصيل بعضهم من بعض، قوله «ومن ظهورهم» ليدل على نوع الفصل والأخذ، وهو أخذ بعض المادة منها بحيث لا تنقص المادة المأخوذ منها بحسب صورتها ولا تنقلب عن تمامها واستقلالها ثم تكميل الجزء المأخوذ شيئاً تاماً مستقلاً من نوع المأخوذ منه فيؤخذ الولد من ظهر من يلده ويولده، وقد كان جزءً ثم يجعل بعد الأخذ والفصل إنساناً تاماً مستقلاً من والديه بعدما كان جزءً منهما.

ثم يؤخذ من ظهر هذا المأخوذ مأخوذ آخر وعلى هذه الوتيرة حتى يتم الأخذ وينفصل كل جزء عما كان جزءً منه، ويتفرق الأناسي وينتشر الأفراد وقد استقل كل منهم عمن سواه ويكون لكل واحد منهم نفس مستقلة لها مالها وعليها ما عليها، فهذا مفاد قوله «واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم» ولو قال: أخذ ربك من بني آدم ذريتهم أو نشرهم ونحو ذلك بقي المعنى على إبهامه.

وقوله: «وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم» ينبيء عن فعل آخر إلهي تعلق بهم بعد ما أخذ بعضهم من بعض وفصل بين كل واحد منهم وغيره وهو إشهادهم على أنفسهم، والإشهاد على الشيء هو إحضار الشاهد عنده وإراءته حقيقته ليتحمله علماً تحملا شهودياً فإشهادهم على أنفسهم هو إراءتهم حقيقة أنفسهم ليتحملوا ما اريد تحملهم من أمرها ثم يؤدوا ما تحملوه اذا سئلوا.

وللنفس في كل ذي نفس جهات من التعلق والارتباط بغيرها يمكن أن يستشهد الإنسان على بعضها دون بعض غير أن قوله: «ألست بربكم» يوضح ما أشهدوا لأجله واريد شهادتهم عليه، وهو أن يشهدوا ربوبيته سبحانه لهم فيؤدوها عند المسألة.

فالإنسان وإن بلغ من الكبر والخيلاء ما بلغ، وغرته مساعدة الأسباب ما غرته واستهوته لا يسعه أن ينكر أنه لا يملك وجود نفسه ولا يستقل بتدبير أمره، ولو ملك نفسه لوقاها مما يكرهه من الموت وسائر آلام الحياة ومصائبها، ولو استقل بتدبير أمره لم يفتقر إلى الخضوع قبال الأسباب الكونية، والوسائل التي يرى لنفسه أنه يسودها ويحكم فيها ثم هي كالإنسان في الحاجة الى ما وراءها، والانقياد الى حاكم غائب عنها يحكم فيها لها أو عليها، وليس الى الإنسان أن يسد خلتها ويرفع حاجتها.

فالحاجة الى رب ـ مالك مدبر ـ حقيقة الإنسان، والفقر مكتوب على نفسه، والضعف مطبوع على ناصيته، لا يخفى ذلك على إنسان له أدنى الشعور الإنساني، والعالم والجاهل والصغير والكبير والشريف الوضيع في ذلك سواء.

فالإنسان في أي منزل من منازل الإنسانية نزل يشاهد من نفسه أن له ربا يملكه ويدبر أمره، وكيف لا يشاهد ربه وهو يشاهد حاجته الذاتية؟ وكيف يتصور وقوع الشعور بالحاجة من غير شعور بالذي يحتاج إليه؟ فقوله: «ألست بربكم» بيان ما أُشهد عليه، وقوله: «قالوا بلى شهدنا» اعتراف منهم بوقوع الشهادة وما شهدوه، ولذا قيل: إن الآية تشير الى ما يشاهده الإنسان في حياته الدنيا أنه محتاج في جميع جهات حياته من وجوه وما يتعلق به وجوده من اللوازم والأحكام، ومعنى الآية أنا خلقنا بني آدم في الأرض وفرقناهم وميزنا بعضهم من بعض بالتناسل والتوالد، وأوقفناهم على احتياجهم ومربوبيتهم لنا فاعترفوا بذلك قائلين: بلى شهدنا أنك ربنا.

وعلى هذا يكون قولهم: «بلى شهدنا» من قبيل القول بلسان الحال أو إسناد اللازم القول الى القائل بالملزوم حيث اعترفوا بحاجاتهم ولزمه الاعتراف بمن يحتاجون إليه، والفرق بين لسان الحال، والقول بلازم القول: أن الأول انكشاف المعنى عن الشيء لدلالة صفة من صفاته وحال من أحواله عليه سواء شعر به أم لا كما تفصح آثار الديار الخربة عن حال ساكنيها،

وكيف لعب الدهر بهم؟ وعدت عادية الأيام عليهم؟ فأسكنت اجراسهم وأخمدت أنفاسهم، وكما يتكلم سيماء البائس المسكين عن فقره ومسكنته وسوء حاله. والثاني انكشاف المعنى عن القائل لقوله بما يستلزمه أو تكلمه بما يدل عليه بالالتزام.

فعلى أحد هذين النوعين من القول أعني القول بلسان الحال والقول بالاستلزام يحمل اعترافهم المحكي بقوله تعالى: «قالوا بلى شهدنا» والأول أقرب وأنسب فإنه لا يكتفي في مقام الشهادة إلا بالصريح منها المدلول عليه بالمطابقة دون الالتزام.

ومن المعلوم أن هذه الشهادة على أي نحو تحققت فهي من سنخ الاستشهاد المذكور في قوله: «ألست بربكم» فالظاهر أنه قد استوفي الجواب بعين اللسان الذي سألهم به، ولذلك كان هناك نحو ثالث يمكن أن يحمل عليه هذه المساءلة والمجاوبة فإن الكلام الإلهي يكشف به عن المقاصد الإلهية بالفعل، والإيجاد كلام حقيقي ـ وإن كان بنحو التحليل ـ كما تقدم مراراً في مباحثنا السابقة فليكن هنا قوله: «ألست بربكم» وقولهم: «بلى شهدنا» من ذاك القبيل، وسيجيء للكلام تتمة.

وكيف كان فقوله: «وإذ أخذ ربك من بني آدم» الآية يدل على تفصيل بني آدم بعضهم من بعض، وإشهاد كل واحد منهم على نفسه، وأخذ الاعتراف على الربوبية منه، ويدل ذيل الآية وما يتلوه أعني قوله: «أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون» على الغرض من هذا الأخذ والإشهاد.

وهو على ما يفيده السياق إبطال حجتين للعباد على الله وبيان أنه لولا هذا الأخذ والإشهاد وأخذ الميثاق على انحصار الربوبية كان للعباد أن يتمسكوا يوم القيامة بإحدى حجتين يدفعون بها تمام الحجة عليهم في شركهم بالله والقضاء بالنار، على ذلك من الله سبحانه.

والتدبر في الآيتين وقد عطفت إحدى الحجتين على الاخرى بأو الترديدية، وبنيت الحجتان جميعاً على العلم اللازم للإشهاد، ونقلتا جميعاً عن بني آدم المأخوذين المفرقين يعطي أن الحجتين كل واحدة منهما مبنية على تقدير من تقديرى عدم الإشهاد كذلك.

والمراد أنا أخذنا ذريتهم من ظهورهم وأشهدناهم على أنفسهم فاعترفوا بربوبيتنا فتمت لنا الحجة عليهم يوم القيامة، ولو لم نفعل هذا ولم نشهد كل فرد منهم على نفسه بعد أخذه فإن كنا أهملنا الإشهاد من رأس فلم يشهد أحد نفسه وأن الله ربه، ولم يعلم به لأقاموا جميعاً الحجة علينا يوم القيامة بأنهم كانوا غافلين في الدنيا عن ربوبيتنا، ولا تكليف على غافل ولا مؤاخذة، وهو قوله تعالى: «أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين».

وإن كنا لم نهمل أمر الإشهاد من رأس، وأشهدنا بعضهم على أنفسهم دون بعض بأن أشهدنا الآباء على هذا الأمر الهام العظيم دون ذرياتهم ثم أشرك الجميع كان شرك الآباء شركاً عن علم بأن الله هو الرب لا رب غيره فكانت معصية منهم، وأما الذرية فإنما كان شركهم بمجرد التقليد فيما لا سبيل لهم الى العلم به لا إجمالا ولا تفصيلا، ومتابعة عملية محضة لآبائهم فكان آباؤهم هم المشركون بالله العاصون في شركهم لعلمهم بحقيقة الأمر، وقد قادوا ذريتهم الضعاف في سبيل شركهم بتربيتهم عليه وتلقينهم ذلك، ولا سبيل لهم الى العلم بحقيقة الأمر وإدراك ضلال آبائهم وإضلالهم إياهم، فكانت الحجة لهؤلاء الذرية على الله يوم القيامة لأن الذين أشركو أو عصوا بذلك وأبطلوا الحق هم الآباء فهم المستحقين للمؤاخذة، والفعل فعلهم، وأما الذرية فلم يعرفوا حقاً حتى يؤمروا به فيعصوا بمخالفته فهم لم يعصوا شيئاً ولم يبطلوا حقاً، وحينئذ لم تتم حجة على الذرية فلم تتم الحجة على جميع بنى آدم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل

المبطلون ﴾[1].

رجعنا الى الآية:

قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾ أي واذكر لأهل الكتاب في تتميم البيان السابق أو واذكر للناس في بيان ما نزلت السورة لأجل بيانه وهو أن لله عهداً على الإنسان وهو سائله عنه وأن أكثر الناس لا يفون به وقد تمت عليهم الحجة.

أُذكر لهم موطناً قبل الدنيا أخذ فيه ربك «من بني آدم من ظهورهم ذريتهم» فما من أحد منهم إلا استقل من غيره وتميز منه فاجتمعوا هناك جميعاً وهم فرادى فأراهم ذواتهم المتعلقة بربهم «وأشهدهم على أنفسهم» فلم يحتجبوا عنه وعاينوا أنه ربهم كما أن كل شيء بفطرته يجد ربه من نفسه من غير أن يحتجب عنه، وهو ظاهر الآيات القرآنية كقوله ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ (الإسراء / ٤٤).

«ألست بربكم» وهو خطاب حقيقي لهم لا بيان حال وتكليم إلهي لهم فإنهم يفهمون مما يشاهدون أن الله سبحانه يريد به منهم الاعتراف وإعطاء الموثق، ولا نعني بالكلام إلا ما يلقى للدلالة به على معنى مراد، وكذا الكلام في قوله: «قالوا بلى شهدنا».

وقوله: ﴿ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هٰذَا غٰافِلِينَ ﴾ الخطاب للمخاطبين بقوله: «ألست بربكم» القائلين: «بلى شهدنا» فهم هناك يعاينون الإشهاد والتكليم من الله والتكلم بالاعتراف من أنفسهم، وإن كانوا في نشأة الدنيا على غفلة مما عدا المعرفة بالاستدلال، ثم اذا كان يوم البعث وانطوى بساط الدنيا، وامحت هذه الشواغل والحجب عادوا الى مشاهدتهم ومعاينتهم، وذكروا ما جرى بينهم وبين ربهم.

ويحتمل أن يكون الخطاب راجعا إلينا معاشر المخاطبين بالآيات أي إنما فعلنا ببني آدم

---

١. الاعراف ١٧٢ ـ ١٧٤: بحث في اشهاد بني آدم على انفسهم؛ عالم الذر.

ذلك حذر أن تقولوا أيها الناس يوم القيامة كذا وكذا. والأول أقرب ويؤيده قراءة «أن يقولوا» بلفظ الغيبة.

وقوله: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ هذه حجة الناس إن فرض الإشهاد وأخذ الميثاق من الآباء خاصة دون الذرية كما أن قوله: «أن تقولوا» الخ؛ حجة الناس إن ترك الجميع فلم يقع إشهاد ولا أخذ ميثاق من أحد منهم.

ومن المعلوم أن لو فرض ترك الإشهاد وأخذ الميثاق في تلك النشأة كان لازمه عدم تحقق المعرفة بالربوبية في هذه النشأة اذ لا حجاب بينهم وبين ربهم في تلك النشأة فلو فرض هناك علم منهم كان ذلك إشهاداً وأخذ ميثاق، وأما هذه النشأة فالعلم فيها من وراء الحجاب وهو المعرفة من طريق الاستدلال.

فلو لم يقع هناك بالنسبة الى الذرية إشهاد وأخذ ميثاق كان لازمه في هذه النشأة أن لا يكون لهم سبيل إلى معرفة الربوبية فيها أصلاً، وحينئذ لم يقع منهم معصية شرك بل كان ذلك فعل آبائهم، وليس لهم إلا التبعية العملية لآبائهم والنشوء على شركهم من غير علم فصح لهم أن يقولوا: إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ تفصيل الآيات تفريق بعضها وتمييزه من بعض ليتبين بذلك مدلول كل منها ولا تختلط وجود دلالتها. وقوله «ولعلهم يرجعون» عطف على مقدر، والتقدير: لغايات عالية كذا وكذا ولعلهم يرجعون من الباطل الى الحق[1].

١٧٥ * وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ.

---

١. الاعراف ١٧٢ ـ ١٧٤: بحث روائي في: عالم الذرّ، اشهاد بني آدم على انفسهم؛ التوحيد.

١٧٦ ● وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ.

١٧٧ ● سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ.

١٧٨ ● مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ.

١٧٩ ● وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ الى آخر الآية معنى إيتاء الآيات على ما يعطيه السياق التلبس من الآيات الأنفسية والكرامات الخاصة الباطنية بما يتنور به طريق معرفة الله له، وينكشف له ما لا يبقى له معه ريب في الحق والانسلاخ خروج الشيء وانتزاعه من جلده، وهو كناية استعارية عن أن الآيات كانت لزمتها لزوم الجلد فخرج منها الخبث في ذاته، والإتباع كالتبع والإتباع التعقيب واقتفاء الأثر يقال: تبع وأتبع واتّبع، والكل بمعني واحد، والغي والغواية هي الضلال، كأنه لخروج من الطريق للقصور عن حفظ المقصد الذي يوصل إليه الطريق ففيه نسيان المقصد والغاية،

فالمتحير في أمره وهو في الطريق غوي، والخارج عن الطريق وهو ذاكر لمقصده ضال، وهو الأنسب لمورد الآية فإن صاحب النبأ بعد ما انسلخ عن آيات الله وأتبعه الشيطان غاب عنه سبيل الرشد فلم يتمكن من إنجاء نفسه عن ورطة الهلاك، وربما استعمل كل من الغواية والضلالة في معنى واحد. وهو الخروج عن الطريق الموصل إلى الغاية.

وقد اختلف المفسرون في تعيين من هو صاحب النبأ في هذه الآية على أقوال مختلفة سنشير الى جلها أو كلها في البحث الروائي الآتي إن شاء الله.

والآية ـ كما ترى ـ أبهمت اسمه واقتصرت على الإشارة الى إجمال قصته لكنها مع ذلك ظاهرة في أنه نبأ واقع لا مجرد تمثيل فلا وقع لقول من قال: إنها مجرد تمثيل من غير نبأ واقع.

والمعنى: «واتل عليهم» أي على بني إسرائيل أو على الناس خبراً عن أمر عظيم وهو «نبأ» الرجل «الذي أتيناه آياتنا» وكشفنا لباطنه عن علائم وآثار إلهية عظام يتنور له بها حق الأمر «فانسلخ منها» ورفضها بعد لزومها «فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين» فلم يقو على إنجاء نفسه من الهلاك.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ الآية: الإخلاد اللزوم على الدوام، والإخلاد الى الأرض اللصوق بها، وهو كناية عن الميل الى التمتع بالملاذ الدنيوية والتزامها، واللهث من الكلب أن يدلع لسانه من العطش.

فقوله: «ولو شئنا لرفعناه بها» أي لو شئنا لرفعناه بتلك الآيات وقربناه إلينا لأن في القرب الى الله ارتفاعاً عن حضيض هذه الدنيا التي هي بما لها من اشتغال الإنسان بنفسها عن الله وآياته أسفل سافلين، ورفعه بتلك الآيات بما أنها أسباب إلهية ظاهرية تفيد اهتداء من تلبس بها لكنها لا تحتم السعادة للإنسان لأن تمام تأثيرها في ذلك منوط بمشيئة الله، والله سبحانه لا يشاء ذلك لمن أعرض عنه وأقبل الى غيرها. وهي الحياة الأرضية اللاهية عن الله ودار كرامته فإن الإعراض عن الله سبحانه وتكذيب آياته ظلم، وقد حق القول منه سبحانه أنه لا

يهدي القوم الظالمين. وأن الذين كفروا وكذبوا بآياته اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

ولذلك عقب تعالى قوله: «ولو شئنا لرفعناه بها» بقوله: «لكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه» فالتقدير: لكنا لم نشأ ذلك لأنه أخلد الى الأرض واتبع هواه وكان ذلك مورداً لإضلالنا لا لهدايتنا كما قال تعالى: ﴿ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾ (ابراهيم / ٢٧).

وقوله: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ أي إنه ذو هذه السجية لا يتركها سواء زجرته ومنعته أو تركته و«تحمل» من الحملة لا من الحمل «ذلك مثل الذين كذبوا بآياتنا» فالتكذيب منهم سجية وهيئة نفسانية خبيثة لازمة فلا تزال آياتنا تتكرر على حواسهم ويتكرر التكذيب بها منهم «فاقصص القصص» وهو مصدر أي اقصص قصصاً أو اسم مصدر أي اقص القصة «لعلهم يتفكرون» فينقادوا للحق وينتزعوا عن الباطل.

قوله تعالى: ﴿ساءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَأَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ﴾ ذم لهم من حيث وصفهم، وإعلام لهم أنهم لا يضرون شيئاً في تكذيب آياته بل ذلك ظلم منهم لأنفسهم اذ يستضر بذلك غيرهم.

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ اللام في «المهتدي» و«الخاسرون» يفيد الكمال دون الحصر ظاهراً. ومفاد الآية أن مجرد الاهتداء الى شيء لا ينفع شيئاً ولا يؤثر أثر الاهتداء إلا اذا كانت معه هداية الله سبحانه فهي التي يكمل بها الاهتداء، وتتحتم معها السعادة، وكذلك مجرد الضلال لا يضر ضرراً قطعياً إلا بانضمام إضلال الله سبحانه إليه فعند ذلك يتم أثره، ويتحتم الخسران.

فمجرد اتصال الانسان بأسباب السعادة كظاهر الإيمان والتقوى وتلبسه بذلك لا يورده مورد النجاة، وكذلك اتصاله وتلبسه بأسباب الضلال لا يورده مورد الهلاك والخسران إلا أن يشاء الله ذلك فيهدي بمشيئته من هدى، ويضل بها من أضل.

فيؤل المعنى الى أن الهداية إنما تكون هداية حقيقة تترتب عليها آثارها اذا كان لله فيها مشية، وإلا فهي صورة هداية وليست بها حقيقة، وكذلك الأمر في الإضلال، وإن شئت فقل: إن الكلام يدل على حصر الهداية الحقيقة في الله سبحانه، وكذلك الإضلال ولا يضل به إلا الفاسقين.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْـجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ الى آخر الآية؛ الذرء هو الخلق، وقد عرف الله سبحانه جهنم غاية لخلق كثير من الجن والإنس، ولا ينافي ذلك ما عرف في موضع آخر أن الغاية لخلق الخلق هي الرحمة وهي الجنة في الآخرة كقوله تعالى: ﴿ إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ (هود / ١١٩) فإن الغرض يختلف معناه بحسب كمال الفعل ونهاية الفعل التي ينتهي إليها.

بيان ذلك أن النجار إذا أراد أن يصنع باباً عمد إلى أخشاب يهيؤها له ثم هندسة فيها ثم شرع في النشر والنحت والخرط حتى أتم الباب فكمال غرضه من إيقاع الفعل على تلك الخشبات هو حصول الباب لا غير، هذا من جهة ومن جهة اخرى هو يعلم من أول الأمر أن جميع أجزاء تلك الخشبات ليست تصلح لأن تكون أجزاء للباب فإن للباب هيئة خاصة لا تجامع هيئة الخشبات، ولابد في تغيير هيئتها من ضيعة بعض الأجزاء لخروجها عن هندسة العمل فصيرورة هذه الأبعاض فضلة يرمى بها داخلة في قصد الصانع مرادة له بإرادة تسمى قصداً ضرورياً فللنجار في صنع الباب بالنسبة إلى الأخشاب التي بين يديه نوعان من الغاية: أحدهما الغاية الكمالية وهي أن يصنع منها باباً، والثاني الغاية التابعة وهي أن يصنع بعضها باباً ويجعل بعضها فضلة لا ينتفع بها وضيعة يرمى بها، وذلك لعدم استعدادها لتلبس صورة الباب.

وكذا الزارع يزرع أرضا ليحصد قمحاً فلا يخلص لذلك الى يوم الحصاد إلا بعض ما صرفه من البذر، ويذهب غيره سدى يضيع في الأرض أو تفسده الهوام أو يخصفه المواشي والجميع

مقصودة للزراع من وجه، والمحصول من القمح مقصود من وجه آخر.

وقد تعلقت المشية الإلهية أن يخلق من الأرض إنساناً سوياً يعبده ويدخل بذلك في رحمته، واختلاف الاستعدادات المكتسبة من الحياة الدنيوية على ما لها من مختلف التأثيرات لا يدع كل فرد من أفراد هذا النوع أن يجري في مجراه الحقيقي ويسلك سبيل النجاة إلا من وفق له، وعند ذلك تختلف الغايات وصح أن لله سبحانه غاية في خلقة الإنسان مثلاً وهو أن يشملهم برحمته ويدخلهم جنته، وصح أن لله غاية في أهل الخسران والشقاوة من هذا النوع وهو أن يدخلهم النار وقد كان خلقهم للجنة غير أن الغاية الاولى غاية أصلية كمالية، والغاية الثانية غاية تبعية ضرورية، والقضاء الإلهي المتعلق بسعادة من سعد وشقاوة من شقي ناظر إلى هذا النوع الثاني من الغاية فإنه تعالى يعلم ما يؤل إليه حال الخلق من سعادة أو شقاء فهو مريد لذلك بإرادة تبعية لا أصلية.

وعلى هذا النوع من الغاية ينزل قوله تعالى: «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس» وما في هذا المساق من الآيات الكريمة وهي كثيرة.

وقوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ إشارة الى بطلان استعدادهم للوقوع في مجرى الرحمة الالهية، والوقوف في مهب النفحات الربانية، فلا ينفعهم ما يشاهدونه من آيات الله، وما يسمعونه من مواعظ أهل الحق، وما تلقنه لهم فطرتهم من الحجة والبينة.

ولا يفسد عقل ولا عين ولا أذن في عمله وقد خلقها الله لذلك، وقد قال: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ (الروم / ٣٠) إلا أن يكون الذي يغيره هو الله سبحانه فيكون من جمله الخلق لكنه سبحانه لا يغير ما انعمه على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، قال تعالى: ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الأنفال / ٥٣).

فالذي أبطل ما عندهم من الاستعداد، وأفسد أعمال قلوبهم وأعينهم وآذانهم هو الله

سبحانه فعل بهم ما فعل جزاء بما كسبوا نكالا فهم غيروا نعمة الله بتغيير طريق العبودية فجازاهم الله بالطبع على قلوبهم فلا يفقهون بها، وجعل الغشاوة على أبصارهم فلا يبصرون بها، والوقر على آذانهم فلا يسمعون بها فهذه آية أنهم مسيرون إلى النار.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ نتيجة ما تقدم، وبيان لحالهم فإنهم فقدوا ما يتميز به الإنسان من سائر الحيوان، وهو تمييز الخير والشر والنافع والضار بالنسبة الى الحياة الانسانية السعيدة من طريق السمع والبصر والفؤاد.

وإنما شبهوا من بين الحيوان العجم بالأنعام من أن فيهم خصال السباع الضارية وخصائصها كخصال الأنعام الراعية، لأن التمتع بالأكل والسفاد أقدم وأسبق بالنسبة إلى الطبع الحيواني فجلب النفع أقدم من دفع الضر، وما في الإنسان من القوى الدافعة الغضبية مقصودة لأجل ما فيه من القوى الجاذبة الشهوية، وغرض النوع بحسب حياته الحيوانية يتعلق أولاً بالتغذي والتوليد، ويتحفظ على ذلك بإعمال القوى الدافعة فالآية تجري مجرى قوله تعالى: ﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما يأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾ (محمد / ١٢).

وأما كونهم أكثر أو أشد ضلالاً من الأنعام، ولازمه ثبوت ضلال ما في الأنعام فلأن الضلال في الأنعام نسبي غير حقيقي فإنها مهتدية بحسب مالها من القوى المركبة الباعثة لها الى قصر الهمة في الأكل والتمتع غير ضالة فيما هيئت لها من سعادة الحياة ولا مستحقة للذم فيما أخذت إليه، وإنما تعد ضالة بقياسها الى السعادة الانسانية التي ليست لها ولا جهزت بما تتوسل به إليها.

وأما هؤلاء المطبوع على قلوبهم وأعينهم وآذانهم فالسعادة سعادتهم وهم مجهزون بما يوصلهم إليها ويدلهم عليها من السمع والبصر والفؤاد لكنهم أفسدوا وضيعوا أعمالها ونزلوها منزلة السمع والبصر والقلب التي في الأنعام، واستعملوها فيما تستعملها فيه الأنعام وهو التمتع

من لذائذ البطن والفرج فهم أكثر أو أشد ضلالاً من الأنعام، وإليهم يعود الذم.

وقوله: ﴿أُولٰئِكَ هُمُ الْغٰافِلُونَ﴾ نتيجة وبيان حال اخرى لهم وهو أن حقيقة الغفلة هي التي توجد عندهم فإنها بمشية الله سبحانه، ألبسها إياهم بالطبع الذي طبع به على قلوبهم وأعينهم وآذانهم والغفلة مادة كل ضلال وباطل[1].

١٨٠ ● وَلِلّٰهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنىٰ فَادْعُوهُ بِها وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمٰائِهِ سَيُجْزَوْنَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ.

١٨١ ● وَمِمَّنْ خَلَقْنٰا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ.

١٨٢ ● وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لٰا يَعْلَمُونَ.

١٨٣ ● وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ.

١٨٤ ● أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مٰا بِصٰاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ.

١٨٥ ● أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ وَمٰا خَلَقَ اللّٰهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ.

١٨٦ ● مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَلٰا هٰادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيٰانِهِمْ يَعْمَهُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلِلّٰهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنىٰ فَادْعُوهُ بِها﴾ الاسم بحسب اللغة ما يدل به

---

١. الاعراف ١٧٥ ـ ١٧٩: بحث روائي في: بلعم بن باعورا؛ طبع القلب.

على الشيء سواء أفاد مع ذلك معنى وصفياً كاللفظ الذي يشار به إلى الشيء لدلالته على معنى موجود فيه. أولم يفد إلا الإشارة إلى الذات كزيد وعمرو وخاصة المرتجل من الأعلام. وتوصيف الأسماء الحسنى ـ وهي مؤنث أحسن ـ يدل على أن المراد بها الأسماء التي فيها معنى وصفي دون ما لا دلالة لها إلا على الذات المتعالية فقط لو كان بين أسمائه تعالى ما هو كذلك. ولا كل معني وصفي، بل المعني الوصفي الذي فيه شيء من الحسن. ولا كل معني وصفي حسن بل ما كان أحسن بالنسبة الى غيره اذا اعتبرا مع الذات المتعالية: فالشجاع والعفيف من الأسماء الحسنة لكنها لا يليقان بساحة قدسه لإنبائها عن خصوصية جسمانية لا يمكن سلبها عنها، ولو أمكن لم يكن مانع عن إطلاقها عليه كالجواد والعدل والرحيم.

فكون اسم ما من أسمائه تعالى أحسن الأسماء أن يدل على معنى كمالي غير مخالط لنقص أو عدم. مخالطة لا يمكن معها تحرير المعنى من ذلك النقص والعدم وتصفيته، وذلك في كل ما يستلزم حاجة أو عدماً وفقداً كالأجسام والجسمانيات والأفعال المستقبحة أو المستشنعة، والمعاني العدمية:

فهذه الأسماء بأجمعها محصول لغاتنا لم نضعها إلا لمصاديقها فينا التي لا تخلو عن شوب الحاجة والنقص غير أن منها مالا يمكن سلب جهات الحاجة والنقص عنها كالجسم واللون والمقدار وغيرها. ومنها ما يمكن فيه ذلك كالعلم والحياة والقدرة فالعلم فينا الإحاطة بالشيء من طريق أخذ صورته من الخارج بوسائل مادية. والقدرة فينا المنشأية للفعل بكيفيّة مادية موجودة لعضلاتنا. والحياة كوننا بحيث نعلم ونقدر بما لنا من وسائل العلم والقدرة فهذه لا تليق بساحة قدسه غير أنا اذا جردنا معانيها عن خصوصيات المادة عاد العلم وهو الإحاطة بالشيء بحضوره عنده. والقدرة هي المنشأية للشيء بإيجاده. والحياة كون الشيء بحيث يعلم ويقدر. وهذه لا مانع من إطلاقها عليه لأنها معان كمالية خالية عن جهات النقص والحاجة، وقد دل العقل والنقل أن كل صفة كمالية فهي له تعالى وهو المفيض لها على غيره من غير مثال

سابق فهو تعالى عالم قادر حي لكن لا كعلمنا وقدرتنا وحياتنا بل بما يليق بساحة قدسه من حقيقة هذه المعاني الكمالية مجردة عن النقائص.

وقد قدم الخبر في قوله: «ولله الأسماء الحسنى» وهو يفيد الحصر، وجيء بالأسماء محلى باللام، والجمع المحلى باللام يفيد العموم، ومقتضى ذلك أن كل اسم أحسن في الوجود فهو لله سبحانه لا يشاركه فيه أحد، وإذ كان الله سبحانه ينسب بعض هذه المعاني إلى غيره ويسميه به كالعلم والحياة والخلق والرحمة فالمراد بكونها لله كون حقيقتها له وحده لا شريك له.

وظاهر الآيات بل نص بعضها يؤيد هذا المعنى كقوله: ﴿أن القوة لله جميعاً﴾ (البقرة / ١٦٥). وقوله: ﴿فإن العزة لله جميعاً﴾ (النساء / ١٣٩). وقوله: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ (البقرة / ٢٥٥). وقوله: ﴿هو الحي لا إله إلا هو﴾ (المؤمن / ٦٦) فلله سبحانه حقيقة كل اسم أحسن لا يشاركه غيره إلا بما ملكهم منه كيفما أراد وشاء.

ويؤيد هذا المعنى ظاهر كلامه أينما ذكر أسماءه في القرآن كقوله تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى﴾ (طه / ٨) وقوله: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمان أيا مّا تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ (أسرى / ١١٠). وقوله: ﴿له الأسماء يسبح له ما في السماوات والأرض﴾ (الحشر / ٢٤) فظاهر الآيات جميعاً كون حقيقة كل اسم أحسن لله سبحانه وحده.

وما احتمله بعضهم أنّ اللام في «الأسماء» للعهد مما لا دليل عليه ولا في القرائن الحافة بالآيات ما يؤيده غير ما عهده القائل من الأخبار العادة للأسماء الحسنى، وسيجيء الكلام فيها في البحث الروائي التالي إن شاء الله.

وقوله: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ إمّا من الدعوة بمعنى التسمية كقولنا: دعوته زيداً ودعوتك أبا عبدالله أي سميته وسميتك، وإما من الدعوة بمعنى النداء اي نادوه بها فقولوا: يا رحمان يا رحيم وهكذا. أو من الدعوة بمعنى العبادة أي فاعبدوه مذعنين أنه متصف بما يدل عليه هذه الاسماء من الصفات الحسنة والمعاني الجميلة.

وقد احتملوا جميع هذه المعاني غير أنّ كلامه تعالى في مواضع مختلفة يذكر فيها دعاء الربّ يؤيد هذا المعنى الأخير كما في الآية السابقة : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعو الرحمان أيّاً مّا تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ وقوله : ﴿ وقال ربّكم ادعوني أستجب لكم إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ (المؤمن / ٦٠) حيث ذكر أولاً الدعاء ثم بدله ثانياً من العبادة إيماءً الى اتحادهما . وقوله : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ (الأحقاف / ٦)، وقوله : ﴿ هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ﴾ (المؤمن / ٦٥) يريد إخلاص العبادة .

ويؤيده ذيل الآية : « وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » بظاهره فإنه لو كان المراد بالدعاء التسمية أو النداء دون العبادة لكان الأنسب أن يقال : بما كانوا يصفون كما قال في موضع آخر : ﴿ سيجزيهم وصفهم ﴾ (الأنعام / ١٣٩).

فمعنى الآية ـ والله أعلم ـ ولله جميع الأسماء التي هي أحسن فاعبدوه وتوجهوا إليه بها ، والتسمية والنداء من لواحق العبادة .

قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ الى آخر الآية . اللحد والإلحاد بمعنى واحد وهو التطرف والميل عن الوسط إلى أحد الجانبين . ومنه لحد القبر لكونه في جانبه بخلاف الضريح الذي في الوسط فقرائة يلحدون بفتح الياء من المجرد . ويلحدون بضم الياء من باب الإفعال بمعنى واحد ، ونقل عن بعض اللغويين : أنّ اللحد بمعنى الميل إلى جانب ، والإلحاد بمعنى الجدال والمماراة .

وقوله : ﴿ سَيُجْزَوْنَ ﴾ الآية ؛ بالفصل لأنه بمنزلة الجواب لسؤال مقدر كأنه لما قيل « وذروا الذين يلحدون في أسمائه » قيل : إلىمَ يصير حالهم ؟ فأجيب « سيجزون ما كانوا يعملون » وللبحث في الأسماء الحسنى بقايا ستوافيك في كلام مستقل نورده بعد الفراغ عن

تفسير الآيات إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ قد مر بعض ما يتعلق به من الكلام في قوله تعالى: ﴿ ومن قوم موسى امة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ (الآية / ١٥٩) من السورة وتختص هذه الآية بأنها لوقوعها في سياق تقسيم الناس إلى ضال ومهتد، وبيان أن الملاك في ذلك دعاؤه سبحانه بأحسن الأسماء اللائقة بحضرته والالحاد في أسمائه، تدل على أن النوع الانساني يتضمن طائفة قليلة أو كثيرة مهتدية حقيقة إذ الكلام في الاهتداء والضلال الحقيقيين المستندين إلى صنع الله، ومن يهدي الله فهو المهتدي ومن يضلل فاولئك هم الخاسرون، والاهتداء الحقيقي لا يكون إلا عن هداية حقيقية، وهي التي لله سبحانه، وقد تقدّم في قوله تعالى: ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ (الأنعام / ٨٩)، وغيره أن الهداية الحقيقية الالهية لا تتخلف عن مقتضاها بوجه وتوجب العصمة من الضلال، كما أن الترديد الواقع في قوله تعالى: ﴿ أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي الا أن يهدى ﴾ (يونس / ٣٥). يدل على أن من يهدي إلى الحق يجب أن لا يكون مهتدياً بغيره إلا بالله فافهم ذلك.

وعلى هذا فإسناد الهداية إلى هذه الامة لا يخلو عن الدلالة عن مصونيتهم من الضلال واعتصامهم بالله من الزيغ إما بكون جميع هؤلاء المشار إليهم بقوله: «أُمة يهدون بالحق» متصفين بهذه العصمة والصيانة كالانبياء والأوصياء، وإما بكون بعض هذه الأمّة كذلك وتوصيف الكل بوصف البعض نظير قوله تعالى: ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوّة ﴾ (الجاثية / ١٦)، وقوله: ﴿ وجعلكم ملوكاً ﴾ (المائدة / ٢٠)، وقوله: ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ (البقرة / ١٤٣)، وإنما المتّصف بهذه المزايا بعضهم دون الجميع.

والمراد بالآية ـ والله أعلم ـ إنا لا نأمركم بامر غير واقع أو خارج عن طوق البشر فإنّ ممّن خلقنا أُمة متلبسة بالاهتداء الحقيقي هادين بالحقّ لأن الله كرّمهم بهدايته الخاصّة.

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الاستدراج الاستصعاد أو الاستنزال درجةً فدرجةً، والاستدناء من أمر أو مكان. وقرينة المقام تدل على أن المراد به هنا الاستدناء من الهلاك إما في الدنيا أو في الآخرة.

وتقييد الاستدارج بكونه من حيث لا يعلمون للدلالة على أن هذا التقريب خفي غير ظاهر عليهم بل مستبطن فيما يتلهون فيه من مظاهر الحياة المادية فلا يزالون يقتربون من الهلاك باشتداد مظالمهم فهو تجديد نعمة بعد نعمة حتى يصرفهم التلذذ بها عن التأمل في وبال أمرهم كما مر في قوله تعالى: ﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا ﴾ (الأعراف / ٩٥)، وقال تعالى: ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ (آل عمران / ١٩٧).

ومن وجه آخر لما انقطع هؤلاء عن ذكر ربهم وكذبوا بآياته سلبوا اطمئنان القلوب وأمنها بالتشبث بذيل الأسباب التي من دون الله، وعذبوا باضطراب النفوس وقلق القلوب وقصور الأسباب وتراكم النوائب، وهم يظنون أنها الحياة ناسين معنى حقيقة الحياة السعيدة فلا يزالون يستزيدون من مهلكات زخارف الدنيا فيزدادون عذاباً وهم يحسبونه زيادة في النعمة حتى يردوا عذاب الآخرة وهو أمر وأدهى، فهم يستدرجون في العذاب من لدن تكذيبهم بآيات ربهم حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون.

قال تعالى: ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ (الرعد / ٢٨)، وقال: ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ﴾ (طه / ١٢٤)، وقال: ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ (التوبة / ٥٥)، وهذا معنى آخر من الاستدراج لكن قوله تعالى بعده: «وأملي لهم» لا يلائم ذلك فالمتعين هو المعنى الأول.

قوله تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ الإملاء هو الإمهال، وقوله: «إن كيدي

متين» تعليل لمجموع ما في الآيتين، وفي قوله: «وأُملي» بعد قوله: «سنستدرجهم» الآية؛ التفات من التكلم مع الغير إلى التكلم وحده للدلالة على مزيد العناية بتحريمهم من الرحمة الإلهية وإيرادهم مورد الهلكة.

وأيضاً الإملاء هو إمهالهم إلى أجل مسمى. فيكون في معنى قوله: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم﴾ (الشورى / ١٤). وهذه الكلمة هي قوله لآدم ﷺ حين إهباطه إلى الأرض: ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ (البقرة / ٣٦) وهو القضاء الإلهي والقضاء مختص به تعالى لا يشاركه فيه غيره. وهذا بخلاف الاستدراج الذي هو إيصال النعمة بعد النعمة وتجديدها فإنها نعم إلهية مفاضة بالوسائط من الملائكة والأمر فلهذا السبب جيء في الاستدراج بصيغة المتكلم مع الغير، وغير ذلك في الإملاء وفي الكيد الذي هو أمر متحصل من الاستدراج والإملاء الى لفظ المتكلم وحده.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ في تركيب الكلام اختلاف شديد بينهم، والذي يستبق إلى الذهن من السياق أن يكون قوله «أولم يتفكروا» كلاماً تاماً سيق للإنكار والتوبيخ ثم قوله: «ما بصاحبهم من جنة» الآية كلاماً آخر سيق لبيان صدق النبيّ ﷺ في دعواه النبوّة. وهو يشير إلى ما يتفكرون فيه كأنه قيل: أولم يتفكروا في أنه ما بصاحبهم من جنة الآية؛ حتى يتبين لهم ذلك؟ نعم، ما به من جنة إن هو إلا نذير مبين.

والتعبير عن النبي ﷺ بصاحبهم للإشارة إلى مادة الاستدلال الفكري فإنه ﷺ كان يصحبهم ويصحبونه طول حياته بينهم فلو كان به شيء من جنة لبان لهم ذلك البتة فهو فيما جاء به نذير لا مجنون، والجنة بناء نوع من الجنون على ما قيل وإن كان من الجائز أن يكون المراد به الفرد من الجن بناءً على ما يزعمونه أنّ المجنون يحلّ فيه بعض الجنّ فيتكلم من فيه وبلسانه.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الى آخر الآية؛ قد مر كراراً أنّ الملكوت في عرف القرآن على ما يظهر من قوله تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء﴾ (يس / ٨٣) هو الوجه الباطن من الأشياء الذي يلي جهة الرب تعالى، وأنّ النظر إلى هذا الوجه واليقين متلازمان كما يفهم من قوله: ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾ (الأنعام / ٧٥).

فالمراد توبيخهم في الإعراض والانصراف عن الوجه الملكوتي للأشياء لم نسوه ولم ينظروا فيه حتى يتبين لهم أنّ ما يدعوهم إليه هو الحق؟

وقوله: ﴿وَما خَلَقَ اللّٰهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ عطف على موضع السماوات. وقوله: «من شيء» بيان لما الموصولة. ومعنى الآية: لِمَ لم ينظروا في خلق السماوات والأرض وأي شيء آخر ممّا خلقه الله؟ لكن لا من الوجه الذي يلي الأشياء حتى ينتج العلم بخواص الأشياء الطبيعية بل من جهة أن وجوداتها غير مستقلة بنفسها مرتبطة بغيرها محتاجة الى ربّ يدبر أمرها وأمر كلّ شيء، وهو رب العالمين.

وقوله: ﴿وَأَنْ عَسىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ عطف على قوله: «ملكوت» الآية؛ لكونه في تأويل المفرد والتقدير: أولم ينظروا في أنه عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فإنّ النظر في هذا الاحتمال ربما صرفهم عن التمادي على ضلالهم وغيهم فأغلب ما يصرف الإنسان عن الاشتغال بأمر الآخرة، ويوجه وجهه إلى الاغترار بالدنيا نسيان الموت الذي لا يدري متى يرد رائده، وأما إذا التفت إلى ذلك وشاهد جهله بأجله وأنّ من المرجو المحتمل أن يكون قد اقترب منهم فإنه يقطع منابت الغفلة ويمنعه عن اتباع الهوى وطول الأمل.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ الضمير للقرآن على ما يستدعيه السياق، وفي الكلام إيئاس من إيمانهم بالمرة أي إن لم يؤمنوا بالقرآن وهو تجليه سبحانه عليهم بكلامه

يكلمهم بما يضطر عقولهم بقبوله من الحجج والبراهين والموعظة الحسنة وهو مع ذلك معجزة باهرة فلا يؤمنون بشيء آخر البتة. وقد أخبر سبحانه أنه طبع على قلوبهم فلا سبيل لهم إلى فقه القول والإيمان بالحق. ولذلك عقبه بقوله في الآية التالية: «من يضلل الله فلا هادي له» الآية.

قوله تعالى: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ العمه الحيرة والتردد في الضلال أو عدم معرفة الحجة. وإنما لم يذكر ما يقابله وهو أن من يهدي فلا مضل له لأن الكلام مسوق لتعليل الآية السابقة: «فبأي حديث» الآية؛ كأنه قيل: لمَ لا يؤمنون بحديث البتة؟ فقيل: لأ من يضلل الله الآية[1][2].

١٨٧ ● يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسيها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ.

١٨٨ ● قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَما مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

---

١. الاعراف ١٨٠ ـ ١٨٦: كلام في الإسماء الحسنى في فصول (ما معنى الاسماء الحسنى، ما هو حد ما نصفه أو نسميه به من الاسماء؟ الانقسامات التي لها، نسب الصفات والأسماء إلينا، ما معنى الاسم الاعظم، عدد الاسماء الحسنى. هل اسماء الله توقيفية؟

٢. الاعراف ١٨٠ ـ ١٨٦: بحث روائي في الاسماء الحسنى.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ـ الى قوله ـ إِلَّا هُوَ﴾ الساعة ساعة البعث والرجوع إلى الله لفصل القضاء العام فاللام للعهد لكنه صار في عرف القرآن والشرع كالحقيقة في هذا المعنى.

والمرسى اسم زمان ومكان ومصدر ميمي من أرسيت الشيء إذا أثبته. أي متى وقوعها وثبوتها، والتجلية الكشف والإظهار يقال جلاه فانجلى أي كشف عنه فانكشف.

فقوله: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي لا يظهرها ولا يكشف عنها في وقتها وعند وقوعها إلا الله سبحانه. ويدل ذلك على أن ثبوتها ووجودها والعلم بها واحد أي إنها محفوظة في مكمن الغيب عند الله تعالى يكشف عنها ويظهرها متى شاء من غير أن يحيط بها غيره سبحانه أو يظهر لشيء من الأشياء، وكيف يمكن أن يحيط بها شيء من الأشياء أو ينكشف عنده، وتحققها وظهورها يلازم فناء الأشياء، ولا شيء منها يسعه أن يحيط بفناء نفسه أو يظهر له فناء ذاته. والنظام السببي الحاكم من الكون يتبدل عند وقوعها. وهذا العلم الذي يصحبها من هذا النظام.

ومن هنا يظهر: أن المراد بقوله: «ثقلت في السماوات والأرض» ـ والله أعلم ـ ثقل علمها في السماوات والأرض وهو بعينه ثقل وجودها فلا ثمرة لاختلافهم في أن المراد بثقل الساعة فيها ثقل علمها عليها. أو المراد ثقل صفتها على أهل السماوات والأرض لما فيها من الشدائد والعقاب والحساب والجزاء، أو ثقل وقوعها عليهم لما فيها من انطواء السماء وانتثار الكواكب واجتماع الشمس والقمر وتسيير الجبال. أو أن السماوات والأرض لا تطيق حملها لعظمتها وشدتها.

وذلك أنها ثقيلة بجميع ما يرجع إليها من ثبوتها والعلم بها وصفاتها على السماوات

والأرض، ولا تطيق ظهورها لملازمته فناءها والشيء لا يطيق فناء نفسه.

ومن ذلك يظهر أيضاً وجه قوله سبحانه: «لا تأتيكم ألا بغتة» فإن البغتة والفجأة ظهور الشيء من غير أن يعلم به قبل ظهوره، والساعة لثقلها لا يظهر وصف من أوصافها، ولا جزء من أجزائها قبل ظهورها التام، ولذلك كان ظهورها لجميع الأشياء بغتة.

ومن هنا أيضاً يظهر معنى تتمة الآية: «يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله» الآية؛ على ما سيأتي.

قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ الى آخر الآية؛ قال الراغب: الحفي العالم بالشيء (انتهى) وكأنه مأخوذ من حفيت في السؤال إذا ألححت، وقوله: «كأنك حفي» متخلل بين يسألونك والظرف المتعلق به، والاصل: يسألونك عنها كأنك حفي عالم بها، وهو يلوح الى أنهم كرروا السؤال وألحوا عليه، ولذلك كرر السؤال والجواب بوجه في اللفظ.

ففي قوله ثانياً: «يسألونك كأنك حفي عنها» إشعار أو دلالة على أنهم حسبوا أن جوابه ﷺ بأمر ربه أولاً «إنما علمها عند ربي» من قبيل إحالة علم ما لا يعلمه إلى ربه ـ على ما هو من أدب الدين ـ ولذا قال: «عند ربي» إشعاراً بالعبودية ووظيفتها، وأن قوله «لا يجليها لوقتها إلا هو» وصف لعظمتها من غير أن يرتبط ذلك بالعلم بوقتها، ولذلك كله كرروا السؤال ليقول ﷺ في ذلك شيئاً أو يعترف بجهله لنفسه.

فأمره الله سبحانه أن يعيد الجواب عليهم «إنما علمها عند الله» دالاً به على أن القول جد والجواب فصل، فهو من العلم لا من الجهل، والغرض به إفادة العلم بانحصار علمها فيه تعالى دون الجهل بها، وإحالة علمها إلى ربه عملاً بوظيفة العبودية. ولذا بدل قوله في الجواب الأول «عند ربي» في هذا الجواب الثاني إلى قوله: «عند الله».

ثم قال: «ولكن أكثر الناس لا يعلمون» يشير به إلى جهلهم بمعنى قوله: «إنما علمها عند ربي» الآية فإنهم لا نسهم بالحس والمحسوس يقيسون كل شيء سمعوه إلى المحسوس،

ويعممون حكمه عليه فيظنون أن كل ما وصف لهم بوجه يسع لهم أن يعلموه ويحيطوا به علماً، وأنه لو كان هناك أمر أُخفي عنهم فإنما يخفى بالكتمان، ولو أظهر لهم أحاطوا به علماً كسائر ما عندهم من الامور المحسوسة، وقد أخطأ قياسهم واشتبه عليهم فإن بعض ما في الغيب ومن جملته الساعة لا يطيق علمه إلا الله سبحانه.

وقد ظهر من الآية أن علم الساعة مما لا يطيقه شيء من الأشياء إلا الله سبحانه، وكذا حقيقة ما له من الأوصاف والنعوت فإن الجميع ثقيلة بثقلها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ﴾ إلى آخر الآية لما كان في سؤالهم الغيب عنه ﷺ إيهام أن دعواه النبوة دعوى لعلم الغيب، ولا يعلم الغيب حقيقة غيره تعالى إلا بوحي وتعليم إلهي، أمر نبيه ﷺ أن يتبرء من دعوى العلم بالغيب.

وحقيقة السبب في اختصاص العلم بالغيب به تعالى أن غيره تعالى ايا ما كان محدود الوجود لا سبيل له إلى الخارج منه الغائب عنه من حيث إنه غائب، ولا شيء غير محدود ولا غير متناه محيط بكل شيء إلا الله سبحانه فله العلم بالغيب.

لكن لما كان اولئك السائلون لا يسعهم فهم هذا السبب على ما لهم من الأفهام البسيطة العامية أمره ﷺ أن يكلمهم بما يسعهم فهمه، وهو أن العلم بالغيب يهدي الإنسان الى كل خير وشر والعادة تأبى أن يعلم أحد الخير والشر ويهتدي إلى موقعهما ثم لا يستفيد من ذلك لنفسه فالإنسان اذا لم يستكثر من الخير ولم يوق من الشر كيف يعلم الغيب ؟.

فقوله في صدر الآية: «قل لا أملك لنفسي» الآية وصف لنفسه بما ينافي في نتيجة العلم بالغيب ثم قوله: «ولو كنت أعلم الغيب» الآية بيان نتيجة العلم بالغيب، لينتج من الفصلين عدم علمه بالغيب، ثم قوله: «إن أنا إلا نذير» بيان حقيقة حاله فيما يدعيه من الرسالة من غير أن يكون معها دعوى اخرى.

١٨٩ ❁ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها
لِيَسْكُنَ إِلَيْها فَلَمَّا تَغَشّاها حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ
فَلَمّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللّهَ رَبَّهُما لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ
الشّاكِرِينَ.

١٩٠ ❁ فَلَمّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما فَتَعالَى اللّهُ
عَمّا يُشْرِكُونَ.

١٩١ ❁ أَيُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ.

١٩٢ ❁ وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ.

١٩٣ ❁ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَواءٌ عَلَيْكُمْ
أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ.

١٩٤ ❁ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ فَادْعُوهُمْ
فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ.

١٩٥ ❁ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ
يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ
ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ.

١٩٦ ❁ إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصّالِحِينَ.

١٩٧ ❁ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ
يَنْصُرُونَ.

١٩٨ ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ إلى آخر الآيتين. الكلام في الآيتين جار مجرى المثل المضروب لبني آدم في نقضهم موثقهم الذي واثقوه، وظلمهم بآيات الله.

والمعنى: «هو الذي خلقكم» يا معشر بني آدم «من نفس واحدة» هو أبوكم «وجعل منها» أي من نوعها «زوجها ليسكن» الرجل الذي هو النفس الواحدة «إليها» أي إلى الزوج التي هي أمرأته «فلما تغشاها» والتغشي هو الجماع «حملت حملاً خفيفاً» والمحمول النطفة وهي خفيفة «فمرت به» أي استمرت الزوج بحملها تذهب وتجيء وتقوم وتقعد حتى نمت النطفة في رحمها وصارت جنيناً ثقيلاً أثقلت به الزوج «فلما أثقلت دعوا الله ربهما» وعاهداه وواثقاه «لئن آتيتنا» ورزقتنا ولداً «صالحاً» يصلح للحياة والبقاء بكونه إنساناً سوياً تام الأعضاء غير ذي عاهة وآفة فإن ذلك هو المرجو للولد حين ولادته وبدء نشوئه دون الصلاح الديني «لنكونن من الشاكرين» لك بإظهار نعمتك، والإنقطاع إليك في أمره لا نميل إلى سبب دونك، ولا نتعلق بشيء سواك.

﴿فَلَمَّا آتيهُمَا صالِحاً﴾ كما سألاه وجعله إنساناً سوياً صالحاً للبقاء وقرت به أعينهما ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتيهُمَا﴾ من الولد الصالح حيث بعثتهما المحبة والشفقة عليه أن يتعلقا بكل سبب سواه، ويخضعا لكل شيء دونه مع أنهما كانا قد اشترطا له أن يكونا شاكرين له غير كافرين لنعمته وربوبيته فنقضا عهدهما وشرطهما.

وهكذا عامة الانسان إلا من رحمه الله مهتمون بنقض مواثيقهم وخلف وعدهم، وعدم

الوفاء بعهدهم مع الله «فتعالى الله عما يشركون».

والقصة ـ كما ترى ـ يمكن أن يراد بها بيان حال الأبوين من نوع الإنسان في استيلادهما الولد بالاعتبار العام النوعي فإن كل إنسان فإنه مولود أبويه فالكثرة الإنسانية نتيجة أبوين يولدان ولداً كما في قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل﴾ (الحجرات / ٤٣).

والغالب على حال الأبوين وهما يحبان ولدهما ويشفقان عليه أن ينقطعا طبعاً إلى الله في أمر ولدهما وإن لم يلتفتا الى تفصيل انقطاعهما كما ينقطع راكب البحر إلى الله سبحانه إذا تلاطمت وأخذت أمواجها تلعب به ينقطع إلى ربه وإن لم يعبد رباً قط فإنما هو حال قلبي يضطر الإنسان إليه.

فللأبوين انقطاع إلى ربهما في أمر ولدهما لئن آتيتنا صالحاً نرضاه لنكونن من الشاكرين فلما استجاب لهما وآتاهما صالحاً جعلا له شركاء وتشبثا في حفظه وتربيته بكل سبب، ولا ذا إلى كل كهف.

ويؤيد هذا الوجه قوله في ذيل الآية: «فتعالى الله عما يشركون» فإن المراد بالنفس وزوجها في صدر الكلام لو كان شخصين من الإنسان بعينهما كآدم وحواء مثلاً كان من حق الكلام أن يقال: فتعالى الله عن شركهما أو عما أشركا.

على أنه تعالى يعقب هذه الآية بآيات أُخر يذم فيها الشرك ويوبخ المشركين بما ظاهره أنه الشرك بمعنى عبادة غير الله، وحاشا أن يكون صفي الله آدم يعبد غير الله وقد نص الله سبحانه على أنه اجتباه وهداه، ونص على أن لا سبيل للضلال على من هداه الله وأي ضلال أضل من عبادة غير الله، قال تعالى: ﴿ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ (طه / ١٢٢)، وقال: ﴿ومن يهد الله فهو المهتد﴾ (أسرى / ٩٧)، وقال: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾ (الأحقاف / ٥) وبذلك يظهر أن الضلال والشرك غير منسوب

إلى آدم وإن لم نقل بنبوته أو قلنا بها ولم نقل بعصمة الأنبياء عليهم السلام.

وإن أُريد بالنفس وزوجها في القصة آدم زوجته كان المراد بشركهما المذكور في الآية أنهما اشتغلا بتربية الولد واهتما في أمره بتدبير الأسباب والعوامل، وصرفهما ذلك عن بعض ما لهما من التوجه إلى ربهما والخلوص في ذلك، ومن الدليل عن ذلك قوله تعالى حكاية عنهما: «لنكونن من الشاكرين» وقد تقدم في تفسير أوائل هذه السورة في قوله: ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ (الآية / ١٧) أن الشاكرين في عرف القرآن هم المخلصون ـ بفتح اللام ـ الذين لا سبيل لإبليس عليهم ولا دبيب للغفلة في قلوبهم فالعتاب المتوجه إليهما في قوله «فتعالى الله عما يشركون» إنما هو بالشرك بمعنى الاشتغال عن الله بغيره من الأسباب الكونية يوجه خلاف إخلاص القلب له تعالى.

لكن يبقى عليه إتيان قوله: «فتعالى الله عما يشركون» بصيغة الجمع، وتعقيبه بما ظاهره أنه الشرك بمعنى عبادة غير الله.

وربما دفعه بعضهم بأن الآية في التخصيص أولاً والتعميم ثانياً عكس قوله تعالى: ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة﴾ (يونس / ٢٢) حيث خاطب أولاً عامتهم بالتسيير ثم خص الكلام براكبي الفلك منهم خاصة. والآية التي نحن فيها تخص أول القصة بآدم وزوجته فهما المعنيان بقوله: «هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها» ثم انقضى حديث آدم وزوجته، وخص بالذكر المشركون من بني آدم الذين سألوا ما سألوا، وجعلوا له شركاء فيما آتاهم أي إن كل اثنين منهم يولدان ولداً هذا حالهما من العهد ثم النقض.

وفيه أن قوله: «هو الذي يسيركم» الآية؛ محفوف بقرينة قطعية تدل على المراد وتزيل اللبس بخلاف التدرج من الخصوص إلى العموم في هذه الآية فإنه موقع في اللبس لا يصار إليه في الكلام البليغ، اللهم إلا أن يجعل قوله: «فتعالى الله عما يشركون» إلى آخر الآيات قرينة

على ذلك.

وكيف كان فهذا الوجه كالمأخوذ من الوجهين الأولين بحمل صدر الآية على الوجه الثاني وذيلها على الوجه الأول.

وربما دفع الإعتراض السابق بأن في الكلام حذفاً وإيصالاً والتقدير: «فما آتاهما أي آدم وحواء صالحاً جعل أولادهما له شركاء» فحذف المضاف وهو الأولاد، وأُقيم المضاف إليه وهو ضمير التثنية المدلول عليه في قوله: «جعلا مقامه». وفيه أنه لا دليل عليه.

وربما التزم بعض المفسرين الإشكال، وتسلم أن المراد بهما آدم وزوجته، وأنهما أشركا بالله عملاً بروايات وردت في القصة عن بعضهم، وهي موضوعة أو مدسوسة مخالفة للكتاب لا سبيل إلى الأخذ بأمثالها.

قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث. صدر الآيات وإن احتمل أن يكون المراد الشرك بالأصنام أو بسائر الأسباب غير الله، التي الاعتماد عليها نوع من الشرك لكن ذيلها ظاهر في أن المراد هو الشرك بالأصنام المتخذة آلهة وهي جماد لا يستطيع نصر من يعبدها ولا نصر أنفسها، ولا يشعر بشيء من الدعاء وعدمه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ـ إلى قوله ـ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ احتجاج على مضمون الآيات الثلاث السابقة، والمعنى إنما قلنا إنهم مخلوقون لا يقدرون على شيء لأنهم عباد أمثالكم فكما أنكم مخلوقون مدبرون كذلك هم.

والحجة عليه أنهم لا يستجيبون لكم إن دعوتموهم فادعوهم إن كنتم صادقين في دعواكم أن لهم علماً وقدرة وإنما نسب إليهم دعوى كونهم ذوي علم وقدرة لما في دعوتهم من الدلالة على ذلك ـ وكيف يستجيبون لكم؟ وليست ما عبأتم لهم من الأرجل والأيدي ماشية وباطشة، ولا ما صورتم لهم من الأعين والآذان مبصرة وسامعة لأنهم جمادات.

وفي الآيات إطلاق العباد على الجمادات.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ﴾ إلى آخر الآيات ثم أمره ﷺ أن يكر عليهم على انتصارهم بأربابهم وآلهتهم بالتحدي والإعجاز ليستبين سبيله من سبيلهم. ويظهر أن ربه هو الله الذي له كل العلم والقدرة، وأن أربابهم لا يملكون علماً ليهتدوا به إلى شيء ولا قدرة لينصر وهم في شيء.

فقال: قل لهم ادعوا شركاءكم لنصركم علي ثم كيدوني فلا تنظروني ولا تمهلوني إن ربي ينصرني ويدفع عني كيدكم فإنه الذي نزل الكتاب ليهدي به الناس، وهو يتولى الصالحين من عباده فينصرهم. وهو القائل: إن الأرض يرثها عبادي الصالحون وأنا من الصالحين فينصرني ولا محالة، وأما أربابكم الذين تدعون من دونه فلا يستطيعون نصركم ولا نصر أنفسهم ولا يسمعون ولا يبصرون فلا قدرة لهم ولا علم.

وفي الآيات أمر النبي ﷺ أن يخبرهم أنه من الصالحين ولم يعهد فيما يخبر به القرآن من صلاح الأنبياء مثل ذلك في غيره ﷺ.

وفيها التحدي على الأصنام وعبدتهم كما تحدى بذلك غيره من الأنبياء ﵈.

١٩٩ ● خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ.

٢٠٠ ● وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

٢٠١ ● إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ.

٢٠٢ ● وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ.

٢٠٣ ● وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ

إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هٰذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

٢٠٤ ● وَإِذا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ.

٢٠٥ ● وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الغافِلِينَ.

٢٠٦ ● إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ﴾ الأخذ بالشيء هو لزومه أو عدم تركه فأخذ العفو ملازمة الستر على إساءة من أساء إليه، والإغماض عن حق الانتقام الذي يعطيه العقل الاجتماعي لبعضهم على بعض. هذا بالنسبة إلى إساءة الغير بالنسبة إلى نفسه والتضييع لحق شخصه، وأما ما أُضيع فيه حق الغير بالإساءة إليه فليس مما يسوغ العفو فيه لأنه إغراء بالإثم وتضييع لحق الغير بنحو أشد، وإبطال للنواميس الحافظة للاجتماع، ويمنع عنه جميع الآيات الناهية عن الظلم والافساد وإعانة الظالمين والركون إليهم بل جميع الآيات المعطية لأُصول الشرائع والقوانين، وهو ظاهر.

فالمراد بقوله: «خذ العفو» هو الستر بالعفو فيما يرجع إلى شخصه ﷺ، وعلى ذلك كان يسير فقد تقدم في بعض الروايات المتقدمة في أدبه ﷺ: أنه لم ينتقم من أحد لنفسه قط.

هذا على ما ذكره القوم أن المراد بالعفو ما يساوق المغفرة، وفي بعض الروايات الآتية عن الصادق عليه السلام أن المراد به الوسط وهو أنسب بالآية وأجمع للمعنى من غير شائبة التكرار الذي يلزم من قوله: «وأعرض عن الجاهلين» على التفسير الأول.

وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ والعرف هو ما يعرفه عقلاء المجتمع من السنن والسير الجميلة الجارية بينهم بخلاف ما ينكره المجتمع وينكره العقل الاجتماعي من الأعمال النادرة الشاذة، ومن المعلوم أن لازم الأمر بمتابعة العرف أن يكون نفس الآمر مؤتمراً بما يأمر به من المتابعة، ومن ذلك أن يكون نفس أمره بنحو معروف غير منكر فمقتضى قوله: «وأمر بالعرف» أن يأمر بكل معروف، وأن لا يكون نفس الأمر بالمعروف على وجه منكر.

وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أمر آخر بالمداراة معهم، وهو أقرب طريق وأجمله لإبطال نتائج جهلهم وتقليل فساد أعمالهم فإن في مقابلة الجاهل بما يعادل جهله إغراء له بالجهل والإدامة على الغي والضلال.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قال الراغب في المفردات: النزغ دخول في أمر لأجل إفساده، قال: من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي. انتهى، وقيل: هو الازعاج والإغراء وأكثر ما يكون حال الغضب، وقيل: هو من الشيطان أدنى الوسوسة، والمعاني متقاربة، وأقربها من الآية هو الأوسط لمناسبته الآية السابقة الآمرة بالإعراض عن الجاهلين فإن مماستهم الإنسان بالجهالة نوع مداخلة من الشيطان لإثارة الغضب، وسوقه إلى جهالة مثله.

فيرجع معنى الآية إلى أنه لو نزغ الشيطان بأعمالهم المبنية على الجهالة وإساءتهم إليك ليسوقك بذلك إلى الغضب والانتقام فاستعذ بالله إنه سميع عليم، والآية مع ذلك عامة خوطب بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقصد بها أمته لعصمته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ

مُبْصِرُونَ ﴾ نحو تعليل للأمر في الآية السابقة والطائف من الشيطان هو الذي يطوف حول القلب ليلقي إليه الوسوسة أو وسوسته التي تطوف حول القلب لتقع فيه وتستقر عليه. و« من » بيانية على الأول، ونشوئية على الثاني. ومآل المعنيين مع ذلك واحد. والتذكر تفكر من الانسان في أمور لتهديه الى نتيجة مغفول عنها أو مجهولة قبله.

والآية بمنزلة التعليل للأمر بالاستعاذة في الآية السابقة، والمعنى استعذ بالله عند نزغة الشيطان فإن هذا طريق المتقين فهم إذا مسهم طائف من الشيطان. تذكروا أن الله هو ربهم الذي يملكهم ويربيهم يرجع إليه أمرهم فأرجعوا إليه الأمر فكفاهم مؤنته، ودفع عنهم كيده، ورفع عنهم حجاب الغفلة فإذا هم مبصرون غير مضروب على أبصارهم بحجاب الغفلة.

فالآية ـ كما عرفت ـ في معنى قوله: ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ (النحل / ٩٩).

وقد ظهر أيضاً أن الاستعاذة بالله نوع من التذكر لأنها مبنية على أن الله سبحانه وهو ربه هو الركن الوحيد الذي يدفع هذا العدو المهاجم بماله من قوة، وأيضاً الاستعاذة نوع من التوكل كما مر.

قوله تعالى: ﴿ وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ ﴾ كأن الجملة حالية، والمراد بإخوانهم إخوان المشركين وهم الشياطين كما وقع قوله: ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ (الإسراء / ٢٧) والإقصار الكف والانتهاء.

والمعنى: أن الذين اتقوا على هذا الحال من التذكر والابصار والحال أن إخوان المشركين من الشياطين يمدون المشركين في غيهم ويعينونهم ثم لا يكفون عن مدهم وإعانتهم، أو لا يكف المشركون ولا ينتهون عن غيهم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَها ﴾ إلى آخر الآية: الإجتباء افتعال من الجباية، وقولهم: « لولا أجتبيتها » كلام منهم جار مجرى التهكم والسخرية والمعنى

على ما يعطيه السياق: أنك إذا آتيتهم بآية كذبوا بها وإذا لم تأتهم بآية كما لو أبطأت فيها قالوا: لولا اجتبيت ما تسميه آية وجمعتها من هنا وهناك فأتيت بها «قل» ليس لي من الأمر شيء «وإنما اتبع ما يوحي إلى من ربي هذا» القرآن «بصائر من ربكم» يريد أن يبصركم بها «وهدى ورحمة لقوم يؤمنون».

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الإنصات السكوت مع استماع، وقيل: هو الاستماع مع سكوت يقال: أنصت الحديث وأنصت له أي استماع، وقيل: هو الاستماع مع سكوت يقال: أنصت الحديث وأنصت له أي استمع ساكتاً، وأنصته غيره وأنصت الرجل أي سكت: فالمعنى: استمعوا للقرآن واسكتوا.

والآية بحسب دلالتها عامة وإن قيل: أنها نزلت في الصلاة جماعة.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ إلى آخر الآية. قسم الذكر إلا ما في النفس ودون الجهر من القول: ثم أمر بالقسمين، وأما الجهر من القول في الذكر فضرب عنه لا لأنه ليس ذكراً بل لمنافاته لأدب العبودية ويدل على ذلك ما ورد أن النبي ﷺ سار بأصحابه في بعض غزواته فدخلوا وادياً موحشاً والليل داج فكان ينادي بعض أصحابه بالتكبير فنهاه النبي ﷺ وقال: إنكم لا تدعون غائباً بعيداً[1].

والتضرع من الضراعة وهو التملق بنوع من الخشوع والخضوع، والخيفة بناء نوع من الخوف، والمراد به نوع من الخوف يناسب ساحة قدسه تعالى ففي التضرع معنى الميل إلى المتضرع إليه والرغبة فيه والتقرب منه، وفي الخيفة معنى اتقائه والرهبة والتبعد عنه، فمقتضى توصيف الذكر بكونه عن تضرع وخيفة أن يكون بحركة باطنية إليه ومنه كالذي يحب شيئاً

---

١. الرواية منقولة بالمعنى.

ويهابه فيدنو منه لحبه ويتعبد عنه لمهابته، والله سبحانه وإن كان محض الخير لا شر فيه، وإنما الشر الذي يمسنا هو من قبلنا لكنه تعالى ذو الجلال والإكرام له أسماء الجمال التي تدعوا إليه وتجذب نحوه كل شيء.

وله أسماء الجلال التي تقهر وتدفع عنه كل شيء فحق ذكره وهو الله له الأسماء الحسنى كلها أن يكون على ما يقتضيه مجموع أسمائه الجمالية والجلالية، وهو أن يذكر تعالى تضرعاً وخيفة، ورغباً ورهباً.

وقوله: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالآصالِ﴾ ظاهره أنه قيد لقوله: «ودون الجهر من القول» فيكون الذكر القولي هو الموزع إلى الغدو والآصال، وينطبق على بعض الفرائض اليومية.

وقوله: ﴿وَلا تَكُنْ مِنَ الغافِلِينَ﴾ تأكيد للأمر بالذكر في أول الآية ولم ينه تعالى عن أصل الغفلة، وإنما نهى عن الدخول في زمرة الغافلين، وهم الموصوفون بالغفلة الذين استقرت فيهم هذه الصفة.

ويتبين بذلك أن الذكر المطلوب المأمور به هو أن يكون الإنسان على ذكر من ربه حيناً بعد حين، ويبادر إليه لو عرضت له غفلة منسية، ولا يدع الغفلة تستقر في نفسه، وفي الآية التالية: دلالة على ذلك على ما سيجيء.

فمحصل الآية: الأمر بالاستمرار على ذكر الله في النفس تضرعاً وخيفة حيناً بعد حين، وذكره بالقول دون الجهر بالغدو والآصال.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ظاهر السياق أنه في موضع التعليل للأمر الواقع في الآية السابقة فيكون المعنى: اذكر ربك كذا وكذا فإن الذين عند ربك كذلك أي اذكر ربك كذا لتكون من الذين عند ربك ولا تخرج من زمرتهم.

ويتبين بذلك أن المراد بقوله: «الذين عند ربك» ليس هم الملائكة فقط ـ على ما فسره

كثير من المفسرين ـ اذ لا معنى لقولنا : اذكر ربك كذا لأن الملائكة يذكرونه كذلك بل مطلق المقربين عنده تعالى على ما يفيده لفظ «عند ربك» من الحضور من غير غيبة.

ويظهر من الآية أن القرب من الله إنما هو بذكره، فبه يرتفع الحجاب بينه وبين عبده، وإلا فجميع الأشياء متساوية في النسبة إليه من غير اختلاف بينها بقرب أو بعد أو غير ذلك.

وقوله : «لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون» فيه امور ثلاثة يتصف بها الذكر النفسي كما يتصف بها الذكر القولي فإن للنفس أن تتصف بحال عدم الاستكبار، وبحال تنزيهه تعالى، وبحال السجدة وكمال الخشوع له كما يتصف بها الذكر القولي ويعنون بها العمل الخارجي، فليس التسبيح والسجود مما يختص بالأعضاء من لسان وغيره كما يدل عليه قوله : ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ (أسرى / ٤٤)، وقوله : ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ (الرحمن / ٦)، وقوله : ﴿ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض﴾ (النحل / ٤٩).

وما في الآية توصيف القوم بعدم الاستكبار والتسبيح والسجود أخف وأهون مما يشتمل عليه قوله تعالى : ﴿ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ (الأنبياء / ٢٠) وقوله : ﴿فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون﴾ (حم السجدة / ٣٨) فإن هذه الآيات ظاهرها الاستمرار الذي لا يتخلله عدم، ولا يتوسطه مناف. والآية التي نبحث عنها لم يأمر إلا بما لا تثبت معه الغفلة في النفس كما عرفت.

فهذه الآية تأمر بمرتبة من الذكر هي دون ما تتضمنه آيات سورتي الأنبياء وحم السجدة والله العالم[1].

---

١. الاعراف ١٩٩ـ٢٠٦ : بحث روائي في : مكارم الاخلاق : الانصات للقرآن.

سورة الأنفال مدنية وهي خمس وسبعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنْفَالِ قُلِ ٱلْأَنْفَالُ لِلّٰهِ وَٱلرَّسُولِ فَاتَّقُوا ٱللّٰهَ
وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا ٱللّٰهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ.

٢ ● إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذا ذُكِرَ ٱللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ
عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ.

٣ ● الَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلٰوةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ.

٤ ● أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ.

٥ ● كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
لَكَارِهُونَ.

٦ ● يُجَادِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ كَأَنَّما يُسَاقُونَ إِلى

ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الى آخر الآية: الأنفال جمع نفل بالفتح وهو الزيادة على الشيء، ولذا يطلق النفل والنافلة على التطوّع لزيادته على الفريضة، وتطلق الأنفال على ما يسمّى فيئاً أيضاً وهي الأشياء من الأموال التي لا مالك لها من الناس كرؤوس الجبال، وبطون الأودية، والديار الخربة، والقرى التي باد أهلها، وتركة من لا وارث له، وغير ذلك كأنها زيادة على ما ملكه الناس فلم يملكها أحد وهي لله ولرسوله، وتطلق على غنائم الحرب كأنها زيادة على ما قصد منها فإن المقصود بالحرب والغزوة الظفر على الأعداء واستئصالهم فاذا غلبوا وظفر بهم فقد حصل المقصود، والأموال التي غنمه المقاتلون والقوم الذين أسروهم زيادة على أصل الغرض.

و «ذات» في الأصل مؤنّث «ذا» بمعنى الصاحب من الألفاظ اللازمة الإضافة غير أنه كثر استعماله في نفس الشيء بمعنى ما به الشيء هو هو فيقال: ذات الإنسان أي ما به الإنسان إنسان، وذات زيد أي النفس الإنسانية الخاصة التي سمّيت بزيد، وكأن الأصل فيها النفس ذات أعمال كذا ثم أُفردت بالذكر فقيل ذات الأعمال أو ما يؤدّي مؤدّاه ثم قيل ذات، وكذلك الأمر في ذات البين فلكون الخصومة لا تتحقق إلّا بين طرفين نسب إليها البين فقيل ذات البين أي الحالة والرابطة السيئة التي هي صاحبة البين فالمراد بقوله: أصلحوا ذات بينكم أي أصلحوا الحالة الفاسدة والرابطة السيئة التي بينكم.

وقال الراغب في المفردات: «ذو» على وجهين: أحدهما يتوصل به الى الوصف بأسماء الأجناس والأنواع، ويضاف الى الظاهر دون المضمر، ويثنى ويجمع، ويقال في التثنية: ذواتا، وفي الجمع: ذوات، ولا يستعمل شيء منها إلّا مضافاً.

قال: وقد استعار أصحاب المعاني الذات فجعلوه عبارة عن عين الشيء جوهراً كان أو عرضاً، واستعملوها مفردة ومضافة الى المضمر وبالألف واللام، وأجروها مجرى النفس والخاصة فقالوا: ذاته ونفسه وخاصته. وليس ذلك من كلام العرب. والثاني في لفظ ذو لغة لطيّيء يستعملونه استعمال «الذي» ويجعل في الرفع والنصب والجرّ والجمع والتأنيث على لفظ واحد نحو:

وبئري ذو حفرت وذو طويت

أي التي حفرت والتي طويت. انتهى.

والذي ذكره من عدم إضافته الى الضمير منقول عن الفرّاء، ولازمه كون استعماله مضافاً الى الضمير من كلام المولّدين والحق أنه قليل لا متروك، وقد وقع في كلام عليّ عليه السلام في بعض خطبه كما في نهج البلاغة.

وقد اختلف المفسرون في معنى الآية وموقعها اختلافاً شديداً من جهات: من جهة معنى قوله: «يسألونك عن الأنفال» وقد نسب الى أهل البيت عليهم السلام وبعض آخر كعبد الله بن مسعود وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن مصرف أنهم قرأوا «يسألونك الأنفال» فقيل: عن زائدة في القراءة المشهورة، وقيل: بل مقدّرة في القراءة الشاذة، وقيل: إن المراد بالأنفال غنائم الحرب. وقيل: غنائم غزوة بدر خاصة بجعل اللام في الأنفال للعهد، وقيل: الفيء الذي لله والرسول والإمام، وقيل: إن الآية منسوخة بآية الخمس، وقيل: بل محكمة. وقد طالت المشاجرة بينهم كما يعلم بالرجوع الى مطوّلات التفاسير كتفسيري الرازي والآلوسي وغيرهما.

والذي ينبغي أن يقال بالاستمداد من السياق: أن الآية بسياقها تدل على أنه كان بين هؤلاء المشار إليهم بقوله: «يسألونك» تخاصم خاصم به بعضهم بعضاً بأخذ كل جانباً من القول لا يرضى به خصمه. والتفريع الذي في قوله: «فاتّقوا الله وأصلحوا ذات بينكم» يدل

على أن الخصومة كانت في أمر الأنفال، ولازم ذلك أن يكون السؤال الواقع منهم المحكيّ في صدر الآية إنما وقع لقطع الخصومة. كأنهم تخاصموا في أمر الأنفال ثم راجعوا رسول الله ﷺ يسألونه عن حكمها لتنقطع بما يجيبه الخصومة وترتفع عما بينهم.

وهذا - كما ترى - يؤيد أولاً القراءة المشهورة: «يسألونك عن الأنفال» فإن السؤال اذا تعدى بعن كان بمعنى استعلام الحكم والخبر. وأما اذا استعمل متعدياً بنفسه كان بمعنى الاستعطاف ولا يناسب المقام إلّا المعنى الأول.

وثانياً: أن الأنفال بحسب المفهوم وإن كان يعم الغنيمة والفيء جميعاً إلّا ان مورد الآية هي الأنفال بمعنى غنائم الحرب لا غنائم غزوة بدر خاصة اذ لا وجه للتخصيص فإنهم اذ تخاصموا في غنائم بدر لم يتخاصموا فيها لأنها غنائم بدر خاصة بل لأنها غنائم مأخوذة من أعداء الدين في جهاد ديني. وهو ظاهر.

واختصاص الآية بحسب موردها بغنيمة الحرب لا يوجب تخصيص الحكم الوارد فيها بالمورد. فان المورد لا يخصص. فإطلاق حكم الآية بالنسبة الى كل ما يسمى بالنفل في محله، وهي تدل على ان الأنفال جميعاً لله ولرسوله لا يشارك الله ورسوله فيها أحد من المؤمنين سواء في ذلك الغنيمة والفيء.

ثم الظاهر من قوله: «قل الأنفال لله والرسول» وما يعظهم الله به بعد هذه الجملة ويحرضهم على الايمان هو ان الله سبحانه فصل الخصومة بتشريع ملكها لنفسه ولرسوله، ونزعها من ايديهم وهو يستدعي أن يكون تخاصمهم من جهة دعوى طائفة منهم ان الأنفال لها خاصة دون غيرها. او انها تختص بشيء منها. وإنكال الطائفة الاخرى ذلك. ففصل الله سبحانه خصومتهم فيها بسلب ملكهم منها وإثبات ملك نفسه ورسوله. وموعظتهم ان يكفّوا عن المخاصمة والمشاجرة. وأما قول من يقول: ان الغزاة يملكون ما اخذوه من الغنيمة بالاجماع فأحرى به ان يورد في الفقه دون التفسير.

وبالجملة فنزاعهم في الأنفال يكشف عن سابق عهد لهم بأن الغنيمة لهم او ما في معناه غير انه كان حكماً مجملاً اختلف فيه المتخاصمان وكل يجر النار الى قرصته، والآيات الكريمة تؤيد ذلك.

توضيحه: ان ارتباط الآيات في السورة والتصريح بقصة وقعة بدر فيها يكشف ان السورة بأجمعها نزلت حول وقعة بدر وبُعيدها حتى ان ابن عباس ـ على ما نقل عنه ـ كان يسميها سورة بدر. والتي تتعرض لأمر الغنيمة من آياتها خمس آيات في مواضع ثلاثة من السورة هي بحسب ترتيب السورة. قوله تعالى: «يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول» الآية؛ وقوله تعالى: ﴿واعلموا ان ما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير﴾. وقوله تعالى: ﴿ما كان لنبي ان يكون له اسرى حتى يثخن فى الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما اخذتم عذاب عظيم فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله ان الله غفور رحيم﴾.

وسياق الآية الثانية يفيد انها نزلت بعد الآية الاولى والآيات الاخيرة جميعاً لمكان قوله فيها: ﴿ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان﴾ فهي نازلة بعد الوقعة بزمان.

ثم الآيات الاخيرة تدل على انهم كلموا رسول الله ﷺ في امر الاسرى وسألوه ان لا يقتلهم ويأخذ الفدية، وفيها عتابهم على ذلك، ثم تجويز ان يأكلوا مما غنموا وكأنهم فهموا من ذلك انهم يملكون الغنائم والأنفال على إبهام في امره: هل يملكه جميع من حضر الوقعة او بعضهم كالمقاتلين دون القاعدين مثلاً؟ وهل يملكون ذلك بالسوية فيقسّم بينهم كذلك أو يختلفون فيه بالزيادة والنقيصة كأن يكون سهم الفرسان منها ازيد من المشاة؟ او نحو ذلك.

وكان ذلك سبب التخاصم بينهم فتشاجروا في الامر، ورفعوا ذلك الى رسول الله ﷺ فنزلت الآية الاولى: «قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم» الآية: فخطأتهم الآية فيما زعموا انهم مالكوا الانفال بما استفادوا من قوله: «فكلوا مما غنمتم» الآية؛ وأقرت ملك الأنفال لله والرسول ونهتهم عن التخاصم والتشاجر. فلما انقطع بذلك تخاصمهم ارجعها النبي ﷺ اليهم، وقسّمها بينهم بالسوية، وعزل السهم لعدة من اصحابه لم يحضروا الوقعة، ولم يقدم مقاتلاً على قاعد، ولا فارساً على ماش. ثم نزلت الآية الثانية: ﴿ واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه ﴾ الآية: بعد حين فأخرج النبي ﷺ مما ردّ اليهم من السهام الخمس وبقي لهم الباقي. هذا ما يتحصل من انضمام الآيات المربوطة بالأنفال بعضها ببعض.

فقوله تعالى: «يسألونك عن الأنفال» يفيد بما ينضم اليه من قرائن السياق انهم سألوا النبي ﷺ عن حكم غنائم الحرب بعدما زعموا انهم يملكون الغنيمة، واختلفوا فيمن يملكها، او في كيفية ملكها وانقسامها بينهم، او فيهما معاً، وتخاصموا في ذلك.

وقوله: «قل الأنفال لله والرسول» جواب عن مسألتهم وفيه بيان انهم لا يملكونها وإنما هي أنفال يملكها الله ورسوله، فيوضع حيثما اراد الله ورسوله، وقد قطع ذلك اصل ما نشب بينهم من الاختلاف والتخاصم.

ويظهر من هذا البيان ان الآية غير ناسخة لقوله تعالى: ﴿ فكلوا مما غنمتم ﴾ الى آخر الآية: وإنما تبيّن معناها بالتفسير، وان قوله: «كلوا» ليس بكناية عن ملكهم للغنيمة بحسب الأصل، وإنما المراد هو التصرف فيها والتمتع منها إلّا ان يمتلكوا بقسمة النبي ﷺ إياها بينهم.

ويظهر ايضاً ان قوله تعالى: ﴿ واعلموا ان ما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى ﴾ الآية: ليس بناسخ لقوله: «قل الأنفال لله والرسول» الآية: فإن قوله: ﴿ واعلموا ان ما غنمتم ﴾ الآية: إنما يؤثر بالنسبة الى المجاهدين منعهم عن اكل تمام الغنيمة والتصرف فيه

اذ لم يكن لهم بعد نزول قوله: «الأنفال لله والرسول» إلّا ذلك. وأما قوله «الأنفال لله والرسول» فلا يفيد إلّا كون أصل ملكها لله والرسول من دون ان يتعرض لكيفية التصرف وجواز الأكل والتمتع. فلا يناقضه في ذلك قوله: ﴿واعلموا ان ما غنمتم﴾ الآية؛ حتى يكون بالنسبة إليه ناسخاً. فيتحصل من مجموع الآيات الثلاث: ان اصل الملك في الغنيمة لله والرسول ثم يرجع اربعة أخماسها الى المجاهدين يأكلونها ويمتلكونها ويرجع خمس منها الى الله والرسول وذي القربى وغيرهم لهم التصرف فيها والاختصاص بها.

ويظهر بالتأمل في البيان السابق أيضاً: ان في التعبير عن الغنائم بالأنفال وهو جمع نفل بمعنى الزيادة إشارة الى تعليل الحكم بموضوعه الأعم، كأنه قيل: يسألونك عن الغنائم وهي زيادات لا مالك لها من بين الناس، واذا كان كذلك فأجبهم بحكم الزيادات والأنفال، وقل: الأنفال لله والرسول. ولازم ذلك كون الغنيمة لله والرسول.

وبذلك ربما تأيد كون اللام في لفظ الانفال الاول للعهد وفي الثاني للجنس او الاستغراق، وتبين وجه الإظهار في قوله: «قل الانفال» الآية؛ حيث لم يقل: قل هي لله والرسول.

ويظهر بذلك أيضاً: ان قوله: «قل الانفال لله والرسول» حكم عام يشمل بعمومه الغنيمة وسائر الاموال الزائدة في المجتمع نظير الديار الخالية والقرى البائدة ورؤوس الجبال وبطون الاودية وقطائع الملوك وتركة من لا وارث له، أما الأنفال بمعنى الغنائم فهي متعلقة بالمقاتلين من المسلمين بعمل النبي ﷺ، وبقي الباقي تحت ملك الله ورسوله.

هذا ما يفيده التأمل في كرائم الآيات، وللمفسرين فيها اقاويل مختلفة تعلم بالرجوع الى مطولات التفاسير لا جدوى في نقلها والتعرض المنقض والإبرام فيها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الى آخر الآيتين؛ الآيتان والتي بعدهما بيان ما يتميز به المؤمنون بحقيقة الايمان ويختصون به من الاوصاف الكريمة والثواب الجزيل بيّنت ليتأكد به ما يشتمل عليه قوله تعالى: «فاتقوا الله

واصلحوا ذات بينكم » الى آخر الآية.

وقد ذكر الله تعالى لهم خمس صفات اختارها من بين جميع صفاتهم التي ذكرها في كلامه لكونها مستلزمة لكرائم صفاتهم على كثرتها وملازمة لحق الايمان. وهي بحيث اذا تنبهوا لها وتأملوها كان ذلك مما يسهّل لهم توطين النفس على التقوى وإصلاح ذات بينهم، وإطاعة الله ورسوله.

وهاتيك الصفات الخمس هي: وجل القلب عند ذكر الله، وزيادة الايمان عند استماع آيات الله، والتوكل، وإقامة الصلاة، والانفاق مما رزقهم الله، ومعلوم ان الصفات الثلاث الاول من اعمال القلوب، والأخيرتان من اعمال الجوارح.

وقد روعي في ذكرها الترتيب الذي بينها بحسب الطبع، فإن نور الايمان إنما يشرق على القلب تدريجاً، فلا يزال يشتد ويضاعف حتى يتم ويكمل بحقيقته، فأول ما يشرق يتأثر القلب بالوجل والخشية اذا تذكّر بالله عند ذكره، وهو قوله تعالى: «إنما المؤمنون الذين اذا ذُكر الله وجلت قلوبهم».

ثم لا يزال ينبسط الايمان ويتعرَّق وينمو ويتفرع بالسير في الآيات الدالة عليه تعالى، والهادية الى المعارف الحقة، فكلما تأمّل المؤمن في شيء منها زادته ايماناً، فيقوى الايمان ويشتد حتى يستقر في مرحلة اليقين، وهو قوله تعالى: «واذا تُليت عليهم آياته زادتهم ايماناً».

واذا زاد الايمان وكمل كمالاً عرف عندئذ مقام ربه وموقع نفسه، معرفة تطابق واقع الأمر، وهو أن الأمر كله الى الله سبحانه فإنه تعالى وحده هو الرب الذي إليه يرجع كل شيء، فالواجب الحق على الإنسان ان يتوكل عليه ويتبع ما يريده منه بأخذه وكيلاً في جميع ما يهمه في حياته، فيرضى بما يقدر له في مسير الحياة، ويجري على ما يحكم عليه من الأحكام ويشرّعه من الشرائع فليأتمر بأوامره وينتهي عن نواهيه، وهو قوله تعالى: «وعلى ربهم

يتوكلون».

ثم اذا استقر الايمان على كماله في القلب، استوجب ذلك أن ينعطف العبد بالعبودية الى ربه، وينصب نفسه في مقام العبودية وإخلاص الخضوع وهو الصلاة، وهي أمر بينه وبين ربه، وأن يقوم بحاجة المجتمع في نواقص مساعيهم بالإنفاق على الفقراء مما رزقه الله من مال أو علم أو غير ذلك، وهو أمر بينه وبين سائر أفراد مجتمعه، وهو قوله تعالى: «الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون».

وقد ظهر مما تقدم أن قوله تعالى: «زادتهم إيماناً» إشارة الى الزيادة من حيث الكيفية وهو الاشتداد والكمال، دون الكمية وهي الزيادة من حيث عدد المؤمنين كما احتمله بعض المفسرين.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ قضاء منه تعالى بثبوت الايمان حقاً فيمن اتّصف بما عدّه تعالى من الصفات الخمس، ولذلك أُطلق ما ذكره لهم من كريم الأجر في قوله: «لهم درجات عند ربهم» الآية؛ فلهؤلاء من صفات الكمال وكريم الثواب وعظيم الأجر ما لكل مؤمن حقيقي.

وأما قوله: «لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم» فالمغفرة هي الصفح الإلهي عن ذنوبهم، والرزق الكريم ما يرتزقون به من نعم الجنة، وقد أراد الله سبحانه بالرزق الكريم الجنة ونعمها في مواضع من كلامه، كقوله تعالى: ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم والذين سعوا في آياتنا معاجزين اولئك أصحاب الجحيم﴾ (الحج / ٥١) وغير ذلك.

وبذلك يظهر أن المراد بقوله: «لهم درجات عند ربهم» مراتب القرب والزلفى ودرجات الكرامة المعنوية، وهو كذلك. فإن المغفرة والجنة من آثار مراتب القرب من الله سبحانه وفروعه البتة.

والذي يشتمل عليه الآية من إثبات الدرجات لهؤلاء المؤمنين، هو ثبوت جميع الدرجات لجميعهم، لا ثبوت جميعها لكل واحد منهم فإنها من لوازم الإيمان، والإيمان مختلف ذو مراتب فالدرجات الموهوبة بإزائه كذلك لا محالة. فمن المؤمنين من له درجة واحدة، ومنهم ذو الدرجتين، ومنهم ذو الدرجات على اختلاف مراتبهم في الإيمان.

ويؤيده قوله تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أُتوا العلم درجات﴾ (المجادلة / ١١)، وقوله تعالى: ﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير، هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون﴾ (آل عمران / ١٦٣).

وبما تقدم يظهر أن تفسير بعضهم ما في الآية من الدرجات بدرجات الجنة، ليس على ما ينبغي، وان المتعين كون المراد بها درجات القرب؛ كما تقدم وإن كان كل منهما يلازم الآخر.

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ الى آخر الآيتين؛ ظاهر السياق أن قوله: «كما أخرجك» متعلق بما يدل عليه قوله تعالى: «قل الأنفال لله والرسول» والتقدير: أن الله حكم بكون الأنفال له ولرسوله بالحق مع كراهتهم له، كما أخرجك من بيتك بالحق مع كراهة فريق منهم له. فللجميع حق يترتب عليه من مصلحة دينهم ودنياهم ما هم غافلون عنه.

والمراد بالحق ما يقابل الباطل، وهو الأمر الثابت الذي يترتب عليه آثاره الواقعية المطلوبة، وكون الفعل ـ وهو الإخراج ـ بالحق هو أن يكون هو المتعين الواجب بحسب الواقع، وقيل: المراد به الوحي، وقيل: المراد به الجهاد، وقيل غير ذلك، وهي معان بعيدة.

والأصل في معنى الجدل شدة الفتل، يقال: زمام جديل أي شديد الفتل، وسُمّي الجدال جدالاً لأن فيه نزاعاً بالفتل عن مذهب الى مذهب كما ذكره في المجمع.

ومعنى الآيتين: ان الله تعالى حكم في امر الأنفال بالحق مع كراهتهم لحكمه كما اخرجك من

بيتك بالمدينة إخراجاً بصاحب الحق. والحال ان فريقاً من المؤمنين لكارهون لذلك، ينازعونك في الحق بعد ما تبين لهم اجمالاً. والحال انهم يشبهون جماعة يساقون الى الموت، وهم ينظرون الى ما أعدّ لهم من أسبابه وأدواته[١].

٧ ● وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَنْ يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَافِرِينَ.

٨ ● لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ.

٩ ● إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ.

١٠ ● وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

١١ ● إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ.

١٢ ● إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ.

---

١. الانفال ١ ـ ٦: بحث روائي في الانفال.

١٣ ● ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ.
١٤ ● ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ أي واذكروا اذ يعدكم الله، وهو بيان منن الله وعدَّ نعمه عليهم ليكونوا على بصيرة من ان الله سبحانه لا يستقبلهم بأمر ولا يأتيهم بحكم إلّا بالحق وفيه حفظ مصالحهم وإسعاد جدّهم فلا يختلفوا فيما بينهم، ولا يكرهوا ما يختاره لهم. ويكلوا أمرهم إليه فيطيعوه ورسوله.

والمراد بالطائفتين العير والنفير، والعير قافلة قريش وفيها تجارتهم وأموالهم وكان عليها أربعون رجلاً منهم أبو سفيان بن حرب، والنفير جيش قريش وهم زهاء ألف رجل.

وقوله: «إحدى الطائفتين» مفعول ثان لقوله: «يعدكم» وقوله: «أنها لكم» بدل منه وقوله: «وتودّون» الآية: في موضع الحال، والمراد بغير ذات الشوكة: الطائفة غير ذات الشوكة وهي العير الذي كان أقل عِدّة وعُدّة من النفير، والشوكة الحدّة، استعارة من الشوك.

وقوله: «ويريد الله ان يحق الحق بكلماته» في موضع الحال، والمراد باحقاق الحق إظهاره وإثباته بترتيب آثاره عليه، وكلمات الله هي ما قضى به من نصرة أنبيائه وإظهار دينه الحق، قال تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾ (الصافات / ١٧٣) وقال تعالى: ﴿يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو

كره المشركون﴾ (الصف / ٩)؛ وقرىء «بكلمته»: وهو اوجه وأقرب والدابر ما يأتي بعد الشيء مما يتعلق به ويتصل إليه وقطع دابر الشيء، كناية عن إفنائه واستئصاله بحيث لا يبقى بعده شيء من آثاره المتفرعة عليه المرتبطة به.

ومعنى الآية: واذكروا اذ يعدكم الله أن إحدى الطائفتين لكم تستعلون عليها بنصر الله إمَّا العير وإما النفير وأنتم تودون أن تكون تلك الطائفة هي العير لما تعلمون من شوكة النفير، وقوتهم وشدتهم، مع ما لكم من الضعف والهوان، والحال ان الله يريد خلاف ذلك وهو أن تلاقوا النفير فيظهركم عليهم ويظهر ما قضى ظهوره من الحق، ويستأصل الكافرين ويقطع دابرهم.

قوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ظاهر السياق ان اللام للغاية، وقوله: «ليحق» الآية؛ متعلق بقوله: «يعدكم الله» أي إنما وعدكم الله ذلك وهو لا يخلف الميعاد ليحق بذلك الحق ويبطل الباطل ولو كان المجرمون يكرهونه ولا يريدونه.

وبذلك يظهر ان قوله: «ليحق الحق» الآية؛ ليس تكراراً لقوله: «ويريد الله ان يحق الحق بكلماته» وإن كان في معناه.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ الإستغاثة طلب الغوث وهو النصرة كما في قوله: ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوّه﴾ (القصص / ١٥) والإمداد معروف، وقوله: «مردفين» من الإرداف وهو ان يجعل الراكب غيره ردفاً له، والردف التابع، قال الراغب: الردف التابع، وردف المرأة عجيزتها، والترادف: التتابع، والرادف: المتأخر، والمردف المقدم الذي اردف غيره. انتهى.

وبهذا المعنى تلائم الآية ما في قوله تعالى فيما يشير به الى هذه القصة في سورة آل عمران:

﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم اذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين وما جعله الله إلّا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلّا من عند الله العزيز الحكيم﴾ (آل عمران / ١٢٦).

فإن تطبيق الآيات من السورتين يوضح ان المراد بنزول الف من الملائكة مردفين نزول الف منهم يستتبعون آخرين فينطبق الألف المردفون على الثلاثة آلاف المنزلين.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الضميران في قوله: «جعله» وقوله: «به» للإمداد بالملائكة على ما يدل عليه السياق، والمعنى ان الامداد بالملائكة إنما كان لغرض البشرى واطمئنان نفوسكم لا ليهلك بأيديهم الكفار كما يشير اليه قوله تعالى بعد: «اذ يوحي ربك الى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين آمنوا سالقي في قلوب الذين كفروا الرعب».

وبذلك يتأيد ما ذكره بعضهم: ان الملائكة لم ينزلوا ليقتلوا المشركين ولا قتلوا منهم احداً فقد قتل ثلث المقتولين منهم او النصف علي عليه السلام والثلثين الباقين او النصف سائر المسلمين. وإنما كان للملائكة تكثير سواد المسلمين حينما اختلطوا بالقوم وتثبيت قلوب المسلمين، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين، وسيجيء بعض الكلام في ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ بيان انحصار حقيقة النصر فيه تعالى وأنه لو كان بكثرة العدد والقوة والشوكة كانت الدائرة يومئذ للمشركين بما هم من الكثرة والقوة على المسلمين على ما بهم من القلة والضعف.

وقد علل بقوله: «إن الله عزيز حكيم» جميع مضمون الآية وما يتعلق به من الآية السابقة فبعزّته نصرهم وأمدهم، وبحكمته جعل نصره على هذه الشاكلة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ الى آخر الآية. النعاس اول النوم

وهو خفيفه والتغشية الاحاطة، والأمنة الامان، وقوله: «منه» أي من الله وقيل: أي من العدو، والرجز هو الرجس والقذارة، والمراد برجز الشيطان القذارة التي يطرأ القلب من وسوسته وتسويله.

ومعنى الآية: ان النصر والإمداد بالبشرى واطمئنان القلوب كان في وقت يأخذكم النعاس للأمن الذي افاضه الله على قلوبكم فنمتم ولو كنتم خائفين مرتاعين لم يأخذكم نعاس ولا نوم، وينزّل عليكم المطر ليطهّركم به ويذهب عنكم وسوسة الشيطان وليربط على قلوبكم ويشد عليها ـ وهو كناية عن التشجيع ـ وليثبت بالمطر اقدامكم في الحرب بتلبّد الرمل او بثبات القلوب.

والآية تؤيد ما ورد ان المسلمين سبقهم المشركون الى الماء فنزلوا على كثيب رمل، وأصبحوا محدثين ومجنبين، وأصابهم الظمأ، ووسوس اليهم الشيطان فقال: إن عدوكم قد سبقكم الى الماء، وأنتم تصلون مع الجنابة والحدث وتسوخ أقدامكم في الرمل فأمطر عليهم الله حتى اغتسلوا به من الجنابة، وتطهروا به من الحدث، وتلبدت به أرضهم، وأوحلت أرض عدوهم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ الى آخر الآية: حال الظرف في أول الآية كحال الظرف في قوله: «اذ تستغيثون ربكم» وقوله: «اذ يغشيكم النعاس» ومعنى الآية ظاهر.

وأما قوله: «فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان» فالظاهر أن يكون المراد بفوق الأعناق الرؤوس وبكل بنان جميع الأطراف من اليدين والرجلين أو أصابع الأيدي لئلا يطيقوا حمل السلاح بها والقبض عليه.

ومن الجائز أن يكون الخطاب بقوله: «فاضربوا» الخ: للملائكة كما هو المتسابق الى

الذهن، والمراد بضرب فوق الأعناق وكل بنان ظاهر معناه، أو الكناية عن اذلالهم وإبطال قوة الإمساك من أيديهم بالإرعاب، وأن يكون الخطاب للمؤمنين والمراد به تشجيعهم على عدوهم بتثبيت أقدامهم والربط على قلوبهم، وحثهم وإغراؤهم بالمشركين.

قوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ المشاقة المخالفة وأصله الشق بمعنى البعض كأن المخالف يميل الى شق غير شق من يخالفه، والمعنى أن هذا العقاب للمشركين بما أوقع الله بهم، لأنهم خالفوا الله ورسوله وألحّوا وأصرّوا على ذلك ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب.

قوله تعالى: ﴿ذٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ خطاب تشديدي للكفار يشير الى ما نزل بهم من الخزي ويأمرهم أن يذوقوه، ويذكر لهم أن وراء ذلك عذاب النار[1].

١٥ ● يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ.

١٦ ● وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَيٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ.

١٧ ● فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

١٨ ● ذٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَافِرِينَ.

---

١. الانفال ٧ ـ ١٤: بحث روائي في: غزوة بدر؛ فهرس أسماء شهداء بدر (رض).

١٩ ● إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ
وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ
ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ.

٢٠ ● يٰا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ
تَسْمَعُونَ.

٢١ ● وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ.

٢٢ ● إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوٰابِّ عِنْدَ ٱللّٰهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ.

٢٣ ● وَلَوْ عَلِمَ ٱللّٰهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ
مُعْرِضُونَ.

٢٤ ● يٰا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلّٰهِ وَلِلرَّسُولِ إِذٰا دَعَاكُمْ لِمَا
يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللّٰهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ.

٢٥ ● وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لاٰ تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَٱعْلَمُوا
أَنَّ ٱللّٰهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ.

٢٦ ● وَٱذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ
يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنّٰاسُ فَآوٰاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ
ٱلطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

٢٧ ● يٰا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا ٱللّٰهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوا
أَمانٰاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

٢٨ ● وَٱعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللّٰهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ.

٢٩ ● يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا ٱللّٰهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّآتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللّٰهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبارَ﴾ اللقاء مصدر لقي يلقى من المجرّد ولاقى يلاقي من المزيد فيه. قال الراغب في مفردات القرآن: اللقاء مقابلة الشيء ومصادفته معاً. وقد يعبّر به عن كل واحد منهما يقال: لقيه يلقاه لقاءً ولُقياً ولُقية، ويقال ذلك في الإدراك بالحس وبالبصر وبالبصيرة قال: لقد كنتم تمنون الموت من قبل ان تلقوه، وقال: لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً. وملاقاة الله عبارة عن القيامة وعن المصير اليه قال: واعلموا انكم ملاقوه، وقال: الذين يظنون انهم ملاقوا الله، واللقاء الملاقاة، قال: وقال الذين لا يرجون لقاءنا، وقال: الى ربك كدحاً فملاقيه. انتهى.

وقال في المجمع: اللقاء الاجتماع على وجه المقاربة لان الاجتماع قد يكون على غير وجه المقاربة فلا يكون لقاء كاجتماع الأعراض في المحل الواحد. انتهى.

وقال فيه: الزحف الدنو قليلاً قليلاً. والتزاحف التداني يقال: زحف يزحف زحفاً وأزحفت للقوم اذا دنوت لقتالهم وثبتّ لهم. قال الليث: الزحف جماعة يزحفون الى عدو لهم بمرة وجمعه زحوف. انتهى.

وتولية الأعداء الادبار جعلهم يلونها وهو استدبار العدو واستقبال جهة الهزيمة.

وخطاب الآية عام غير خاص بوقت دون وقت ولا غزوة دون غزوة فلا وجه لتخصيصها

بغزوة بدر وقصر حرمة الفرار من الزحف بها كما يحكى عن بعض المفسرين. على انك عرفت أن ظاهر سياق الآيات انها نزلت بعد غزوة بدر لا يومها، وان الآيات ذيل ما في صدر السورة من قوله: «يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول» الآية؛ وللكلام تتمة ستوافيك في البحث الرواني إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ الى آخر الآية. التحرف: الزوال عن جهة الاستواء الى جهة الحرف وهو طرف الشيء وهو أن ينحرف وينعطف المقاتل من جهة الى جهة أُخرى ليتمكن من عدوّه ويبادر الى إلقاء الكيد عليه، والتحيّز هو أخذ الحيّز وهو المكان، والفئة القطعة من جماعة الناس. والتحيز الى فئة أن ينعطف المقاتل عن الانفراد بالعدو الى فئة من قومه فيلحق بهم ويقاتل معهم.

والبواء الرجوع الى مكان والاستقرار فيه، ولذا قال الراغب: أصل البواء مساواة الأجزاء في المكان خلاف النبوة الذي هو منافاة الأجزاء. انتهى. فمعنىٰ قوله: باء بغضب من الله أي رجع ومعه غضب من الله.

فمعنى الآيتين: يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا لقاء زحف أو زاحفين للقتال فلا تفروا منهم ومن يفر منهم يومئذ أي وقتئذ فقد رجع ومعه غضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير إلّا أن يكون فراره للتحرف لقتال أو التحيز الى فئة فلا بأس به.

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ الى آخر الآية: التدبر في السياق لا يدع شكاً في أن الآية تشير الى وقعة بدر وما صنعه رسول الله ﷺ من رميهم بكف من الحصا، والمؤمنون بوضع السيف فيهم وقتلهم القتل الذريع، وذيل الآية أعني قوله: وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً يدل على أن الكلام جار مجرى الامتنان منه تعالى، وقد أثبت تعالى عين ما نفاه في جملة واحدة أعني قوله: «وما رميت اذ رميت».

فمن جميع هذه الشواهد يتحصل أن المراد بقوله : «فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى» نفي أن تكون وقعة بدر وما ظهر فيها من استئصال المشركين والظهور عليهم والظفر بهم جارية على مجرى العادة والمعروف من نواميس الطبيعة ، وكيف يسع لقوم هم شرذمة قليلون ما فيهم على ما روي الا فرس أو فرسان وبضعة أدرع وبضعة سيوف ، أن يستأصلوا جيشاً مجهزاً بالأفراس والأسلحة والرجال والزاد والراحلة ، هم أضعافهم عدة ولا يقاسون بهم قوة وشدة ، وأسباب الغلبة عندهم ، وعوامل البأس معهم ، والموقف المناسب للتقدم لهم .

إلّا ان الله سبحانه بما أنزل من الملائكة ثبت أقدام المؤمنين وأرعب قلوب المشركين ، وألقى الهزيمة بما رماه النبي ﷺ من الحصاة عليهم فشملهم المؤمنون قتلاً وأسراً فبطل بذلك كيدهم وخمدت أنفاسهم وسكنت أجراسهم .

فبالحري أن ينسب ما وقع عليهم من القتل بأيدي المؤمنين والرمي الذي شتت شملهم وألقى الهزيمة فيهم اليه سبحانه دون المؤمنين .

فما في الآية من النفي جار مجرى الدعوى بنوع من العناية ، بالنظر الى استناد الوقعة بأطرافها الى سبب إلهي غير عادي ، ولا ينافي ذلك استنادها بما وقع فيها من الوقائع الى اسبابها القريبة المعهودة في الطبيعة بأن يعد المؤمنون قاتلين لمن قتلوا منهم ، والنبي ﷺ رامياً لما رماه من الحصاة .

وقوله : ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً﴾ الظاهر ان ضمير «منه» راجع الى الله تعالى ، والجملة لبيان الغاية وهي معطوفة على مقدر محذوف ، والتقدير : إنما فعل الله ما فعل من قتلهم ورميهم لمصالح عظيمة عنده ، وليبلي المؤمنين ويمتحنهم بلاءً وامتحاناً حسناً أو لينعم عليهم بنعمة حسنة ، وهو إفناء خصمهم وإعلاء كلمة التوحيد بهم وإغناؤهم بما غنموا من الغنائم .

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تعليل لقوله: «وليبلي المؤمنين» أي إنه تعالى يبليهم لأنه سميع باستغاثتهم عليم بحالهم فيبليهم منه بلاءً حسناً.

والتفريع الذي في صدر الآية «فلم تقتلوهم» الخ: متعلق بما يتضمنه الآيات السابقة «اذ تستغيثون ربكم» الى آخر الآيات من المعنى، فإنها تعد منن الله عليهم من انزال الملائكة وامدادهم بهم وتغشية النعاس اياهم وامطار السماء عليهم وما أُوحي الى الملائكة من تأييدهم وتثبيت أقدامهم والقاء الرعب في قلوب أعدائهم. فلما بلغ الكلام هذا المبلغ فرّع عليه قوله: «فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى».

وعلى هذا فقوله: «يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم» الى قوله: «وبئس المصير» معترضة متعلقة بقوله: «فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان» او بمعناه المفهوم من الجمل المسرودة، وقوله: «فلم تقتلوهم» الخ: متصل بما قبله بحسب النظم.

وربما يذكر في نظم الآية وجهان آخران:

احدهما: ان الله سبحانه لما أمرهم بالقتل في الآية المتقدمة ذكر عقيبها ان ما كان من الفتح يوم بدر وقهر المشركين انما كان بنصرته ومعونته تذكيراً للنعمة. ذكره ابو مسلم.

والثاني: انهم لما أُمروا بالقتال ثم كان بعضهم يقول: أنا قتلت فلاناً وأنا فعلت كذا نزلت الآية على وجه التنبيه لهم لئلا يعجبوا بأعمالهم. وربما قيل: ان الفاء في قوله: «فلم تقتلوهم» لمجرد ربط الجمل بعضها ببعض. والوجه ما قدمناه.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَافِرِينَ﴾ قال في الجمع «ذلكم» موضعه رفع، وكذلك «أن الله» في موضع رفع، والتقدير: الأمر ذلكم والأمر ان الله موهن، وكذلك الوجه فيما تقدم من قوله: «ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار»، ومن قال: ان «ذلكم» مبتدء و«فذوقوه» خبره فقد أخطأ لأن ما بعد الفاء لا يكون خبراً لمبتدء، ولا يجوز: زيد فمنطلق، ولا: زيد فاضربه. إلّا ان تضمر «هذا» تريد: هذا زيد فاضربه. انتهى. فمنى

الآية : الامر ذلكم الذي ذكرناه والأمر ان الله موهن كيد الكافرين .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ الى آخر الآية . ظاهر الآية بما تشتمل عليه من الجمل المسرودة كقوله : « وإن تنتهوا فهو خير لكم » وقوله : « وإن تعودوا نعد » الخ : ان تكون الخطاب فيه للمشركين دون المؤمنين باشتمال الكلام على الالتفات للتهكم . وهو المناسب لقوله في الآية السابقة : « وأن الله موهن كيد الكافرين » .

فالمعنى : إن طلبتم الفتح وسألتم الله ايها المشركون ان يفتح بينكم وبين المؤمنين فقد جاءكم الفتح بما أظهر الله من الحق يوم بدر فكانت الدائرة للمؤمنين عليكم ، وإن تنتهوا عن المكيدة على الله ورسوله فهو خير لكم وان تعودوا الى مثل ما كدتم نعد الى مثل ما أوهنا به كيدكم ، ولن تغني عنكم جماعتكم شيئاً ولو كثرت كما لم تغن في هذه المرة وإن الله مع المؤمنين ولن يغلب من هو معه .

وبهذا يتأيد ما ورد ان ابا جهل قال يوم بدر حين اصطف الفريقان او حين التقى الفئتان : اللهم ان محمداً اقطعنا للرحم وأتانا بما لا نعرف فانصر عليه ، وفي بعض الروايات ـ وهو الأنسب ـ كما في المجمع عن ابي حمزة : قال ابو جهل : اللهم ربنا ديننا القديم ودين محمد الحديث فأي الدينين كان احب اليك وأرضى عندك فانصر أهله اليوم .

قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ الضمير على ما يفيده السياق راجع الى الرسول ﷺ . والمعنى : ولا تولوا عن الرسول وأنتم تسمعون ما يلقيه اليكم من الدعوة الحقة وما يأمركم به وينهاكم عنه مما فيه صلاح دينكم ودنياكم . ومصبّ الكلام اوامره الحربية وإن كان لفظه أعمّ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ المعنى ظاهر وفيه نوع تعريض للمشركين اذ قالوا : سمعنا ، وهم لا يسمعون ، وقد حكى الله عنهم ذلك اذ قال بعد عدة آيات : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾

(الأنفال / ٣١)، لكنهم كذبوا ولم يسمعوا ولو سمعوا لاستجابوا كما قال الله تعالى: ﴿ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ (الأعراف / ١٧٩)، وقال تعالى حكاية عن اصحاب السعير ﴿وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ماكنا في أصحاب السعير﴾ (الملك / ١٠) فالمراد بالسمع في الآية الاولى تلقي الكلام الحق الذي هو صوت من طريق الاذن، وفي الآية الثانية الانقياد لما يتضمنه الكلام الحق المسموع.

والآيتان ـ كما ترى ـ خطاب متعلق بالمؤمنين متصل نوع اتصال بالآية السابقة عليهما وتعريض للمشركين، فهو تعالى لما التفت الى المشركين فذمّهم وتهكم عليهم بسؤالهم الفتح، وذكر لهم ان الغلبة دائماً لكلمة الايمان على كلمة الكفر ولدعوة الحق على دعوة الباطل، التفت الى حزبه وهم المؤمنون فأمرهم بالطاعة له ولرسوله، وحذرهم عن التولي عنه بعد استماع كلمة الحق، وأن يكونوا كأولئك اذ قالوا: سمعنا وهم لا يسمعون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الى آخر الآيتين: تعريض وذم للذين سبق ذكرهم من الكفار على ما يعطيه سياق الكلام وما اشتملت عليه الآية من الموصول والضمائر المستعملة في اولي العقل، وعلى هذا فالظاهر ان الام في قوله: «الصم البكم» للعهد الذكري، ويؤول المعنى الى ان شر جميع ما يدب على الأرض من أجناس الحيوان وأنواعها هؤلاء الصم البكم الذين لا يعقلون، وإنما لم يعقلوا لأنه لا طريق لهم الى تلقي الحق لفقدهم السمع والنطق فلا يسمعون ولا ينطقون.

ثم ذكر تعالى ان الله إنما ابتلاهم بالصمم والبكمة فلا يسمعون كلمة الحق ولا ينطقون بكلمة الحق، وبالجملة حرمهم نعمة السمع والقبول، لأنه تعالى لم يجد عندهم خيراً ولم يعلم به ولو كان لعلم، لكن لم يعلم فلم يوفقهم للسمع والقبول، ولو انه تعالى رزقهم السمع والحال هذه لم يثبت السمع والقبول فيهم بل تولوا عن الحق وهم معرضون.

ومن هنا يعلم ان المراد بالخير حسن السريرة الذي يثبت به الاستعداد لقبول الحق

ويستقر في القلب ، وان المراد بقوله : « ولو أسمعهم » الإسماع على تقدير عدم الاستعداد الثابت المستقر فافهم ذلك فلا يرد انه تعالى لو أسمعهم ورزقهم قبول الحق استلزم ذلك تحقق الخير فيهم ولا وجه مع ذلك لتوليهم وإعراضهم وذلك ان الشرط في قوله : « ولو اسمعهم » على تقدير فقدهم الخير على ما يفيده السياق .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ لما دعاهم في قوله : « اطيعوا الله والرسول » الخ : الى إطاعة الدعوة الحقة وعدم التولي عنها بعد استماعها اكده ثانياً بالدعوة الى استجابة الله والرسول في دعوة الرسول ، ببيان حقيقة الأمر والركن الواقعي الذي تعتمد عليه هذه الدعوة ، وهو ان هذه الدعوة دعوة الى ما يحيي الانسان بإخراجه من مهبط الفناء والبوار ، وموقفه في الوجود ، ان الله سبحانه اقرب اليه من قلبه وانه سيحشر اليه فليأخذ حذره وليجمع همّه ويعزم عزمه .

وبالجملة فللإنسان حياة حقيقية اشرف وأكمل من حياته الدينية الدنيوية يتلبس بها اذا تم استعداده بالتحلي بحلية الدين والدخول في زمرة الأولياء الصالحين كما تلبس بالحياة الدنيوية حين تم استعداده للتلبس بها وهو جنين انساني .

وعلى ذلك ينطبق قوله تعالى في الآية المبحوث عنها : « يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » فالتلبس بما تندب اليه الدعوة الحقة من الاسلام يجر الى الانسان هذه الحياة الحقيقية كما ان هذه الحياة منبع ينبع منه الاسلام وينشأ منه العلم النافع والعمل الصالح ، وفي معنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو انثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم بأحسن ماكانوا يعملون ﴾ (النحل / ٩٧) .

والآية اعني قوله فيها : « اذا دعاكم لما يحييكم » مطلق لا يأبى الشمول لجميع دعوته صلى الله عليه وآله وسلم المحيية للقلوب ، او بعضها الذي فيه طبيعة الإحياء أو لنتائجها التي هي أنواع الحياة السعيدة الحقيقية كالحياة السعيدة في جوار الله سبحانه في الآخرة .

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ الحيلولة هي التخلل وسطاً، والقلب العضو المعروف. ويستعمل كثيراً في القرآن الكريم في الأمر الذي يدرك به الانسان ويظهر به أحكام عواطفه الباطنة كالحب والبغض والخوف والرجاء والتمني والقلق ونحو ذلك فالقلب هو الذي يقضي ويحكم، وهو الذي يحب شيئاً ويبغض آخر، وهو الذي يخاف ويرجو ويتمنى ويسر ويحزن، وهو في الحقيقة النفس الانسانية تفعل بما جهزت به من القوى والعواطف الباطنة.

فالله سبحانه هو الحائل المتوسط بين الإنسان وبين قلبه وكل ما يملكه الإنسان ويرتبط ويتصل هو به نوعاً من الارتباط والاتصال وهو اقرب اليه من كل شيء كما قال تعالى ﴿ونحن اقرب اليه من حبل الوريد﴾ (ق / ١٦).

والى هذه الحقيقة يشير قوله: «واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وانه اليه تحشرون» فهو تعالى لكونه مالكاً لكل شيء ومن جملتها الإنسان ملكاً حقيقياً لا مالك حقيقة سواه، أقرب اليه حتى من نفسه وقوى نفسه التي يملكها لأنه سبحانه هو الذي يملّكه اياها فهو حائل متوسط بينه وبينها يملّكه اياها ويربطها به فافهم ذلك.

ولذلك عقّب الجملة بقوله: «وانه اليه تحشرون» فإن الحشر والبعث هو الذي ينجلي عنده الملك الحق لله وحده لا شريك له، ويبطل عند ذلك كل ملك صوري وسلطنة ظاهرية إلّا ملكه الحق جل ثناؤه كما قال سبحانه: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ (المؤمن / ١٦)، وقال: ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾ (الانفطار / ١٩).

فكأن الآية تقول: واعلموا ان الله هو المالك بالحقيقة لكم ولقلوبكم وهو أقرب اليكم من كل شيء، وانه ستحشرون اليه فيظهر حقيقة ملكه لكم وسلطانه عليكم يومئذ فلا يغني عنكم منه شيء.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ

ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ قرأ عليّ والباقر ﷺ من أئمة اهل البيت وكذا زيد بن ثابت والربيع بن انس وأبو العالية على ما في المجمع: لتصيبن باللام ونون التأكيد الثقيلة، والقراءة المشهورة: لا تصيبن بلا الناهية ونون التأكيد الثقيلة.

وعلى أي تقدير كان، تحذر الآية جميع المؤمنين عن فتنة تختص بالظالمين منهم، ولا يتعداهم الى غيرهم من الكفار والمشركين، واختصاصها بالظالمين من المؤمنين وأمرُ عامتهم مع ذلك باتقائها يدل على انها وإن كانت قائمة ببعض الجماعة لكن السيىء من أثرها يعمّ الجميع ثم قوله تعالى: «واعلموا ان الله شديد العقاب» تهديد للجميع بالعقاب الشديد ولا دليل يدل على اختصاص هذا العقاب بالحياة الدنيا وكونه من العذاب الدنيوي من قبيل الاختلافات القومية وشيوع القتل والفساد وارتفاع الأمن والسلام ونحو ذلك.

ومقتضى ذلك ان تكون الفتنة المذكورة على اختصاصها ببعض القوم مما يوجب على عامة الامة ان يبادروا على دفعها، ويقطعوا دابرها ويطفؤا لهيب نارها بما اوجب الله عليهم من النهي عن المنكر والأمر بالمعروف.

فيؤول معنى الكلام الى تحذير عامة المسلمين عن المساهلة في امر الاختلافات الداخلية التي تهدد وحدتهم وتوجب شق عصاهم واختلاف كلمتهم، ولا تلبث دون ان تحزّبهم أحزاباً، وتبعّضهم أبعاضاً، ويكون الملك لمن غلب منهم، والغلبة لكلمة الفساد لا لكلمة الحق والدين الحنيف الذي يشترك فيه عامة المسلمين.

فهذه فتنة تقوم بالبعض منهم خاصة وهم الظالمون غير ان سيىء أثره يعمّ الكل ويشمل الجميع فيستوعبهم الذلة والمسكنة وكل ما يترقب من مر البلاء بنشوء الاختلاف فيما بينهم، وهم جميعاً مسؤولون عند الله والله شديد العقاب.

وقد ابهم الله تعالى امر هذه الفتنة ولم يعرّفها بكمال اسمها ورسمها غير ان قوله فيما بعد: «لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة» وقوله: «واعلموا ان الله شديد العقاب» ـ كما تقدم ـ

يوضحها بعض الايضاح ، وهو انها اختلاف البعض من الامة مع بعض منها في امر يعلم جميعهم وجه الحق فيه فيجمح البعض عن قبول الحق ويقدم الى المنكر بظلمه فلا يرد عونه عن ظلمه ولا ينهونه عن ما يأتيه من المنكر ، وليس كل ظلم ، بل الظلم الذي يسري سوء أثره الى كافة المؤمنين وعامة الامة لمكان امره سبحانه الجميع بإتقائه . فالظلم الذي هو لبعض الامة ويجب على الجميع ان يتقوه ، ليس الّا ما هو من قبيل التغلب على الحكومة الحقة الاسلامية ، والتظاهر بهدم القطعيات من الكتاب والسنة التي هي من حقوقها .

وأيّاً ما كان ففي الفتن الواقعة في صدر الاسلام ما ينطبق عليه الآية اوضح انطباق وقد انهدمت بها الوحدة الدينية ، وبدت الفرقة ونفدت القوة . وذهبت الشوكة على ما اشتملت عليه من القتل والسبي والنهب وهتك الاعراض والحرمات وهجر الكتاب وإلغاء السنّة ، وقال الرسول : يا رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً .

ومن شمول مشأمتها وتعرّق فسادها ان الامة لا تستطيع الخروج من أليم عذابها حتى بعد التنبه منهم لسوء فعالهم وتفريطهم في جنب الله كلما أرادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق .

وقد تفطن بعض المفسرين بأن الآية تحذر الامة وتهددهم بفتنة تشمل عامتهم وتفرّق جمعهم ، وتشتت شملهم ، وتوعدهم بعذاب الله الشديد ، وقد احسن التفطن غير انه تكلف في توجيه العذاب بالعذاب الدنيوي ، وتمحل في تقييد ما في الآية من إطلاق العقاب ، وأنى لهم التناوش من مكان بعيد .

ولنرجع الى لفظ الآية :

أما على قراءة اهل البيت عليهم السلام وزيد « واتقوا فتنة لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » فاللام في « لتصيبن » للقسم والنون الثقيلة لتأكيده ، والتقدير : واتقوا فتنة اقسم لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، وخاصة حال من الفتنة . والمعنى اتقوا فتنة تختص إصابته بالذين ظلموا

منكم أيها المخاطبون وهم الذين آمنوا، وعليك ان تتذكر ما سلف بيانه ان لفظ «الذين آمنوا» في القرآن خطاب تشريفي للمؤمنين في اول البعثة وبدء انتشار الدعوة لولا قرينة صارفة عن ذلك، ثم تذكر ان فتن صدر الاسلام تنتهي الى اصحاب بدر، والآية على أي حال يأمر الجميع ان يتقوا فتنة تثيرها بعضهم، وليس إلّا لأن أثرها السيء يعم الجميع كما تقدم.

وأما على قراءة المشهور: «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة» فقد ذكروا: ان لا في «لا تصيبن» ناهية والنون لتأكيد النهي، وليس «لا تصيبن» جواباً للأمر في «اتقوا» بل الكلام جار مجرى الابتداء والاستيناف كقوله تعالى: ﴿يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده﴾ (النمل / ١٨) فقد قال اولاً: «واتقوا فتنة» ثم استأنف وقال: «لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة» لاتصال الجملتين معنى.

وربما جوز بعض النحاة ان يكون «لا تصيبن» نهياً وارداً في جواب الأمر كما يقال: اتق زيداً لا يضربك أو لا يضربنك والتقدير: اتق زيداً فإنك إن اتقيته لا يضربك ولم يشترط في نون التأكيد أن لا يدخل الخبر.

والآية ـ كما عرفت ـ تتضمن خطاباً اجتماعياً متوجهاً الى مجموع الامة وذلك يؤيد كون الخطاب في الآية السابقة «يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم» خطاباً اجتماعياً متوجهاً الى كافة المؤمنين، ويتفرع عليه ان المراد بالدعوة الى ما يحييهم الدعوة الى الاتفاق على الاعتصام بحبل الله وإقامة الدين وعدم التفرق فيه كما قال ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ (آل عمران / ١٠٣) وقال: ﴿أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ (الشورى / ١٣) وقوله: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ (الأنعام / ١٥٣).

وبهذا يتأيد بعض الوجوه المذكورة سابقاً في قوله: «اذا دعاكم لما يحييكم» وكذا في قوله: «ان الله يحول بين المرء وقلبه» وتختص الآية به بحسب السياق وإن كانت تفيد معنى اوسع من

ذلك باعتبار اخذها في نفسها مفردة عن السياق، والباحث الناقد لا يعوز عليه تمييز ذلك والله الهادي.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ الى آخر الآية؛ الاستضعاف عدُّ الشيء ضعيفاً بتوهين امره، والتخطف والخطف والاختطاف أخذ الشيء بسرعة انتزاع، والإيواء جعل الانسان ذا مأوى ومسكن يرجع اليه ويأوى، والتأييد من الأيد وهو القوّة.

والسياق يدل على ان المراد بقوله: «اذ انتم قليل مستضعفون في الأرض» الزمان الذي كان المسلمون محصورين بمكة قبل الهجرة وهم قليل مستضعفون، وبقوله: «تخافون ان يتخطّفكم الناس» مشركوا العرب وصناديد قريش، وبقوله: «فآواكم» أي بالمدينة، وبقوله: «وأيدكم بنصره» ما اسبغ عليهم من نعمة النصر ببدر، وبقوله: «ورزقكم من الطيبات» ما رزقهم من الغنائم وأحلها لهم.

وما عده في الآية من احوال المؤمنين ومننه عليهم بالإيواء وإن كانت مما يختص بالمهاجرين منهم دون الأنصار إلّا ان المراد الامتنان على جميعهم من المهاجرين والأنصار فإنهم امة واحدة يوحدهم دين واحد. على ان فيا ذكره الله في الآية من مننه التأييد بالنصر والرزق من الطيبات وهما يعمان الجميع، هذا بحسب ما تقتضيه الآية من حيث وقوعها في سيوق آيات بدر، ولكن هي وحدها وباعتبار نفسها تعم جميع المسلمين من حيث انهم امة واحدة يرجع لاحقهم الى سابقهم فقد بدأ ظهور الاسلام فيهم وهم قليل مستضعفون بمكة يخافون ان يتخطفهم الناس فآواهم بالمدينة وكثّرهم بالأنصار وأيدهم بنصره في بدر وغيره ورزقهم من جميع الطيبات الغنائم وغيرها من سائر النعم لعلهم يشكرون.

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الى آخر الآيتين؛ الخيانة نقض الأمانة التي هي حفظ الامن

لحق من الحقوق بعهد أو وصية ونحو ذلك، قال الراغب: الخيانة والنفاق واحد إلّا ان الخيانة تقال اعتباراً بالعهد والأمانة، والنفاق يقال اعتباراً بالدين ثم يتداخلان فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر، ونقيض الخيانة الأمانة يقال: خنت فلاناً، وخنت امانة فلان وعلى ذلك قوله: لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم. انتهى.

وقوله: «وتخونوا اماناتكم» من الجائز ان يكون مجزوماً معطوفاً على تخونوا السابق، والمعنى: ولا تخونوا اماناتكم، وأن يكون منصوباً بحذف أن والتقدير: وأن تخونوا اماناتكم ويؤيد الوجه الثاني قوله بعده: «وأنتم تعلمون».

وذلك ان الخيانة وإن كانت إنما يتعلق النهي التحريمي بها عند العلم فلا نهي مع جهل بالموضوع ولا تحريم غير ان العلم من الشرائط العامة التي لا ينجز تكليف من التكاليف المولوية إلّا به فلا نكتة ظاهرة في تقييد النهي عن الخيانة بالعلم مع ان العلم لكونه شرطاً عاماً مستغنى عن ذكره، وظاهر قوله: «وأنتم تعلمون» بحذف متعلقات الفعل ان المراد: ولكم علم بأنه خيانة لا ما قيل: إن المعنى: وأنتم تعلمون مفاسد الخيانة وسوء عاقبتها وتحريم الله اياها فان ذلك لا دليل عليه من جهة اللفظ ولا من جهة السياق.

فالوجه ان تكون الجملة بتقدير: وأن تخونوا أماناتكم، ويكون مجموع قوله: «لا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم» نهياً واحداً متعلقاً بنوع خيانة هي خيانة أمانة الله ورسوله وهي بعينها خيانة لأمانة المؤمنين انفسهم فان من الأمانة ما هي امانة الله سبحانه عند الناس كأحكامه المشرّعة من عنده ومنها ما هي أمانة الرسول كسيرته الحسنة، ومنها ما هي امانة الناس بعضهم عند بعض كالأمانات من اموالهم او اسرارهم، ومنها ما يشترك فيه الله ورسوله والمؤمنون، وهي الامور التي امر بها الله سبحانه وأجراها الرسول وينتفع بها الناس ويقوم بها صلب مجتمعهم كالأسرار السياسية والمقاصد الحربية التي تضيع بإفشائها آمال الدين وتضل بإذاعتها مساعي الحكومة الاسلامية فيبطل به حق الله ورسوله ويعود ضرره الى

عامة المؤمنين.

لهذا النوع من الأمانة خيانته خيانة لله ورسوله وللمؤمنين فالخائن بهذه الخيانة من المؤمنين يخون الله والرسول وهو يعلم ان هذه الامانة التي يخونها امانة لنفسه ولسائر اخوانه المؤمنين وهو يخون امانة نفسه، ولن يقدم عاقل على الخيانة لأمانة نفسه فان الانسان بعقله الموهوب له يدرك قبح الخيانة للأمانة فكيف يخون امانة نفسه؟

فالمراد بقوله: «وتخونوا اماناتكم وأنتم تعلمون» ـ والله اعلم ـ وتخونوا في ضمن خيانة الله والرسول اماناتكم والحال انكم تعلمون انها امانات انفسكم وتخونونها، وأي عاقل يقدم على خيانة امانة نفسه والاضرار بما لا يعود إلّا الى شخصه فتذييل النهي بقوله: «وأنتم تعلمون» لتهييج العصبية الحقة وإثارة قضاء الفطرة لا لبيان شرط من شرائط التكليف.

فكأن بعض افراد المسلمين كان يفشي اموراً من عزائم النبي ﷺ المكتومة من المشركين او يخبرهم ببعض اسراره فسماه الله تعالى خيانة ونهى عنه، وعدّها خيانة لله والرسول والمؤمنين.

ويؤيد ذلك قوله بعد هذا النهي: «واعلموا انما اموالكم وأولادكم فتنة» الخ: فان ظاهر السياق انه متصل بما قبله غير مستقل عنه، ويفيد حينئذ ان موعظتهم في امر الاموال والأولاد مع النهي عن خيانة الله والرسول وأماناتهم انما هو لإخبار المخبر منهم المشركين بأسرار رسول الله المكتومة، استمالة منهم مخافة ان يتعدوا على اموالهم وأولادهم الذين تركوهم بمكة بالهجرة الى المدينة، فصاروا يخبرونهم بالأخبار إلقاءً للمودة واستقباء للمال والولد او ما يشابه ذلك نظير ما كان من أبي لبابة مع بني قريظة.

وهذا يؤيد ما ورد في سبب النزول ان ابا سفيان خرج من مكة بمال كثير فأخبر جبرئيل النبي ﷺ بخروجه وأشار عليه بالخروج اليه وكتمان أمره فكتب اليه بعضهم بالخبر فأنزل الله

«يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون» وفي نزول الآية بعض أحاديث أُخر سيأتي ان شاء الله في البحث الروائي التالي.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الفرقان ما يفرق به بين الشيء والشيء، وهو في الآية بقرينة السياق وتفريعه على التقوى الفرقان بين الحق والباطل سواء كان ذلك في الاعتقاد بالتفرقة بين الايمان والكفر وكل هدى وضلال او في العمل بالتمييز بين الطاعة والمعصية وكل ما يرضي الله او يسخطه، او في الرأي والنظر بالفصل بين الصواب والخطأ فان ذلك كله مما تثمره شجرة التقوى، وقد اطلق الفرقان في الآية ولم يقيده وقد عدّ جمل الخير والشر في الآيات السابقة والجميع يحتاج الى الفرقان[1].

٣٠ ● وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ.

٣١ ● وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ.

٣٢ ● وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ.

٣٣ ● وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ.

---

١. الانفال ١٥ ـ ٢٩: بحث روائي في: الجهاد في سبيل الله: معنى الآية «استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم»: والآية «ان الله يحول بين المرء وقلبه»: أصحاب الجمل.

٢٤ ● وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

٢٥ ● وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ.

٢٦ ● إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ.

٢٧ ● لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ.

٣٨ ● قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ.

٣٩ ● وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

٤٠ ● وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَيكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾

الى آخر الآية : قال الراغب : المكر صرف الغير عما يقصده بحيلة ، وذلك ضربان : ضرب محمود وذلك ان يتحرى به فعل جميل وعلى ذلك قال : والله خير الماكرين ، ومذموم وهو ان يتحرى به فعل قبيح قال : ولا يحيق المكر السيء الاّ بأهله . واذ يمكر بك الذين كفروا . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم ، وقال في الأمرين : ومكروا مكراً ومكرنا مكراً ، وقال بعضهم : من مكر الله امهال العبد وتمكينه من اعراض الدنيا ، ولذلك قال اميرالمؤمنين عليه السلام : من وُسع عليه دنياه ولم يعلم انه مكر به فهو مخدوع عن عقله . انتهى .

وفي المجمع : الإثبات الحبس يقال : رماه فأثبته أي حبسه مكانه ، وأثبته في الحرب أي جرحه جراحة مثقلة . انتهى .

ومقتضى سياق الآيات ان يكون قوله : « واذ يمكر بك الذين كفروا » الآية ؛ معطوفة على قوله سابقاً : « واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم » فالآية مسوقة لبيان ما اسبغ الله عليهم من نعمته ، وأيدهم به من اياديه التي لم يكن لهم فيها صنع .

ومعنى الآية : واذكر او وليذكروا اذ يمكر بك الذين كفروا من قريش لإبطال دعوتك ان يوقعوا بك احد أُمور ثلاثة : إما ان يحبسوك واما ان يقتلوك واما ان يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .

والترديد في الآية بين الحبس والقتل والإخراج بياناً لما كانوا يمكرونه من مكر يدل انه كان منهم شورى يشاور فيها بعضهم بعضاً في امر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما كان يهمهم ويهتمون به من اطفاء نور دعوته ، وبذلك يتأيد ما ورد من اسباب النزول ان الآية تشير الى قصة دار الندوة على ما سيجيء في البحث الروائي التالي ان شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ﴾ الى آخر الآية الأساطير الأحاديث جمع اسطورة ويغلب في الأخبار الخرافية ، وقوله حكاية عنهم : « قد سمعنا » وقوله : « لو نشاء لقلنا » وقوله : « مثل هذا » ولم يقل : مثل هذه او

مثلها كل ذلك للدلالة على اهانتهم بآيات الله وإزرائهم بمقام الرسالة. ونظيرها قولهم: «ان هذا الا اساطير الأولين».

والمعنى: واذا تتلى عليهم آياتنا التي لا ريب في دلالتها على انها من عندنا وهي تكشف عن ما نريده منهم من الدين الحق لجّوا واعتدوا بها وهونوا امرها وأزروا برسالتنا وقالوا قد سمعنا وعقلنا هذا الذي تلي علينا لا حقيقة له الّا انه من أساطير الأولين. ولو نشاء لقلنا مثله غير انّا لا نعتني به ولا نهتم بأمثال هذه الأحاديث الخرافية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا ٱللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ الى آخر الآيتين. الإمطار هو انزال الشيء من فوق، وغلب في قطرات الماء من المطر او هو استعارة امطار المطر لغيره كالحجارة وكيف كان فقولهم: امطر علينا حجارة من السماء بالتصريح باسم السماء للدلالة على كونه بنحو الآية السماوية والإهلاك الالهي محضاً.

فإمطار الحجارة من السماء عليهم على ما سألوا احد اقسام العذاب ويبقى الباقي تحت قولهم: «او ائتنا بعذاب أليم» ولذلك نكّر العذاب وأبهم وصفه ليدل على باقي اقسام العذاب، ويفيد مجموع الكلام: ان امطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب آخر غيره يكون أليماً، وانما افرد امطار الحجارة من بين افراد العذاب الأليم بالذكر لكون الرضخ بالحجارة مما يجتمع فيه عذاب الجسم بما فيه من تألم البدن وعذاب الروح بما فيه من الذلة والإهانة.

ثم قوله: «ان كان هذا هو الحق من عندك» يدل بلفظه على ان الذي سمعوه من النبي ﷺ بلسان القال او الحال بدعوته هو قوله: «هذا هو الحق من عند الله» وفيه شيء من معنى الحصر. وهذا غير ما كان يقوله لهم: هذا حق من عند الله فان القول الثاني يواجه به الذي لا يرى ديناً سماوياً ونبوة إلهية كما كان يقوله المشركون وهم الوثنية: ما انزل الله على بشر من شيء، واما القول الأول فإنما يواجه به من يرى ان هناك ديناً حقاً من عند الله ورسالة إلهية يبلغ الحق من عنده ثم ينكر كون ما أتى به النبي ﷺ أو بعض ما أتى به هو الحق من عند الله

تعالى فيواجه بأنه هو الحق من عند الله لا غيره، ثم يرد بالاشتراط في مثل قوله: اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب أليم.

فالأشبه ان لا يكون هذا حكاية عن بعض المشركين بنسبته الى جميعهم لاتفاقهم في الرأي او رضا جميعهم بما قاله هذا القائل بل كأنه حكاية عن بعض أهل الردة ممن اسلم ثم ارتد او عن بعض اهل الكتاب المعتقدين بدين سماوي حق فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ الى آخر الآية استفهام في معنى الإنكار او التعجب، وقوله: «وما لهم» بتقدير فعل يتعلق به الظرف ويكون قوله: «ان لا يعذبهم» مفعول له او هو من التضمين نظير ما قيل في قوله: ﴿هل لك الى ان تزكى﴾ (النازعات / ١٨).

والتقدير على أي حال نحو من قولنا: «وما الذي يثبت ويحق لهم عدم تعذيب الله اياهم والحال انهم يصدون عن المسجد الحرام ويمنعون المؤمنين من دخوله وما كانوا اولياءه». فقوله: «وهم يصدون» الخ: حال عن ضمير «يعذبهم» وقوله: «وما كانوا اولياءه» حال عن ضمير «يصدون».

وقوله: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ تعليل لقوله: «وما كانوا اولياءه» أي ليس لهم ان يلوا امر البيت فيجيزوا ويمنعوا من شاؤا لأن هذا المسجد مبني على تقوى الله فلا يلي امره إلّا المتقون وليسوا بهم.

فقوله: «إن أولياؤه إلّا المتقون» جملة خبرية تعلل القول بأمر بين يدركه كل ذي لب، وليست الجملة إنشائية مشتملة على جعل الولاية للمتقين، ويشهد لما ذكرناه قوله بعد «ولكن أكثرهم لا يعلمون» كما لا يخفى.

والمراد بالعذاب العذاب بالقتل أو الأعمّ منه على ما يفيده السياق باتصال الآية بالآية التالية. وقد تقدم ان الآية غير متصلة ظاهراً بما تقدمها أي ان الآيتين «واذ قالوا اللهم» الخ:

« وما كان الله ليعذبهم » الخ: خارجتان عن سياق الآيات، ولازم ذلك ما ذكرناه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ المكاء بضم الميم الصفير. والمكّاء بصيغة المبالغة طائر بالحجاز شديد الصفير. ومنه المثل السائر: بنيك حمّري ومكّكيني. والتصدية التصفيق بضرب اليد على اليد.

وقوله: « وما كان صلاتهم » الضمير لهؤلاء الصادّين المذكورين في الآية السابقة وهم المشركون من قريش، وقوله: « فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » بيان إنجاز العذاب الموعد لهم بقرينة التفريع بالفاء.

ومن هنا يتأيد ان الآيتين متصلتان كلاماً واحداً. وقوله: « وما كان » الخ: جملة حالية والمعنى: وما لهم ان لا يعذبهم الله والحال انهم يصدّون العبّاد من المؤمنين عن المسجد الحرام وما كان صلاتهم عند البيت إلّا ملعبة من المكاء والتصدية فإذا كان كذلك فليذوقوا العذاب بما كانوا يكفرون. والالتفات في قوله: « فذوقوا العذاب » عن الغيبة الى الخطاب لبلوغ التشديد.

ويستفاد من الآيتين ان الكعبة المشرّفة لو تركت بالصدّ استعقب ذلك المؤاخذة الالهية بالعذاب قال علي عليه السلام في بعض وصاياه « الله الله في بيت ربكم فانه إن ترك لم تنظروا »[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الى آخر الآية يبين حال الكفار في ضلال سعيهم الذي يسعونه لابطال دعوة الله والمنع عن سلوك السالكين لسبيل الله. ويشرح ذلك قوله: « فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون » الخ.

---

١. نهج البلاغة في باب الوصايا.

وبهذا السياق يظهر ان قوله: «والذين كفروا الى جهنم يحشرون» بمنزلة التعليل، ومحصل المعنى ان الكفر سيبعثهم ـ بحسب سنّة الله في الأسباب ـ الى ان يسعوا في إبطال الدعوة والصدّ عن سبيل الحق غير ان الظلم والفسق وكل فساد لا يهدي الى الفلاح والنجاح فسينفقون اموالهم في سبيل هذه الاغراض الفاسدة فتضيع الاموال في هذا الطريق فيكون ضيعتها موجبة لتحسّرهم، ثم يغلبون فلا ينتفعون بها. وذلك ان الكفار يحشرون الى جهنم ويكون ما يأتون به في الدنيا من التجمع على الشر والخروج الى محاربة الله ورسوله بحذاء خروجهم محشورين الى جهنم يوم القيامة.

وقوله: «فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون» الى آخر الآية: من ملاحم القرآن والآية من سورة الأنفال النازلة بعد غزوة بدر فكأنها تشير الى ما سيقع من غزوة أُحد او هي وغيرها. وعلى هذا فقوله: «فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة» اشارة الى غزوة أُحد او هي وغيرها، وقوله: «ثم يغلبون» الى فتح مكة، وقوله: «والذين كفروا الى جهنم يحشرون» الى حال من لا يوفق للإسلام منهم.

قوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾ الخباثة والطيب معنيان متقابلان وقد مرّ شرحهما والتمييز إخراج الشيء عما يخالفه وإلحاقه بما يوافقه بحيث ينفصل عما يخالفه. والركم جمع الشيء فوق الشيء ومنه سحاب مركوم أي مجتمع الأجزاء بعضها الى بعض ومجموعها وتراكم الاشياء تراكب بعضها بعضاً.

والآية في موضع التعليل لما أُخبر به في الآية السابقة من حال الكفار بحسب السنّة الكونية، وهو انهم يسعون بتمام وجدهم ومقدرتهم الى ان يطفؤوا نور الله ويصدوا عن سبيل الله فينفقون في ذلك الاموال ويبذلون في طريقه المساعي غير انهم لا يهتدون الى مقاصدهم ولا يبلغون آمالهم بل تضيع اموالهم، وتحبط اعمالهم وتضل مساعيهم، ويرثون بذلك

الحسرة والهزيمة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ الى آخر الآية: الانتهاء الإقلاع عن الشيء لأجل النهي. والسلوف التقدم. والسنَّة هي الطريقة والسيرة.

امر النبي ﷺ ان يبلغهم ذلك وفي معناه تطميع وتخويف وحقيقته دعوة الى ترك القتال والفتنة ليغفر الله لهم بذلك ما تقدم من قتلهم وإيذائهم للمؤمنين فان لم ينتهوا عما نهوا عنه فقد مضت سنَّة الله في الأولين منهم بالاهلاك والإبادة وخسران السعي.

قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الآية: وما بعدها يشتملان على تكليف المؤمنين بحذاء ما كلف به الكفار في الآية السابقة، والمعنى: قل لهم إن ينتهوا عن المحادة لله ورسوله يغفر لهم ما قد سلف وان يعودوا الى مثل ما عملوا فقد علموا بما جرى على سابقتهم قل لهم كذا وأما انت والمؤمنون فلا تهنوا فيما يهمكم من إقامة الدين وتصفية جو صالح للمؤمنين. وقاتلوهم حتى تنتهي هذه الفتن التي تفاجئكم كل يوم، ولا تكون فتنة بعد فإن انتهوا فإن الله يجازيهم بما يرى من اعمالهم، وإن تولوا عن الانتهاء فأديموا القتال والله مولاكم فاعلموا ذلك ولا تهنوا ولا تخافوا.

والفتنة ما يمتحن به النفوس وتكون لا محالة مما يشق عليها، وغلب استعمالها في المقاتل وارتفاع الأمن وانتقاض الصلح، وكان كفار قريش يقبضون على المؤمنين بالنبي ﷺ قبل الهجرة وبعدها الى مدة في مكة ويعذبونهم ويجبرونهم على ترك الاسلام والرجوع الى الكفر، وكانت تسمى فتنة.

وقد ظهر بما يفيده السياق من المعنى السابق ان قوله: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة» كناية عن تضعيفهم بالقتال حتى لا يغتروا بكفرهم ولا يلقوا فتنة يفتتن بها المؤمنون، ويكون الدين كله لله لا يدعو الى خلافه احد، وان قوله: «فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير» المراد

به الانتهاء عن القتال ولذلك اردفه بمثل قوله: «فإن الله بما يعملون بصير» أي عندئذ يحكم الله فيهم بما يناسب اعمالهم وهو بصير بها. وان قوله: «وإن تولوا» الخ؛ أي ان تولوا عن الانتهاء، ولم يكفوا عن القتال ولم يتركوا الفتنة فاعلموا ان الله مولاكم وناصركم وقاتلوهم مطمئنين بنصر الله نعم المولى ونعم النصير.

وقد ظهر ان قوله: «ويكون الدين كله لله» لا ينافي إقرار اهل الكتاب على دينهم ان دخلوا في الذمة واعطوا الجزية فلا نسبة للآية مع قوله تعالى: ﴿حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون﴾ (التوبة / ٢٩) بالناسخية والمنسوخية[١].

٤١ ● وَٱعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبىٰ وَٱلْيَتَامىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلى عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

٤٢ ● إِذ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَادِ وَلٰكِنْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ.

٤٣ ● إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرٰيكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ.

---

١. الانفال ٣٠ ـ ٤٠: بحث روائي في قصة هجرة رسول الله. مكر قريش على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٤٤ ● وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي
أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ
ٱلْأُمُورُ.

٤٥ ● يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَثِيراً
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

٤٦ ● وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ
وَٱصْبِرُوا إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ.

٤٧ ● وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ
وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ.

٤٨ ● وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ
النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ
عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ
ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ.

٤٩ ● إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هٰؤُلَاءِ
دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

٥٠ ● وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ.

٥١ ● ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.

٥٢ ● كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ

فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ.

٥٣ ❁ ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلىٰ قَوْمٍ حَتّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

٥٤ ❁ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ الى آخر الآية؛ الغنم والغنيمة إصابة الفائدة من جهة تجارة او عمل او حرب وينطبق بحسب مورد نزول الآية على غنيمة الحرب. قال الراغب: الغنم ـ بفتحتين ـ معروف قال: ومن البقر والغنم ما حرمنا عليهم شحومهما، والغنم ـ بالضم فالسكون ـ إصابته والظفر به ثم استعمل في كل مظفور به من جهة العدى وغيرهم قال: واعلموا أنما غنمتم من شيء، فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً. والمغنم ما يغنم وجمعه مغانم قال: فعند الله مغانم كثيرة. انتهى.

وذو القربى القريب والمراد به قرابة النبي ﷺ او خصوص اشخاص منهم على ما يفسره الآثار القطعية. واليتيم هو الانسان الذي مات ابوه وهو صغير. قالوا: كل حيوان يتيم من قِبل امه إلّا الانسان فان يتمه من قِبل ابيه.

وقوله: «فأن لله خمسه» الخ؛ قرىء بفتح أن، ويمكن ان يكون بتقدير حرف الجرّ والتقدير: واعلموا ان ما غنمتم من شيء فعلى أن لله خمسه اي هو واقع على هذا الاساس محكوم به، ويمكن ان يكون بالعطف على أن الاولى، وحذف خبر الاولى لدلالة الكلام عليه. والتقدير: اعلموا أن ما غنمتم من شيء يجب قسمته فاعلموا ان خمسه لله، او يكون الفاء لاستشمام معنى

الشرط فان مآل المعنى الى نحو قولنا: إن غنمتم شيئاً فخمسه لله، الخ؛ فالفاء من قبيل فاء الجزاء، وكرر أن للتأكيد، والأصل اعلموا أن ما غنمتم من شيء أن خمسه لله، الخ؛ والأصل الذي تعلق به العلم هو: ما غنمتم من شيء خمسه لله وللرسول، الخ؛ وقد قدم لفظ الجلالة للتعظيم.

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ﴾ الخ؛ قيد للأمر الذي يدل عليه صدر الآية أي أدوا خمسه إن كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا، وربما قيل: انه متصل بقوله تعالى في الآية السابقة: «فاعلموا ان الله هو مولاكم» هذا والسياق الذي يتم بحيلولة قوله: «واعلموا أنما غنمتم من شيء» الخ؛ لا يلائم ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ الظاهر ان المراد به القرآن بقرينة تخصيص النبي ﷺ بالإنزال، ولو كان المراد به الملائكة المنزلون يوم بدر ـ كما قيل ـ لكان الأنسب اولاً: ان يقال: ومن أنزلنا على عبدنا، او ما يؤدي هذا المعنى وثانياً: ان يقال: عليكم لا على عبدنا فان الملائكة كما أُنزلت لنصرة النبي ﷺ أُنزلت لنصرة المؤمنين معه كما يدل عليه قوله: ﴿فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ (الأنفال / ٩). وقوله بعد ذلك: ﴿إذ يوحي ربك الى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾ الخ؛ (الأنفال / ١٢). ونظيرهما قوله: ﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين﴾ (آل عمران / ١٢٥).

وفي الإلتفات من الغيبة الى التكلم في قوله: «إن كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا» من بسط اللطف على رسول الله ﷺ واصطفائه بالقرب ما لا يخفى.

ويظهر بالتأمل فيما قدمناه من البحث في قوله تعالى في اول السورة: «يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول» الآية؛ أن المراد بقوله: «وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان» هو قوله

تبارك وتعالى: «فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً» بما يحتف به من الآيات.

والمراد بقوله: «يوم الفرقان» يوم بدر كما يشهد به قوله بعده: «يوم التقى الجمعان» فان يوم بدر هو اليوم الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل فأحق الحق بنصرته، وأبطل الباطل بخذلانه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بمنزلة التعليل لقوله: «يوم الفرقان» بما يدل عليه من تمييزه تعالى بين الحق والباطل كأنه قيل: والله على كل شيء قدير فهو قادر ان يفرق بين الحق والباطل بما فرق.

فمعنى الآية ـ والله أعلم ـ واعلموا ان خمس ما غنمتم اي شيء كان هو لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل فردوه الى أهله ان كنتم آمنتم بالله وما أنزله على عبده محمّد ﷺ يوم بدر، وهو ان الأنفال وغنائم الحرب لله ولرسوله لا يشارك الله ورسوله فيها احد. وقد أجاز الله لكم أن تأكلوا منها وأباح لكم التصرف فيها فالذي أباح لكم التصرف فيها يأمركم ان تؤدوا خمسها الى أهله.

وظاهر الآية أنها مشتملة على تشريع مؤبد كما هو ظاهر التشريعات القرآنية. وأن الحكم متعلق بما يسمى غنماً وغنيمة سواء كان غنيمة حربية مأخوذة من الكفار أو غيرها مما يطلق عليه الغنيمة لغة كأرباح المكاسب والغوص والملاحة والمستخرج من الكنوز والمعادن، وإن كان مورد نزول الآية هو غنيمة الحرب فليس للمورد أن يخصص.

وكذا ظاهر ما عد من موارد الصرف بقوله: «لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل» انحصار الموارد في هؤلاء الأصناف، وأن لكل منهم سهماً بمعنى استقلاله في اخذ السهم كما يستفاد مثله من آية الزكاة من غير ان يكون ذكر الأصناف من قبيل التمثيل.

فهذا كله مما لا ريب فيه بالنظر الى المتبادر من ظاهر معنى الآية. وعليه وردت الأخبار

من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وقد اختلفت كلمات المفسرين من أهل السنة في تفسير الآية وسنتعرض لها في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ العدوة بالضم وقد يكسر شفير الوادي. والدنيا مؤنث أدنى كما ان القصوى وقد يقال: القصيا مؤنث اقصى والركب كما قيل هو العير الذي كان عليه ابوسفيان بن حرب.

والظرف في قوله: «اذ أنتم بالعدوة» بيان ثان لقوله في الآية السابقة: «يوم الفرقان» كما أن قوله: «يوم التقى الجمعان» بيان اول له متعلق بقوله: «أنزلنا على عبدنا» واما ما يظهر من بعضهم إنّه بيان لقوله: «والله على كل شيء قدير» بما يفيده بحسب المورد، والمعنى: والله قدير على نصركم وأنتم أذلة اذ انتم نزول بشفير الوادي الأقرب، فلا يخفى بعده ووجه التكلف فيه.

وقوله تعالى: «ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد». سياق ما تقدمه من الجمل الكاشفة عن تلاقي الجيشين، وكون الركب اسفل منهم، وان الله بقدرته التي قهرت كل شيء فرق بين الحق والباطل، وأيد الحق على الباطل، وكذا قوله بعد: «ولكن ليقضي الله امراً كان مفعولاً» كل ذلك يشهد على أن المراد بقوله: «ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد» بيان ان التلاقي على هذا الوجه لم يكن إلّا بمشية خاصة من الله سبحانه حيث نزل المشركون وهم ذووا عدة وشدة بالعدوة القصوى وفيها الماء والأرض الصلبة، والمؤمنون على قلة عددهم وهوان امرهم بالعدوة الدنيا ولا ماء فيها والأرض رملية لا تثبت تحت اقدامهم، وتخلص العير منهم اذ ضرب ابو سفيان في الساحل أسفل، وتلاقى الفريقان لا حاجز بينهما ولا مناص عندئذ عن الحرب، فالتلاقي والمواجهة على هذا الوجه ثم ظهور المؤمنين على المشركين، لم يكن عن اسباب عادية بل لمشيّة خاصة إلهية ظهرت بها قدرته وبانت بها عنايته الخاصة ونصره

وتأييده للمؤمنين.

فقوله: «ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد» بيان ان هذا التلاقي لم يكن عن سابق قصد وعزيمة، ولا روية او مشورة، وهذا المعنى عقبه بقوله: «ولكن ليقضي الله امراً كان مفعولاً» بما فيه من الاستدراك.

وقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ لتعليل ما قضي به من الأمر المفعول أي إن الله إنما قضى هذا الذي جرى بينكم من التلاقي والمواجهة ثم تأييد المؤمنين وخذلان المشركين ليكون ذلك بينة ظاهرة على حقية الحق وبطلان الباطل فيهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

وبذلك يظهر ان المراد بالهلاكة والحياة هو الهدى والضلال لأن ذلك هو الذي يرتبط به وجود الآية البينة ظاهراً.

وكذا قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ عطف على قوله: «ليهلك من هلك عن بينة» الخ؛ أي وإن الله إنما قضى ما قضى وفعل ما فعل لأنه سميع يسمع دعاءكم عليم يعلم ما في صدوركم. وفيه إشارة الى ما ذكره في صدر الآيات: «اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم» الى آخر الآيات.

وعلى هذا السياق ـ أي لبيان أن مرجع الأمر في هذه الواقعة هو القضاء الخاص الإلهي دون الأسباب العادية ـ سيق قوله تعالى بعد: «اذ يريكهم الله في منامك قليلاً» الخ؛ وقوله «واذ زين لهم الشيطان اعمالهم» الخ؛ وقوله: «اذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم» الخ.

ومعنى الآية يوم الفرقان هو الوقت الذي انتم نزول بالعدوة الدنيا وهم نزول بالعدوة القصوى، وقد توافق نزولكم بها ونزولهم بها بحيث لو تواعدتم بينكم ان تلتقوا بهذا الميعاد لاختلفتم فيه ولم تتلاقوا على هذه الوتيرة فلم يكن ذلك منكم ولا منهم ولكن ذلك كان امراً

مفعولاً والله قاضيه وحاكمه، وإنما قضى ما قضى ليظهر آية بينة فتتم بذلك الحجة، ولأنه قد استجاب ذلك دعوتكم بما سمع من استغاثتكم وعلم به من حاجة قلوبكم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً﴾ الى آخر الآية؛ الفشل هو الضعف مع الفزع. والتنازع هو الاختلاف وهو من النزع نوع من القلع كأن المتنازعين ينزع كل منهما الآخر عما هو فيه. والتسليم هو النتيجة.

والكلام على تقدير اذكر أي اذكر وقتاً يريكهم الله في منامك قليلاً. وإنما أراكهم قليلاً ليربط بذلك قلوبكم وتطمئن نفوسكم ولو اراكهم كثيراً ثم ذكرتها للمؤمنين افزعكم الضعف واختلفتم في امر الخروج اليهم ولكنه تعالى نجّاكم بإراءتهم قليلاً عن الفشل والتنازع انه عليم بذات الصدور وهي القلوب يشهد ما يصلح به حال القلوب في اطمئنانها وارتباطها وقوتها.

والآية تدل على ان الله سبحانه أرى نبيه ﷺ رؤيا مبشرة رأى فيها ما وعده الله من إحدى الطائفتين انها لهم، وقد أراهم قليلاً لا يعبأ بشأنهم، وأن النبي ﷺ ذكر ما رآه للمؤمنين ووعدهم وعد تبشير فعزموا على لقائهم. والدليل على ذلك قوله: «ولو أراكهم كثيراً لفشلتم» الخ؛ وهو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ الى آخر الآية؛ معنى الآية ظاهر، ولا تنافي بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأُخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء﴾ (آل عمران / ١٣) بناء على ان الآية تشير الى وقعة بدر.

وذلك ان التقليل الذي يشير اليه في الآية المبحوث عنها مقيد بقوله: «اذ التقيتم» وبذلك يرتفع التنافي كأن الله سبحانه أرى المؤمنين قليلاً في اعين المشركين في بادىء الالتقاء ليستحقروا جمعهم ويشجعهم ذلك على القتال والنزال حتى اذا زحفوا واختلطوا، كثّر المؤمنين في أعينهم فرأوهم مثليهم رأي العين فأوهن بذلك عزمهم وأطار قلوبهم فكانت الهزيمة فآية

الأنفال تشير الى اول الوقعة، وآية آل عمران الى ما بعد الزحف والاختلاط وقوله: «ليقضي الله امراً كان مفعولاً» متعلق بقوله: «يريكموهم» وتعليل لمضمونه.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الى آخر الآيات الثلاث؛ قال الراغب في المفردات: الثبات ـ بفتح الثاء ـ ضد الزوال انتهى فهو في المورد ضد الفرار من العدو، وهو بحسب ماله من المعنى اعم من الصبر الذي يأمر به في قوله: «واصبروا إن الله مع الصابرين» فالصبر ثبات قبال المكروه بالقلب بأن لا يضعف ولا يفزع ولا يجزع، وبالبدن بأن لا يتكاسل ولا يتساهل ولا يزول عن مكانه ولا يعجل فيما لا يحمد فيه العجل فالصبر ثبات خاص.

والريح على ما قيل، العز والدولة، وقد ذكر الراغب ان الريح في الآية بمعنى الغلبة استعارة كأن من شأن الريح ان تحرك ما هبت عليه وتقلعه وتذهب به، والغلبة على العدو يفعل به ما تفعله الريح بالشيء كالتراب فاستعيرت لها.

وقال الراغب: البطر دهش يعتري الانسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها وصرفها الى غير وجهها قال عزَّ وجل: «بطراً ورئاء الناس» وقال: «بطرت معيشتها» وأصله: بطرت معيشته فصرف عنه الفعل ونصب، ويقارب البطر الطرب، وهو خفة أكثر ما يعتري من الفرح وقد يقال ذلك في الترح، والبيطرة معالجة الدابة. انتهى. والرئاء المراءاة.

وقوله: ﴿فَاثْبُتُوا﴾ أمر بمطلق الثبوت امام العدو، وعدم الفرار منه فلا يتكرر بالأمر ثانياً بالصبر كما تقدمت الإشارة اليه.

وقوله: ﴿وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَثِيراً﴾ اي في جنانكم ولسانكم فكل ذلك ذكر، ومن المعلوم أن الأحوال القلبية الباطنة من الإنسان هي التي تميز مقاصده وتشخصها سواء وافقها اللفظ كالفقير المستغيث بالله من فقره وهو يقول: يا غني والمريض المستغيث به من مرضه وهو يقول: يا شافي ولو قال الفقير في ذلك: يا الله او قال المريض فيه ذلك لكان معناه: يا غني ويا

شافي لأنهما بمقتضى الحال الباعث لهما على الاستغاثة والدعوة لا يريدان إلّا ذلك كما هو ظاهر.

والذي يخرج الى قتال عدوه. ثم لقيه واستعد الظرف للقتال. وليس فيه إلّا زهاق النفوس. وسفك الدماء ونقص الأطراف وكل ما يهدد الانسان بالفناء في ما يحبه فان حاله يحوّل فكرته ويصرف إرادته الى الظفر بما يريده بالقتال، والغلبة على العدو الذي يهدده بالفناء، والذي حاله هذا الحال وتفكيره هذا التفكير انما يذكر الله سبحانه بما يناسب حاله وتنصرف اليه فكرته.

وهذا اقوىٰ قرينة على ان المراد بذكر الله كثيراً ان يذكر المؤمن ما علّمه تعالى من المعارف المرتبطة بهذا الشأن وهو انه تعالى إلهه وربه الذي بيده الموت والحياة وهو على نصره لقدير، وأنه هو مولاه نعم المولى ونعم النصير، وقد وعده النصر اذ قال: إن تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم، وأن الله لا يضيّ أجر من احسن عملاً. وأن مآل امره في قتاله الى احدى الحسنيين إما الظفر على عدوه ورفع راية الاسلام وإخلاص الجو لسعادته الدينية، وإما القتل في سبيل الله والانتقال بالشهادة الى رحمته، والدخول في حظيرة كرامته، ومجاورة المقربين من اوليائه. وما في هذا الصف من المعارف الحقيقية التي تدعو الى السعادة الواقعية والكرامة السرمدية.

وقد قيد الذكر بالكثير لتتجدد به روح التقوى كلما لاح للانسان ما يصرف نفسه الى حب الحياة الفانية والتمتع بزخارف الدنيا الغارّة والخطورات النفسانية التي يلقيها الشيطان بتسويله.

وقوله: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ظاهر السياق ان المراد بها إطاعة ما صدر من ناحيته تعالى وناحية رسوله من التكاليف والدساتير المتعلقة بالجهاد والدفاع عن حومة الدين وبيضة الإسلام مما تشتمل عليه آيات الجهاد والسنّة النبوية كالابتداء بإتمام الحجة

وعدم التعرض للنساء والذراري والكف عن تبييت العدو وغير ذلك من أحكام الجهاد.

وقوله: «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم» اي ولا تختلفوا بالنزاع فيا بينكم حتى يورث ذلكم ضعف ارادتكم وذهاب عزتكم ودولتكم او غلبتكم فان اختلاف الآراء يخلّ بالوحدة ويوهن القوة.

وقوله: «واصبروا ان الله مع الصابرين» اي الزموا الصبر على ما يصيبكم من مكاره القتال مما يهددكم به العدو، وعلى الإكثار من ذكر الله، وعلى طاعة الله ورسوله من غير ان يهزهكم الحوادث او يزجركم ثقل الطاعة او تغويكم لذة المعصية او يضلكم عجب النفس وخيلاؤها.

وقد أكرد الأمر بالصبر بقوله: «إن الله مع الصابرين» لأن الصبر اقوى عون على الشدائد وأشد ركن تجاه التلون في العزم وسرعة التحول في الإرادة، وهو الذي يخلّي بين الانسان وبين التفكير الصحيح المطمئن حيث يهجم عليه الخواطر المشوشة والأبكار الموهنة لإرادته عند الأهوال والمصائب من كل جانب فالله سبحانه مع الصابرين.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ الآية؛ نهي عن اتخاذ طريقة هؤلاء البطرين المرائين الصادين عن سبيل الله، وهم على ما يفيده سياق الكلام في الآيات، كفّار قريش، وما ذكره من اوصافهم أعني البطر ورئاء الناس والصدّ عن سبيل الله هو الذي أوجب النهي عن التشبه بهم واتخاذ طريقتهم بدلالة السياق، وقوله: «والله بما يعملون محيط» ينبىء عن إحاطته تعالى بأعمالهم وسلطنته عليها وملكه لها، ومن المعلوم أن لازم ذلك كون أعمالهم داخلة في قضائه متمشية بإذنه ومشيته وما هذا شأنه لا يكون مما يعجز الله سبحانه فالجملة كالكناية عما يصرح به بعد عدّة آيات بقوله: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون﴾ (الأنفال / ٥٩).

وظاهر أن أخذ هذه القيود أعني قوله: «بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله»

يوجب تعلق النهي بها والتقدير: ولا تخرجوا من دياركم الى قتل اعداء الدين بطرين ومرائين بالتجملات الدنيوية، وصد الناس عن سبيل الله بدعوتهم بأقوالكم وأفعالكم الى ترك تقوى الله والتوغل في معاصيه والانخلاع عن طاعة اوامره ودساتيره فإن ذلك يحبط أعمالكم ويطفىء نور الإيمان ويبطل أثره عن جمعكم فلا طريق الى نجاح السعي والفوز بالمقاصد الهامة إلّا سويّ الصراط الذي يمهّده الدين القويم وتسهّله الملّة الفطريّة والله لا يهدي القوم الفاسقين الى مقاصدهم الفاسدة.

وقد اشتملت الآيات الثلاث على امور ستة أوجب الله سبحانه على المؤمنين رعايتها في الحروف الإسلامية عند اللقاء وهي الثبات، وذكر الله كثيراً، وطاعة الله ورسوله، وعدم التنازع، وأن لا يخرجوا بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله.

ومجموع الامور الستة دستور حربي جامع لا يفقد من مهام الدستورات الحربية شيئاً، والتأمل الدقيق في تفاصيل الوقائع في تاريخ الحروب الإسلامية الواقعة في زمن النبي ﷺ كبدر وأُحد والخندق وحنين وغير ذلك يوضح أن الأمر في الغلبة والهزيمة كان يدور مدار رعاية المسلمين موادّ هذا الدستور الإلهي وعدم رعايتها، والمراقبة لها والمساهلة فيها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ﴾ الى آخر الآية: تزيين الشيطان للانسان عمله هو إلقاؤه في قلبه كون العمل حسناً جميلاً يستلذ به وذلك بتهييج قواه الباطنة وعواطفه الداخلة المتعلقة بذلك العمل فينجذب إليه قلبه، ولا يجد فراغاً يعقل ماله من سوء الأثر وشؤم العاقبة.

وليس من البعيد ان يكون قوله: «وقال لا غالب لكم اليوم» الآية: مفسراً أو بمنزلة المفسّر للتزيين الشيطاني على ان يكون المراد بالأعمال نتائجها وهي ما هيّؤوه من قوّة وسلاح وعدّة وما اخرجوه من القيان والمعازف والخمور، وما تظاهروا به من نظام الجيش والجنائب تساق بين أيديهم، ويمكن أن يكون المراد بها نفس الأعمال وهي أنواع تماديهم في الغي

والضلال وإصرارهم في محادّة الله ورسوله، واسترسالهم في الظلم والفسق فيكون قوله المحكيّ: «لا غالب لكم اليوم من الناس» مما يتم به تزيين الشيطان، وتطييب به نفوسهم فيما اهتموا به من قتال المسلمين، وقد اكمل ذلك بقوله: «وإني جار لكم».

والجوار من سنن العرب في الجاهلية التي كانت تعيش عيشة القبائل، ومن حقوق الجوار نصرة الجار للجار اذا دهمه عدو، وله آثار مختلفة بحسب السنن الجارية في المجتمعات الإنسانية.

وقوله: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ النكوص الاحجام عن الشيء و «على عقبيه» حال والعقب مؤخر القدم أي أحجم وقد رجع القهقري منهزماً وراءه.

وقوله: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الآية؛ تعليل لقوله: «إني بريء منكم» ولعله إشارة إلى نزول الملائكة المردفين الذين نصر الله المسلمين بهم، وكذا قوله: «إني أخاف الله والله شديد العقاب» تعليل لقوله: «إني بريء منكم» ومفسّر للتعليل السابق.

والمعنى ويوم الفرقان هو الوقت الذي زيّن الشيطان لمشركين ما كانوا يعملونه لمحادّة الله ورسوله وقتال المؤمنين، ويتلبسون به للتهيء على إطفاء نور الله، فزيّن ذلك في أنظارهم، وطيّب نفوسهم بقوله: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني مجير لكم أذب عنكم فلما تراءت الفئتان فرأى المشركون المؤمنين والمؤمنون المشركين رجع الشيطان القهقري منهزماً وراءه وقال للمشركين إني بريء منكم إني أرى ما لا ترونه من نزول ملائكة النصر للمؤمنين وما عندهم من العذاب الذي يهددكم اني أخاف عذاب الله والله شديد العقاب.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ الى آخر الآية؛ اي يقول المنافقون وهم الذين أظهروا الايمان وأبطنوا الكفر، والذين في قلوبهم مرض وهم الضعفاء في الايمان ممن لا يخلو نفسه من الشك والارتياب. يقولون

ـ مشيرين الى المؤمنين إشارة تحقير واستذلال ـ: غرَّ هؤلاء دينهم اذ لو لا غـرور ديـنهم لم يقدموا على هذه المهلكة الظاهرة، وهم شرذمة أذلاء لا عدة لهم ولا عُدة، وقريش على ما بهم من العدة والقوة والشوكة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في مقام الجواب عن قولهم وإبانة غرورهم انفسهم: وقوله: «فان الله عزيز حكيم» من وضع السبب موضع المسبب، والمعنى: وقد أخطأ هؤلاء المنافقون والذين في قلوبهم مرض في قولهم فان المؤمنين توكلوا على الله ونسبوا حقيقة التأثير اليه وضموا انفسهم الىٰ قوّته وحوله، ومن يتوكل امره على الله فان الله يكفيه لأنه عزيز ينصر من استنصره حكيم لا يخطأ في وضع كل امر موضعه الذي يليق به.

وفي الآية دليل على حضور جمع من المنافقين وضعفاء الايمان ببدر حين تلاقي الفئتين.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمَلَائِكَةُ﴾ الى تمـام الآيـتين؛ التوفي اخذ الحق بتمامه، ويستعمل في كلامه تعالى كثيراً بمعنى قـبض الروح، ونـسبة قـبض ارواحهم الى الملائكة مع ما في بعض الآيات من نسبته الى ملك الموت، وفي بعض آخر الى الله سبحانه كقوله: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكّل بكم﴾ (الم السجدة / ١١)، وقوله: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ (الزمر / ٤٢) دليل على ان لملك الموت اعواناً يـتولون قـبض الارواح هم بمنزلة الأيدي العمالة له يصدرون عن إذنه ويعملون عن امره، كما انه يصدر عن إذن من الله ويعمل عن امر منه، وبذلك يصح نسبة التوفي الى المـلائكة الأعوان، والى مـلك الموت، والى الله سبحانه.

وقوله: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ ظاهره انهم يضربون مـقاديم ابـدانهـم وخلاف ذلك فيكنى به عن إحاطتهم واستيعاب جهاتهم بالضرب، وقيل: إن الأدبار كناية عن الاستاه فبالمناسبة يكون المراد بوجوههم مقدم رؤوسهم، وضرب الوجوه والأدبار بهذا

المعنى يراد به الإزراء والإذلال.

وقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي يقول لهم الملائكة: ذوقوا عذاب الحريق وهو النار.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ تتمة لقولهم المحكي او إشارة الى مجموع ما يفعل بهم وما يقول لهم الملائكة، والمعنى إنما نذيقكم عذاب الحريق بما قدمت ايديكم او: نضرب وجوهكم وأدباركم ونذيقكم عذاب الحريق بما قدمت ايديكم.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ معطوف على موضع قوله: «ما قدمت» أي وذلك بأن الله ليس بظلام للعبيد أي لا يظلم احداً من عبيده فإنه تعالى على صراط مستقيم لا تخلف ولا اختلاف في فعله فلو ظلم احداً لظلم كل احد، ولو كان ظالماً لكان ظلاماً للعبيد فافهم ذلك.

وسياق الآيات يشهد على ان المراد بهؤلاء الذين يصفهم الله سبحانه بأن الملائكة يتوفاهم ويعذبهم هم المقتولون ببدر من مشركي قريش.

قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ﴾ الى آخر الآية؛ الدأب والديدن: العادة وهي العمل الذي يدوم ويجري على الإنسان، والطريقة التي يسلكها، والمعنى كفر هؤلاء يشبه كفر آل فرعون والذين من قبلهم من الأمم الخالية الكافرة كفروا بآيات الله وأذنبوا بذلك فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي لا يضعف عن اخذهم شديد العقاب اذا اخذ.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الخ؛ أي ان العقاب الذي يعاقب به الله سبحانه إنما يعقب نعمة إلهية سابقة بسلبها واستخلافها، ولا تزول نعمة من النعم الإلهية ولا تتبدل نقمة وعقاباً إلّا مع تبدل محله وهو النفوس الإنسانية، فالنعمة التي انعم بها على قوم إنما أُفيضت عليهم لما استعدوا لها في

انفسهم، ولا يسلبونها ولا تتبدل بهم نقمة وعقاباً إلّا لتغييرهم ما بأنفسهم من الاستعداد وملاك الإفاضة وتلبسهم باستعداد العقاب.

وهذا ضابط كلي في تبدل النعمة الى النقمة والعقاب، وأجمع منه قوله تعالى: ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ (الرعد / ١١) وإن كان ظاهره اظهر انطباقاً على تبدل النعمة الى النقمة.

وكيف كان فقوله: «ذلك بأن الله لم يك مغيراً» الخ: من قبيل التعليل بأمر عام وتطبيقه على مورده الخاص أي اخذ مشركي قريش بذنوبهم، وعقابهم بهذا العقاب الشديد، وتبديل نعمة الله عليهم عقاباً شديداً إنما هو فرع من فروع سنّة جارية إلهية هي ان الله لا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وقوله: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ تعليل آخر بعد التعليل بقوله: «ذلك بأن الله لم يك مغيراً» وظاهره ـ بمقتضى إشعار السياق ـ ان المراد به: وذلك بأن الله سميع لدعواتكم عليم بحاجاتكم سمع استغاثتكم وعلم بحاجتكم فاستجاب لكم فعذب أعداءكم الكافرين بآيات الله، ويحتمل أن يكون المراد: ذلك بأن الله سميع لأقوالهم عليم بأفعالهم فعذبهم على ذلك، ويمكن الجمع بين المحتملين.

قوله تعالى: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ الخ: كرر التنظير السابق لمشابهة الفرض مع ما تقدم فقوله «كدأب آل فرعون» الخ: السابق تنظير لقوله: «ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلّام للعبيد» كما ان قوله: «كدأب آل فرعون ـ الى قوله ـ وكل كانوا ظالمين» ثانياً تنظير لقوله «ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة» الخ.

غير ان التنظير الثاني يشتمل على نوع من الالتفات في قوله: «فأهلكناهم بذنوبهم» وقد وقع بحذائه في التنظير الأول «فأخذهم الله بذنوبهم» من غير التفات ولعل الوجه فيه ان

التنظير الثاني لما كان مسبوقاً بإفادة ان الله هو المفيض بالنعم على عباده ولا يغيرها إلّا عن تغييرهم ما بأنفسهم. وهذا شأن الرب بالنسبة الى عبيده اقتضى ذلك ان يعد هؤلاء عبيدة غير جارين على صراط عبودية ربهم ولذلك غيّر بعض سياق التنظيم فقال في الثاني «كذبوا بآيات ربهم» وقد كان بحذائه في الأول قوله: «كفروا بآيات الله» ولذلك التفت ههنا من الغيبة الى التكلم مع الغير فقال: «فأهلكناهم بذنوبهم» للدلالة على انه سبحانه هو ربهم وهو مهلكهم، وقد أُخذ المتكلم مع الغير للدلالة على عظمة الشأن وجلالة المقام، وان له وسائط يعملون بأمره ويجرون بمشيته.

وقوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أظهر المفعول ولم يقل: وأغرقناهم ليؤمن الالتباس برجوع الضمير الى آل فرعون والذين من قبلهم جميعاً.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أي جميع هؤلاء الذين أخذهم العذاب الإلهي من كفار قريش وآل فرعون والذين من قبلهم كانوا ظالمين في جنب الله.

وفيه بيان ان الله سبحانه لا يأخذ بعقابه الشديد أحداً، ولا يبدل نعمته على احد نقمة إلّا اذا كان ظالماً ظلماً يبدل نعمة الله كفراً بآياته فهو لا يعذب بعذابه إلّا مستحقه[1].

٥٥ ● إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.

٥٦ ● الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ.

٥٧ ● فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ.

---

١. الانفال ٤١ ـ ٥٤: بحث روائي في: الخمس؛ يوم الفرقان.

٥٨ • وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يُحِبُّ ٱلْخَائِنِينَ.
٥٩ • وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ.
٦٠ • وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ
بِهِ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ
يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ
وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ.
٦١ • وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ.
٦٢ • وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِي أَيَّدَكَ
بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ.
٦٣ • وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ
بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.
٦٤ • يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ.
٦٥ • يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ
عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا
أَلْفاً مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ.
٦٦ • ٱلْآنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ
مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ

بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عِنْدَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الكلام مسوق لبيان كون هؤلاء شر جميع الموجودات الحية من غير شك في ذلك لما في تقييد الحكم بقوله: «عند الله» من الدلالة عليه فان معناه الحكم: وما يحكم ويقضي به الله سبحانه لا يتطرق اليه خطأ وقد قال تعالى: ﴿لا يضل ربي ولا ينسى﴾ (طه / ٥٢).

وقد افتتح هذه القطعة من الكلام المتعلق بهم بكونهم شر الدواب عنده لأن مغزى الكلام التحرز منهم ودفعهم، ومن المغروز في الطباع ان الشر الذي لا يرجى معه خير يجب دفعه بأي وسيلة صحت وأمكنت فناسب ما سيأمره في حقهم بقوله: «فإما تثقفنهم في الحرب فشرّد بهم من خلفهم» الخ: الافتتاح ببيان كونهم شر الدواب.

وعقَّب قوله: «الذين كفروا» بقوله: «فهم لا يؤمنون» مبتدأ بفاء التفريع اي ان من وصفهم الذي يتفرع على كفرهم انهم لا يؤمنون، ولا يتفرع عدم الايمان على الكفر إلّا اذا رسخ في النفس رسوخاً لا يرجى معه زواله فلا مطمع حينئذ في دخول الايمان في قلب هذا شأنه لمكان المضادة التي بين الكفر والايمان.

ومن هنا يظهر ان المراد بقوله: «الذين كفروا» الذين ثبتوا على الكفر، وعند هذا يرجع معنى هذه الآية الى نظيرتها السابقة: ﴿ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ (الأنفال / ٢٣).

على ان الآيتين لما دلّتا على حصر الشر عند الله في طائفة معينة من الدواب كانت الآية الاولى مع دلالتها على كون اهلها ممن لا يؤمنون البتة دالة على ان المراد بقوله في الآية الثانية: «الذين كفروا فهم لا يؤمنون» كونهم ثابتين على كفرهم لا يزولون عنه البتة.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ بيان للذين كفروا في الآية السابقة او بدل منهم بدل البعض من الكل. ويتفرع عليه أن «من» في قوله: «منهم» تبعيضية والمعنى: الذين عاهدتهم من بين الذين كفروا. وأما احتمال ان يكون من زائدة والمعنى: الذين عاهدتهم، او بمعنى مع والمعنى: الذين عاهدت معهم: فليس بشيء.

والمراد بكل مرة مرات المعاهدة اي ينقضون عهدهم في كل مرة عاهدتهم وهم لا يتقون الله في نقض العهد او لا يتقونكم ولا يخافون نقض عهدكم. وفيه دلالة على تكرر النقض منهم.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ قال في المجمع الثقف الظفر والادراك بسرعة. والتشريد التفريق على اضطراب. انتهى. وقوله: «فإما تثقفنهم» أصله إن تثقفهم دخل «ما» التأكيد على ان الشرطية ليصحح دخول نون التأكيد على الشرط والكلام مسوق للتأكيد في ضمن الشرط.

والمراد بتشريد من خلفهم بهم ان يفعل بهم من التنكيل والتشديد ما يعتبر به من خلفهم، ويستولي الرعب والخوف على قلوبهم فيتفرقوا وينحل عقد عزيمتهم واتحاد ارادتهم على قتال المؤمنين وإبطال كلمة الحق.

وعلى هذا فالمراد بقوله: «لعلهم يتذكّرون» رجاء ان يتذكروا ما لنقض العهد والإفساد في الارض والمحادّة مع كلمة الحق من التبعة السيئة والعاقبة المشؤومة فان الله لا يهدي القوم الفاسقين وإن الله لا يهدي كيد الخائنين.

ففي الآية إيماء الى الأمر بقتالهم ثم التشديد عليهم والتنكيل بهم عند الظفر بهم وثقفهم. وإيماء الى ان وراءهم من حاله حالهم في نقض العهد وتربّص الدوائر على الحق وأهله.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

يُحِبُّ ٱلْخَائِنِينَ ﴾ الخيانة ـ على ما في المجمع ـ نقض العهد فيما يؤتمن عليه. وهذا معنى الخيانة في العهود والمواثيق. وأما الخيانة بمعناها العام فهي نقض ما أُبرم من الحق في عهد أو امانة. والنبذ هو الإلقاء ومنه قوله: ﴿ فنبذوه وراء ظهورهم ﴾ (آل عمران / ١٨٧) والسواء بمعنى الاستواء والعدل.

وقوله: «وإما تخافن» كقوله في الآية السابقة: «فإما تثقفنهم» ومعنى الخوف ظهور امارات تدل على وقوع ما يجب التحرز منه والحذر عنه وقوله: «إن الله لا يحب الخائنين» تعليل لقوله: «فانبذ اليهم على سواء».

ومعنى الآية: وإن خفت من قوم بينك وبينهم عهد ان يخونوك وينقضوا عهدهم ولاحت آثار دالّة على ذلك فانبذ وألق إليهم عهدهم وأعلمهم إلغاء العهد لتكونوا انتم وهم على استواء من نقض العهد او تكون مستوياً على عدل فإن من العدل المعاملة بالمثل والسواء لأنك إن قاتلتهم بغير إعلام إلغاء العهد كان ذلك منك خيانة والله لا يحب الخائنين.

وملخص الآيتين دستوران إلهيان في قتال الذين لا عهد لهم بالنقض او بخوفه فان كان أهل العهد من الكفار لا يثبتون على عهدهم بنقضه في كل مرة فعلى ولي الأمر ان يقاتلهم ويشدد عليهم. وإن كانوا بحيث يخاف من خيانتهم ولا وثوق بعهدهم فيُعلمون إلغاء عهدهم ثم يقاتلون ولا يبدأ بقتالهم قبل الإعلام فإنما ذلك خيانة. وأما إن كانوا عاهدوا ولم ينقضوا ولم يخف خيانتهم فمن الواجب حفظ عهدهم واحترام عقدهم وقد قال تعالى: ﴿ فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ﴾ (التوبة / ٤). وقال: ﴿ اوفوا بالعقود ﴾ (المائدة / ١).

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ القراءة المشهورة «تحسبن» بتاء الخطاب. وهو خطاب للنبي ﷺ تطييباً لنفسه وتقوية لقلبه كالخطاب الآتي بعد عدة آيات «يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين» وكالخطاب الملقى بعده لتحريض المؤمنين: «يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال».

والسبق تقدم الشيء على طالب اللحوق به، والاعجاز إيجاد العجز. وقوله: «انهم لا يعجزون» تعليل لقوله: «ولا تحسبن» الخ؛ والمعنى: يا أيها النبي لا تحسبن ان الذين كفروا سبقونا فلا ندركهم، لأنهم لا يعجزون الله وله القدرة على كل شيء.

قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ الى آخر الآية: الإعداد تهيئة الشيء للظفر بشيء آخر وإيجاد ما يحتاج اليه الشيء المطلوب في تحققه كإعداد الحطب والوقود للإيقاد وإعداد الايقاد للطبخ، والقوة كل ما يمكن معه عمل من الأعمال، وهي في الحرب كل ما يتمشى به الحرب والدفاع من أنواع الاسلحة، والرجال المدربين والمعاهد الحربية التي تقوم بمصلحة ذلك كله. والرباط مبالغة في الربط وهو أيسر من العقد يقال: ربطه يربطه ربطاً ورابطه يرابطه مرابطة ورباطاً فالكل بمعنى غير ان الرباط ابلغ من الربط، والخيل هو الفرس، والإرهاب قريب المعنى من التخويف.

وقوله: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل» امر عام بتهيئة المؤمنين مبلغ استطاعتهم من القوى الحربية ما يحتاجون اليه قبال ما هم من الأعداء في الوجود او في الفرض والاعتبار فان المجتمع الانساني لا يخلو من التألف من أفراد او أقوام مختلفي الطباع ومتضادي الأفكار لا ينعقد بينهم مجتمع على سنّة قيّمة بمنافعهم إلّا وهناك مجتمع آخر يضادّه في منافعه، ويخالفه في سنّته، ولا يعيشان معاً برهة من الدهر إلّا وينشب بينهما الخلاف ويؤدي ذلك الى التغلب والقهر.

فالحروب المبيدة والاختلافات الداعية إليها مما لا مناص عنها في المجتمعات الانسانية والمجتمعات هي هذه المجتمعات، ويدل على ذلك ما نشاهده من تجهّز الانسان في خلقه بقوى لا يستفاد منها إلّا للدفاع كالغضب والشدّة في الأبدان، والفكر العامل في القهر والغلبة، فمن الواجب الفطريّ على المجتمع الإسلامي أن يتجهّز دائماً بإعداد ما استطاع من قوّة ومن رباط الخيل بحسب ما يفترضه من عدو لمجتمعه الصالح.

وقوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ في مقام التعليل لقوله: «وأعدوا لهم» أي وأعدوا لهم ذلك لترهبوا وتخوفوا به عدو الله وعدوكم، وفي عدّهم عدواً لله ولهم جميعاً بيان للواقع وتأكيد في التحريض.

وفي قوله: «وآخرين من دونهم لا تعلمونهم» دلالة على ان المراد بالأولين هم الذين يعرفهم المؤمنون بالعداوة لله ولهم، والمراد بهؤلاء الذين لا يعلمهم المؤمنون ـ على ما يعطيه إطلاق اللفظ ـ كل من لا خبرة للمؤمنين بتهديده إياهم بالعداوة من المنافقين الذين هم في كسوة المؤمنين وصورتهم يصلّون ويصومون ويحجون ويجاهدون ظاهراً، ومن غير المنافقين من الكفار الذين لم يبتل بهم المؤمنون بعد.

والإرهاب باعداد القوة، وان كان في نفسه من الأغراض الصحيحة التي تتفرع عليها فوائد عظيمة ظاهرة غير أنه ليس تمام الغرض المقصود من إعداد القوة، ولذلك أردفه بقوله «وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون» ليدل على جماع الغرض.

وذلك ان الغرض الحقيقي من إعداد القوى هو التمكن من الدفع مبلغ الاستطاعة، وحفظ المجتمع من العدو الذي يهدده في نفوسه وأعراضه وأمواله، وباللفظ المناسب لغرض الدين إطفاء نائرة الفساد الذي يبطل كلمة الحق ويهدم بنيان دين الفطرة الذي به يعبد الله في أرضه ويقوم ملاك العدل في عباده.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في المجمع: الجنوح الميل، ومنه جناح الطائر لأنه يميل به في احد شقيه، ولا جناح عليه أي لا ميل الى مأثم. انتهى، والسلم بفتح السين وكسرها الصلح.

وقوله: «وتوكل على الله» من تتمة الأمر بالجنوح فالجميع في معنى امر واحد، والمعنى: وإن مالوا الى الصلح والمسالمة فمل اليها وتوكل في ذلك على الله ولا تخف من ان يضطهدك

أسباب خفية عنك على غفلة منك وعدم تهيؤ لها فإن الله هو السميع العليم لا يغفله سبب ولا يعجزه مكر بل ينصرك ويكفيك وهذا هو الذي يثبته قوله في الآية التالية: «وإن يريدوا ان يخدعوك فإن حسبك الله».

وقد تقدم فيما اسلفناه من معنى التوكل على الله انه ليس اعتماداً عليه سبحانه بإلغاء الأسباب الظاهرية بل سلب الاعتماد القطعي على الأسباب الظاهرية لأن الذي يبدو للإنسان منها بعض يسير منها دون جميعها. والسبب التام الذي لا يتخلف عن مسببه هو الجميع الذي يحمل إرادته سبحانه.

فالتوكل هو توجيه الثقة والاعتماد الى الله سبحانه الذي بمشيته يدور رحى الأسباب عامة. ولا ينافيه ان يتوسل المتوكل بما يمكنه التوسل به من الأسباب اللائحة عليه من غير ان يلغي شيئاً منها فيركب مطية الجهل.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية: متصلة بما قبلها وهي بمنزلة دفع الدخل، وذلك ان الله سبحانه لما امر نبيه ﷺ بالجنوح للسلم ان جنحوا له ولم يرض بالخديعة لأنها من الخيانة في حقوق المعاشرة والمواصلة للعامة والله لا يحب الخائنين كان امره بالجنوح المذكور مظنة سؤال وهو ان من الجائز ان يكون جنوحهم للسلم خديعة منهم يضلون بها المؤمنين ليغيروا عليهم في شرائط وأحوال مناسبة فأجاب سبحانه بأنا امرناك بالتوكل فإن أرادوا بذلك ان يخدعوك فإن حسبك الله وقد قال تعالى: «ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ امره».

وهذا مما يدل على ان هناك أسباباً وراء ما ينكشف لنا من الأسباب الطبيعية العادية تجري على ما يوافق صلاح العبد المتوكل اذا خانته الأسباب الطبيعية العادية ولم تساعده على مطلوبه الحق.

وقوله: «هو الذي ايدك بنصره وبالمؤمنين» بمنزلة الاحتجاج على قوله: «فإن حسبك

الله » بذكر شواهد تدل على كفايته تعالى وهي انه ايّده بنصره وأيّده بالمؤمنين وألف بين قلوبهم وهي شيء متباغضة.

قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ الخ: قال الراغب: الإلف اجتماع مع التيام يقال: ألفت بينهم، ومنه الألفة. ويقال: للمألوف إلف وآلف قال تعالى: «اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم» انتهى.

أورد سبحانه في جملة ما استشهد على كفايته لمن توكل عليه انه كفى نبيه ﷺ بتأليف قلوب المؤمنين بعد ذكر تأييده بهم. والكلام مطلق والملاك المذكور فيه عام يشمل جميع المؤمنين وإن كانت الآية اظهر انطباقاً على الأنصار حيث ايّد الله بهم نبيه ﷺ فآووه ونصروه وألف الله سبحانه بدينه بينهم أنفسهم وقد نشبت فيهم الحروب المبيدة وكانت قائمة على ساقها دهراً طويلاً وهي حرب «بغاث» بين الأوس والخزرج حتى اصطلحوا بنزول الاسلام في دارهم وأصبحوا بنعمته إخواناً[١].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تطييب لنفس النبي ﷺ، وقد قال تعالى قبله: «فان حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين» فالمراد - والله اعلم - يكفيك الله بنصره وبمن اتبعك من المؤمنين، وليس المراد ان هناك سببين كافيين او سبباً كافياً ذا جزئين يتألف منها سبب واحد كاف فالتوحيد القرآني يأبى ذلك.

وربما قيل: ان المعنى حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين بعطف قوله: «من اتبعك» على موضع الكاف من «حسبك».

---

١. الانفال ٥٥ - ٦٦: كلام في: تأليف القلوب، الحب والبغض.

والكلام على اي حال مسوق للتحريض على القتال على ما يفيده السياق والقرائن الخارجة فان تأثير المؤمنين في كفايتهم له ﷺ إنما هو في القتال على ما يسبق الى الذهن.

وذكر بعضهم: ان الآية نزلت بالبيداء قبل غزوة بدر، وعلى هذا لا اتصال لها بما بعدها، وأما اتصالها بما قبلها فغير مقطوع به.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ الى آخر الآية: التحريض والتحضيض والترغيب والحضّ والحث بمعنى والفقه ابلغ وأغزر من الفهم، وقوله «إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين» اي من الذين كفروا كما قيد به الألف بعداً. وكذا قوله: «وإن يكن منكم مائة» اي مائة صابرة كما قيد بها «عشرون» قبلاً.

وقوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الباء للسببية او الآلة، والجملة تعليلية متعلقة بقوله: «يغلبوا» اي عشرون صابرون منكم يغلبون مائتين من الذين كفروا، ومائة صابرة منكم يغلبون الفاً من الذين كفروا كل ذلك بسبب ان الكفار قوم لا يفقهون.

وفقدان الفقه في الكفار وبالمقابلة ثبوته في المؤمنين هو الذي اوجب ان يعدل الواحد من العشرين من المؤمنين اكثر من العشرة من المائتين من الذين كفروا حتى يغلب العشرون من هؤلاء المائتين من اولئك على ما بني عليه الحكم في الآية فان المؤمنين انما يقدمون فيما يقدمون عن ايمان بالله وهو القوة التي لا يعادله ولا يقاومه اي قوة اخرى لابتنائه على الفقه الصحيح الذي يوصفهم بكل سجية نفسانية فاضلة كالشجاعة والشهامة والجرأة والاستقامة والوقار والطمأنينة والثقة بالله واليقين بأنه على احدى الحسنيين ان قتل ففي الجنة وإن قتل ففي الجنة، وأن الموت بالمعنى الذي يراه الكفار وهو الفناء لا مصداق له.

وأما الكفار فإنما اتكاؤهم على هوى النفس، واعتمادهم على ظاهر ما يسوّله لهم الشيطان، والنفوس المعتمدة على اهوائها لا تتفق للغاية وإن اتفقت احياناً فإنما تدوم عليه ما لم يلح لائح الموت الذي تراه فناء، وما اندر ما تثبت النفس على هواها حتى حال ما تهدد بالموت وهي

على استقامة من الفكر بل تميل بأدنى ريح مخالف، وخاصة في المخاوف العامة والمهاول الشاملة كما أثبته التاريخ من انهزام المشركين يوم بدر وهم ألف بقتل سبعين منهم، ونسبة السبعين الى الألف قريبة من نسبة الواحد الى اربعة عشر فكان انهزامهم في معنى انهزام الأربعة عشر مقاتلاً من مقاتل واحد، وليس ذلك إلّا لفقه المؤمنين الذي يستصحب العلم والايمان، وجهل الكفار الذي يلازمه الكفر والهوى.

قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن﴾ الخ؛ أي إن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين من الذين كفروا وإن يكن منكم ألف صابر يغلبوا الفين من الذين كفروا على وزان ما مرّ في الآية السابقة.

وقوله: «وعلم ان فيكم ضعفاً» المراد به الضعف في الصفات الروحية ولا محالة ينتهي الى الايمان فإن الايقان بالحق هو الذي ينبعث عنه جميع السجايا الحسنة الموجبة للفتح والظفر كالشجاعة والصبر والرأي المصيب وأما الضعف من حيث العدة والقوة فمن الضروري ان المؤمنين لم يزالوا يزيدون عدة وقوة في زمن النبي ﷺ.

وقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ تقييد لقوله: «يغلبوا» أي إن الله لا يشاء خلافه والحال انكم مؤمنون صابرون، وبذلك يظهر ان قوله: «والله مع الصابرين» يفيد فائدة التعليل بالنسبة الى الإذن.

وقوله تعالى في الآية السابقة تعليلاً للحكم: «بأنهم قوم لا يفقهون» وكذا في هذه الآية «وعلم ان فيكم ضعفاً» «والله مع الصابرين» وعدم الفقه والضعف الروحي والصبر من العلل والأسباب الخارجية المؤثرة في الغلبة والظفر والفوز بلا شك يدل على ان الحكم في الآيتين مبني على ما اعتبر من الأوصاف الروحية في الفئتين: المؤمنين والكفار، وأن القوى الداخلة الروحية التي اعتبرت في الآية الاولى ما في المؤمن الواحد منها غالبة على القوى الداخلة الروحية في عشر من الكفار عادت بعد زمان يسير يشير اليه بقوله: «الآن خفف الله عنكم»

لا يربو ما في المؤمن الواحد منها ـ من متوسطي المؤمنين ـ إلّا على اثنين من الكفار فقد فقدت القوة من أثرها بنسبة الثمانين في المائة ، وتبدلت العشرون والمائتان في الآية الاولى الى المائة والمائتين في الآية الثانية ، والمائة والألف في الاولى الى الألف والألفين في الثانية[١][٢] .

٦٧ ۞ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرىٰ حَتَّى يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

٦٨ ۞ لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

٦٩ ۞ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

٧٠ ۞ يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ ٱلْأَسْرىٰ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

٧١ ۞ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا ٱللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

---

١ . الانفال ٥٥ ـ ٦٦ : كلام في علة تخفيف الله في حكم الجهاد .

٢ . الانفال ٥٥ ـ ٦٦ : بحث روائي في : الذين عاهد منهم رسول الله ﷺ ثم ينقضون عهدهم في كل مرّة : معنى الآية « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » .

بيان:

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرىٰ حَتَّى يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الى آخر الآيات الثلاث. الأسر: الشد على المحارب بما يصير به في قبضة الآخذ له كما قيل والأسير هو المشدود عليه، وجمعه الأسرى والاسراء والاساري والأسارى. وقيل الأسارى جمع جمع وعلى هذا فالسبي أعم مورداً من الأسر لصدقه على أخذ من لا يحتاج الى شد كالذراري.

والثخن بالكسر فالفتح الغلظ، ومنه قولهم: أثخنته الجراح وأثخنه المرض قال الراغب في المفردات: يقال: ثخن الشيء فهو ثخين اذا غلظ فلم سل ولم يستمر في ذهابه، ومنه استعير قولهم: أثخنته ضرباً واستخفافاً قال الله تعالى: «ما كان لنبي ان يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض» «حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق» فالمراد بإثخان النبي في الأرض استقرار دينه بين الناس كأنه شيء غليظ انجمد فثبت، بعد ما كان رقيقاً سائلاً يخشى الزوال بالسيلان.

والعرض ما يطرأ على الشيء ويسرع فيه الزوال، ولذلك سمي به متاع الدنيا لدثوره وزواله عما قليل. والحلال وصف من الحل مقابل العقد والحرمة كأن الشيء الحلال كان معقوداً عليه محروماً منه فحل بعد ذلك؛ وقد مر معنى الطيب وهو الملائمة للطبع.

وقد اختلف المفسرون في تفسير الآيات بعد اتفاقهم على انها إنما نزلت بعد وقعة بدر تعاتب أهل بدر وتبيح لهم الغنائم[١].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ ٱلْأَسْرىٰ﴾ الى آخر الآية

---

١. الانفال ٦٧ ـ ٧١: بحث في: الاسارى والغنائم.

كون الأسرى بأيديهم استعارة لتسلطهم عليهم تمام التسلط كالشيء يكون في يد الانسان يقلبه كيف يشاء.

وقوله: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً﴾ كناية عن الايمان او اتباع الحق الذي يلازمه الايمان فإنه تعالى يعدهم في آخر الآية بالمغفرة، ولا مغفرة مع شرك قال تعالى ﴿إن الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ (النساء / ٤٨).

ومعنى الآية: يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى الذين تسلطتم عليهم وأخذت منهم الفداء: إن ثبت في قلوبكم الايمان وعلم الله منكم ذلك ـ ولا يعلم إلّا ما ثبت وتحقق ـ يؤتكم خيراً مما أُخذ منكم من الفداء ويغفر لكم والله غفور رحيم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا ٱللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ الخ: أمكنه منه أي أقدره عليه. وإنما قال اولاً: «خيانتك» ثم قال: «خانوا الله» لأنهم أرادوا بالفدية ان يجمعوا الشمل ثانياً ويعودوا الى محاربته ﷺ، وأما خيانتهم لله من قبل فهي كفرهم وإصرارهم على ان يطفؤوا نور الله وكيدهم ومكرهم.

ومعنى الآية: إن آمنوا بالله وثبت الايمان في قلوبهم آتاهم الله خيراً مما أُخذ منهم وغفر لهم، وإ أرادوا خيانتك والعود الى ما كانوا عليه من العناد والفساد فإنهم خانوا الله من قبل فأمكنك منهم وأقدرك عليهم وهو قادر على ان يفعل بهم ذلك ثانياً. والله عليم بخيانتهم لو خانوا حكيم في إمكانك منهم[1].

٧٢ ● إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ

---

١. الانفال ٦٧ ـ ٧١: بحث روائي في غزوة بدر الاسارى.

وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ
حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ ٱسْتَنْصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا
عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.
٧٣ ● وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي
ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ.
٧٤ ● وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ
آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ.
٧٥ ● وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ
مِنْكُمْ وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ إِنَّ
ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا﴾ الى قوله: «اولياء بعض» المراد بالذين آمنوا وهاجروا: الطائفة الاولى من المهاجرين قبل نزول السورة بدليل ما سيذكر من المهاجرين في آخر الآيات. والمراد بالذين آووا ونصروا: هم الانصار الذين آووا النبي ﷺ والمؤمنين المهاجرين ونصروا الله ورسوله. وكان ينحصر المسلمون يومئذ في هاتين الطائفتين إلاّ قليل ممن آمن بمكة ولم يهاجر.

وقد جعل الله بينهم ولاية بقوله: «اولئك بعضهم اولياء بعض» والولاية اعمّ من ولاية الميراث وولاية النصرة وولاية الأمن. فمن آمن منهم كافراً كان نافذاً عند الجميع: فالبعض

من الجميع وليّ البعض من الجميع كالمهاجر هو ولي كل مهاجر وأنصاري . والأنصاري ولي كل أنصاري ومهاجر ، كل ذلك بدليل إطلاق الولاية في الآية .

فلا شاهد على صرف الآية الى ولاية الإرث بالمواخاة التي كان النبي ﷺ جعلها في بدء الهجرة بين المهاجرين والأنصار وكانوا يتوارثون بها زماناً حتى نسخت .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا ﴾ الى آخر الآية ؛ معناه واضح وقد نفيت فيها الولاية بين المؤمنين المهاجرين والأنصار وبين المؤمنين غير المهاجرين إلّا ولاية النصرة اذا استنصروهم بشرط ان يكون الاستنصار على قوم ليس بينهم وبين المؤمنين ميثاق .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ اي ان ولايتهم بينهم لا تتعداهم الى المؤمنين فليس للمؤمنين ان يتولوهم ، وذلك ان قوله ههنا في الكفار : « بعضهم اولياء بعض » كقوله في المؤمنين : « أُولئك بعضهم اولياء بعض » إنشاء وتشريع في صورة الإخبار . وجعل الولاية بين الكفار أنفسهم لا يحتمل بحسب الاعتبار إلّا ما ذكرناه من نفي تعديه عنهم الى المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ إشارة الى مصلحة جعل الولاية على النحو الذي جعلت . فان الولاية مما لا غنى عنها في مجتمع من المجتمعات البشرية سيما المجتمع الإسلامي الذي أُسس على اتباع الحق وبسط العدل الإلهي كما ان تولي الكفار وهم أعداء هذا المجتمع يوجب الاختلاط بينهم فيسري فيه عقائدهم وأخلاقهم ، وتفسد سيرة الإسلام المبنية على الحق بسيرهم المبنية على اتباع الهوى وعبادة الشيطان . وقد صدّق جريان الحوادث في هذه الآونة ما أشارت اليه هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا ﴾ الى آخر الآية اثبات لحق الإيمان على من اتصف بآثاره اتصافاً حقاً ، ووعد لهم بالمغفرة والرزق الكريم .

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ خطاب للمهاجرين الاولين والأنصار والحاق من آمن وهاجر وجاهد معهم بهم فيشاركونهم في الولاية.

قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ الى آخر الآية؛ جعل للولاية بين أُولي الأرحام والقرابات، وهي ولاية الارث فان سائر أقسام الولاية لا ينحصر فيما بينهم.

والآية تنسخ ولاية الارث بالمواخاة التي أجراها النبي ﷺ بين المسلمين في اول الهجرة، وتثبت الارث بالقرابة سواء كان هناك ذو سهم او لم يكن او كان عصبة او لم يكن فالآية مطلقة كما هو ظاهر[1].

---

١. الانفال ٧٢ ـ ٧٥: بحث روائي في اولي الارحام.

سورة التوبة مدنية وهي مائة وتسع وعشرون آية

١ ● بَرَاءَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ.
٢ ● فَسِيحُوا فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ
مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَافِرِينَ.
٣ ● وَأَذَانٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ
بَرِيءٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ
تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ.
٤ ● إِلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ
يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ
ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ.
٥ ● فَإِذَا ٱنْسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَاقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ
وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ

فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلٰوةَ وَآتَوُا الزَّكٰوةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ
ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

٦ ● وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ
ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ.

٧ ● كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ ٱللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ
عَاهَدْتُمْ عِنْدَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا
لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ.

٨ ● كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً
يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ.

٩ ● إِشْتَرَوْا بِآيَاتِ ٱللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ.

١٠ ● لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ.

١١ ● فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلٰوةَ وَآتَوُا الزَّكٰوةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي ٱلدِّينِ
وَنُفَصِّلُ ٱلآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.

١٢ ● وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ
فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ.

١٣ ● أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ
وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.

١٤ ۞ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ
وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ.
١٥ ۞ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ.
١٦ ۞ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ
وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً
وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ قال الراغب: أصل البرء والبراء والتبرّي: التفصي مما يكره مجاورته، ولذلك قيل: برأت من المرض وبرأت من فلان وتبرأت، وأبرأته من كذا وبرّأته، ورجل بريء وقوم راء وبريؤون قال تعالى: براءة من الله ورسوله. انتهى.

والآية بالنسبة الى الآيات التالية الكعنوان المصدر به الكلام المشير الى خلاصة القول على نهج سائر السور المفصلة التي تشير الآية والآيتان من اولها على إجمال الغرض المسرود لأجل بيانه آياتها.

والخطاب في الآية للمؤمنين او للنبي ﷺ وهم على ما يدل عليه قوله: «عاهدتم» وقد أُخذ الله تعالى ومنه الخطاب ورسوله ﷺ وهو الواسطة، والمشركون وهم الذين أُريدت البراءة منهم، ووجه الخطاب ليبلغ اليهم جميعاً في الغيبة، وهذه الطريقة في الأحكام والفرامين المراد إيصالها الى الناس نوع تعظيم لصاحب الحكم والأمر.

والآية تتضمن إنشاء الحكم والقضاء بالبراءة من هؤلاء المشركين وليس بتشريع محض بدليل تشريكه النبي ﷺ في البراءة فان دأب القرآن ان ينسب الحكم التشريعي المحض الى الله سبحانه وحده، وقد قال تعالى: ﴿ولا يشرك في حكمه احداً﴾ (الكهف / ٢٦) ولا ينسب الى النبي ﷺ إلّا الحكم بالمعنى الذي في الولاية والسياسة وقطع الخصومة.

فالمراد بالآية القضاء برفع الأمان عن الذين عاهدوهم من المشركين وليس رفعاً جزافياً وإبطالاً للعهد من غير سبب يبيح ذلك فان الله تعالى سيذكر بعد عدة آيات أنهم لا وثوق بعهدهم الذي عاهدوه وقد فسق اكثرهم ولم يراعوا حرمة العهد ونقضوا ميثاقهم. وقد أباح تعالى عند ذلك إبطال العهد بالمقابلة نقضاً بنقض حيث قال: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين﴾ (الأنفال / ٥٨) فأباح إبطال العهد عند مخافة الخيانة ولم يرض مع ذلك إلّا بابلاغ النقض اليهم لئلا يؤخذوا على الغفلة فيكون ذلك من الخيانة المحظورة.

ولو كان إبطالاً لعهدهم من غير سبب مبيح لذلك من قبل المشركين لم يفرق بين من دام على عهده منهم وبين من لم يدم عليه، وقد قال تعالى مستثنياً: «إلّا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم احداً فأتموا اليهم عهدهم الى مدّتهم إن الله يحب المتقين».

ولم يرض تعالى بنقض عهد هؤلاء المعاهدين الناقضين لعهدهم دون ان ضرب لهم أجلاً ليفكروا في أمرهم ويرتاؤا رأيهم ولا يكونوا مأخوذين بالمباغتة والمفاجأة.

فمحصل الآية الحكم ببطلان العهد ورفع الأمان عن جماعة من المشركين كانوا قد عاهدوا المسلمين ثم نقضه اكثرهم ولم يبق الى من بقي منهم وثوق تطمئن به النفس الى عهدهم وتعتمد على يمينهم وتأمن شرهم وأنواع مكرهم.

قوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَافِرِينَ﴾ السياحة هي السير في الأرض والجري ولذلك يقال

للماء الدائم الجرية في ساحة: السائح.

وأمرهم بالسياحة اربعة اشهر كناية عن جعلهم في مأمن في هذه البرهة من الزمان وتركهم بحيث لا يتعرض لهم بشرّ حتى يختاروا ما يرونه أنفع بحالهم من البقاء او الفناء مع ما في قوله: «واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين» من إعلامهم ان الأصلح بحالهم رفض الشرك، والإقبال الى دين التوحيد، وموعظتهم ان لا يهلكوا أنفسهم بالاستكبار والتعرض للخزي الإلهي.

وقد وجه في الآية الخطاب إليهم بالإلتفات من الغيبة الى الخطاب لما في توجيه الخطاب القاطع والإرادة الجازمة الى الخصم من الدلالة على بسط الاستيلاء والظهور عليه واستذلاله واستحقار ما عنده من قوة وشدة.

قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ الأذان هو الإعلام، وليست الآية تكراراً لقوله تعالى السابق: «براءة من الله ورسوله» فإن الجملتين وان رجعتا الى معنى واحد وهو البراءة من المشركين إلّا ان الآية الاولى إعلام البراءة وإبلاغه الى المشركين بدليل قوله في ذيل الآية: «الى الذين عاهدتم من المشركين» بخلاف الآية الثانية فإن وجه الخطاب فيه الى الناس ليعلموا براءة الله ورسوله من المشركين، ويستعدوا ويتهيأوا لإنفاذ أمر الله فيهم بعد انسلاخ الاشهر الحرم بدليل قوله: «الى الناس» وقوله تفريعاً: «فإذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» الى آخر الآية.

وقد اختلفوا في تعيين المراد بيوم الحج الاكبر على أقوال:

منها: أنه يوم النحر من سنة التسع من الهجرة لأنه كان يوماً اجتمع فيه المسلمون والمشركون ولم يحج بعد ذلك العام مشرك، وهو المؤيد بالأحاديث المروية عن أئمة اهل البيت عليهم السلام والأنسب بأذان البراءة، والاعتبار يساعد عليه لأنه كان اكبر يوم اجتمع فيه

المسلمون والمشركون من اهل الحج عامة بمنى وقد ورد من طرق اهل السنّة روايات في هذا المعنى غير ان مدلول جلها أن الحج الاكبر اسم يوم النحر فيتكرر على هذا كل سنة ولم تثبت من طريق النقل تسمية على هذا النحو.

ومنها: أنه يوم عرفة لأن فيه الوقوف، والحج الاصغر هو الذي ليس فيه وقوف وهو العمرة، وهو استحسان لا دليل عليه، ولا سبيل الى تشخيص صحته.

ومنها: أنه اليوم الثاني ليوم النحر لأن الإمام يخطب فيه وسقم هذا الوجه ظاهر.

ومنها: أنه جميع ايام الحج كما يقال: يوم الجمل، ويوم صفين، ويوم بغاث، ويراد به الحين والزمان، وهذا القول لا يقابل سائر الاقوال كل المقابلة فانه انما يبين أن المراد باليوم جميع ايام الحج، وأما وجه تسمية هذا الحج بالحج الاكبر فيمكن أن يوجه ببعض ما في الاقوال السابقة كما في القول الاول.

وكيف كان فالاعتبار لا يساعد على هذا القول لأن وجود يوم بين ايام الحج يجتمع فيه عامة اهل الحج يتمكن فيه من أذان براءة كل التمكن كيوم النحر يصرف قوله: «يوم الحج الاكبر» الى نفسه، ويمنع شموله لسائر ايام الحج التي لا يجتمع فيها الناس ذاك الاجتماع.

ثم التفت سبحانه الى المشركين ثانياً وذكّرهم أنهم غير معجزين لله ليكونوا على بصيرة من امرهم كما ذكّرهم بذلك في الآية السابقة بقوله: «واعلموا انكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين» غير انه زاد عليه في هذه الآية قوله: «فان تبتم فهو خير لكم» ليكون تصريحاً بما لوّح اليه في الآية السابقة فان التذكير بأنهم غير معجزي الله انما كان بمنزلة العظة وبذل النصح لهم لئلا يلقوا بأيديهم الى التهلكة باختيار البقاء على الشرك والتولي عن الدخول في دين التوحيد ففي الترديد تهديد ونصيحة وعظة.

ثم التفت سبحانه الى رسوله فخطابه ان يبشر الذين كفروا بعذاب أليم فقال: «وبشّر الذين كفروا بعذاب أليم» والوجه في الالتفات الذي في قوله: «فان تبتم فهو خير لكم» الخ؛ ما

تقدم في قوله: «فسيحوا في الارض» الخ؛ وفي الالتفات الذي في قوله: «وبشّر الذين كفروا» الخ؛ أنه رسالة لا تتم إلّا من جهة مخاطبة النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً﴾ الخ؛ استثناء من عموم البراءة من المشركين، والمستثنون هم المشركون الذين لهم عهد لم ينقضوه لا مستقياً ولا غير مستقيم فمن الواجب الوفاء بميثاقهم وإتمام عهدهم الى مدتهم.

وقد ظهر بذلك أن المراد من اضافة قوله: «ولم يظاهروا عليكم احداً» الى قوله: «لم ينقصوكم شيئاً» استيفاء قسمي النقض وهما النقض المستقيم كقتلهم بعض المسلمين، والنقض غير المستقيم نظير مظاهرتهم بعض اعداء المسلمين عليهم كإمداد مشركي مكة بني بكر على خزاعة بالسلاح، وكانت بنو بكر في عهد قريش وخزاعة في عهد النبي ﷺ فحاربوا فأعانت قريش بني بكر على خزاعة ونقضت بذلك عهد حديبية الذي عقدوه بينهم وبين النبي ﷺ، وكان ذلك من اسباب فتح مكة سنة ثمان.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ في مقام التعليل لوجوب الوفاء بالعهد ما لم ينقضه المعاهد المشرك، وذلك يجعل احترام العهد وحفظ الميثاق احد مصاديق التقوى المطلق الذي لا يزال يأمر به القرآن وقد صرح به في نظائر هذا المورد كقوله تعالى: **﴿ولا يجرمنّكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى﴾** (المائدة / ٨) وقوله: **﴿ولا يجرمنّكم شنآن قوم ان صدوكم عن المسجد الحرام ان تعتدوا، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله﴾** (المائدة / ٢).

وبذلك يظهر ما في قول بعضهم: إن المراد بالمتقين الذين يتقون نقض العهد من غير سبب، وذلك أن التقوى بمعنى الورع عن محارم الله عامة كالحقيقة الثانية في القرآن فيحتاج إرادة خلافه الى قرينة صارفة.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أصل الانسلاخ من سلخ الشاة وهو نزع جلدها عنها، وانسلاخ الشهر نوع كناية عن خروجه، والحصر هو المنع من الخروج عن محيط، والمرصد اسم مكان من الرصد بمعنى الاستعداد للرقوب.

قال الراغب: الرصد الاستعداد للترقّب يقال: رصد له وترصّد وأرصدته له، قال عزّ وجلّ: «وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل» وقوله عزّ وجل: «إن ربّك لبالمرصاد» تنبيهاً أنه لا ملجأ ولا مهرب، والرصد يقال للراصد الواحد والجماعة الراصدين وللمرصود واحداً كان او جمعاً، وقوله تعالى: «يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً» يحتمل كل ذلك، والمرصد موضع الرصد. انتهى.

والمراد بالأشهر الحرم هي الأربعة الأشهر: أشهر السياحة التي ذكرها الله سبحانه في قوله: «فسيحوا في الأرض أربعة أشهر» وجعلها أجلاً مضروباً للمشركين لا يتعرّض فيها لحالهم وأما الأشهر الحرم المعروفة أعني ذا القعدة وذا الحجة والمحرم فإنها لا تنطبق على أذان براءة الواقع في يوم النحر عاشر ذي الحجة بوجه كما تقدمت الإشارة إليه.

وعلى هذا فاللام في الأشهر الحرم للعهد الذكري أي اذا انسلخ هذه الأشهر التي ذكرناها وحرمناها للمشركين لا يتعرّض لحالهم فيها فاقتلوا المشركين، الخ.

ويظهر بذلك ان لا وجه لحمل قوله: «فاذا انسلخ الأشهر الحرم» على انسلاخ ذي القعدة وذي الحجة والمحرم بأن يكون انسلاخ الاربعة الأشهر بانسلاخ الأشهر الثلاثة منطبقاً عليه او يكون انسلاخ الأشهر الحرم مأخوذاً على نحو الإشارة الى انقضاء الاربعة الاشهر وان لم ينطبق الاشهر على الاشهر فان ذلك كله مما لا سبيل اليه بحسب السياق وان كان لفظ الاشهر الحرم في نفسه ظاهراً في شهور رجب وذي القعدة وذي الحجة والمحرم.

وقوله: «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» محقق للبراءة منهم ورفع الاحترام عن

نفوسهم باهدار الدماء فلا مانع من اي نازلة نزلت بهم. وفي قوله: «حيث وجدتموهم» تعميم للحكم فلا مانع حاجب عن وجوب قتلهم حيثما وجدوا في حل او حرم بل ولو ظفر بهم في الشهر الحرام ـ بناء على تعميم «حيث» للزمان والمكان كليهما ـ فيجب على المسلمين كائنين من كانوا اذا ظفروا بهم ان يقتلوهم. كان ذلك في الحل او الحرم في الشهر الحرام او غيره.

وانما امر بقتلهم حيث وجدوا للتوسّل بذلك الى إيرادهم مورد الفناء والانقراض، وتطييب الارض منهم، وإنجاء الناس من مخالطتهم ومعاشرتهم بعد ما سمح وأُبيح لهم ذلك في قوله: «فسيحوا في الارض اربعة اشهر».

ولازم ذلك أن يكون كل من قوله: «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» وقوله «وخذوهم» وقوله: «واحصروهم» وقوله: «واقعدوا لهم كل مرصد» بياناً لنوع من الوسيلة الى افناء جمعهم وانفاد عددهم. ليتفصّى المجتمع من شرهم.

فان ظفر بهم وأمكن قتلهم قتلوا، وان لم يمكن ذلك قبض عليهم وأُخذوا. وان لم يمكن أخذهم حصروا وحبسوا في كهفهم ومنعوا من الخروج الى الناس ومخالطتهم وان لم يعلم محلهم قعد لهم في كل مرصد ليظفر بهم فيقتلوا او يؤخذوا.

ولعل هذا المعنى هو مراد من قال: ان المراد: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم او خذوهم واحصروهم على وجه التخيير في اعتبار الاصلح من الامرين. وان كان لا يخلو عن تكلّف من جهة اعتبار الاخذ والحصر والقعود في كل مرصد امراً واحداً في قبال القتل. وكيف كان فالسياق إنما يلائم ما قدمناه من المعنى.

واما قول من قال: ان في قوله: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم، تقديماً وتأخيراً، والتقدير: فخذو المشركين حيث وجدتموهم واقتلوهم فهو من التصرّف في معنى الآية من غير دليل مجوّز. والآية وخاصة ذيلها يدفع ذلك سياقاً.

ومعنى الآية: فاذا انسلخ الاشهر الحرم وانقضى الاربعة الاشهر التي امهلناهم بها بقولنا «فسيحوا في الارض اربعة اشهر» فأفنوا المشركين بأي وسيلة ممكنة رأيتموها اقرب وأوصل الى إفناء جمعهم وإمحاء رسمهم من قتلهم اينما وجدتموهم من حل او حرم ومتى ما ظفرتم بهم في شهر حرام او غيره، ومن أخذهم او حصرهم او القعود لهم في كل مرصد حتى يفنوا عن آخرهم.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَآتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ اشتراط في معنى الغاية للحكم السابق. والمراد بالتوبة معناها اللغوي وهو الرجوع اي ان رجعوا من الشرك الى التوحيد بالايمان ونصبوا لذلك حجة من اعمالهم وهي الصلاة والزكاة والتزموا احكام دينكم الراجعة الى الخالق جميعاً فخلوا سبيلهم.

وتخلية السبيل كناية عن عدم التعرض لسالكيه وان عادت مبتذلة بكثرة التداول كأن سبيلهم مسدودة مشغولة بتعرُّض المتعرضين فاذا خلّي عنها كان ذلك ملازماً او منطبقاً على عدم التعرض لهم.

وقوله: «ان الله غفور رحيم» تعليل لقوله: «فخلّوا سبيلهم» إما من جهة الأمر الذي يدل عليه بصورته او من جهة المأمور به الذي يدل عليه بمادته اعني تخلية سبيلهم.

والمعنى على الاول: وإنما امر الله بتخلية سبيلهم لانه غفور رحيم يغفر لمن تاب اليه ويرحمه.

وعلى الثاني: خلّوا سبيلهم لان تخليتكم سبيلهم من المغفرة والرحمة، وهما من صفات الله العليا فتتصفون بذلك بصفة ربكم، وأظهر الوجهين هو الاول.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللَّهِ﴾ الى آخر الآية: الآية تتضمن حكم الإجارة لمن استجار من المشركين لان يسمع كلام الله، وهي بما تشتمل عليه من الحكم وان كانت معترضة او كالمعترضة بين ما يدل على البراءة

ورفع الامان عن المشركين إلّا أنها بمنزلة دفع الدخل الواجب الذي لا يجوز إهماله فان أساس هذه الدعوة الحقة وما يصاحبها من الوعد والوعيد والتبشير والانذار، وما يترتب عليه من عقد العقود وإبرام العهود او النقض والبراءة واحكام القتال كل ذلك انما هو لصرف الناس عن سبيل الغي والضلال الى صراط الرشد والهدى، وانجائهم من شقاء الشرك الى سعادة التوحيد.

ولازم ذلك الاعتناء التام بكل طريق يرجى فيه الوصول الى هداية ضال والفوز باحياء حق وان كان يسيراً قليلاً فان الحق حق وان كان يسيراً، والمشرك غير المعاهد وإن أبرء الله منه الذمة وأهدر دمه ورفع الحرمة عن كل ما يعود اليه من مال وعرض لكنه تعالى إنما فعل به ذلك ليحيى حق ويبطل باطل فاذا رجي منه الخير منع ذلك من اي قصد سيىء يقصد به حتى يحصل اليأس عن هدايته وانجائه.

فاذا استجار المشرك لينظر فيما تندب اليه الدعوة الحقة ويتبعها ان اتضحت له كان من الواجب اجارته حتى يسمع كلام الله ويرتفع عنه غشاوة الجهل وتتم عليه الحجة فاذا تمادى بعد ذلك في ضلاله وأصر في استكباره صار ممن ارتفع عنه الأمان وبرأت منه الذمة ووجب تطييب الارض من قذارة وجوده بأية وسيلة امكنت واي طريق كان اقرب واسهل وهذا هو الذي يفيده قوله تعالى: «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون» الآية؛ بما يكتنف به من الآيات.

فمعنى الآية: ان طلب منك بعض هؤلاء المشركين الذين رفع عنهم الأمان أن تأمنه في جوارك ليحضر عندك ويكلمك فيما تدعو اليه من الحق الذي يتضمنه كلام الله فأجره حتى يسمع كلام الله ويرتفع عنه غشاوة الجهل ثم أبلغه مأمنة حتى يملك منك امناً تاماً كاملاً، وإنما شرع الله هذا الحكم وبذل لهم هذا الامن التام لانهم قوم جاهلون ولا بأس على جاهل اذا رجي منه الخير بقبول الحق لو وضح له.

وهذا غاية ما يمكن مراعاته من اصول الفضيلة وحفظ الكرامة ونشر الرحمة والرأفة وشرافة الانسانية اعتبره القرآن الكريم، وندب اليه الدين القويم.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ ٱللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ الآية؛ تبيين وتوضيح لما مر إجمالاً من الحكم بنقض عهد المشركين ممن لا وثوق بوفائه بعهده، وقتلهم الى ان يؤمنوا بالله ويخضعوا لدين التوحيد، واستثناء من لم ينقض العهد وبقي على الميثاق حتى ينقضي مدة عهدهم.

فالآية وما يتلوها الى تمام ست آيات تبين ذلك وتوضح الحكم واستثناء ما استثني منه والغاية والمغيّى جميعاً.

فقوله: «كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله» استفهام في مقام الإنكار، وقد بادرت الآية الى استثناء الذين عاهدوهم من المشركين عند المسجد الحرام لكونهم لم ينقضوا عهداً ولم يساهلوا فيها واثقوا به بدليل قوله تعالى: «فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم» وذلك أن الاستقامة لمن استقام والسلم لمن يسالم من لوازم التقوى الديني، ولذلك علل قوله ذلك بقوله: «إن الله يحب المتقين» كما جاء مثله بعينه في الآية السابقة: «فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم إن الله يحب المتقين».

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ الى آخر الآية؛ قال الراغب في المفردات: الإلّ كل حالة ظاهرة من عهد حلف، وقرابةٌ تئلّ: تلمع فلا يمكن انكاره، قال تعالى: لا يرقبون في مؤمن إلّا ولا ذمة، وألّ الفرس: اسرع، حقيقته لمع، وذلك استعارة في باب الإسراع نحو برق وطار. انتهى.

وقال ايضاً: الذمام ــ بكسر الذال ــ ما يذمّ الرجل على إضاعته من عهد، وكذلك الذمة والمذمة، وقيل: لي مذمة فلا تهتكها، وأذهب مذمتهم بشيء: اي اعطهم شيئاً لما لهم من الذمام. انتهى. وهو ظاهر في أن الذمة مأخوذة من الذم بالمعنى الذي يقابل المدح.

ولعل إلقاء المقابلة في الآية بين الإلّ والذمة للدلالة على انهم لا يحفظون في المؤمنين شيئاً من المواثيق التي يجب رقوبها وحفظها سواء كانت مبنية على اصول واقعية تكوينية كالقرابة التي توجب بوجه على القريب رعاية حال قريبه، او على الجعل والاصطلاح كالعهود والمواثيق المعقودة بحلف ونحوه.

وقد كررت لفظة «كيف» للتأكيد ولرفع الإبهام في البيان الناشيء من تخلل قوله: «إلّا الذين عاهدتم» الآية؛ بطولها بين قوله: «كيف يكون للمشركين» الآية؛ وقوله: «وإن يظهروا عليكم» الآية.

فمعنى الآية: كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله والحال أنهم إن يظهروا عليكم ويغلبوكم على الامر لا يحفظوا ولا يراعوا فيكم قرابة ولا عهداً من العهود يرضونكم بالكلام المدلّس والقول المزوّق، ويأبى ذلك قلوبهم، وأكثرهم فاسقون.

ومن هنا ظهر أن قوله: «يرضونكم أفواههم» من المجاز العقلي نسب فيه الإرضاء الى الأفواه وهو في الحقيقة منسوب الى القول والكلام الخارج من الأفواه المكوّن فيها.

وقوله: ﴿يُرْضُونَكُمْ﴾ الآية؛ تعليل لإنكار وجود العهد للمشركين ولذلك جيء به بالفصل، والتقدير: كيف يكون لهم عهد وهم يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون.

وأما قوله: «وأكثرهم فاسقون» ففيه بيان أن أكثرهم ناقضون للعهد والميثاق بالفعل من غير ان ينتظروا ظهورهم جميعاً عليكم فالآية توضح حال آحادهم وجميعهم بأن أكثرهم فاسقون بنقض العهد من غير ان يرقبوا في مؤمن إلاًّ ولا ذمة، ولو انهم ظهروا عليكم جميعاً لم يرقبوا فيكم الإلّ والذمة.

قوله تعالى: ﴿إِشْتَرَوْا بِآيَاتِ ٱللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ الى آخر الآيتين، بين وتفسير لقوله في الآية السابقة: «وأكثرهم فاسقون» وكأن قوله: «اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً» الى آخر

الآية توطئة وتمهيد لقوله في الآية الثانية: «لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة».

وبذلك يظهر أن الأقرب أن المراد بالفسق الخروج عن العهد والذمة دون الفسق بمعنى الخروج عن زي عبودية الله سبحانه وإن كان الامر كذلك.

وقوله: ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴾ كالتفسير لجميع ما مر من أحوالهم الروحية وأعمالهم الجسمية، وتفيد الجملة مع ذلك جواباً عن سؤال مقدّر او ما يجري مجراه والمعنى: اذا كان هذا حالهم وهذه افعالهم فلا تحسبوا ان لو نقضتم عهدهم اعتديتم عليهم فاولئك هم المعتدون عليكم لما اضمروه من العداوة والبغضاء ولما اظهره اكثرهم في مقام العمل من الصد عن سبيل الله، وعدم رعاية قرابة ولا عهد في المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ الى آخر الآيتين، الآيتان بيان تفصيلي لقوله فيما تقدم: «فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا انكم غير معجزي الله».

والمراد بالتوبة بدلالة السياق الرجوع الى الايمان بالله وآياته، ولذلك لم يقتصر على التوبة فقط بل عطف عليها إقامة الصلاة التي هي أظهر مظاهر عباد الله، وإيتاء الزكاة الذي هو اقوى اركان المجتمع الديني، وقد أُشير بهما الى نوع الوظائف الدينية التي بإتيانها يتم الايمان بآيات الله بعد الايمان بالله عز اسمه فهذا معنى قوله: «تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة».

واما قوله: ﴿ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ ﴾ فالمراد به بيان التساوي بينهم وبين سائر المؤمنين في الحقوق التي يعتبرها الاسلام في المجتمع الاسلامي: لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين.

وقد عبّر في الآية عن ذلك بالاخوّة في الدين، وقال في موضع آخر: ﴿انما المؤمنون إخوة﴾ (الحجرات / ١٠) اعتباراً بما بينهم من التساوي في الحقوق الدينية فان الأخوين شقيقان اشتقا من مادة واحدة وهما لذلك متساويان في الشؤون الراجعة الى ذلك في مجتمع المنزل عند والدهما الذي هو رب البيت، وفي مجتمع القرابة عند الأقرباء والعشيرة.

واذ كان لهذا المعنى المسمّى بلسان الدين أُخوّة أحكام وآثار شرعية اعتنى بها قانون الاسلام فهو اعتبار حقيقة لنوع من الاخوّة بين افراد المجتمع الاسلامي لها آثار مترتبة كما أن الاخوّة الطبيعية فيما اعتبرها الاسلام لها آثار مترتبة عقلائية ودينية وليست تسمية ذلك أُخوّة مجرد استعارة لفظية عن عناية مجازية، وفيما نقل عن النبي ﷺ: قوله: «المؤمنون إخوة يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد واحدة على من سواهم».

وقوله: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمانَ لَهُمْ﴾ الآية؛ يدل السياق أنهم غير المشركين الذين أمر الله سبحانه في الآية السابقة بنقض عهدهم وذكر انهم هم المعتدون لا يرقبون في مؤمن إلّاً ولا ذمة فانهم ناكثون للأيمان ناقضون للعهد، فلا يستقيم فيهم الاشتراط الذي ذكره الله سبحانه بقوله: «وإن نكثوا أيمانهم» الآية.

فهؤلاء قوم آخرون لهم مع ولي الأمر من المسلمين عهود وأيمان ينكثون أيمانهم من بعد عهدهم، أي ينقضون عهودهم من بعد عقدها فأمر الله سبحانه بقتالهم وألغى أيمانهم وسمّاهم أئمة الكفر لأنهم السابقون في الكفر بآيات الله يتّبعهم غيرهم ممن يليهم، يقاتلون جميعاً لعلهم ينتهون عن نكث الأيمان ونقض العهود.

قوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ الآية؛ وما بعدها الى تمام اربع آيات تحريض للمؤمنين وتهييج لهم على قتال المشركين ببيان ما اجرموا به في جنب الله وخانوا به الحق والحقيقة، وعدّ خطاياهم وطغياناتهم من نكث الأيمان والهمّ بإخراج الرسول والبدء بالقتال اول مرة.

ثم بتعريف المؤمنين أن لازم إيمانهم بالله الذي يملك كل خير وشر ونفع وضر أن لا يخشوا إلّا إياه ان كانوا مؤمنين به ففي ذلك تقوية لقلوبهم وتشجيعهم عليهم، وينتهي الى بيان أنهم ممتحنون من عند الله بإخلاص الايمان له والقطع من المشركين حتى يؤجروا بما يؤجر به المؤمن

المتحقق في ايمانه.

قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ الى آخر الآيتين. أعاد الأمر بالقتال لأنه صار من جهة ما تقدم من التحريض والتحضيض اوقع في القبول فان الأمر الاول كان ابتدائياً غير مسبوق بتمهيد وتوطئة بخلاف الامر الثاني الوارد بعد اشتداد الاستعداد وكمال التهيؤ من المأمورين.

على ان ما أُتبع به الامر من قوله: «يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم» الى قوله: «ويذهب غيظ قلوبهم» يؤكد الامر ويغري المأمورين على امتثاله وإجرائه على المشركين فان تذكّرهم أن قتل المشركين عذاب إلهي لهم بأيدي المؤمنين، وأن المؤمنين أياد مجرية لله سبحانه وأن في ذلك خزياً للمشركين ونصرة من الله للمؤمنين عليهم وشفاء لصدور قوم مؤمنين واذهاباً لغيظ قلوبهم، يجرّئهم للعمل وينشطهم ويصفي إرادتهم.

وقوله: «ويتوب الله على من يشاء» الآية بمنزلة الاستثناء لئلا يجري حكم القتال على إطلاقه.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ الى آخر الآية: بمنزلة تعليل آخر لوجوب قتالهم لينتج تحريضهم على القتال وفيه بيان حقيقة الامر، ومحصله أن الدار دار الامتحان والابتلاء فان نفوس الآدميين تقبل الخير والشر والسعادة والشقاوة فهي في اول كينونتها ساذجة مبهمة، ومراتب القرب والزلفى إنما تبذل بإزاء الايمان الخالص بالله وآياته، ولا يظهر صفاء الايمان إلّا بالامتحان الذي يورد المؤمن مقام العمل، ليميز الله بذلك الطيب من الخبيث، والصافي الإيمان ممن ليس عنده إلّا مجرد الدعوى او المزعمة.

فمن الواجب أن يمتحن هؤلاء المدّعون أنهم باعوا أنفسهم وأموالهم لله بأن لهم الجنة، ويبتلوا بمثل القتال الذي يميز به الصادق من الكاذب ويفصل الذي قطع روابط المحبة والصلة

من أعداء الله سبحانه ممن في قلبه بقايا من ولايتهم ومودتهم حتى يحيى هؤلاء ويهلك أولئك.

فعلى المؤمنين أن يمتثلوا أمر القتال بل يتسارعوا اليه ويتسابقوا فيه ليظهروا بذلك صفاء جوهرهم وحقيقة إيمانهم ويحتجوا به على ربهم يوم لا نجاح فيه إلّا بحجة الحق.

فقوله: «أم حسبتم أن تتركوا» أي بل أظننتم ان تتركوا على ما أنتم عليه من الحال ولما تظهر حقيقة صدقكم في دعوى الإيمان بالله وبآياته.

وقوله: «ولما يعلم الله» الآية اي ولما يظهر في الخارج جهادكم وعدم اتخاذكم من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة فان تحقق الأشياء علم منه تعالى بها وقد مر نظير الكلام مع بسط ما في تفسير قوله تعالى: ﴿أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ الآية (آل عمران / ١٤٢) في الجزء الرابع من الكتاب. ومن الدليل على هذا الذي ذكرنا في معنى العلم قوله في ذيل الآية: «والله خبير بما تعملون».

والوليجة على ما في مفردات الراغب كل ما يتخذه الإنسان معتمداً عليه وليس من اهله[(١)(٢)(٣)].

١٧ ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَـٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ.

١. التوبة ١ ـ ١٦: بحث روائي في سنة العرب في الحج وطواف البيت؛ القتال في سيرة رسول الله؛ نزول آيات البراءة؛ نزول جبرئيل على ان تبليغ آيات البراءة يتم بواسطة النبي ﷺ او رجل منه؛ عزل ابي بكر عن تبليغ آيات البراءة وانتخاب علي عليه السلام؛ الغاء السنة الجاهلية؛ آراء بعض المفسرين الخاطئة في قصّ عزل أبي بكر وانتخاب علي عليه السلام لتبليغ الاحكام الالهية والرّد على هذه الآراء؛ يوم الحج الاكبر؛ الاشهر الحرم؛ ائمة الكفر.

٢. التوبة ١ ـ ١٦: كلام في معنى العهد واقسامه واحكامه.

٣. التوبة ١ ـ ١٦: كلام في نسبة الاعمال الى الاسباب طولاً.

١٨ ❁ إِنَّما يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَأَقَامَ
الصَّلَوٰةَ وَآتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَـٰئِكَ أَنْ
يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ.

١٩ ❁ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ
بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ
ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.

٢٠ ❁ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ ٱللَّهِ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ.

٢١ ❁ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ
مُقِيمٌ.

٢٢ ❁ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ ٱللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ.

٢٣ ❁ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ
ٱسْتَحَبُّوا ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ.

٢٤ ❁ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ
وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا
وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي
سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ
ٱلْفَاسِقِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ العمارة ضد الخراب يقال: عمر الأرض اذا بنى بها بناء، وعمر البيت اذا اصلح ما أشرف منها على الفساد، والتعمير بمعناه ومنه العمر لأنه عمارة البدن بالروح، والعمرة بمعنى زيارة البيت الحرام لأن فيها تعميره.

والمسجد اسم مكان بمعنى المحل الذي يتعلق به السجدة كالبيت الذي يبنى ليسجد فيه الله تعالى، وأعضاء السجدة التي تتعلق بها السجدة نوع تعلق وهي الجبهة والكفان والركبتان ورؤوس إبهامي القدمين.

وقوله: «ما كان للمشركين» الآية؛ لنفي الحق والملك فإن اللام للملك والحق، والنفي الحالي للكون السابق يفيد أنه لم يتحقق منهم سبب سابق يوجب لهم أن يملكوا هذا الحق وهو حق ان يعمروا مساجد الله ويرمّوا ما استرمّ منها أو يزوروها كقوله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾ (الأنفال / ٦٧) وقوله: ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾ (آل عمران / ١٦١).

والمراد بالعمارة في قوله: «أن يعمروا» إصلاح ما أشرف على الخراب من البناء ورم ما استرم منه دون عمارة المسجد بالزيارة فإن المراد بمساجد الله هي المسجد الحرام وكل مسجد لله ولا عمرة في غير المسجد الحرام، والدخول في المساجد للعبادة فيها وإن أمكن ان يسمى عمارة وزيارة لكن التعبير المعهود من القرآن فيه الدخول.

على أن في قوله في الآية الآتية: «أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام» تأييداً ما لكون المراد بالعمارة هو إصلاح البناء دون زيارة البيت الحرام.

والمراد بمساجد الله بيوت العبادة المبنية لله لكن السياق يدل على أن المراد نفي جواز عمارتهم للمسجد الحرام، ويؤيد قراءة من قرأ «أن يعمروا مسجد الله» بالإفراد.

ولا ضير في التعبير بالجمع والمقصود الأصيل بيان حكم فرد خاص من أفراده لأن الملاك عام، والتعليل الوارد في الآية غير مقيد بخصوص المسجد الحرام فالكلام في معنى: ما كان لهم ان يعمروا المسجد الحرام لأنه مسجد والمساجد من شأنها ذلك.

وقوله: «شاهدين على أنفسهم بالكفر» المراد بالشهادة أداؤها وهو الاعتراف إما قولاً كمن يعترف بالكفر لفظاً، وإما فعلاً كمن يعبد الأصنام ويتظاهر بكفره فكل ذلك من الشهادة والملاك واحد.

فمعنى الآية: لا يحق ولا يجوز للمشركين أن يرمّوا ما استرمّ من المسجد الحرام كسائر مساجد الله والحال أنهم معترفون بالكفر بدلالة قولهم أو فعلهم.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ في مقام التعليل لما أُفيد من الحكم في قوله: «ما كان» الخ؛ ولذلك جيء به بالفصل دون الوصل.

والمراد بالجملة الاولى بيان بطلان الأثر وارتفاعه عن أعمالهم. والعمل إنما يؤتى به للتوسل به الى أثر مطلوب، واذ كانت أعمالهم حابطة لا أثر لها لم يكن ما يجوز لهم الاتيان بها، والأعمال العبادية كعمارة مساجد الله إنما تقصد لما يطمع فيه ويرجى من أثرها وهو السعادة والجنة، والعمل الحابط لا يتعقب سعادة ولا جنة البتة.

والمراد بالجملة الثانية بيان ظرفهم الذي يستقرون فيه لولا السعادة والجنة وهو النار فكأنه قيل: اولئك لا يهديهم أعمالهم العبادية الى الجنة بل هم في النار الخالدة. ولا تفيد لهم سعادة بل هم في الشقاوة المؤبدة.

وفي الآية دلالة على أصلين لطيفين من أُصول التشريع:

أحدهما: أن تشريع الجواز بالمعنى الأعم الشامل للواجبات والمستحبات والمباحات يتوقف على أثر في الفعل ينتفع به فاعله فلا لغو مشروعاً في الدين. وهذا أصل يؤيده العقل، وهو منطبق على الناموس الجاري في الكون: أن لا فعل إلّا لنفع عائد الى فاعله.

وثانيهما: ان الجواز في جميع موارده مسبوق بحق مجعول من الله لفاعله في أن يأتي بالفعل من غير مانع.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ الآية السياق كاشف عن ان الحصر من قبيل قصر الإفراد كأن متوهماً يتوهم أن للمشركين والمؤمنين جميعاً أن يعمروا مساجد الله فافرد وقصر ذلك في المؤمنين، ولازم ذلك ان يكون المراد بقوله: «يعمر» إنشاء الحق والجواز في صورة الإخبار دون الإخبار. وهو ظاهر.

وقد اشترط سبحانه في ثبوت حق العمارة وجوازها أن يتَّصف العامر بالإيمان بالله واليوم الآخر قبال ما نفى عن المشركين ان يكون لهم ذلك ولم يقنع بالإيمان بالله وحده لأن المشركين يذعنون به تعالى بل شفَّع ذلك بالإيمان باليوم الآخر لأن المشركين ما كانوا مؤمنين به، وبذلك يختص حق العمارة وجوازها بأهل الدين السماوي من المؤمنين.

ولم يقنع بذلك ايضاً بل ألحق به قوله: «وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلّا الله» لأن المقام مقام بيان من ينتفع بعمله فيحق له بذلك ان يقترفه، ومن كان تاركاً للفروع المشروعة في الدين وخاصة الركنين: الصلاة والزكاة فهو كافر بآيات الله لا ينفعه مجرّد الإيمان بالله واليوم الآخر وإن كان مسلماً، اذا لم ينكرها بلسانه، ولو انكرها بلسانه ايضاً كان كافراً غير مسلم.

وقد خصّ من بينها الصلاة والزكاة بالذكر لكونهما الركنين الذين لا غنى عنهما في حال من الاحوال.

وبما ذكرنا من اقتضاء المقام يظهر ان المراد بقوله: «ولم يخش إلّا الله» الخشية الدينية وهي العبادة دون الخشية الغريزية التي لا يسلم منها إلّا المقرّبون من اولياء الله كالأنبياء قال تعالى: ﴿الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون احداً إلا الله﴾ (الأحزاب / ٣٩).

والوجه في التكنية عن العبادة بالخشية ان الأعرف عند الانسان من علل اتخاذ الإله

للعبادة الخوف من سخطه او الرجاء لرحمته. ورجاء الرحمة ايضاً يعود بوجه الى الخوف من انقطاعها وهو السخط فمن عبدالله سبحانه او عبد شيئاً من الاصنام فقد دعاه الى ذلك اما الخوف من شمول سخطه او الخوف من انقطاع نعمته ورحمته فالعبادة ممثلة للخوف والخشية مصداق لهما لتمثيلها اياها، وبينهما حالة الاستلزام. ولذلك كني بها عنها. فالمعنى ـ والله اعلم ـ ولم يعبد احداً من دون الله من الآلهة.

وقوله: ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ اي اولئك الذين آمنوا بالله واليوم الآخر ولم يعبدوا أحداً غير الله سبحانه يرجى في حقهم ان يكونوا من المهتدين. وهذا الرجاء قائم بأنفسهم او بأنفس المخاطبين بالآية، وأما هو تعالى فمن المستحيل ان يقوم به الرجاء الذي لا يتم إلّا مع الجهل بتحقق الأمر المرجو الحصول.

وانما أُخذ الاهتداء مرجو الحصول لا محقق الوقوع مع أن من آمن بالله واليوم الآخر حقيقة وحققه اعماله العبادية فقد اهتدى حقيقة لأن حصول الاهتداء مرة او مرات لا يستوجب كون العامل من المهتدين، واستقرار صفة الاهتداء ولزومها له، فالتلبس بالفعل الواقع مرة أو مرات غير التلبس بالصفة اللازمة فأولئك حصول الاهتداء لهم محقق، وأما حصول صفة المهتدين فهو مرجوّ التحقق لا محقق.

وقد تحصّل من الآية أن عمارة المساجد لا تحق ولا تجوز لغير المسلم أما المشركون فلعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر، وأما اهل الكتاب فلأن القرآن لا يعدّ ايمانهم بالله ايماناً قال تعالى: ﴿**إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلاً اولئك هم الكافرون حقاً**﴾ (النساء / ١٥١)، وقال ايضاً في آية ٢٩ من السورة: ﴿**قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب**﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية؛ السقاية كالحكاية والجناية والنكاية مصدر يقال: سقى يسقي سقاية.

والسقاية ايضاً الموضع الذي يسقى فيه الماء، والاناء الذي يسقى به قال تعالى: ﴿جعل السقاية في رحل اخيه﴾ (يوسف / ٧٠)، وقد رووا في الآثار ان سقاية الحاجّ كانت احدى الشؤونات الفاخرة والمآثر التي يباهي بها في الجاهلية، وأن السقاية كانت حياضاً من أدم على عهد قصيّ بن كلاب احد اجداد النبي ﷺ توضع بفناء الكعبة، ويستقى فيها الماء العذب من الآبار على الابل، ويسقى الحاج فجعل قصي امر السقاية عند وفاته لابنه عبدمناف ولم يزل في ولده حتى ورثه العباس بن عبدالمطلب.

وسقاية العباس هو الموضع الذي كان يسقى فيه الماء في الجاهلية والاسلام وهو في جهة الجنوب من زمزم بينهما اربعون ذراعاً، وقد بني عليه بناء هو المعروف اليوم بسقاية العباس.

والمراد بالسقاية في الآية ـ على اي حال ـ معناها المصدري وهو السقي، ويؤيده مقابلتها في الآية عمارة المسجد الحرام والمراد بها المعنى المصدري قطعاً بمعنى الشغل.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ الى آخر الآية؛ بيان لحق الحكم الذي عند الله في المسألة بعد إنكار المساواة، وهو ان الذي آمن وهاجر وجاهد في سبيل الله ما استطاع ببذل ما عنده من مال ونفس، أعظم درجة عند الله وإنما عبر في صورة الجمع ـ الذين آمنوا ـ الخ؛ إشارة الى ان ملاك الفضل هو الوصف دون الشخص.

وما تقدم من دلالة الكلام على أن الأعمال من غير إيمان بالله لا فضل لها ولا درجة لصاحبها عند الله، قرينة على ان ليس المراد بالقياس الذي يدل عليه أفعل التفضيل في قوله: «اولئك أعظم درجة» الخ؛ هو ان بين الفريقين اشتراكاً في الدرجات غير ان درجة من جاهد

عن إيمان أعظم ممن سقي وعمر .

بل المراد بيان ان النسبة بينهما نسبة الأفضل الى من لا فضل له كالمقايسة المأخوذة بين الأكثر والأقل فإنها تستدعي وجود حد متوسط بينهما يقاسان اليه فهناك ثلاثة امور امر متوسط يؤخذ مقياساً معدلاً وآخر يكون أكثر منه . وآخر يكون أقل منه فاذا قيس الأكثر من الأقل كان الأكثر مقيساً الى ما لا كثرة فيه أصلاً .

فقوله : ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ ٱللَّهِ﴾ أي بالقياس الى هؤلاء الذين لا درجة لهم أصلاً ، وهذا نوع من الكناية عن ان لا نسبة حقيقة بين الفريقين لأن أحدهما ذو قدم رفيع فيما لا قدم للآخر فيه أصلاً ويدل على ذلك أيضاً قوله : « واولئك هم الفائزون » بما يدل على انحصار الفوز فيهم وثبوتها لهم على نهج الاستقرار .

قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ﴾ الى آخر الآيتين ظاهر السياق أن ما يعده من الفضل في حقهم بيان وتفصيل لما ذكر في الآية السابقة من فوزهم جيء به بلسان التبشير .

فالمعنى « يبشرهم » أي هؤلاء المؤمنين « ربهم برحمة منه » عظيمة لا يقدر قدرها « ورضوان » كذلك « وجنات لهم فيها » في تلك الجنات « نعيم مقيم » لا يزول ولا ينفد حالكونهم « خالدين فيها أبداً » لا ينقطع خلودهم بأجل ولا أمد .

ثم لما كان المقام مقام التعجب والاستبعاد لكونها بشارة بأمر عظيم لم يعهد في ما نشاهده من أنواع النعيم الذي في الدنيا ، رفع الاستبعاد بقوله : « إن الله عنده أجر عظيم » .

وسيوافيك الكلام في توضيح معنى رحمته تعالى ورضوانه فيما سيمر من موضع مناسب وقد تقدم بعض الكلام فيهما .

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ الى آخر الآية ؛ نهي عن تولي الكفار ولو كانوا آباءً وإخواناً فإن الملاك عام . والآية التالية تنهي

عن تولي الجميع غير أن ظاهر لفظ الآية النهي عن اتخاذ الآباء والإخوان أولياء إن استحبوا الكفر ورجحوه على الإيمان.

وإنما ذكر الآباء والإخوان دون الأبناء والأزواج مع كون القبيلين وخاصة الأبناء محبوبين عندهم كالآباء والإخوان لأن التولي يعطي للولي ان يداخل امور وليّه ويتصرف في بعض شؤون حياته، وهذا هو المحذور الذي يستدعي النهي عن تولي الكفار حتى لا يداخلوا في امورهم الداخلية ولا يأخذوا بمجامع قلوبهم، ولا يكف المؤمنون ولا يستنكفوا عن الإقدام فيما يسوؤهم ويضرّهم. ومن المعلوم ان النساء والذراري لا يترقب منهم هذا الأثر السيء إلّا بواسطة، فلذلك خصَّ النهي عن التولي بالآباء والإخوان فهم الذين يخاف نفوذهم في قلوب المؤمنين وتصرفهم في شؤونهم.

وقد ورد النهي عن اتخاذ الكفار اولياء في موضع من كلامه تقدم بعضها في سورة المائدة وآل عمران والنساء والأعراف وفيها إنذار شديد وتهديدات بالغة كقوله تعالى: ﴿ومن يتولهم منكم فانه منهم﴾ (المائدة / ٥١)، وقوله: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ (آل عمران / ٢٨)، وقوله: ﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾ (آل عمران / ٢٨)، وقوله ﴿أتريدون أن تجعلوا الله عليكم سلطاناً مبيناً﴾ (النساء / ١٤٤).

وأنذرهم في الآية التي نحن فيها بقوله: «ومن يتوهم منكم فاولئك هم الظالمون» ولم يقل: «ومن يتولهم منكم فإنه منهم» اذ من الجائز ان يتوهم بعض هؤلاء انه منهم لأنهم آباؤه وإخوانه فلا يؤثر فيه التهديد أثراً جديداً يبعثه نحو رفض الولاية.

وكيف كان فقوله: «ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون» بما في الجملة من المؤكدات كإسمية الجملة، ودخول الام على الخبر وضمير الفصل يفيد تحقق الظلم منهم واستقراره فيهم، وقد كرر الله في كلامه ان الله لا يهدي القوم الظالمين، وقال في نظير الآية من سورة المائدة: ﴿ومن يتولهم منكم فانه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ فهؤلاء محرومون

من الهداية الإلهية لا ينفعهم شيء من أعمالهم الحسنة في جلب السعادة اليهم، والسماحة بالفوز والفلاح عليهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ﴾ الى آخر الآية: التفت من مخاطبتهم الى مخاطبة النبي ﷺ إيماءاً الى الاعراض عنهم لما يستشعر من حالهم أن قلوبهم مائلة الى الاشتغال بما لا ينفع معه النهي عن تولّي آبائهم وإخوانهم الكافرين، وإيجاد الداعي في نفوسهم الى الصدور عن امر الله ورسوله، وقتال الكافرين جهاداً في سبيل الله وإن كانوا آباءهم وإخوانهم.

والذي يمنعهم من ذلك هو الحب المتعلق بغير الله ورسوله والجهاد في سبيل الله، وقد عدَّ الله سبحانه اصول ما يتعلق به الحب النفساني من زينة الحياة الدنيا، وهي الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة ـ وهؤلاء هم الذين يجمعهم المجتمع الطبيعي بقرابة نسبية قريبة او بعيدة او سببية ـ والأموال التي اكتسبوها وجمعوها، والتجارة التي يخشون كسادها والمساكن التي يرضونها ـ وهذه اصول ما يقوم به المجتمع في المرتبة الثانية ـ.

وذكر تعالى أنهم إن تولوا أعداء الدين، وقدموا حكم هؤلاء الامور على حب الله ورسوله والجهاد في سبيل فليتربصوا ولينتظروا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين.

ومن المعلوم أن الشرط أعني قوله: «إن كان آباؤكم» الى قوله: «في سبيله» في معنى أن يقال: إن لم تنتهوا عما ينهاكم عنه من اتخاذ الآباء والإخوان الكافرين اولياء باتخاذكم سبباً يؤدي الى خلاف ما يدعوكم اليه، وإهمالكم في أمر غرض الدين وهو الجهاد في سبيل الله.

فقوله في الجزاء: «فتربصوا حتى يأتي الله بأمره» لا محالة إما أمر يتدارك به ما عرض على الدين من ثلمة وسقوط غرض في ظرف مخالفتم، وإما عذاب يأتيهم عن مخالفة أمر الله ورسوله والاعراض عن الجهاد في سبيله.

غير ان قوله تعالى في ذيل الآية: «والله لا يهدي القوم الفاسقين» يعرّض لهم أنهم

خارجون حينئذ عن زيّ العبودية، فاسقون عن أمر الله ورسوله فهم بمعزل من أن يهديهم الله بأعمالهم ويوفقهم لنصرة الله ورسوله، وإعلاء كلمة الدين وإمحاء آثار الشرك.

فذيل الآية يهدي الى أن المراد بهذا الأمر الذي يأمرهم الله أن يتربصوا له حتى يأتي به أمر منه تعالى، متعلق بنصرة دينه وإعلاء كلمته فينطبق على مثل قوله تعالى في سورة المائدة بعد آيات ينهى فيها عن تولّي الكافرين: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم** ﴾ (المائدة / ٥٤). والآية بقيودها وخصوصياتها ـ كما ترى ـ تنطبق على ما تفيده الآية التي نحن فيها.

فالمراد ـ والله اعلم ـ ان اتخذتم هؤلاء اولياء، واستنكفتم عن اطاعة الله ورسوله والجهاد في سبيل الله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، ويبعث قوماً لا يحبون إلّا الله، ولا يوالون اعداءه ويقومون بنصرة الدين والجهاد في سبيل الله افضل قيام فانكم اذاً فاسقون لا ينتفع بكم الدين، ولا يهدي الله شيئاً من اعمالكم الى غرض حق وسعادة مطلوبة.

وربما قيل: ان المراد بقوله: «فتربّصوا حتى يأتي الله بأمره» الاشارة الى فتح مكة، وليس بسديد فان الخطاب في الآية للمؤمنين من المهاجرين والانصار وخاصة المهاجرين، وهؤلاء هم الذين فتح الله مكة بأيديهم، ولا معنى لأن يخاطبوا ويقال لهم: ان كان آباؤكم وابناؤكم، الخ: أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فواليتموهم واستنكفتم عن اطاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله فتربصوا حتى يفتح الله مكة بأيديكم والله لا يهدي القوم الفاسقين، او فتربصوا حتى يفتح الله مكة والله لا يهديكم لمكان فسقكم فتأمل[1].

---

١. التوبة ١٧ ـ ٢٤: بحث روائي في: سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام؛ فضائل امير المؤمنين علي عليه السلام: الجهاد في سبيل الله.

٢٥ ● لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ.

٢٦ ● ثُمَّ أَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَذٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَافِرِينَ.

٢٧ ● ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ عَلىٰ مَنْ يَشاءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

٢٨ ● يا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ـ الى قوله ـ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ المواطن جمع موطن وهو الموضع الذي يسكنه الانسان ويتوطن فيه. وحنين إسم واد بين مكة والطائف وقع فيه غزوة حنين قاتل فيه النبي ﷺ هوازن وثقيف وكان يوماً شديداً على المسلمين انهزموا اولاً ثم أيدهم الله بنصره فغلبوا.

والإعجاب الإسرار والعجب سرور النفس بما يشاهده نادراً. والرحب السعة في المكان وضدّه الضيق.

وقوله: «لقد نصركم الله في مواطن كثيرة» ذكر لنصرته تعالى لهم في مواطن كثيرة ومواضع متعددة يدلّ السياق على انها مواطن الحروب كوقائع بدر وأُحد والخندق وخيبر وغيرها. ويدل السياق أيضاً أن الجملة كالمقدمة الممهدة لقوله: «ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم» الآية؛ فإن الآيات الثلاث مسوقة لتذكير قصة وقعة حنين، وعجيب ما أفاض الله عليهم من نصرته وخصّهم به من تأييده فيها.

وقوله: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ أي ويوماً وقعت فيه القتال بينكم وبين اعدائكم بوادي حنين، وإضافة اليوم الى امكنة الوقائع العظيمة شائع في العرف كما يقال: يوم بدر ويوم أُحد ويوم الخندق نظير إضافته الى الجماعة المتلبسين بذلك كيوم الأحزاب ويوم تميم. وإضافته الى نفس الحادثة كيوم فتح مكة.

وقوله: ﴿ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ أي أسرّتكم الكثرة التي شاهدتموها في انفسكم فانقطعتم عن الاعتماد بالله والثقة بأيده وقوّته واستندتم الى الكثرة فرجوتم ان ستدفع عنكم كيد العدو وتهزم جمعهم. وإنما هو سبب من الأسباب الظاهرية لا أثر فيها إلّا ما شاء الله الذي اليه تسبيب الأسباب.

وبالنظر الى هذا المعنى أردف قوله: «اذ اعجبتكم كثرتكم» بقوله: «فلم تغن عنكم شيئاً» أي اتخذتموها سبباً مستقلاً دون الله فأنساكم الاعتماد بالله، وركنتم اليها فبان لكم ما في وسع هذا السبب الموهوم وهو ان لا غنى عنده حتى يغنيكم فلم يغن عنكم شيئاً ولا نصراً ولا شيئاً آخر.

وقوله: «وضاقت عليكم الأرض بما رحبت» اي مع ما رحبت. وهو كناية عن إحاطة العدو بهم احاطة لا يجدون مع ذلك مأمناً من الأرض يستقرون فيه ولا كهفاً يأوون اليه فيقيهم من العدو، اي فررتم فراراً لا تلوون على شيء.

فهو قريب المعنى من قوله تعالى في قصة الأحزاب: ﴿إذ جاءوكم من فوقكم ومن

أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنّون بالله الظنونا﴾ (الأحزاب / ١٠).

وقوله: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ أي جعلتم العدو يلي أدباركم وهو كناية عن الانهزام وهذا هو الفرار من الزحف ساقهم إليه اطمئنانهم بكثرتهم والانقطاع من ربهم، قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره - الى ان قال - فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ (الأنفال / ١٦) وقال ايضاً: ﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً﴾ (الأحزاب / ١٥).

فهذا كله اعني ضيق الأرض عليهم بما رحبت ثم انهزامهم وفرارهم من الزحف على ما فيه من كبير الاثم، ووقوفهم هذا الموقف الذي يستتبع العتاب من ربهم إنما ساقهم إليه اعتمادهم واطمئنانهم الى هذه الأسباب السرابية التي لا تغني عنهم شيئاً.

والله سبحانه بسعة رحمته وعظم منه امتن عليهم بنصره وإنزال سكينته وإنزال جنود لم يروها، وتعذيب الكافرين، ووعد مجمل بمغفرته: وعداً ليس بالمقطوع وجوده حتى تبطل به صفة الخوف من قلوبهم، ولا بالمقطوع عدمه حتى تزول صفة الرجاء من نفوسهم بل وعداً يحفظ فيهم الاعتدال والتوسط بين صفتي الخوف والرجاء، ويربيهم تربية حسنة تعدهم وتهيأهم للسعادة الواقعية.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الى آخر الآية؛ السكينة - كما تقدم - حالة قلبية توجب سكون النفس وثبات القلب ملازمة لازدياد الإيمان مع الإيمان ولكلمة التقوى التي تهدي الى الورع عن محارم الله على ما تفسّرها الآيات.

وهي غير العدالة التي هي ملكة نفسانية تردع عن ركوب الكبائر والإصرار على الصغائر

فان السكينة تردع عن الصغائر والكبائر جميعاً.

وقد نسب الله السكينة في كتابه الى نفسه نسبة تشعر بنوع من الاختصاص كما نسب الروح الى نفسه دون العدالة ووصفها بالانزال فلها اختصاص عنديٌّ به تعالى بل ربما يشعر بعض الآيات بأنه عدَّها من جنوده كقوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السماوات والأرض﴾ (الفتح / ٤).

وفي غير واحد من الآيات المشتملة على ذكر السكينة ذكر الجنود كقوله: ﴿فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها﴾ (التوبة / ٤٠). وكما في الآية المبحوث عنها: «ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها».

والذي يفهم من السياق ان هذه الجنود هي الملائكة النازلة الى المعركة، او أن يقال من جملتها الملائكة النازلة والذي ينتسب الى السكينة والملائكة أن يعذِّب بهم الكفار ويسدد ويسعد بهم المؤمنون كما اشتملت عليه آيات آل عمران القاصَّة قصة أُحد. وآيات في أول سورة الفتح فراجعها حتى يتبين لك حقيقة الحال إن شاء الله تعالى.

وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿فيه سكينة من ربكم﴾ (البقرة / ٢٤٨) في الجزء الثاني من الكتاب بعض ما يتعلق بالسكينة الإلهية من الكلام مما لا يخلو من نفع في هذا المقام.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قد تقدَّم مراراً أن التوبة من الله سبحانه هي الرجوع الى عبده بالعناية والتوفيق اولاً ثم بالعفو والمغفرة ثانياً. ومن العبد الرجوع الى ربه بالندامة والاستغفار. ولا يتوب الله على من لا يتوب اليه.

والإشارة في قوله: «من بعد ذلك» على ما يعطيه السياق الى ما ذكره في الآيتين السابقتين من خطيئتهم بالركون الى غير الله سبحانه ومعصيتهم بالفرار والتولي ثم إنزال السكينة وإنزال الجنود وتعذيبهم الذين كفروا.

والملائم لذلك ان يكون الموصول في «من يشاء» شاملاً للمسلمين والكافرين جميعاً فقد ذكر من الفريقين جميعاً ما يصلح لأن يتوب الله عليهم فيه إن تابوا، وهو من الكفار كفرهم ومن المسلمين خطيئتهم ومعصيتهم، ولا وجه لتخصيص التوبة على بعضهم مع ما في آيات التوبة من عموم الحكم وسعته ولم يقيّد في هذه الآية المبحوث عنها بما يوجب اختصاصها بأحد الفريقين: المسلمين او الكافرين مع وجود المقتضي فيهما جميعاً.

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ قال في المجمع: كل مستقذر نجس يقال: رجل نجس وامرأة نجس وقوم نجس لأنه مصدر، واذا استعملت هذه اللفظة مع الرجس قيل: رجس نجس ـ بكسر النون ـ قال: والعيلة الفقر يقال عال يعيل اذا افتقر. انتهى.

والنهي عن دخول المشركين المسجد الحرام بحسب المتفاهم العرفي يفيد أمر المؤمنين بمنعهم عن دخول المسجد الحرام، وفي تعليله تعالى منع دخولهم المسجد بكونهم نجساً اعتبار نوع من القذارة لهم كاعتبار نوع من الطهارة والنزاهة للمسجد الحرام، وهي كيف كانت أمر آخر وراء الحكم باجتناب ملاقاتهم بالرطوبة وغير ذلك.

والمراد بقوله: «عامهم هذا» سنة تسع من الهجرة، وهي السنة التي أذّن فيها علي عليه السلام بالبراءة، ومنع طواف البيت عرياناً، وحج المشركين البيت.

وقوله: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ الآية؛ أي وإن خفتم في إجراء هذا الحكم أن ينقطعوا عن الحج، ويتعطل أسواقكم، وتذهب تجارتكم فتفتقروا وتعيلوا فلا تخافوا فسوق يغنيكم الله من فضله، ويؤمنكم من الفقر الذي تخافونه.

وهذا وعد حسن منه تعالى فيه تطييب نفوس أهل مكة ومن كان له تجارة هناك بالموسم، وكان حاضر العالم الاسلامي يبشرهم يومئذ بمضمون هذا الوعد فقد كان الاسلام تعلو كلمته، وينتشر صيته حالاً بعد حال، وكانت عامة المشركين في عتبة

الاستئصال بعد إيذان براءة لم يبقَ لهم إلّا اربعة أشهر إلّا شرذمة قليلة من العرب كان النبي ﷺ عاهدهم عند المسجد الحرام الى أجل ما بعده من مهل فالجميع كانوا في معرض قبول الاسلام[١].

٢٩ ● قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا
يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ
ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ
صَاغِرُونَ.
٣٠ ● وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ
ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُنَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن
قَبْلُ قَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ.
٣١ ● اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ
ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلٰهاً وَاحِداً لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ
سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ.
٣٢ ● يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ
نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ.
٣٣ ● هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى
ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ.

١. التوبة ٢٥ ـ ٢٨: بحث روائي في: غزوة حنين، فهرس اسماء شهداء حنين.

٢٤ ● يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلْأَحْبارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللّٰهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ.

٢٥ ● يَوْمَ يُحْمىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَلَا بِالْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللّٰهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ﴾ أهل الكتاب هم اليهود والنصارى على ما يستفاد من آيات كثيرة من القرآن الكريم وكذا المجوس على ما يشعر أو يدل عليه قوله تعالى: ﴿ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شيء شهيد﴾ (الحج / ١٧) حيث عدّوا في الآية مع سائر ارباب النحل السماوية في قبال الذين اشركوا، والصابئون كما تقدّم طائفة من المجوس صبوا الى دين اليهود فاتخذوا طريقاً بين الطريقين.

والسياق يدل على ان لفظة «من» في قوله: «من الذين اوتوا الكتاب» بيانية لا تبعيضية فان كلاً من اليهود والنصارى والمجوس امة واحدة كالمسلمين في اسلامهم وان تشعبوا شعباً مختلفة وتفرقوا فرقاً متشتتة اختلط بعضهم ببعض ولو كان المراد قتال البعض واثبات الجزية على الجميع او على ذلك البعض بعينه لاحتاج المقام في افادة ذلك الى بيان غير هذا البيان

يحصل به الغرض.

وحيث كان قوله: «من الذين اوتوا الكتاب» بياناً لما قبله من قوله: «الذين لا يؤمنون» الآية فالأوصاف المذكورة اوصاف عامة لجميعهم وهي ثلاثة أوصاف وصفهم الله سبحانه بها: عدم الايمان بالله واليوم الآخر، وعدم تحريم ما حرّم الله ورسوله، وعدم التديّن بدين الحق.

فأول ما وصفهم به قوله: «الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر» وهو تعالى ينسب اليهم في كلامه أنهم يثبتونه إلهاً وكيف لا؟ وهو يعدّهم اهل الكتاب، وما هو إلّا الكتاب السماوي النازل من عند الله على رسول من رسله ويحكي عنهم القول او لازم القول بالالوهية في مئات من آيات كتابه[1].

فمعنى الآية ـ والله اعلم ـ قاتلوا اهل الكتاب لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً مقبولاً غير منحرف عن الصواب ولا يحرمون ما حرمه الإسلام مما يفسد اقترافه المجتمع الإنساني ولا يدينون ديناً منطبقاً على الخلقة الإلهية قاتلوهم ودوموا على قتالهم حتى يصغروا عندكم ويخضعوا لحكومتكم، ويعطوا في ذلك عطية مالية مضروبة عليهم يمثل صغارهم، ويصرف في حفظ ذمتهم وحقن دمائهم وحاجة إدارة امورهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ الى آخر الآية المضاهاة المشاكلة. والإفك على ما ذكره الراغب كل مصروف عن وجهه الذي يحق ان يكون عليه فمعنى «يؤفكون» يصرفون في اعتقادهم عن الحق الى الباطل.

وقوله: «وقالت اليهود عزيز ابن الله» عزيز هذا هو الذي يسميه اليهود عزرا غيرت

---

١. التوبة ٢٩ ـ ٣٥: بحث في صلة الايمان بالتوحيد وباليوم الآخر؛ لم عد الله اهل الكتاب كفاراً.

اللفظة عند التعريف كما غير لفظ «يسوع» فصار بالتعريب «عيسى» ولفظ «يوحنا» فصار كما قيل «يحيى».

وقوله: «وقالت النصارى المسيح ابن الله» كلمة قالتها النصارى، وقد تقدم الكلام فيها وفي ما يتعلق بها في قصة المسيح عليه السلام من سورة آل عمران في الجزء الثالث من الكتاب.

وقوله: ﴿يُضَاهِؤُنَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ تنبيء الآية عن ان القول بالنبوّة منهم مضاهاة ومشاكلة لقول من تقدمهم من الأمم الكافرة وهم الوثنيون عبدة الأصنام فإن من آلهتهم من هو إله أب إله ومن هو إله ابن إله، ومن هي إلهة ام إله او زوجة إله. وكذا القول بالثالوث مما كان دائراً بين الوثنيين من الهند والصين ومصر القديم وغيرهم وقد مرّ نبذة من ذلك فيما تقدم من الكلام في قصة المسيح في ثالث أجزاء هذا الكتاب.

ثم دعا عليهم بقوله: «قاتلهم الله أنى يؤفكون» وختم به الآية.

قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ الأحبار جمع حبر بفتح الحاء وكسرها وهو العالم وغلب استعماله في علماء اليهود والرهبان جمع راهب وهو المتلبس بلباس الخشية وغلب على المتنسكين من النصارى.

واتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله هو إصغاؤهم لهم وإطاعتهم من غير قيد وشرط ولا يطاع كذلك إلّا الله سبحانه.

وأما اتخاذهم المسيح بن مريم رباً من دون الله فهو القول بالوهيته بنحو كما هو المعروف من مذاهب النصارى، وفي إضافة المسيح الى مريم إشارة الى عدم كونهم محقين في هذا الاتخاذ لكونه إنساناً ابن مرأة.

ولكون الإتخاذين مختلفين من حيث المعنى فصل بينهما فذكر اتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله أولاً، ثم عطف عليه قوله: «والمسيح بن مريم».

والكلام كما يدل على اختلاف الربوبيتين كذلك لا يخلو عن دلالة على أن قولهم ببنوّة عزير وبنوة المسيح على معنيين مختلفين، وهو البنوة التشريفية في عزير والبنوة بنوع من الحقيقة في المسيح عليه السلام فإن الآية أهملت ذكر اتخاذهم عزيراً رباً من دون الله، ولم يذكر مكانه إلّا اتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله.

فهو رب عندهم بهذا المعنى إما لاستلزام التشريف بالبنوة ذلك أو لأنه من أحبارهم وقد أحسن إليهم في تجديد مذهبهم ما لا يقاس به إحسان غيره. وأما المسيح فبنوّته غير هذه البنوة.

وقوله: «وما أُمروا إلّا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلّا هو» جملة حالية أي اتخذوا لهم أرباباً والحال هذه.

وفي الكلام دلالة أوّلاً: على أن الاتخاذ بالربوبية بواسطة الطاعة كالاتخاذ بها بواسطة العبادة فالطاعة اذا كانت بالاستقلال كانت عبادة، ولازم ذلك ان الرب الذي هو المطاع من غير قيد وشرط وعلى نحو الاستقلال إله، فإن الإله هو المعبود الذي من حقه أن يعبد، يدل على ذلك كله قوله تعالى: «وما أُمروا إلّا ليعبدوا إلهاً واحداً» حيث يدل الرب بالإله، وكان مقتضى الظاهر ان يقال وما أُمروا إلّا ليتخذوا رباً واحداً فالاتخاذ للربوبية بواسطة الطاعة المطلقة عبادة، واتخاذ الرب معبوداً اتخاذ له إلهاً فافهم ذلك.

وثانياً: على ان الدعوة الى عبادة الله وحده فيما وقع من كلامه تعالى كقوله تعالى: ﴿لا إله إلّا أنا فاعبدون﴾ (الأنبياء / ٢٥) وقوله: ﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر﴾ (الشعراء / ٢١٣) وأمثال ذلك كما أُريد بها قصر العبادة بمعناها المتعارف فيه تعالى كذلك أُريد قصر الطاعة فيه تعالى. وذلك انه تعالى لم يؤاخذهم في طاعتهم لأحبارهم ورهبانهم إلّا بقوله عزّ من قائل: «وما أُمروا إلّا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلّا هو».

وعلى هذا المعنى يدل قوله تعالى: ﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم ان لا تعبدوا الشيطان إنه

لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴾ (يس / ٦١) . وهذا باب ينفتح منه ألف باب .

وفي قوله : « لا إله إلّا هو » تتميم لكلمة التوحيد التي يتضمنها قوله : « وما أُمروا إلّا ليعبدوا إلهاً واحداً » فإن كثيراً من عبدة الاصنام كانوا يعتقدون بوجود آلهة كثيرة ، وهم مع ذلك لا يخصون بالعبادة إلّا واحداً منها فعبادة إله واحد لا يتم به التوحيد الّا مع القول بأنه لا إله إلّا هو .

وقد جمع تعالى بين العبادتين مع الإشارة الى مغايرة ما بينهما وان قصر العبادة بكلا معنييها عليه تعالى هو معنى الإسلام له سبحانه الذي لا مفر منه للانسان : فيما أمر به نبيه ﷺ من دعوة أهل الكتاب بقوله : **﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد إلّا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾** (آل عمران / ٦٤) .

وقوله تعالى في ذيل الآية : « سبحانه عما يشركون » تنزيه له تعالى عما يتضمنه قولهم بربوبية الأحبار والرهبان ، وقولهم بربوبية المسيح ﷺ من الشرك .

والآية بمنزلة البيان التعليلي لقوله تعالى في أول الآيات : « الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » فان اتخاذ إله او آلهة دون الله سبحانه لا يجامع الايمان بالله ، ولا الايمان بيوم لا ملك فيه إلّا الله .

قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ ٱللّٰهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ الى آخر الآية : الإطفاء اخماد النار او النور ، والباء في قوله : « بأفواههم » للآلة او السببية .

وإنما ذكر الأفواه لأن النفخ الذي يتوسل به الى اخماد الانوار والسرج يكون بالأفواه ، قال في المجمع : وهذا من عجيب البيان مع ما فيه من تصغير شأنهم وتضعيف كيدهم لأن الفم يؤثر في الأنوار الضعيفة دون الاقباس العظيمة . انتهى .

وقال في الكشاف: مثل حالهم في طلبهم ان يبطلوا نبوة محمّد ﷺ بالتكذيب بحال من يريد ان ينفخ في نور عظيم منبث في الآفاق يريد الله ان يزيده، ويبلغه الغاية القصوى في الاشراق والاضاءة ليطفئه بنفخه ويطمسه. انتهى. والآية اشارة الى حال الدعوة الإسلامية، وما يريده منه الكافرون، وفيها وعد جميل بأن الله سيتم نوره.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ الهدى الهداية الإلهية التي قارنها برسوله ليهدي بأمره، ودين الحق هو الاسلام بما يشتمل عليه من العقائد والأحكام المنطبقة على الواقع الحق.

والمعنى أن الله هو الذي ارسل رسوله وهو محمّد ﷺ مع الهداية ـ او الآيات والبينات ـ ودين فطري ليظهر وينصر دينه الذي هو دين الحق على كل الأديان ولو كره المشركون ذلك.

وبذلك ظهر أن الضمير في قوله: «ليظهره» راجع الى دين الحق كما هو المتبادر من السياق، وربما قيل: ان الضمير راجع الى الرسول، والمعنى ليظهر رسوله ويعلمه معالم الدين كلها وهو بعيد.

وفي الآيتين من تحريض المؤمنين على قتال اهل الكتاب والاشارة الى وجوب ذلك عليهم ما لا يخفى فانهما تدلان على أن الله أراد انتشار هذا الدين في العالم البشري فلابد من السعي والمجاهدة في ذلك، وأن اهل الكتاب يريدون أن يطفؤوا هذا النور بأفواههم فلابد من قتالهم حتى يفنوا او يستبقوا بالجزية والصغار، وأن الله سبحانه يأبى إلّا ان يتم نوره، ويريد ان يظهر هذا الدين على غيره فالدائرة بمشية الله لهم على اعدائهم فلا ينبغي لهم ان يهنوا ويحزنوا وهم لأعلون ان كانوا مؤمنين.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ

أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الظاهر أن الآية اشارة الى بعض التوضيح لقوله في أول الآيات: «ولا يحرِّمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق» كما ان الآية السابقة كالتوضيح لقوله فيها: «فالذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر».

أما ايضاح قوله تعالى: «ولا يحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله» بقوله: «ان كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل» فهو إيضاح بأوضح المصاديق وأهمها تأثيراً في افساد المجتمع الانساني الصالح. وابطال غرض الدين.

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قال الراغب: الكنز جعل المال بعضه على بعض وحفظه. وأصله من كنزت التمر في الوعاء، وزمن الكناز وقت ما يكنز فيه التمر. وناقة كناز مكتنزة اللحم، وقوله: «والذين يكنزون الذهب والفضة» أي يدّخرونها. انتهى.

ففي مفهوم الكنز حفظ المال المكنوز وادّخاره ومنعه من ان يجري بين الناس في وجوه المعاملات فينمو نماءً حسناً، ويعمّ الانتفاع به في المجتمع فينتفع به هذا بالأخذ. وذاك بالرد، وذلك بالعمل عليه وقد كان دأبهم قبل ظهور البنوك والمخازن العامة أن يدفنوا الكنوز في الأرض ستراً عليها من أن تقصد بسوء.

والآية وإن اتصلت في النظم اللفظي بما قبلها من الآيات الذامّة لأهل الكتاب والموبخة لأحبارهم ورهبانهم في أكلهم اموال الناس بالباطل والصدّ عن سبيل الله إلّا أنه لا دليل من جهة اللفظ على نزولها فيهم واختصاصها بهم البتة.

فلا سبيل الى القول بأن الآية إنما نزلت في أهل الكتاب وحرَّمت الكنز عليهم. وأما المسلمون فهم وما يقتنون من ذهب وفضة يصنعون بأموالهم ما يشاؤون من غير بأس عليهم.

والآية توعد الكانزين إيعاداً شديداً، ويهددهم بعذاب شديد غير أنها تفسر الكنز

المدلول عليه بقوله: «الذين يكنزون الذهب والفضة» بقوله: «ولا ينفقونها في سبيل الله» فتدل بذلك على أن الذي يبغضه الله من الكنز ما يلازم الكف عن إنفاقه في سبيل الله اذا كان هناك سبيل.

فالآية ناظرة الى الكنز الذي يصاحبه الامتناع عن الانفاق في الحقوق المالية الواجبة لا بمعنى الزكاة الواجبة فقط بل بمعنى يعمها وغيرها من كل ما يقوم عليه ضرورة المجتمع الديني من الجهاد وحفظ النفوس من الهلكة ونحو ذلك.

وقوله في ذيل الآية: «فبشرهم بعذاب أليم» إيعاد بالعذاب يدل على تحريمه الشديد.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ الى آخر الآية. إحماء الشيء جعله حاراً في الاحساس، والإحماء عليه الايقاد ليتسخن والإحماء فوق التسخين، والكيّ إلصاق الشيء الحار بالبدن.

والمعنى: أن ذلك العذاب المبشّر به في يوم يوقد على تلك الكنوز في نار جهنم فتكون محماة بالنار فتلصق بجباههم وجنوبهم وظهورهم، ويقال لهم عند ذلك: «هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون»: فقد عاد عذاباً عليكم تعذّبون به.

ولعل تخصيص الجباه والجنوب والظهور لأنهم خضعوا لها وهو السجدة التي تكون بالجباه ولاذوا اليها واللواذ بالجنوب، واتكؤوا عليها والاتكاء بالظهور، وقيل غير ذلك والله أعلم[١][٢].

---

١. التوبة ٢٩ ـ ٣٥: بحث روائي في: السيوف الثلاثة، سيرة الاسلام مع اهل الكتاب والكفار من غيرهم: الجزية: معنى اتخاذ اهل الكتاب احبارهم ورهبانهم ارباباً من دون الله: ظهور المهدي ﷺ: كنز الذهب والفضة: الدرهم والدينار.

٢. التوبة ٢٩ ـ ٣٥: كلام في معنى الكنز.

٣٦ ● إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَٱلأَرضَ مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذٰلِكَ الدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ.

٣٧ ● إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضَ﴾ الشهر كالسنة والاسبوع مما يعرفه عامة الناس منذ اقدم اعصار الإنسانية، وكأن لبعضها تأثيراً في تنبههم للبعض فقد كان الانسان يشاهد تحول السنين ومرورها بمضي الصيف والشتاء والربيع والخريف وتكررها بالعود ثم العود ثم تنبهوا لانقسامها الى اقسام هي اقصر منها مدة حسب ما ساقهم اليه مشاهدة اختلاف اشكال القمر من الهلال الى الهلال، وينطبق على ما يقرب من ثلاثين يوماً وتنقسم بذلك السنة الى اثني عشر شهراً.

والسنة التي ينالها الحس شمسية تتألف من ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وبعض يوم لا تنطبق على اثني عشر شهراً قمرياً هي ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً تقريباً إلّا برعاية حساب

الكبيسة غير ان ذلك هو الذي يناله الحس وينتفع به عامة الناس من الحاضر والبادي والصغير والكبير والعالم والجاهل.

فقوله تعالى: «إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً» الخ؛ ناظر الى الشهور القمرية التي تتألف منها السنون وهي التي لها اصل ثابت في الحس وهو التشكلات القمرية بالنسبة الى اهل الارض.

والدليل على كون المراد بها الشهور القمرية ـ اولاً ـ قوله بعد: «منها اربعة حرم» لقيام الضرورة على ان الاسلام لم يحرم إلّا اربعة من الشهور القمرية التي هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، والاربعة من القمرية دون الشمسية.

وثانياً: قوله «عند الله» وقوله: «في كتاب الله يوم خلق السموات والارض» فإن هذه القيود تدل على ان هذه العدة لا سبيل للتغير والاختلاف إليها لكونها عند الله كذلك ولا يتغير علمه، وكونها في كتاب الله كذلك يوم خلق السماوات والارض فجعل الشمس تجري لمستقر لها، والقمر قدره منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون فهو الحكم المكتوب في كتاب التكوين، ولا معقب لحكمه تعالى.

فمعنى الآية ان عدة الشهور اثنا عشر شهراً تتألف منها السنون، وهذه العدة هي التي في علم الله سبحانه، وهي التي أثبتها في كتاب التكوين يوم خلق السماوات والارض وأجرى الحركات العامة التي منها حركة الشمس وحركة القمر حول الارض وهي الاصل الثابت في الكون لهذه العدة.

قوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ الحرم جمع حرام وهو الممنوع منه، والقيم هو القائم بمصلحة الناس المهيمن على إدارة امور حياتهم وحفظ شؤونها.

وقوله: «منها اربعة حرم» هي الاشهر الاربعة: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب بالنقل القطعي. والكلمة كلمة تشريع بدليل قوله: «ذلك الدين القيم» الخ.

وإنما جعل الله هذه الاشهر الاربعة حرماً ليكف الناس فيها عن القتال وينبسط عليهم بساط الأمن، ويأخذوا فيها الأهبة للسعادة، ويرجعوا الى ربهم بالطاعات والقربات.

وكانت حرمتها من شريعة إبراهيم، وكانت العرب تحترمها حتى في الجاهلية حينما كانوا يعبدون الأوثان غير أنهم ربما كانوا يحولون الحرمة من شهر الى شهر سنة أو أزيد منها بالنسيء الذي تتعرض له الآية التالية.

وقوله: «ذلك الدين القيّم». الإشارة الى حرمة الاربعة المذكورة، والدين كما تطلق على مجموع ما أنزله الله على أنبيائه تطلق على بعضها فالمعنى ان تحريم الأربعة من الشهور القمرية هو الدين الذي يقوم بمصالح العباد. كما يشير اليه في قوله: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام﴾ الآية (المائدة / ٩٧)؛ وقد تقدم الكلام فيه في الجزء السادس من الكتاب.

وقوله: «فلا تظلموا فيهن أنفسكم» الضمير الى الأربعة اذ لو كان راجعاً الى «اثنا عشر» المذكور سابقاً لكان الظاهر أن يقال: «فيها» كما نقل عن الفراء، وأيضاً لو كان راجعاً الى «اثنا عشر» وهي تمام السنة لكان قوله: «فلا تظلموا فيهن أنفسكم» كما قيل في معنى قولنا: فلا تظلموا أبداً أنفسكم، وكان الكلام متفرقاً على كون عدة الشهور عند الله اثني عشر شهراً، ولا تفرع له عليه ظاهراً فالمعنى لما كانت هذه الأربعة حرماً تفرع على حرمتها عند الله أن تكفوا فيها عن ظلم أنفسكم رعاية لحرمتها وعظم منزلتها عند الله سبحانه.

فالنهي عن الظلم فيها يدل على عظم الحرمة وتأكدها لتفرعها على حرمتها أولاً ولأنها نهي خاص بعد النهي العام كما يفيده قولنا: لا تظلم أبداً ولا تظلم في زمان كذا.

والجملة أعني قوله: «فلا تظلموا فيهن أنفسكم» وإن كانت بحسب إطلاق لفظها نهياً عن

كل ظلم ومعصية لكن السياق يدل على كون المقصود الأهم منها النهي عن القتال في الأشهر الحرم.

قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ قال الراغب في المفردات: الكف كف الانسان وهي ما بها يقبض ويبسط، وكففته أصبت كفه، وكففته أصبته بالكف ودفعته بها، وتعورف الكف بالدفع على أي وجه كان، بالكف كان أو غيرها حتى قيل: رجل مكفوف لمن قبض بصره.

وقوله: وما أرسلناك إلّا كافة للناس أي كافاً لهم عن المعاصي، والهاء فيه للمبالغة كقولهم: راوية وعلامة ونسّابة، وقوله: «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» قيل: معناه كافين لهم كما يقاتلونكم كافين، وقيل: معناه جماعة كما يقاتلونكم جماعة، وذلك أن الجماعة يقال لهم: الكافة كما يقال لهم: الوازعة لقوتهم باجتماعهم، وعلى هذا قوله: «يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة». انتهى.

وقال في المجمع: كافة بمعنى الإحاطة مأخوذ من كافة الشيء وهي حرفه واذا انتهى الشيء الى ذلك كف عن الزيادة، وأصل الكف المنع. انتهى.

وقوله: «كافة» في الموضعين حال عن الضمير الراجع الى المسلمين او المشركين أو في الأول عن الأول وفي الثاني عن الثاني او بالعكس فهناك وجوه أربعة، والمتبادر الى الذهن هو الوجه الرابع للقرب اللفظي الذي بين الحال وذي الحال حينئذ، ومعنى الآية على هذا: وقاتلوا المشركين جميعهم كما يقاتلونكم جميعكم.

فالآية توجب قتال جميع المشركين فتصير نظيرة قوله تعالى: «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» الآية؛ ينسخ هذه ما ينسخ تلك وتتخصص أو تتقيد بما تخصص او تقيد به هي.

والآية مع ذلك إنما تتعرض لحال القتال مع المشركين وهم عبدة الأوثان غير أهل الكتاب فإن القرآن وإن كان ربما نسب الشرك تصريحاً او تلويحاً الى أهل الكتاب لكنه لم يطلق

المشركين على طريق التوصيف إلّا على عبدة الأوثان، وأما الكفر فعلاً او وصفاً فقد نسب الى اهل الكتاب وأُطلق عليهم كما نسب وأُطلق الى عبدة الأوثان.

فالآية أعني قوله: «وقاتلوا المشركين كافة» الآية؛ لا هي ناسخة لآية أخذ الجزية من أهل الكتاب، ولا هي مخصصة او مقيدة بها. وقد قيل في الآية بعض وجوه أُخر تركناه لعدم جدوي في التعرض له.

وقوله: «واعلموا أن الله مع المتقين» تعليم وتذكير وفيه حث على الاتصاف بصفة التقوى يترتب عليه من الفائدة: أولاً: الوعد الجميل بالنصر الإلهي والغلبة والظفر فإن حزب الله هم الغالبون.

وثانياً: منعهم ان يتعدّوا حدود الله في الحروب والمغازي بقتل النساء والصبيان ومن ألق اليهم السلام كما قتل خالد في غزوة حنين مرأة فأرسل اليه النبي ﷺ ينهاه عن ذلك وقتل رجالاً من بني جذيمة وقد اسلموا فوداهم النبي ﷺ وتبرأ الى الله من فعله ثلاثاً[١]. وقتل اسامة يهودياً اظهر له الاسلام فنزل قوله تعالى: «**ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة**» (النساء / ٩٤) وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ الى آخر الآية؛ يقال: نسأ الشيء ينسؤه نسأ ومنسأة ونسيئاً اذا اخّره تأخيراً، وقد يطلق النسيء على الشهر الذي اخّر تحريمه على ما كانت العرب تفعله في الجاهلية فإنهم ربما كانوا يؤخرون حرمة بعض الأشهر الحرم الى غيره وأما انه كيف كان ذلك فقد اختلف فيه كلام المفسرين كأهل التاريخ.

والذي يظهر من خلال الكلام المسرود في الآية أنه كانت لهم فيها بينهم سنّة جاهلية في امر الأشهر الحرم وهي المسمّاة بالنسيء، وهو يدل بلفظه على تأخير الحرمة من شهر حرام

---

١. القصتان الاوليان مذكورتان في كتب السير والمغازي والثالثة تقدمت في تفسير الآية سابقاً.

الى بعض الشهور غير المحرَّمة الذي بعده، وانهم انما كانوا يؤخرون الحرمة ولا يبطلونها برفعها من اصلها لإرادتهم بذلك ان يتحفظوا على سنّة قومية ورثوها عن اسلافهم عن إبراهيم عليه السلام.

فكانوا لا يتركون أصل التحريم لغى وإنما يؤخرونه الى غير الشهر سنة او أزيد ليواطئوا عدَّة ما حرَّم الله، وهي الأربعة ثم يعودون ويعيدون الحرمة الى مكانها الأول.

وهذا نوع تصرف في الحكم الإلهي بعد كفرهم بالله باتخاذ الأوثان شركاء له تعالى وتقدَّس، ولذا عدَّه الله سبحانه في كلامه زيادة في الكفر.

وقد ذكر الله سبحانه من الحكم الخاص بحرمة الأشهر الحرم النهي عن ظلم الأنفس حيث قال: «فلا تظلموا فيهن انفسكم» واظهر مصاديقه القتال كما ان المصداق الوحيد الذي استفتوا فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فحكاه الله سبحانه بقوله: ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه** ﴾ الآية (البقرة / ٢١٧)؛ وكذا ما في معناه من قوله: ﴿ **لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام** ﴾ (المائدة / ٢) وقوله: ﴿ **جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد** ﴾ (المائدة / ٩٧).

وكذلك الأثر الظاهر من حرمة البيت او الحرم هو جعل الامن فيه كما قال: ﴿ **ومن دخله كان آمناً** ﴾ (آل عمران / ٩٧) وقال: ﴿ **او لم نمكن لهم حرماً آمناً** ﴾ (القصص / ٥٧).

فالظاهر ان النسيء الذي تذكره الآية عنهم إنما هو تأخير حرمة الشهر الحرام للتوسّل بذلك الى قتال فيه لا لتأخير الحج الذي هو عبادة دينية مختصة ببعضها.

وهذا كله يؤيد ما ذكروه: أن العرب كانت تحرّم هذه الأشهر الحرم، وكان ذلك مما تمسّكت به من ملة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام، وهم كانوا أصحاب غارات وحروب فربما كان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة اشهر متوالية لا يغزون فيها فكانوا يؤخرون تحريم المحرّم الى صفر فيحرّمونه ويستحلون المحرم فيمكثون بذلك زماناً ثم يعود التحريم الى المحرَّم، ولا يفعلون ذلك اي إنساء

حرمة المحرم الى صفر إلّا في ذي الحجة.

وأما ما ذكره بعضهم أن النسيء هو ما كانوا يؤخرون الحج من شهر الى شهر فمما لا ينطبق على لفظ الآية البتّة، وسيجيء تفصيل الكلام فيه في البحث الروائي الآتي ان شاء الله. ولنرجع الى ما كنّا فيه.

فقوله تعالى: «إنما النسيء زيادة في الكفر» أي تأخير الحرمة التي شرعها الله لهذه الأشهر الحرم من شهر منها الى شهر غير حرام زيادة في الكفر لأنه تصرف في حكم الله المشروع وكفر بآياته بعد الكفر بالله من جهة الشرك فهو زيادة في الكفر.

وقوله: ﴿ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي ضلوا فيه بإضلال غيرهم إياهم بذلك، وفي الكلام إشعار أو دلالة على أن هناك من يحكم بالنسيء، وقد ذكروا أن المتصدي لذلك كان بعض بني كنانة. وسيجيء تفصيله في البحث الروائي إن شاء الله.

وقوله: ﴿ يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ في موضع التفسير للإنسان، والضمير للشهر الحرام المعلوم في سياق الكلام اي وهو انهم يحلّون الشهر الحرام الذي نسؤوه بتأخير حرمته عاماً ويحرّمونه عاماً، اي يحلّونه عاماً بتأخير حرمته الى غيره، ويحرمونه عاماً بإعادة حرمته اليه.

وإنما يعملون على هذه الشاكلة بالتأخير سنة والإثبات اخرى ليواطئوا ويوافقوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله في حال حفظهم اصل العدد اي انهم يريدون التحفظ على حرمة الاشهر الاربعة بعددها مع التغيير في محل الحرمة ليتمكنوا مما يريدونه من الحروب والغارات مع الاستنان بالحرمة.

وقوله: ﴿ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ المزيّن هو الشيطان كما وقع في آيات من الكتاب، وربما الى الله سبحانه كما في آيات أُخر، ولا ينسب الشر اليه سبحانه إلّا ما قصد به الجزاء على الشر كما قال تعالى: ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به

كثيراً وما يضل به إلّا الفاسقين﴾ (البقرة / ٢٦).

وذلك بأن يفسق العبد فيمنعه الله الهداية فيكون ذلك إذناً لداعي الضلال وهو الشيطان ان يزيّن له سوء عمله فيغويه ويضله، ولذلك قال تعالى: «زيّن لهم سوء أعمالهم» ثم عقّبه بقوله: «إن الله لا يهدي القوم الكافرين» كأنه لما قيل: زيّن لهم سوء أعمالهم قيل: كيف أذن الله فيه ولم يمنع ذلك قيل: إن هؤلاء كافرون والله لا يهدي القوم الكافرين[1].

٣٨ ● يا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنْفِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ.

٣٩ ● إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

٤٠ ● إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

٤١ ● إِنْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

---

١. التوبة ٣٦ ـ ٣٧: بحث روائي في الاشهر الحرم.

٤٢ • لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلٰكِنْ بَعُدَتْ
عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ
يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَٱللّٰهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ.
٤٣ • عَفَا ٱللّٰهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا
وَتَعْلَمَ ٱلْكَاذِبِينَ.
٤٤ • لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ أَنْ يُجاهِدُوا
بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَٱللّٰهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ.
٤٥ • إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ
وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ.
٤٦ • وَلَوْ أَرَادُوا ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلٰكِنْ كَرِهَ ٱللّٰهُ ٱنْبِعاثَهُمْ
فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْقَاعِدِينَ.
٤٧ • لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ
يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَٱللّٰهُ عَلِيمٌ بِالظّالِمِينَ.
٤٨ • لَقَدِ ٱبْتَغَوُا ٱلْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ ٱلأُمُورَ حَتّىٰ جاءَ ٱلْحَقُّ
وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللّٰهِ وَهُمْ كَارِهُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ ٱنْفِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ ٱثّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلأَرْضِ﴾ الآية: اثاقلتم أصله تثاقلتم على وزان اداركوا وغيره. وكأنه

أُشرب معنى الميل ونحوه فعدّي بإلى وقيل: اثاقلتم الى الأرض أي ملتم الى الأرض متثاقلين او تثاقلتم مائلين الى الأرض والمراد بالنفر في سبيل الله الخروج الى الجهاد.

وقوله: ﴿أَرَضِيتُمْ بِالحَيٰوةِ ٱلدُّنْيا مِنَ ٱلآخِرَةِ﴾ كأن الرضا أُشرب معنى القناعة فعدّي بمن كما يقال: رضيت من المال بطيِّبه، ورضيت من القوم بخلَّة فلان، وعلى هذا في الكلام نوع من العناية المجازية كأن الحياة الدنيا نوع حقير من الحياة الآخرة قنعوا بها منها، ويشعر بذلك قوله بعده: «فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلّا قليل».

فمعنى الآية: يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قال لكم النبي ﷺ ـ لم صرّح باسمه صوناً وتعظيماً ـ اخرجوا الى الجهاد أبطأتم كأنكم لا تريدون الخروج أقنعتم بالحياة الدنيا راضين بها من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا بالنسبة الى الحياة الآخرة إلّا قليل.

وفي الآية وما يتلوها عتاب شديد للمؤمنين وتهديد عنيف وهي تقبل الانطباق على غزوة تبوك كما ورد ذلك في اسباب النزول.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُم﴾ الى آخر الآية: العذاب الذي أُنذروا به مطلق غير مقيَّد فلا وجه لتخصيصه بعذاب الآخرة بل هو على إبهامه، وربما أيّد السياق كون المراد به عذاب الدنيا او عذاب الدنيا والآخرة جميعاً.

وقوله: «يستبدل قوماً غيركم» أي يستبدل بكم قوماً غيركم لا يتثاقلون في امتثال أوامر الله والنفر في سبيل الله اذا قيل لهم: انفروا، والدليل على هذا المعنى قرينة المقام.

وقوله: «ولا تضرُّوه شيئاً» إشارة الى هوان أمرهم على الله سبحانه لو أراد ان يذهب بهم ويأتي بآخرين فإن الله لا ينتفع بهم بل نفعهم لأنفسهم فضررهم على أنفسهم، وقوله: «والله على كل شيء قدير» تعليل لقوله: «يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم».

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ ثاني اثنين اي أحدهما، والغار الثقبة العظيمة في الجبل، والمراد

به غار جبل ثور قرب منى وهو غير غار حراء الذي ربما كان النبي ﷺ يأوي اليه قبل البعثة للأخبار المستفيضة . والمراد بصاحبه هو ابو بكر للنقل القطعي .

وقوله : ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أي لا تحزن خوفاً مما تشاهده من الوحدة والغربة وفقد الناصر وتظاهر الأعداء وتعقيبهم إياي فإن الله سبحانه معنا ينصرني عليهم .

وقوله : ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي أنزل الله سكينته على رسوله وأيّد رسوله بجنود لم تروها يصرفون القوم عنهم بوجوه من الصرف بجميع العوامل التي عملت في انصراف القوم عن دخول الغار والظفر به ﷺ . وقد روي في ذلك أشياء ستأتي في البحث الروائي إن شاء الله تعالى .

والدليل على رجوع الضمير في قوله : « فأنزل الله سكينته عليه » الى النبي ﷺ اولاً : رجوع الضمائر التي قبله وبعده اليه ﷺ كقوله : « إلّا تنصروه » و « نصره » و « أخرجه » و « يقول » و « لصاحبه » و « أيّده » فلا سبيل الى رجوع ضمير « عليه » من بينها وحده الى غيره من غير قرينة قاطعة تدلّ عليه .

وثانياً : أن الكلام في الآية مسوق لبيان نصر الله تعالى نبيه ﷺ حيث لم يكن معه أحد ممن يتمكن من نصرته اذ يقول تعالى : « إلّا تنصروه فقد نصره الله اذ » الآية وإنزال السكينة والتقوية بالجنود من النصر فذاك له ﷺ خاصة .

ويدلّ على ذلك تكرار « اذ » وذكرها في الآية ثلاث مرات كل منها بيان لما قبله بوجه فقوله : « اذ أخرجه الذين كفروا » بيان لوقت قوله : « فقد نصره الله » وقوله : « اذ هما في الغار » بيان لتشخيص الحال الذي هو قوله : « ثاني اثنين » وقوله : « اذ يقول لصاحبه » بيان لتشخيص الوقت الذي يدل عليه قوله : « اذ هما في الغار » .

وثالثاً : أن الآية تجري في سياق واحد حتى يقول : « وجعل كلمة الذين كفروا السفلى

وكلمة الله هي العليا » ولا ريب أنه بيان لما قبله، وأن المراد بكلمة الذين كفروا هي ما قضوا به في دار الندوة وعزموا عليه من قتله ﷺ وإطفاء نور الله. وبكلمة الله هي ما وعده من نصره وإتمام نوره، وكيف يجوز أن يفرّق بين البيان والمبيَّن وجعل البيان راجعاً الى نصره تعالى إياه ﷺ، والمبيّن راجعاً الى نصره غيره.

فمعنى الآية: ان لم تنصروه أنتم ايها المؤمنون فقد اظهر الله نصره إياه في وقت لم يكن له احد ينصره ويدفع عنه وقد تظاهرت عليه الأعداء وأحاطوا به من كل جهة وذلك اذ هم المشركون به وعزموا على قتله فاضطر الى الخروج من مكة في حال لم يكن إلّا احد رجلين اثنين، وذلك اذ هما في الغار اذ يقول النبي ﷺ لصاحبه وهو ابو بكر: لا تحزن مما تشاهده من الحال ان الله معنا بيده النصر فنصره الله.

حيث أنزل سكينته عليه وأيّده بجنود غائبة عن ابصاركم، وجعل كلمة الذين كفروا ـ وهي قضاؤهم بوجوب قتله وعزيمتهم عليه ـ كلمة مغلوبة غير نافذة ولا مؤثرة، وكلمة الله ـ وهي الوعد بالنصر وإظهار الدين واتمام النور ـ هي العليا العالية القاهرة والله عزيز لا يغلب حكيم لا يجهل ولا يغلط في ما شاءه وفعله.

وقد تبيّن مما تقدم أولاً: ان قوله: « فأنزل الله سكينته عليه » متفرّع على قوله: « فقد نصره الله » في عين انه متفرع على قوله: « اذ يقول لصاحبه لا تحزن » فان الظرف ظرف للنصرة على ما تقدّم، والكلام مسوق لبيان نصره تعالى إياه ﷺ لا غيره فالتفريع تفريع على الظرف بمظروفه الذي هو قوله: « فقد نصره الله » لا على قوله: « يقول لصاحبه لا تحزن ».

وربما استدل لذلك بأن النبي ﷺ لم يزل على سكينة من ربه فانزال السكينة في هذا الظرف خاصة يكشف عن نزوله على صاحبه.

ويدفعه أولاً قوله تعالى: « ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » في قصة حنين، والقول بأن نفسه الشريفة اضطربت بعض الاضطراب في وقعة حنين فناسب نزول السكينة

بخلاف الحال في الغار. يدفعه أنه من الافتعال بغير علم فالآية لا تذكر منه ﷺ حزناً ولا اضطراباً ولا غير ذلك إلّا ما تذكر من فرار المؤمنين. على أنه يبطل أصل الاستدلال ان النبي ﷺ لم يزل على سكينة من ربه لا يتجدد له شيء منها فكيف جاز له أن يضطرب في حنين فتنزل عليه سكينة جديدة اللهم إلّا أن يريدوا به أنه لم يزل في الغار كذلك.

ونظيرتها الآية الناطقة بنزول السكينة عليه ﷺ وعلى المؤمنين في سورة الفتح: ﴿**إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميّة حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين**﴾ (الفتح / ٢٦).

ويدفعه ثانياً: لزوم تفرّع قوله: «وأيّده بجنود لم تروها» على اثر تفرّع قوله: «فأنزل الله سكينته عليه» لأنها في سياق واحد، ولازمه عدم رجوع التأييد بالجنود اليه ﷺ أو التفكيك في السياق الواحد من غير مجوّز يجوّزه.

وربما التزم بعضهم ـ فراراً من شناعة لزوم التفكيك ـ أن الضمير في قوله تعالى: «وأيّده» أيضاً أيضاً راجع الى صاحبه، ولازمه كون إنزال السكينة والتأييد بالجنود عائدين الى أبي بكر دون النبي ﷺ.

وربما أيّده بعض آخر بأن الوقائع التي تذكر الآيات فيها نزول جنود لم يروها كوقعة حنين والأحزاب وكذا نزول الملائكة لوقعة بدر وان لم تذكر نزولهم على المؤمنين ولم تصرح بتأييدهم بهم لكنهم حيث كانوا انما نزلوا للنصر وفيه نصر المؤمنين وإمدادهم فلا مانع من القول بأن الجنود التي لم يروها إنما أيدت أبا بكر، وتأييدهم المؤمنين جميعاً أو ابا بكر خاصّة تأييد منهم في الحقيقة للنبي ﷺ.

والأولى على هذا البيان أن يجعل الفرع الثالث الذي هو قوله: «وجعل كلمة الذين كفروا السفلى» الآية: مترتباً على ما تقدّمه من الفرعين لئلا يلزم التفكيك في السياق.

ولا يخفى عليك أن هذا الذي التزموا به يخرج الآية عن مستقر معناها الوحداني الى معنى

متهافت الأطراف يدفع آخره أوله. وينقض ذيله صدره فقد بدأت الآية بأن النبي ﷺ أكرم على الله وأعز من أن يستذله ويحوجه الى نصرة هؤلاء بل هو تعالى وليّه القائم بنصره حيث لم يكن أحد من هؤلاء الحافين حوله المتبعين أثره ثم اذا شرعت في بيان نصره تعالى إياه بيّن نصره غيره بإنزال السكينة عليه وتأييده بجنود لم يروها الى آخر الآية.

هب أن نصره تعالى بعض المؤمنين به ﷺ أو جميعهم نصر منه له بالحقيقة لكن الآية في مساق يدفعه البتة فإن الآية السابقة يجمع المؤمنين في خطاب واحد ـ يا أيها الذين آمنوا ـ ويعاتبهم ويهددهم على التثاقل عن إجابة النبي ﷺ الى ما أمرهم به من النفر في سبيل الله والخروج الى الجهاد ثم الآية الثانية تهددهم بالعذاب والاستبدال إن لم ينفروا وتبين لهم أن الله ورسوله في غنىً عنهم ولا يضرونه شيئاً، ثم الآية الثالثة توضح ان النبي ﷺ في غنى عن نصرهم لأن ربه هو وليّه الناصر له، وقد نصره حيث لم يكن لأحد منهم صنع فيه وهو نصره إياه اذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا.

ومن البيّن الذي لا مرية فيه ان مقتضى هذا المقام بيان نصره ﷺ الخاص به المتعلق بشخصه من الله سبحانه خاصة من دون صنع لأحد من المؤمنين في ذلك لا بيان نصره إياه بالمؤمنين أو ببعضهم وقد جمعهم في خطاب المعاتبة، ولا بيان نصره بعض المؤمنين به ممن كان معه.

ولا أن المقام مقام يصلح لأن يشار بقوله: «اذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين» إشارة إجمالية الى نصره العزيز لنبيه ﷺ ثم يؤخذ في تفصيل ما خص به صاحبه من الخصيصة بإنزال السكينة والتأييد بالجنود فإن المقام على ما تبين لك يأبى ذلك.

ويدفعه ثالثاً: أن فيه غفلة عن حقيقة معنى السكينة وقد تقدم الكلام فيها في ذيل قوله تعالى: ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ الآية: ٢٦ من السورة.

والأمر الثاني: أن المراد بتأييده ﷺ بجنود لم يروها تأييده بذلك يومئذ على ما يفيده

السياق، وأما قول بعضهم: إن المراد به ما أيده بالجنود يوم الأحزاب ويوم حنين على ما نطقت به الآيات فما لا دليل عليه من اللفظ البتة.

والأمر الثالث: أن المراد بالكلمة في قوله: «وجعل كلمة الذين كفروا السفلى» هو ما قضوا به في دار الندوة وعزموا عليه من قتله ﷺ وإبطال دعوته الحقة بذلك، وبقوله «وكلمة الله هي العليا» هو ما وعد الله نبيه ﷺ من النصر وإظهار دينه على الدين كله.

وذلك أن هذه الآية بما تتضمنه من قوله: «فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا» تشير الى ما يقصه قوله تعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ (الأنفال / ٣٠). والذي في ذيل الآية من إبطال كلمتهم وإحقاق الكلمة الإلهية مرتبط بما في صدر الآية من حديث الإخراج أي الاضطرار الى الخروج لا محالة. والذي اضطره ﷺ الى الخروج هو عزمهم على قتله حسب ما اتفقوا عليه من القضاء بقتله فهذه هي الكلمة التي أبطلها الله سبحانه وجعلها السفلى وتقابلها كلمة الله وليست إلّا النصر والإظهار.

ومن هنا يظهر ان قول بعضهم إن المراد بكلمة الذين كفروا الشرك والكفر. وبكلمة الله تعالى التوحيد والإيمان غير سديد فإن الشرك وإن كان كلمة لهم، والتوحيد كلمة الله لكنه لا يستلزم كونهما المرادين كلما ذكرت الكلمتان حتى مع وجود القرينة على الخلاف.

قوله تعالى: ﴿إِنْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخفاف والثقال جمعا خفيف وثقيل. والثقل بقرينة المقام كناية عن وجود الموانع الشاغلة الصارفة للإنسان عن الخروج الى الجهاد نظير كثرة المشاغل المالية وحب الأهل والولد والأقرباء والأصدقاء الذي يوجب كراهة مفارقتهم، وفقد الزاد والراحلة والسلاح ونحو ذلك. والخفة كناية عن خلاف ذلك.

فالأمر بالنفر خفافاً وثقالاً وهما حالان متقابلان في معنى الأمر بالخروج على أي حال،

وعدم اتخاذ شيء من ذلك عذراً يعتذر به لترك الخروج كما أن الجمع بين الأموال والأنفس في الذكر في معنى الأمر بالجهاد بأي وسيلة أمكنت .

وقد ظهر بذلك ان الأمر في الآية مطلق لا يأبى التقييد بالأعذار التي يسقط معها وجوب الجهاد كالمرض والعمى والعرج ونحو ذلك فإن المراد بالخفة والثقل امر وراء ذلك .

قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ﴾ الى آخر الآيـة . العرض ما يسرع اليه الزوال ويطلق على المال الدنيوي وهو المراد في الآية بقرينة السياق ، والمراد بقربه كونه قريباً من التناول ، والقاصد من القصد وهو التوسط في الأمر ، والمراد بكون السفر قاصداً كونه غير بعيد المقصد سهلاً على المسافر ، والشقة : المسافة لما في قطعها من المشقة .

والآية كما يلوح من سياقها تعيير وذم للمنافقين المتخلفين عن الخروج مع النبي ﷺ الى الجهاد الى غزوة تبوك اذ الغزوة التي خرج فيها النبي ﷺ وتخلف عنه المنافقون وهي على بعد من المسافة هي غزوة تبوك لا غيرها .

ومعنى الآية : لو كان ما امرتهم به ودعوتهم اليه عرضاً قريب التناول وغنيمة حاضرة وسفراً قاصداً قريباً هيناً لاتبعوك يا محمّد وخرجوا معك طمعاً في الغنيمة ولكن بعدت عليهم الشقة والمسافة فاستصعبوا السير وتثاقلوا فيه .

وسيحلفون بالله اذا رجعتم اليهم ولمتموهم على تخلفهم : لو استطعنا الخروج لخرجنا معكم يهلكون انفسهم بما اخذوه من الطريقة : من الخروج الى القتال طمعاً في عرض الدنيا اذا استيسروا القبض عليه ، والتخلف عنه اذا شق عليهم ثم الاعتذار بالعذر الكاذب على نبيهم والحلف في ذلك بالله كاذبين ، او يهلكون انفسهم بهذا الحلف الكاذب ، والله يعلم انهم لكاذبون .

قوله تعالى : ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا

﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾ الجملة الاولى دعاء للنبي ﷺ بالعفو نظير الدعاء على الانسان بالقتل في قوله: ﴿قتل الإنسان ما اكفره﴾ (عبس / ١٧)، وقوله: ﴿فقتل كيف قدّر﴾ (المدثر / ١٩) وقوله: ﴿قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ (التوبة / ٣٠).

والجملة متعلقة بقوله: «لم أذنت لهم» أي في التخلف والعقود، ولما كان الاستفهام للإنكار او التوبيخ كان معناه: كان ينبغي ان لا تأذن لهم في التخلف والقعود. ويستقيم به تعلق الغاية التي يشتمل عليها قوله: «حتى يتبين لك الذين صدقوا» الآية؛ بقوله: «لم أذنت لهم» فالتعلق إنما هو بالمستفهم عنه دون الاستفهام وإلّا أفاد خلاف المقصود، والكلام مسوق لبيان ظهور كذبهم وأن ادنى الامتحان كالكف عن إذنهم في القعود يكشف عن فضاحتهم.

ومعنى الآية: عفا الله عنك لم أذنت لهم في التخلف والقعود؟ ولو شئت لم تأذن لهم ـ وكانوا أحق به ـ حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين فيتميز عندك كذبهم ونفاقهم.

والآية ـ كما ترى وتقدمت الإشارة اليه ـ في مقام دعوى ظهور كذبهم ونفاقهم وأنهم مفتضحون بأدنى امتحان يمتحنون به، ومن مناسبات هذا المقام إلقاء العتاب الى المخاطب وتوبيخه والإنكار عليه كأنه هو الذي ستر عليهم فضائح اعمالهم وسوء سريرتهم. وهو نوع من العناية الكلامية يتبين به ظهور الأمر ووضوحه لا يراد أزيد من ذلك فهو من اقسام البيان على طريق «إياك اعني واسمعي يا جارة».

فالمراد بالكلام إظهار هذه الدعوى لا الكشف عن تقصير النبي ﷺ وسوء تدبيره في احياء امر الله، وارتكابه بذلك ذنباً ـ حاشاه ـ وأولوية عدم الإذن لهم معناها كون عدم الإذن انسب لظهور فضيحتهم وأنهم احق بذلك لما بهم من سوء السريرة وفساد النية لا لأنه كان اولى وأحرى في نفس وأقرب وأمس بمصلحة الدين.

والدليل على هذا الذي ذكرنا قوله تعالى بعد ثلاث آيات: «لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلّا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم» الى آخر الآيتين، فقد كان

الأصلح ان يؤذن لهم في التخلف ليصان الجمع من الخبال وفساد الرأي وتفرق الكلمة، والمتعين ان يقعدوا فلا يفتنوا المؤمنين بإلقاء الخلاف بينهم والتفتين فيهم وفيهم ضعفاء الإيمان ومرضى القلوب وهم سماعون لهم يسرعون الى المطاوعة لهم ولو لم يؤذن لهم فأظهروا الخلاف كانت الفتنة اشد والتفرّق في كلمة الجماعة اوضح وأبين.

ويؤكد ذلك قوله تعالى بعد آيتين: «ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين» فقد كان تخلفهم ونفاقهم ظاهراً لائحاً من عدم إعدادهم العدة يتوسمه في وجوههم كل ذي لب، ولا يخفى مثل ذلك على مثل النبي ﷺ وقد نبأه الله بأخبارهم قبل نزول هذه السورة كراراً فكيف يصح ان يعاتب ههنا عتاباً جدياً بأنه لِمَ لم يكف عن الإذن ولم يستعلم حالهم حتى يتبين له نفاقهم ويميز المنافقين من المؤمنين؟ فليس المراد بالعتاب إلّا ما ذكرناه.

ومما تقدم يظهر فساد قول من قال: إن الآية تدل على صدور الذنب عنه ﷺ لأن العفو لا يتحقق من غير ذنب، وان الإذن كان قبيحاً منه ﷺ ومن صغائر الذنوب لأنه لا يقال في المباح لم فعلته؟ انتهى.

وهذا من لعبهم بكلام الله سبحانه، ولو اعترض معترض على ما يهجون به في مثل المقام الذي سيقت الآية فيه لم يرضوا بذلك، وقد اوضحنا ان الآية مصوقة لغرض غير غرض الجد في العتاب.

على ان قولهم: إن المباح لا يقال فيه: لم فعلت؟ فاسد فإن من الجائز اذا شوهد من رجح غير الأولى على الأولى ان يقال له: لم فعلت ذلك ورجحته على ما هو اولى منه؟ على انك قد عرفت ان الآية غير مسوقة لعتاب جدي.

ونظيره ما ذكره بعض آخر حيث قال: إن بعض المفسرين ولا سيما الزمخشري قد أساؤوا الأدب في التعبير عن عفو الله تعالى عن رسوله ﷺ في هذه الآية. وكان يجب ان يتعلموا

أعلى الأدب معه ﷺ اذ اخبره ربه ومؤدبه بالعفو قبل الذنب، وهو منتهى التكريم واللطف.

وبالغ آخرون كالرازي في الطرف الآخر فأرادوا ان يثبتوا ان العفو لا يدل على الذنب، وغايته ان الإذن الذي عاتبه الله عليه هو خلاف الاولى.

وهو جمود مع الاصطلاحات المحدثة والعرف الخاص في معنى الذنب هو المعصية. وما كان ينبغي لهم ان يهربوا من إثبات ما اثبته الله في كتابه تمسكاً بإصطلاحاتهم وعرفهم المخالف له والمدلول اللغة ايضاً.

فالذنب في اللغة كل عمل يستتبع ضرراً او فوت منفعة او مصلحة، مأخوذ من ذنب الدابة، وليس مرادفاً للمعصية بل اعم منها. والإذن المعفو عنه قد استتبع فوت المصلحة المنصوصة في الآية وهي تبين الذين صدقوا والعلم بالكاذبين. وقد قال تعالى: ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ الآية (الفتح / ٢).

ثم ذكر في كلام له طويل ان ذلك كان اجتهاداً منه ﷺ فيما لا وحي فيه من الله وهو جائز وواقع من الأنبياء عليهم السلام وليسوا بمعصومين من الخطاء فيه وإنما العصمة المتفق عليها خاصة بتبليغ الوحي ببيانه والعمل به فيستحيل على الرسول ان يكذب او يخطىء فيما يبلغه عن ربه او يخالفه بالعمل.

ومنه ما تقدم في سورة الأنفال من عتابه تعالى لرسوله ﷺ في اخذ الفدية من اسارى بدر حيث قال: ﴿ **ما كان لنبي ان يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة** ﴾ (الأنفال / ٦٧) ثم بين انه كان مقتضياً لنزول عذاب أليم لولا كتاب من الله سبق فكان مانعاً انتهى كلامه بنوع من التخليص.

وليت شعري ما الذي زاد في كلامه على ما تفصّى به الرازي وغيره حيث ذكروا ان ذلك من ترك الاولى، ولا يسمونه ذنباً في عرف المتشرعين وهو الذي يستتبع عقاباً، وذكر هو انه من ترك الأصلح وسماه ذنباً لغة.

على انك قد عرفت فيما تقدم انه لم يكن ذنباً لا عرفاً ولا لغة بدلالة ناصة من الآيات على ان عدم خروجهم كان هو الأصلح لحال جيش المسلمين لتخلصهم بذلك عن غائلة وقوع الفتنة واختلاف الكلمة. وكانت هذه العلة بعينها موجودة لو لم يأذن لهم النبي ﷺ وظهر منهم ما كانوا ابطنوه من الكفر والخلاف وأن الذي ذكره الله بقوله: «ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة» ان عدم إعدادهم العدة كان يدل على عدم إرادتهم الخروج، كان رسول الله ﷺ اجل من ان يخفى عليه ذلك وهم بمرئى منه ومسمع.

مضافاً الى انه ﷺ كان يعرفهم في لحن القول كما قال تعالى: ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾ (محمّد / ٣٠) وكيف يخفى على من سمع من احدهم مثل قوله: «ائذن لي ولا تفتنّي» او يقول للنبي ﷺ «هو أُذن» او يلمزه في الصدقات ولا ينصح له ﷺ أن ذلك من طلائع النفاق يطلع منهم وما وراءه إلّا كفر وخلاف.

فقد كان النبي ﷺ يتوسم منهم النفاق والخلاف ويعلم بما في نفوسهم. ومع ذلك فعتابه ﷺ بأنه لِم لم يكف عن الاذن ولم يستعلم حالهم ولم يميزهم من غيرهم؟ ليس إلّا عتاباً غير جديّ للغرض الذي ذكرناه.

وأما قوله: «إن الإذن المعفوّ عنه قد استتبع فوت المصلحة المنصوصة في الآية وهي تبين الذين صدقوا والعلم بالكاذبين» ففيه أن الذي تشتمل عليه الآية من المصلحة هو تبين الذين صدقوا للنبي ﷺ وعلمه هو بالكاذبين لا مطلق تبينهم ولا مطلق العلم بالكاذبين، وقد ظهر مما تقدم انه ﷺ لم يكن يخفى عليه ذلك، وأن حقيقة المصلحة إنما كانت في الإذن وهي سدّ باب الفتنة واختلاف الكلمة فانه ﷺ كان يعلم من حالهم انهم غير خارجين البتّة سواء أذن لهم في القعود أم لم يأذن فبادر الى الإذن حفظاً على ظاهر الطاعة ووحدة الكلمة.

وليس لك ان تتصور انه لو بان نفاقهم يومئذ وظهر خلافهم بعدم إذن النبي لهم بالقعود لتخلص الناس من تفتينهم وإلقائهم الخلاف لما في الاسلام يومئذ ـ وهو يوم خروج

النبي ﷺ الى غزوة تبوك ـ من الشوكة والقوة، وله ﷺ من نفوذ الكلمة.

فان الإسلام يومئذ إنما كان يملك القوة والمهابة في أعين الناس من غير المسلمين كانوا يرتاعون شوكته ويعظمون سواد أهله ويخافون حد سيوفهم. وأما المسلمون في داخل مجتمعهم وبين انفسهم فلم يخلصوا بعد من النفاق ومرض القلوب، ولم يستول عليهم بعد وحدة الكلمة وجدّ الهمة والعزيمة. والدليل على ذلك نفس هذه الآيات وما يتلوها الى آخر السورة تقريباً.

وقد كانوا تظاهروا بمثل ذلك يوم أُحد وقد هجم عليهم العدو في عقر دارهم فرجع ثلث الجيش الاسلامي من المعركة ولم يؤثر فيهم عظة ولا إلحاح حتى قالوا: لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم. فكان ذلك احد الأسباب العاملة في انهزام المسلمين.

وأما قوله: ومن عتابه تعالى لرسوله ﷺ في خطائه في اجتهاده ما تقدم في سورة الأنفال من عتابه في اخذ الفدية من أُسارى بدر حيث قال: «ما كان لنبي ان يكون له أسرى حتى يثخن في الارض» الآية.

ففيه أولاً: انه من سوء الفهم فمن البيّن الذي لا يرتاب فيه أن الآية بلفظها لا تعاتب على اخذ الفدية من الأسرى وإنما تعاتب على نفس اخذ الأسرى ـ ما كان لنبي ان يكون له اسرى ـ ولم تنزل آية ولا وردت رواية في ان النبي ﷺ كان امرهم بالأسر بل روايات القصة تدل على ان النبي ﷺ لما أمر بقتل بعض الأسرى خاف الناس ان يقتلهم على آخرهم فكلموه وألحوا عليه في أخذ الفدية منهم ليتقووا بذلك على أعداء الدين وقد ردّ الله عليهم ذلك بقوله: «تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة».

وهذا من أحسن الشواهد على أن العتاب في الآية متوجه الى المؤمنين خاصة من غير ان يختص به النبي ﷺ او يشاركهم فيه وأن اكثر ما ورد من الأخبار في هذا المعنى موضوعة او مدسوسة.

وثانياً : ان العتاب في الآية لو اختص بالنبي ﷺ او شمله وغيره لم يكن من العتاب على ما ذكره على الذنب بمعناه اللغوي وهو تفويت المصلحة بوجه فان هذا العتاب مذيّل بقوله تعالى في الآية التالية : ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم عذاب عظيم﴾ (الأنفال / ٦٨) فلا يرتاب ذو لب في أن التهديد بالعذاب العظيم لا يتأتى إلّا مع كون المهدد عليه من المعصية المصطلحة بل ومن كبائر المعاصي ، وهذا ايضاً من الشواهد على ان العتاب في الآية متوجه الى غير النبي ﷺ .

قوله تعالى : ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ الى آخر الآيتين ، تذكر الآيتان أحد ما يعرف به المنافق ويتميز به من المؤمن وهو الاستيذان في التخلف عن الجهاد في سبيل الله .

وقد بيّن الله سبحانه ذلك بأن الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس من لوازم الايمان بالله واليوم الآخر بحقيقة الايمان لما يورثه هذا الايمان من صفة التقوى ، والمؤمن لما كان على تقوى من قبل الإيمان بالله واليوم الآخر كان على بصيرة من وجوب الجهاد في سبيل الله بماله ونفسه . ولا يدعه ذلك ان يتثاقل عنه فيستأذن في القعود لكن المنافق لعدم الإيمان بالله واليوم الآخر فَقَد صفة التقوى فارتاب قلبه ولا يزال يتردد في ريبه فيحب التطرف ، ويستأذن في التخلف والقعود عن الجهاد .

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَرَادُوا ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ الى آخر الآية . العدّة الأهبة ، والانبعاث ـ على ما في المجمع ـ الانطلاق بسرعة في الأمر ، والتثبيط التوقيف عن الأمر بالتزهيد فيه .

والآية معطوفة على ما تقدّم من قوله : « والله يعلم إنهم لكاذبون » بحسب المعنى أي هم كاذبون في دعواهم عدم استطاعتهم الخروج بل ما كانوا يريدونه ولو أرادوه لأعدّوا له عدّة لأن من آثار من يريد أمراً من الامور أن يتأهب له بما يناسبه من العدّة والأهبة ولم يظهر منهم

شيء من ذلك.

وقوله: «ولكن كره الله انبعاثهم فثبّطهم» أي جزاء بنفاقهم وامتناناً عليك وعلى المؤمنين لئلا يفسدوا جمعكم، ويفرّقوا كلمتكم بالتفتين وإلقاء الخلاف.

وقوله: «وقيل اقعدوا مع القاعدين» أمر غير تشريعي لا ينافي الأمر التشريعي بالنفر والخروج، فقد أمرهم الله بلسان نبيّه ﷺ بالنفر والخروج ـ وهو أمر تشريعي ـ وأمرهم من ناحية سريرتهم الفاسدة والريب المتردد في قلوبهم وسجاياهم الباطنية الخبيثة بالقعود ـ وهو أمر غير تشريعي ـ ولا تنافي بينهما.

ولم ينسب قول: «اقعدوا مع القاعدين» الى نفسه تنزيهاً لنفسه عن الأمر بما لا يرتضيه وهناك اسباب متخللة آخرة بذلك كالشيطان والنفس، وإنما ينسب اليه تعالى بالواسطة لانطباق معنى الجزاء والامتنان على المؤمنين عليه.

وليتوافق الأمران المتخالفان صورة في السياق أعني قوله: «قيل لكم انفروا في سبيل الله» وقوله: «قيل اقعدوا مع القاعدين».

قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ الآية؛ الخبال هو الفساد واضطراب الرأي، والايضاح: الإسراع في الشر، والخلال: البين، والبغي هو الطلب فمعنى يبغونكم الفتنة أي يطلبون لكم أو فيكم الفتنة على ما قيل، والفتنة هي المحنة كالفرقة واختلاف الكلمة على ما يناسب الآية من معانيها، والسمّاع السريع الإجابة والقبول.

والآية في مقام التعليل لقوله: «ولكن كره الله انبعاثهم فثبّطهم» امتناناً، ولذا جيء بالفصل من غير عطف، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا ٱلْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ أي أقسم لقد طلبوا المحنة واختلاف الكلمة وتفرّق

الجماعة من قبل هذه الغزوة ـ وهي غزوة تبوك ـ كما في غزوة أُحد حين رجع عبدالله بن أُبي بن سلول بثلث القوم وخذل النبي ﷺ، وقلّبوا لك الأمور بدعوة الناس الى الخلاف وتحريضهم على المعصية وخذلانهم عن الجهاد وبعث اليهود والمشركين على قتال المؤمنين والتجسس وغير ذلك حتى جاء الحق ـ وهو الحق الذي يجب أن يتّبع ـ وظهر أمر الله ـ وهو الذي يريده من الدين ـ وهم كارهون لجميع ذلك.

والآية تستشهد على الآية السابقة بذكر الأمثال كما يستدل على الأمر بمثله، وتوجيه الخطاب الى النبي ﷺ خاصة بعد عمومه في الآية السابقة لاختصاص الأمر فيه بالنبي ﷺ أعني تقليب الامور عليه بخلاف ما في الآية السابقة من خروجهم في الناس[١].

٤٩ ● وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ.

٥٠ ● إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ.

٥١ ● قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلاّ مَا كَتَبَ ٱللّٰهُ لَنَا هُوَ مَوْلٰينا وَعَلَى ٱللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ.

٥٢ ● قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ ٱللّٰهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ.

---

١. التوبة ٣٨ـ٤٨: بحث روائي في: هجرة رسول الله: نزول السكينة على النبي ﷺ في الهجرة وتأييد بجنود: غزوة تبوك وتخلف المنافقين عن رسول الله ﷺ.

٥٣ ❁ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً
فَاسِقِينَ.

٥٤ ❁ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ
وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلٰوةَ إِلَّا وَهُمْ كُسالىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا
وَهُمْ كَارِهُونَ.

٥٥ ❁ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلَا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهٰا
فِي ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ.

٥٦ ❁ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ
يَفْرَقُونَ.

٥٧ ❁ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئاً أَوْ مَغٰارٰاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ
يَجْمَحُونَ.

٥٨ ❁ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَإِنْ
لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذٰا هُمْ يَسْخَطُونَ.

٥٩ ❁ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ
سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى ٱللَّهِ رَاغِبُونَ.

٦٠ ❁ إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَساكِينِ وَٱلْعامِلِينَ عَلَيْها
وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَٱبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

٦١ ❁ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ

لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا
مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللّٰهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ.
٦٢ ● يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللّٰهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ
إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ.
٦٣ ● أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّه مَنْ يُحادِدِ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ
خَالِداً فِيها ذٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ الآية؛ الفتنة ههنا ـ على ما يهدي اليه السياق ـ إما الإلقاء الى ما يفتتن ويغر به، وإما الإلقاء في الفتنة والبلية الشاملة.

والمراد على الأول: ائذن لي في القعود وعدم الخروج الى الجهاد، ولا تلقني في الفتنة بتوصيف ما في هذه الغزوة من نفائس الغنائم ومشتهيات الأنفس فافتتن بها وأضطر الى الخروج، وعلى الثاني ائذن لي ولا تلقني الى ما في هذه الغزوة من المحنة والمصيبة والبليّة.

فأجاب الله عن قولهم بقوله: «ألا في الفتنة سقطوا» ومعناه أنهم يحترزون بحسب زعمهم عن فتنة مترقبة من قبل الخروج، وقد اخطأوا فإن الذي هم عليه من الكفر والنفاق وسوء السريرة، ومن آثاره هذا القول الذي تفوهوا به هو بعينه فتنة سقطوا فيها فقد فتنهم الشيطان بالغرور، ووقعوا في مهلكة الكفر والضلال وفتنته.

هذا حالهم في هذه النشأة الدنيوية وأما في الآخرة فإن جهنم لمحيطة بالكافرين على حذو إحاطة الفتنة بهم في الدنيا وسقوطهم فيها فقوله: «ألا في الفتنة سقطوا» وقوله: «وإن جهنم

لمحيطة بالكافرين» كأنهما معاً يفيدان معنى واحداً وهو ان هؤلاء واقعون في الفتنة والتهلكة ابداً في الدنيا والآخرة.

ويمكن ان يفهم من قوله: «وإن جهنم لمحيطة بالكافرين» الإحاطة بالفعل دون الإحاطة الاستقبالية كما تهدي اليه الآيات الدالة على تجسم الأعمال.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ﴾ المراد بالحسنة والسيئة بقرينة السياق ما تتعقبه الحروب والمغازي لأهلها من حسنة الفتح والظفر والغنيمة والسبي، ومن سيئة القتل والجرح والهزيمة.

وقوله: «يقولوا قد أخذنا امرنا من قبل» كناية عن الاحتراز عن الشر قبل وقوعه كأن أمرهم كان خارجاً من ايديهم فأخذوه وقبضوا وتسلطوا عليه فلم يدعوه يفسد ويضيع.

فمعنى الآية أن هؤلاء المنافقين هو اهم عليك: إن غنمت وظفرت في وجهك هذا ساءهم ذلك، وإن قتلت او جرحت او اصبت بأي مصيبة اخرى قالوا قد احترزنا عن الشر من قبل وتولوا وهم فرحون.

وقد أجاب الله سبحانه عن ذلك بجوابين اثنين في آيتين قوله: «قل لن يصيبنا» الخ: وقوله: «قل هل تربّصون» الخ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنا هُوَ مَوْلانا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ محصّله أن ولاية امرنا إنما هي لله سبحانه فحسب ـ على ما يدل عليه قوله: «هو مولانا» من الحصر» لا الى انفسنا ولا الى شيء من هذه الاسباب الظاهرة، بل حقيقة الامر لله وحده وقد كتب كتابة حتم ما سيصيبنا من خير او شر او حسنة او سيئة، واذا كان كذلك فعلينا امتثال امره والسعي لإحياء امره والجهاد في سبيله ولله المشيّة فيما يصيبنا في ذلك من حسنة او سيئة فما على العبيد إلّا ترك التدبير وامتثال الامر وهو التوكل.

وبذلك يظهر: ان المراد بقوله: «وعلى الله فليتوكل المؤمنون» ليس كلاماً مستأنفاً بل

معطوف على ما قبله متمم له. والمعنى ان ولاية امرنا لله ونحن مؤمنون به، ولازمه ان نتوكل عليه ونرجع الأمر اليه من غير ان نختار لأنفسنا شيئاً من الحسنة والسيئة فلو اصابتنا حسنة كان المن له وإن اصابتنا سيئة كانت المشية والخيرة له، ولا لوم علينا ولا شماتة تتعلق بنا، ولا حزن ولا مساءة يطرء على قلوبنا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ الآية الحسنيان هما الحسنة والسيئة على ما يدل عليه الآية الاولى الحاكية انهم يسوئهم ما اصاب النبي ﷺ من حسنة، وتسرهم ما اصابه من سيئة فيقولون قد اخذنا امرنا من قبل فهم على حال تربص ينتظرون ما يقع به وبالمؤمنين من الحسنة او السيئة.

والحسنة والسيئة كلتاهما حسنيان بحسب النظر الديني فإن في الحسنة حسنة الدنيا وعظيم الأجر عند الله، وفي السيئة التي هي الشهادة او أي تعب وعناء اصابهم مرضاة الله وثواب خالد دائم.

ومعنى الآية أنا نحن وأنتم كل يتربص بصاحبه غير انكم تتربصون بنا إحدى خصلتين كل واحدة منها خصلة حسنى وهما: الغلبة على العدو مع الغنيمة، والشهادة في سبيل الله، ونحن نتربص بكم ان يعذبكم الله بعذاب من عنده كالعذاب السماوي او بعذاب يجري بأيدينا كأن يأمرنا بقتالكم وتطهير الأرض من قذارة وجودكم فنحن فائزون على أي حال، إن وقع شيء مما تربصتم سعدنا، وإن وقع ما تربصنا سعدنا فتربصوا إنا معكم متربصون، وهذا جواب ثان على المنافقين.

وقد ذكر في الآية الاولى إصابة الحسنة والسيئة النبي ﷺ، وفي مقام الجواب في الآيتين الثانية والثالثة إصابتها النبي والمؤمنين جميعاً لملازمتهم إياه ومشاركتهم إياه فيما أصابه من حسنة او سيئة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً

فَاسِقِينَ ﴾ لفظ امر في معنى الشرط. والترديد للتعميم ولفظ الأمر في هذه الموارد كناية عن عدم النهي وسد السبيل إيماء الى ان الفعل لغو لا يترتب عليه أثر. وقوله: «لن يتقبل منكم» تعليل للأمر كما ان قوله تعالى: «إنكم كنتم قوماً فاسقين» تعليل لعدم القبول.

ومعنى الآية: لا نمنعكم عن الإنفاق في حال طوع او كره فإنه لغو غير مقبول لأنكم فاسقون، ولا يقبل عمل الفاسقين، قال تعالى: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ (المائدة / ٢٧) والتقبل أبلغ من القبول.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾ الخ الآية: تعليل تفصيلي لعدم تقبل نفقاتهم، وبعبارة اخرى بمنزلة الشرح لفسقهم، وقد عدت الكفر بالله تعالى ورسوله والكسل في إقامة الصلاة والكره في الإنفاق أركاناً لنفاقهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا ﴾ الى آخر الآية: الإعجاب بالشيء السرور بما يشاهد فيه من جمال او كمال او نحوهما، والزهوق خروج الشيء بصعوبة وأصله الهلاك على ما قيل.

وقد نهى الله سبحانه نبيه ﷺ عن الإعجاب بأموال المنافقين وأولادهم أي بكثرتها على ما يعطيه السياق، وعلل ذلك بأن هذه الأموال والأولاد ـ وهي شاغلة للإنسان لا محالة ـ ليست من النعمة التي تهتف لهم بالسعادة بل من النقمة التي تجرهم الى الشقاء فإن الله وهو الذي خوّلهم إياها إنما أراد بها تعذيبهم في الحياة الدنيا، وتوفيهم وهم كافرون.

قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ ﴾ الى آخر الآيتين: الفرق انزعاج النفس من ضرر متوقع، والملجأ الموضع الذي يلتجأ اليه ويتحصن فيه، والمغار المحل الذي يغور فيه الإنسان فيستره عن الأنظار، ويطلق على الغار وهو الثقف الذي يكون في الجبال، والمدخل من الافتعال الطريق الذي يتدسس بالدخول فيه، والجماح مضي المار

مسرعاً على وجهه لا يصرفه عنه شيء، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ اللمز العيب، وإنما كانوا يعيبونه فيها اذا لم يعطهم منها لعدم استحقاقهم ذلك او لأسباب أُخر كما يدل عليه ذيل الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الى آخر الآية: «لو» للتمني وقوله: «رضوا ما آتاهم الله» كأن الرضى ضمن معنى الأخذ ولذا عدي بنفسه أي اخذوا ذلك راضين به او رضوا آخذين ذلك. والإيتاء الإعطاء، وحسبنا الله أي كفانا فيما نرغب اليه ونأمله.

وقوله: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ بيان لما يرغب اليه ويطمع فيه وليس اخباراً عما سيكون، وقوله: «إنا الى الله راغبون» كالتعليل لقوله: «سيؤتينا الله» الى آخر الآية.

والمعنى وكان مما يتمنى لهم ان يكونوا اخذوا ما اعطاهم الله ورسوله بأمر منه من مال الصدقات او غيره، وقالوا كفانا الله سبحانه من سائر الأسباب ونحن راغبون في فضله ونطمع ان يؤتينا من فضله ويؤتينا رسوله.

وفي الآية ما لا يخفى من لطيف البيان حيث نسب الايتاء الى الله والى رسوله وخص الكفاية والفضل والرغبة بالله على ما هو لازم دين التوحيد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْعَامِلِينَ عَلَيْها وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَٱبْنِ السَّبِيلِ﴾ الآية: بيان لموارد تصرف اليها الصدقات الواجبة وهي الزكوات بدليل قوله في آخر الآية «فريضة من الله» وهي ثمانية. وارد على ظاهر ما يعطيه سياق الآية ولازمه أن يكون الفقير والمسكين موردين أحدهما غير الآخر.

وقد اختلفوا في الفقير والمسكين أنهما صنف واحد أو صنفان، ثم على الثاني في معناهما على أقوال كثيرة لا ينتهي اكثرها الى حجة بيّنة. والذي يعطيه ظاهر لفظها ان الفقير هو الذي اتصف بالعدم وفقدان ما يرفع حوائجه الحيوية من المال قبال الغني الذي اتصف بالغنى وهو الجدة واليسار.

وأما المسكين فهو الذي حلت به المسكنة والذلة مضافة الى فقدان المال وذلك انما يكون بأن يصل فقر الى حد يستذله بذلك كمن لا يجد بداً من ان يبذل ماء وجهه ويسأل كل كريم ولئيم من شدة الفقر كالأعمى والأعرج فالمسكين أسوء حالاً من الفقير.

والفقير والمسكين وإن كانا بحسب النسبة أعمّ وأخص فكل مسكين من جهة الحاجة المالية فقير ولا عكس غير ان العرف يراهما صنفين متقابلين لمكان مغايرة الوصفين في نفسهما فلا يرد أن ذكر الفقير على هذا المعنى مغن عن ذكر المسكين لمكان أعميّته وذلك أن المسكنة هي وصف الذلة كالزمانة والعرج والعمى وان كان بعض مصاديقه نهاية الذلة من جهة فقد المال.

وأما العاملون عليها اي على الصدقات فهم الساعون لجمع الزكوات وجباتها.

وأما المؤلفة قلوبهم فهم الذين يؤلف قلوبهم بإعطاء سهم من الزكاة ليسلموا أو يدفع بهم العدو او يستعان بهم على حوائج الدين.

وأما قوله: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ فهو متعلق بمقدّر والتقدير: والمصرف في الرقاب أي في فكها كما في المكاتب الذي لا يقدر على تأدية ما شرطه لمولاه على نفسه لعتقه أو الرق الذي كان في شدّة.

وقوله: ﴿وَٱلْغَارِمِينَ﴾ اي وللصرف في الغارمين الذين ركبتهم الديون فيقضى ديونهم بسهم من الزكاة.

وقوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ اي وللصرف في سبيل الله، وهو كل عمل عام يعود

عائدته الى الإسلام والمسلمين وتحفظ به مصلحة الدين ومن أظهر مصاديقه الجهاد في سبيل الله. ويلحق به سائر الأعمال التي تعم نفعه وتشمل فائدته كاصلاح الطرق وبناء القناطر ونظائر ذلك.

وقوله: ﴿ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ اي وللصرف في ابن السبيل وهو المنقطع عن وطنه الفاقد لما يعيش به وإن كان غنياً ذا يسار في بلده فيرفع حاجته بسهم من الزكاة.

وقد اختلف سياق العد فيما ذكر في الآية من الأصناف الثمانية فذكرت الأربعة الأولى باللام: «للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم» ثم غيّر السياق في الأربعة الباقية فقيل: «وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل» فان ظاهر السياق الخاص بهذه الاربعة أن التقدير: وفي الرقاب وفي الغارمين وفي سبيل الله وفي ابن السبيل.

اما الأربعة الاول: «للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم» فاللام فيها للملك بمعنى الاختصاص في التصرف فان الآية بحسب السياق كالجواب عن المنافقين الذين كانوا يطمعون في الصدقات وهم غير مستحقين لها وكانوا يلمزون النبي ﷺ في حرمانهم منها فاجيبوا بالآية أن للصدقات مواضع خاصة تصرف فيها ولا تتعداها، والآية ليست بظاهرة في أزيد من هذا المقدار من الاختصاص.

وأما كون ملكهم للصدقات هو الملك بمعناه المعروف فقهاً؟ وكذا حقيقة هذا الملك مع كون المالكين أصنافاً بعناوينهم الصنفية لا ذوات شخصية؟ ونسبة سهم كل صنف الى بقية السهام؟ فإنما هي مسائل فقهية خارجة عن غرضنا، وقد اختلفت اقوال الفقهاء فيها اختلافاً شديداً فليرجع الى الفقه.

وأما الأربعة الباقية: «وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل» فقد قيل في تغيير السياق فيها وفي تأخيرها عن الأربعة الاول وجوه:

منها: ان الترتيب لبيان الأحق فالأحق من الأصناف، فأحق الأصناف بها الفقراء ثم

المساكين وهكذا على الترتيب، ولكون الاربعة الاخيرة بحسب ترتيب الأحقية واقعة في المراتب الاربع الاخيرة وضع كل في موضعه الخاص. ولولا هذا الترتيب لكان الأنسب ان يذكر الأصناف ثم تذكر موارد المصالح فيقال: للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمين وابن السبيل ثم يقال: وفي الرقاب وسبيل الله.

والحق أن دلالة الترتيب بما فيه من التقديم والتأخير على أهمية الملاك وقوة المصلحة في اجزاء الترتيب لا ريب فيه فان كان مراده بالأحق فالأحق الأهم ملاكاً فالأهم فهو، ولو كان المراد التقدم والتأخر من حيث الاعطاء والصرف ما يشبه ذلك فلا دلالة من جهة اللفظ عليه البتة كما لا يخفى والذي أيده به من الوجه لا جدوى فيه.

ومنها: ان العدول عن الام في الأربعة الأخيرة الى «في» للإيذان بأنهم ارسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره لأن «في» للوعاء فنبّه على انهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها ومصباً، وذلك لما في فكّ الرقاب من الكتابة او الرق والأسر، وفي فكّ الغارمين من الغرم والتخليص والانقاذ، ولجمع الغازي الفقير او المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال.

وتكرير «في» في قوله: «وفي سبيل الله وابن السبيل» فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين. كذا ذكره في الكشاف.

وفيه: أنه معارض بكون الأربعة الاول مدخولة للام الملك فان المملوك اشد لزوماً واتصالاً بالنسبة الى مالكه من المظروف بالنسبة الى ظرفه، وهو ظاهر.

ومنها: أن الأصناف الأربعة الاوائل ملاك لما عساه يدفع اليهم، وإنما يأخذونه ملكاً فكان دخول اللام لائقاً بهم. وأما الاربعة الاواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم بل ولا يصرف اليهم ولكن في مصالح تتعلق بهم.

فالمال الذي يصرف في الرقاب انما يتناوله السادة المكاتبون والبائعون فليس نصيبهم

مصروفاً الى ايديهم حتى يعبّر عن ذلك باللام المشعرة بتملكهم لما يصرف نحوهم. وإنما هم محال لهذا الصرف والمصلحة المتعلقة به، وكذلك الغارمون انما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم تخليصاً لذممهم لا لهم. وأما سبيل الله فواضح ذلك فيه. وأما ابن السبيل فكأنه كان مندرجاً في سبيل[1] الله. وإنما أُفرد بالذكر تنبيهاً على خصوصيته مع انه مجرَّد من الحرفين جميعاً وعطفه على المجرور باللام ممكن ولكنه على التقريب منه أقرب.

وهذا الوجه لا يخلو عن وجه غير أن اجراءه في ابن السبيل لا يخلو عن تكلف، وما ذكر من دخوله في سبيل الله وهو وجه مشترك بينه وبين غيره.

ولو قال قائل بكون الغارمين وابن السبيل معطوفين على المجرور باللام ثم ذكر الوجه الاول بالمعنى الذي ذكرناه وجهاً للترتيب والوجه الاخير وجهاً لإختصاص الرقاب وسبيل الله بدخول «في» لم يكن بعيداً عن الصواب.

وقوله في ذيل الآية: «فريضة من الله والله عليم حكيم» إشارة الى كون الزكاة فريضة واجبة مشرَّعة على العلم والحكمة لا تقبل تغيير المتغيّر. ولا يبعد ان يتعلق الفرض بتقسمها الى الاصناف الثمانية كما ربما يؤيده السياق فان الغرض في الآية إنما تعلّق ببيان مصارف الصدقات لا بفرض اصلها فالأنسب ان يكون قوله: «فريضة من الله» اشارة الى ان تقسّمها الى الاصناف الثمانية امر مفروض من الله لا يتعدى عنه على خلاف ما كان يطمع فيه المنافقون في لمزهم النبي ﷺ.

ومن هنا يظهر ان الآية لا تخلو عن إشعار بكون الاصناف الثمانية على سهمها من غير اختصاص بزمان دون زمان خلافاً لما ذكره بعضهم: أن المؤلفة قلوبهم كانوا جماعة من

---

١. بل هو ايضاً كالغارمين والرقاب لا يدفع اليه نصيبه وانما يصرف في المصلحة المتعلقة به من الزاد واكتراء الراحلة حتى يصل الى وطنه (ب).

الاشراف في زمن النبي ﷺ ألّف قلوبهم باعطاء سهم من الصدقات إياهم، وأما بعده ﷺ فقد ظهر الاسلام على غيره، وارتفعت الحاجة الى هذا النوع من التأليفات، وهو وجه فاسد وارتفاع الحاجة ممنوع.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ الاذن جارحة السمع المعروفة. وقد أطلقوا عليه ﷺ الاذن وسمّوه بها إشارة الى أنه يصغي لكل ما قيل له ويستمع الى كل ما يذكر له فهو أذن.

وقوله: «قل أُذن خير لكم» من الإضافة الحقيقة اي سمّاع يسمع ما فيه خيركم حيث يسمع من الله سبحانه الوحي وفيه خير لكم، ويسمع من المؤمنين النصيحة وفيها خير لكم ويمكن ان يكون من إضافة الموصوف الى الصفة اي أُذن هي خير لكم لأنه لا يسمع إلّا ما ينفعكم ولا يضركم.

والفرق بين الوجهين أن اللازم على الاول ان يكون مسموعه خيراً لهم كالوحي من الله والنصيحة من المؤمنين، واللازم على الثاني ان يكون استماعه استماع خير وإن لم يكن مسموعه خيراً كأن يستمع الى بعض ما ليس خيراً لهم لكنه يستمع اليه فيحترم بذلك قائله ثم يحمل ذلك القول منه على الصحة فلا يهتك حرمته ولا يسيء الظن به ثم لا يرتب أثر الخبر الصادق المطابق للواقع عليه فلا يؤاخذ من قيل فيه بما قيل فيه فيكون قد احترم إيمانه كما احترم إيمان القائل الذي جاءه بالخبر.

ومن هنا يظهر أن الأنسب بسياق الآية هو الوجه الثاني لما عقبه بقوله: «يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين» الآية.

قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ قال في المجمع: «الفرق بين الأحق والأصلح أن الأحق قد يكون من

غير صفات الفعل كقولك: زيد أحق بالمال، والأصلح لا يقع هذا الموقع لأنه من صفات الفعل وتقول: الله أحق بأن يطاع ولا تقول أصلح» انتهى.

والسبب الأصلي فيه أن الصلاحية والصلوح يحمل معنى الاستعداد والتهيؤ، والحق يحمل معنى الثبوت والزوم، والله سبحانه لا يتصف بشيء من معنى الاستعداد والقبول المستلزم لتأثير الغير فيه وتأثره عنه.

وقد حول الله الخطاب في الآية عن نبيه ﷺ الى المؤمنين التفاتاً وكأن الوجه فيه التلويح لهم بما يشتمل عليه قوله: «والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين» من الحكم وهو ان من الواجب على كل مؤمن ان يرضي الله ورسوله. ولا يحاد الله ورسوله فإن فيه خزياً عظيماً نار جهنم خالداً فيها.

ومن أدب التوحيد في الآية ما في قوله: «أحق أن يرضوه» من إفراد الضمير ولم يقل: أحق ان يرضوهما صوناً لمقامه تعالى من ان يعدل به أحد فإن أمثال هذه الحقوق وكذا الاوصاف التي يشاركه تعالى غيره من حيث الإطلاق والإجراء، له تعالى بالذات ولنفسه ولغيره بالتبع أو بالعرض ومن جهته كوجوب الإرضاء والتعظيم والطاعة وغيرها، وكالاتصاف بالعلم والحياة والإحياء والإماتة وغيرها.

وقد روعي نظير هذا الأدب في القرآن في موارد كثيرة فيما يشارك النبي ﷺ غيره من الامة من الشؤون فأخرج النبي ﷺ من بينهم وأفرد بالذكر كما في قوله: **﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا﴾** (التحريم / ٨) وقوله: **﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾** (الفتح / ٢٦) وقوله: **﴿آمن الرسول بما أُنزل اليه من ربه والمؤمنون﴾** (البقرة / ٢٨٥) وغير ذلك.

قوله تعالى: **﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾** الى آخر الآية قال في المجمع: المحادة مجاوزة الحد بالمشاقة، وهي والمخالفة والمجانبة والمعاداة

نظائر، وأصله المنع والمحادة ما يلحق الإنسان من النزق لأنه يمنعه من الواجب وقال: والخزي الهوان وما يستحيي منه. انتهى.

والاستفهام في الآية للتعجيب، والكلام مسوق لبيان كونه تعالى وكون رسوله أحق بالإرضاء ومحصله أنهم يعلمون أن محادة الله ورسوله والمشاقة والمعاداة مع الله ورسوله والإسخاط يوجب خلود النار، وإذا حرم إسخاط الله ورسوله وجب إرضاؤه وإرضاء رسوله على من كان مؤمناً بالله ورسوله[1].

٦٤ ● يَحْذَرُ ٱلْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوا إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ.

٦٥ ● وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ.

٦٦ ● لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ.

٦٧ ● الْمُنَافِقُونَ وَٱلْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ.

٦٨ ● وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ.

---

١. التوبة ٤٩ ـ ٦٣: بحث روائي في: المنافقين ولمزهم لرسول الله في الصدقات؛ الصدقات لمن هي وعلى من تجب.

٦٩ ۞ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً
فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ
مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولٰئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ.

٧٠ ۞ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ
إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ ٱللّٰهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ.

٧١ ۞ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلٰوةَ وَيُؤْتُونَ
ٱلزَّكٰوةَ وَيُطِيعُونَ ٱللّٰهَ وَرَسُولَهُ أُولٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللّٰهُ إِنَّ ٱللّٰهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

٧٢ ۞ وَعَدَ ٱللّٰهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
ٱلأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ
وَرِضْوَانٌ مِنَ ٱللّٰهِ أَكْبَرُ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ.

٧٣ ۞ يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَافِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ
وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ.

٧٤ ۞ يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ
إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ ٱللّٰهُ

وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي ٱلدُّنْيا وَٱلآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ الى آخر الآية: كان المنافقون يشاهدون ان جل ما يستسرون به من شؤون النفاق: ويناجي به بعضهم بعضاً من كلمة الكفر ووجوه الهمز واللمز والاستهزاء او جميع ذلك لا يخفى على الرسول. ويتلى على الناس في آيات من القرآن يذكر النبي ﷺ انه من وحي الله. ولا محالة كانوا لا يؤمنون بأنه وحي نزل به الروح الأمين على رسول الله ﷺ، ويقدرون ان ذلك مما يتجسسه المؤمنون فيخبرون به النبي ﷺ فيخرجه لهم في صورة كتاب سماوي نازل عليهم وهم مع ذلك كانوا يخافون ظهور نفاقهم وخروج ما خبوه في سرائرهم الخبيثة لأن السلطنة والظهور كانت للنبي ﷺ عليهم يجري فيهم ما يأمر به ويحكم عليه.

فهم كانوا يحذرون نزول سورة يظهر بها ما اضمروه من الكفر وهموا به من تقليب الأمور على النبي ﷺ وقصده بما يبطل به نجاح دعوته وتمام كلمته فأمر الله نبيه ﷺ ان يبلغهم ان الله عالم بما في صدورهم مخرج ما يحذرون خروجه وظهوره بنزول سورة من عنده أي يخبرهم بأن الله منزل سورة هذا نعتها.

وبهذا يستنير معنى الآية فقوله: «يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة» الخطاب للنبي ﷺ ووجه الكلام اليه، وهو يعلم بتعليم الله ان هذا الكلام الذي يتلوه على الناس كلام إلهي وقرآن منزل من عنده فيصف سبحانه الكلام الذي يخاف منه المنافقون بما له من

الوصف عند النبي ﷺ وهو انه سورة منزلة من الله على الناس ومنهم المنافقون لا على ما يراه المنافقون انه كلام بشري يدعى كونه كلام الله.

فهم كانوا يحذرون ان يتلو النبي ﷺ عليهم وعلى الناس كلاماً هذا نعته الواقعي وهو انه سورة منزلة عليهم بما انها متوجهة بمضمونها اليهم قاصدة نحوهم ينبؤهم هذه السورة النازلة بما في قلوبهم فيظهر على الناس ويفشو بينهم ما كانوا يسرونه من كفرهم وسوء نياتهم، وهذا الظهور في الحقيقة هو الذي كانوا يحذرونه من نزول السورة.

وقوله: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوا إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ كأن المراد بالاستهزاء هو نفاقهم وما يلحق به من الآثار فإن الله سمى نفاقهم استهزاء حاكياً في ذلك قولهم حيث قال ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون﴾ (البقرة / ١٤) فالمراد بالاستهزاء هو ستر ما يحذرون ظهوره، والأمر تعجيزي أي دوموا على نفاقكم وستركم ما تحذرون خروجه من عندكم الى مرئى الناس ومسمعهم فإن الله مخرج ذلك وكاشف عن وجهه الغطاء، ومظهر ما اخفيتموه في صدوركم.

فصدر الآية وإن كان يذكر انهم يحذرون تنزيل سورة كذا وكذا ولكنهم إنما كانوا يحذرونها لما فيها من الأنباء التي يحذرون ان يطلع عليها النبي ﷺ وتنجلي للناس. وهذا هو الذي يذكر ذيلها انهم يحذرونه فالكلام بمنزلة ان يقال: يحذر المنافقون تنزيل سورة قل إن الله منزّلها. او يقال: يحذر المنافقون انكشاف باطن امرهم وما في قلوبهم قل استهزءوا إن الله سيكشف ذلك وينبىء عما في قلوبكم.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ الخوض ـ على ما في المجمع ـ دخول القدم فيما كان مائعاً من الماء والطين ثم كثر حتى استعمل في غيره.

وقال الراغب في المفردات: الخوض هو الشروع في الماء والمرور فيه، ويستعار في الامور،

وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه. انتهى.

ولم يذكر الله سبحانه متعلق السؤال وأن المسؤول عنه الذي إن سأل النبي ﷺ سأل عنه ما هو؟ غير أن قوله: «ليقولنّ إنما كنا نخوض ونلعب» بما له من السياق المصدر بإنما يدل على أنه كان فعلاً صادراً منهم له نوع تعلق بالنبي ﷺ، وكان أمراً مرئياً يسيء الظن بهم. ولم يكن في وسعهم أن يعتذروا منه بعد ما تبين وانكشف للنبي ﷺ إلّا بأنه إنما كان منهم خوضاً ولعباً لم يريدوا به غير ذلك.

والخوض واللعب الذين اعتذروا بهما من الأعمال السيّئة التي لا يعترف بهما الناس في حالهم العادي وخاصة المؤمنون وسائر المتظاهرين بالإيمان وخاصة اذا كان ذلك في أمر يرجع الى الله ورسوله غير أنهم لم يجدوا وصفاً يصفون به فعلهم لإخراجه عن ظاهر ما يدل عليه، دون أن يعنونوه بأنه كان خوضاً ولعباً.

ولذا أمر نبيه ﷺ أن يوبخهم على ما اعتذروا به فقال: «قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون» ثم فسّر عملهم في آخر الآيات بقوله: «يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهمّوا بما لم ينالوا» الآية.

ويتحصل من مجموع هذه القرائن أن المنافقين كانوا أرادوا النبي ﷺ بسوء كالفتك به ومفاجأته بما يهلكه وأقدموا على ما قصدوه وتكلموا عند ذلك بشيء من الكلام الردي لكنهم أخطأوا في ما أوقعوه عليه واندفع الشر عنه، ولم يصب السهم هدفه فلما خاب سعيهم وبان أمرهم سألهم النبي ﷺ عن ذلك وما تصدوه به اعتذروا بأنهم كانوا يخوضون ويلعبون فوبخهم النبي ﷺ بقوله: «أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون» ورد الله سبحانه إليهم عذرهم الذي اعتذروا به وبين حقيقة ما قصدوا بذلك.

وبالجملة معنى الآية: وأُقسم لئن سألتهم عن فعلهم الذي شوهد منهم: ما الذي أرادوا به؟ وكان ظاهره أنهم همّوا بأمر فيك ليقولنّ: لم يكن قصد سوء ولا بالذي ظننت فأسأت الظن

بنا، وإنما كنا نخوض ونلعب خوض الركب في الطريق لا على سبيل الجد ولكن لعباً.

وهذا اعتذار منهم بالاستهزاء بالله وآياته ورسوله فإنهم يعترفون بأنهم فعلوا فيك ما فعلوا خوضاً ولعباً فقد استهزءوا بالله ورسوله فقل: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون أي أتعتذرون عن سيّء فعلكم بسيئة أُخرى هي الاستهزاء بالله وآياته ورسوله، وهو كفر؟

وليس من البعيد أن يكون الغرض الأصيل بيان كونه استهزاء بالرسول، وإنما ذكر الله وآياته للدلالة على معنى الاستهزاء بالرسول، وأنه لما كان من آيات الله كان الاستهزاء به استهزاء بآيات الله. والاستهزاء بآيات الله استهزاء بالله العظيم فالاستهزاء برسول الله استهزاء بالله وآياته ورسوله.

قوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ الآية: قال الراغب في المفردات: الطوف المشي حول الشيء ومنه الطائف لمن يدور حول البيوت حافظاً ـ الى أن قال ـ والطائفة من الناس جماعة منهم ومن الشيء القطعة منه.

وقوله تعالى: «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين» قال بعضهم: قد يقع ذلك على الواحد فصاعداً، وعلى ذلك قوله: «وإن طائفتان من المؤمنين. اذ همّت طائفتان منكم».

والطائفة اذا أُريد بها الجمع فجمع طائف، واذا اريد بها الواحد فيصح أن يكون جمعاً ويكنّى به عن الواحد، ويصح أن يجعل كراوية وعلامة ونحو ذلك. انتهى.

وقد خطّأ بعضهم القول بجواز صدق الطائفة على الواحد والاثنين من الناس كما تصدق على الثلاثة فصاعداً، وبالغ في ذلك حتى عده غلطاً ولا دليل له على ما ذكره، ومادة اللفظ لا يستوجب شيئاً معيناً من العدد، وإطلاقها على القطعة من الشيء يؤيد استعمالها في الواحد.

وقوله: «لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم» نهي عن الاعتذار بدعوى أنه لغو كما يدل عليه

قوله: «قد كفرتم بعد إيمانكم» فإن الاعتذار لا فائدة تترتب عليه بعد الحكم بكفرهم بعد إيمانهم.

والمراد بإيمانهم هو ظاهر الإيمان الذي كانوا يتظاهرون به لا حقيقة الإيمان الذي هو من الهداية الإلهية التي لا يعقبها ضلال، ويؤيد قوله تعالى في آخر هذه الآيات: «ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم» فبدل الإيمان إسلاماً وهو ظاهر الشهادتين.

ويمكن ان يقال: إن من مراتب الإيمان ما هو اعتقاد واذعان ضعيف غير آب عن الزوال كإيمان الذين في قلوبهم مرض وقد عدهم الله من المؤمنين وذكرهم مع المنافقين لأمنهم، ولا مانع من ان ينسلخوا هذا الإيمان.

وكيف لا؟ وقد سلخ الله الايمان ممن هو ارسخ إيماناً منهم كالذي يقصه في قوله: ﴿**واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه**﴾ (الأعراف / ١٧٦).

وقال أيضاً: ﴿**إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً**﴾ (النساء / ١٣٧) وقد اكثر القرآن الكريم من ذكر الكفر بعد الايمان فلا مانع من زوال الاعتقاد القلبي قبل رسوخه وهو اعتقاد.

نعم الايمان المستقر والاعتقاد الراسخ لا سبيل الى عروض الزوال له قال تعالى: ﴿**من يهدي الله فهو المهتدي**﴾ (الأعراف / ١٧٨) وقال: ﴿**فإن الله لا يهدي من يضل**﴾ (النحل / ٣٧).

وقوله: «إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة» يدل على ان هؤلاء المنافقين المذكورين في الآيات كانوا ذوي عدد وكثرة، وان كلمة العذاب وقعت عليهم لابد لهم من العذاب فلو شمل بعضهم عفو إلهي لمصلحة في ذلك وقع العذاب على الباقين فهذا معنى الجملة: «إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة» بحسب ما يفهم من نظمه وسياقه.

وبعبارة اخرى رابطة اللزوم بين الشرط والجزاء بترتب الجزاء وتفرعه على الشرط إنما هي بالتبع وأصله ترتب الجزاء ههنا على امر يتعلق به الشرط وهو ان العذاب وجب على جماعتهم فإن عفي عن بعضهم تعين الباقون من غير تخلف.

قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ الى آخر الآيتين؛ ذكروا أنه استئناف يتعرض لحال عامة المنافقين بذكر أوصافهم العامة الجامعة وتعريفهم بها وما يجازيهم الله في عاقبة أمرهم ثم يتعرض لحال عامة المؤمنين ويعرفهم بصفاتهم الجامعة ويذكر ما ينبئهم الله به على سبيل المقابلة استتماماً للقسمة. ومن الدليل على هذا الاستيفاء ذكر جزاء الكفار مع المنافقين في قوله: «وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار» الآية.

والظاهر أن الآية في مقام التعليل لقوله في الآية السابقة: «إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة» وسياق مخاطبة المنافقين جار لم ينقطع بعد.

فالآية السابقة لما دلت على أنه تعالى لا يترك المنافقين حتى يعذبهم باجرامهم فإن ترك بعضاً منهم لحكمة ومصلحة أخذ آخرين منهم بالعذاب كان هناك مظنة أن يسأل فيقال: ما وجه أخذ البعض اذا ترك غيره؟ وهل هو إلّا كأخذ الجار بجرم الجار فاجيب ببيان السبب وهو أن المنافقين جميعاً بعضهم من بعض لاشتراكهم في خبائث الصفات والأعمال. واشتراكهم في جزاء أعمالهم وعاقبة حالهم.

ولعله ذكر المنافقات مع المنافقين مع عدم سبق لذكرهن للدلالة على كمال الاتحاد والاتفاق بينهم في نفسيتهم. وليكون تلويحاً على أن من النساء أيضاً أجزاء مؤثرة في هذا المجتمع النفاقي الفاسد المفسد.

فمعنى الآية لا ينبغي أن يستغرب أخذ بعض المنافقين اذا ترك البعض الآخر لأن المنافقين والمنافقات يحكم عليهم نوع من الوحدة النفسية يوحد كثرتهم فيرجع بعضهم الى بعض، فيشرّكهم في الاوصاف والأعمال وما يجازون به بوعد من الله تعالى.

فهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويمسكون عن الإنفاق في سبيل الله وبعبارة اخرى نسوا الله تعالى بالإعراض عن ذكره لأنهم فاسقون خارجون عن زي العبودية فنسيهم الله فلم يثبهم بما أثاب عباده الذاكرين مقام ربهم.

ثم ذكر ما وعدهم على ذلك فقال: «وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار ـ وعطف عليهم الكفار لأنهم جميعاً سواء ـ نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم» من الجزاء لا يتعدى فيهم الى غيرها «ولعنهم الله» وأبعدهم «ولهم عذاب مقيم» ثابت لا يزول عنهم البتة.

وقد ظهر بذلك أن قوله تعالى: «نسوا الله فنسيهم» الخ؛ بيان لما تقدمه من قوله «يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم».

ويتفرع على ذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإنفاق في سبيل الله من الذكر.

قوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ﴾ الخ؛ قال الراغب: الخلاق ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخلقه قال تعالى: «وما له في الآخرة من خلاق» انتهى وفسّره غيره بمطلق النصيب.

والآية من تتمة مخاطبة المنافقين التي في قوله: «لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم» الآية؛ في سياق واحد متصل وفي الآية تشبيه حال المنافقين بحال من كان قبلهم من الكفار والمنافقين وقياسهم إليهم ليستشهد بذلك على ما قيل: ان المنافقين والمنافقات بعضهم من بعض وأنهم جميعاً والكفار ذووا طبيعة واحدة في الإعراض عن ذكر الله والإقبال على الاستمتاع بما أُوتوا من أعراض الدنيا من أموال وأولاد والخوض في آيات الله ثم في حبط أعمالهم في الدنيا والآخرة والخسران.

ومعنى الآية ـ والله أعلم ـ أنتم كالذين من قبلكم كانت لهم قوة وأموال وأولاد بل أشدوا أكثر في ذلك منكم، فاستمتعوا بنصيبهم وقد تفرع على هذه المماثلة أنكم استمتعتم كما

استمتعوا وخضتم كما خاضوا اولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة واولئك هم الخاسرون وأنتم أيضاً أمثالهم في الحبط والخسران ولذا وعدكم النار الخالدة ولعنكم.

وذكر كون قوة من قبلهم أشد وأموالهم وأولادهم أكثر للإيماء الى أنهم لم يعجزوا الله بذلك، ولم يدفع ذلك عنهم غائلة الحبط والخسران فكيف بكم وأنتم أضعف قوة وأقل أموالاً وأولاداً؟

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ الآية رجوع الى السياق الأول وهو سياق مخاطبة النبي ﷺ مع افتراض الغيبة في المنافقين. وتذكير لهم بما قص عليهم القرآن من قصص الامم الماضين.

فذاك قوم نوح عمهم الله سبحانه بالغرق. وعاد وهم قوم هود أهلكهم بريح صرصر عاتية. وثمود وهم قوم صالح عذّبهم بالرجفة. وقوم ابراهيم اهلك ملكهم نمرود وسلب عنهم النعمة. والمؤتفكات وهي القرى المنقلبات على وجهها ـ من ائتفكت الأرض اذا انقلبت ـ قرى قوم لوط جعل عاليها سافلها.

وقوله: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالواضحات من الآيات والحجج والبراهين وهو بيان إجمالي لنبأهم أي كان نبأهم انت أتتهم رسلهم بالآيات البينة فكذّبوها فانتهى أمرهم الى الهلاك. ولم يكن من شأن السنّة الإلهية ان يظلمهم لأنه بيّن لهم الحق والباطل، وميّز الرشد من الغي، والهدى من الضلال. ولكن كان اولئك الأقوام والامم أنفسهم يظلمون بالاستمتاع من نصيب الدنيا والخوض في آيات الله وتكذيب رسله.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ الى آخر الآية: ثم وصف الله سبحانه حال المؤمنين عامة محاذاة لما وصف به المنافقين فقال: «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض» ليدل بذلك على انهم مع كثرتهم وتفرقهم من حيث العدد

ومن الذكورة والانوثة ذوو كينونة واحدة متفقة لا تشعب فيها ولذلك يتولى بعضهم امر بعض ويدبره.

ولذلك كان يأمر بعضهم بعضاً بالمعروف وينهى بعضهم بعضاً عن المنكر فلولاية بعض المجتمع على بعض ولاية سارية في جميع الأبعاض دخل في تصديهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينهم أنفسهم.

ثم وصفهم بقوله: «ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة» وهما الركنان الوثيقان في الشريعة فالصلاة ركن العبادات التي هي الرابطة بين الله وبين خلقه، والزكاة في المعاملات التي هي رابطة بين الناس أنفسهم.

ثم وصفهم بقوله: «ويطيعون الله ورسوله» فجمع في إطاعة الله جميع الأحكام الشرعية الإلهية وجمع في إطاعة رسوله جميع الأحكام الولائية التي صدرها رسوله في إدارة امور الامة وإصلاح شؤونهم كفرامينه في الغزوات، وأحكامه في القضايا وإجراء الحدود وغير ذلك.

على أن إطاعة شرائع الله النازلة من السماء من جهة اخرى منطوية في إطاعة الرسول فان الرسول هو الصادع بالحق القائم بالدعوة الى اصول الدين وفروعه.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ إخبار عما في القضاء الإلهي من شمول الرحمة الإلهية لهؤلاء القوم الموصوفين بما ذكر، وكأن في هذه الجملة محاذاة لما سرد في المنافقين من قوله تعالى: «نسوا الله فنسيهم» والظاهر ايضاً أن قوله: «إن الله عزيز حكيم» تعليل لما ذكر من الرحمة فلا مانع من رحمته لعزّته، ولا اختلال او وهناً وجزافاً في حكمته.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ الى آخر الآية؛ العدن مصدر بمعنى الإقامة والاستقرار يقال: عدن بالمكان اي اقام فيه واستقر ومنه المعدن للأرض التي تستقر فيه الجواهر والفلزات المعدنية، وعلى هذا فمعنى جنات عدن جنات إقامة واستقرار وخلود.

وقوله: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ اي رضى الله سبحانه عنهم اكبر من ذلك كله ـ على ما يفيده السياق ـ وقد نكّر « رضوان » إيماء الى انه لا يقدّر بقدر ولا يحيط به وهم بشر او لأن رضواناً ما منه ولو كان يسيراً اكبر من ذلك كله لا لأن ذلك كله مما يتفرع على رضاه تعالى ويترشح منه وإن كان كذلك في نفسه، بل لأن حقيقة العبودية التي يندب اليها كتاب الله هي عبوديته تعالى حباً له: لا طمعاً في جنة، او خوفاً من نار. وأعظم السعادة والفوز عند المحب ان يستجلب رضى محبوبه دون ان يسعى لإرضاء نفسه.

وكأنه للإشارة الى ذلك ختم الآية بقوله: « ذلك هو الفوز العظيم » وتكون في الجملة دلالة على معنى الحصر أي أن هذا الرضوان هو حقيقة كل فوز عظيم حتى الفوز العظيم بالجنة الخالدة اذ لولا شيء من حقيقة الرضى الإلهي في نعيم الجنة كان نقمة لا نعمة.

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَافِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ جهاد القوم ومجاهدتهم بذل غاية الجهد في مقاومتهم وهو يكون باللسان وباليد حتى ينتهي الى القتال، وشاع استعماله في الكتاب في القتال وإن كان ربما استعمل في غيره كما في قوله: « والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا » الآية.

واستعماله في قتال الكفّار على رسله لكونهم متجاهرين بالخلاف والشقاق. وأما المنافقون فهم الذين لا يتظاهرون بكفر ولا يتجاهرون بخلاف، وإنما يبطنون الكفر ويقلبون الامور كيداً ومكراً ولا معنى للجهاد معهم بمعنى قتالهم ومحاربتهم؟ ولذلك ربما يسبق الى الذهن أن المراد بجهادهم مطلق ما تقتضيه المصلحة من بذل غاية الجهد في مقاومتهم فإن اقتضت المصلحة هجروا ولم يخالطوا ولم يعاشروا. وان اقتضت وعظوا باللسان، وان اقتضت أُخرجوا وشردوا الى غير الأرض أو قتلوا اذا اخذ عليهم الردة، او غير ذلك.

وربما شهد لهذا المعنى اعني كون المراد بالجهاد في الآية مطلق بذل الجهد تعقيب قوله « جاهد الكفّار والمنافقين » بقوله: « واغلظ عليهم » أي شدّد عليهم وعاملهم بالخشونة.

وأما قوله: «ومأواهم جهنم وبئس المصير» فهو عطف على ما قبله من الأمر. ولعل الذي هوّن الأمر في عطف الإخبار على الإنشاء هو كون الجملة السابقة في معنى قولنا: «ان هؤلاء الكفار والمنافقين مستوجبون للجهاد». والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ الآية. سياق الآية يشعر بأنهم أتوا بعمل سيىء وشفّعوه بقول تفوّهوا به عند ذلك، وأن النبي ﷺ عاتبهم على قولهم مؤاخذاً لهم فحلفوا بالله ما قالوا كما تقدّم في قوله: «ولئن سألتهم ليقولن إنما كنّا نخوض ونلعب» الى آخر الآية أنهم كانوا يعتذرون بذلك عن عملهم أنه كان خوضاً ولعباً لا غير ذلك.

والله سبحانه يكذّبهم في الأمرين جميعاً: أما في إنكارهم القول فبقوله: «ولقد قالوا كلمة الكفر» وفسره ثانياً بقوله: «وكفروا بعد اسلامهم» للدلالة على جد القول فيتفرع عليه الكفر بعد الاسلام.

ولعلّه قال ههنا: «وكفروا بعد إسلامهم» وقد قيل سابقاً: «قد كفرتم بعد ايمانكم» لأن القول السابق للنبي ﷺ الجاري على ظاهر حالهم وهو الإيمان الذي كانوا يدّعونه ويتظاهرون به، والقول الثاني لله العالم بالغيب والشهادة فيشهد بأنهم لم يكونوا مؤمنين ولم يتعدوا الشهادتين بلسانهم فهم كانوا مسلمين لا مؤمنين، وقد كفروا بقولهم وخرجوا عن الاسلام الى الكفر. وفي هذا إيماء الى ان قولهم كان كلمة فيه الرد على الشهادتين او إحداهما.

او لأن القول الأول في قبال عملهم الذي أرادوا ايقاع الشر بالنبي ﷺ، والعمل الخالي من القول وهو لم يصب الغرض لا يضر بالاسلام الذي هو نصيب اللفظ والشهادة، وانما يضر بالايمان الذي هو نصيب الاعتقاد. والقول الثاني في قبال قولهم الذي تفوّهوا به، وهو ينافي الاسلام الذي يكتسب باللفظ دون الايمان الذي هو نوع من الاعتقاد القلبي.

واما في إنكارهم العمل السيىء الذي اتوا به وتأويلهم إياه الى الخوض واللعب فبقوله

«وهمّوا بما لم ينالوا».

ثم قال في مقام ذمّهم وتعييرهم: «وما نقموا إلّا أن اغناهم الله ورسوله من فضله» أي بسبب أن اغناهم الله ورسوله، اي كان سبب نقمتهم هذه ان الله اغناهم من فضله بما رزقهم من الغنائم وبسط عليهم الأمن والرفاهية فمكّنهم من توليد الثروة وانماء المال من كل جهة، وكذا رسوله حيث هداهم الى عيشة صالحة تفتح عليهم أبواب بركات السماء والأرض، وقسّم بينهم الغنائم وبسط عليهم العدل.

فهو من قبيل وضع الشيء موضع ضده: وضع فيه الاغناء وهو بحسب الطبع سبب للرضى والشكر موضع سبب النقمة والسخطة كالظلم والغضب وان شئت قلت: وضع فيه الإحسان موضع الإساءة، ففيه نوع من التهكم المشوب بالذم نظير ما في قوله تعالى: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ (الواقعة / ٨٢) أي تجعلون رزقكم سبباً للتكذيب بآيات الله وهو سبب بحسب الطبع لشكر النعمة والرضا بالموهبة على ما قيل: إن المعنى: وتجعلون بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون.

والضمير في قوله: «من فضله» راجع الى الله سبحانه. قال في المجمع: وإنما لم يقل: من فضلهما لأنه لا يجمع بين اسم الله واسم غيره في الكناية تعظيماً لله، ولذلك قال النبي ﷺ لمن سمعه يقول: «من أطاع الله ورسوله فقد اهتدى ومن عصاهما فقد غوى»: بئس خطيب القوم أنت فقال: كيف أقول يا رسول الله؟ قال: قل: ومن يعص الله ورسوله. وهكذا القول في قوله سبحانه: «والله ورسوله أحق أن يرضوه» وقيل: إنما لم يقل من فضلهما لأن فضل الله منه وفضل رسوله من فضله. انتهى كلامه.

وهناك وراء التعظيم أمر آخر قدّمنا القول فيه في تفسير قوله تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ (المائدة / ٧٣) في الجزء السادس من الكتاب، وهو أن وحدته تعالى ليست من سنخ الوحدة العددية حتى يصحّ بذلك تأليفها مع وحدة غيره واستنتاج عدد من

الأعداد منه.

ثم بيّن الله سبحانه لهؤلاء المنافقين أن لهم مع هذه الذنوب المهلكة وصريح كفرهم بالله وهمّهم بما لم ينالوا أن يرجعوا الى ربهم. وبيّن عاقبة أمر هذه التوبة وعاقبة التولي والاعراض عنها فقال: «فان يتوبوا يك خيراً لهم» لادائه الى المغفرة والجنة «وإن يتولوا» ويعرضوا عن التوبة «يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا» بالسياسة والنكال او باغراء النبي ﷺ عليهم او بالمكر والاستدراج. ولو لم يكن من عذابهم إلّا أنهم مخالفون بنفاقهم نظام الأسباب المبني على الصدق والإيمان فتقادمهم سلسلة الاسباب وتحطمهم وتفضحهم لكان فيه كفاية. وقد قال الله: ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (التوبة / ٢٤) «والآخرة» بعذاب النار.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ معناه أن هؤلاء لا ولي لهم في الأرض يتولى امرهم ويصرف العذاب عنهم، ولا نصير ينصرهم ويمدّهم بما يدفعون به العذاب الموعود عن انفسهم لأن سائر المنافقين ايضاً منهم وكلمة الفساد يجمعهم وأصلهم الفاسد منقطع عن سائر الأسباب الكونية فلا ولي لهم يتولى امرهم ولا ناصر لهم ينصرهم ولعل هذه الجملة من الآية إشارة الى ما أومأنا اليه في معنى عذاب الدنيا[١].

٧٥ • وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ.

٧٦ • فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ.

٧٧ • فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ.

---

١. التوبة ٦٤ ـ ٧٤: بحث روائي في المنافقين وأعمالهم.

٧٨ ● أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ.

٧٩ ● ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَاتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

٨٠ ● ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾ الى آخر الآيتين: الإيتاء الإعطاء. وقد كثر إطلاق الإيتاء من الفضل على إعطاء المال. ومن القرائن عليه في الآية قوله: «فنصدقن» أي لنتصدقن مما آتانا من المال وكذلك ما في الآية التالية من ذكر البخل به.

والسياق يفيد ان الكلام متعرض لأمر واقع، والروايات تدل على ان الآيات نزلت في ثعلبة في قصة سيأتي نقلها في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى. ومعنى الآيتين ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ الآية: الإعقاب الإيراث قال في المجمع: وأعقبه وأورثه وأداه نظائر وقد يكون أعقبه بمعنى جازاه. انتهى. وهو مأخوذ من العقب، ومعناه الإتيان بشيء عقيب شيء.

والضمير في قوله: «فأعقبهم» راجع الى البخل او الى فعلهم الذي منه البخل، وعلى هذا

فالمراد بقوله: «يوم يلقونه» يوم لقاء البخل أي جزاء البخل بنحو من العناية.

ويمكن ان يرجع الضمير اليه تعالى والمراد بيوم يلقونه يوم يلقون الله وهو يوم القيامة على ما هو المعروف من كلامه تعالى من تسمية يوم القيامة بيوم لقاء الله او يوم الموت كما هو الظاهر من قوله تعالى: ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن اجل الله لآت﴾ (العنكبوت / ٥).

وهذا الثاني هو الظاهر على الثاني لأن الأنسب عند الذهن ان يقال: فهم على نفاقهم الى ان يموتوا. دون ان يقال: فهم على نفاقهم الى ان يبعثوا اذ لا تغير لحالهم فيما بعد الموت على أي حال.

وقوله: ﴿بِمَا أَخْلَفُوا ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ الباء في الموضعين منه للسببية أي إن هذا البخل اورثهم نفاقاً بما كان فيه من الخلف في الوعد والاستمرار على الكذب الموجبين لمخالفة باطنهم لظاهرهم وهو النفاق.

ومعنى الآية: فأورثهم البخل والامتناع عن إيتاء الصدقات نفاقاً في قلوبهم يدوم لهم ذلك ولا يفارقهم الى يوم موتهم وإنما صار هذا البخل والامتناع سبباً لذلك لما فيه من خلف الوعد لله والملازمة والاستمرار على الكذب.

او المعنى: جازاهم الله نفاقاً في قلوبهم الى يوم لقائه وهو يوم الموت لأنهم أخلفوه ما وعدوه وكانوا يكذبون.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ الآية: النجوى الكلام الخفي والاستفهام للتوبيخ والتأنيب.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَاتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ الآية: التطوع الإتيان بما لا تكرهه النفس ولا تحسبه شاقاً ولذلك يستعمل غالباً في المندوبات لما في الواجبات من شائبة التحميل على النفس بعدم الرضى بالترك.

ومقابلة المطوعين من المؤمنين في الصدقات بالذين لا يجدون إلّا جهدهم قرينة على أن المراد بالمطوعين فيها الذين يؤتون الزكاة على السعة والجدة كأنهم لسعتهم وكثرة مالهم يؤتونها على طوع ورغبة من غير ان يشق ذلك عليهم بخلاف الذين لا يجدون إلّا جهدهم أي مبلغ جهدهم وطاقتهم او ما يشق عليهم القنوع بذلك.

وقوله: «الذين يلمزون» الآية كلام مستأنف او هو وصف للذين ذكروا بقوله: «ومنهم من عاهد الله» الآية كما قالوا. والمعنى: الذين يعيبون الذين يتطوعون بالصدقات من المؤمنين الموسرين والذين لا يجدون من المال إلّا جهد انفسهم من الفقراء المعسرين فيعيبون المتصدقين موسرهم ومعسرهم وغنيهم وفقيرهم ويسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم. وفيه جواب لاستهزائهم وإيعاد بعذاب شديد.

قوله تعالى: ﴿إِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ الترديد بين الأمر والنهي كناية عن تساوي الفعل والترك أي لغوية الفعل كما مر نظيره في قوله: ﴿أنفقوا طوعاً او كرهاً لن يتقبل منكم﴾ (التوبة / ٥٣).

فالمعنى ان هؤلاء المنافقين لا تنالهم مغفرة من الله ويستوي فيهم طلب المغفرة وعدمها لأن طلبها لهم لغو لا اثر له.

وقوله: «ان تستغفر لهم بعين مرة فلن يغفر الله لهم» تأكيداً لما ذكر قبله من لغوية الاستغفار لهم. وبيان ان طبيعة المغفرة لا تنالهم البتة سواء سئلت المغفرة في حقهم او لم تسأل. وسواء كان الاستغفار مرة او مرات قليلاً او كثيراً.

فذكر السبعين كناية عن الكثرة من غير ان يكون هناك خصوصية للعدد حتى يكون الواحد والاثنان من الاستغفار حتى يبلغ السبعين غير مؤثر في حقهم فاذا جاوز السبعين أثر اثره. ولذلك علّله بقوله: «ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله» اي ان المانع من شمول المغفرة هو كفرهم بالله ورسوله. ولا يختلف هذا المانع بعدم الاستغفار. ولا وجوده واحداً او كثيراً فهم

على كفرهم.

ومن هنا يظهر أن قوله: «والله لا يهدي القوم الفاسقين» متمم لسابقه والكلام مسوق سوق الاستدلال القياسي والتقدير: انهم كافرون بالله ورسوله فهم فاسقون خارجون عن عبودية الله، والله لا يهدي القوم الفاسقين، لكن المغفرة هداية الى سعادة القرب والجنة فلا تشملهم المغفرة ولا تنالهم البتة.

واستعمال السبعين في الكثرة المجرّدة عن الخصوصية كاستعمال المائة والألف فيها كثير في اللغة[1].

٨١ ● فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ.

٨٢ ● فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ.

٨٣ ● فَإِنْ رَجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَالِفِينَ.

٨٤ ● وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ.

٨٥ ● وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ.

---

١. التوبة ٧٥ ـ ٨٠: بحث روائي في المنافقين وصفاتهم؛ نهى الله رسوله عن الاستغفار للمنافقين.

٨٦ • وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ
ٱسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ ٱلْقَاعِدِينَ.

٨٧ • رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا
يَفْقَهُونَ.

٨٨ • لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ
وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ.

٨٩ • أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ.

٩٠ • وَجَاءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

٩١ • لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا
يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى
ٱلْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

٩٢ • وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا
أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا
يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ.

٩٣ • إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ
يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ.

٩٤ ● يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لاَ تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

٩٥ ● سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِما كَانُوا يَكْسِبُونَ.

٩٦ ● يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَرْضىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ الآية: الفرح والسرور خلاف الغم وهما حالتان نفسيّتان وجدانيّتان ملذة ومؤلمة، والمخلّفون اسم مفعول من قولهم خلفه اذا تركه بعده والمقعد كالقعود مصدر قعد يقعد وهو كناية عن عدم الخروج الى الجهاد.

والخلاف كالمخالفة مصدر خالف يخالف، وربما جاء بمعنى بعد كما قيل ولعل منه قوله «واذاً لا يلبثون خلافك إلّا قليلاً» وكان قياس الكلام أن يقال: «خلافك» لأن الخطاب فيه للنبي ﷺ وإنما قيل: «خلاف رسول الله» للدلالة على أنهم إنما يفرحون على مخالفة الله العظيم فما على الرسول إلّا البلاغ.

والمعنى فرح المنافقون الذين تركتهم بعدك بعدم خروجهم معك خلافاً لك ـ أو بعدك ـ

وكرهوا ان يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله .

وقوله تعالى: «وقالوا لا تنفروا في الحر» خاطبوا بذلك غيرهم ليخذلوا النبي ﷺ ويبطلوا مسعاه في تنفير الناس الى الغزوة، ولذلك أمره الله تعالى ان يجيب عن قولهم ذلك بقوله: «قل نار جهنم اشد حراً» اي ان الفرار عن الحر بالقعود ان انجاكم منه لم ينجكم مما هو اشد منه وهو نار جهنم التي هي اشد حراً فان الفرار عن هذا الهين يوقعكم في ذاك الشديد. ثم أفاد بقوله: «لو كانوا يفقهون» المصدر بلو التمني اليأس من فقههم وفهمهم.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ تفريع على تخلفهم عن الجهاد بالأموال والأنفس وفرحهم بالقعود عن هذه الفريضة الإلهية الفطرية التي لا سعادة للإنسان في حياته دونها.

وقوله: «جزاء بما كانوا يكسبون» والباء للمقابلة او السببية دليل على ان المراد بالضحك القليل هو الذي في الدنيا فرحاً بالتخلف والقعود ونحو ذلك، وبالبكاء الكثير ما كان في الآخرة في نار جهنم التي هي اشد حراً فان الذي فرع عليه الضحك والبكاء هو ما في الآية السابقة، وهو فرحهم بالتخلف وخروجهم من حر الهواء الى حر نار جهنم.

فالمعنى: فمن الواجب بالنظر الى ما عملوه واكتسبوه ان يضحكوا ويفرحوا قليلاً في الدنيا وان يبكوا ويحزنوا كثيراً في الآخرة فالأمر بالضحك والبكاء للدلالة على ايجاب السبب وهو ما كسبوه من الأعمال لذلك.

واما حمل الأمر في قوله: «فليضحكوا» وقوله: «وليبكوا» على الأمر المولوي لينتج تكليفاً من التكاليف الشرعية فلا يناسبه قوله: «جزاء بما كانوا يكسبون».

ويمكن ان يكون المراد الأمر بالضحك القليل والبكاء الكثير معاً ما هو في الدنيا جزاء لسابق اعمالهم فانها هدتهم الى راحة وهمية في ايام قلائل وهي ايام قعودهم خلاف رسول الله ﷺ ثم الى هوان وذلة عند الله ورسوله والمؤمنين ما داموا احياء في الدنيا ثم الى شديد حر

النار في الآخرة بعد موتهم.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ ٱللَّهُ إِلىٰ طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ الى آخر الآية المراد بالقعود اول مرة التخلف عن الخروج في اول مرة كان عليهم ان يخرجوا فيها فلم يخرجوا، ولعلها غزوة تبوك كما يهدي اليه السياق.

والمراد بالخالفين المتخلفون بحسب الطبع كالنساء والصبيان والمرضى والزمنى وقيل: المتخلفون من غير عذر، وقيل: الخالفون هم أهل الفساد، والباقي واضح.

وفي قوله: «فإن رجعك الله الى طائفة منهم» الآية دلالة على ان هذه الآية وما في سياقها المتصل من الآيات السابقة واللاحقة نزلت ورسول الله ﷺ في سفره ولما يرجع الى المدينة، وهو سفره الى تبوك.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُم فَاسِقُونَ﴾ نهي عن الصلاة لمن مات من المنافقين والقيام على قبره وقد علل النهي بأنهم كفروا وفسقوا وماتوا على فسقهم، وقد علل لغوية الاستغفار لهم في قوله تعالى: السابق: ﴿استغفر لهم او لا تستغفر لهم﴾ (آية ٨٠ من السورة)، وكذا في قوله: ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم ام لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (المنافقون / ٦) بالكفر والفسق أيضاً.

ويتحصل من الجميع ان من فقد الإيمان بالله باستيلاء الكفر على قلبه وإحاطته به فلا سبيل له الى النجاة يهتدي به، وأن الآيات الثلاث جميعاً تكشف عن لغوية الإستغفار للمنافقين والصلاة على موتاهم والقيام على قبورهم للدعاء لهم.

وفي الآية إشارة الى ان النبي ﷺ كان يصلي على موتى المسلمين ويقوم على قبورهم للدعاء.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ﴾ الآية: تقدم بعض ما يتعلق بالآية

من الكلام في الآية ٥٥ من السورة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾ الى آخر الآيتين؛ الطول القدرة والنعمة، والخوالف هم الخالفون والكلام فيه كالكلام فيه، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ لما ذم المنافقين في الآيتين السابقتين بالرضا بالقعود مع الخوالف والطبع على قلوبهم استدرك بالنبي ﷺ والذين آمنوا معه ـ والمراد بهم المؤمنون حقاً الذين خلصت قلوبهم من رين النفاق بدليل المقابلة مع المنافقين ـ ليمدحهم بالجهاد بأموالهم وأنفسهم أي انهم لم يرضوا بالقعود ولم يطبع على قلوبهم بل نالوا سعادة الحياة والنور الإلهي الذي يهتدون به في مشيهم كما قال تعالى: ﴿او من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾ (الأنعام / ١٢٢).

ولذلك عقب الكلام بقوله: «وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون» فلهم جميع الخيرات ـ على ما يقتضيه الجمع المحلي باللام ـ من الحياة الطيبة ونور الهدى والشهادة وسائر ما يتقرب به الى الله سبحانه، وهم المفلحون الفائزون بالسعادة.

قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي﴾ الآية؛ الإعداد هو التهيئة وقد عبر بالإعداد دون الوعد لأن الامور بخواتيمها وعواقبها فلو كان وعداً وهو وعد لجميع من آمن معه لكان قضاء حتمياً واجب الوفاء سواء بقي الموعودون على صفاء إيمانهم وصلاح اعمالهم او غيروا والله لا يخلف الميعاد.

والاصول القرآنية لا تساعد على ذلك، ولا الفطرة السليمة ترضى ان ينسب الى الله سبحانه ان يطبع بطابع المغفرة والجنة الحتمية على احد لعمل عمله من الصالحات ثم يخلي بينه وبين ما شاء وأراد.

ولذلك نجده سبحانه اذا وعد وعداً علقه على عنوان من العناوين العامة كالايمان والعمل الصالح يدور معه الوعد الجميل من غير ان يخص به اشخاصاً بأعيانهم فيفيد التناقض بالجمع بين التكليف والتأمين كما قال تعالى: ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات﴾ (الآية ٧٢ من السورة)، وقال تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ـ الى ان قال ـ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾ (الفتح / ٢٩).

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ الآية؛ الظاهر أن المراد بالمعذرين هم اهل العذر كالذي لا يجد نفقة ولا سلاحاً بدليل قوله: «وقعد الذين كذبوا» الآية؛ والسياق يدل على ان في الكلام قياساً لإحدى الطائفتين الى الاخرى ليظهر به لؤم المنافقين وخستهم وفساد قلوبهم وشقاء نفوسهم، حيث ان فريضة الجهاد الدينية والنصرة لله ورسوله هيج لذلك المعذرين من الأعراب وجاءوا الى النبي ﷺ يستأذنونه، ولم يؤثر في هؤلاء الكاذبين شيئاً.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ المراد بالضعفاء بدلالة سياق الآية: الذين لا قوة لهم على الجهاد بحسب الطبع كالزمنى كما ان المرضى لا قوة لهم عليه بحسب عارض مزاجي، والذين لا يجدون ما ينفقون لا قوة لهم عليه من جهة فقد المال ونحوه.

فهؤلاء مرفوع عنهم الحرج والمشقة أي الحكم بالوجوب الذي لو وضع كان حكماً حرجياً، وكذا ما يستتبعه الحكم من الذم والعقاب على تقرير المخالفة.

وقد قيد الله تعالى رفع الحرج عنهم بقوله: «اذا نصحوا لله ورسوله» وهو ناظر الى الذم والعقاب على المخالفة والقعود فإنما يرفع الذم والعقاب عن هؤلاء المعذورين اذا نصحوا لله ورسوله، وأخلصوا من الغش والخيانة ولم يجروا في قعودهم على ما يجري عليه المنافقون

المتخلفون من تقليب الامور وإفساد القلوب في مجتمع المؤمنين، وإلّا فيجري عليهم ما يجري على المنافقين من الذم والعقاب.

وقوله: ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ في مقام التعليل لنفي الحرج عن الطوائف المذكورين بشرط ان ينصحوا لله ورسوله أي لأنهم يكونون حينئذ محسنين وما على المحسنين من سبيل فلا سبيل يتسلط عليهم يؤتون منه فيصابون بما يكرهونه.

فنفي السبيل كناية عن كونهم في مأمن مما يصيبهم من مكروه كأنهم في حصن حصين لا طريق الى داخله يسلكه الشر اليهم فيصيبهم، والجملة عامة بحسب المعنى وإن كان مورد التطبيق خاصاً.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ ﴾ الآية: قال في المجمع: الحمل إعطاء المركوب من فرس أو بعير او غير ذلك تقول: حمله يحمله حملاً اذا أعطاه ما يحمل عليه قال:

ألا فتى عنده خفّان يحملني   عليهما إنني شيخ على سفر

قال: والفيض الجري عن امتلاء من قولهم: فاض الإناء بما فيه، والحزن ألم في القلب لفوت امر مأخوذ من حزن الأرض وهي الأرض الغليظة المسلك. انتهى.

وقوله: «ولا على الذين» الآية؛ موصول صلته قوله: «تولوا» الآية. وقوله: «اذا ما اتوك لتحملهم» كالشرك والجزاء والمجموع ظرف لقوله: «تولوا» وحزناً مفعول له. «وان لا يجدوا» منصوب بنزع الخافض.

والمعنى: ولا حرج على الفقراء الذين اذا ما اتوك لتعطيهم مركوباً يركبونه وتصلح سائر ما يحتاجون اليه من السلاح وغيره قلت لا أجد ما احملكم عليه تولوا والحال ان اعينهم تمتلىء وتسكب دموعاً للحزن من ان لا يجدوا ـ او لأن لا يجدوا ـ ما ينفقونه في سبيل الله للجهاد مع اعدائه.

وعطف هذا الصنف على ما تقدّمه من عطف الخاص على العام عناية بهم لأنهم في أعلى درجة من النصح واحسانهم ظاهر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ الآية: القصر للإفراد والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ الى آخر الآية: خطاب الجمع للنبي ﷺ والمؤمنين جميعاً، وقوله: «لن نؤمن لكم» اي لن نصدقكم على ما تعتذرون به بناء على تعدية الايمان باللام كالباء ـ او لن نصدّق تصديقاً ينفعكم ـ بناء على كون اللام للنفع ـ والجملة تعليل لقوله: «لا تعتذروا» كما أن قوله: «قد نبأنا الله من اخباركم» تعليل لهذه الجملة.

والمعنى يعتذر المنافقون اليكم عند رجوعكم من الغزوة اليهم قل يا محمد لهم: لا تعتذروا الينا لأنا لن نصدّقكم فيما تعتذرون به لأن الله قد اخبرنا ببعض اخباركم مما يظهر به نفاقكم وكذبكم فيما تعتذرون به، وسيظهر عملكم ظهور شهود لله ورسوله ثم تردّون الى الله الذي يعلم الغيب والشهادة يوم القيامة فيخبركم بحقائق اعمالكم.

وفي قوله: «وسيرى الله عملكم ورسوله» الخ: في إيضاحه كلام سيمرّ بك عن قريب.

قوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ الآية: اي لتعرضوا عنهم فلا تتعرضوا لهم بالعتاب والتقريع وما يتعقب ذلك فأعرضوا عنهم لا تصديقاً لهم فيما يحلفون له من الأعذار بل لأنهم رجس ينبغي أن لا يقترب منهم ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون.

قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ اي هذا الحلف منهم كما كان للتوسل الى صرفكم عنهم ليأمنوا الذم والتقريع كذلك هو للتوسّل الى رضاكم عنهم أما الإعراض فافعلوه لأنهم رجس

لا ينبغي لنزاهة الايمان وطهارته ان تتعرض لرجس النفاق والكذب وقذارة الكفر والفسق، وأما الرضى فاعلموا انكم ان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عنهم لفسقهم والله لا يرضى عن القوم الفاسقين.

فالمراد أنكم إن رضيتم عنهم فقد رضيتم عمن لم يرض الله عنه اي رضيتم بخلاف رضي الله، ولا ينبغي لمؤمن ان يرضى عمّا يسخط ربّه فهو ابلغ كناية عن النهي عن الرضا عن المنافقين[١].

٩٧ ● الأَعرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً وَأَجْدَرُ أَنْ لا يَعْلَمُوا حُـدُودَ مـا
أَنْزَلَ ٱللّٰهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَٱللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.
٩٨ ● وَمِنَ ٱلْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُـنْفِقُ مَـغْرَماً وَيَـتَرَبَّصُ بِكُـمُ
الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَٱللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.
٩٩ ● وَمِنَ ٱلْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِـرِ وَيَـتَّخِذُ مـا
يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ ٱللّٰهِ وَصَلَواتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَـهُمْ
سَيُدْخِلُهُم ٱللّٰهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.
١٠٠ ● وَالسّابِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِـنَ ٱلْـمُهاجِرِينَ وَٱلْأَنْـصارِ وَالَّـذِينَ
ٱتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَـهُمْ
جَنّاتٍ تَجْرِي تَحْتَها ٱلْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذٰلِكَ ٱلْـفَوْزُ
ٱلْعَظِيمُ.

١. التوبة ٨١ـ٩٦: بحث روائي في غزوة تبوك؛ نهى الله رسوله ان يصلي على المنافقين.

١٠١ ● وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ ٱلْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلىٰ عَذابٍ عَظِيمٍ.

١٠٢ ● وَآخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى ٱللّٰهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

١٠٣ ● خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَٱللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

١٠٤ ● أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللّٰهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ وَأَنَّ ٱللّٰهَ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ.

١٠٥ ● وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلىٰ عالِمِ ٱلْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

١٠٦ ● وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللّٰهِ إِمّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً وَأَجْدَرُ أَنْ لا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ ٱللّٰهُ عَلىٰ رَسُولِهِ﴾ الآية؛ قال الراغب في المفردات: العرب ولد اسماعيل، والأعراب جمعه في الأصل، وصار ذلك اسماً لسكان البادية، «قالت الأعراب آمنا. والأعراب أشد كفراً ونفاقاً. ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر». وقيل في جمع

الأعراب أعاريب، قال الشاعر:

أعاريب ذوو فخر بإفك وألسنة لطاف في المقال

والأعرابيّ في التعارف صار اسماً للمنسوب الى سكان البادية، والعربيّ المفصح والإعراب البيان، انتهى موضع الحاجة. يبين تعالى حال سكان البادية وأنهم أشد كفراً ونفاقاً لأنهم لبعدهم عن المدنية والحضارة، وحرمانهم من بركات الإنسانية من العلم والأدب أقسى وأجفى، فهم أجدر وأحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله من المعارف الأصيلة والأحكام الشرعية من فرائض وسنن وحلال وحرام.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ الآية، قال في المجمع: المغرم الغرم وهو نزول نائبة بالمال من غير خيانة، وأصله لزوم الأمر. ومنه قوله: إن عذابها كان غراماً، وحبّ غرام اي لازم، والغريم يقال لكل واحد من المتداينين للزوم احدهما الآخر وغرمته كذا أي ألزمته إياه في ماله، انتهى.

والدائرة الحادثة وتغلب في الحوادث السوء كأن الحوادث السوء تدور بين الناس فتنزل كل يوم بقوم فتربص الدوائر بالمؤمنين انتظار نزول الحوادث السوء عليهم للتخلص من سلطتهم والرجوع الى رسوم الشرك والضلال.

وقوله: «يتخذ ما ينفق مغرماً» أي يفرض الإنفاق غرماً او المال الذي ينفقه مغرماً ـ على أن يكون ما مصدرية او موصولة ـ والمراد الإنفاق في الجهاد او اي سبيل من سبل الخير على ما قيل، ويمكن ان يكون المراد الإنفاق في خصوص الصدقات ليكون الكلام كالتوطئة لما سيجيء بعد عدة آيات من حكم أخذ الصدقة من اموالهم، ويؤيده ما في الآية التالية من قوله: «ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول» فانه كالتوطئة لقوله في آية الصدقة «وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم».

فمعنى الآية: ومن سكان البادية من يفرض الإنفاق في سبيل الخير او في خصوص

الصدقات غرماً وخسارة وينتظر نزول الحوادث السيئة بكم، عليهم دائرة السوء ـ قضاء منه تعالى او دعاء عليهم ـ والله سميع للأقوال عليم بالقلوب.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ ٱللَّهِ وَصَلَواتِ الرَّسُولِ﴾ الخ؛ الظاهر أن قوله: «صلوات الرسول» عطف على قوله: «ما ينفق» وأن الضمير في قوله: «ألا إنها قربة» عائد الى ما ينفق وصلوات الرسول.

ومعنى الآية: ومن الأعراب من يؤمن بالله فيوحده من غير شرك ويؤمن باليوم الآخر فيصدّق الحساب والجزاء ويتخذ إنفاق المال لله وما يتبعه من صلوات الرسول ودعواته بالخير والبركة، كل ذلك قربات عند الله وتقربات منه اليه ألا إن هذا الإنفاق وصلوات الرسول قربة لهم، والله يعدهم بأنه سيدخلهم في رحمته لأنه غفور للذنوب رحيم بالمؤمنين به والمطيعين له.

قوله تعالى: ﴿وَالسّابِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهاجِرِينَ وَٱلْأَنْصارِ وَالَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ﴾ الخ؛ القراءة المشهورة «والأنصار» بالكسر عطفاً على «المهاجرين» والتقدير: السابقون الأولون من المهاجرين والسابقون الأولون من الأنصار والذين اتبعوهم بإحسان؛ وقرء يعقوب: والأنصار بالرفع فالمراد به جميع الأنصار دون السابقين الأولين منهم فحسب.

وقد اختلفت الكلمة في المراد بالسابقين الأولين فقيل: المراد بهم من صلى الى القبلتين، وقيل: من بايع بيعة الرضوان وهي بيعة الحديبية، وقيل: هم أهل بدر خاصة، وقيل: هم الذين أسلموا قبل الهجرة، وهذه جميعاً وجوه لم يوردوا لها دليلاً من جهة اللفظ.

والذي يمكن أن يؤيده لفظ الآية بعض التأييد هو أن بيان الموضوع ـ السابقون الأولون ـ بالوصف بعد الوصف من غير ذكر أعيان القوم وأشخاصهم يشعر بأن الهجرة والنصرة هما

الجهتان اللتان روعي فيهما السبق والأولية.

ثم الذي عطف عليهم من قوله: «والذين اتبعوهم بإحسان. يذكر قوماً ينعتهم بالاتّباع ويقيّده بأن يكون بإحسان والذي يناسب وصف الاتّباع أن يترتب عليه هو وصف السبق دون الأولية فلا يقال: أول وتابع وإنما يقال: سابق وتابع، وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم﴾ الى ان قال: ﴿والذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلهم﴾ الى ان قال: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾ الآيات؛ (الحشر / ١٠).

فالمراد بالسابقين هم السابقون الى الإيمان من بين المسلمين من لدن طلوع الإسلام الى يوم القيامة[١].

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ الآية؛ حول الشيء ما يجاوره من المكان من اطرافه وهو ظرف، والمرد العتو والخروج عن الطاعة، والممارسة والتمرين على الشر وهو المعنى المناسب لقوله في الآية: «مردوا على النفاق» أي مرنوا عليه ومارسوا حتى اعتادوه.

ومعنى الآية: وممن في حولكم او حول المدينة من الأعراب الساكنين في البوادي منافقون مرنوا على النفاق ومن اهل المدينة أيضاً منافقون معتادون على النفاق لا تعلمهم انت يا محمّد نحن نعلمهم سنعذّبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم.

وقد اختلفت كلماتهم في المراد من تعذيبهم مرتين. ما هما المرتان؟ فقيل: يعني مرة في الدنيا بالسبي والقتل ونحوهما ومرة بعذاب القبر، وقيل: في الدنيا بأخذ الزكاة وفي الآخرة بعذاب القبر، وقيل بالجوع مرتين وقيل مرة عند الاحتضار ومرة في القبر وقيل: بإقامة الحدود

---

١. التوبة ٩٧ـ١٠٦: بحث في السابقين الاولين من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان.

وعذاب القبر. وقيل: مرة بالفضيحة في الدنيا ومرة بالعذاب في القبر. وقيل غير ذلك. ولا دليل على شيء من هذه الأقوال، وإن كان ولابد فأولها أولاها.

قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾ الآية؛ اي ومن الأعراب جماعة آخرون مذنبون لا ينافقون مثل غيرهم بل اعترفوا بذنوبهم لهم عمل صالح وعمل آخر سيء خلطوا هذا بذلك من المرجو ان يتوب الله عليهم إن الله غفور رحيم.

وفي قوله: «عسى الله ان يتوب عليهم» إيجاد الرجاء في نفوسهم لتكون نفوسهم واقعة بين الخوف والرجاء من غير ان يحيط بها اليأس والقنوط. وفي قوله: «إن الله غفور رحيم» ترجيح جانب الرجاء.

قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ التطهير إزالة الأوساخ والقذرات من الشيء ليصفى وجوده ويستعد للنشوء والنماء وظهور آثاره وبركاته، والتزكية إنماؤه وإعطاء الرشد له بلحوق الخيرات وظهور البركات كالشجرة بقطع الزوائد من فروعها فتزيد في حسن نموّها وجودة ثمرتها فالجمع بين التطهير والتزكية في الآية من لطيف التعبير.

فقوله: «خذ من أموالهم صدقة» أمر للنبي ﷺ بأخذ الصدقة من اموال الناس ولم يقل: من مالهم ليكون اشارة الى انها مأخوذة من أصناف المال، وهي النقدان: الذهب والفضة، والأنعام الثلاثة: الإبل والبقر والغنم، والغلّات الأربع: الحنطة والشعير والتمر والزبيب.

وقوله: «تطهّرهم وتزكيهم بها» خطاب للنبي ﷺ، وليس وصفاً لحال الصدقة، والدليل عليه ضمير بها الراجع الى الصدقة اي خذ يا محمد من اصناف اموالهم صدقة تطهرهم انت وتزكيهم بتلك الصدقة اي أخذها.

وقوله: «وصلِّ عليهم» الصلاة عليهم هي الدعاء لهم والسياق يفيد انه دعاء لهم

ولأموالهم بالخير والبركة وهو المحفوظ من سنّة النبي ﷺ فكان يدعو لمعطي الزكاة ولماله بالخير والبركة.

وقوله: «إن صلاتك سكن لهم» السكن ما يسكن اليه الشيء والمراد به أن نفوسهم تسكن الى دعائك وتثق به وهو نوع شكر لسعيهم في الله كما أن قوله تعالى في ذيل الآية: «والله سميع عليم» سكن يسكن اليه نفوس المكلفين ممن يسمع الآية او يتلوها.

والآية تتضمن حكم الزكاة المالية التي هي من أركان الشريعة والملة على ما هو ظاهر الآية في نفسها، وقد فسرتها بذلك اخبار متكاثرة من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ استفهام إنكاري بداعي تشويق الناس الى إيتاء الزكاة، وذلك أنهم إنما يؤتون الصدقة لله وإنما يسلّمونها الى الرسول او الى عامله وجابيه بما أنه مأمور من قِبل الله في اخذها فإيتاؤه إيتاء لله، وأخذه أخذ من الله فالله سبحانه هو الآخذ لها بالحقيقة، وقد قال تعالى في أمثاله: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾ (الفتح / ١٠) وقال: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ (الأنفال / ١٣) وقال قولاً عاماً: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ (النساء / ٨٠).

فاذا ذكّر الناس بمثل قوله: «ألم يعلموا أن الله» الآية؛ انبعثت رغباتهم واشتاقوا أن يعاملوا ربهم فيصافحوه ويمسّوا بأيديهم يده تنزّه عن عوارض الأجسام وتعالى عن ملابسة الحدثان.

ومقارنته الصدقة بالتوبة لما أن التوبة تطهّر وإيتاء الصدقة تطهّر فالتصدّق بصدقة توبة مالية كما ان التوبة بمنزلة الصدقة في الأعمال والحركات، ولذلك عطف على صدر الآية قوله ذيلاً «وأن الله هو التواب الرحيم» فذكّر عباده باسميه التواب والرحيم، وجمع فيها التوبة

والتصدق.

وقد بان من الآية ان التصدق وإيتاء الزكاة نوع من التوبة.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية: الآية على ظاهر اتّصالها بما قبلها كأنها تخاطب المؤمنين وتسوقهم وتحرضهم الى إيتاء الصدقات.

غير أن لفظها مطلق لا دليل على تخصيص خطابها بالمتصدّقين من المؤمنين ولا بعامة المؤمنين بل هي تشمل كل ذي عمل من الناس من الكفار والمنافقين والمؤمنين ولا أقل من شمولها للمنافقين والمؤمنين جميعاً.

إلّا أن نظير الآية الذي مر أعني قوله في سياق الكلام على المنافقين: ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبّؤكم بما كنتم تعملون﴾ (التوبة / ٩٤) حيث ذكر الله ورسوله في رؤية عملهم ولم يذكر المؤمنين لا يخلو من إيماء الى أن الخطاب في الآية التي نحن فيها للمؤمنين خاصة فإن ضم إحدى الآيتين الى الاخرى يخطر بالبال ان حقيقة أعمال المنافقين أعني مقاصدهم من أعمالهم لما كانت خفية على ملإ الناس فإنما يعلم بها الله ورسوله بوحي من الله تعالى، وأما المؤمنون فحقائق أعمالهم أعني مقاصدهم منها وآثارها وفوائدها التي تتفرع عليها وهي شيوع التقوى وإصلاح شؤون المجتمع الإسلامي وإمداد الفقراء في معايشهم وزكاة الأموال ونماؤها يعلمها الله تعالى ورسوله ويشاهدها المؤمنون فيما بينهم.

لكن ظهور الأعمال بحقائق آثارها وعامة فوائدها أو مضراتها في محيط كينونتها وتبدلها بأمثالها وتصورها في أطوارها زماناً بعد زمان وعصراً بعد عصر مما لا يختص بعمل قوم دون عمل قوم، ولا مشاهدتها والتأثر بها بقوم دون قوم.

فلو كان المراد من رؤية المؤمنين أعمالاً لعاملين ظهور آثارها ونتائجها وبعبارة

أُخرى ظهور أنفسها في ألبسة نتائجها لهم لم يختص المشاهدة بقوم دون قوم ولا بعمل قوم دون عمل قوم فما بال الأعمال يراها المؤمنون ولا يراها المنافقون وهم أهل مجتمع واحد؟ وما بال أعمال المنافقين لا يشاهدها المؤمنون وقد كوّنت في مجتمعهم وداخلت أعمالهم؟

وهذا مع ما في الآية من خصوص السياق مما يقرب الذهن أن يفهم من الآية معنى آخر فإن قوله: «ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبّؤكم بما كنتم تعملون» يدل أولاً على أن قوله: «فسيرى الله عملكم» الآية: ناظر الى ما قبل البعث وهي الدنيا لمكان قوله: «ثم تردون» فإنه يشير الى يوم البعث وما قبله هو الدنيا.

وثانياً: أنهم إنما يوقفون على حقيقة أعمالهم يوم البعث وأما قبل ذلك فإنما يرون ظاهرها، وقد نبهنا على هذا المعنى كراراً في أبحاثنا السابقة. واذ قصر علمهم بحقائق أعمالهم على إنبائه تعالى إياهم بها يوم القيامة وذكر رؤية الله ورسوله والمؤمنين أعمالهم قبل يوم البعث في الدنيا وقد ذكر الله مع رسوله وغيره وهو عالم بحقائقها وله أن يوحي الى نبيه بها كان المراد بها مشاهدة الله سبحانه ورسوله والمؤمنون حقيقة أعمالهم، وكان المراد بالمؤمنين شهداء الأعمال منهم لا عامة المؤمنين كما يدل عليه أمثال قوله تعالى: **﴿وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾** (البقرة / ١٤٣) وقد مر الكلام فيه في الجزء الأول من الكتاب.

وعلى هذا فمعنى الآية: وقل يا محمّد اعملوا ما شئتم من عمل خيراً أو شراً فسيشاهد الله سبحانه حقيقة عملكم ويشاهدها رسوله والمؤمنون - وهم شهداء الأعمال - ثم تردون الى الله عالم الغيب والشهادة يوم القيامة فيريكم حقيقة عملكم.

وبعبارة اخرى: ما عملتم من عمل خير او شر فإن حقيقته مرئية مشهودة لله عالم الغيب والشهادة ثم لرسوله والمؤمنين في الدنيا ثم لكم أنفسكم معاشر العاملين يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الارجاء التأخير، والآية معطوفة على قوله: «وآخرون اعترفوا بذنوبهم» ومعنى إرجائهم الى امر الله انهم لا سبب عندهم يرجح لهم جانب العذاب او جانب المغفرة فأمرهم يؤول الى أمر الله ما شاء وأراد فيهم فهو النافذ في حقهم؟

وهذة الآية تنطبق بحسب نفسها على المستضعفين الذين هم كالبرزخ بين المحسنين والمسيئين، وإن ورد في أسباب النزول ان الآية نازلة في الثلاثة الذين خلفوا ثم تابوا فأنزل الله توبتهم على رسوله ﷺ وسيجيء إن شاء الله تعالى.

وكيف كان فالآية تخفي ما يؤول اليه عاقبة امرهم وتبقيها على إبهامها حتى فيما ذيلت به من الاسمين الكريمين: العليم والحكيم الدالين على ان الله سبحانه يحكم فيهم بما يقتضيه علمه وحكمته، وهذا بخلاف ما ذيل قوله: «وآخرون اعترفوا بذنوبهم» حيث قال: «عسى الله ان يتوب عليهم والله غفور رحيم»[1][2].

١٠٧ ● وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ.

١٠٨ ● لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ.

---

١. التوبة ٩٧ ـ ١٠٦: بحث روائي في السابقين الاولين...؛ الاعراب؛ الصدقات.

٢. التوبة ٩٧ ـ ١٠٦: كلام في الزكاة وسائر الصدقات.

١٠٩ ❁ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ
أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ
وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.
١١٠ ❁ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ
قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً﴾ الى آخر الآية. الضرار والمضارة إيصال الضرر. والإرصاد اتخاذ الرصد والانتظار والترقب.

وقوله: «والذين اتخذوا مسجداً ضراراً» إن كانت الآيات نازلة مع ما تقدمها من الآيات النازلة في المنافقين فالعطف على ما تقدم ذكرهم من طوائف المنافقين المذكورين بقوله: ومنهم، ومنهم اي ومنهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً.

وإن كانت مستقلة بالنزول فالوجه كون الواو استئنافية وقوله: «الذين اتخذوا» مبتدءٌ خبره قوله: «لا تقم فيه أبداً» ويمكن إجراء هذا الوجه على التقدير السابق أيضاً. وقد ذكر المفسرون في إعراب الآية وجوهاً اخرى لا تخلو عن تكلف تركناها.

وقد بيَّن الله غرض هذه الطائفة من المنافقين في اتخاذ هذا المسجد وهو الضرار بغيرهم والكفر والتفريق بين المؤمنين والإرصاد لمن حارب الله ورسوله. والأغراض المذكورة خاصة ترتبط الى قصة خاصة بعينها. وهي على ما اتفق عليه أهل النقل أن جماعة من بني عمرو بن عوف بنوا مسجد قُبا وسألوا النبي أن يصلي فيه فصلى فيه فحسدهم جماعة من بني غنم بن عوف وهم منافقون فبنوا مسجداً الى جنب مسجد قبا ليضروا به ويفرقوا المؤمنين منه

وينتظروا لأبي عامر الراهب الذي وعدهم أن يأتيهم بجيش من الروم ليخرجوا النبي ﷺ من المدينة، وأمرهم أن يستعدوا للقتال معهم.

ولما بنوا المسجد أتوا النبي ﷺ وهو يتجهز الى تبوك وسألوه أن يأتيه ويصلي فيه ويدعو لهم البركة فوعدهم الى الفراغ من أمر تبوك والرجوع الى المدينة فنزلت الآيات.

فكان مسجدهم لمضارّة مسجد قبا، وللكفر بالله ورسوله، ولتفريق المؤمنين المجتمعين في قبا، ولإرصاد ابي عامر الراهب المحارب لله ورسوله من قبل، وقد أخبر الله سبحانه عنهم أنهم ليحلفن إن أردنا من بناء هذا المسجد إلّا الفعلة الحسنى وهو التسهيل للمؤمنين بتكثير معابد يعبد فيها الله، وشهد تعالى بكذبهم بقوله: « وليحلفن إن أردنا إلّا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون ».

قوله تعالى: ﴿ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً ﴾ الى آخر الآية، بدء بنهي النبي ﷺ عن أن يقوم فيه ثم ذكر مسجد قبا ورجّح القيام فيه بعدما مدحه بقوله: « لمسجد أُسس على التقوى من اول يوم أحق أن تقوم فيه » فمدحه بحسن نية مؤسسيه من اول يوم وبنى عليه رجحان القيام فيه على القيام في الضرار.

والجملة وإن لم تفد تعيّن القيام في مسجد قبا حيث عبّر بقوله: أحقّ، غير أن سبق النهي عن القيام في مسجد الضرار يوجب ذلك، وقوله تعالى: « فيه رجال يحبّون أن يتطهروا » تعليل للرجحان السابق، وقوله: « والله يحب المطهّرين » متمم للتعليل المذكور، وهذا هو الدليل على أن المراد بقوله: « لمسجد أُسس » الخ: هو مسجد قبا لا مسجد النبي او غيره.

ومعنى الآية: لا تقم أي للصلاة في مسجد الضرار ابداً، أُقسم، لمسجد قبا الذي هو مسجد أُسس على تقوى الله من اول يوم أحق وأحرى أن تقوم فيه للصلاة وذلك أن فيه رجالاً يحبون التطهر من الذنوب أو من الأرجاس والأحداث والله يحب المطهّرين وعليك أن تقوم فيهم.

وقد ظهر بذلك أن قوله: «لمسجدٌ أُسس» الخ؛ بمنزلة التعليل لرجحان المسجد على المسجد وقوله: «فيه رجال» الخ؛ لإفادة رجحان أهله على أهله، وقوله الآتي: «أفمن أُسس بنيانه» الخ؛ لبيان الرجحان الثاني.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ﴾ الى آخر الآية؛ شفا البئر طرفه. وجرف الوادي جانبه الذي انحفر بالماء أصله وهار الشيء يهار فهو هائر وربما يقال: هارٍ بالقلب وانهار ينهار انهياراً اي سقط عن لين فقوله: «على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم» استعارة تخييلية شبّه فيها حالهم بحال من بنى بنياناً على نهاية شفير واد لا ثقة بثباتها وقوامها فتساقطت بما بني عليه من البنيان وكان في أصله جهنم فوقع في ناره، وهذا بخلاف من بنى بنيانه على تقوى من الله ورضوان منه اي جرى في حياته على اتّقاء عذاب الله وابتغاء رضاه.

وظاهر السياق أن قوله: «أفمن أُسس بنيانه على تقوى» الخ؛ وقوله: «أم من أُسس بنيانه على شفا جرف» الخ؛ مثلان يمثل بهما بنيان حياة المؤمنين والمنافقين وهو الدين والطريق الذي يجريان عليه فيها فدين المؤمن هو تقوى الله وابتغاء رضوانه عن يقين به، ودين المنافق مبني على التزلزل والشك.

ولذلك أعقبه الله تعالى وزاد في بيانه بقوله: «لا يزال بنيانهم» يعني المنافقين «الذي بنوا ريبة» وشكاً «في قلوبهم» لا يتعدي الى مرحلة اليقين «إلّا أن تقطّع قلوبهم» فتتلاشى الريبة بتلاشيها «والله عليم حكيم» ولذلك يضع هؤلاء ويرفع اولئك.

١١١ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ
ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ

حَقّاً فِي التَّوْراةِ وَٱلْإِنْجِيلِ وَٱلْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ
ٱللّٰهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْعَظِيمُ.

١١٢ ● التّائِبُونَ ٱلْعابِدُونَ ٱلْحامِدُونَ السّائِحُونَ الرّاكِعُونَ
السّاجِدُونَ ٱلْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ
وَٱلْحافِظُونَ لِحُدُودِ ٱللّٰهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ.

١١٣ ● ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ
كانُوا أُولِي قُرْبىٰ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ
ٱلْجَحِيمِ.

١١٤ ● وَما كانَ ٱسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيّاهُ
فَلَمّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّٰهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوّاهٌ حَلِيمٌ.

١١٥ ● ـلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدٰيهُمْ حَتّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ ما

بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ
ٱللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ.

١١٩ ❁ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ.

١٢٠ ❁ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا
عَنْ رَسُولِ ٱللَّهِ وَلاَ يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلاَ
يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ
لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ.

١٢١ ❁ وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا
كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

١٢٢ ❁ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ
طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ
لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ.

١٢٣ ❁ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ
وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ

ٱلْجَنَّةَ ﴾ الى آخر الآية : الاشتراء هو قبول العين المبيعة بنقل الثمن في المبايعة .

والله سبحانه يذكر في الآية وعده القطعي للذين يجاهدون في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم بالجنة ، ويذكر أنه ذكر ذلك في التوراة والانجيل كما يذكره في القرآن .

وقد قلبه سبحانه في قالب التمثيل فصوّر ذلك بيعاً ، وجعل نفسه مشترياً والمؤمنين بايعين ، وأنفسهم وأموالهم سلعة ومبيعاً ، والجنة ثمناً ، والتوراة والانجيل والقرآن سنداً للمبايعة ، وهو من لطيف التمثيل ثم يبشر المؤمنين ببيعهم ذلك ، ويهنئهم بالفوز العظيم .

قوله تعالى: ﴿ التَّائِبُونَ ٱلْعَابِدُونَ ٱلْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ ﴾ الى آخر الآية : يصف سبحانه المؤمنين بأجمل صفاتهم ، والصفات مرفوعة بالقطع أي المؤمنون هم التائبون العابدون ، الخ : فهم التائبون لرجوعهم من غير الله الى الله سبحانه العابدون له ويعبدونه بألسنتهم فيحمدونه بجميل الثناء ، وبأقدامهم فيسيحون ويجولون من معهد من المعاهد الدينية ومسجد من مساجد الله الى غيره ، وبأبدانهم فيركعون له ويسجدون له .

هذا شأنهم بالنسبة الى حال الانفراد وأما بالنسبة الى حال الاجتماع فهم آمرون بالمعروف في السنّة الدينية وناهون عن المنكر فيها ثم هم حافظون لحدود الله لا يتعدّونه في حالتي انفرادهم واجتماعهم خلوتهم وجلوتهم ، ثم يأمر النبي ﷺ بأن يبشّرهم وقد بشّرهم تعالى نفسه في الآية السابقة ، وفيه من كمال التأكيد ما لا يقدّر قدره .

قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ ﴾ الى آخر الآيتين ، معنى الآية ظاهر غير أنه تعالى لما ذكره في الآية الثانية التي تبيّن سبب استغفار ابراهيم لأبيه مع كونه كافراً أنه تبرأ منه بعد ذلك لما تبيّن له أنه عدوّ لله ، فدلّ ذلك على أن تبيّن كون المشركين أصحاب الجحيم إنما يرشد الى عدم جواز الاستغفار لكونه ملازماً لكونهم أعداء لله فاذا تبيّن للنبي والذين آمنوا أن المشركين أعداء لله كشف ذلك لهم عن حكم ضروري وهو عدم جواز الاستغفار لكونه لغواً لا يترتب عليه أثر وخضوع

الايمان مانع أن يلغو العبد مع ساحة الكبرياء.

وذلك أنه تارة يفرض الله تعالى عدواً للعبد مبغضاً له لتقصير من ناحيته وسوء من عمله فمن الجائز بالنظر الى سعة رحمة الله أن يستغفر له ويسترحم اذا كان العبد متذللاً غير مستكبر، وتارة يفرض العبد عدواً لله محارباً له مستكبراً مستعلياً كأرباب الجحود والعناد من المشركين، والعقل الصريح حاكم بأنه لا ينفعه حينئذ شفاعة بمسألة او استغفار إلّا أن يتوب ويرجع الى الله وينسلخ عن الاستكبار والعناد ويتلبّس بلباس الذلّة والمسكنة فلا معنى لسؤال الرحمة والمغفرة لمن يأبى عن القبول، ولا للاستعطاء لمن لا يخضع للأخذ والتناول إلّا الهزؤ بمقام الربوبية واللعب بمقام العبودية وهو غير جائز بضرورة من حكم الفطرة.

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ تعليل لوعد ابراهيم واستغفاره لأبيه بأنه تحمّل جفوة أبيه ووعده وعداً حسناً لكونه حليماً واستغفر له لكونه أوّاهاً، والأوّاه هو الكثير التأوه خوفاً من ربه وطمعاً فيه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ الى آخر الآيتين؛ الآيتان متصلتان بالآيتين قبلهما المسوقتين للنهي عن الاستغفار للمشركين.

أما الآية الاولى اعني قوله: «وما كان الله ليضل» الخ؛ ففيه تهديد لمؤمنين بالإضلال بعد الهداية إن لم يتقوا ما بين الله لهم ان يتقوه ويجتنبوا منه، وهو بحسب ما ينطبق على المورد ان المشركين أعداء لله لا يجوز الاستغفار لهم والتودد اليهم فعلى المؤمنين ان يتقوا ذلك وإلّا فهو الضلال بعد الهدى، وعليك ان تذكر ما قدمناه في تفسير قوله تعالى: ﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشوني﴾ (المائدة / ٣) في الجزء الخامس من الكتاب وفي تفسير آيات ولاية المشركين وأهل الكتاب الواقعة في السور المتقدمة.

والآية بوجه في معنى قوله تعالى: ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى

يغيروا ما بأنفسهم ﴾ (الأنفال / ٥٣) وما في معناه من الآيات ، وهي جميعاً تهتف بأن من السنّة الإلهية ان تستمر على العبد نعمته وهدايته حتى يغير هو ما عنده بالكفران والتعدي فيسلب الله منه النعمة والهداية .

وأما الآية الثانية أعني قوله : « إن الله له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير » فذيلها بيان لعلة الحكم السابق المدلول عليه بالآية السابقة وهو النهي عن تولي أعداء الله او وجوب التبري منهم اذ لا وليّ ولا نصير حقيقة إلّا الله سبحانه وقد بينه للمؤمنين فعليهم بدلالة من إيمانهم ان يقصروا التولي عليه تعالى او من أذن في توليهم له من اوليائه وليس لهم ان تعتدوا ذلك الى تولي أعدائه كائنين من كانوا .

وصدر الآية بيان لسبب هذا السبب وهو ان الله سبحانه هو الذي يملك كل شيء وبيده الموت والحياة فإليه تدبير كل امر فهو الوليّ لا وليّ غيره .

وقد ظهر من عموم البيان والعلة في الآيات الأربع ان الحكم عام وهو وجوب التبري او حرمة التولي لأعداء الله سواء كان التولي بالاستغفار او بغير ذلك وسواء كان العدو مشركاً او كافراً او منافقاً او غيرهم من اهل البدع الكافرين بآيات الله او المصرّين على بعض الكبائر كالمرابي المحارب لله ورسوله .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ ٱلَّذِينَ ﴾ الى آخر الآيتين ؛ الساعة مقدار من الزمان فساعة العسرة الزمان الذي تعسّر فيه الحياة لابتلاء الانسان بما تشق معه العيشة عليه كعطش او جوع او حر شديد او غير ذلك ، والزيغ هو الخروج من الطريق والميل عن الحق ، وإضافة الزيغ الى القلوب وذكر ساعة العسرة وسائر ما يلوح من سياق الكلام دليل على ان المراد بالزيغ الاستنكاف عن امتثال امر النبي ﷺ والخروج عن طاعته بالتثاقل عن الخروج الى الجهاد او الرجوع الى الأوطان بقطع السير تحرجاً من العسرة والمشقة التي واجهتهم في مسيرهم .

والتخليف ـ على ما في المجمع ـ تأخير الشيء عمن مضى فأما تأخير الشيء عنك في المكان فليس بتخليف، وهو من الخلف الذي هو مقابل لجهة الوجه يقال، خلفه أي جعله خلفه فهو مخلف. انتهى والرحب هو السعة التي تقابل الضيق، وبما رحبت أي برحبها فما مصدرية.

والآيتان وإن كانت كل واحدة منهما ناظرة الى جهة دون جهة الاخرى فالاولى تبين التوبة على النبي والمهاجرين والانصار والثانية تبيّن توبة الثلاثة المخلفين مضافاً الى أن نوع التوبة على أهل الآيتين مختلف فأهل الآية الاولى او بعضهم تاب الله عليهم من غير معصية منهم، وأهل الآية الثانية تيب عليهم وهم عاصون مذنبون.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ الصدق بحسب الأصل مطابقة القول والخبر للخارج، ويوصف به الانسان اذا طابق خبره الخارج ثم لمّا عدّ كل من الاعتقاد والعزم ـ الارادة ـ قولاً توسع في معنى الصدق فعدّ الانسان صادقاً اذا طابق خبره الخارج وصادقاً اذا عمل بمااعتقده وصادقاً اذا اتى بما يريده ويعزم عليه على الجد.

وما في الآية من إطلاق الامر بالتقوى واطلاق الصادقين واطلاق الأمر بالكون معهم ـ والمعيّة هي المصاحبة في العمل وهو الاتباع ـ يدل على ان المراد بالصدق هو معناه الوسيع العام دون الخاص.

فالآية تأمر المؤمنين بالتقوى واتّباع الصادقين في اقوالهم وافعالهم وهو غير الأمر بالاتصاف بصفتهم فانه الكون منهم لا الكون معهم وهو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ الى آخر الآيتين؛ الرغبة ميل خاص نفساني والرغبة في الشيء الميل اليه لطلب منفعة فيه، والرغبة عن الشيء الميل عنه بتركه والباء للسببية فقوله: «ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه» معناه وليس لهم ان يشتغلوا بأنفسهم عن نفسه فيتركوه عند مخاطر المغازي وفي تعب الاسفار ودعثائها

ويقعدوا للتمتع من لذائذ الحياة، والظمأ العطش، والنصب التعب والمخمصة المجاعة، والغيظ أشد الغضب، والموطيء الارض التي توطأ بالاقدام.

والآية تسلب حق التخلف عن النبي ﷺ من أهل المدينة والأعراب الذين حولها ثم تذكر ان الله قابل هذا السلب منهم بأنه يكتب لهم في كل مصيبة تصيبهم في الجهاد من جوع وعطش وتعب وفي كل أرض يطئونها فيغيظون به الكفار أو نيل نالوه منهم عملاً صالحاً فانهم محسنون والله لا يضيع أجر المحسنين، وهذا معنى قوله: «ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ» الخ.

ثم ذكر أن نفقاتهم صغيرة يسيرة كانت أو كبيرة خطيرة وكذا كل واد قطعوه فانه مكتوب لهم محفوظ لأجلهم ليجزوا به أحسن الجزاء.

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ غاية متعلقة بقوله: «كتب لهم» أي غاية هذه الكتابة هي ان يجزيهم بأحسن أعمالهم. وإنما خص جزاء أحسن الاعمال بالذكر لأن رغبة العامل عاكفة عليه، أو لأن الجزاء بأحسنها يستلزم الجزاء بغيره. أو لأن المراد بأحسن الاعمال الجهاد في سبيل الله لكونه أشقّها وقيام الدعوة الدينية به.

وههنا معنى آخر وهو ان جزاء العمل في الحقيقة إنما هو نفس العمل عائداً الى الله فأحسن الجزاء هو أحسن العمل فالجزاء بأحسن الأعمال في معنى الجزاء بأحسن الجزاء ومعنى آخر وهو ان يغفر الله سبحانه سيئاتهم المشوبة بأعمالهم الحسنة ويستر جهات نقصها فيكون العمل أحسن بعدما كان حسناً ثم يجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون فافهم ذلك وربما رجع المعنيان الى معنى واحد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ السياق يدل على ان المراد بقوله: «لينفروا كافة» لينفروا وليخرجوا الى الجهاد جميعاً، وقوله: «فرقة منهم» الضمير للمؤمنين الذين ليس لهم ان ينفروا كافة، ولازمه ان يكون النفر الى النبي ﷺ منهم.

فالآية تنهي مؤمني سائر البلاد غير مدينة الرسول ان ينفروا الى الجهاد كافة بل يحضّضهم ان ينفر طائفة منهم الى النبي ﷺ للتفقه في الدين، وينفر الى الجهاد غيرهم.

والانسب بهذا المعنى ان يكون الضمير في قوله: «رجعوا» للطائفة المتفقهين، وفي قوله «اليهم» لقومهم والمراد اذا رجع هؤلاء المتفقهون الى قومهم، ويمكن العكس بأن يكون المعنى: اذا رجع قومهم من الجهاد الى هؤلاء الطائفة بعد تفقههم ورجوعهم الى اوطانهم.

ومعنى الآية لا يجوز لمؤمني البلاد ان يخرجوا الى الجهاد جميعاً فهلّا نفروا خرج الى النبي ﷺ طائفة من كل فرقة من فرق المؤمنين ليتحققوا الفقه والفهم في الدين فيعملوا به لانفسهم ولينذروا بنشر معارف الدين وذكر آثار المخالفة لاصوله وفروعه قومهم اذا رجعت هذه الطائفة اليهم لعلهم يحذرون ويتقون.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ امر بالجهاد العام الذي فيه توسّع الاسلام حتى يشيع في الدنيا فان قتال كل طائفة من المؤمنين من يليهم من الكفار لا ينتهي إلّا باتساع الاسلام اتساعاً باستقرار سلطنته على الدنيا واحاطته بالناس جميعاً.

والمراد بقوله: «وليجدوا فيكم غلظة» اي الشدة في ذات الله وليس يعني بها الخشونة والفظاظة وسوء الخلق والقساوة والجفاء فجميع الأصول الدينية تذم ذلك وتستقبحه، ولحن آيات الجهاد ينهى عن كل تعد واعتداء وجفاء كما مرّ في سورة البقرة.

وفي قوله: «واعلموا ان الله مع المتقين» وعد إلهي بالنصر بشرط التقوى، ويؤول معناه الى إرشادهم الى ان يكونوا دائماً مراقبين لأنفسهم ذاكرين مقام ربهم منهم، وهو أنه معهم ومولاهم فهم الأعلون إن كانوا يتقون[1].

---

١. التوبة ١١١ ـ ١٢٣: بحث روائي حول: الآية «ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم ...»؛ النهي عن الاستغفار للمشركين؛ الصادقين.

١٢٤ ● وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ.

١٢٥ ● وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ.

١٢٦ ● أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ.

١٢٧ ● وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ.

١٢٨ ● لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ.

١٢٩ ● فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَاناً﴾ الى آخر الآيتين؛ نحو السؤال في قولهم: هل يراكم من أحد ؟! يدلّ على أن سائله لا يخلو من شيء في قلبه فإن هذا السؤال بالطبع سؤال من لا يجد في قلبه أثراً من نزول القرآن وكأنه يذعن ان قلوب غيره كقلبه فيما يتلقاه فيتفحص عمن أثر في قلبه نزول القرآن كأن يرى ان النبي ﷺ يدعي ان القرآن يصلح كل قلب سواء كان مستعداً مهيئاً للصلاح ام لا وهـو

لا يذعن بذلك وكلما تليت عليه سورة جديدة ولم يجد في قلبه خشوعاً لله ولا ميلاً وحناناً الى الحق زاد شكاً فبعثه ذلك الى ان يسأل سائر من حضر عند النزول عن ذلك حتى يستقر في شكه ويزيد ثباتاً في نفاقه .

وبالجملة السؤال سؤال من لا يخلو قلبه من نفاق .

وقد فصل الله سبحانه امر القلوب وفرّق بين قلوب المؤمنين والذين في قلوبهم مرض فقال : « فأما الذين آمنوا » وهم الذين قلوبهم خالية عن النفاق بريئة من المرض وهم على يقين من دينهم بقرينة المقابلة « فزادتهم » السورة النازلة « إيماناً » فإنها بإنارتها أرض القلب بنور هدايتها توجب اشتداد نور الايمان فيه ، وهذه زيادة في الكيف ، وباشتمالها على معارف وحقائق جديدة من المعارف القرآنية والحقائق الالهية ، وبسطها على القلب نور الايمان بها توجب زيادة إيمان جديد على سابق الايمان وهذه زيادة في الكمية ونسبة زيادة الايمان الى السورة من قبيل النسبة الى الأسباب الظاهرة وكيف كان فالسورة تزيد المؤمنين إيماناً فتنشرح بذلك صدورهم وتتهلل وجوهم فرحاً « وهم يستبشرون » .

« وأما الذين في قلوبهم مرض » وهم اهل الشك والنفاق « فزادتهم رجساً الى رجسهم » أي ضلالاً جديداً الى ضلالهم القديم وقد سمي الله سبحانه الضلال رجساً في قوله ﴿ **ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون** ﴾ (الأنعام / ١٢٥) والمقابلة الواقعة بين « الذين آمنوا » و « الذين في قلوبهم مرض » يفيد ان هؤلاء ليس في قلوبهم إيمان صحيح وإنما هو الشك او الجحد وكيف كان فهو الكفر ولذلك قال : « وماتوا وهم كافرون » .

والآية تدل على ان السورة من القرآن لا تخلو عن تأثير في قلب من استمعه فإن كان قلباً سليماً زادته إيماناً واستبشاراً وسروراً ، وإن كان قلباً مريضاً زادته رجساً وضلالاً نظير ما يفيده قوله : ﴿ **وتنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلّا خساراً** ﴾

(الإسراء / ٨٢).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ الآية؛ الاستفهام للتقرير أي ما لهم لا يتفكرون ولا يعتبرون وهم يرون أنهم يبتلون ويمتحنون كل عام مرة او مرتين فيعصون الله ولا يخرجون من عهدة المحنة الإلهية وهم لا يتوبون ولا يتذكرون ولو تفكروا في ذلك انتبهوا لواجب امرهم وأيقنوا ان الاستمرار على هذا الشأن ينتهي بهم الى تراكم الرجس على الرجس والهلاك الدائم والخسران المؤبد.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ الآية؛ وهذه خصيصة أُخرى من خصائصهم وهي أنهم عند نزول سورة قرآنية ـ ولا محالة هم حاضرون ـ ينظر بعضهم الى بعض نظر من يقول: هل يراكم من احد، وهذا قول من يسمع حديثاً لا يطيقه ويضيق بذلك صدره فيتغير لونه ويظهر القلق والاضطراب في وجهه فيخاف ان يلتفت اليه ويظهر السر الذي طواه في قلبه فينظر الى بعض من كان قد اودعه سره وأوقفه على باطن امره كأنه يستفسره هل يطلع على ما بنا من القلق والاضطراب احد؟

فقوله: «نظر بعضهم الى بعض» أي بعض المنافقين. وهذا من الدليل على أن الضمير في قوله في الآية السابقة: «فمنهم من يقول» أيضاً للمنافقين، وقوله: «نظر بعضهم الى بعض» أي نظر قلق مضطرب يحذر ظهور امره وانهتاك ستره، وقوله: «هل يراكم من احد» في مقام التفسير للنظر أي نظر بعضهم الى بعض نظر من يقول: هل يراكم من احد؟ ومن للتأكيد وأحد فاعل يراكم.

وقوله: ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ظاهر السياق ان المعنى ثم انصرفوا من عند النبي ﷺ في حال صرف الله قلوبهم عن وعي الآيات الالهية والايمان بها بسبب انهم قوم لا يفقهون الكلام الحق فالجملة حالية على ما يجوّزه بعضهم.

وربما احتمل كون قوله: «صرف الله قلوبهم» دعاء منه تعالى على المنافقين، وله نظائر في القرآن، والدعاء منه تعالى على احد إيعاد له بالشر.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ العنت هو الضرر والهلاك، وما في قوله: «ما عنتّم» مصدرية التأويل عنتكم، والمراد بالرسول على ما يشهد سياق الآيتين محمّد ﷺ، وقد وصفه بأنه من انفسهم والظاهر ان المراد به انه بشر مثلكم ومن نوعكم اذ لا دليل يدل على تخصيص الخطاب بالعرب او بقريش خاصة، وخاصة بالنظر الى وجود رجال من الروم وفارس والحبشة بين المسلمين في حال الخطاب.

والمعنى لقد جاءكم ايها الناس رسول من انفسكم، من اوصافه انه يشق عليه ضرّكم او هلاككم وأنه حريص عليكم جميعاً من مؤمن او غير مؤمن، وأنه رءوف رحيم بالمؤمنين منكم خاصة فيحق عليكم ان تطيعوا امره لأنه رسول لا يصدع إلّا عن امر الله، وطاعته طاعة الله، وان تأنسوا به وتحنّوا اليه لأنه من انفسكم، وان تجيبوا دعوته وتصغوا اليه كما ينصح لكم.

ومن هنا يظهر أن القيود المأخوذة في الكلام من الاوصاف اعني قوله: «رسول» و«من انفسكم» و«عزيز عليه ما عنتّم» الخ: جيمعها مسوقة لتأكيد الندب الى إجابته وقبول دعوته، ويدل عليه قوله في الآية التالية: «فان تولوا فقل حسبي الله».

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ اي وان تولوا عنكم وأعرضوا عن قبول دعوتك فقل حسبي الله لا إله إلّا هو اي هو كافي لا إله إلّا هو.

فقوله: «لا إله إلّا هو» في مقام التعليل لانقطاعه من الأسباب واعتصامه بربه فهو كاف لا كافي سواه لأنه الله لا إله غيره، ومن المحتمل ان تكون كلمة التوحيد جيىء بها للتعظيم نظير قوله: ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه﴾ (البقرة / ١١٦).

وقوله : « عليه توكلت » وفيه معنى الحصر تفسير يفسر به قوله : « حسبي الله » الدالّ على معنى التوكل بالالتزام ، وقد تقدم في بعض الابحاث السابقة ان معنى التوكل هو اتخاذ العبد ربه وكيلاً يحل محل نفسه ويتولى تدبير اموره اي انصرافه عن التسبب بذيل ما يعرفه من الاسباب ، ولا محالة هو بعض الأسباب الذي هو علّة ناقصة والاعتصام بالسبب الحقيقي الذي اليه ينتهي جميع الأسباب .

ومن هنا يظهر وجه تذييل الكلام بقوله : « وهو رب العرش العظيم » اي الملك والسلطان الذي يحكم به على كل شيء ويدبر به كل امر .

وانما قال تعالى : « فقل حسبي الله » الآية ؛ ولم يقل : فتوكل على الله لإرشاده الى ان يتوكل على ربه وهو ذاكر هذه الحقائق التي تنوّر حقيقة معنى التوكل ، وان النظر المصيب هو ان لا يثق الانسان بما يدركه من الأسباب الظاهرة التي هي لا محالة بعض الأسباب بل يأخذ بما يعلمه منها على ما طبعه الله عليه ويثق بربه ويتوكل عليه في حصول بغيته وغرضه .

وفي الآية من الدلالة على عجيب اهتمامه ﷺ باهتداء الناس ما ليس يخفى فإنه تعالى يأمره بالتوكل على ربه فيما يهتم به من الأمر وهو ما تبينه الآية السابقة من شدة رغبته وحرصه في اهتداء الناس وفوزهم بالسعادة فافهم ذلك .